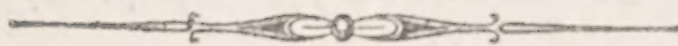
يراجعونها في المسائل التاريخيّة * ثمّ انّي اعلن لكلّ احد انّي في كلّ ذلك قد راعيتُ كرهًا منّي احوال الزمان التي وُجدتُ فيها . فربّما الجأتني هذه الضرورة الى ان اكتم ما كان حال الامر يطلب التعبير عنهُ واظهارهُ . او ان لا اقول ما انا قائلهُ الاّ بنوع من المجاملة والمسايرة . حتّى انّ عبارتي ربّما جاءَت معقدة من سبب ذلك * هذا وقد اهملتُ ذكر الاسانيد التي نقلتُ عنها رواياتي تبعًا للطريقة التي سلكها المؤلّف الفرنساوي . فمن شآءَ ان يقف على حقيقة الأَسناد التي استندتُ عليها في روايةٍ ايًّا كانت من الروايات التي اتيتُ بها في هذا الكتاب . فاقرّر اني مستعدّ ان اجيب الى طلبتهِ راضيًا مسرورًا * والحمد لله ربّ العالمين اوّلاً وآخرًا] *



الفسوس والعلمانيّين . فرفضوا تحديد المجمع الواتكاني. وانفردوا عن سائر الكاثليكيّين الذين في العالم كلّهِ . وسمّوا انفسهم الكاثليكيّين العتق . ثمّ بعد شهور آل امرهم الى الزوال قليلاً قليلاً اذ انّ قائدهم نفسهُ وهو المعلّم دُلّنْجَر ارعوى ورجع عن غيّهِ *

وامّا المجمع الواتكاني فبعد الجلسة الرابعة احتاج ان يستريح من الاتعاب والمواظبات التي كان قد انعكف عليها الى ذلك اليوم . فأَوقف الاشغال المتعبة . وكثيرون من آبآء المجمع استاذنوا في الذهاب الى ديارهم * وفي اثنآء ذلك شبّت الحرب بين دولة فرنسا ودولة بروسيا . ثمّ بعد قليل انتهز الفرصة اهل ايطاليا اولوا البغي والجور وهجموا على مدينة رومية . وحاصروها مدّة ساعات قليلة . ثمّ فتحوها واستملكوها ونشروا لوآءهم فيها . وابطلوا حكم البابا صاحبها . والزموهُ ان يحبس نفسهُ في قصرهِ الواتكاني الى هذا اليوم . وارتكبوا غير ذلك من المحرّمات في تلك المدينة المقدّسة ممّا يطول شرحهُ * فابرز البابا عند ذلك منشورًا بهِ اوقف المجمع الواتكاني الى زمن غير محدّد اي الى ان تصطلح احوال رومية . وترجع جميع الاساقفة الذين كانوا قد بقوا في تلك المدينة الى ديارهم . وبقي البابا محبوسًا في قصرهِ محرومًا من كلّ شيءٍ سوى ازدياد حبّ المسيحيّين المحقّين لهُ واحترامهم لسلطنتهِ * ولكن سياتي اليوم (ولعلّهُ ليس بعيدًا) الذي فيهِ ينشل الله عزّ

وجلّ كنيستهُ المحبوبة من هذه الشدّة . كما نشلها احياناً كثيرة من امثالها واعظم منها . لانهُ قد وعدها ان يكون معها الى انقضاء الدهور] *

الخاتمة

[قال مذيّل هذا الكتاب : الى هنا كان ما رايتُ ان احشّي بهِ ما حواهُ مختصر تواريخ الكنيسة الذي الّفهُ العلاّمة لومون الفرنساويّ واذيّلهُ بهِ . مقتصراً في كلّ ذلك ومقصّراً على قدر ضعف قريحتي الفاترة . مماّ رايتهُ مستحقّاً ان يُذكَر . وان يكون موضوعاً لتهذيب خواطر المبتدئين في هذا العلم الجليل . ولاسيّما ما يختصّ بالطوائف الشرقيّة من الفوائد والتعريفات التي قلّما توجد في الكتب المبذولة * وقد جمعتُ هذه الفوائد وحصّلتها بغير قليل من التعب والمشقّة من صُحُف افضل المؤلّفين المعتمد عليهم الثقات . ولاسيما المؤرّخين الشرقيّين الذين لم تتداول كتبهم ايدي الافرنجيّين * وقد التزمتُ في كل ذلك طريقة الاختصار التي سلكها صاحب الكتاب الفرنساويّ . وانّما قد جاوزتُ احياناً قليلة هذه القاعدة وذهبتُ الى تفاصيل دقيقة رغبةً في زيادة المنفعة للطلبة العربيّين الذين قلّما يتيسّر لهم ان يجدوا كتباً

اي الى شهر تموز * فعُقدت الجلسة الرابعة الكبيرة في ١٨ من ذلك الشهر بحضور بيوس التاسع الحبر الاعظم وترؤسهِ . وهناك برز الحكم العظيم الذي كان كلّ العالم ينتظرهُ بشوق وحرقة في حقيقة رياسة الحبر الروماني خليفة بطرس الرسول وامتدادها وقوّتها . وحُدّد انّ المسيح لهُ المجد اذ نصب لهُ كنيسةً على الارض لا تقدر ابواب الجحيم ان تقهرها اي لا يمكن ان تشرد ابدًا عن جادّة الحقّ وتقع في الضلال . واسّسها على بطرس الرسول وعلى خلفائهِ في الكرسيّ الذي جلس فيهِ الى موتهِ اي في كرسي رومية . ونصب بطرس راعيًا عامًّا لكنيستهِ كلّها . وفوّض اليهِ ان يثبّت اخوتهُ . قد جعل هذا الرسول من حيث هو راس الكنيسة معصومًا من الضلال ليمكنهُ ان يحفظ اخوتهُ من الضلال في كلّ ما يتعلّق بالايمان واستقامة الدين . واعطى ايضًا خلفاءهُ الذين يجلسون في كرسيهِ الى انقضاء العالم هذه الرياسة نفسها من حيث انّ الكنيسة في كلّ وقت تحتاج الى راس يسوسها بالسلطان الاعظم الأوّل الذي لا يرَدّ حكمهُ ويهديها في كلّ ما يتعلّق بالدين * وختم رئيس المجمع وهو البابا بيوس التاسع هذا التحديد قائلاً : «اننا برضى هذا المجمع المقدّس نعلّم تابعين التسليم الذي تقلّدتهُ الآباء منذ انشاء دين المسيح ومتمسّكين بهِ تمسّكًا تامًّا . ونحتم ونحدّد أَنّ من ابواب المعتقد الذي اوحى بهِ الله انّ الحبر الروماني

متى نطق من الكرسيّ اي متى استعمل الولاية التي هو متولّيها على جميع المسيحيّين من حيث هو راعيهم ومعلّمهم وحدّد بسلطانهِ السامي الرسولي التعليم الذي يجب على الكنيسة باسرها ان تتمسّك بهِ في ما يتعلّق بالايمان او بصلاح السيرة. كان حاصلاً على الأَيد الالهيّ الذي وُعد بهِ على يد بطرس الرسول ومعصوماً من الضلال بتلك العصمة التي بها مخلّصنا الالهيّ اراد ان يعصم كنيستهُ اذا حدّدت التعليم المتعلّق بالايمان او بصلاح السيرة. ولذلك كانت تحديدات الحبر الروماني الصادرة بهذه الصورة ثابتةً من نفسها لا تقبل الردّ. ولا تحتاج الى رضا الكنيسة لتكون ثابتة» * ولمّا شاع خبر هذا التحديد من المجمع الواتكاني. تناقلتهُ بشائر الافراح في كلّ الكنيسة. وتهلّل بهِ ابتهاجاً المومنون الصادقون في العالم كلّهِ * وكان قليل من الاساقفة الجرمانيّين والفرنساويّين والشرقيّين قد ابوا ان يمضوا هذا التحديد. لانّهم ظنّوا ان لم يكن حاجةٌ اليهِ او انْ لم يكن الزمان موافقاً لبروزهِ. الاّ انّهم بعد ذلك اثبتوهُ وامضوهُ كلّهم اجمعون * وهكذا في قليل من الزمان لم يبقَ بطريرك ولا مطران ولا اسقف ولا جماعة في العالم الكاثليكيّ كلّهِ غرباً وشرقاً الاّ وقبلوا هذا التحديد الواتكاني وامضوهُ مصرّحاً. سوى احد المعلّمين في جرمانيا يقال لهُ دُلِنْجَر كان قد قاوم هذه الحقيقة بكلّ قوّتهِ في مصنّفات ضلاليّةٍ شتّى. وتحزّب لهُ نفرٌ من

بحيث يهون عليهم الفحص والحكم • وكان اولئك المختارون لهذه الوظيفة الصعبة كلّهم اجمعون لاتينيّين . الاّ واحدًا منهم فقط كان شرقيًّا من الطائفة السريانيّة من مدينة الموصل *

ولمّا دنا اليوم العظيم المعيّن لافتتاح المجمع وهو يوم ٨ كانون الأوّل سنة ١٨٦٩ . وكان الاساقفة وسائر من لهُ حقّ الحضور في المجامع المسكونيّة قد تقاطروا الى مدينة رومية من الدنيا كلّها . وقد أُعدّ وزُخرف الجنح الواحد من كنيسة مار بطرس الكبرى المسمّاة الواتِكان ليُعقَد فيهِ المجمع . ومنهُ سُمّي هذا المجمع الواتِكاني . جرى الافتتاح الجليل بكلّ ما يمكن من الرهج والعظمة *

وكان عدد الآباء المجتمعين الى المجمع قد بلغ نحو الستّين وسبع المائة . ستّ مائة وتسعون منهم كانوا لاتينيّين . والباقون من الطقوس الشرقيّة : اي واحد وعشرون من الارمن . وعشرة من الكلدان . وعشرة من الملكيّين . وسبعة من السريان . واربعة من الموارنة . وثلاثة من اليونانيّين واثنان من البغدان . وواحد من القبط . وواحد من البلغار . وواحد من الروثان • وحضر جميع البطاركة الشرقيّين . الاّ بطريرك الموارنة اذ كان منحرف المزاج *

وبعد الجلسة الاولى الاحتفاليّة التي بها صار افتتاح المجمع كان الآباء يجتمعون في كلّ اسبوع مرّتين او اكثر ويتفاوضون ويتباحثون في الموادّ التي كانت تُعرَض عليهم ليفحصوها ويحكموا فيها . ثمّ في

الجلسات الاحتفالية كانوا يبرمون ما كانوا يتفقون عليه * وفي عيد الدنح ٦ كانون الثاني سنة ١٨٧٠ عُقدت الجلسة الثانية الكبيرة بحضور البابا . وفيها صار اقرار من جميع آباء المجمع بقبول قوانين سائر المجامع المسكونيّة السابقة وبالمعتقد الكاثليكي بابا بابا * وفي الاحد الجديد ٢٤ نيسان عُقِدت الجلسة الثالثة الكبيرة بحضور البابا ايضاً . وفيها حُدّدت قوانين في ابواب المعتقد الكاثليكي المبطِّلة مذاهب الفلاسفة المتجدّدين واضاليل الكفّار المتأخّرين * ثمّ انّ المجمع كان مزمعاً ان يباشر البحث عن سائر ابواب المعتقد وما يتعلَّق بسياسة الكنيسة واستحكام شرعها بالترتيب اللائق . الاّ انهُ حدث ان وافت الى آباء المجمع طلبات وتوسّلات وتضرّعات من كلّ ناحية ومن كل قطر من الدنيا لكي يباشروا مسألة رياسة الحبر الاعظم رأس الكنيسة الكاثليكيّة ويفصّلوها تفصيلاً كافياً ويشرحوها شرحاً وافياً . ولو لم يكن قد حان زمان البحث عن هذا الباب في ترتيب المسائل التي تولّى المجمع النظر فيها وابراز الحكم في امرها . وذلك لدحض الاضاليل الكثيرة التي كانت شائعة بين اعداء الكنيسة من جهة هذه المسألة وتعديل أفكار المومنين نفسهم وتحذيرهم من خدائع الضالّين ومكايد المضلّين * فشرع المجمع يتباحث ويتفاوض عن هذا الباب من المعتقد الكاثليكي . واستقصى الامر واستوعبهُ مدّة طويلة من الزمان

كلّ ابرشيّة . ليسطروا اجوبتها ويرسلوها الى الكرسيّ المقدّس . فيطّلع الكرسي المقدّس على احوال كلّ ابرشيّة واحتياجاتها الروحيّة . فيدبّر ما يقتضي ويتيسّر من العلاج لكلّ منها] *

الفصل الثاني عشر

في افتتاح المجمع الواتكاني المسكوني (سنة ١٨٦٩) وتوقيفهِ

[انّ اجلّ ما اشتهرت بهِ حبريّة البابا بيوس التاسع افتتاحهُ المجمع المسكونيّ في روميّة العظمى كما كان قد اخبر في سنة ١٨٦٧ محفل الاساقفة العظيم الذين كانوا بين يديهِ * وذلك انّ بيوس التاسع في منشور اصدرهُ في ٣ تموز سنة ١٨٦٨ الى جميع اساقفة العالم الكاثليكي والى روساء الاديرة الذين يحقّ لهم ان يحضروا المجامع المسكونيّة . بشّرهم بعزمهِ ان يفتح مجمعاً مسكونيّاً في ٨ كانون الاول سنة ١٨٦٩ في رومية نفسها لابرام رسوم وقوانين تُضبَط بها وترتّب امور الكنيسة الجامعة . ودعاهم جميعاً الى الحضور بدون استثناء احد . الاّ من كان معذوراً فاوجب عليهِ ان يوكّل لهُ وكيلاً يحضر بدلهُ في المجمع * ثمّ انّ بيوس التاسع في ٨ ايلول من سنة ١٨٦٨ اصدر منشوراً آخر الى جميع اساقفة الشِيَع الشرقيّة الغير الكاثليكيّة اي الروم والنساطرة واليعاقبة والارمن والقبط

بهِ يدعوهم قاطبةً الى حضور المجمع العتيد فتحهُ كما كان اجدادهم قد حضروا المجمع اللغدوني والمجمع الفلورنتيني . ليكون ذلك لهم سبباً لابطال الشقاق ولنوال الصلح مع الكنيسة الرومانيّة . فيكون كما قال المسيح رعيّة واحدة لراعٍ واحد * ثمّ في تاريخ ١٢ ايلول من تلك السنة اصدر منشوراً آخر الى هراطقة اوروبا وهم البرتستنت وغيرهم يحثّهم ويحرّضهم ان ينتبهوا بفرصة المجمع المزمع فتحهُ ويفيقوا من ضلالهم ويبصروا حقّ الديانة الكاثليكيّة ومجدها * ولكنّ جميع أصناف اولئك المبغضين للكنيسة الكاثليكيّة لم يسمع منهم احد صوت حبرها الاعظم . وجميع البطاركة والاساقفة المشاقّين استعفوا من حضور المجمع بحجّةٍ او اخرى . وشابهوا اولئك الذين في المثل الذي ضربهُ المسيح في انجيلهِ المقدّس دُعوا الى عرس ابن الملك فابوا أَنْ يجيبوا الى الدعوة * ثمّ انّ البابا بعدما اعلن افتتاح المجمع كما ذكرنا . اختار اكثر من تسعين شخصاً من ذوي العلم الفائق والفضل المشهور من العالم كلّهِ . وقسّمهم الى ستّ قِسَم . قسمة لعلم اللاهوت . والاخرى للفقه البيعي . والثالثة للامور المختصّة بالطوائف الشرقيّة والمرسليّات . والرابعة للرهبانيّة . والخامسة للسياسة البيعيّة . والسادسة لنظام المجمع . وفوّض الى كلّ من هذه القِسَم ان تواظب على الدرس والمطالعة والبحث الدقيق في المطلب الذي يخصّها . ليهيّئوا الموادّ المقتضية ان تُعرَض على آباء المجمع ويرتّبوها

على كل ما سبق * ولذلك فمنذ عيد الحبل بسيدتنا العذرآء السابق لذلك العيد اصدر برآءة بها ابان عن ارادتهِ هذه . وعزم ان يقضي في موسم ذلك العيد رسم تقديس خمسة وعشرين شخصًا من الصلحاء كانوا قد استشهدوا باعطاء اعناقهم في حق دين المسيح او ماتوا بكرامة القداسة وكانت الكنيسة تطلب من راسها الحبر الاعظم ان يثبت قداستهم بسلطانهِ ليحلّ للمومنين ان يكرموهم بهذا الاسم * ولهذه الغاية العظيمة استدعى بمنشور سلطاني جميع بطاركة الدنيا والمطارنة والاساقفة ان يجتمعوا في رومية لليوم المعيّن وهو يوم ٢٩ حزيران * فشرعت الناس تتقاطر الى تلك المدينة من كلّ اقطار الدنيا افواجًا بل جماهير . وفي يوم ٢٤ حزيران بلغ عدد الذين كانوا في رومية من كردنالات وبطاركة ومطارنة واساقفة واحدًا وتسعين وثلاثماية . وكان من الرهبان والقسوس الغربآء ما ينيف على خمسة آلاف * وفي نحو اواسط شهر حزيران اخذ الحبر الاعظم يجمع اليهِ الاساقفة الموجودين في رومية ويتفاوض معهم في امر تقديس اولئك الصلحآء المارّ ذكرهم . حتى دنت ليلة الموسم الشريف . فجمع الحبر الاعظم الاساقفة جمعًا محتفلاً . وخطبهم بخطبة رائقة مستوفية . فيها اطلعهم على نيتهِ بان يعقد مجمعًا مسكونيًا في رومية في الوقت المناسب * ثمّ لما حان العيد الجليل المنتظر اي يوم ٢٩ حزيران . اجتمع الاحبار العظمآء

والذوات الكرماء الى كنيسة ماربطرس مع الحبر الاعظم. وكانت تلك الكنيسة قد هُيّئت وزُيّنت برونق وجلالة واحتفال مما لم يسبق مثلهُ. فجرى اولاً رسم الحكم بقداسة الصلحاء الذين مرّ ذكرهم بحسب الاصطلاح الجاري. ثم قدّس القدّاس البابا نفسهُ كعادة كل سنة * وفي اليوم الاوّل من شهر تموز اجتمع الاحبار في قصر البابا. وهناك قام احد الكردنالات. وباسم جميع الكردنالات والبطاركة والمطارنة والاساقفة الذين كانوا حاضرين وكانوا من كل امةٍ وكلّ جنس من الشرق والغرب (وبلغ عددهم ٤٨٥) تلا خطبةً بليغة. فيها يظهرون سرورهم وابتهاجهم بالاعياد التي دعاهم اليها الحبر الاعظم. ويشكرونهُ على ذلك وعلى كلّ همهِ التي بذلها في مصالح الكنيسة. ويقرّرون خضوعهم واحترامهم البليغ للكرسيّ الرسولي المقدّس. ويوسعون ذمّاً وملامةً القوم الذين كانوا يتجاسرون ان يسلبوا من ذلك الكرسيّ البطرسي حقوقهُ المدنيّة. ويتمنّون منهُ ان ينجز الوعد الذي وعدهم بهِ بفتح مجمع مسكوني في رومية * فجاوبهم بيوس بما يليق من الكلام اللطيف. واثنى عليهم. وبارك عليهم وعلى اهالي كنائسهم. واطلقهم مسرورين مندهشين بما رأوا وسمعوا * وقبل ان ينصرف الاساقفة من روميةّ الى مراعيهم كان الكرسي المقدّس قد قدّم لكلّ منهم صحيفةً تحوي مسائل عددها سبع عشرة في احوال نظام السياسة واجراء الشريعة البيعيّة في

المحفل العظيم بين الرهج والافراح والتهاليل العمومية ابرز القضية الجليلة بكون سيدتنا مريم العذرآء امّ المسيح قد حُبِل بها بلا دنس. وقال «اننا بحول ربنا يسوع المسيح وسلطان الرسولين المغبوطين بطرس وبولس وسلطاننا نقرر ونحدد انّ مريم العذرآء القديسة منذ اوّل دقيقة من حبل امّها بها قد صانها الله من كلّ دنس الخطيّة الاصليّة. وانّ هذا التعليم قد اوحى الله بهِ * فمن تجاسر ان يزعم خلاف ذلك. فليعلم انهُ محجوب وانهُ قد خرج من الايمان الكاثليكي» * فاقتبلت جماعات الكاثليكيين كلها قاطبةً في العالم باسرهِ هذا التحديد الذي برز من فم خليفة بطرس الرسول نائب المسيح على الارض. واعترفوا بهِ واحتفلوهُ بالفرح والابتهاج * ومن ذلك الحين لا يحلّ لاحد ان يشكّ في حقيقة هذا المعتقد * الاّ انّ اعدآء الحقّ الماردين كعادتهم اغتنموا هذه الفرصة ليسنّوا السنتهم على الكنيسة الكاثليكيّة ويفتروا عليها باكاذيب تخزي قائليها * فانهم لم يستحيوا ان يقولوا انّ الكنيسة بذلك التحديد قد اخترعت معتقداً جديداً لم يكن موجوداً قبلاً * والحال انّ هذا مينٌ وافترآء محض لا يُحتَمَل. فانهُ في القرن الخامس نفسهِ كان مار اوغسطينُس الملفان العظيم يعلّم انّ الخطيّة الاصليّة لم تدنُ من سيدتنا العذرآء. والمجمع التريدنتيني في القانون الذي بهِ حدّد المعتقد بسقوط جميع اولاد آدم في الخطيّة الاصليّة صرّح

بانَّهُ ليست نيَّتهُ ان يشمل امَّ المسيح في هذا الحدّ * والكنائس الشرقيَّة كلّها منذ القديم تصف في صلواتها وعباداتها سيدتنا مريم بكونها مالكةً كلَّ القداسة. وبانَّ الله قدَّس نفسها منذ كانت في الرحم. وبانَّ الخطيَّة الاولى لم تدنّسها لانّها اختيرت ان تكون واسطةً لانقاذ البشر من تلك الخطيَّة * وناهيك انَّ الكنيسة الغربيَّة والشرقيَّة منذ قديم الزمان قد عيَّدتا عيد الحبل بالعذراء. أَوَ يمكن ان تعيّد الكنيسة لحبَلٍ لا تعتقدهُ طاهرًا من كلّ عيب] *

الفصل الحادي عشر

في عيد السنة القرنيَّة لاستشهاد بطرس وبولس الرسولين (سنة ١٨٦٧)

[انَّ من مآثر البابا بيوس التاسع التي بها اشتهرت بابويتهُ عيد السنة القرنيَّة الذي احتفلهُ في سنة ١٨٦٧ * وذلك انَّ الكنيسة الرومانيَّة كانت قد اعتادت ان تعيّد كلَّ مائة سنة عيد استشهاد الرسولين العظيمين بطرس وبولس الواقع في ٢٩ حزيران باحتفال وأبَّهة وزخرفة زائدة عن العادة * فلمَّا كانت هذه السنة القرنيَّة قد وقعت في سنة ١٨٦٧ . اراد البابا بيوس التاسع ان يقضي عيدها بكلّ ما يمكن من الاحتفال والرهج والاجلال ويفوق

رومية . وتراجع الامان والراحة والنظام في تلك المدينة . وذلك على يد الفرنساويين الذين لم يزل عسكرهم مدّة طويلة من الزمان محافظاً على تلك البلاد] *

الفصل العاشر

في تحديد المعتقد بالحبل بسيّدتنا العذرآء بلا عيب (سنة ١٨٥٤)

[انّ الكنيسة الكاثليكيّة اعتقدت في كل زمان وكل مكان انّ سيّدتنا مريم العذرآء امّ المسيح قد صانها الله من درن الخطيّة الاصليّة منذ اوّل دقيقة من وجودها في حشا امّها . اذ كان سبحانهُ قد جعل نظرهُ الالهيّ عليها واختارها من بين جميع النسآء لتعطي لحماً من لحمها ودماً من دمها لابن الله الازليّ المتنازل لافتدآء البشر . وتكون هيكلاً لهُ اذ تحملهُ تسعة اشهر في بطنها . فلم يكن من اللائق بقداسة الله عزّ وجلّ وحكمتهِ وقدرتهِ ان يترك النفس السعيدة التي اختارها لتحظى بهذه المنزلة الجليلة حتّى تسمّى وتكون بالحقيقة امّاً لله ان تتدنّس ولو ساعةً من الزمان بالخطيّة الاصليّة * وهذه النعمة الجليلة التي حازتها سيّدتنا العذرآء اذ حُبِل بها طاهرةً من كلّ خطيّة قد اشير الى حقيقتها في العهد القديم والعهد الجديد باشارات غير مشبوهة . ولذلك فالآبآء القدّيسون

والملافنة منذ القديم حووا في صحفهم هذا التعليم مصرّحًا. والكنيسة الجامعة في جميع الاقطار ترنّمت في صلواتها وعباداتها على الدوام بالتهنئة للعذراء المغبوطة بهذه المنزلة الشريفة التي نالتها من الله دون سائر بني البشر * الاّ انّهُ لمّا كان هذا المعتقد لم يكن قد نصّ عليهِ مجمعٌ من الجامع واوجب التمسُّك بهِ كسائر ابواب الايمان. ولا وُجد محدّدًا في مرسوم من مراسيم الاحبار الاعظمين. قد ظهر بين طلاّب العلم من شكّ في حقيقتهِ * الكنيسة فاكتفت المقدّسة في الاوّل بالنهي عن انكار هذه القضيّة في الكتب التعليميّة او في المواعظ او في المدارس او في محلّ آخر بمحضر الجمهور. فكانت هذه القضيّة محسوبةً في نيّة الكنيسة قريبةً من ابواب المعتقد الواجب على كل مؤمن التمسّك بها والمجعول انكارها هرطقةً * الاّ انّ البابا بيوس التاسع احبّ ان يزيل كلّ شبهة عن حقيقة هذه القضيّة وان يسردها مع سائر ابواب المعتقد الكاثليكيّ * ولذلك ففي سنة ١٨٥٤ بعدما شاور جميع اساقفة العالم الكاثليكيّ وجمع رايهم وراى كنائسهم في هذا الباب من ابواب الدين المسيحي. ودعا الى مدينة رومية من الكردنالات والبطاركة والمطارنة والاساقفة جملةً بلغ عددهم ستّة وتسعين ومائة. احتفل بهم في ثامن يوم من شهر كانون الاوّل وهو عيد الحبل بسيّدتنا العذراء في كنيسة مار بطرس العظيمة. وفي ذلك

واميركا ولاسيّما ايطاليا تلهج بوصفهِ كلّ الالسن. وتطرب لمدائحهِ كلّ المسامع. وتفتخر بجمل ما يشير اليهِ كلّ الرؤوس والصدور * الاّ انّ كلّ هذا الهناء سمح الله بعد قليل من الزمان ان ينقلب الى امرّ ما يكون من المصائب التي قلّما اصاب احد الباباوات مثلها * وذلك انهُ لمّا كان في سنة ١٨٤٨ قد حدث في اوروبا ولاسيّما ايطاليا وفرنسا اضطرابٌ وقلقٌ عامٌّ. وقامت الرعيّة على حكّامها في اماكن شتّى. اتّصل هذا الدآء الى روميّة نفسها. وكان بسبب الحرّيّة التي اعطاها البابا قد تقاطر الى هذه المدينة افواجٌ كثيرة من الناس المحبّي الشجس والفتن الذين لم تكن مذاهبهم مستقيمة. فافسد هولآء عقول جانب عظيم من اهل روميّة * فتشغّبوا وافتتنوا ورفعوا لوآء العصيان على البابا. وقتلوا وزيرهُ الاعظم. وارتكبوا غير ذلك من المنكرات * فصارت الكنيسة في ضيق عظيم. واصاب الاقليرس اهانات وحقارات متنوّعة. وبعد حيرة طويلة هرب جميع الكردنالات الذين كانوا في روميّة مستخفين. وبيوس التاسع نفسهُ بمعونة سفرآء الدول الاجنبيّة خرج من روميّة متنكّرًا بزيّ قسّيس. وانطلق الى احدى مدن ايطاليا من اعمال مملكة نابلي * فاستولى اهل العصيان على مدينة رومية واعمالها تمامًا. وابطلوا سلطنة البابا. واقاموا فيها حكومةً جمهوريّة * ومكث بيوس التاسع في تلك الغربة مكسور الخاطر حزينًا على

حال الشقاء الذي حصلت فيهِ مدينتهُ ومملكتهُ ومتوجعًا على خبث اولئك الاشرار الذين اطغاهم الشيطان. حتى تجاسروا ان يسلبوا سدّة بطرس الرسول العظيمة ويرتكبوا فيها تلك المنكرات التي يتمزّق القلب لذكرها * الاّ انّ نائب المسيح تسلّى غير قليل عن الم هذه الفجعة بما كان يرد اليهِ من كلّ اقطار الدنيا من رسائل التعزية والانقياد والخضوع والاقرار الموطّد بحقوقهِ الرسليّة. وذلك من الاساقفة والروساء والامراء والملوك وكل صنف من الناس * ولكن من بين هولاء كلّهم انجبت الامّة الفرنساويّة اكثر ما يكون. فلم تكتفِ بان تسلّي البابا المحزون بالكلام والكتب والرسائل. بل ارادت ان تؤدّي ذلك بالعمل وتصنع اليهِ صنيعًا عظيمًا يخلد ذكرهُ في صحف التواريخ الدهريّة * وذلك انّ الامّة الفرنساويّة مع كونها قبل سنة قد طردت ملكها وابطلت الحكومة الملكيّة واقامت لها حكمًا جمهوريًا. ارسلت عسكرها الى رومية ليستردّوها من ايدي الذئاب الذين كانوا قد استولوا عليها * فحاصروها منذ اواخر شهر ايار سنة ١٨٤٩. وطال بهم حصارها مدّة شهرين. لانّ الفرنساويّين لم يشاءوا ان يصدّعوا الدور والقصور والاديرة والبيع التي بها تفتخر تلك المدينة على سائر مدن الدنيا * ثمّ فتحوها بالامان. وارجعوها الى يد صاحبها * وبعد قليل من الزمان رجع البابا بيوس التاسع. واخذ زمام مملكته

منها الاَّ زمانًا يسيرًا • وفي سنة ١٨٣٠ التي فيها فتح الفرنساويّون بلاد الجزائر التي هي جزء من بلاد المغرب في افريقيّة وامتلكوها. حدثت فتنةٌ في فرنسا نفسها . فيها سقط الملك كارُلس العاشر وقام مكانهُ لويس فيلبّس الاوّل . وهذا ايضًا طُرِد من عرش الملك الفرنساويّ بعد سنين قليلة اي في سنة ١٨٤٨ * ومع انّهُ ظهر في فرنسا في ذلك العصر فحول من العلماء والفضلاء زيّنوا كنيسة الله بمصنّفاتهم وفضائلهم. كانت الكنيسة هناك في حرب غير منقطع مع روح الهرطقة وروح الكفر المتولّد من فلسفة القرن الثامن عشر * ولكنَّ الله عزّ وجلّ جزى كنيستهُ عن ذلك بانتعاش روح الديانة الحارّة والايمان العجيب في اثمارِهِ في كثير من الاشخاص المختارين. فابدعوا واتوا بما تحيّرت بهِ عقول الكفّار نفسهم من الفضائل والاعمال الخيريّة ولاسيّما اقامة الارساليّات لنشر الانجيل بين الامم المتوحّشة والتي لم يشرق عليها نور المسيح. فكان المنذرون يتراكضون من بلاد اوروبا كلّها ولاسيّما فرنسا افواجًا افواجًا . ويقصدون الاراضي الشاسعة من الصين واليابان واميركا واوقيانيا وغيرها ويتلمذون اهلها . وحدث عند ذلك انّ الله سبحانهُ عوّض الكنيسة عن الخسارات الكثيرة التي اصابتها في اوروبا لبرودة ايمان اهلها بالربوات الكثيرة التي تقاطرت الى حظيرتها من الامم الوثنيّة التي لم تكن تعرف يومًا اسم المسيح] *

الفصل التاسع

في ارتقاء بيوس التاسع البابا الى سدّة بطرس الرسول (سنة ١٨٤٦) والنوائب التي حلت بهِ (سنة ١٨٤٨)

[لمّا توفّي غريغوريوس السادس عشر البابا في شهر حزيران من سنة ١٨٤٦ . اجتمع الكردنالات كعادتهم واختاروا مكانهُ احدهم كان اسمهُ مَسْتاي فَرَّتّي . فدُعي اسمهُ بيوس التاسع * واذ كانت الكنيسة موجودة في تلك الايّام بين الاضطراب والراحة وبين الامان والخوف لسبب القلاقل المستحوذة على اهل اوروبا قاطبةً والاهوال التي كانت تتهدّد اغلب ملوكها . حصل الناس في العالم كلّهِ على سرور وفرحٍ بارتقاء بيوس التاسع الى السدّة البطرسيّة . لانّهُ كان قد اشتهر قبل جلوسهِ بسداد رايهِ وحزم عقلهِ ورزانة تدبيرهِ . فكانوا يرجون ان تكون مدّة حبريّتهِ جالبة السعد والهناء للكنيسة وانّهُ يكون من اعظم الباباوات الذين جلسوا على كرسي بطرس الرسول * وعلى الخصوص ايطاليا كلّها ولاسيّما رومية ابتهجت وارتهجت في ايّام جلوسهِ . لانّهُ افتتح حبريّتهُ بتوسيعات وتسهيلات جاد بها على اهل البلاد التي في حوزتهِ حتى اجرى فيها اصول التنظيمات التي كانت قد دخلت آنفاً في اغلب ممالك اوروبا . وصار اسم بيوس التاسع في بلاد اوروبا

يوهّمونهم سابقًا توهّمات شنيعة في حقّ القسوس الكاثليكيّين ويشوّشون افكارهم في امرهم ويخوّفونهم منهم كما يُخاف من الغُول. احسّ اولئك الذين اضافوا القسوس الفرنساويّين على فساد تلك روايات قسوسهم وفهموا انّها اكاذيب لا اصل لها * ومن ذلك الحين انتشرت الديانة الكاثليكيّة جدًّا في بلاد الانكليز. حتّى انّهُ اذ كان عدد الكاثليكيّين في تلك البلاد في مبادئ القرن التاسع عشر لا يبلغ الستّين الفًا وُجد عددهم في الاحتساب الشرعي خمساية الف سنة ١٨٢١. واضحى عددهم في سنة ١٨٤٢ الفي الف وخمساية الف * واشتهر في ذلك العصر جمٌّ غير قليل من امرآء الانكليز وأشرافهم وقسوس الشيعة الانكليكانيّة وعلمآئها الماهرين وفقهآئها الفاضلين حيث رفضوا معتقد تلك الشيعة ودخلوا حظيرة الكنيسة الكاثليكيّة. ومنهم من لبس اسكيم الرهبنة مع سموّ منزلتهِ. والعلمآء منهم جعلوا يصرفون قلمهم الذي كانوا بهِ يومًا يطعنون في الكنيسة الكاثليكيّة الى المحاماة عنها وبيان حقيقتها. وقد اصاب اولئك المتكثلكين مشقّات وخسارات شتّى لسبب خروجهم من دينهم ورجوعهم الى دين اجدادهم * وامّا الأسباب التي من اجلها كثر في ذلك العصر عدد الكاثليكيّين في بلاد الانكليز فهي شتّى. اخصّها تحرّر الكاثليكيّين من التقيد الذي كان عليهم من الحكومة في تلك البلاد * وذلك انّ الملوك كانوا قد خفّفوا رويدًا رويدًا

الى سنة ١٧٨٠ شيئًا من الثقل الذي شريعتهم الانكليكانيّة كانت قد وضعتهُ على الكاثليكيّين . وابقوا فقط فرضًا واحدًا عليهم وهو انّ كلّ من يتولّى وظيفة بيعيّة يلتزم ان يحلف يمينًا لدى ارباب الحكم انهُ ينصح الدولة الانكليزيّة ولا يخونها في شيءٍ وانّهُ يعترف بانّ البابا الروماني لا سلطان لهُ على رعيّة المملكة الانكليزيّة . وغير ذلك ممّا لا يخلو من محذور * الّا انّهُ في سنة ١٨٢٩ بعد مفاوضات ومقالبات كثيرة صدر من مجلس الحكم الانكليزيّ الامر برفع هذا الحرج عن الكاثليك وتحريرهم . وهكذا في جميع البلاد التي تحت حكم ملك الانكليز تساوى الكاثليكيّون مع البرتستنتيّين في جميع الحقوق المدنيّة سوى اشياء زهيدة لا تخالف حرّيّة الدين * ومن ذلك الحين كثرت المدارس والاديرة والمجالس الخيريّة في البلاد الانكليزيّة . وزاد عدد الكنائس والاسقفيّات كثيرًا * وتزينت الديانة الكاثليكيّة هناك بعدّة من جهابذ العلماء العظام والافاضل الكرام كانوا في الاصل برتستنتيّين ثمّ انحازوا الى الكنيسة الكاثليكيّة . منهم سبنْسِر الشريف الذي ترهّب وجذب كثيرين من بني جنسهِ الى الاقتداء بهِ . ونيوتن البحر الزاخر من العلم . ووَيزِمَن العلّامة في اللغات الشرقيّة . وغيرهم كثيرًا *

واما بلاد فرنسا فتقلّبت احوالها منذ انكسرت شوكة نبوليون وانقرضت دولتهُ . فانّ الحركات والفتن لم تكن تنقطع

الكنيسة من يوم انشائها * فانّ ذلك الانقلاب لم تتغيّر بهِ فقط احوال الامّة الفرنساويّة دينًا ودُنْيا . بل تقوّى بهِ روح قلّة الديانة الذي كان قد ظهر في اوروبا قبل سنين قليلة وانتشر وتأصّل في كلّ مكان . وجرى من ذلك انّ الكنيسة في بلاد اوروبا كلّها وقعت في ايّام نحسة . واحاطت بها المحن من كلّ جانب * وذلك انّ القواعد الجديدة التي ادخلها الفرنساويّون في بلادهم في كلّ ما يتعلّق بالديانة ورسومها وتصرّف رؤسائها بعضهم مع بعض ومع رعاياهم ومع ارباب الحكومة الدنيويّة امتدّت الى معظم بلاد اوروبا . وجعلت في كلّ مكان نوعًا من الفاصل بين الكهنوت والمملكة . وصارت سببًا لحدوث المنازعات الغير المنقطعة الاّ نادرًا بين ولاة الكنيسة وبين الحكّام * وبرد الايمان من قلوب العامّة في اغلب البلاد . وصاروا يدّعون لنفسهم بحرّيّة جنونيّة في امور الدين فضلاً عن امور الدنيا * ورُسمت في عقول الجماهير المذاهب المخالفة لصحّة الديانة التي استجدّها المسمّون انفسهم بالفلاسفة في القرن الثامن عشر . واضحت لديهم معهودة مالوفة . حتّى صار ارباب الحكم والسياسة المدنيّة في اغلب الممالك الافرنجيّة لا يهتدون الاّ بموجبها * وبذلك الديانة البرتستنتيّة انتفعت من جهة حيث أُرخي العنان للأَهوآء . واطلق الملوك الذين حذوا حذو الفرنساويّين الاختيار الفاحش لاهل ممالكهم . فرفعت البرتستنتيّة

راسها . وانضمّت الى اليهوديّة والى الزندقة الفيلسوفيّة في تنغيص الكنيسة الكاثليكيّة * الاّ انّ الله تعالى لم يهمل كنيستهُ في هذه النكبة العظيمة التي فيها كانت تحتاج الى ايد الاهيّ ونصر ربّاني اكثر ممّا في سائر الاوقات • واذ كان من الجانب الواحد كثيرٌ من القليلي الايمان يبدون خبث سرائرهم بما نالوهُ من الحرّيّة ويسلّمون نفوسهم لقيادة أهوائهم الفاسدة . كان الله يلهم غير قليلين من العلماء والادباء البرتستنتيّين او الكافرين المتفلسفين بالفلسفة الجديدة ومن العظماء والامراء ولاسيّما في بلاد جرمانيا وانكلترّه ان يحسّوا على الضلال الذي كانوا فيهِ وينضمّوا الى شركة الكنيسة الكاثليكيّة * فدبّر الله بعنايتهِ الربّانيّة ان ينتج خير عظيم من الشرّ الجسيم الذي اصاب الكنيسة الكاثليكيّة في فرنسا بانقلاب سنة ١٧٩٢ . وذلك انّ الاساقفة والقسوس الذين طُرِدوا من بلاد فرنسا التجأُوا الى البلاد المجاورة . فاقتبلهم اهل تلك البلاد باللطف واضافوهم واعتنوا بامرهم . مع انّ كثيرين منهم كانوا برتستنتيّين ولاسيّما اهل انكلترّة واهل شوِيتسر . فحدث انّ اولئك القسوس والاساقفة بمخالطة اهل تلك البلاد البرتستنتيّة وبمواصلتهم ايّاهم بما تامر بهِ الديانة الكاثليكيّة من فرائض المعتقد والسيرة نبّهوا أَفكار اولئك الاقوام الى حسن معرفة الديانة الكاثليكيّة وازالة التوهّمات التي كانوا ممسوكين بها في شانها والى حبّها والتقرّب اليها * واذ كان قسوسهم البرتستنتيّون

١٨٠٧ الى رومية وفتحوها واستولوا على حكمها . والزموا صاحبها بيوس السابع البابا ان ينفرد في قصرهِ * وهناك لم يكن البابا يهمل سياسة الكنيسة الجامعة . ودبّر تدابير كثيرة صالحة * ولم يكتفِ نبوليون بونبرته باخذ رومية من البابا . بل اخذ جميع ولايات مملكتهِ . وضمّها الى المملكة الفرنساويّة . وارتكب عسكرهُ في تلك البلاد كلّ نوع من المظالم * وبقي بيوس السابع محبوساً في قصرهِ محروماً من كلّ عون والشرور تكثر وتمتدّ . فابرز براءةً بها حرم بالحرم الكبير اولئك الاثمة الذين تجاسروا على سلب الكنيسة والجور عليها وخطف حقوقها * وصار ذلك سبب نكبة عظيمة حلّت براسهِ . فانّ قوّاد العسكر الفرنساوي بامر سلطانهم نبوليون بونبرته في شهر تموز من سنة ١٨٠٩ هجموا على قصر البابا . واغتصبوا ابوابهُ وكسّروها . ودخلوا على الحبر الاعظم . وقبضوا عليهِ واخذوهُ اسيرًا حتّى اوصلوهُ الى فرنسا . واصابهُ في الطريق مشقّات وعاهات كثيرة * وامسكهُ نبوليون في احدى المدن . وقيّد احوالهُ وتصرّفاتهِ . وحاول كثيرًا ان ينزلهُ عن رايهِ ويقنعهُ برفع الحرم وبالتسليم لارادتهِ والاذعان. الى قولهِ . فلم ينلْ منهُ شيئاً * ولم يكتفِ نبوليون بان يؤْذيَ راس الكنيسة الكاثليكيّة بهذه الصورة وامثالها . بل آذى الكنيسة نفسها في جميع البلاد التي كانت تحت حكمهِ . ونفى كثيرًا من الاساقفة والكردنالات

الذين لم يوافقوهُ في آرائهِ * ولكنّ هذا الملك المتعظّم لم يتهنّأ زمانًا بهذه تظفّراتهِ ومظالمهِ . فانهُ في سنة ١٨١٤ قام عليهِ اهل مملكتهِ وحاربوهُ ولم ينكفوا عنهُ حتّى اعيا وانزل نفسهُ من المُلك اغتصابًا وقسرًا . ثمّ قبضوا عليهِ وارسلوهُ منفيًّا الى احدى الجزائر بمعونة الدول الافرنجيّة * ثمّ توصّل الى ان يفلت من المنفى . فرجع الى فرنسا وحكم ثلاثة اشهر . وفي سنة ١٨١٥ في حرب اثارهُ على الانكليز سقط بالكمال من مجدهِ وعظمتهِ . فاخذهُ الانكليز اسيرًا ونفوهُ الى احدى جزائرهم حتّى مات (ومات تائبًا وقد استغفر الله والناس) . وانقرضت دولتهُ وقامت في فرنسا دولةٌ جديدة * فوُجد البابا بيوس في الحرّيّة منذ اوّل سقوط نبوليون . ورجع الى رومية . ورُدّت اليهِ بلادهُ التي كان الفرنساويّون قد ضبطوها * واخذت الكنيسة تستريح قليلاً قليلاً من الأهوال التي كانت قد الّمت بها] *

الفصل الثامن

في احوال الكنيسة الى جلوس البابا بيوس التاسع

[انّ الانقلاب الديني والدنيويّ الذي زعزع اركان فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر صار من اعظم الوقائع التي رأتها

ديانة الكنيسة الكاثليكيّة الى بلاد فرنسا . واحتُفِل ذلك في عيد القيامة الكبير في الكنيسة الكبرى بباريس المسمّاة نُتْرَدام اي باسم سيّدتنا العذرآء . وقدّس القدّاس الكردنال اسبينا قاصد البابا وحضر في القدّاس المديرون المتقدّمون في الحكومة وسائر ارباب الدولة والحكم . ثمّ ترنّموا بنشيد الشكر على رجوع الايمان الكاثليكي في البلاد الفرنساويّة . فانبسطت القلوب وتنفّست الناس قاطبةً من الوهلة التي كانت قد استحوذت عليهم . وملك الامان والراحة في كلّ مكان * والاساقفة والقسوس الذين كانوا قد طُردوا من كنائسهم وتركوها يتيمة وذهبوا الى بلاد بعيدة . رجعوا الى جماعاتهم وهنّأُوا بعضهم بعضاً * وهكذا عادت فرنسا قليلاً قليلاً الى دينها وصارت امّةً مسيحيّة كما كانت قبل الانقلاب *

الفصل السابع

في القبض على البابا بيوس السابع وجلبِهِ الى ارض فرنسا (سنة ١٨٠٩)

[بعد ما هدأَت الاضطرابات التي كانت قد اضرَّت بالامّة الفرنساويّة من جرى الانقلاب الذي بدأَ في سنة ١٧٩٣ . وتراجعت امورها الدينيّة والدنيويّة . حصل النظام في حال سياسة تلك البلاد . فرأَى اهلها ان يقيموا لهم ملكًا يسوسهم ويضبط امورهم .

فاختاروا بونبرته الذي كان قد اشتهر في الحروب السابقة مع الامم المجاورة وفي مدّة ادارتهِ للحكومة الجمهوريّة . وجعلوهُ ملكاً قيصرياً او سلطانياً على فرنسا وأَملاكها في سنة ١٨٠٤ * ثمّ دُعي البابا بيوس السابع الى ان يتكلّف السفر الى مدينة باريس ليكرّس الملك الجديد ويكلّلهُ . وبعد ممانعات شتّى عمد البابا الى الذهاب * وفي طريقهِ حيثما وصل . اظهرت الناس محبّتهم واحترامهم لهُ وللكرسيّ المقدّس * وقضى رسم التكريس والتكليل باحتفال عظيم في مدينة باريس في اليوم الثاني من شهر كانون الأوّل من سنة ١٨٠٤ * ثمّ انّ بونبرته (ويقال لهُ نبوليون) الملك انجز جانباً من الوعود التي كان قد الزم نفسهُ بها للحبر الاعظم من جهة توسيع الراحة والحرّيّة لاقليرس فرنسا والاهتمام بما يأول الى خير الديانة الكاثليكيّة في تلك البلاد وفي البلاد الشاسعة التي كان المرسلون الفرنساويّون يقصدونها افواجاً لينذروا اهلها بايمان المسيح الحقّ . الّا انّهُ لم يوفِ بكلّ ما التمسهُ منهُ الحبر الاعظم * فرجع بيوس السابع البابا من فرنسا الى روميّة مسروراً غاية السرور بما شاهدهُ من الشعب الفرنساويّ من الاحترام والتوقير والحبّ لهُ * الّا انّهُ لم يرَ بعد ذلك أيّاماً طيّبة . بل تنغّصت حياتهُ كثيراً من سبب اعتساف نبوليون الملك وتعظّماتهِ المخالفة للعدل والحقّ * لا بل انّ الامر افضى الى انّ عسكر الفرنساويين قدموا سنة

اشتدّت اسقامهُ حتى كان ذلك سبب فنائهِ * وتوفّي في ٢٩ آب سنة ١٧٩٩ وهو في عمر الاثنتين والثمانين سنة * وهكذا انقضت حبريّة هذا البابا الشجيع الطاهر الذي اصابتهُ نوائب ومصائب عظيمة في مدّة بابويّتهِ * ولمّا زال بيوس السادس. كان الكردنالات الذين يعنيهم ان ينصبوا خليفتهُ مبدَّدين في البلاد. وبعضهم كانوا في الاسر. فلم يكن يمكنهم ان يجتمعوا ليقيموا راعيًا للكنيسة واسقفًا وملكًا لرومية * الاّ انّ الالهَ العظيم الذي وضع حدودًا للبحر وقال لهُ «الى هنا تجري ولا تعدو. وهنا تنكسر امواجك» كسر قضيب فرنسا الذي كان يضرب الامم. وثلم شوكة عساكرها. والهم قومًا كانوا من زمان بعيدين عن شركة الكنيسة ليكونوا واسطة لفرج الكنيسة ونصرها * وذلك انّ الفرنساويّين انكسروا وانخذلوا فالتزموا ان يبارحوا رومية وايطاليا. فاهتمّ ملك جرمانيا القيصريّ وجمع الكردنالات لينظروا في امر اقامة خليفة لبيوس السادس * فاجتمعوا في مدينة بندقيه. وبعد مفاوضات طويلة انتهوا الى اختيار شخص يجلس في كرسيّ بطرس الرسول. وسُمّي بيوس السابع. وكان ذلك في ٢١ اذار سنة ١٨٠٠ * واشتهر هذا البابا في مدّة بابويّتهِ بمآثر عديدة ومناقب حميدة * فاجتهد اوّلاً ان يرفع البلبلة التي كان الفرنساويّون قد ادخلوها في حكومة رومية حين استولوا عليها ويرجّع لها نظامها. واصدر براءة في

حقّ اليسوعيين اذ كان بعض الملوك قد ابقوهم في بلادهم . ثمّ بذل سعيهُ في نوال عهد ثابت من الحكومة الجديدة التي كانت قد قامت في بلاد فرنسا في ما يتعلّق بامور الكنيسة * فارسل في هذا الشان احد الكردنالات اسمهُ اسْبِينا . فلمّا وصل اسبينا الى باريس . تواجه كثيرًا مع ارباب الحكومة وتفاوض معهم زمانًا . وفي الآخر أَبرم عهدًا مع بونبرته رئيس الجيش الذي كان اذ ذاك متّصفًا بصفة اوّل مديرٍ للحكومة الجمهوريّة. وكان ذلك في ١٥ تمّوز سنة ١٨٠١ * وبقيت شروط هذا العهد بين الفرنساويّين وبين الحبر الاعظم خفيّةً زمانًا لم يعلم بها احد . وذلك انهُ كان ثَمَّ موانع قويّةٌ لإمضاء تلك الشروط . اذ كان جانب من مجلس الحكومة ضدًّا لحقوق الكنيسة . وكان قد ظهر بعض من الاساقفة قصدوا ان يخِلّوا بنظام الكنيسة الفرنساويّة اذ كانوا قد اجتمعوا في مجمع وارادوا ان يدخلوا الشقاق * ولكن بونبرته لم يعبأ بكلّ هذه الصعوبات . فحلّ ذلك المجلس . وعقد مجلسًا آخر حسن المذاهب . وامر اولئك الذين كانوا يقصدون فسخ الكنيسة الفرنساويّة ان ينفصلوا * وعند ذلك قدّم بونبرته العهد الذي اتّفق عليهِ مع الكرسيّ المقدّس وعرضهُ على اهل المجلس ليمضوهُ . بعد الفحص والمفاوضة امضوهُ واجروهُ مجرى سائر الموادّ الشرعيّة * واوّل ما أُبرم العهد مع الكرسيّ المقدّس . نودي برجوع

اكثر مما في سائر اراضي الدنيا * فاصدروا اوامر بنهي المومنين عن التظاهر بدينهم بين الناس . ونهبوا الكنائس ونقضوا قدسها . وكسّروا الاواني القدسيّة وداسوها تحت ارجلهم . وسحبوا الثياب القدسيّة في الازقّة على سبيل الهزوْ وجعلوها لعبةً وسخريّة لاوباش الناس . وسحقوا صُوَر القدّيسين وشوّهوها . واهانوا الصلبان . وهدموا الاديرة التي فيها تربَّى الصبيان او الصبايا وتعالــ مجّاناً او يُصنَع فيها خيرات اخرى . او باعوها . وفي الاجمال صارت بلاد فرنسا باجمعها في قليل من الزمان تلال خراب مكوَّمة على جثث اصحابها المذبوحة * وانتشرت مملكة الاثم في تلك الايّام حتى استولت على فئةٍ غير قليلة من الاقليرس نفسهِ . فيقشعرّ الجسم من ذكر ما جرى حينئذٍ من الارتداد والتهتّك والارتكاب * فسبيلنا ان نستر العار العظيم بغطاء النسيان . ونصرف وجهنا عن النظر الى زلّات وكبائر لا يُؤتى باعظم منها . ونحمد الله عزّ وجلّ ونسبّح اسمهُ حيث انهُ في حال هذا الاضطراب الكبير ما غفل عن كنيستهِ . ولا تركها تسقط مصروعةً تحت النكبات الهائلة التي ضُربت بها . بل بعد هذا النوّ العظيم الطويل امر البحر والرياح فهدأت . وارجع الراحة والصحو *

الفصل السادس

في القبض على بيوس السادس البابا وفي انتخاب البابا بعدهُ
وفي المعاهدة بينهُ وبين فرنسا

كانت بلاد فرنسا كما راينا مبليّةً باشقى ما يكون من حال البلبلة وعدم كلّ حكومة ونظام في سياستها . وكان الفرنساويّون يجمعون عساكر كثيرة غفيرة ويغورون على البلاد البعيدة ويحاربون اهلها ويفتحونها بسهولة عجيبة . ويجلبون في البلاد التي يستولون عليها الرسوم السيّئة التي ادخلوها في بلادهم من بطلان الديانة وارخاء العنان لكلّ احد ان يفعل ما يهوى وغير ذلك * ومن الجملة فتحوا جانباً كبيراً من بلاد ايطاليا . ووقعت مدينة رومية في ايديهم . فقبضوا على حبرها الاعظم وكان اسمهُ بيّوس السادس واخرجوهُ خارجاً من روميّة . ولم يهابوا شيخوختهُ ولا احترموا فضائلهُ . وفصلوهُ عن كلّ ما كان عزيزاً لديهِ . وساقوهُ الى بلاد بعيدة من غير ان يبالوا بكبر سنّهِ وأسقامهِ وشدّة فصل السنة * ولمّا وصلوا بهِ الى ارض فرنسا . جلبوهُ الى مدينة غُرُنُبْلة . وهناك مكث ايّاماً قليلة . وفي ذلك السفر الشاقّ تسلّى غير قليل اذ رأى جماهير الناس تتقاطر على طريقهِ وتطلب منهُ البركة وتاخذها بورع وخشوع * ثمّ ذهبوا بهِ الى مدينة وَالِنْسَة . وبعد ستّة اسابيع

ثمَّ نادوا بأسمآء الذين يستوجبون القتل. وعدُّوا جميع الذين لم يقبلوا ان يخونوا الملك او الدين . وطرحوهم في السجون * ولم يطل الامر عليهم . فانهُ في اليوم الثاني من ايلول سنة ١٧٩٢ باشروا قتلهم. وطال نحرهم اربعة ايّام صحيحة. وبلغ عدد الذين ضُرِبت أعناقهم من الفرنساويين اكثر من اربعة عشر الفًا . وذبحوا ايضًا ثلاثة اساقفة واكثر من خمس ماية قسيس في ثلاثة اماكن . وبعد ايّام قليلة خنقوا كثيرين غيرهم يزيدون عليهم عددًا في اماكن اخرى * ورُوِيت في تلك الايّام المرعبة حوادث لم يُسمَع بمثلها في اخبار السالفين . فانّ الجلّادين كانوا يغنّون ويرقصون حول مذبوحيهم وهم في سياق الموت . ويمزّقون احشاءهم . ويشربون من دمهم . ويجرّون القتلى في الازقّة وهم متهلّلون كمن يرجع ظافرًا غانمًا من الحرب * وفي أثناء ذلك انحلّ مجلس الشرع . وقام مكانهُ مجلس آخر سُمّي مجلس الاصطلاح * وهذا المجلس في اول يوم من اجتماعِهِ اسقط حكم الملك . ونادى بحكم الجمهور . ومن دون ادنى تمهّل بلغت بهِ الفظاعة والاثم الى انهُ تجاسر ان يجعل لويس السادس عشر الملك تحت الشكوى . وقرّر انهُ يجب عليهِ ان يمثل بين ايدي الموكّلين من قبل الشعب ليردّ على ابواب الشكوى التي كان يُقرَف بها * ولم يعطوهُ زمانًا ليستعدّ للمدافعة عن نفسهِ الّا ايّامًا قليلة . فلمّا انقضت المهلة . اوقفوهُ قدّام المجلس . وعاملوهُ معاملة

أحقر اهل الجنايات . وبعدما تشارعوا معهُ ايّامًا قليلة اصدروا عليهِ قضيّة الموت بحجّة انهُ كان طاغيًا قد جار على الامّة * وفي يوم ٢١ من شهر كانون الثاني من سنة ١٧٩٣ اخرجوهُ الى ساحة عظيمة . وقتلوهُ بمحضر خلقٍ لا يعرف عددهم الاّ الله * وبموت لويس الملك انفتح في فرنسا دربٌ وسيع للقتل وسفك الدم ممّا يقشعرّ الجسم لذكرهِ . فانّ الدماء كانت تسحّ في كلّ مكان . وضُربت المدن بالمدافع بصحّتها . وذُبحت ابناء الامّة كراديس كراديس *

وبينما كان شُرَط البوار يجلبون الخراب والرَّدَى في كل مكان . بلغ من اثم المجلس الاصطلاحيّ انهم اسقطوا الديانة النصرانيّة وجعلوا مكانها العقل الاهـا . ونادوا بعبادتهِ * وعيَّدوا لهذا الآله الكاذب الفاحش اوّل مرّةٍ في كنيسة سيّدتنا العذراء المسمّاة نترْدام التي هي اوّل كنائس باريس . وهناك نصبوا على مذبح الآله الحقّ احدى النساء الفاجرات . وشرعوا يسجدون لها ويسمّونها سلطانة الآلهة * واقتدى باهل باريس اهل سائر مدن فرنسا . فنسخوا الاعياد المسيحيّة القدسيّة وادخلوا بدلها اعيادًا هجينةً لعينة . وعبدوا القباحات * ومع انّ الامّة الفرنساويّة كانت مهذّبة مجليّة بانوار العلوم والمعارف . بلغت بهم الحماقة والرعونة الى انّهم اعادوا العبادات الصنميّة التي كان دين المسيح قد طهَّر الارض منها . وحرّموا الديانة المسيحيّة التي كانت قد اضاءت في ارضهم

الكنيسة وعذّبها في ايّام محاربتها وامتحانها *

الفصل الخامس

في تمام الانقلاب الفرنساويّ
وموت لويس السادس عشر الملك (سنة ١٧٩٣)

انّ أَرباب مجلس الحكومة بعدما نقضوا حقوق الملك . واخلّوا بنظام الكنيسة وبلبلوها . وابطلوا جميع الرهبنات . ونهبوا القسوس والاساقفة وضبطوا جميع أَملاكهم . انفضّوا من مجلسهم * فقام بعدهم مجلسٌ آخر قيل لهُ مجلس الشرع . وارباب هذا المجلس الثاني اظهروا من الاوّل ما كانت مقاصدهم في شان المملكة والديانة * فانّهم ايّدوا الاوامر التي كانت قد برزت على القسوس المتمنّعين من اداء الحلفان واثبتوها . واذ رأَوا انّ ذلك قليلٌ . قطعوا عن اولئك القسوس الرزق الخسيس الذي كانوا قد عينّوهُ لهم لمعاشهم . وامروا بنفيهم من ارض فرنسا * فلمّا صدرت هذه الاوامر . قام الاضطهاد في كلّ ناحية من بلاد فرنسا على القسوس الثابتين على عهدهم . فطردوهم من كنائسهم . ورموهم بالحجارة . وذبحوا كثيرين منهم بلا رحم . وبذلوا كلّ جهدهم ليمنعوهم من ان يفلت احد منهم من المنفى او من الموت * والقوا في السجون جماهير منهم .

حتى انهُ في احدى المدن الصغيرة وُجِد اربعماية من القسوس المحبوسين . فقس على ذلك المدن الكبيرة * وكان السفهاء الضئيلون يهجمون على اديرة الراهبات . ويجرّونهنّ ويطردونهنّ ويرتكبون غير ذلك من المنكرات . واهل مجالس الشرع يرون كلّ ذلك ولا يردعونهم . بل فضلاً عن ذلك كانوا يبطنون شنائع اعظم من هذه * فانّ اهل ذلك المجلس اوّل ما رأَوا انفسهم في امان . جعلوا يرتكبون المحرّمات الجسيمة الواحدة بعد الاخرى من دون ادنى فتور . وارتقوا في دَرَج المنكرات والجرائم حتّى بلغوا الى كبائر لا يمكن ان توصف باللسان ممّا تنجّست بهِ ارضنا المظلومة * وذلك انّ اولئك القوم الذين لا يقدر انسانٌ ان يعبّر عن شرّهم بالكلام هجموا على ملكهم وهو في قصرهِ وكان اسمهُ لويس السادس عشر . وبطشوا بحجّابهِ وذبحوهم بين يديهِ * ولمّا فرَّ وافلت من غائلة الاوباش المتعطّشين الى شرب الدم والنهب . لم يجد مندوحةً من ان يلتجئ الى اهل المجالس الشرعيّ ويفوّض امرهُ الى اولئك المتآمرين الذين كانوا سبب تلك الفتن والشرور * فلمّا دخل قاعة المجالس . لم يرقّ لحالهِ اولئك السفهآء . بل بدلاً عن ذلك ثرّبوهُ في وجههِ كأَنهُ هو كان سبب تلك الدمآء والشرور . وحكموا بنزولهِ من عرش المُلك * ومن ساعتهم قبضوا عليهِ . وساقوهُ هو وزوجتهُ واولادهُ واختهُ الى برْجٍ كان المجرمون يحفظون فيهِ *

الاقليرس . واختاروا لها قسوساً فاسدي المذهب في امر حقوق الكنيسة . فحرّر هولآء صورة قانون شرع للبيعة مخالف لاصول المذهب المستقيم * فانّهم من الجملة اقتصروا عدد الاسقفيّات في فرنسا التي كانت ماية وخمساً وثلاثين وجعلوها ثمانين اسقفيّة على عدد الولايات الحكميّة * وابطلوا من الكراسيّ الاسقفيّة ونصبوا غيرها. والغَوْا القابِتُليّات [والقابتل وهو مجلس قسوس الكرسيّ الاسقفيّ] . واوقاف رياسات الاديرة . واوقاف الكنائس وغير ذلك * ورسموا على الاسقف المقام جديداً ان يطلب اثبات منصبهِ من مطرانهِ او من اقدم اساقفة الولاية . لا من البابا . خلافاً للرسم الذي كان قد اصطُلح عليهِ في اوروبا كلّها منذ احقاب واجيال . واوجبوا فقط على المنصوب جديداً ان يكاتب الحبر الاعظم في شان نصبهِ دليلاً على موافقتهِ للكرسيّ الرومانيّ المقدّس * ورسموا ان يكون اختيار الاساقفة والقسوس المتصرّفين في مجلس مخصّص لذلك . ورسموا ان يُنصَب نوّاب القسوس المتصرّفين من بين القسوس المسامين في الابرشيّة او المقبولين فيها من دون الاحتياج الى اجازة الاسقف لذلك * وحكموا انّ الاسقف لا يقدر ان يبرم امرًا مّا يتعلّق بسلطانهِ من دون مشاورة نوّابهِ . وهكذا رفعوا شان نوّاب الاسقف الذين ما هم الاّ قسوس اكثر من حقّهم وجعلوهم مشتركين مع الاسقف في السلطنة بمعزلٍ عن تنويبهِ * فبهذه الرسوم وغيرها

تجاسر اولئك الفقهآء ان يهدموا أركان السياسة البيعيّة. ونزعوا عنها الحقَّ الذي حصلت عليهِ وحازتهُ دائمًا بان تدبر امورها بنفسها وتضبط قواعد شرعها وتنصب الاساقفة وتعيّن لكلٍّ منهم حدود الاراضي التي يتولّاها * ولمّا شاع بين الناس خبر هذا القانون وتأيّد بتصحيح مجلس الحكومة. نهض عليهِ اهل الراي السديد والعقلآء وحكموا انهُ ينقض حقوق الكنيسة ونظامها وشرعها. وابوا قبولهُ في كلّ مكان. ومن المأية والخمسة والثلاثين اسقفًا الذين كانوا في فرنسا اربعةٌ فقط دنت نفسهم الى إمضائهِ والحلفان على العمل بهِ * فلمّا راى أرباب المجلس هذه المقاومة. اغتاظوا جدًّا. واصدروا امرًا على جميع الاساقفة والقسوس باجرآء ذلك القانون والتمسّك بهِ بيمين. وحكموا على الذين يابون الحلفان الى مهلة ثمانية ايّام بانهم يسقطون لساعتهم من وظيفتهم الكهنوتيّة * فحدث عند ذلك امرٌ احزن الكنيسة جدًّا. وذلك انّ بعضًا من الكهنة امّا لحبّهم للاختراعات الجديدة وامّا لاغترارهم وسقوطهم في حبائل المكّارين قبلوا رسوم ذلك القانون وامضوهُ. الّا انها تسلّت كثيرًا بعدد الكثيرين الذين أَبوا قبولهُ ورفضوهُ ولو اصابهم من سبب ذلك اضطهادٌ ونفيٌ وفقدوا وظائفهم * وفي الحال حكم ارباب المجلس انّ اولئك سقطوا من مراتبهم. ونصبوا مكانهم غيرهم من ذوي الرعونة * وهكذا تمّ هذا الشقاق المؤلم الذي نغصّ

الفصل الرابع

في مبادي الانقلاب الفرنساوي (سنة ١٧٨٩)

قد راينا انهُ في مدّة وزارة دوكا دي أُرليان في مملكة فرنسا كان الكفر وسوء السيرة قد تسلّطا على غالب اهل البلاد الفرنساويّة * وحدث من ذلك تخوُّف واضطراب القلوب في كلّ مكان * والمذاهب الجديدة التي شاعت من دون ان يحجرها أَرباب الحكم لضعف رايهم وقصر باعهم ادخلت في عقول العامّة قلّة الاحترام لملكهم واولي الامر والعظماء ورغبة الحرّيَّة الزائدة والاستقلال من كلّ قيد * وتملّك على قلوبهم حبّ الاشياء الجديدة والتغيير . وكرهوا الاحوال القديمة اشدّ كره . ومقتوا الديانة سرًّا وعلنًا * وبرز كتبٌ كثيرة في هذا المعنى . وسُمعت الخُطَب المتشدّدة في ذمّ الشرائع القديمة والعادات الجارية . وطُبعت صحائف لا تُحصَى في تحقير الديانة وذويها * امّا العاقلون من الناس فراعتهم هذه الاحوال . واخذتهم المخاوف الشديدة . وحاولوا ان يمنعوها . واطلعوا الملك على حقيقتها . واقبل اساقفة فرنسا واقليرسها في مجلس من اواخر مجالسهم وقالوا هذا القول المستحقّ الذكر « اذا لبث أَرباب الحكم في السكوت والاغضاء كما هم الآن . ينتشر الزلزال ويفضي الى خراب عامّ » * فكأَنّ روح الظلمة قد دنا

زمانهُ لياخذ كلُّ سلطان فيتغلَّب الكفر * فسُمعت من كلِّ ناحيةٍ اصوات العصيان والخروج والوغى . وصار العامَّة يتَّخذون الطاعة للملك وأعوانهِ عبوديَّة ويطلبون الحرّيَّة * وقُدّمت تظلّمات كثيرة في حقّ المسمّين انفسهم المصلحين اي البرتستنت . ونُشرت جرائد في شرح زعمهم بانّ البرتستنت هم في حال الاستعباد . ولجّوا ولم يكلّوا حتى نالوا الامر بمساواتهم مع الكاثليكيّين في جميع الاحوال * فلمّا راى اهل العصيان هذا النوع من الغلبة . تجرّأُوا وكرّوا الى الالحاح . واذ علموا أنّ بيت مال المملكة كان في سوء حال . اغتنموا هذه الحجّة وتعصّبوا بالاكثر على أَرباب الحكم * فاقتضى ان يجتمع مجلسٌ عظيمٌ من جميع ولايات المملكة . وفي هذا المجلس ابرموا قضايا مخلّة بالديانة والكنيسة * فانّهم حكموا اوّلاً انّ الاوقاف واموال البِيَع والاديرة كلّها هي مُلك الجمهور . وانّ نذور الرهبان مُلغاة الى وقت * ثمّ بعد قليل باعوا اوقاف الكنيسة باربعماية الف الف درهم . وابطلوا جميع الرهبنات * فنهض الاساقفة وتظلّموا من هذه الشناعات . فلم يسمع احد صوتهم . وآل كلامهم الى عبث *

واشتدّ الامر وقوي الشرّ . حتى صارت الدماء تجري . فتظفّر العصاة ووعدوا انفسهم بنجاح اكبر * وكان اهل المجلس المتولّي امور الحكم قد اقاموا فيهِ شعبة قسّيسيّة لتدبير مصالح

كرسيّهِ . ثمَّ الشقاق الذي كان ضاربًا كنيسة جرمانيا وبلغ الى غايتهِ * وذلك انَّ يوسف الثاني الملك ابرز اوامر جديدةً فيها اباح الطلاق لأَسباب معيّنة . وجعل نفسهُ قاضيًا في مسائل الدين . وتعدَّى على حقوق الكنيسة اكثر مّا سبق * وحذا حذوهُ بعض من اساقفة جرمانيا فحاولوا ان يستعلوا على الحقوق الاصليّة الواجبة للكرسيّ المقدَّس من قبل رياستهِ على كلّ الكنائس . واهتمّوا باجتماع مجلس بقرب مدينة قبلنتزه . وهناك اربعة من القسوس بوكالةٍ من الاساقفة المذكورين سطّروا قانونًا جديدًا لشرع الكنيسة . فيهِ نزعوا عن نائب المسيح على الارض حقوقهُ وابقوا لهُ الاسم والكرامة الفارغة فقط . وجعلوا كلًّا من الاساقفة بمنزلة بابا *

وفي نحو ذلك الزمان ظهر في ايطاليا اسقف يقال لهُ رِتْشي او رِجّي بغى على الحقّ . فجمع مجمعًا من قسوس ابرشيّتهِ . وذهب مذاهب ذميمة كانت قد حُرِمت اكثر من مرَّة . فجعل القسوس قضاةً في امور الايمان . وحملهم على ان يسنّوا سُننًا تهدم أَركان الكهنوت ونظامهُ وتخلّ بقوَّة شرع الكنيسة وسياستها . واتّخذوا بِدَع يوسف الثاني ملك اوستريا ومطارين المملكة الجرمانيَّة الذين مرَّ ذكرهم . ونسبوا الى الاسقف حقّ التفسيح والحلّ في المسائل المتعلّقة بسلطان الحبر الاعظم * وهكذا اجتمعت اسباب الشقاق من كلّ ناحية . فوُجدت الديانة الكاثليكيَّة في خطر السقوط في

فتنةٍ عظيمة. فتحرَّك اهل جرمانيا التي فيها نشأت أسباب الآفة. وقدَّموا شكاوي كثيرة لا تُحصى على الملك وتبَّاع آرآئهِ لتعدّيهم على حقوق الكنيسة * لا بل انَّ احد المطارين وهو مطران مالينس تجرَّأ وقدَّم شكواهُ الى حضرة الملك نفسهِ. وشرح لهُ الأَضرار العظيمة الحاصلة من ابتداعاتهِ والأَهوال المخوفة منها على الكنيسة وعلى المملكة * وكان جانبٌ كبير من رعيَّة يوسف الملك قد خلع الطاعة لهُ لسخافة حكومتهِ * فانتبه الملك عند ذلك على حالهِ. واعترف بصواب شكوى مطران مالينس وبفساد المشورات التي اعطاهُ اياها اهل خاصَّتهِ * وكانت الشرور الكثيرة التي حدثت من ابتداعاتهِ قد فطرت كبدهُ * فلمَّا دنا بعد قليلٍ زمان رحيلهِ من الدنيا. اخرج امرًا بهِ ابطل والغى كلّ الاوامر التي كان قد اعطاها في ما يتعلّق بالكنيسة. وارسل الى البابا واخبرهُ بتغييرهِ هذا * فلمَّا بلغ الى البابا هذا الخبر الذي لم يكن يُنتَظَر. كتب الى اساقفة جرمانيا منشورًا جليل المعاني فيهِ أمّنهم وهدَّأ روعهم وازال كلّ اثر قلق من تلك البلاد. وهكذا انتقضت المكايد التي كانت تتهدّد الكنيسة بفتنة عظيمة في بلاد جرمانيا * ولكن اوّل ما حصلت الكنيسة في راحة في تلك البلاد. قامت عليها في مملكة فرنسا التي لم يصِبها شيءٌ من تلك النازلة العظيمة نكبةٌ اخرى هائلة بلغت بها الى حافَّة الهلاك كما سنرى *

وبين الممالك الاجنبيّة * فوقع البابا اقليميس الرابع عشر في حيرة عظيمة . وفي الاوّل حاول ان يسكّت اعداءَ اليسوعيّين ويهدّئهم بالمماطلة والتسويف والمسايرة وفتق الآراءَ في التدبّر معهم . حتى ضاق الامر بهِ . فسلّم لارادتهم واصدر براءَة في ٢١ تموز سنة ١٧٧٣ بإِلغاءِ رهبنة اليسوعيّين * وهكذا أُبطلت هذه الرهبنة الجليلة بعدما نشأَت باكثر من مايتي سنة . وكانت تحوي نحو عشرين الف راهب . شأنهم التفرّغ لعمل الخير والتدريس وانذار الخطاة وسائر الأَعمال الحسنة *

الفصل الثالث

في التعدّي على سلطنة الحبر الاعظم

كان الذين طلبوا إِلغاءَ رهبنة اليسوعيّين قد احتجّوا انهُ بذلك يملك الصلح والاتّفاق بين الكهنوت والمملكة . ولكن الامر جرى بعكس ذلك . فانّ اعدام اولئك الرهبان صار سبب البغي على الحبر الاعظم راس الكنيسة * وكان اعداءُ هذا الكرسيّ البطرسيّ ينشرون بين الناس في كل مكان كتباً مملوّة من الحقارة والخفض لرياسة الحبر الاعظم . وبعضٌ من المؤلّفين الوقحين تجاسروا ان ينكروا حقوقهُ ويحتقروا سلطانهُ . ولم يخجلوا من ان

يعيدوا أقوال لوثار وكلوين الهرطوقيّة * واكثر ما شاعت هذه التعاليم الجديدة كان في بلاد جرمانيا. وهناك اهل بعض من المدارس تمسّكوا بآرآء كتابٍ ظهر في ذلك الزمان مقلّل لسلطان الحبر الاعظم يقال لهُ فبرونيوس. وذهبوا مذاهبهُ الوخيمة المضرّة بنظام الكنيسة وسياستها * واشتهر في مضادّة حقوق الكرسيّ المقدّس يوسف الثاني ملك اوستريا القيصري [وكانت اذ ذاك مملكة اوستريا مركز الممالك الجرمانيّة ودائرة قطبها]. واسند الذين ابتدعوا تلك الآرآء الذميمة. وادخل في قوانين الكنيسة الشرعيّة تغييرات تفضي بلا محالة الى فتن وشقاق * فلمّا راى بيوس السادس البابا الكنيسة الجرمانيّة في خطر عظيم. وجّه الى اساقفتها وملوكها رسائل متتابعة. فيها يحثّهم ويستحلفهم ان يحفظوا الاتّفاق والوحدة. ولكنّ الملك وتبّاعهُ لم يلبّوا الى دعوة البابا * فعزم البابا على راي لم يخطر على بال احد. وذلك انهُ ارسل اخبر الملك بانهُ نوى ان ينطلق الى مدينة وَيِنّا لمواجهتهِ * فلمّا وصل بيوس السادس الى مدينة وَيِنّا. استقبلهُ الملك بالترحاب والتوقير. وعاملهُ كما تقتضي مرتبتهُ. ونسخ شيئًا من اوامرهِ المخالفة لحقوق الكنيسة * فرجع البابا من مدينة وَيِنّا الى رومية متأسّفًا على قلّة الفائدة الحاصلة من سفرهِ. الاّ انهُ تسلّى غير قليل بما شاهدهُ في طريقهِ من الحبّ والاحترام لهُ من الشعوب كلّها * وبعدما وصل الحبر الاعظم الى

ولم ينتبهوا على حالهم الاَّ وهم في اقصى عمق من هوَّة المهالك التي سقطوا فيها. كما سترى في ما ياتي *

الفصل الثاني

في إلغاء رهبنة اليسوعيّين (سنة ١٧٧٣)

انَّ من اعظم البلايا التي نتجت من قلّة الديانة التي استولت على اهل اوروبا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر واوّلها إلغاء رهبنة اليسوعيّين * وذلك انَّ اليسوعيّين اذ كان دابهم ان يرشدوا الشبّان ويهذّبوهم في حقائق الدين المسيحيّ ويثبّتوا المؤمنين على الايمان القويم وعلى القيام بواجبات السيرة الانجيليَّة. قاموا على الهراطقة الذين كانوا يؤذون الكنيسة بضلالاتهم وبدعهم وعلى الكفَّار الذين كان مرادهم ان يقرضوا اسم الديانة ويمحوها من اصلها. وفنّدوا اضاليلهم ونجحوا نجاحًا عجيبًا بافحامهم واخزائهم. والّفوا في شان ذلك كتبًا كثيرة شتّى بديعة * فقابلهم اعداء الديانة بالبغضة والعدوان. وجزموا على إعدامهم. وحرَّكوا الوزراء والملوك وارباب السلطنات على اضطهادهم * فطُرِدوا اوّلًا من بلاد البرتوغال * وذلك انّهُ ظهر في تلك البلاد رجل من احقر طبقة من الناس ذوي الجنايات الجسيمة. توصّل الى اغواء الملك

ونال منهُ العون لانهُ صار وزيرهُ. فبذر في بلاد اوروبا كلها عدة من الكتب الشنيعة المملوّة من افظع الاكاذيب والتهم على رهبنة اليسوعيين. ومن جملة ذلك انهم تآمروا وتواطأُوا على قتل سيدهِ الملك. فطلب من الحبر الاعظم إِلغاء رهبنتهم بناءً على ذلك * فلما لم يجب الحبر الاعظم الى سؤالهِ. ابرز في بلاد البرتوغال كلها امرًا عليهم. فقُبض عليهم وطُرحوا في سجون ضيقة. ثمَّ اخرجوهم من هناك وكوّموهم على سفنٍ موسوقة وسقًا ثقيلاً وهم معوزون مقطوعون من كل شيءٍ. وساقوهم الى ارض ايطاليا * ثمَّ انَّ اهل اسبانيا بعد ذلك طردوا هم ايضًا اليسوعيين من بلادهم. ولم يمضِ زمانٌ الاّ والفرنساويّون ايضًا تبعوهم * ولكنَّ اعداءَ اليسوعيين لم يشبعوا بهذهِ الاهانات والاضطهادات التي اذاقوها لاولئك الرهبان الصالحين. بل جدّوا لدى الحبر الاعظم في قرض رهبنتهم واعدامها راسًا * واذ كانت الكنيسة الرومانيَّة تملك في كثيرٍ من ممالك اوروبا عقارات وارضين شتَّى كان الملوك قد وهبوها لكرسيّ بطرس الرسول. هجم على تلك الاملاك ارباب الامر المبغضون لليسوعيين وضبطوها. واعلموا البابا على يد السفراء الذين كانوا لهم لدى دولتهِ بانَّ تلك الأَملاك لا تُردّ الى الكنيسة الرومانيَّة الاّ متى عدم اليسوعيّون من الدنيا. وانَ إِبطال رهبنتهم لا مناص منهُ لاسترجاع الصلح والاتفاق بين الكرسي الرومانيّ

كلّ صنف من الناس . فجعلوا منها للصبيان . ومنها للنسآء . ومنها لاهل الصنائع . ومنها لاوباش الخلق . ومنها للاغنياء . الى غير ذلك . هذا عدا ما عمّ كلّ قدّ وقياس * وتفننوا في ذلك وبلغوا منهُ كلّ مبلغ وذهبوا فيهِ كلّ مذهب . فصاروا تارةً يكفرون بالدين على سبيل الجدّ والبحث العلميّ . وتارةً على سبيل الهزل والهزؤ . وتارةً من باب الافترآء والكذب . وربّما وُجد السمّ خفيًّا في ارقّ الكلام واحلاهُ * وكانت عاقبة كلّ ذلك انّ روح قلّة الديانة استولت على معظم الامّة الفرنساويّة وسرت في احوالهم كلّها . فانقلبوا من حال الى حال . وحيث كانوا سابقًا ذوي ذوق وحذاقة وإعمال في الامور ومتفنّنين في العلوم والمعارف صاروا يحبّون التُرّهات والخزعبلات التي لا طائل تحتها . واقتصروا هموههم كلّها كلّ واحد على نفسهِ من دون ادنى نظر الى خير العامّة . وارتخت القيود التي بها الجنس البشري يرتبط بعضهُ الى بعض ويتكوَّن منهُ جمهورٌ واحد ذو مقصدٍ واحد وسياسة واحدة . فصار كلّ واحد يحسب نفسهُ مستقلاً من كل قيدٍ باحد من الناس . وانصبّت قلوب الاكثرين الى الطمع وحبّ المال . فانقلب حال تلك الامّة الشريفة التي كانت تفوق سائر الامم في الكرَم والنجابة . وصارت امّةً قليلة الشهامة والمروءة *

الاَّ انّ الدين المسيحيّ في هذا العرمرم الذي قام عليهِ من

الاعداء لابادتهِ وافنائهِ لم يسقط . بل وجد من قام لاعانتهِ والمدافعة عنهُ من الأَبطال الذين بفضائلهم وعلومهم الباهرة حاموا عنهُ وذبّوا سهام الكفر واخزوا اصحابهُ * وممَّن يستحقّ الذكر من اولئك الجهابذة الفرنساويين الذين في مصنّفاتهم ردّوا على تشنيعات الفلسفة الكفريَّة بومون مطران باريس . الذي لبراعتهِ في مقاومة اعداء الدين سُمّي اثناسيوس عصرهِ . وبمبِنْيان اسقف بُوِي . ودولو مطران أَرِلَاس الذي جاهد عن الايمان الحقّ جهاداً شديداً حتَّى مات قتيلاً في شهادتهِ * واشتهر ايضاً في فرنسا كثيرٌ من القسوس بحسن سيرتهم القدسيّة وبمصنّفاتهم التي بها فندوا آراء الكافرين . منهم برجيار . وغيناء الذي ردَّ على بُلتير وحذا حذوهُ في اسلوب الكلام . وبلّت . وفلّر . وجيرَرْد . وغيرهم كثيراً *

الّا انَّ طوفان الشرّ كان قد امتدّ وتملّك تملّكاً شديداً في عقول الجمهور . حتَّى انَّ كلّ هذه الاهتمامات لزجرهم والمؤلّفات البليغة لنشلهم من الضلالات وارجاعهم الى العادات الاولى والى ايمان آبائهم لم تُجْدِ نفعاً * وذلك انَّ الشرّ كان عظيماً عاماً . وجموح الشهوات يسندهُ . وكان الطغيان قد تعمَّق في عقول الناس . وعلّمت العامَّة ان تنكر وجود الله تعالى . فلم يمكن تدارُك حال الامَّة الفرنساويَّة ومعالجتهُ * وسمح الله أن يتّصل الشرّ ويتعظّم حتَّى بلغ الى غايتهِ واتى بكلّ عواقبهِ الهائلة . فلم يفتح الجمهور عيونهم

واستظهر حيث كان قبل ذلك متخوّفًا مستخفيًا . واخذ الكفّار يغالون بتعاليمهم الزندقيّة ويتفاخرون بها بدون ممانعةٍ ولاحياء . ويبثّون مذاهبهم الخبيثة التي تنقض أركان المملكة فضلاً عن اصول الدين * وكان قصر الوزير منضوى القوم الخالعين الطاعة لله . فكانوا هناك يتشاطرون ويتغالبون في الفكاهات والهزليّات والنكت المهينة للديانة واهلها ولاسيّما روسائها . ومن هناك خاصّةً انتشر الكفر الى سائر مدينة باريس ثمّ الى سائر بلاد فرنسا * وكان اولئك الكفّار يسمّون انفسهم فلاسفةً ويفتخرون باسم الفلسفة . فكان الوزير محسوبًا عضيد الفلاسفة وسندهم . اذ كان هو يتقدّمهم في الخلاعة والمجون والاستهزاء بكلّ ما هو مقدّس في الديانة * ولم يمرّ زمانٌ الاّ وظهرت كتبٌ بهذا المعنى . واوّل ذلك كان كراريس يسيرة تسري بين الناس بالخفية غير مذكور فيها اسماء مؤلّفيها . وسبب ذلك انّ العامّة كانوا بعد يحبّون الديانة وينصرونها . فكان اهل الكفر يستحيون من ان يظهروا باسمائهم في مصنّفاتهم * ولكن لمّا اشتدّت الزندقة وانتشرت . تجرّأ اهلها وشيّعوا الكتب الكفريّة التي فيها نُقض كلّ عهد ولم تراعَ حرمة . واوّل كتاب من هذا النوع ظهر في فرنسا سنة ١٧٥١ * [واشهر هولاء المدّعين بالفلسفة (بئست من فلسفة) في بلاد فرنسا هو رُسّوْ وبلْتير * امّا رُسّوْ فلانّه كان في الاصل برتستنتيًّا مولودًا في مدينة جنفرا

التي كانت مركز الملّة الكثلوليكيّة فلا عجب انهُ اتى في مؤلّفاتهِ باقوال كثيرة باطلة غير صوابيّة. الاّ انّهُ لم يتجاسر ان ينكر اصول الديانة المسيحيّة. لا بل ذكرها بالمدح الجزيل والوصف البليغ * واما بلْتير او وُلتير فرفع لوآء الكفر والمجون ظاهرًا عاليًا . وكتب كتبًا كثيرة مشحونة باقبح ما يكون من الاقوال التي يستهجنها العقل وتتأنّف منها الطبيعة ويقشعرّ لها الجسم * وفي زمان يسير صار بلتير إمام الكافرين ودليلهم وسلطانهم . اذ انهُ فاق جميع من سبقهُ وجميع من لحقهُ في الكفران بالله وباخصّ الحقائق الدينيّة * وفي سنة واحدة مات رُسّوٓ وبلتير. اي سنة ١٧٧٨] * وهذه المذاهب الكفريّة لم تنتشر في الاوّل بين العامّة . بل كانت مقصورة على بعض العظمآء والاغنيآء الذين كانوا يتظاهرون بإِنكار الايمان ليكون لهم سبيل ان يجحدوا وينكبّوا على شهواتهم بلا زاجر. واما العامّة فكانت تحترم ايمان اباۤئها ولا تزال متمسّكة بهِ * ولكنّ الشرّ لم يبطئ ان يعدي من الخاصّة الى العامّة . وطما سيل الكفر حتّى غمر كلّ مكان * وكان اهل العلم يفتخرون بهذا المذهب الكفريّ اذ يسمّونهُ فلسفةً . ولم يكتفوا ان يسندوهُ باقوالهم . بل نشروا كتبًا كثيرةً لا عدد لها ممتلئة من السمّ الكفريّ . فيها انكروا اخصّ مبادئ الاصول الدينيّة واتوا باقوال إِلحاديّة لم يُسمَع مثلها قطّ في ما سبق * وكانت هذه الكتب قد قصد بها مؤلّفوها ان يفسدوا بها أذهان

دخل تلك البلاد ثلاثة مرسلين من العازاريين . اشهرهم يقال لهُ ياقوبيس . وبإنذارهم قرّبوا الحبشيّين ولاسيّما ملوكهم الى محبّة الكنيسة الكاثليكيّة . وجلب ياقوبيس منهم ثلاثة وعشرين حبشيًّا الى بلاد الافرنج واراهم عجائبها . ورجع بهم الى بلادهم . فحدّثوا بني جنسهم بما رأوهُ . وشوّقوهم الى قبول معتقد الكنيسة الرومانيّة * والى الآن تلك الجماهير الغفيرة هي بين التمسّك بالمذهب الذي سلّمتهُ اليها اجدادها وبين التشوّق الى وصال الكنيسة الكاثليكيّة *

اعلم انّ الكرسي الرومانيّ المقدّس قد اعتنى منذ القرن السادس عشر بما يأول الى خير طائفة الحبش . فطبع لهم في رومية العهد الجديد وكتاب قدّاسهم في لغتهم * وطقس الحبش يشبه طقس القبط . ولهم عشر نافورات للقدّاس . اخصّها تسمّى باسم الرسل . ويقدّسون بالخمير . وفي خميس الفصح فقط بالفطير * واللغة المستعملة عند الحبش في الطقس هي الحبشيّة وحدها . وهي من اخوات اللغات المعروفة بالساميّة اي العبرانيّة والسريانيّة والعربيّة وفروعهنّ . ولهم قلم مختلف جدًّا من سائر الأقلام المتولّدة من الخطّ السريانيّ القديم . وحروفهُ كثيرة جدًّا . ويكتبون من اليسار الى اليمين كالافرنج] *

الباب السابع

في اخبار الكنيسة الى المجمع الواتِكاني

الفصل الاوّل

في قلّة الايمان التي ظهرت في بلاد اوروبا في القرن الثامن عشر

انّ المباني الضلاليّة التي عليها بنى لوثار وكلوين بدعهما ومنها تسلّل كما راينا شقاق الينسانيين . لم تتأخَّر زمانًا طويلاً ان تولّد ضلالات شنيعة تخالف اصول العمل بالصلاح وسياسة الممالك فضلاً عن الديانة * وذلك انّهُ قلّ الايمان بالوحي الالهي في عقول خلق كثير من الناس في بلاد اوروبا ولاسيّما انكلترّة وفرنسا وجرمانيا. وتظاهر كثير بالكفر وشرعوا ينكرون ما اوحى بهِ الله وما يدلّنا عليهِ العقل حتّى عدم موت نفس الانسان بل وجود الله تعالى نفسهُ * وقويت الزندقة خصوصًا في بلاد فرنسا في زمان مُلك لويس الخامس عشر. اذ كان هذا الملك صغيرًا. فامسك عنان السياسة احد ارباب الدولة وهو دوقا دي أُرْليان. فانّ هذا الوزير المتهتّك كان يبغض الديانة واصحابها. فرفع الكفر في زمانهِ راسهُ

يكيدوا عليهِ • وكتب الملك الى قسوسهِ باورشليم في ذلك * فاستقبل البابا وفد الحبش بالترحيب واللطف . وضرب عهد الوصال بطاعة ملك الحبش ورعيّتهِ للكنيسة الرومانيّة . الاَّ انَّ الحبش نكثوا هذا العهد * وفي سنة ١٥٣٣ ارسل ملكهم داود رسالة الاحترام والخضوع الى البابا اقليمنس السابع . فبعث البابا اليهِ اساقفةً ومطرانًا (مسمّى باسم بطريرك على الحبش) لاتينيّين • وسبب ذلك انّ الحبش كانوا كثيرًا ما يكرهون الخضوع لبطريرك القبط . ويحبّون انقاذ كنيستهم من سلطنتهِ . فيلتجئون الى الاحبار الرومانيّين . وذلك بهمّة البرتوغاليّين الذين ضبطوا البلاد المجاورة . وكان تجّارهم وقسوسهم يتردّدون الى بلاد الحبش * وفي مبادئ القرن السابع عشر تمسّك ملك الحبش وكان اسمهُ الزناف سعد بمعتقد الكنيسة الرومانيّة على يد المنذرين اليسوعيّين . واخرج امرًا الى المملكة كلّها بان يتديّنوا بدين تلك الكنيسة • فهاج عليهِ شغب من الرعيّة واثاروا عليهِ فتنة فيها مات قتيلاً * ولمّا تخلّف بعدهُ سُسنايوس . ذهب مذهبهُ في قبول الايمان الارثدكسيّ . وكتب الى البابا والى ملك اسبانيا في طلب بطريرك كاثليكيّ * فسِيم سنة ١٦٢٤ الفنسس دي مندز اليسوعي البرتوغالي بطريركًا على الحبش في مدينة لسبونا . وبعد سنة وصل الى بلاد الحبش . واجرى فيها معتقد الكنيسة الرومانيّة وعوائدها الطقسيّة . واعاد

رسامة القسوس والشمامسة لشكهِ في صحتها . ونجحت هناك في زمان يسير الديانة الكاثليكيّة وقويت * فعصى على الملك جانب من الرعيّة المتمسّكة بالمذهب السابق . وكان قائدهم ثقله صهر الملك . فكسرهم الملك . الاّ انّ منديز البطريرك أُلزم ان يعيد طقس الحبش القديم ويترك من الامور الرومانيّة فقط ما لم يكن بدّ منهُ * ولكن انقلب الحال لمّا استولى على المملكة بعد موت هذا الملك ابنهُ فَسِيلادا . فانّهُ ابغض الديانة الكاثليكيّة . واضطهد اصحابها . وضبط كنائسهم . ونفى منهم وقتل منهم . وطرد البطريرك اللاتيني وحاشيتهُ * فهرب كثيرٌ من المرسلين الكاثليكيين . وطافوا من بلدٍ الى بلد ليثبّتوا المومنين في الايمان . حتّى ماتوا شهدآء عن آخرهم . وفي سنة ١٦٤٥ قتل الملك ايضًا عمّهُ زيلاخرِسطُس لسبب ثباتهِ في الايمان الارثذكسي * ومع هذا فمجمع بروبغندا بعد سنين قليلة ارسل منذرين آخرين من الكبوشيّين الى بلاد الحبش . فقُتلوا كلّهم قبل ان يمكنهم ان يعملوا شيئًا * وفي مبادئ القرن الثامن عشر انطلق الى بلاد الحبش ثلاثةٌ من الفرنسيسيّين . فالتقاهم الملك بالترحاب والاكرام . ولكن بعد قليل هاج عليهم غضب الرهبان الحبشيّين . فاثاروا عليهم فتنةً شديدة فيها طاح الملك نفسهُ . ولمّا جلس الملك الآخر . قتل اولئك المنذرين بالرجم * واختلف منذ ذلك الحين حال الديانة في بلاد الحبش . حتّى اذا كان سنة ١٨٤٠ .

اقليميس الثالث عشر اثبت قوانين رهبنتهم ببراءة مخصوصة في ١٩ كانون الاول سنة ١٧٦١ * الاّ انّ هذه العلاجات القويّة كلّها التي استعملها الباباوات لتثبيت الامّة القبطيَّة في طاعة الكنيسة الكاثليكيّة وجذب الشاردين منهم اليها لم تنجع. وسبب ذلك هو على الخصوص انّ اهل مصر ظنّوا على الدوام بعمى الضلال الذي اطغاهم بهِ الشيطان انّ ديوسقورس بطريركهم الاسكندريَّ قد ظلمهُ المجمع الخلقيدوني بجرمهِ اياهُ. ولذلك يصعب جدًّا اقناعهم بقبول هذا المجمع ودحض ديوسقورس إمام شيعتهم *

اعلم انّ القبط الكاثليكيين يوجدون في القاهرة قاعدة ديار مصر وما يجاورها وفي بلاد من ارض صعيد مصر * وطقسهم هو طقس الكنيسة الاسكندريّة. وهو في اللغة القبطيّة التي هي فرع من لغة مصر القديمة. اختلط فيها أَلفاظٌ كثيرة يونانيّة. وكتابتهم ايضاً بقلمٍ اشبه شيءٍ بالقلم اليوناني * وهذه اللغة لولا استعمالها في الكنيسة. لاندثرت ولم يبقَ منها اثر * واعلم انّ طقس القبط يحوي جُمَلاً صحيحةً يونانيّة برمّتها اكثر من سائر الطقوس. ومن هذا نستدلّ على انّ هذا الطقس صيغ على طقس الكنيسة الاسكندريّة التي كان اهلها يونانًا ويستعملون اللغة اليونانيّة * ويستعمل القبط ايضاً اللغة العربيّة في الطقس كاليعاقبة. الاّ انّهم يقرأون الرسالة والانجيل اوّلاً في اللغة القبطيّة ثمّ في العربيّة *

وقد جرت العادة من قديم الزمان ان يُكتَب صكُّ انتخاب البطريرك الاسكندريّ بثلاث لغات. اليونانية والقبطيّة والعربيّة * والقبط عندهم للقدّاس ثلاث نوافير او ليترجيّات. تسمّى احداها باسم مار باسيليوس. والاخرى باسم مار غريغوريوس. والثالثة باسم مار قورلّس * وهم يقدّسون بالخبز الخمير. الاّ انّهم مرّة في السنة يقدّسون بالفطير. اي في خميس الفصح * وعندهم ربّما اذا قدّس القسّيس. يعاونهُ قسّيس آخر بوقوفهِ معهُ * وللقبط تاريخٌ يسمّونهُ تاريخ الشهدآء نسبةً الى الشهدآء الذين قتلهم ديوقلطيانس ملك الروم. وهو يبتدئ في سنة ٢٥٨ من تاريخ الميلاد. والسنة عندهم تبتدئ في مبادئ الخريف. وشهورهم مختلفة الترتيب من الشهور المعهودة *

ثمّ اعلم انّ النائب الرسولي الذي يرعى القبط الكاثليكيّين يسوس ايضاً الحبش الراجعين الى الكنيسة الكاثليكيّة لمجاورتهم للقبط ولتعلّق رياستهم من قديم الزمان باختيار البطريرك الاسكندري* وقد راينا في الفصول السابقة انّ الحبش اكثر من مرّة التمسوا الوصال بالكنيسة الرومانيّة * ومن مِثل ذلك انّ زاراع يعقوب ملك الحبش بعث سنة ١٤٤٢ رسولاً الى البابا اوجانيوس الرابع بصُحُف يقرّ لهُ بالطاعة ويعدهُ بالحجّ الى روميّة بنفسهِ ليتبارك بتقبيل قدميهِ. وذلك بمعزل عن معرفة بطريرك القبط والاسلام لئلاّ

اداها عنهم البابا غريغوريوس المذكور * وبعد ذلك بقليل اذ جلس اقليميس الثامن على كرسيّ مار بطرس . زوّر احد المكّارين الدهاة رسالةً من بطريرك القبط وطائفتهِ الى البابا . فيها صوَّر جميع اولئك الأقوام يقرّرون الطاعة لخليفة بطرس الرسول ويطلبون موالاة الكنيسة الرومانيّة . الاّ انهُ بعد فحص قليل انفضح حال الخديعة والتزوير * ولكنّ القبط لم يكونوا يثبتون زمانًا على العهود التي كانوا يضربونها مع الكنيسة الكاثليكيّة . حتّى اذا جلس على كرسي بطرس الرسول البابا بندكتس الرابع عشر . رجع الى طاعة الكنيسة الكاثليكيّة بهمّة المرسلين قومٌ كثيرٌ من القبط في مصر والصعيد * فاذ راى الحبر الاعظم المذكور ان ليس في اولئك الراجعين اسقف يسوسهم ويرعى نفوسهم . سلّم رعايتهم سنة ١٧٤١ الى اثناسيوس القبطيّ اسقف اورشليم الذي كان قد عاهد الكنيسة الرومانيّة بالطاعة * ولكن بعد ذلك الزمان تبلبلت احوال الطائفة القبطيّة الكاثليكيّة . الى ان جلس البابا بيوس السابع . فرجع من تلك الطائفة عدّة غير قليلة الى طاعة الكنيسة الرومانية ورفضوا ضلال المنوفسيتيّة * فاقام لهم الحبر الاعظم المذكور المطران مكسيموس القبطيّ ليسوسهم بصفة نائب رسوليّ اي بابوي . سامهُ بطريرك الملكيين اغناطيوس القطّان الذي توفّي سنة ١٨٣٢ * ولمّا توفّي مكسيموس . اقام الكرسيّ المقدس

على القبط الكاثليكيّين ثاودورس اسقف هالينا ليسوسهم بالصفة المذكورة. وسامهُ بطريرك السريان انطون سميري في مرورهِ بمصر سنة ١٨٥٥ * وبعد وفاتهِ نصب الكرسي المقدّس على تلك الطائفة السيّد ابراهام بشاي اسقف كاريوبليس بالصفة المذكورة. وذلك في ٢ شباط سنة ١٨٦٦. وهو المتولّي عليهم الآن سعيدًا * فترى انهُ الى الآن لم يدرج في سلك اساقفة الكنيسة الكاثليكيّة اسم بطريركٍ او مطران او اسقف واحد من القبط مسمًّى على كرسي من الكراسي القبطيّة. وسبب ذلك انّ الطائفة القبطيَّة التي رفضت ضلال المنوفسيتيّة صغيرةٌ جدًّا بالنسبة الى سائر الطائفة الثابتة على عهد الشقاق * فالكنيسة الكاثليكيّة اكتسبت الى الآن من القبط اقلّ ممّا اكتسبتهُ من سائر الطوائف الشرقيّة بكثير. مع انّ الاحبار الرومانيّين جدّوا جدًّا كثيرًا في تسهيل كلّ الطرق لجذب الطائفة القبطيّة وترغيبها في الرجوع الى حضن امّها الحقيقيّة وهي الكنيسة الكاثليكيّة * فقد اعتنى الاحبار الرومانيّون في طبع اكثر كتبها الطقسيّة في القبطيّة والعربيّة بنفقات وافرة جسيمة من كرَم الكرسي المقدّس. ووهبوا لتلك الطائفة ديرًا في رومية ملحقًا بهِ ابنيةٌ وروضةٌ لياوي فيهِ رهبانها وحجّاجها الذين يقصدون تلك المدينة المقدّسة * وكان في نحو اواسط القرن الثامن عشر في ذلك الدير عدّة من الرهبان القبطيّين والحبشيّين. حتّى انّ البابا

ومن طقس اللاتين * وقد اتّبعوا الكنيسة الرومانيّة في عدّ الدرجات الكهنوتيّة وفي طقوسها * وللارمن تاريخ يبتدئ من سنة ٥٤١ من تاريخ الميلاد . وهو تاريخ السنة التي فيها اجدادهم انفصلوا من الكنيسة الكاثليكيّة * وممّا اختصّت بهِ طائفة الارمن دون سائر الطوائف النصرانيّة اتّخاذها صنفاً من المعلّمين يسمّى الواحد منهم وَرْتبيت . هو بين القسّيس والاسقف رتبةً . ويُسام بطقس خصوصيّ كما يسام اهل الدرجات الكهنوتية . ولهُ وحدهُ حقّ التعليم والافتاء في امور الدين في ايّ ابرشيّةٍ اراد . وهو يمسك عكّازةً في يدهِ كالاسقف . ولهُ جاهٌ وقدر عظيم عند العامّة * وكان البابا غريغوريوس الثالث عشر في القرن السادس عشر قد صمّم ان يقيم في رومية مدرسةً لطائفة الارمن كما اقام لطائفة الموارنة . ومن رسالتهِ التي اصدرها في هذا الشان سنة ١٥٨٤ يتّضح اعتبار الكنيسة الرومانيّة لهذه الطائفة . فانهُ قال فيها « انّ طائفة الارمن لا يُحصَى عددها ولا يُستقصَى حدّها . وهي مشهورة في القدم والاسم . وتستحقّ المدح البليغ لحبّها للديانة المسيحيّة وثباتها فيها دون جميع طوائف المشرق » * ولكن الحبر الاعظم توفّي قبل ان يباشر امر انشاء المدرسة المذكورة] *

الفصل الحادي والثلاثون

في الطائفة القبطية والطائفة الحبشية واحوالها

[انّ اليعاقبة المنوفسيتيّين الذين في ديار مصر لمّا انفصلوا منذ القرن الخامس من جسم الكنيسة الكاثليكيّة . عُرِفوا باسم القُبط . وهو محرَّف أَجِبْت الذي هو اسم مصر في اللغة اليونانيّة * وقد طلبت الطائفة القبطيّة اكثر من مرّةٍ الوصال بالكنيسة الرومانيّة كما راينا سابقاً . والاحبار الرومانيّون ايضاً سعوا كثيراً في جذبها الى طاعة الكنيسة الكاثليكيّة . ومن جملتهم البابا غريغوريوس الثالث عشر في القرن السادس عشر بعث قصّاداً الى الطائفة القبطيّة برسالة الى بطريركهم ٥ فاجتمع القصّاد في مدينة القاهرة سنة ١٥٨٢ ببطريرك الاسكندريّة وغيرهِ من اساقفة القبط وروساء الاديرة وثلاثين من اعيان الطائفة في مجمع . وجلسوا ثلاث جلساتٍ . فيها بعد المحاورة الطويلة قرّ الرأي على تبطيل سنّة الختانة التي كان القبط يستعملونها الى ذلك اليوم . ووعدوا بقبول معتقد الطبيعتين في المسيح * الاّ انّهُ بعدما فضّ المجمع . ومات البطريرك . بغى الحسّاد على القصّاد البابويّين . وسعوا فيهم لدى الحكّام كأنّهم قدموا الى البلاد جواسيس من قبل ملوك الافرنج . فطُرِحوا في سجن اليم . ولم يخرجوا منهُ حتى افتدوا انفسهم بخمسة آلاف دينار

ولا الرسل والآباء الاوّلون عرفوا هذا التمييز *

واذا عدنا الآن الى الكلام عن الارمن نقول انّ الطائفة الارمنيّة الكاثليكيّة يسوغ ان نقرّر انها موجودة في كلّ صقع من الدنيا . فانهُ ما عدا ارمنيّة الكبرى وارمنيّة الصغرى توجد في اناضول والروملي وسورية وفلسطين وبين النهرين وكردستان والفرس والكرج والارنويط والهند ومصر * ومن الارمن الكاثليك طائفة كبيرة تحت حكم المسقوف . واخرى في مملكة اوستريا في ولاية ليه . وهولاء لا تتعلّق اساقفتهم ببطريرك الارمن . ومنهم لفيط في كثير من مدن اوروبا المتجريّة * وللارمن صنفان من الرهبنة . صنفٌ يُنسب الى مار انطونيوس . ومنهُ ديرٌ في رومية تحزّب رهبانهُ سنة ١٨٧٠ لاعداء البطريرك حسّون وخلعوا الطاعة فأُغلق ديرهم * والصنف الآخر رهبنة المخيتاريّين نسبةً الى بطرس مخيتار الذي كان اوّلاً من المشاقّين . ثمّ في سنة ١٧٠٠ تكثلك واحتزّ في غيرة الايمان الارثدكسيّ في مدينة قسطنطينيّة * فلمّا هاج عليهِ غضب المشاقّين . هرب الى مدينة بندقية المشهورة في ايطاليا سنة ١٧١٧ . فوهب لهُ والي المدينة جزيرة صغيرة في خليج المدينة . فبنى فيها كنيسةً وديرًا . واجتمع اليهِ كثيرون من بني جنسهِ . وترهّبوا تحت تلمذتهِ * ثمّ اضاف الى الدير مطبعةً صالحة خرج منها الى الآن كتبٌ كثيرة مفيدة في الارمنيّة ولغات

اخرى * ثمّ بعد قليل صار لتلك الرهبنة دير آخر عامرٌ في مدينة وَيَنّا التي هي قاعدة مملكة اوستريا * وفي سنة ١٨٦٩ فُتِح في القسطنطينيّة مجمع الطائفة الارمنيّة ودام زمانًا . وفيهِ سُنّت قوانين جليلة وافية شاملة في مصالح الدين وتدبير السياسة البيعيّة. الاّ انّ هذا المجمع بافتتاح المجمع الواتكاني بقي موقوفًا . ولم يبلغ الى النهاية * امّا طقس الارمن فهو باللغة الارمنيّة القديمة على الاطلاق . وبين جميع الطوائف الشرقيّة الطائفة الارمنيّة وحدها هي التي حفظت لغة الطقس الاصليّة في كلّ حال كاللاتين . مع انّ عامّة الارمن يتكلّمون بلغةٍ مختلفة من اللغة القديمة * ويختلف طقس الارمن من سائر الطقوس في اشياء كثيرة . ولا سيّما الاعياد . فانهم يعيّدون كلَّ الأَعياد يوم الاحد الَّا الدنح والختانة والبشارة . ويعيّدون الميلاد والدنح في يوم واحد اي في سادس يوم من شهر كانون الثاني كما كان السريان ايضًا يفعلون قديمًا الى القرن الخامس * ولهم اصوامٌ كثيرة تختلف في الترتيب من اصوام سائر الطوائف . واكثرها اسبوعي * ومن خواصهم انّهم لم يكونوا يمزجون الماء في الكاس في القدّاس * الاّ انّ الكاثليكيّين قد اجروا اغلب هذه الاشياء مجرى سائر الكنائس الكاثليكيّة * وللارمن ليترجية واحدة للقدّاس تحوي عبارات يونانيّة كما عند القبط واليعاقبة . وفيها اعارات شتّى من طقس اليونان

لهُ ان ينتخب الاشخاص الذين يُقامون للكهنوت » . وقد أثبت سائر الطوائف الشرقيّة هذا القانون في كتبهم الفقهيّة . ومن جملتهم اليونان لدى بلسمون وزونارا واليعاقبة في كتاب الهداية * فبموجب هذا القانون لا حقّ للعلمانيّين ولا للقسوس الشرقيّين ان يتداخلوا في امر انتخاب الاساقفة * وامّا انّ البابا بيوس التاسع جزم على بطريرك الارمن والاساقفة ان يقدّموا للكرسيّ الرومانيّ اسمآء ثلاثة اشخاص ليختار منهم واحدًا الاسقفيّة الفارغة . فاذا اعتُبرت حقيقة الامر لا يبان غريبًا ولا جديدًا * فانّ كلّ شيعة من الشيع المشرقيّة (النساطرة مثالاً واليعاقبة) لم يكن ينُصَب عندها اسقف الاّ بعلم بطريركها الذي هو عندها راس الكنيسة وبرضاهُ ورسامتهِ * والحال انّ الكنيسة الكاثليكيّة راسها هو الحبر الرومانيّ . افاذًا يصدَّق انّ الارمن المتمرّدين على برآءة رَوَرْسُورس يعطون رئيس الكنيسة الكاثليكيّة الذي هو خليفة بطرس الرسول نائب المسيح راسًا حقوقًا اقلّ مّما اختصّ بهِ على الدوام راس كنيسة الشيعة المشاقّة * وزِد على ذلك انّ قوانين المجامع والآبآء لم تصحّح في الكنيسة الانطاكيّة الاّ بطريركًا واحدًا متمتعًا بحقوق البطريركيّة * فمن البطاركة الخمسة الموجودين الآن في الكنيسة الانطاكيّة من فضل الكرسيّ المقدّس اربعةٌ بلا شكٍّ ليس لهم من ذات نفسهم حقّ التمتّع بالبطريركيّة الاّ كما يجود

عليهم الكرسيّ المقدّس نفسهُ بموجب ما يراهُ مناسباً لمقتضى الحال * وكلُّ خبيرٍ يعلم انَّ تصرّفات البطاركة والاساقفة وفي العموم انَّ عادات الكنيسة ورسومها تغيّرت من جيلٍ الى جيل بمقتضى اختلاف الاحوال * الم يكن مثلاً جميع الاساقفة في الكنيسة الشرقيّة ملتزمين في الاجيال الماضية بالانقطاع عن اكل اللحم وشرب الخمر. والاساقفة كلّهم قاطبةً كانوا يُنتخَبون في مجمع الاساقفة المجاورين * فمثلما ساغ للكنيسة ان تبيح للاساقفة الشرقيّين اكل اللحم وشرب الخمر. وللاساقفة الغربيّين ان يُنتَخبوا براي قسوس الكرسيّ الذين يقال لهم القانونيّون او براي الملك. كذلك يسوغ لها ان تجعل انتخاب الاساقفة الشرقيّين معلّقاً برضى الحبر الاعظم كسائر الاساقفة في العالم كلّهِ. لانَّ الاساقفة الشرقيّين ليسوا خاضعين للحبر الاعظم اقلّ من سائر اساقفة العالم كلّهِ * والملوك ما لهم حقٌّ ان يتداخلوا في امر نصب رعاة الكنيسة اكثر من رئيس الكنيسة الجامعة كلّها * فالحبر الرومانيّ الذي هو راس الكنيسة الكاثليكيّة لهُ حقٌّ ان يعدّل القواعد السياسيّة على مقتضى الأزمان. وكلّ كاثليكيّ حقّهُ ان يطيعهُ. لا ان يبتغي منهُ ما يهوى خاطرهُ * وليس في ذلك فرق بين شرقيّ وغربيّ. لانّ المسيح حينما وكّل بطرس الرسول على رعاية غنمهِ لم يميّز الشرقيّين من الغربيّين. ولا سلّطهُ على الغربيّين اكثر ممّا على الشرقيّين *

في الطائفة الارمنيّة بعد انضمامها الى بطريركيّة واحدة • وذلك انّ بعضاً من الاساقفة والرهبان والقسوس الذين لم يحبّوا البطريرك حسّون التمسوا علّةً ليخلعوا طاعتهُ . فتحجّجوا عليهِ بانّ براءة البابا بيوس التاسع المذكورة التي بها ايّد انتخابهُ نقضت برضى البطريرك حسّون وعلمهِ بعضاً من حقوق الطائفة الارمنيّة. من حيث انّهُ بها ابطل مداخلة القسوس والعلمانيّين في انتخاب البطريرك . وعلّق تصرّف البطريرك المنتخب الى وصول تاييد انتخابهِ من رومية . وجزم على البطريرك ان لا يقيم اسقفاً او مطراناً جديداً الاّ في مجمع اساقفتهِ بان ينتخبوا ثلاثة أشخاص ويقدّموا اسماءهم الى الكرسيّ المقدّس فينصب البابا واحداً من هولاء الثلاثة . وغير ذلك * فهيّج اولئك المتمرّدون المتعصّبون على حسّون البطريرك جانباً كبيراً من الطائفة في مدينة قسطنطينيّة وغيرها زاعمين انّ جلوسهُ لم يكن شرعيّاً • وفي سنة ١٨٧١ تجمّعوا في المدينة المذكورة . ونصبوا احدهم بطريركاً مشاقّاً عليهم يقال لهُ كوبليان كان مطران دياربكر . وهكذا انفصلوا من طاعة الحبر الرومانيّ وشركة الكنيسة الكاثليكيّة * الاّ انّ هولاء الماردين لم يقتصروا شرّهم على انفسهم . فانّهم اثاروا فتنةً عظيمةً عامّةً في الطائفة الارمنيّة حيثما وُجدت . وبلبلوها بلبلةً شديدة • وساعدتهم الدولة العثمانيّة فضبطوا أملاك الطائفة وكنائسها في القسطنطينيّة

وجبل كسروان وغير ذلك . ثمّ بلغوا الى حدّ انهم نالوا من
الباب العالي امرًا بنفي البطريرك حسّون . فانطلق الى رومية *
فليس من لا يرى انّ احتجاجات هولآء العصاة فاسدةٌ اثميّة . فانهم
ان كانوا كاثليكيّين . فيفرَض عليهم ان يخضعوا لسلطان البابا
الرومانيّ خليفة بطرس الرسول كسائر الكاثليك في العالم كلّهِ .
وان كانوا مشاقّين . فليس لهم حقّ ان يتداخلوا في امر قيام
اساقفة الكنيسة الكاثليكيّة وبطاركتها ونظامها وشرائعها * امّا انّ
البابا بيوس التاسع ابطل ببرآءتهِ مداخلة العلمانيّين والقسوس
في انتخاب الاساقفة والبطريرك فليس ذلك سنّةً جديدة . فانّ
البطاركة المشرقيّين المنشقّين كلّهم قد اعتادوا منذ أجيال ان
ينصبوا على الكنائس الاسقفيّة والمطرنيّة الأشخاص الذين يحبّون
من دون مشاورة اهل الابرشيّات القسوس والعلمانيّين * وقوانين
الكنيسة القديمة نفسها قد حرمت هذه مداخلة العلمانيّين
والقسوس نفسهم في انتخاب الاساقفة . فانّ مجمع لاوذقيّة المعقود
في القرن الرابع والذي اثبتهُ جمٌّ عظيم من اساقفة المشرق في
مجمع القصر سنة ٦٩١ وجعلوهُ سنّةً . وقبلتهُ الكنيسة الكاثليكيّة
باسرها في سجلّ شرعها . في القانون الثاني عشر نصّ على انّ
« الاساقفة يُنتخبون بحكم المطارنة والاساقفة المجاورين » . واشترع
في القانون الثالث عشر صريحًا انّ « لفيف الشعب لا يُؤذَن

بريماتهم الاوّل انطون نوريجان . فحاز هذا الولاية على جميع الارمن الكاثليكيّين الذين في المملكة العثمانيّة سوى بلاد الشام وبين النهرين * وفي سنة ١٨٥٠ البابا بيوس التاسع اضاف الى هذه البريماتيّة مطرنيّات واسقفيّات . ومنها مطرنيّة اصهبان الواقعة في المملكة الفارسيّة *

وبقي هكذا الارمن الكاثليكيّون مقسومين الى طائفتين . طائفة يسوسها بطريرك قيلقيّة . وطائفة يدبّرها بريمات قسطنطينيّة . حتّى اذا تُوفّي سنة ١٨٦٦ غريغوريوس بطرس الثامن البطريرك المارّ ذكرهُ . احبّ الحبر الاعظم بيوس التاسع ان يضمّ الطائفتين ويجعلها واحدة كما كانت اساقفة الامّة الارمنيّة قد طلبت ذلك سابقًا من الكرسي المقدّس * فابرز البابا المشار اليهِ بتاريخ ١٢ تمّوز سنة ١٨٦٧ البراءة المشهورة التي بدءها رَوَرْسُورُس اي اذ كان راجعًا . وفيها ابطل البريماتيّة القسطنطينيّة وضمّها الى البطريركيّة القيلقيّة . وجعل مقرّ البطريرك في مدينة قسطنطينيّة . وكان المطارين قد اختاروا انطونيوس حسّون الذي كان بريمات المدينة المذكورة ليكون بطريركًا . فاثبت البابا انتخابهُ . ورسم رسومًا على المطارين والاساقفة اللائذين بهِ * فصار حسّون المذكور اوّل بطريرك ارمنيّ جلس على كرسي سيس او قيلقيّة في مدينة القسطنطينية . ولُقِّب ببطرس التاسع * يا ليت الكرسيّ المقدّس يتيسّر لهُ ان يضمّ

على هذه الصورة الطوائف الثلاث السريانيّة اي الكلدانيّة والسريانية والمارونيّة ويجعلهنّ طائفةً واحدةً كما كنّ قبل عهد الشقاقات[1] * اعلم انهُ بحجّة براءة زورسورس المارّ ذكرها قد حدث فتنةٌ عظيمة

---

(١) ومن الممكنات المستحبّات ضمّ الملكيّين والارمن ايضاً الى سائر الطوائف التي في البطريركيّة الانطاكيّة بحيث تصير كلّها تحت رياسة واحدة كما كانت يوماً * ونحن لا نرى هذا الامر صعباً اذا احبّت الرؤساء كما يتخيّل قوم * ولنوالهِ ثلاث طرائق * الاولى هي اصعبهنّ وافضلهنّ ان تتمسّك كلّ الطوائف التي في البطريركيّة المذكورة بطقسٍ واحدٍ. مثلاً بطقس الملكيّين الذي هو منتشر اكثر من سائر الطقوس الشرقية بل بعد الطقس اللاتيني هو الاشيع . وتوافقهُ اكثر الطقوس الشرقيّة في امور كثيرة * والثانية ان تبقى كلٌّ من طائفتي الارمن والملكيين على طقسها . وتتّفق الطوائف الثلاث السريانيّة على طقس واحد اي الكلدانيّة والمارونيّة والسريانيّة بحيث يحذفن كلّ ما يختلفن فيهِ ويُبقين فقط ما يتّفقن فيهِ او ما تظهر علامات قدمهِ او فضلهِ . وهذا من اسهل الامور اذا ارادت الرؤساء * والثالثة ان تبقى كلّ الطوائف على طقوسها كما هي الآن . فيخضعن كلّهن لرياسة واحدة مختارة من احداهنّ بحسب القوانين البيعيّة . وليس في هذا ادنى صعوبة . فانّ امثالهُ كثيرة في زماننا هذا نفسهِ : الا ترى انّ مطران مديولان مثلاً يحكم على جميع الذين في ابرشيّتهِ سوآء كانوا من الطقس المسمّى الاميروسياني او من الطقس الرومانيّ او من غيرهِ . وكذلك مطران ازمير يسوس اللاتين والروم والارمن وسائر الكاثليكيّين الذين في تلك الابرشيّة . والنائب الرسوليّ المتولي سياسة بلاد ملبار يرعى الملباريّين الكلدانيين واللاتينيّين وسائر من يسكن تلك البلاد من الكاثليك *

امتدّ سلطان البطريرك على الارمن الذين في بين النهرين بامر الكرسيّ المقدّس ثمّ على طوقات وبركنيك في اسيا الصغرى * ولمّا جلس غريغوريوس بعد خليفتهِ. نصب مدرسةً اقليريسيةً في دير بزُمّار المذكور سنة ١٧٩١ ليتفقّه فيها الشبّان ويلازموا بعد ذلك عمل الإنذار في طائفتهم بصفة مرسلين الى الموت * ثمّ تتابعت سلسلة اولئك البطاركة الى ان جلس سنة ١٨٤٣ غريغوريوس بطرس الثامن. وهو آخِر من جلس في بزُمّار كما سنرى *

ثمّ انهُ كان في قسطنطينيّة وما يجاورها طائفة كبيرة من الارمن المنشقّين منذ القرن الخامس عشر. وكان لهم بطريرك على حدة * وفي مبادئ القرن الثامن عشر تكتلك من تلك الطائفة نحو اربعين بيتًا في القسطنطينيّة نفسها. الاّ انهم كانوا تحت الضيق والضنك من جور بطريرك المشاقّين * وحدث في سنة ١٧٣٩ انّ فتىً من تلك الطائفة الكاثليكيّة عمرهُ اثنتان وعشرون سنة كان يومًا في الصفا مع عِشرة من الاسلام. فسقوهُ خمرًا حتّى سكر وفي حال السكر جعلوهُ يتشاهد بدين الاسلام * فلمّا افاق. اخذهُ اشدّ الندم وعزم على الرجوع الى دين المسيح مع علمهِ انّ ذلك يأُول بهِ الى القتل * فتناول الأَسرار المقدّسة ودبّر امور دنياهُ. واستعدّ للقضاء الالهيّ * فقبضوا عليهِ واوقفوهُ امام الوالي. فاقرّ

انهُ نادم على إسلامهِ * فلمّا رأى الوالي انهُ لا يمكن صدّهُ عن رأيهِ بالوعد ولا بالوعيد . امر بقتلهِ . فضُرب عنقهُ وهو متثبّت على عزمهِ ووجههُ يتهلّل فرحًا وفمهُ ينطلق بالتسبيح * ولكنّ هذا وغيرهُ من الحوادث المؤلمة لم تكن ترخي عزائم الكاثليكيّين الجدد . بل كانوا يزدادون عددًا يومًا فيومًا في القسطنطينيّة وبرصة وانقورية * وهذه الطائفة الكاثليكيّة كان يسوسها اسقفٌ لاتيني بصفة نائبٍ بابويّ . ولهذا فكان المشاقّون يسمّونها طائفة الافرنج . وطالما حرّكوا أَرباب الحكم الى اضطهادها واذائها لهذا السبب . لانّ اسم الافرنج كان مستراباً فيهِ في ذلك الزمان * واصعب ما أَلمّ براس تلك الطائفة صدور فرمان سلطانيّ في اواسط القرن الثامن عشر بيد بطريرك الارمن المشاقّين . بهِ يُفوَّض اليهِ ان يجبر جميع الارمن الكاثليكيّين باتّباع مذهبهِ * ولمّا اشتدّ الامر على الكاثليكيين . زعم قوم من المتفقّهين فيهم أَنّ اشتراكهم في امور الدين مع بني جنسهم المشاقّين لم يكن حرامًا بحجّة انّ اولئك المشاقّين لم يكونوا هراطقةً في الحقيقة . ولكنّ الكرسيّ المقدّس ارذل هذا الزعم الغريب الفاسد . ونهى عن المشاركة المذكورة نهيًا مطلقًا * ثمّ انّ الكرسيّ المقدّس احبّ اخيرًا ان يقيم على هذه الطائفة رئيسًا من جنسها اذ كانت العوائق قد زالت . وفي سنة ١٨٣٠ نصب لهم البابا بيوس الثامن جاثليقًا صغيرًا او بريمانًا اي متقدّمًا في المطارين يجلس في القسطنطينيّة . وكان اسم

بها لاختلافهم منهم في امور شتّى . واما لسبب انّ الكنيسة الرومانيّة تقدّس بالفطير وكان هذا من عاداتهم التي كان جميع الشرقيين يلومونهم عليها . واما لسبب انّهم وحدهم بين الطوائف النصرانيّة عدا الروم والحبش كان لهم ملوك من جنسهم ومذهبهم فكان ملوكهم يحبّون معاهدة الملوك الافرنجيّين لمصالح مملكتهم ولاسيّما البابا الرومانيّ الذي كان محسوبًا ملك ملوك اوروبا كلّها . واما للانقياد الى الالهام الالهيّ الذي كان يدعوهم بواسطة الاحبار الرومانيّين ورُسلهم ان يتركوا ضلال المنوفسيتيّة الذي سلّمهم ايّاهُ آباؤهم * الّا انّهم لم يكونوا يثبتون زمانًا طويلاً على العهود التي كانوا يضربونها مع الكرسيّ الرومانيّ . ولو انّهم لكثرة معاطياتهم معهُ اتّخذوا عوائد كثيرة لاتينيّة يستعملونها الى الآن * لا بل انّ طائفةً عظيمة من الارمن في الجهات الشماليّة المشرقيّة منذ القرن الرابع عشر تبعت طقس اللاتين راسًا مستخرجًا الى اللغة الارمنيّة . وكان الرهبان الدومنكيّون يسوسونهم . وكانت اساقفتهم من هذه الرهبنة الى مبادئ القرن الثامن عشر * ثمّ انهُ في اواسط القرن السابع عشر رجع طائفة كبيرة من ارمن بين النهرين وسوريه على يد ملكيور طَسْبَاس مطران ماردين الارمنيّ وصاروا كاثليكيّين . الّا انّ طسبّاس اصابهُ اضطهاد قويّ من المشاقّين حتّى توفّي منفيًّا في القسطنطينيّة سنة ١٧١٤ * واما بطاركة الارمن او

بالاصحّ جثالقتهم مع معظم الطائفة فلم يبقوا على حال واحدة • فانهُ لمّا كانت امتهم قد قُسمت منذ أَجيال بين بطريركين ثمّ بين ثلاثة بطاركة. كان بطاركة ارمنية الصغرى وهم بطاركة سيس يلتمسون على الخصوص الصلح مع الكنيسة الرومانيّة ويتعاهدون معها ثمّ ينكثون العهد. بخلاف بطاركة ارمنية الكبرى الساكنين في اشمياتزين الذين كانوا متمسّكين بالشقاق تمسّكًا قويًّا * فلمّا راى الارمن الكاثليكيّون الذين في سوريه وبين النهرين تقلّب بطاركتهم اي بطاركة سيس. ساءَهم ذلك. وفي سنة ١٧٣٩ اجتمعت الطائفة الارمنيّة الكاثليكيّة. ونصبت ابرهام الارمنيّ العَينتَابي مطران حلب بطريركًا عليها * وفي سنة ١٧٤٢ بعد وفاة لوقا بطريرك سيس المشاقّ انطلق ابرهام الى روميه وأُثبت على البطريركيّة وتلقّب ببطرس • ومن هنا بدأت سلسلة البطاركة الارمنيّين الكاثليكيّين. ويسمّون بطاركة قيلِقِيّة. واتّخذوا كلهم هذا لقب بطرس * وفي سنة ١٧٤٣ ارسل البابا بندكتس الرابع عشر رسالةً الى طائفة الموارنة فيها يوصيهم في بطريرك الارمن وطائفتهِ. فرجع ابرهام. وجعل مقرّهُ في دير الكُرَيم في جبل كسروان * وفي سنة ١٧٤٩ تخلّف بعدهُ البطريرك يعقوب. وهذا شيّد الدير المعروف بدير بزُمّار بقرب الدير المذكور. واقام فيهِ هو وخلفاؤهُ * وفي ايّام ميخائيل الذي جلس بعدهُ سنة ١٧٥٣ .

اناشيد موزونة في صلواتهم كعادة سائر الطقوس * واعلم انّ الذين الّفوا طقس الروم ورتّبوهُ لم يكونوا كلّهم من الكنيسة القسطنطينيّة . بل كان كثيرٌ منهم من البطريركيّة الانطاكيّة او الاورشليميّة . وهذا هو سبب شدّة مشابهة طقس اليعاقبة لهذا الطقس[1]] *

وزيت مسحة المذابح والكنائس يقدسهُ الاسقف فقط ولعلّ في ذلك عادةً قديمةً كانت جاريةً في الكنيسة الرومانية نفسها * وعند سائر الكنائس ما عدا اليونان كلّ اسقفٍ لهُ ان يقدّس الميرون كلّ سنة . فانّ التواريخ ذكرت انّ يوحنّا اسقف ماردين اليعقوبيّ الذي عاش في القرن الثاني عشر قدّس الميرون ثلاث عشرة مرّة . وكتب الطقس السرياني توكّد ذلك * الاّ انّ اليعاقبة والموارنة والارمن تعلّموا بعد ذلك من اليونان ان يخصّصوا تقديس الميرون للبطريرك وحدهُ *

(١) انّ الكنيسة الاورشليميّة كان لها بلا شكٍّ طقسٌ مختصٌّ بها في الاجيال السالفة . ولابدّ من انهُ كان شبيهًا بطقس الكنيسة الانطاكية لمجاورتهما ولحوق اورشليم يومًا بالكنيسة الانطاكية * الاّ انهُ ممّا يوجب الاسف انّنا لا نعلم عن طقس الكنيسة الاورشليمية سوى شيءٍ زهيد لا يوفي بالمرام وحصل الاطّلاع عليهِ في القرن الحادي عشر على سبيل الصدفة . اذ وقعت الجدالات بين اللاتين واليونان . وهو انّ كنيسة اورشليم كانت تستعمل الليترجية الانطاكية المنسوبة الى مار يعقوب الرسول وانها لم تكن تستعمل السكّين في القداس ولا تقصّ خبز القداس مربّعًا * وامّا باقي امور الطقس فانمحت آثارهُ اصلاً اذ تبعت اورشليم طقس قسطنطينية . ولو بقي منها شعبةٌ عاصية على تلك الكنيسة . لحفظت لنا الطقس القديم كما حدث الامر في سورية ومصر * وامّا اللغة التي بها كانت كنيسة اورشليم تقضي الطقس سوآء كان الاصليّ او القسطنطينيّ فكانت اليونانية في الغالب . وكانت تستعمل ايضًا لغةً سريانية

الفصل الثلاثون

في اخبار الطائفة الارمنيّة واحوالها

[كانت الكنيسة القسطنطينيّة قد عارضت الارمن مرارًا كثيرة لتدعوهم الى ارثذكسيتّها واتّباع عوائدها الطقسيّة. وفي القرن الثاني عشر لمّا الحّ اليونانيّون كثيرًا على الارمن في هذا الشان. وعدهم الارمن بقبول ذلك واشترطوا عليهم شروطًا. اخصّها ان يترك اليونان التقديس بالخمير ويقدّسوا بالفطير تبعًا للكنيسة الرومانيّة. وان يسلّم ملكهم اي الملك القسطنطينيّ البطريركيّة الانطاكيّة لجاثليق الارمن * فلمّا ابى اليونانيّون قبول هذه الشروط. خاب امر الصلح بين الارمن والروم * وقبل ذلك العهد وبعدهُ التمس الارمن الصلح مع الكنيسة الرومانيّة والانضمام اليها مرارًا كما راينا سابقًا. وذلك لأسباب شتّى. اي امّا لخلوص سريرتهم في التماس الحقّ واتّباعهِ. وامّا لفرارهم من ملوك الروم وبطاركتهم الذين كانوا كثيرًا ما يتعرّضون لهم. وامّا لدفع المجادلات القويّة التي بها كان السريان اليعاقبة جارُهم يفحمونهم

مائلة الى كلدنية اليهود التي جلبوها من جلاء بابل. كما يظهر من كتاب قرآات انجيلية مقسّم بموجب طقس الروم كُتب في القرن الحادي عشر وتعريفاته في اللغة العربية. وهو مُلك الخزانة الواتكانية البابويّة *

الأَعياد والاصوام * والنوع الرابع ما يوجد فيهِ وفي طقس اليعاقبة والقبط دون سائر الطقوس الشرقيّة والغربيّة . من ذلك استعمال الملعقة في القدّاس لتناول العامّة [(١)] . وتوقيع الأَلحان البيعيّة على ثماني قينات (وهذا عند اللاتين ايضاً) * والنوع الخامس ما يوجد فيهِ وفي سائر الطقوس الشرقيّة والغربيّة ما عدا طقوس السريان اي النساطرة واليعاقبة والموارنة . من ذلك ان يخصّ الشمّاس ان يقرأ الانجيل في البيعة [(٢)] * والنوع السادس ما يختصّ بهِ طقس الروم دون سائر الطقوس كافّةً . من ذلك تربية قسوسهم ذوائب الشعر .

انهم يحفظون في كلّ كنيسة خميرًا مقدّسًا ادّعوا في القرن الثالث عشر انهُ مسلّم اليهم من الرسل . لا يخمّرون خبز القدّاس الاّ بهِ * ويحتمل انّ هذه العادة اصلها من العادة التي كانت جارية في الكنيسة الرومانية في الاجيال الاولى وهي انّ الحبر الروماني كان يبعث في كلّ يوم احد وعيد خبزًا يسمّونهُ الخمير الى كنائس رومية وربّما الى الخارج ايضاً . زعم قوم انهُ كان القربان المقدس . وغيرهم انّهُ كان خبزًا مباركًا مختمرًا لعمل خبز القربان منهُ * ولمّا كان اليونان قد ابتدأُوا في القرن الحادي عشر ان يزعموا انّهُ وُجد في قسطنطينية القربان الذي قدّسهُ المسيح نفسهُ من الخبز الخمير . وانّ اندراوس الرسول كان قد جلبهُ اليهم . بنى النساطرة على هذه الخرافة المضحكة وزعموا انّ نسطور جلب اليهم من قسطنطينية يوم طُرِد منها هذا الخمير المقدّس فحفظوهُ عندهم *

(١) كان الموارنة ايضاً يستعملون الملعقة ثمّ تركوها * (٢) من هذا يتّضح انّ تسمية العامة الشماس الدياقون بالانجيلي والهفدياقون بالشماس الرسائلي تبعاً للروم فاسدة في هذه الطوائف الثلاث السريانية . فانهُ في هذه الطوائف الانجيل يقرأهُ القسّيس . والرسالة يقراها الشمّاس *

وانقطاعهم عن اللحم في الاسبوع الذي يسبق الصوم الكبير [1] . واستعمالهم السكّين في القدّاس . وقصّهم خبز القدّاس مربّعًا . وسكبهم مآءً حارًّا في الكاس بعد تقديسهِ . وحفظهم قربان خميس الفصح طول السنة [2] . وكون بدلة قدّاسهم غير مفتوحةٍ من قدّام [3] . واستعمال اساقفتهم تيجانًا مدوَّرةً . ووضعهم اجزآءً عطريّةً في دهن الميرون [4] . واستبداد البطريرك لنفسهِ بحقّ تقديس الميرون [5] . وعدم وجود

(١) انّ القبط يصومون صومًا حقيقيًّا في هذا الاسبوع . وكان الموارنة ايضًا يصومونهُ . وذلك (على ما قيل) لوفآء عهدٍ التزم بهِ اهل تلك البلاد مع هِرَقْل ملك الروم الذي جلس في النصف الاوّل من القرن السابع * وهو معلوم انّ اللاتين يبتدئون الصوم الكبير في الاربعآء الاولى من صومنا. وامّا اهل مديولان فيبتدئونهُ من يوم الاثنين الثاني * (٢) هذه العادة نرى انها بدأَت في نحو القرن السابع . فانّ يعقوب الرهاوي ذكرها وذمّها *

(٣) البائن انّ البدلة كانت في جميع الكنائس حتّى الرومانيّة غير مفتوحة من قدّام كالبدلة اليونانية . وآثار ذلك ظاهرة في التصاوير القديمة وفي البدلة اللاتينية نفسها المستعملة الآن . لا بل انّ بدلة النساطرة هي اشبه شيءٍ ببدلة اليونان * (٤) انّ الكنيسة الكلدانية كانت تستعمل للميرون الزيت وحدهُ . والكنيسة الرومانية تستعمل الزيت والبلسم . وكذلك كانت الكنيسة الانطاكية ايضًا تستعمل الزيت والبلسم وحدهما كما يتضح من مؤلَّفات يعقوب الرهاويّ وموسى بَرْ كيفا ويوحنا الداروي * الّا انّ اليعاقبة والموارنة اتّخذوا من اليونان في الاجيال المتوسّطة عادة وضع اجزآء عطريّة مع الزيت والبلسم * (٥) انّ النساطرة زيت مسحة المعمَّذين يقدّسهُ عندهم القسيس الذي يعمّذ بشرط ان يمزج معهُ من زيت مقدّس محفوظ عندهم في الكنائس.

القدّاس بعد كلمات التقديس. واعطاء القسوس سرّ التثبيت للمعمّذين. وترك القدّاس في الصوم الكبير [١]. وجعل درجة الهُفُدياقون من الدرجات الصغار لا من الكبار [٢]. ومنع اكثر من قدّاس واحد

الأعزاب الذين في وقت رسامتهم صرّحوا برغبتهم في الزواج * واما الكنيسة اللاتينية فمنعت الزواج السابق واللاحق عن القسوس والشمامسة والهفدياقونات *

(١) انّ الكلدان لم يكونوا يقدّسون الاّ في الاسبوع الاوّل والمتوسّط والاخير من الصوم. واللاتين يقدسون كلّ يوم منهُ. الاّ انّ كنيسة مديولان لا تقدس في جميع ايام الجمعة التي في الصوم * واعلم انّ جميع الطوائف التي لا تقدّس في الصوم تستعمل بدل القداس رسم الكاس وهو المسمّى عند اليونان السابق تقديسهُ. واما اللاتين فيقضون رسم الكاس في جمعة الآلام فقط. وقد تبعهم الموارنة في ذلك على رغم الطقس الانطاكيّ الناهي عن ابقاء قربان خميس الفصح الى الغد * وقد انفرّ اقتداءً بالموارنة المرحوم بطرس جروه بطريرك السريان حيث استنبط من عقلهِ طقساً لرسم الكاس وجعلهُ لجمعة الآلام في كتاب النافور الذي طبعهُ برومية. وكان حقّهُ ان يتّخذ الطقس المرسوم في الطقس القديم وهو المنسوب الى سويرا الانطاكيّ ويعقوب الرهاويّ ويجعلهُ للايّام الصوميّة غير الحاش كما هو مختوم في الطقس * واما انّ الموارنة تبعوا الكنيسة الرومانية في هذه العادة فدليلهُ واضح كلّ الوضوح. وهو انّ كتاب نافورهم المطبوع في سنة ١٥٩٤ لا يحوي طقساً لهذا الرسم مع انهُ يحوي اثنتي عشرة نافورة من نوافير اليعاقبة. وفي طبعة سنة ١٧١٦ اذ لم يكن لهم طقس خصوصيّ لرسم الكاس. اتّخذوا نافورتهم القديمة المنسوبة الى مار بطرس وهي في الطبعة الاولى معيّنة للقداس فجعلوها لرسم الكاس في جمعة الآلام *

(٢) انّ اللاتين نفسهم لم تصر عندهم درجة الهفدياقون من الدرجات الكبار الاّ في القرن الثالث عشر بامر البابا انوكنتيوس الثالث. وقد تبعهم

في اليوم [١] . وترك القدّاس والتناول يوم جمعة الآلام [٢] * والنوع الثالث ما يشترك فيهِ طقس الروم مع الطقوس الشرقيّة قاطبةً الاّ طقس الارمن . من ذلك وضع الخمير في خبز القدّاس [٣] . وترتيب

الارمن بعد ذلك * واعلم انّ اغلب ما يختلف فيهِ اللاتين من المشرقيين دخل عند اللاتين في الازمان المتأخّرة *

(١) اعلم انّ اللاتين ايضاً كانوا لا يقدّسون الاّ قداساً واحدًا في اليوم الاّ الاعياد الاحتفالية فكانوا يجيزون فيها كثرة القداديس على مذابح مختلفة لسبب حاجة الجماعة . ومن ذلك نتجت العادة الجارية الى الآن عندهم وهي ان يقدّس كلّ قسّيس منهم ثلاثة قداديس في عيد الميلاد . واصل ذلك انّ الحبر الروماني كان يقدّس في ذلك اليوم قديمًا في ثلاث كنائس لكثرة الشعب * ثمّ انّ اليونان ايضاً من بعد القرن الثامن اجازوا كثرة القداديس المتتابعة على مذابح مختلفة . ومنهم تعلّم اليعاقبة والقبط ان يقدّس قسوسهم جملةً في وقت واحد على مذابح مختلفة . وامّا الموارنة فيقدّسون سويّةً على مذبح واحد * وامّا النساطرة والارمن فبقوا على العادة الاولى . اى لا يجوز عندهم الاّ قدّاس واحد يقدّسهُ قسّيس واحد * (٢) من ذلك ايضاً عدم مسح القسوس والاساقفة بالميرون حين رسامتهم كما في طقس الكنيسة اللاتينيّة . وقد اتّخذ من الشرقيين هذه العادة الموارنة والارمن * ويجب ان تعلم انّ الكنيسة الانطاكية ايضاً كانت قديمًا تمسح المرسومين بالميرون كما تشهد مؤلّفات مار افرام وآثار النساطرة واليعاقبة . وورد في اخبار اليعاقبة انّ سويرا بطريرك انطاكية الذي جلس في مبادئ القرن السادس ابطل هذه العادة * ولا حاجة الى القول انّ كثيرًا من ابواب النوع الثاني المذكورة في المتن قد استبدلت بهِ الطوائف الشرقية الطقس اللاتيني كما راينا سابقًا *

(٣) انّ عند النساطرة عادةً لا توجد عند غيرهم من جهة الخمير . وهي

في الطقس على حالها * والطقس اليوناني اجزآؤهُ التي يتألّف منها هي على ستّة انواع * النوع الاوّل ما يعمّ سائر الطقوس شرقًا وغربًا . وهو من رسم الرسل نفسهم والآبآء الاوّلين : من ذلك اصول ليترجيّة القدّاس ومتعلّقاتها (١) . وتناول القربان على الريق . وصوم

بديار بكر خزانة كبيرة من كتب طقس اليونان كلها بالسريانية . وبعضها باليونانية . وتعريفاتها بالعربية او السريانية * ومن عجيب الامور انّ الملكيّين في ديار مصر لم يستعملوا قطّ اللغة القبطية التي هي اللغة المصرية القديمة ويستعملها القبط اليعاقبة من قديم الزمان . بل استعملوا فقط اليونانية والعربية *

(١) انّهُ في كلّ الطقوس يُرسَم ان يكون الشمّاس الدياقون يخدم القداس (الاحتفالي) . وان يكون المذبح مقدّسًا متّجهًا نحو المشرق . وان توقد الشماع . ويبخّر باللبان . وان يلبس الكاهن ثيابًا مخصوصة مقدّسة . وان يبتدئ القدّاس بعد بعض الاستعداد بقرآءة فصول من العهد القديم والجديد . ثمّ يوضع على المذبح الخبز والخمر باحترام . ثمّ يغسل الكاهن انامله . ثمّ يطلقون الغير المعمّذين . ثمّ ينذر بالسلام ويرفع العقول الى فوق ويرافقة الملائكة في التسبيح بقدّوس قدّوس الخ . ثمّ يقول كلمات التقديس ويذكر موت المسيح . ويطلب من الله ان يقدّس الموضوعات . ثمّ يقيم ذكر الاحيآء والاموات وخصوصًا القديسين في طبقاتهم . ثمّ يستغفر الله عن نفسهِ وعن الجماعة . ثمّ يقول ابانا الذي مع الجمهور. ثمّ يكسر الجسد ويغمسهُ في الدم . ثمّ يرفع الموضوعات ويدعو الحاضرين الى التناول معلنًا انّ القدس انمّا هو للقديسين (هذه فقط لا توجد في طقس اللاتين) . ثمّ يقرّر الايمان بالقربان . ويتناول ويناول . ثمّ يشكر . ثمّ يطلق الشماس الجماعة * وفي آخر القدّاس يقرأ الكهنة اللاتينيّون الفصل الاوّل من انجيل يوحنا . وقد تعلّم منهم ذلك الارمن والكلدان * وفي كلّ طقس يوجد صلوات سرّية وجهرية *

يوم الجمعة • وصوم الاربعين • ومنع الصوم يوم الاحد • واكبر الاعياد المارانيّة • ومسح الطالبين العماذ بالزيت • وبتولية الاساقفة • والتسبيح بالمزامير في الصلوة الجمهوريّة • وقرآءة فصول الكتاب المقدّس فيها وفي القدّاس • وقسمة درجات الكهنوت الى كبيرة وصغيرة • واستعمال اقوال كثيرة في خِدَم العبادة مثل هَلِلّويه. وآمين. والمجد للآب والابن الخ . وقدّوس الله الخ . والسلام لكم . وبارك يا سيّد • والوقوف مع كشف الراس عند قرآءة الانجيل • وضمّ بيت الى كلّ مزمور يُرتَّل في اوّلِهِ او في آخرهِ • وتقسيم الصلوة الاقليرسيّة الى سبع ساعات[1] * والنوع الثاني ما يشترك فيهِ طقس الروم اي اليونان مع سائر الطقوس الشرقيّة دون الغربيّة : من ذلك صوم يوم الاربعاء • ومنع الصوم يوم السبت . واعياد كثيرة . واصوام شتّى . وابطال الصوم من الميلاد الى الدنح ومن عيد القيامة الى العنصرة . وجواز بقاء الشمامسة والقسوس مع زوجاتهم[2] . ودعوة روح القدس في

---

(١) انّ الكلدان ما عندهم الآن ثلاث ساعات في صلاتهم • وهذا دليل على انّ تقسيم الصلوة الى سبع ساعات لم يكن جاريًا في الكنيسة كلّها قبل القرن الخامس

(٢) لا تظنّ انّ جميع الكنائس الشرقية كانت تبيح للاقليرسيين ان يبقوا مع نسائهم . فانّ الآثار القديمة ذكرت انّ ذلك لم يكن جائزًا في بلاد ثراقية وتسلونيقي ومقدونية التي كانت كلّها يونانية * وبالعكس اباح النساطرة لقسوسهم ان يتزوّجوا بعد الرسامة ايضًا . واليعاقبة من سريان وقبط اباحوا الزواج للشمامسة الأعزاب . واليونان اباحوا ذلك للشمامسة

الينا لا يتقادم على القرن الثالث * وامّا اللغة اليونانيّة فكُتبت فيها الأَسفار المتأَخّرة من العهد القديم وجميع اسفار العهد الجديد(١) ورسائل الآباء الاوّلين حتى الباباوات • واليهود نفسهم كانوا يستعملون هذه اللغة خارجًا عن اورشليم. وعلماؤهم يؤلّفون فيها كتبهم • كفلاويوس يوسيفوس وفيلون المشهورين * والهيئة التي فيها نرى الليترجيّات في جميع الطقوس توكّد لنا انّها كلّها في الاصل منحولةٌ عن اللغة اليونانيّة(٢) * واعلم انّ الطقس اليوناني المعروف بالروميّ

---

(١) ليس موَكّدًا انّ مار متّى كتب انجيلهُ في السريانيَّة . ومهما كان الامر فانّ انجيل متى السرياني الذي عندنا هو مستخرج من اليونانيَّة *

(٢) ولكن مع هذا كلّهِ لم يتأَتَّ المسيحيّون الاوّلون قطّ الى ان يسمّوا الكنيسة يونانيةً كما سُمّيت في القرون التابعة كنيسة القسطنطينيّة وما يتبعها لسبب استعمالها اللغة اليونانية في الطقس وفي الكلام الدارج . لا بل انّ اسم اليونانيّ نفسهُ في اسفار العهد الجديد ومؤلفات الآباء الاوّلين هو كنايةٌ عن وثنيّ او غير يهوديّ من ايّ جنس كان . كما انّ اسم الاراميّ في كتب السريان هو كناية عن غير يهوديّ مطلقًا * واليونانيّون التابعون طقس القسطنطينية لم يسمّوا قطّ كنيستهم يونانية او هلنيّة (كما يقال في لسانهم) . بل يسمّونها روميّة نسبةً الى الروم الذين تسلطوا على بلاد المشرق وكان كرسيّهم في بوزنطية . وكذلك السريان لم يسمّوا قطّ كنيستهم اراميّة بل سريانية * وكيفما كان الامر فانّ اللغة اليونانيّة مع كونها يومًا دارجة في اغلب مدن المشرق كاللغة العربيَّة في زماننا هذا . لم تكن هي اللغة الطقسيَّة في كلّ مكان كما زعم احد المتأَخّرين اي في الاماكن ايضًا التي لم تكن فيها معروفة . فانَّ الكنيسة المسيحيّة كانت في الازمان القديمة تستعمل في الطقس في كل مكان

له ليترجيّتان للقدّاس منسوبتان الى يوحنّا فم الذهب وباسيليوس * وهو لا يُستعمَل الآن في اللغة اليونانيّة عند الكاثليكيّين الاّ عند اقوامٍ مبثوثين في مشارق ايطاليا وجنوبيّها . اصلهم من بلاد اليونان . ويخضعون الاساقفة اللاتينيّين الذين هم يسكنون في ابرشيّاتهم . غير انّ غيرهم من الكاثليكيّين يستعملونهُ في لغاتهم المختصّة بهم . وهم الروثانيّون والبغدانيّون والبلاقيّون والبلغاريّون * واما الملكيّون فيستعملونهُ الآن باللغة العربيّة . وكانوا يوماً يستعملونهُ باليونانيّة والسريانيّة (١) . والى الآن حفظوا كلمات وعبارات يونانيّة شتّى ابقوها

اللغة الشائعة فيهِ . كما يعلم كلّ خبير بكتب الاوّلين . اذ يتضح منها بكل تاكيد انّ كثيراً من الاساقفة والآباء الشرقيين لم يكونوا يعرفون اليونانية اصلاً * ولو كانت اللغة اليونانية هي لغة الطقس بحسب امرٍ مصرّح لما كانت الكنيسة اليونانية نفسها قبل كلّ احد تترك هذه اللغة وتستعمل السريانية والعربية والبلغارية والصقلبية وغيرها * نعم انّ الاحبار الرومانيين ربما سمّوا الكنائس الشرقية يونانيةً حتى السريانية والكلدانية والقبطية . ولكنهم انما عنوا بهذا الاسم فقط الكنائس التي تقدّس بالخبز الخمير لسبب انّ اليونان دون سائر الشرقيين دافعوا عنهُ . ولم يعنوا بهذا الاسم قطّ الارمن والموارنة * وحسبنا باحد المؤلفين الغربيين المشهورين شاهداً لبيان انّ اللغة السريانية كانت مستعملةً في الطقس في القرون الاولى وهو مار هيرونمس الملفان حيث شهد انّ مؤلفات مار افرام كانت تُقرأ في كنائس سورية وبين النهرين . وكلّ احد يعلم انّ مار افرام الف كتبهُ في السريانية *

(١) يوجد في احدى كنائس الموصل مصحف قديم يحوي جزءًا من طقس اليونان كلهُ بالسريانية ولكن تعريفاتهِ عربية * وفي كنيسة الروم التي

الذي يسمّى طقس اليونان او الروم . وهو طقس الكنيسة المسقوفيّة وسائر الامم الخاضعة يوماً للكنيسة البوزنطيّة المنشقّة معها بشقاق ميخائيل قرولاريوس عن الكنيسة الكاثليكيّة * وهذا الطقس هو في الأصل باللغة اليونانيّة . التي فيها كُتب اوّل طقس حُرّر على

الاباء القدّيسين والمؤرّخين الاوّلين ذكروا اختلافاً في العوائد البيعيّة والرسوم الطقسيّة بين بلدٍ وبلد او بين امّةٍ وامّة او ان شئت بين بطريركيّة وبطريركيّة لا بين شرقيين وغربيين * (٤) يعلم كلّ خبير انّ الملكيين او بالاحرى الارثذكسيين في الكنائس الاسكندريّة والانطاكيّة والاورشليميّة كان لهم طقس غير طقس القسطنطينيين الى الازمان المتاخرة . فانّ اهل اورشليم وانطاكية كانوا يقدّسون بنافورة يعقوب الرسول . واهل الاسكندريّة بنافورة مار مرقس . وانّهُ في القرن الحادي عشر برز الامر من بطريرك قسطنطينيّة الى اولئك البطاركة الثلاثة ان يبطلوا ليترجياتهم التي بها كانوا يتدّسون ويستعملوا ليترجيّة اليونان * (٥) لو صحّ انّ الطوائف الشرقيّة كانوا يستعملون قبل شقاقهم طقس اليونان ثمّ تركوهُ واستنبطوا طقوساً جديدة . لوُجد اختلاف بين طقوسهم . لانّهم كانوا يبغضون بعضهم بعضاً كما كانوا يبغضون الكنيسة الروميّة . ولكانوا يتعوّذون من كلّ ما هو يونانيّ . والحال انّ طقوس النساطرة واليعاقبة والموارنة تتّفق اتفاقاً عجيباً في الامور التي فيها تختلف من طقس اليونان . وهذه الطوائف قد اتّخذت بعد انفصالها من الكنيسة الروميّة اشياء شتّى من اليونان لم تدخل عندهم الّا بعد انفصال تلك الطوائف من كنيستهم كاتّخاذها بعضاً من الاعياد . واتخاذ اليعاقبة والموارنة عادة وضع اشياء عطريّة في دهن الميرون . واقتصارهم حقّ تقديسهِ للبطريرك وحدهُ . واتخاذ اليعاقبة قوانين التسابيح * فليس الطوائف الشرقيّة هي التي تركت الطقس القديم . بل الملكيّون هم الذين تركوا طقسهم واتخذوا طقس الكنيسة القسطنطينية *

قرطاس . ومنها درجت ألفاظ كثيرة في جميع الطقوس مثل قُرْيا أَليسون واسقف وهرطقة وانجيل وارخدياقون ومطران وفارقليط[١] * بل ان اوّل شيء كُتب في الكنيسة المسيحيّة منذ نشأت ووصل الينا كان في اللغة اليونانيّة التي كانت لغة العلماء بل دارجة او معروفة في اغلب بلاد المشرق[٢] . فانّ اوّل مكتوب في اللاتينيّة وصل الينا من آثار الكنيسة القديمة هو بقلم ترتليانس الذي عاش في افريقيّة في القرن الثالث . واوّل شيء مكتوب في السريانيّة وصل

(١) ممَّا يستحقّ الاعتبار انَّ اللغة الروميَّة اي اللاتينيَّة التي كانت لغة الملوك القياصرة المتسلّطين على العالم المعروف باسرهِ الاّ قليلاً لم يدخل منها ادنى كلمة في اللغة البيعيَّة والطقسيّة كما دخل من اللغة اليونانيَّة . مع انَّها اي اللغة اللاتينيَّة كان جميع الولاة والحكّام والجنود وكثيرٌ من العامَّة يتكلّمون بها في فلسطين وسورية في زمان ظهور الدين المسيحيّ وانتشائهِ * ومن عجيب الامور ايضًا انَّ اللغة اليونانيَّة اندرست اصلاً من بلاد المشرق اي سورية ومصر ولم يبقَ منها ادنى اثر في مكان مع انتشارها يومًا في تلك الديار * وسبب ذلك هو واضح . وهو انَّ اليونانيَّة كانت لغة المدن فقط . ولغة الأَسلام اي العربيّة قرضت لغات المدن ولو انها لم يمكن لها ان تقرض ايضًا لغات جميع القرى *

(٢) ليس مرادنا ان نقول انَّ اللغة اليونانيَّة كانت اللغة الطقسية في جميع البلاد . فانَّ كلّ بلدٍ كان يستعمل في الخِدَم البيعيَّة اللغة المختصَّة بهِ . وكانت هذه الخدم ولاسيما ليترجيَّة القداس غير مكتوبة . تسلّمها القسوس من الرسل مشافهةً فكانوا يحفظونها عن ظهر قلبهم . كما يوجد الى الآن عند اليعاقبة وغيرهم اشياء كثيرة يقولها القسوس عن قلبهم بلا كتاب في القداس نفسهِ *

اسقف بعلبك الذي كانت آراؤهُ فاسدة في قضية رياسة الكنيسة وغير ذلك. فرفض الكرسيّ المقدَّس ذلك المجمع لقلّة استقامة بعض تعاليمهِ * وفي سنة ١٨٣٥ عقدوا مجمعًا في عين تراز في بطريركيّة مكسيموس مظلوم. وابرموا فيهِ خمسة وعشرين قانونًا. فايَّدهُ الكرسي المقدّس بالتثبيت * وللملكيّة صنفان من الرهبنة. الاوّل يسمَّى الرهبنة المخلّصيّة. ونشأ سنة ١٦٨٥ * والثاني يقال لهُ الشويريّة. وهو وُضع اساسهُ سنة ١٦٩٧. وقُسِمَت هذه الرهبنة سنة ١٨٢٨ الى حلبيَّة وبلديّة * وكلتا الرهبنتين تُسمَّيان باسيليّتين نسبةً الى مار باسيليوس الكبير الذي بَنَتا على قوانينهِ * ولهم اديرة شتَّى في جبل لبنان ونواحيهِ * ولهم مدارس شتَّى. منها المدرسة البطريركيّة الاقليرسيَّة. وهي في عين تراز في ظهر جبل لبنان. واخرى في بيروت وهي عامرة * والطائفة الملكيَّة الكاثليكيّة موجودة في جميع مدن سورية وكثير من قراها. وكثيرٌ منهم في فلسطين وفي ديار مصر وفي اناضول ولاسيَّما مدينة ازمير. وفي مرسيليه جماعة منهم * وظهر فيهم نفرٌ من العلماء. منهم عبد الله بن زاخر الحلبي الذي في القرن الثامن عشر ردَّ على ضلالات الملكيّين المشاقّين في كتب تستحقّ الاعتبار. ومنهم الخوري نقولاوس صائغ رئيس رؤساء الرهبان الشويريّين الشاعر المسيحيّ (توفّي سنة ١٧٥٦). ومنهم بطرس كرامة الشاعر المفلق * ولكنّ الذي ظفر بقصب السباق على جميع من

قام في الطائفة الملكية الكاثليكية هو الشيخ ناصيف اليازجي البيروتي الذي لهجت بوصفهِ وفضلهِ افواه جميع الفضلاء في العالم العربي كلهِ حتى ايمة الاسلام (توفي سنة ١٨٧١) * ثم اعلم ان الاحبار الرومانيين نصبوا للروم على وجه العموم مدرسة في رومية ملحقة بمدرسة بروبغندا مسماة على اسم مار اثناسيوس تحوي من جميع الطوائف التابعة طقس اليونان. ولهم دير يوناني بالحقيقة قديم في نواحي رومية. ولكن رهبانهُ يقدسون بالفطير *

وطقس الملكيين هو طقس الكنيسة القسطنطينية[1]. وهو

(١) كلامنا هو عن الطقس الملكي برمتهِ مع كل متعلقاتهِ واجزآئهِ * فقد توهم اذاً من زعم من المتأخرين ان الطقس المستعمل عند اليونان كان طقس الكنيسة الشرقية القديمة كلها. كأنهُ بهِ تميزت من الكنيسة الغربية او اللاتينية. وان الطوائف الشرقية بعد شقاقها استبدلت بهِ طقوساً جديدة: فان هذا الزعم منافٍ للحق الواضح الذي لا يشوبهُ ادنى ريب * نعم ان اول طقس كُتب على صُحُفٍ كان في اللغة اليونانية. الاَّ اننا ننكر ان الطقس اليوناني بجملتهِ على الهيئة التي فيها صار اليوم في الكنيسة القسطنطينية هو طقس الكنيسة الشرقية القديم * وذلك (١) لانهُ لو كان هذا الزعم صحيحاً لوجب ان يكون الطقس اليوناني موجوداً في الكنيسة الرومانية ايضاً. فان الرسل وخلفاءَهم الاولين ما ميزوا هذا التمييز المخترع حديثاً بين الكنيسة الشرقية والغربية. ولا عينوا ان يكون لكلٍ من هاتين الكنيستين طقس او قانون. ولا المجامع الاولى ذكرت ادنى ذكرٍ الفرق بين هاتين الكنيستين * (٢) ان الاشياء التي فيها يختلف طقس اليونان من سائر الطقوس دخلت فيهِ في الازمان الغير القديمة. وقد حفظت التواريخ اسماء الذين ادخلوها * (٣) ان

من عدوان سلبسطر بطريرك المشاقّين. تنازل من البطريركيّة سنة ١٧٥٩ * وبعد سنة نُصب للملكيّين بطريرك اسمهُ مكسيموس * ولمّا مات سنة ١٧٦١. وقع خلاف بين الاساقفة في من يتخلّف بعدهُ. وبعد المخاصمة ثبت الحقّ لثاودوسيوس الدهّان. ثمّ جلس بعد موتهِ اثناسيوس جوهر. ثمّ كيرلّس سياج. ثمّ اغابيوس مطر * وبعد جلوس اربعةٍ أُخر جلس سنة ١٨٣٣ مكسيموس مظلوم المشهور صاحب الكتب الكثيرة التي اكثرها استخرجهُ من اللغات الافرنجيّة * ونال مكسيموس من الكرسي المقدّس ان يدوّن اسمهُ البطريرك الانطاكيّ والاسكندريّ والاورشليميّ. لانَّ سلسلة البطاركة الشرقيّين الكاثليكيّين على الاسكندريّه واورشليم قد انقطعت من زمن * وفي سنة ١٨٣٧ حدث خصام بين مكسيموس وبين بطريرك المشاقّين من سبب القلنسوة التي يلبسها اقليرسهم. اذ كان المشاقّون ينازعون الكاثليكيّين لبسها ويمانعونهم. فانطلق مكسيموس الى دار السلطنة. وكانت نهاية منالهِ ان يلبسها الكاثليكيّون مقرّنة اذ كان المشاقّون يلبسونها مدوّرة * وبعد مكسيموس صار بطريركًا على الملكيّين سنة ١٨٥٥ اقليميس باحوس.

كرسي انطاكية. فقد جاز للكنيسة في تتابع الازمان وانقلاب احوالها ان تغيّر هذا الرسم وتجعل ان يجلس على ذلك الكرسي ثلاثة بطاركة واكثر. كما نعلم انّ مار اوغسطين الملفان اسقف هبّونا اتّخذ لهُ اسقفًا رفيقًا في كنيستهِ *

وفي ايّامهِ وقع شجسٌ شديد في الطائفة لسبب انّ البطريرك اجرى الحساب الغريغورياني عليهم. فرجع كثيرون الى ملّة المشاقّين. وافضى الامر الى تنزّل باحوس من البطريركيّة. فنُصِب مكانهُ في ٢٧ اذار سنة ١٨٦٥ غبطة السيّد غريغوريوس يوسف الجالس سعيدًا *

واعلم انّ مقرّ بطريرك الملكيّين هو في مدينة دمشق. وكان احيانًا في جبل لبنان. لانّ مدينة انطاكية منذ اجيال قد امست ردمًا. وما فيها الاّ بيوت قليلة خسيسة اهلها ملكيّون مشاقّون (لانّ هذه المدينة لم يقدر الهراطقة قطّ ان يستوطنوا فيها ثباتًا) تتهدّدها الزلازل كل وقت. وقد اضرّت بها مرّات كثيرة في الاجيال الماضية قبلما اندثرت عظمتها * ويسمّى الآن بطريركهم بطريرك انطاكية وسائر المشرق او البطريرك الانطاكيّ والاسكندريّ والاورشليميّ كما راينا * وتحت رياسة البطريرك خمسة مطارين اصحاب ابرشيّات اي في صور وحلب وصيدا وبيروت وبَعلبك * وللملكيّين التاريخ المعروف بتاريخ العالم المستعمل عند اليونان. وابتداؤهُ من سنة خمسة آلاف وخمس ماية وثماني سنين قبل ميلاد المسيح. والسنة تبتدئ عندهم من شهر ايلول * وقد عقد الملكيّون منذ اصبحوا كاثليكيّين مجامع اقليميّة شتّى. ومنها مجمع قرقفة المعقود سنة ١٨٠٦ في بطريركيّة اغابيوس مطر بهمّة جرمانوس آدم

الاصل لم يكن من الكراسيّ الرسليّة. بل كان من اصغر الكراسي) ويقهروهم. افضل من ان يطيعوا لخليفة بطرس الرسول الذي سلّمهُ المسيح رعاية كنيستهِ كلّها. وكتبهم مشحونة باقوال توجب الخضوع لهُ. وهكذا بقوا منزوعين من جسم الكنيسة الكاثليكيّة. وكان بطريركهم الانطاكيّ يجلس في مدينة دمشق * فلمّا كان في اواخر القرن السابع عشر. الهم الله بطريركهم (وكان اسمهُ قورلّس او كيرلّس الحلبي) واربعة من اساقفتهِ ان يرجعوا الى حظيرة الكنيسة الكاثليكيّة. وذلك بسعي بطريرك الموارنة اسطفانس الاهدني الدويهيّ على الخصوص. واشهر اولئك الاساقفة واحرُّهم في الكاثليكيّة كان اوثيميوس مطران صور وصيدا * فانفصل هولاء مع تبّاعهم من سائر الملكيّة المشاقّين. وصاروا طائفة قائمةً بذاتها * ولمّا مات كيرلّس. جلس على كرسيّ انطاكية اثناسيوس الدمشقي. فانحاز هذا الى الشقاق. وحارب الكنيسة الكاثليكيّة بكتبهِ * ولمّا مات. اجتمع الملكيّون الكاثليكيّون بدمشق وانتخبوا سنة ١٧٢٤ كيرلّس تاناس بن اخت اوثيميوس المذكور بطريركًا انطاكيًا. ورسمهُ ثلاثة مطارين صيدنايا وبانياس والفرزل * فاثار المشاقّون اضطهادًا على الكاثليكيّين. حتّى اضطرّ كيرلّس البطريرك ان يلتجئ الى جبل لبنان. فانجدهُ بطريرك الموارنة واساقفتهُ. وكتبوا كتب شهادة وتوصية في حقّهِ الى سفير دولة فرنسا بالقسطنطينيّة * فوقعت

الكتب بيد الملكيّين المشاقّين. فوشوا بالموارنة الى الحكّام. فارسلوا عسكرًا الى دير سيّدة قنوبين كرسيّ بطريركهم. فنهبوهُ وقبضوا على رهبانهِ * ثمّ انّ كيرلّس تاناس البطريرك بعد امتحان ثباتهِ مدّةً. اتاهُ صكّ التاييد والبليون من الكرسيّ المقدّس سنة ١٧٤٤. وفي هذا الصكّ ابدى الحبر الاعظم بندكتس الرابع عشر سرورهُ الجزيل بانّهُ في شخص ذلك البطريرك رجع اسم البطريرك الانطاكي الكاثليكيّ في سجلّات الكنيسة الرومانيّة بعدما انقطع منها مدّةً طويلةً من الزمان لسبب سقوط تلك البطريركيَّة في ايدي المشاقّين. ومن ذلك نفهم انَّ الكرسي المقدَّس اتّخذ البطريرك الملكيّ خليفةً حقيقيًّا للبطاركة الانطاكيّين القدماء الذين يسمَّون يونانيّين تمييزًا من اللاتينيّين[1] * ثمَّ انّ كيرلس تاناس بعدما قاسى كثيرًا

---

(١) نعترف اعترافًا خالصًا انَّ الاحبار الرومانيّين بتصرّفهم الثابت قد اوضحوا جليًّا انّهم يتّخذون جميع البطاركة الشرقيّين المسمَّين على انطاكية بمنزلة واحدة من دون تقديم احد منهم على الآخر. وما قلناهُ في الفصل الثالث والعشرين من انَّ واحدًا فقط هو البطريرك الانطاكيّ بالحقيقة والباقون هم بالاسم والشرف فقط يجب ان يُفهَم عن اصل الوضع الكهنوتيّ لا عن التهذيب الجديد الذي احدثتهُ الكنيسة * ففي نيّة الكنيسة البطاركة الانطاكيّون الشرقيّون ثلاثتهم اي الملكيّ والسريانيّ والمارونيّ هم خلفاء بطاركة انطاكية الاوّلين على حدّ سوى * ولا مانع لذلك من قبل الشريعة. فانَّ الفقهاء والعلماء قد اجمعوا على انّ اقتصار كلّ كرسي على اسقف واحد هو من رسم بيعيّ لا الهيّ. فان كان بطرس الرسول قد رسم خليفةً واحدًا لنفسهِ على

سنة ١٨٣٩ بحضور ارباب الحكومة وحضور الياس بطريرك اليعاقبة المارديني وغريغوريوس عيسى مطران الموصل على السريان الكاثليك وأعيان الطائفتين . ورُميت القرعة بين الطائفتين . فاخذت كلّ طائفةٍ النصف الذي وقع لها من جميع ما ذُكِر من الكنائس والاديرة والاوقاف وما كانت تحوي من مصاغات وكتب وغير ذلك . وهكذا انفصلت الطائفتان احداهما من الاخرى انفصالاً شرعيّاً تامّاً امام الحكّام . اذ كان الكاثليك قبل ذلك يُلزِمهم روساء اليعاقبة ان يؤدّوا لهم الحقوق التي كانت تؤدّيها لهم رعيّتهم اليعقوبيّة] *

الفصل التاسع والعشرون

في مختصر اخبار الكنيسة الملكيّة واحوالها

[انّ الملكيّين الذين في القرون الماضية كانوا هم وحدهم الارثدكسيّين في البلاد المشرقيّة[1] . كما تبعوا الكنيسة القسطنطينيّة

---

(١) زعم بعض المتأخّرين انّ اسم الملكيّة في الاصل هو اسم قوم هراطقة وانّه دخل في القرن السابع لتمييز المنوثليتيّين بهِ من الارثدكسيّين الذين في البطريركية الانطاكية المسمّين على قولهم مردة * ولكنّ هذا الراي فاسدٌ من وجوه كثيرة . اخصُّها انّ اسم الملكيّة لم يَرِدْ قطّ في صحف الاوّلين بمعنى منوثليتيّين بل دائمًا بمعنى معتقدين بالطبيعتين والمشيئتين . واشهر العلماء استنادًا على

في طقسها واصطلاحاتها . تبعوها ايضاً في شقاقها من الكنيسة الكاثليكيّة * فنكث الملكيّون عاجلاً كاليونانيّين العهد الذي ضربوهُ مع الكنيسة الرومانيّة في المجمع الفلورنتيني . واحبّوا ان يترأس عليهم بطاركة قسطنطينية المتعظّمة بالكبر والخيلاء (وكرسيّها في

الآثار القديمة اثبتوا انّ هذا الاسم دخل في القرن الخامس في عهد مرقيانس ملك الروم . لتمييز الكاثليكيين بهِ من الرافضين المجمع الخلقيدوني * وقد افحم الحقّ الواضح اصحاب هذا الراي حتى انهم ادّعوا انّ الملكيَّة والمردة انمّا افترقوا بعضهم من بعضٍ لسبب حربيّ لا لسبب ديني . اي لم يكن بين الملكيّة والمردة اختلاف دين بل اختلاف لوآء . وبهذا الزعم فنّدوا رايهم . لانّهُ من المعلوم المُسلَّم انّ المردة كانوا ارثدكسيين . فالملكية ايضاً كانوا ارثدكسيين في الاصل * وناهيك انهُ بعد المجمع السادس الذي فيهِ حُرمت المنوثليتية لم يكن ملكٌ من ملوك الروم تمسَّك بهذه البدعة حتى يمكن ان يسمَّى التابعون لها ملكيين على اسمهِ (وهو معلوم انّ اسم الملكية منسوب الى ملوك الروم) . فانّ يسطنيان الاخرم ملك الروم نفسهُ الذي آذى الاحبار الرومانيين كان عدوّاً للمنوثليتيين . فانهُ قبل كلّ احدٍ امضى حدود المجمع الترلاّني اي مجمع التنصر الذي في القانون الاوّل من قوانينهِ دُحضت البدعة المنوثليتية * ثمّ انّ اهل هذا الراي زعموا انّ اسم الملكية لم يُذكَر قبل القرن العاشر . والحال انهُ من المعلوم انَّ الملكيين كانوا ارثدكسيين في القرون الثامن والتاسع والعاشر * ولا حاجة الى كثرة الكلام لبيان انَّ المردة لم يكونوا موارنة . فانَّ المردة كانوا عسكراً رومياً مقاتلاً ارسلهم ملك الروم الى جبل لبنان لكسر شوكة العرب كما روى المؤرّخون اليونانيون والسريانيون . ثمّ اخرجهم منهُ وبعثهم الى بلاد الارمن . وامَّا الموارنة فكانوا امَّةً صحيحةً بنسآئها واطفالها وقسوسها واساقفتها ورهبانها ساكنةً في الاصل جبل لبنان ولم تفارقهُ قطّ *

من جزيرة قردو الى البصرة * فرجع الاسقف بشارة ودبّر تلك الطائفة السريانيّة الجديدة بهمّةٍ وغيرة وأَتعاب ومشقّات ممّا لهج بهِ كلّ لسان . واشتهر خصوصًا عند الاقارب والاجانب حتى اعيان الأَسلام وارباب الحكومة برحمتهِ وحبهِ للفقر وتزهّدهِ في الدنيا ولبابتهِ وفطنتهِ وفصاحتهِ في الكلام . وقاسى من اليعاقبة اضطهادًا وعدوانًا واذيّاتٍ كثيرة . وكان اذ ذاك لليعاقبة اسقف اسمهُ الاسقف عزّو * وفي كلّ ذلك لم يرتخِ عزم الاسقف بشارة . بل كان لا يزال يتلمذ ويدعو كثيرين الى الايمان القويم . حتَّى انّهُ هو الذي حلّ من النسطرة سكّان مدينة صغيرة قريبة من الموصل اسمها تلكيف * فلمّا كثرت جماعة السريان في الموصل . نال الاسقف بشارة من الحكّام امرًا لليعاقبة ان يتركوا للسريان ان يصلّوا في كنائس الطائفة السريانيَّة التي استبدَّ بها اليعاقبة ويتصرَّفوا فيها بالشركة معهم . فكان الكاثليك واليعاقبة يقضون الخِدَم الدينيّة في تلك الكنائس بالدور . طائفةٌ تسبق وطائفةٌ تتبع . وبقوا على هذا الحال الى ان انقسمت البِيَع كما سنرى * وفي سنة ١٨٢٨ توفّي هذا الاسقف العجيب مضروبًا بالطاعون . وعمرهُ قد جاوز التسعين وقد خدم الاسقفيّة مدّة ثمانٍ وثلاثين سنة * وبعد شهور كثيرة ارسلت طائفة الموصل القسّ ميخائيل يوحانا الى جبل لبنان . فسامهُ البطريرك بطرس جروه اسقفًا على الموصل . وسمّي ثاوفيلس * وفي سنة ١٨٣١ توُفّي

الاسقف يوحانا بالهوآء الاصفر. وبقيت الكنيسة السريانيّة بلا راعٍ. الى ان ارسل اليها البطريرك بطرس جروه سنة ١٨٣٧ المطران غريغوريوس عيسى محفوظ الموصليّ * كان المطران عيسى في الاصل مطرانًا يعقوبيًّا ملازمًا دير زعفران مقرّ بطريرك اليعاقبة هو ومطرانان آخران. احدهما يقال لهُ المطران انطون بلّوسحيري. والآخر المطران متى نقّار. وكان ثلاثتهم من الموصل * فالهمتهم النعمة الالهيَة ونزعوا الى الكنيسة الكاثليكيّة. فاصابهم من جرى ذلك اضطهادات واذيّات كثيرة لا توصف من بطريرك اليعاقبة. حتى امكنهم ان يفلتوا * فسعوا مبادرين الى حلب وتراموا بين يدي بطرس جروه البطريرك. فعزّاهم وطيّب قلوبهم. ثمّ جعل المطران انطون منهم مطرانًا على ماردين. واعطى المطران متى كرسيّ النبك في الشام * واماّ المطران عيسى فانطلق الى روميّة. ونال من حضرة البابا غريغوريوس السادس عشر حظًّا وعزًا وهدايا نفيسة. ورجع الى بلاد الشرق غانمًا مسرورًا * فارسلهُ البطريرك الى الموصل ليسوس كنيستها * وعوّض الله سبحانهُ المطران عيسى عمّا كان قد اصابهُ من اليعاقبة بانّهُ نال من الدولة العليّة فرمانًا بهِ فوّض اليهِ ان يقتسم مع اليعاقبة جميع الكنائس والاديرة والاوقاف التي كانت مشتركةً بين الطائفتين لقطع النزاعات والفتن الثائرة بينهما في التصرّف بها بالشركة. وجرت هذه القسمة العظيمة باحتفال وكبكبة

القسّ خدر الموصليّ المذكور سابقًا الذي لشدة جور بطريرك النساطرة عليهِ لتمسكهِ بالايمان الكاثليكيّ هرب من وطنهِ والتجأ الى مدينة رومية * وبعد عشر سنين نصب الدومنكيّون رسالةً اخرى في العمادية متعلقة برسالة الموصل . والى الآن يلهج اهل تلك النواحي باسم الباتري بولْدو او لاوبلدو سُلْديني الذي كان اوّل من اقام الرسالة في العماديّة. ويصفون مناقبهُ * وثبت المرسلون الدومنكيّون الى اليوم في هذه البلاد * فكان هولآء ينذرون ويعلّمون ويصنعون خيرات كثيرة الى النصارى والأسلام ولاسيّما الطبّ. فجذبوا قلوب الحكّام وأعيان الأسلام اليهم. ودعوا كثيرين من النصارى المشاقّين الى معرفة الايمان القويم. وهكذا بعد الاضطهادات القاسية والاذيّات الطويلة والخسارات الوافرة قامت في تلك الابرشيّة كنيستان كاثليكيّتان احداها كلدانيّة والاخرى سريانيّة * امّا الكنيسة الكلدانيّة فاستحكمت استحكامًا تامًّا في اواخر القرن الثامن عشر حين استولى على البطربركيّة يوحنّا هرمز وانحاز الى طاعة الكنيسة الرومانيّة. وعند ذلك تنظّفت تلك الابرشيّة باسرها من كلّ اثر نسطرة داخلاً وخارجًا الى هذا اليوم *

واما السريان ففي حواشي النصف الثاني من القرن الثامن عشر تكثلك منهم عدّة بهمّة المرسلين الدومنكيين. وكان زمرةٌ من اواجه الطائفة اليعقوبيّة بذهابهم الى حجّ القدس الشريف قد استحبّوا

الديانة الكاثليكيّة واستحلوْها ونزعوا اليها في مدّة اقامتهم باورشليم وحلب وغيرها * ولكن هولآء الكاثليك الجدد بقوا مدّةً بلا راعٍ وبلا قسّيس. فكانوا يتردّدون الى كنائس الكلدان او كنيسة الرهبان المذكورين. وطالما اصابهم اذيات شديدة من اليعاقبة. فكان اعيان الكلدان يساعدونهم ولاسيّما الخواجا الياس الحلبي الذي كان سندًا قويًّا للديانة الكاثليكية واصحابها. وكان عزيزًا في طائفة الكلدان بالموصل. وكان لهُ وجاهةٌ وجرآءة لدى الحكّام * فلمّا كثر عدد السريان الكاثليكيّين. وصار منهم كثير في قرية قرقوش. اختاروا رجلاً كريمًا غيورًا على الايمان الكاثليكيّ يقال لهُ بشارة اخطل كان قد صار كاثليكيًّا بحجّهِ الى القدس الشريف. فارسلوهُ الى دير الشرفة في جبل لبنان ليسام قسّيسًا. فسامهُ البطريرك ميخائيل جروه وارسلهُ * فجعل القسّ بشارة يفلح في ذلك الكرم الطريّ. واتى بثمار كثيرة * حتى اذا كان سنة ١٧٩٠. استدعاهُ البطريرك ميخائيل المذكور الى دير الشرفة. وسامهُ اسقفًا على الموصل[1]. وجعل اسم كرسيّهِ قرقوش وهي احدى قرى الموصل. وسُمّي في رسامتهِ قورلّس بهنام * وولاّهُ البطريرك على جميع السريان القاطنين الجزيرة والعراق

---

(١) انّ كرسي الموصل مطرنيّ لا اسقفي من قديم الزمان. وانّما سيم بشارة اسقفًا لا مطرانًا لانّهُ كان مزوّجًا قد ماتت زوجتهُ. ومن كان هكذا لا يُسام مطرانًا عند اليعاقبة *

الطائفة السريانيّة * ثمّ انّ في طقس السريان اسبابًا اخرى غير هذه المذكورة توجب اصلاحهُ وتجديدهُ * وقد عقد السريان مجامع. ولكنّهم الى الآن لم ينالوا مجمعًا مثبتًا من الكرسيّ الرسولي]*

الفصل الثامن والعشرون

في رجوع الديانة الكاثليكيّة في بلاد الموصل

[لمّا كانت كنيسة الموصل يرد ذكرها كثيرًا في اخبار الكلدان والسريان وكانت اكبر ابرشيّة في البلاد المشرقيّة. راينا ان نفرز لها فصلاً على حدة * فنقول كانت كنيسة الموصل المسمّاة عند القدماء كنيسة نينوى قد وقعت منذ القرن الخامس في الشقاق عن الكنيسة الكاثليكيّة. اذ كان الجانب العظيم منهم قد تبع بدعة نسطور والباقون تبعوا يعقوب البراذعيّ. وبقوا على هذا الحال الى مبادئ القرن الثامن عشر * وكثر في نحو النصف الاوّل من ذلك القرن عدد النصارى في تلك المدينة حيث تجمّع اليها اهل البلاد والقرى المجاورة خوفًا من هول طهماز كولي خان ملك الفرس. الذي اهتزّت الارض من هيبتهِ. وبعدما ضبط عرش مملكة ايران بباسهِ غار على بلاد التتر والهند وتوغّل فيها وتملّك عليها. ثمّ ساق جيوشهُ سنة ١٧٤٣ على بلاد آل عثمان حتى وصلوا الى مدينة الموصل. فحاصروها

حصارًا قويًّا . فقاوم اهلُ المدينة بكلّ قوّتهم مع أنَّهم لم يكن عندهم عسكرٌ سلطانيٌّ . فعجزت عساكر طهماز الذي ارجَف الارض كلّها عن فتح الموصل وكرّوا خائبين * وذكر الراوون انّ الحاج حسين باشا صاحب الموصل المتولّي عليها من قبل الدولة العثمانيّة (وكان من آل عبد الجليل) نسب غلبتهُ الى شفاعة سيّدتنا العذرآء . فاذن للنصارى الكلدان والسريان ان يبنوا كلّ طائفة منهم على اسمها في جوار السور كنيسة * ودخل اسم الديانة الكاثليكيّة رويدًا رويدًا في مدينة الموصل . وذلك اوّلاً في القرن السابع عشر على يد بطريرك النساطرة ايليا السادس وايليا السابع اللذين ضربا عهد الوصال مع الكنيسة الرومانيّة * ثمّ انّ مطارنة بغداد اللاتينيّين والمرسلين الكرمليّين الذين منذ نحو اواسط القرن المذكور كانوا ينطلقون الى بغداد او الى ملَبار. كانوا في طريقهم يجوزون على الموصل . وبمخالطتهم اهلها هيَّأُوا قلوبهم لقبول الايمان الكاثليكيّ * ولكن كلّ ذلك لم يات بثمرٍ صحيح . حتّى اذا كان نحو سنة ١٧٢٥ قصد تلك المدينة نفرٌ من الرهبان الفرنسيسيّين الذين يقال لهم الكبّوشيّون لينذروا اهلها بالمعتقد الكاثليكيّ . فالقوا بذار الحقيقة الكاثليكيّة . ونصبوا نوعًا من كنيسة كاثليكيّة في تلك الناحية ولاسيّما القرى * ثمّ أُمر الكبّوشيّون بمبارحة تلك الرسالة . وبقيت فارغة . حتّى اذا كان سنة ١٧٥٠ . قصدها المرسلون الدومنكيّون وذلك بسعي

الى بلدة ومن كنيسة الى كنيسة اكثر من سائر الطقوس . وبانَّهُ قد حُذفت منهُ في اكثر الاستعمال من اهمال اليعاقبة وجهلهم الاشياَء الجوهريّة كالمزامير والتسابيح الكتابيّة المستعملة في جميع الطقوس شرقًا وغربًا (حتَّى انّ سريان سوريّة لا يرتّلون في صلاتهم طول السنة الاّ اثني عشر من اقصر المزامير) واُبقيت الاناشيد المتطاولة التي الّفها الملافنة او ايمّة اليعاقبة * وحذا الموارنة ايضًا هذا الحذو. حيث اقتدوا باليعاقبة في اكثر الاحوال الطقسيّة * وسبب ذلك هو انّ كلًّا من سائر الطقوس شرقًا وغربًا وُجد لهُ في الازمان المتأخّرة من اهتمّ بترتيبهِ وإجرائهِ على نسقٍ واحد ثابت مضبوط مناسب . ولكنَّ طقس السريان لم ينَلْ هذا الحظّ الى الآن . مع انّهُ محتاج الى اصلاح وتجديد اكثر ممّا كانت سائر الطقوس لأسباب شتّى . اخصّها انّ ايمّة اليعاقبة لم يكتفوا مثلًا بنافورة واحدة كما عند اكثر الملل او بنافورتين او ثلاث كما عند اليونان والنساطرة . بل كوّموا اكثر من اربعين نافورة للقدّاس بلا قيدٍ ولا ترتيب . ونسبوا اكثرها الى الآباَء القدّيسين زورًا. حتى انغرّ البطريرك بطرس جروه في كتاب النافور الذي طبعهُ برومية وانتحل تبعًا للموارنة الى القدّيسين ثلاث نوافير مسمّاة باسماَء ايمّة اليعاقبة. وكان حقّهُ ان يسقِط جميع النوافير التي صنّفتها اليعاقبة ويختار واحدةً فقط قد اجمع المحقّقون على انّها وحدها بين

نوافير اليعاقبة سابقةٌ لعهد شقاقهم وكانت مستعملة وحدها في البطريركيّة الانطاكيّة اليونانيّة. وهي المنسوبة الى مار يعقوب الرسول واتّخذوها من كنيسة اورشليم. فاننّا نرى انّ سريان البطريركيّة الانطاكيّة كانوا يستعملون قديمًا غير هذه المنسوبة الى يعقوب ◦ وهي التي منها نشأَت نافورة النساطرة المنسوبة الى الرسل ونافورة الموارنة المنسوبة الى بطرس الرسول * وقد غفل البطريرك جروه في النوافير اليعقوبيّة التي جمعها في كتابهِ عن امرٍ مهمٍّ جدًّا. وهو انّهُ فيها لا يذكر الكاهن اسم البابا والبطريرك والاسقف المكانيّ كما فرضت قوانين الكنيسة ◦ وبلا سببٍ قويٍّ غيّر فيها صلوة دعوة روح القدس تبعًا للموارنة ◦ ولو تبع الموارنة في صلوة القصي اي كسر الجسد التي هي اقدم من التي الّفها ابن الصليبيّ. لكان اولى بهِ [1] * ومع كلّ ذلك فللبطريرك بطرس جروه فضلٌ عظيمٌ على

---

(١) انّ في هذا نافور البطريرك بطرس جروه شوائب اخرى ◦ منها انّهُ ترك ترجمة الاناجيل العربيّة المستعملة في الكنيسة السريانيّة منذ اجيال كثيرة ووضع بدلها ترجمةً من عندهِ مشوّشة العبارة قليلة الضبط. واهمل فصول الرسائل المختصّة بكلّ يوم من ايّام السنة وسهّل السبيل للقسوس ان يقرأوا في القدّاس ايّة رسالةٍ اعجب خاطرهم. واخترع سنّة جديدة وهي ان يقدّس جميع القسوس سويّةً يوم خميس الفصح مع انّ المسيح يوم خميس الفصح قدّس وحدهُ. واباح القداديس المتتابعة يوم سبت النور. واخترع رتبة رسم الكاس لجمعة الآلام خلافًا لسنّة آبائنا واسقط هذه الرتبة من الايّام الصوميّة. الى غير ذلك *

فرنسا وبلجيكا وهولندا . وجمع من صدقات المؤمنين مبلغًا وافرًا جسيمًا من المال ٠ فرجع وبنى دارًا بطريركيّةً وكنيسة ومدرسة في ماردين. واعان اهل الموصل بمبلغ وافر لبناء كنيستين. وصنع غير ذلك من المصنوعات الخيريّة * ولمّا تُوفّي سنة ١٨٦٥. اقام الكرسيّ المقدّس السيّد ديونوسيوس شلحة مطران حلب نائبًا بطريركيًّا. الى ان اجتمعوا في حلب في شهر حزيران من سنة ١٨٦٦ واختاروا غبطة السيّد فيلبّس عركوس مطران ديار بكر الجالس سعيدًا *

اعلم انّ الطائفة السريانيّة توجد مبذورةً في النواحي الشرقيّة من سورية وفي الجزيرة وكردستان. وهي الآن صغيرة جدًّا بالنسبة الى عظمها البليغ الذي كانت فيهِ يومًا * وامّا بطريركها فيسمّى الانطاكي على السريان. ومقرّهُ كان اولًا في مدينة حلب . ثمّ صار في جبل لبنان. ثمّ منذ بطريركيّة انطون سمحيري صار في مدينة ماردين المحاذية لدير مار حنانيا او دير الزعفران الذي هو مقرّ بطريرك اليعاقبة* واختلفت ابرشيّات السريان في سالف الزمان. وامّا الآن فلهم مطارين في الموصل وحلب والجزيرة وبغداذ وامد ودمشق والنبك وبوجاق* واكبر ابرشيّاتهم هي الموصل. وكانت بغداذ والجزيرة تلوذان بها الى ان فرقها عنها البطريرك انطون سمحيري * وليس للسريان رهبنة . وكان اثناسيوس سفر المطران المارديني الكاثليكي قد قصد روميّة في القرن السابع عشر. ثمّ جال في بلاد كثيرة .

وجمع من صدقات المؤمنين مبالغ وافرة من المال لاقامة رهبنة وغير ذلك لطائفة السريان . وكلّ ما نالت يدهُ هو انهُ اشترى ديرًا في مدينة رومية . واوقفهُ ليكون مدرسةً للطائفة السريانيّة . الاّ انّ المدرسة لم تنفتح * وتملّك هذه الطائفة ديرين في جبل كسروان . احدهما يقال لهُ دير الشرفة وهو مسمًّى على اسم سيّدة النجاة . والآخر يقال لهُ دير الرغم على اسم مار افرام * وفي دير الشرفة لهم مدرسة اقليرسية * ومن جملة من ظهر بالعلم من السريان اسحاق جُبَير المارّ ذكرهُ . وكان ماهرًا في معرفة اللغة السريانيّة . وسكن رومية مدّةً طويلة واستخرج الى اللغة السريانيّة والعربيّة كتبًا شتّى . ومن جملتها كتاب الاقتداء بالمسيح بالسريانيّة المطبوع برومية * وطقس السريان هو طقس اليعاقبة بعينهِ منقًّى من كلّ ما يخالف العقيدة الارثذكسيّة . الاّ انّ البطريرك بطرس جروه في النافوراو هو كتاب القدّاس الذي طبعهُ برومية لهذه الطائفة وفي الكلندار الذي الحقهُ بالاشحيم وفي غير ذلك منهُ قد ادخل شيئًا من اصطلاحات الكنيسة اللاتينيّة من دون حاجة * ولغة الطقس السرياني هي السريانيّة يلفظونها اللفظ المسمَّى المغربي وفي اماكن يلفظونها لفظ المشارقة . وفي المدن يقرأُون بالعربيّة فصول الكتاب المقدّس واشياء اخرى . وفي اماكن يقرأُون الانجيل بالتركيّة * وطقس السريان يمتاز عن سائر الطقوس بكونهِ يختلف من بلدة

ثمّ نصب باسيليوس اسحاق بن جُبَير الموصليّ الآتي ذكرهُ مفريانـاً على المشرق . وسكن هذا المفريان في مدينة امد اوّلاً . حتى ازعجهُ اليعاقبة فهرب وذهب الى رومية * وفي سنة ١٦٨٧ لمّا استولى على اليعاقبة جرجس البطريرك الموصليّ . توجَّه الى حلب وبيدهِ فرمانٌ من الدولة العثمانيّة . فخطف كنيسة السريان من جديد واضطهد الكاثليكيّين . ونال ان يُطرَح بطريركهم غريغوريوس في السجن حتى توفّي فيهِ سنة ١٧٠١ * فبقيت الكنيسة السريانيّة الكاثليكيّة بلا بطريرك زماناً لاستظهار اليعاقبة عليها . حتى اعطاها الله النصر . فقام فيها ميخائيل جروه الحلبي بطريركاً . وذلك سنة ١٧٨٣ * كان ميخائيل في الاصل يعقوبياً . ثمّ بالهامٍ الاهيّ دخل حظيرة الكنيسة هو واربعة اساقفة . اي ابراهيم ونعمة وموسى وجرجس بشارة . فاختار هولاء ميخائيل جروه وجعلوهُ بطريركاً في ماردين . وايَّد البابا بيوس السادس جلوسهُ * وجعل ميخائيل مقرّهُ في جبل كسروان في دير السيّدة المعروف بدير الشرفة * وفي ايّامهِ كثرت الطائفة السريانيّة الكاثليكيّة . فلم يبقَ يعاقبة في حلب . وتكثلك كثيرون من اليعاقبة في ماردين والموصل وما يجاورهما بهمّة المرسلين اللاتينيّين خاصّةً * واصاب هذا البطريرك ايضاً اضطهادٌ من اليعاقبة . حتى انّهُ من دسائسهم نُفي الى بغداذ . ثمّ نصرهُ الله تعالى * ولمّا توفّي ميخائيل سنة ١٨٠٠ . اجتمع الاساقفة في دير الشرفة . واختاروا قورلس

بهنام بشارة اسقف الموصل (الآتي ذكرهُ في الفصل التابع) ليكون بطريركاً • فلمّا بلغهُ خبر هذا الانتخاب . أَبى قبولهُ * فاجتمعوا ثانيةً واختاروا الخوري ميخائيل ظاهر الحلبي . فحضر الى دير الشرفة وسيم اسقفاً ثمّ بطريركاً . وسنة ١٨٠٢ ثبّت البابا بيوس السابع انتخابهُ * وبعد ثماني سنين تنازل عن البطريركيّة . وبقي الكرسيّ فارغاً الى ان نصبوا سنة ١٨١٤ غريغوريوس سمعان الموصلي اسقف اورشليم بطريركاً . ولكنّ هذا ايضاً تنازل وبقي الكرسيّ خالياً . فاقام الكرسيّ المقدّس ديونوسيوس هدايا مطران حلب نائباً بطريركيّاً عليهم الى ان اختاروا سنة ١٨٢٠ غريغوريوس بطرس جروه الحلبي مطران اورشليم . وفي سنة ١٨٢٨ انطلق الى رومية ونال تثبيت انتخابهِ * وفي ايّامهِ انعم الباب العالي اي الدولة العثمانيّة على الطائفة السريانيّة سنة ١٨٢٩ بفرمان الانفصال الشرعيّ المدني من طائفة اليعاقبة والاستبداد بشانهم والاستقلال من كلّ تعلّق بهم . اذ كانوا الى ذلك الحين قد قاسوا كثيراً لا يوصف من العذاب والخسارات من جور بطاركة اليعاقبة واساقفتهم حيث كانوا يتّخذون السريان الكاثليك رعيّةً عصاةً عليهم متعاهدة مع الافرنج * وفي سنة ١٨٥١ توفّي بطرس جروه في حلب * وفي سنة ١٨٥٢ اجتمع الاساقفة في دير الشرفة المذكور . واختاروا انطون سمحيري مطران ماردين بطريركاً * وهو ذهب الى رومية واخذ التثبيت . ثمّ جال في بلاد

الكرسي الرومانيّ المقدَّس . ثمّ نكثوا عهدهم كما راينا في ما مضى * وفي اواسط القرن السادس عشر كان جالسًا على بطريركيّة اليعاقبة اغناطيوس يعقوب الشامي . وهذا ارسل القسّيس موسى الماردينى الى بلاد الافرنج ليسعى في طبع كتبٍ سريانيّة لمنفعة بني طائفتهِ * فلمّا انتهى موسى الى روميّة . قرّر صورة الايمان القويم بين يدي البابا يوليوس الثالث باسمهِ وباسم البطريرك . ثمّ نال من ملك أَوْستريا القيصريّ ان يامر بطبع كتاب العهد الجديد . فخرج سنة ١٥٥٥ من كَرَم الملك المذكور العهد الجديد مطبوعًا في السريانيّة في مدينة وَيَنَّا بحروفٍ دقيقةٍ ظريفة لم يبقَ منها اثر في مطابع اوروبا . وهو اوّل كتابٍ طُبِع في هذه اللغة . وأُرسل ووُزّع مجّانًا على الشرقيّين * وفي نحو سنة ١٥٦٠ كان لليعاقبة بطريرك اسمهُ نعمة الله الماردينيّ . وفي زمانهِ حجَّ الى رومية اسقف يعقوبيّ اسمهُ يوحنا ابرهيم قاشا . فاكرمهُ البابا بيوس الرابع . وعلى يدهِ ارسل كتابًا الى البطريرك فيهِ يحرّضهُ على طاعة الكنيسة الرومانيّة . واما البطريرك فوقع في محنةٍ عظيمة . فجحد دين المسيح وتبع دين الأَسلام * ثمَّ ندم وتوجّه الى رومية . وتاب على يد البابا غريغوريوس الثالث عشر . وسمى لديهِ حتّى انهُ سنة ١٥٨٣ ارسل الى ملّة اليعاقبة قاصدًا يقال لهُ لِيونَرْد هابيل . فرجع القاصد من رسالتهِ خائبًا * ولم ينشأْ من ملّة اليعاقبة طائفة كاثليكيّة حقيقيّةَ الاّ في زمان

البطريرك اغناطيوس سمعان الذي جلس في اواسط القرن السابع عشر. فانهُ بهمّة المرسلين الكبوشيين الذين كانوا في مدينة حلب تمسّك طائفة كبيرة من يعاقبة تلك المدينة بطاعة الكنيسة الرومانيّة. وهكذا عادت الحقيقة الكاثليكيّة على الطائفة اليعقوبيّة بعد ما كانت قد غابت عنها مدّة اكثر من الف ومائة سنة * فنُصب لهذه الطائفة السريانيّة الكاثليكيّة مطرانٌ يقال لهُ اندراوس اخيجان. كان قد قرأ العلوم في مدرسة الموارنة برومية. وسامهُ مطران من الموارنة وذلك سنة ١٦٥٦ * ولمّا مات سمعان البطريرك. جعلت طائفة السريان التي في حلب اندراوس المذكور بطريركًا. فارسل صورة ايمانهِ الى الكرسيّ المقدَّس. ولمّا توفّي سنة ١٦٧٨. اسرع الى حلب عبد المسيح بطريرك اليعاقبة. وضبط الكنيسة من الكاثليك بامر الحكّام. وقهر الكاثليكيين وازعجهم كثيرًا * فاجتمع الرهبان الكبوشيّون واليسوعيّون الذين في حلب مع اعيان الجماعة السريانيّة الكاثليكيّة خفيةً. واختاروا اغناطيوس بطرس غريغوريوس بطريركًا على الكاثليك. وفي الحال انطلق احد اولئك الرهبان الى القسطنطينيّة واخذ فرمانًا سلطانيًّا في ترجيع الكنيسة الى يدهِ. فأُخذت الكنيسة من يد اليعاقبة باحتفالٍ وتهليل * ثمَّ كَاتَب البطريرك غريغوريوس الكرسي المقدَّس ومجمع بروبغندا. فاتاهُ صكّ التاييد * وهو رسم مطرانين على حلب واورشليم.

يرعاها اساقفة يعقوبيون يسيمهم بطريرك اليعاقبة *

ومن الطوائف التي انضمّت الى الديانة الكاثليكيّة في القرن السابع عشر كان قومٌ يسمّون نصارى مار يوحنّا * انّ هذه الطائفة كانت تسكن في النواحي الشرقيّة من العراق خاصّةً ولاسيّما البصرة. وكانت تبلغ عددًا نحو عشرين الف بيت * وتسمّى الصُّبَّاء. واصحابها يسمّون نفسهم مَنْدَويّين. ولغتهم هي سريانيّة فاسدة يقال لها النبطيّة. وخطّهم بعيدٌ جدًّا عن سائر الخطوط السريانيّة * وهم في الاسم فقط نصارى. فانّهم ما عندهم من النصرانيّة سوى العماذ والصليب واكرام مار يوحنّا المعمذان. ولهم عقائد كثيرة فاسدة في هذه الابواب وسائر ابواب الدين المسيحي * فانّهم يعتقدون باقنوم واحد في اللاهوت. ويسجدون للملائكة والنجوم. ولا يقرأُون من الكتاب المقدّس الاّ مزامير داود. ولهم كتاب مشحون بالخرافات يسمّونهُ كتاب آدم. ويصومون شهرًا في السنة. ويحجّون الى مدينة حرّان التي في الجزيرة * وظهر فيهم علماء قليلون. منهم واشهرهم ابو الحَسَن ثابت بن قرّة الحرّاني. الذي اشتهر في القرن التاسع والّف كتبًا كثيرة نفيسة بالسريانيّة والعربيّة في المنطق والطبّ وغير ذلك من العلوم * وفي نحو سنة ١٤٨٤ حلّ على ملّة الصُّبَّاء غائلة تيمرخان اوهو تَمُرْلَنْك ملك التتر الشهير (الذي اخرب بغداد وتكريت واخذ ارويل والموصل والجزيرة وسائر مدن ما بين

النهرين وسورية . والقى الرعب في قلوب اهل المشرق كلّهِ) .
وعاملهُ المتولّي على بلاد الصبّا عمل جهدهُ ليقرضهم ويمحو انتهى
اسمهم . فهدم بِيَعهم . واحرق كتبهم . وشتّت شملهم في البلاد حتّى
كثيرٌ منهم الى الهند . ولم يبقَ منهم الاّ الوف قليلة في سواد
البصرة * وفي سنة ١٦٥٢ أُرسل من قِبَل البابا الى البصرة اغناطيوس
دي يسوع الكرملي مع رفاقهِ ليسوس النصارى الذين هناك بصفة
نائب بابويّ . وبنى فيها كنيسةً على اسم العذراء . وارجع الوفاً
كثيرةً من المندوبين الى الايمان الارثدكسيّ . وارسلهم الى بلاد
الهند . فسكنوا في غُوا ومَسْكَت وسيلان تحت ظلّ ملك البرتوغال*
فلم يبقَ الآن من هذه الملّة الاّ عددٌ نزرٌ جدًّا] *

الفصل السابع والعشرون

في مختصر اخبار الكنيسة السريانيّة واحوالها

[انّ اسم السريان في الاصل يعمّ كلّ الذين يتكلّمون
بالسريانيّة اي الاراميّة او يُنسَبون اليها بايّ وجه كان . الاّ انّهُ
الآن اذا اريد بهِ طائفة من طوائف المشرق الكاثليكيّة على
الخصوص . دلّ على الكاثليكيّين الراجعين من شيعة اليعاقبة في
البطريركيّة الانطاكيّة * فنقول انّ اليعاقبة طالما تعاهدوا مع

نسطور وثاودورس . واحرقها بالنار . ونقّح غيرها من الضلالات * واماّ من جهة السياسة فاجرى على الكنيسة الملبارّية اغلب شرائع المجمع التريدنتيني . ووضع على كلّ كنيسة قسّيساً متّصفاً بصفة متصرّف . وفرض العزبيّة على القسوس كعادة اللاتين * واماّ من جهة الطقس فلمّا كان طقس الملباريّين هو عين الطقس السرياني المستعمل عند النساطرة . لم يحبّ الكسيوس مناز إبطالهُ راساً ولا تركهُ على حالهِ * فابقى لهم النافورة التي تسمَّى نافورة الرسل . الاّ انّهُ ادخل فيها تغييراً كثيراً * ولكن في ما بقي أَمران يستعملوا طقس اللاتين . فترجم لهم احد اليسوعيّين من اللاتينيّة طقوس العماذ والبرّاخ والمشحة وغير ذلك باللغة السريانيَّة * وهكذا تكوَّن في الكنيسة الملباريّة طقس جديد لا هو لاتيني ولا هو كلداني . بل هو بين الطقسين * وطُبِعت كتبهم الطقسيّة على هذه الهيئة في مدينة رومية * ثمّ انّ الكرسيّ المقدّس اذ راى انّهُ ما دام الملباريون يسوسهم اسقف كلداني لا يبعدون من السقوط في النسطرة ويحدث فيهم الفساد والقلق . حتم ان تكون اساقفتهم لاتينيّين مهذَّبين في اوروبا نفسها . قادرين بعلمهم وحكمتهم ان يرعوا ذلك القوم الحديث الايمان احسنَ رعايةٍ . فنصب واحداً من اليسوعيّين المذكورين يقال لهُ روز مطراناً على الملباريّين * وهكذا جرى بالتمام نزع الكنيسة الملباريّة الكاثليكيّة عن البطريركيّة النسطوريّة الى يومنا

هذا . بحيث انّ مطرانهم لاتينيّ يقدّس ويقضي سائر الخِدَم باللاتينيّة ٠ وقسوسهم يقدّسون ويخدمون بطقسهم الكلداني المشروح المخلوط * وبعد روز جلس مطرانان آخران على تلك الصفة * ثمّ هاج الملباريّون سنة ١٦٥٢ . وابوا قبول مطران لاتينيّ ٠ واذ راوا انّ الكرسيّ المقدّس لم يجِب الى سؤالهم المكرَّر سابقًا مرّات في ان يعطيهم مطرانًا كلدانيًّا . اقاموا توما الارخدياقون الكلداني مطرانًا عليهم بالتبرّع والتمرّد * وفي سنة ١٦٥٩ بدأ الكرسيّ المقدّس ان ينصب للملباريّين اسقفًا من الكرمليّين مسمًّى على كرسيّ آخر لا عليهم . يرعاهم بصفة نائب بابويّ ٠ فانقسم اهل ملبار قسمين . قسم ارثدكسيّ خاضع للاسقف اللاتيني . وقسم نسطوريّ متعصّب لتوما الارخدياقون * وفي نحو ذلك الزمان ثارت جماعةٌ كبيرةٌ من الملباريّين ٠ وطلبوا لهم مطرانًا من بطريرك اليعاقبة الانطاكي (وذلك بمساعدة الهولنديّين الذين كانوا قد ضبطوا بلاد ملبار من البرتوغاليّين ٠ وكانوا برتستنتيّين) * فوافاهم غريغوريوس مطران اورشليم من لدن البطريرك المذكور . وهذا نشر مذهب اليعاقبة بين الكلدان الملباريّين . وصار لليعاقبة هناك جماعةٌ كبيرة موجودة الى اليوم * وبعد انقلابات شتَّى انقطع اسم النسطرة من بين اهل ملبار بالكمال ٠ وبقي القوم الى اليوم مقسومًا الى ملّتين . ملّة كاثليكيّة كلدانيّة يسوسها الاساقفة الكرمليّون اللاتينيّون كما ذكرنا . وملّة يعقوبيّة

الفصل السادس والعشرون

في مختصر اخبار الكنيسة الملبارية في الهند وفي نصارى مار يوحنا

[ذكرنا سابقًا انّ مذهب النساطرة كان لهُ امةٌ عظيمة من التَّبَعَة في قسمٍ من بلاد الهند اسمهُ ارض مَلَبار. وانّ بطريرك النساطرة كان يرسل اساقفة ليسوسوا تلك الامّة. وهي التي تُعرَف عند الافرنج باسم نصارى مار توما * فحدث في نحو اواسط القرن السادس عشر انّ عبديشوع البطريرك الذي قلنا عنهُ انهُ عقد عهد الوصال مع الكنيسة الكاثليكيّة. ارسل يوسف الاسقف الى ارض ملبار. وكان البرتوغاليّون قد تملّكوا على تلك الارض من سنين. فقبضوا عليهِ بعلّة انّهُ ظهر بالنسطرة ونفوهُ * فارسل اليهم البطريرك اسقفًا آخر اسمهُ ابرهيم. وبعد قليل افلت يوسف من يد البرتوغال وقصد الهند. فوقع شقاق بين اهل ملبار. وانقسموا فرقتين. فرقة تحزَّبت ليوسف وفرقة لابرهيم * فتغلّب ابرهيم. واخذ كتبًا من البطريرك الى البابا الرومانيّ وقصد روميه. وقرّر صورة ايمانهِ بين يدي بيوس الخامس البابا. فاعطاهُ براءة التثبيت وبعثهُ الى الهند * وفي سنة ١٥٦٧ احتجَّ البرتوغال على الاسقف يوسف ايضًا بانَّهُ ظهر بالطغيان. فارسلوهُ ماسورًا الى روميّة * ثمَّ اقترفوا الاسقف ابرهيم بانّهُ خلسةً اختلس من البابا براءة

التثبيت. فحبسوهُ في دير. ثمّ افلت واستولى على اسقفيّة ملبار وحدهُ. ورفض النسطرة. فاقرّوهُ على كرسيّهِ * ولكنَّ اهل ملبار لميلهم الى النسطرة اغتاظوا منهُ. وطلبوا اسقفًا آخر من بطريرك النساطرة. فارسل اليهم اسقفًا اسمهُ شمعون * فصار ابرهيم يمانع شمعون ويعاديهِ. فالتزم شمعون أن يهرب من الهند. وعيَّن نائبًا عنهُ اسمهُ يعقوب * فانقسم الملباريّون بين ابرهيم ويعقوب * وفي سنة ١٥٩٠ جمع مطران غُوا قاعدة أَملاك البرتوغال في الهند مجمعًا. وحرمِ ابرهيم ويعقوب لتظاهرهما بالنسطرة. وبعد ذلك مات الاثنان عاصيين * فلمّا راى الكرسيّ المقدّس هذا سوء احوال الطائفة الملبارية. عُني بامرها. ففوَّض الى مطران غوا المذكور (وكان يقال لهُ أَلَكْسِيوس مناز) ان يهتمّ باصلاح حال تلك الطائفة وتنظيفها من آثار الضلالة النسطوريّة * فانطلق الكسيوس سنة ١٥٩٩ الى بلاد مَلَبار مع جملة من الرهبان اليسوعيّين. وعقد مجمعًا في مدينة دِيَمْبِير. فيهِ سنّ سُننًا كثيرة لتدبير امور تلك الطائفة في المعتقد والسياسة والطقس * امّا من جهة المعتقد فاجبر الارخدياقون والقسوس ووجوه الجماعة الملباريّة ان يرفضوا في المجمع بدعة نسطور ويحرموا بطريرك بابل. ويعترفوا برياسة الحبر الروماني على الكنيسة الكاثليكيّة. ويعدوا باطاعتهِ. وان لا يقبلوا اسقفًا الّا من يدهِ * وحرم كتبًا كثيرة نسطوريّة كانت في ايدي العامّة. منها نافورة

فهي لغة بابل والعراق القديمة . وبها كُتب شيءٌ من العهد القديم . وتعلّمها اليهود في جلاء بختنصّر . ويسمّيها العرب اللغة النبطيّة . وهي اشبه شيء بالسريانيّة * وخطّ بابل يستعملهُ اليهود الى اليوم ويسمّونهُ العبرانيّ زورا . ومن هذا الخطّ الذي هو الخطّ السرياني القديم نشأت شيئًا فشيئًا اكثر الخطوط الموجودة . اي اليونانيّ (فانّ اليونان تعلّموا الكتابة من السريان بشهادة مؤرّخيهم . واسماء حروفهم وترتيبها هي سريانيّة الى الآن) . والروميّ اي اللاتينيّ . والسريانيّ المربّع المسمّى الاسطرنجيليّ . والسريانيّ النسطوريّ . واليعقوبيّ . والعربيّ القديم المسمّى الكوفيّ . المتولّد منهُ الخطّ العربي الدارج الآن . وغير ذلك * والطائفة الكلدانيّة تشهد لها الآثار القديمة انّها في القرن الثامن نفسهِ كانت تضع الخمير في خبز القدّاس . بل الزيت والملح ايضًا . وبهذين اختصّت هي والطائفة اليعقوبيّة من سائر الطوائف شرقًا وغربًا . ولا يبعد انّ استعمال الزيت في خبز القدّاس كان رسمًا عامًّا في البطريركيّة الانطاكيّة كلّها من قديم الزمان * وممّا اختصّ بهِ طقس الكلدان مع طقس السريان وطقس الموارنة هو انّ جميع ما يقولهُ الجمهور في الصلوات الفرضيّة في هذه الطقوس الثلاثة عدا اجزاء الكتاب المقدّس موزون على اوزانٍ كثيرة معلومة . كلّ وزن يكون توقيع لحنهِ في الترنيم على توقيع نظمهِ * وكثيرٌ من هذه الاناشيد والأجزاء الاخرى يوجد

في كلّ هذه الطقوس الثلاثة بعينهِ وبلا اختلاف. ومن ذلك يتّضح قدم هذه الاناشيد والقِطَع وانّها سابقة عهد الشقاقات. ويتّضح انّ هذه الطوائف الثلاث حفظت اصول الطقس الانطاكيّ السريانيّ القديم الحقيقيّ واركانهُ الاوّليّة * وهذه الطوائف الثلاث لها التاريخ المشهور المعروف بتاريخ اسكندر او تاريخ اليونان. وهو يبتدئُ في سنة احدى عشرة وثلاثماية قبل التاريخ المعهود المسمّى تاريخ الميلاد. والسنة عند هذه الطوائف تبتدئُ من شهر تشرين الاوّل * ثمّ اعلم انّ الكلدان بعد ما انضمّوا الى الكنيسة الرومانيّة الجأهم الذين اهتمّوا بانضمامهم ان يتّخذوا من طقس الكنيسة اللاتينيّة شيئًا كثيرًا اغلبهُ لم يكن حاجةٌ اليهِ. وهذا الشيء اختلط مع القديم وتولّد منهُ طقسٌ واحد. حتّى انّ ليترجيتهم اي النافورة التي بها يقدّسون المبنيَّة على النافورة المنسوبة الى الرسل تختلف اختلافًا من ليترجيّة الملباريّين الكاثليك المبنيّة هي ايضًا على نافورة الرسل * ومن الذين اشتهروا عند الكلدان القسّ خدر الموصليّ. وكان خبيرًا ماهرًا باللغة السريانيّة والعربيّة. والّف كتبًا شتّى فصيحة. منها قاموسٌ عظيم في السريانيّة والعربيّة والتركيّة. اخذ منهُ نسخةً الى روميّة واوقف مالاً وافرًا ليُطبَع لفائدة بني جنسهِ. فلم يتيسّر نجاز الامر] *

ويجلس في الموصل * وبعد وفاة يوحنا هرمز نُصب بطريركًا نقولا اشعيا يعقوب المعروف بزيّا الاذربيجاني سنة ١٨٤٠ . وفي سنة ١٨٤٨ تنازل عن البطريركيّة. فنصب مكانهُ غبطة السيّد يوسف الخامس المعروف باودو الجالس سعيدًا *

اعلم انّ بطريرك الكلدان يسمّى بطريرك بابل (وبابل كناية عن بغداد كما انّ نينوى كناية عن الموصل) ويجلس في الموصل. وابرشيّتهُ الاسقفيّة كبيرة واسعة جدًّا . لانّها تشمل الموصل واعمالها الكثيرة وبغداد مع بُعْدها * وكراسي المطرنيّات الكلدانيّة كانت كثيرة لاتُحصَى في الازمان السالفة. وامّا الآن فيعَدّ منها احد عشر فقط . اي امد والجزيرة وسعرد وماردين وزاخو والعماديّة وسنا وسلمست وكركوك والعقر والبصرة * والطائفة الكلدانيّة معظمها يسكن مدن الجزيرة وكردستان والعراق وقراها. ومنهم جماعات كثيرة في اذربيجان وفارس . ومنهم في حلب * ولهم رهبنة للرجال باسم مارانطونيوس. واذ كان للطائفة الكلدانيّة يومًا شيء لايُحصَى من الاديرة المشحونة بالرهبان. لم يبقَ لهم الآن الاّ ثلاثة فقط معمورة بنحو ماية راهبٍ . اثنان بقرب القوش من اعمال الموصل يسمّى احدهما دير الربّان هرمزد والآخر دير السيّدة . والثالث يقال لهُ دير مارجرجس بقرب الموصل * وفي سنة ١٨٤٥ تثبّتت الرهبنة الكلدانيّة بسلطان الكرسي المقدّس. وكان المهتمّ باصلاحها القسّ

جبرائيل بَمُّبو الماردينيّ الذي في سنة ١٨٠٨ اتى الى الموصل بنيّة ان يجدّد روح الرهبنة في الكنيسة الكلدانيّة . ثم طاف جبال لبنان . وانطلق الى روميّة . وتعلّم نظام الرهبنة في اديرة الموارنة خاصّةً . فاجرى الرهبنة الكلدانيّة في دير الربّان هرمزد على النسق الذي تعلّمهُ . ووضع قوانين مار انطونيوس اساسًا لها . وحيث كان طقس النساطرة لا يحوي الاّ صلاة ثلاث ساعات . علّم جبرائيل رهبانهُ ان يصلّوا بقيّة الساعات من طقس الموارنة * وهو قُتِل في القوش على يد رَوَندوز الكرديّ الذي نهب دير هرمزد سنة ١٨٣١ * والى الآن لم يثبت للطائفة الكلدانيّة مجمعٌ بسلطان الكرسيّ الرومانيّ * ولهم مدرسة اقليرسيّة في مدينة الموصل انشأها منذ سنين قليلة احد اغنياء امد يقال لهُ الشمّاس رافائيل بدوش . وضمّ اليها مطبعة . واوقف لها وقفًا مؤبّدًا * وامّا طقس الكلدان فهو طقس النساطرة . وهو اقدم طقس استُعمل في البلاد المشرقيّة واقرب طقس الى اصول الطقس القديم . ولعلّ نافورتهم التي تسمّى نافورة الرسل ناتجة من اقدم نافورة كُتبت * ولهم نافورتان اخريان للقدّاس . احداهما مسمّاة باسم نسطور . والاخرى باسم ثاودورس الهرطوقيّين * ولغة الكلدان الطقسيّة في جميع الاحوال هي السريانيّة المشرقيّة المسمّاة الكلدانيّة غلطًا . وهي مختلفة من السريانيّة المغربيّة المسمّاة اليعقوبيّة اختلافًا يسيرًا في الخطّ واللفظ * وامّا اللغة الكلدانيّة الحقيقيّة

« اذلُّ اولادك ايليّا الحقير بنعمتك بطريرك بابل الخادم لكرسيّ مار ادّى المسلَّم رعاية جميع الشرقيّين » * ثمّ جلس ايليّا السابع سنة ١٦٣٩ . وفي زمانهِ انحاز كثيرون من النساطرة الى الايمان الكاثليكي في بلاد الجزيرة . وذلك بهمّة الرهبان الفرنسيسيّين الذين يقال لهم الكبوشيّون وقد انذروا في مدن شتّى من الجزيرة . فاقام ايليا في مدينة الموصل نائبًا عنهُ يعقوب بنيامين . وهذا ارسل صورة ايمانهِ الى البابا الروماني * ولمّا جلس بعدهُ ايليّا الثامن المعروف بابن مرواج سنة ١٦٦٠ . نزع الى النسطرة . فعاصاهُ اهل طائفتهِ الارثذكسيّون . واختاروا لهم بطريركًا كاثليكيًا اسمهُ يوسف الاوّل وذلك سنة ١٧٦١ . كان اوّلاً مطران امد . فثبت الكرسي في تلك المدينة . وكان اذ ذاك البطريرك شمعون في ارميه والبطريرك ايليّا مرواج المذكوران يسوسان النساطرة * ونال يوسف البطريرك تثبيتهُ من البابا . الاّ انهُ بعد ذلك تنزَّل من البطريركيّة . وانطلق الى روميّة ومات هناك * وجلس بعدهُ يوسف الثاني سنة ١٦٩٥ . وهو كان غيورًا جدًّا على الديانة الكاثليكيّة . والّف كتابًا في السريانيّة يستحقّ الذكر عنوانهُ المِرْآة المجليّة . فيهِ دحض ضلالات النساطرة القديمة والحديثة . وردّ على اليعقوبيّة . واثبت عقيدة الكنيسة الكاثليكيّة * وجلس بعدهُ يوسف الثالث سنة ١٧١٣ . وهو الذي شرّفهُ اقليمنس الحادي عشر البابا باسم بطريرك بابل *

وجلس بعدهُ يوسف الرابع. ونال التثبيت من الكرسي المقدّس سنة ١٧٦٠ * ولكن في سنة ١٧٥٩ صار طيمثاوس بطريركًا آخر على امد. ونال التثبيت من البابا * والبطريرك شمعون ايضًا الذي كان في كردستان ارسل الى البابا صورة ايمانهِ بجحد ضلال نسطور. والتمس التثبيت لهُ ولاساقفتهِ. فارسل اليهِ البابا البليون * وكذلك رجع ايليّا بطريرك الفرقة الاخرى من النسطرة الى الكنيسة الكاثليكيّة. وايّدهُ البابا * واذ كان هولآء البطاركة لم يتيسّر لهم اكثر الاوقات ان يسوسوا رعيّاتهم لسبب اضطهاد النساطرة. فوّض الكرسيّ المقدّس امر رعاية تلك الطائفة الى اسقف بغداد اللاتيني. واوّل اسقف لاتيني سيم على بغداد كان سنة ١٦٣٨ * وفي سنة ١٧٦٧ وقع خصام بين هذا الاسقف اللاتيني وبين البطريرك يوسف الرابع في امر رعاية اهل بغداد * ثمّ نزع بطاركة الموصل الى النسطرة. حتى انّ ايليّا البطريرك سام سنة ١٧٧٦ يوحنّا هرمز ابن اخيهِ اسقفًا على الموصل ليكون خليفتهُ بعد موتهِ بحقّ الارث كعادتهم * فهذا لمّا مات عمّهُ سنة ١٧٨٠. ضبط مكانهُ وجحد النسطرة وانحاز الى الارثذكسيّة. ولكن بقي مدّة طويلة من الزمان محسوبًا مطرانًا فقط على الموصل. حتّى اثبت بطريركيّتهُ البابا بيوس الثامن سنة ١٨٣٤ * وكان البابا لاون الثاني عشر قد ابطل سنة ١٨٢٧ تمييز بطريرك امد من بطريرك الموصل. واقتصر البطريركيّة على واحد يسمّى بطريرك بابل

بغداذ وكركوك واربيل والجزيرة وتوريز ونصيبين وماردين وحسن كيفا وغير ذلك اساقفةً وقسوساً ورهباناً وعلمانيين من الوجوه والعامّة. وانتخبوا بطريركاً عليهم الربّان سولاقا او هو صاعود راهب دير هرمزد. واذ لم يكن من يسيمهُ بطريركاً. ارسلوهُ بصُحُفٍ الى رومية الى يوليوس الثالث البابا * فلمّا وصل سولاقا الى رومية. قرّر صورة ايمانهِ بين يدي الحبر الاعظم. فسامهُ بطريركاً وسمّاهُ يوحنّا في ٩ نيسان سنة ١٥٥٢ * ثمّ رجع سولاقا الى بلاد المشرق ومعهُ رهبانٌ من رهبنة الواعظين خبيرون باللغة السريانيّة. وجعل مقرّهُ في مدينة أَمَد او هي ديار بكر. وسام اسقفين. الواحد عبد يشوع على الجزيرة. والآخر اسمه حبيب ايليا * وهكذا نشأت طائفة كاثليكيّة من النساطرة. رفضت اسم النسطرة وعُرفت باسم الطائفة الكلدانيّة كما كان اوجانيوس الرابع قد حتم * وكان بطريركهم يسمَّى بطريرك امد * وفي سنة ١٥٥٥ قُتل سولاقا بامر الترك. وبدسائس شمعون دنحا برماما بطريرك النساطرة الذي كان يسكن في الموصل. فانتخب الكلدان الكاثليكيّون بطريركاً عبد يشوع المذكور * فذهب عبد يشوع الى روميّة. وقرّر صورة ايمانهِ بين يدي بيوس الرابع سنة ١٥٦٢. ثم رجع الى بلاد الجزيرة * ولمّا مات برماما النسطوري المذكور. تخلّف بعدهُ ايليا. فارسل صورة ايمانهِ مع راهب الى البابا كُسْسْطُس الخامس سنة ١٥٨٦. فرفضها

البابا لانّها لم تكن مستقيمة * وفي سنة ١٥٦٥ تُوفّي عبد يشوع ٠ وجلس بعدهُ يابلاّها او عطا الله * وفي سنة ١٥٨٠ تُوفّي يابلاّها ٠ وجلس بعدهُ شمعون دنحا الذي كان قد عصى على ايليّا بطريرك النساطرة وكان مطران سعرد . فارسل الى رومية المطران ايليّا هرمز وكيلاً عنهُ . فقرّر الطاعة والايمان بين يدي البابا غريغوريوس الثالث عشر . واخذ التثبيت والبلّيون للبطريرك وهدايا نفيسة من الحبر الاعظم ورجع * وجعل شمعون دنحا مقرّهُ في مدينة أُرمية التي في تخوم الفرس * وتخلّف بعدهُ شمعون . وارسل نحو سنة ١٦١٩ صورة ايمانهِ الى البابا * وجعل جميع البطاركة الذين تخلّفوا في أُرمية يتسمّون باسم شمعون . ونكثوا طاعة الكنيسة الرومانيّة . ونزعوا الى النسطرة . ومنهم تُسمَّى الى الآن سلسلة البطاركة النسطوريّين باسم شمعون . وقد حوّلوا مقرّهم في مدينة جُلَمَرْك في جبال التياريّة * وفي سنة ١٥٩١ جلس في بطريركيّة الموصل النسطوريّة ايليا السادس بعد ايليّا المذكور . فارسل سفارة الى بولس الخامس البابا مع صورة ايمانهِ . فرضي بها البابا . وارسل هدايا فاخرة الى البطريرك * فعقد ايليا مجمعاً في مدينة امد . حضر فيهِ رئيس دير الرهبان الكبوشيّين الذي بحلب . دعاهُ البطريرك الى ذلك . وكتبوا الى الحبر الاعظم رسالةً سنهودسيّة ختمها ايليا البطريرك واساقفة حسن كيفا وسعرد والجزيرة وامد وئان . وامضى البطريرك الرسالة كاتباً

نسق الرهبان الافرنجيّين. وتوُفّي سنة ١٧٣٢ * وقام عندهم كثير من العلماء الافاضل يطول الشرح في ذكرهم افرادًا * امّا طقس الموارنة فهو طقس اليعاقبة بنفسهِ . وكلّ العوائد التي عند اليعاقبة هي عند الموارنة الّا ما قلّ جدًّا وما اتّخذوهُ من طقس اللاتين وهو غير قليل * وقد اتّخذ الموارنة منذ الازمان القديمة من الطائفة اليعقوبيّة اكثر كتبها الطقسيّة . وضمّوا نوافير اليعاقبة الى نافورتهم التي كانوا يقدّسون بها في الاصل ونحسبها اقدم من النافورة التي ينسبها اليعاقبة الى مار يعقوب الرسول . اي نافورتهم التي ينسبونها الى مار بطرس * وممّا اختصّت بهِ الطائفة المارونيّة دون سائر الطوائف انّ قسوسهم يقدّسون جملةً في وقت واحد على مذبح واحد بحيث انّ واحدًا منهم فقط يلبس ثياب القدّاس ويرفع صوتهُ * وكانوا الى القرن الخامس عشر يقدّسون بالخمير كما يظهر من كتاب الهدى وهو كتاب شرع كنيستهم . خطّهُ احد مطارينهم في نحو مبادئ ذلك القرن * ولغتهم الطقسيّة هي السريانيّة يلفظونها ويكتبونها كالمغاربة اي اليعاقبة . ويستعملون ايضًا العربيّة حيث يستعملها اليعاقبة * واعلم انّ الموارنة قد تفضّلوا كثيرًا في القرن السابع عشر والثامن عشر على الطوائف الشرقيّة التي حولهم في جذبهم الى حظيرة الكنيسة الكاثليكيّة . والى نحو اواسط القرن الثامن عشر قد انضمّ الى تلك الطائفة كثيرٌ من الملكيّين الذين صاروا

كاثليكيّين وجميع اليعاقبة(١) الذين في فونيقي الاّ قليلاً منهم . وذلك باذن الأحبار الرومانيّين . ولكن بعد ذلك حُرّم عليهم قبول احد في طقسهم من غير طائفتهم] *

الفصل الخامس والعشرون

في مختصر اخبار الكنيسة الكلدانية

[كانت الامّة النسطوريّة قد تقلّبت احوالها منذ كثرت الحروب والاهوال في بلاد المشرق بهجوم الترك والمغول على بلادهم . واكثر من مرّة طلبت الوصال بالكنيسة الرومانيّة كما راينا سابقاً وتعاهدت معها . ولكنّها لم تثبت زماناً على عهدها . حتّى اذا شآء الله . حدث بنعمته تعالى انضمام جانب عظيم من تلك الطائفة الى الكنيسة الكاثليكيّة في اواسط القرن السادس عشر * وذلك انهُ لمّا كان شمعون بطريرك النساطرة في نحو سنة ١٤٥٠ قد سنّ ان لا يقام بطريركٌ الاّ من عشيرتهِ وأُمسكت هذه السنّة الى سنة ١٥٥١ . اغتاظ من ذلك النساطرة في تلك السنة حيث لم يبقَ حينئذٍ من تلك العشيرة الاّ مطرانٌ واحد . فتجمّعوا الى مدينة الموصل من

(١) قد شهد السمعاني نفسهُ انّ موارنة حلب هم في الاصل يعاقبة الاّ قليلاً منهم *

الموارنة راهبة يقال لها حنّة هنديّة عجيبي . كانت رئيسة راهبات في دير بكركي . وكانت تدّعي كرامات ربّانيّة ومكاشفات علويّة والنبوّة والاقتران بيسوع روحًا وجسمًا وغير ذلك من السماجات التي يستهجن ذكرها . واطغت كثيرين من العامّة والخاصّة وصادتهم باحبولتها حتى البطريرك نفسهُ . وكان يُقال لهُ يوسف اسطفان . فكان يساعدها ويحميها * فلمّا عظم الامر وكثرت الأخطار . تدارك الكرسي المقدس الحال . وارسل في القبض على المغترّة المذكورة * ولكنّ البطريرك عاند الامر الشريف . فاصدر البابا بيوس السادس براءةً في سنة ١٧٧٩ . بها ابطل البطريرك من مرتبتهِ . واقام نائبًا بطريركيًّا يسدّ مسدّهُ * وعند ذلك افاق البطريرك على ضلالهِ وارعوى . فرُدَّ الى منزلتهِ . وانقطعت الفتنة * هذا مجمل ما يستحقّ الذكر من اخبار الكنيسة المارونيّة *

واعلم انّ الموارنة يسكنون خاصّةً سواحل بحر الروم في مغارب سوريّة . ومعظمهم في الجبال الفونيقيَّة التي يقال لها جبال لبنان وكسروان . ومنهم كثير في باقي مدن ارض الشام وفي برّ مصر ايضًا * ولهم بطريرك يسمَّى بطريرك انطاكية وسائر المشرق على الموارنة . وتحت ضبطهِ ثمانية مطارين اي في حلب واطرابلس وجُبَيل مع البترون وبعلبك ودمشق وقبرس وبيروت وصور * ولهم في جبال لبنان اديرة شتّى يبلغ عددها نيفًا ومائة دير . وتحوي

كثيرًا جدًّا من الرهبان والراهبات * والرهبنة عند الموارنة صنفان. صنفٌ على اسم مار انطونيوس وصنف على اسم مار اشعيا * ولهم مطابع شتّى في العربيّة والسريانيّة. ومدارس كثيرة. اشهرها مدرسة عين ورقة التي أُنشئت سنة ١٧٨٩. ولهم دير صالح في رومية. وعدد كنائسهم يفوق على الثلاثمائة * واما كرسيّ بطريرك الموارنة فلم يكن ثابتًا في مقرّ واحد. بل سكن البطاركة تارةً في دير وتارةً في دير آخر من قرى جبال لبنان * ففي ايّام البابا انّوكنتيوس الثالث كان الكرسيّ في دير يانوح بقرب البترون. وفي اواخر القرن الثالث عشر تحوّل بعد تحوّلات شتّى الى دير ميفوق في وادي عيليج بقرب جُبَيل. وفي اواسط القرن الخامس عشر حُوّل الى دير قنّوبين في جبل لبنان. وهو كرسي البطريركيّة المارونيّة الى اليوم * وكلٌّ من بطاركة الموارنة يلحق باسمهِ اسم بطرس * وبطاركة الموارنة منذ عهد البابا انّوكنتيوس الثالث استعملوا التاج والخاتم. وتبعهم بعد ذلك الاساقفة * وقد قام في الطائفة المارونيّة في القرون المتأخّرة جهابذة من العلمآء سوى من ذكرناهم من تلامذة مدرسة رومية. اشهرهم جرمانوس فرحات مطران حلب ذو الفضل الفائق في آداب اللغة العربيّة وفي اتقان علوم كثيرة. وهو الذي نفع الطائفة المارونيّة بالكتب الكثيرة التي الّفها وبالرسوم القدسيّة التي رسمها وخصوصاً بتقييد رهبانها بقواعد وضوابط على

بالسمعانيّين نسبةً الى عشيرةٍ وجيهة في جبل لبنان. واشهرهم يوسف سمعان السمعانيّ الذي يستحقّ الثناء الفائق والمديح الرائق لمّا برز من قلمهِ النحرير من المؤلّفات العظيمة النفيسة والكتب الوافرة الشريفة التي تتداولها كلّ يوم ايدي العلماء وتخلد ذكرهُ في صنف اوّل طبقةٍ من جهابذة العلم * وافضل مؤلّفات السمعانيّ المكتبة الشرقيّة التي فيها بحث بجدٍّ بليغ وحذاقة ثاقبة عن آثار الكنيسة السريانيّة القديمة وعن اخبار النساطرة واليعاقبة القدماء واحوالهم من وجوهٍ شتّى استنادًا على ما حوتهُ خزانة الكتب البابويّة المسمّاة المكتبة الواتكانيّة من المصاحف القديمة الكثيرة الثمينة التي معظمها جمعهُ السمعاني نفسهُ من بلاد المشرق بامر الكرسيّ المقدّس * وحاز السمعاني لدى الاحبار الرومانيّين منزلة كريمةً جليلةً. فخوّلوهُ الآ[...] سامية ومراتب عالية * واعلم انّ بعضًا من علماء اوروبا المحقّقين قد تعقّبوا علماء الموارنة المذكورين لشدّة تعصّبهم لطائفتهم وافراط حبّهم لها في كل ما يتعلّق باحوالها القديمة. الّا انّ ذلك لا يخفض قدرهم ومنزلتهم في سائر أبواب العلم التي تحرّوها * وفي سنة ١٧٣٦ عُقِد مجمع الموارنة المشهور المعروف بالمجمع اللبناني بامر البابا اقليميس الثاني عشر. وكان فيهِ يوسف سمعان السمعاني المذكور نائبًا عن الكرسيّ المقدّس. وحضرهُ بطريركهم وثلاثة عشر من مطارين واساقفة. وفيهِ رُسمت رسوم مهمّة مفيدة. وسُنّت سُننٌ جليلة كثيرة

تتعلّق بنظام الكنيسة والسياسة البيعيّة وتهذيب حال المسيحيّين عامّةً وخاصّةً. وفيهِ تقرّب الموارنة تقرّبًا شرعيًا اكثر ما يكون الى عوائد الكنيسة اللاتينيّة في امور الطقس والتهذيب البيعي بناءً على ترغيبات الاحبار الرومانيّين واوامرهم * وهذا المجمع هو الذي تعمل بهِ الطائفة المارونيّة الى الآن. وقد اثبتهُ الكرسيّ المقدّس ببراءة شريفة * واعلم انّ مدرسة الموارنة المذكورة التي برومية قد انقرضت في اواخر القرن الثامن عشر حيث استولى الفرنساويّون على دارها وباعوها * واذا رجعنا الى اخبار الطائفة المارونيّة نقول انّ الباباوات لمّا رأوا ثبات هذه الطائفة في ميثاق الطاعة لهم اجتهدوا ان يمنّوا عليها على الدوام بقدر الامكان. فنالوا من لويس الرابع عشر ملك فرنسا سنة ١٦٤٩ براءةً بها وضع الطائفة المارونيّة تحت حماية الدولة الفرنساوية * وجدّد لويس الخامس عشر سنة ١٧٣٧ هذا العهد مع الموارنة * وفي اواسط القرن الثامن عشر وقع شقاق بين اساقفة الطائفة في انتخاب البطريرك. وانقسموا فرقتين كل فرقة اقامت لها بطريركًا * فلمّا رأى البابا بندكتس الرابع عشر ذلك. فصل بينهم بابطال الانتخابين المذكورين واقامة ثالث بطريركًا باختيارهِ. وهو سمعان عواد الخامس. سنة ١٧٤٢ * وفي سنة ١٧٨٧ جدّد لويس السادس عشر ملك فرنسا عهد الحماية للطائفة المارونيّة * وفي حبريّة البابا بيوس السادس اشتهرت بين

مستحسناً من عوائد الموارنة • ومن جهة التقديس بالفطير قال
« الراي هو انهُ اذا ارادوا ان يقدّسوا بالفطير فلا باس » . ومن
ذلك الحين ثبت لدى الموارنة استعمال الفطير بسلطان الكرسيّ
المقدّس • ومن جهة سرّ التثبيت نهى القسوس عن اعطائهِ . واباح
للمثبَّتين بيد القسّيس ان يثبَّتوا بيد الاسقف من جديد استناداً
على انّ الكنيسة الاورشليميّة التي كان الموارنة خاضعين لها (كما
قرّر البابا بندكتس الرابع عشر ايضاً) لم يُعْطِ قسوسها من الكرسيّ
المقدّس سلطاناً ان يثبّتوا المعمَّذين * وفي نواحي ذلك الزمان
اجتمع مجمعٌ من اساقفة الموارنة ورؤسائهم . وامضوا صحيفةً حوت
الاقرار بضلالاتٍ شتّى * فبعث في سنة ١٥٩٦ البابا اقليميس
الثامن القسّ هيرونمس دنديني قاصداً الى الموارنة ليفحص ايمانهم
وكتبهم • فلمّا ونّبهم باسم البابا على ذلك المجمع . اجابوا انّهم كانوا
قد امضوا ورقةً بيضاء عرضها عليهم احد الفضوليّين بحجّة ان
يُكتَب فيها امرٌ مهمّ . ثمّ كَتب فيها الاقرار بضلالات وأُرسلت
الى الكرسيّ المقدّس * ثمّ انّ القاصد المذكور وجد ايمان الموارنة
مستقيماً . ووجد الكتب التي رآها سالمةً من الضلال لانّها كانت
قد تطهّرت . وجمع منهم مجمعاً فيهِ رفضوا تلك الضلالات ورسموا
رسوماً شتَّى تتعلّق بالتهذيب * وقد اعتاد بطاركة الموارنة منذ
ذلك الحين ان يرُوا الاشخاص الذين يزورون الدار البطريركيّة

تلك الحجرة التي فيها صار ذلك المجمع مشيرين بانها هي التي فيها رفضت طائفتهم مجمعاً شقاقياً كان قد عُقد في زمان البابا اقليميس الثامن وقبلت المجمع التريدنتيني * ومن ذلك الحين اخذت الطائفة المارونيّة تنتظم وتحصل على رونق وبهآء . ولبثت معتصمةً الى اليوم بطاعة الكرسيّ الروماني المقدّس . ونالت من حضرتهِ من العزّ والاكرام والحبّ والتفضّل المتواصل والإحسان المتطاول ما يطول شرحهُ . واختصّت دون سائر الملل الشرقيّة بانَّها لم يبقَ منها شعبةٌ مفصولة من الكنيسة الكاثليكيّة * والفضل في ذلك بالخصوص لتلامذة المدرسة المارونيّة التي في سنة ١٥٨٤ أَنشأها البابا غريغوريوس الثالث عشر في روميّة من كرم الكرسيّ المقدّس * وخرج من هذه المدرسة فحولٌ من العلمآء الفاضلين نشروا علوم اللغة السريانيّة في بلاد اوروبا . وبلغوا الى درجة سامية من المعارف والفنون العلميّة . منهم جرجس عميرة البطريرك صاحب الغراماطيق السرياني الشهير في اللاتينيّة . وجبرائيل الصهيوني . وابرهيم الحاقلاني الذي صار معلّم اللغتين السريانيّة والعربيّة في المدرسة الكبرى بروميّة . ومرهج نيرون او نمرون الباني . واسطفانس الاهدني الدويهي البطريرك * وهولآء عاشوا كلّهم في القرن السابع عشر . وصنفوا كتباً شتَّى كثيرة . اكثرها في اللاتينيَّة * ولكنّ الذين فاقوا جميع من سبقهم من تلامذة هذه المدرسة المارونيّة هم المعروفون

البابا في طلب تثبيت انتخابهِ * فانهضت العناية الربّانيّة همّة رجل من الموارنة اسمهُ جبرائيل بن القلاعيّ كان قد تهذّب في بلاد اوروبا وترهّب في رهبنة مار فرنسيس . ثمّ صار اسقفاً لاتينيًّا في جزيرة قبرس * فشرع هذا الرجل المارونيّ يكتب رسائل شتّى الى بني جنسهِ والى بطريركهم . يرشدهم ويحذّرهم من الاغترار . ونال ان يردّ عنهم الأخطار * وفي سنة ١٥١٤ ارسل لاون العاشر البابا الى بطريرك الموارنة رهباناً ليعلّموهُ الحقائق الكاثليكيّة . فاستقبل البطريرك الرهبان بفرح وإكرام . وكتب الى البابا رسالةً قُرِئَتْ في المجمع اللاتراني الخامس . فيها يشكر الحبر الاعظم ويحمدهُ على انّهُ ارسل اليهم اولئك الرهبان حيث ارشدوهم في امور الايمان ولاسيّما ما يتعلّق بانبثاق روح القدس من الابن وحقيقة المطهر ومسحة الميرون * فلمّا رأى البابا حسن استعداد الطائفة المارونية . ارسل الى بطريركهم براءة التثبيت وبلّيونًا بابويًّا . وهذا هو اوّل بلّيون بابويّ حصلت عليهِ طائفة الموارنة كما قال الحبر الاعظم بندكتس الرابع عشر * وفي سنة ١٥٧٤ ارسل البابا غريغوريوس الثالث عشر يوحنا باطشتا الياني قاصداً الى الموارنة ليفحص ايمانهم ويرى هل يناسب احوالهم ان يقيم لطائفتهم مدرسة في رومية * فلمّا قدم الى بلادهم . فحص كتب البطريركيّة نفسها . واحرق منها شيئاً كثيرًا واصلح ما

احتاج الى اصلاح. واصدر البطريرك امرًا الى سائر الاساقفة بان ياتي كلٌّ منهم الى ذلك القاصد بكتب ابرشيّتهِ ليفحصها كذلك * وفي سنة ١٥٧٧ ارسل البابا غريغوريوس الثالث عشر المذكور رسالةً الى بطريرك الموارنة فيها ينهاهم عن استعمال زيادة الصلب على قدّوس الله. وامرهم ان يقتصروا مادّة مسحة الميرون على الزيت والبلسم (وهذه كانت في القديم سنّة الكنيسة الانطاكيّة). وان لا يناولوا الاطفال القربان المقدَّس. وغير ذلك * وفي تلك السنة ارسل البابا المذكور ايضًا الى بطريرك الموارنة مسائل شتّى ليطّلع على احوالهم في امر اسرار البيعة وغير ذلك * فردّ ميخائيل الرزّي البطريرك جوابًا لتلك المسائل بابًا بابًا. ومن هذا الجواب يتّضح انّ عادات الموارنة لم يكن فيها حينئذٍ غالبًا ما يمكن الاعتراض عليهِ. ويستبين على الخصوص انّ قسوسهم كانوا يعطون سرّ التثبيت كعادة سائر الطوائف الشرقيّة. وانهم كانوا يقدّسون بالخبز الفطير فقط. وانّهم لم يكونوا يحفظون القربان خوفًا من غائلة. واذا حفظوهُ للمرضى لم يوقدوا قنديلاً امامهُ. وانّهم كانوا يفسخون عقد الزواج لسبب الزنا وغيرهِ كاليونان وسائر الشرقيّين. وانّهم لم يكونوا يسيمون احدًا شمّاسًا او قسّيسًا الاّ بان يزوّجوهُ قبلاً. وانّهم لم يكونوا يعرفون من المجامع المسكونيّة الاّ الاربعة الاولى * فارسل البابا شرحًا الى البطريرك. فيهِ نفى ما لم يرَهُ

الوصال والطاعة اوّلاً منذ مبادئ القرن الثالث عشر على يد البابا انوكنتيوس الثالث . كما شهد البابا بولس الرابع وغيرهُ من الباباوات . وقد مرّ شرح ذلك * وجرى للطائفة المارونيّة منذ ذلك الحين معاطيات ومواصلات شتّى مع ذلك الكرسيّ المقدّس . منها يتّضح حال تلك الطائفة وينكشف الوجه الذي بهِ رويداً رويداً ترقّت في دَرَج الحُسْن والفضل على سائر الطوائف الشرقيّة الكاثليكيّة . حتى استحقّت فخر التقاريظ وارفع المدائح من الاحبار الاعظمين لثباتها في الايمان الذي تعلّمتهُ من الكنيسة الرومانيّة . ولانّها بقيت مدّة من الزمان وحدها في البلاد الشرقيّة كالورد بين الشوك . اذ كان سائر الطوائف النصرانيّة حولها خابطين في ديجور الشقاق * وقد ساعد الطائفة المارونيّة على ذلك خاصّةً كونها ساكنةً جبال لبنان المنيعة حيث لا تنالها يدٌ اجنبيّة الاّ نادراً جداً وحيث هي فائزة بكمال الحرّيّة . وكثرة اختلاطها مع اهل اوروبا لقربها اليها موقعاً * وقد توهّم الافرنجيون كثيراً حيث حسبوا الموارنة اصابهم ما قاستهُ سائر الطوائف الشرقيّة من الضيقات والشدائد من اعدآء الايمان الصحيح * فمّا ورد في اخبار تلك الطائفة انّ بطريركهم شمعون في اواسط القرن الثالث عشر نال من الحبر الروماني الكسندر الرابع ان يسمّى بطريركاً انطاكيّاً مجازاةً لاغاثتهِ للافرنج الهاربين من هول الاسلام . وكانت

البطريركيّة اللاتينيّة قد انقطعت بفتح انطاكية . ومنذ ذلك الحين ثبت اسم الانطاكي على بطاركة الموارنة كما قال البابا بندكتس الرابع عشر . الاّ انّ كثيرًا من الباباوات الذين اتوا بعد الكسندر مثل جميع الذين سبقوهُ لم يسمّوا بطريرك الموارنة انطاكيًّا . بل خصّوهُ باسم بطريرك الموارنة فقط الى بندكتس الرابع عشر المذكور * وجاءَ ايضًا في اخبار الموارنة انّ بطريركهم لوقا الذي جلس في اواخر القرن الثالث عشر وقع في بدعة المنوثليتية اي الزعم بمشيّة واحدة في المسيح . فقامت عليهِ الطائفة وانزلتهُ ونصبت مكانهُ بطريركًا آخر ارثذكسيًّا بسعي القاصد البابويّ * ولمّا عُقِد المجمع الفلورنتيني . ارسل بطريرك الموارنة رئيس الرهبان الفرنسيسيّين رسولاً الى اوجانيوس الرابع البابا في طلب تثبيت انتخابهِ . وفي رجوع الرسول الى اطرابلس قبض عليهِ الوالي وحبسهُ . لانهُ ظنّهُ جاسوسًا من قبل الافرنج . وسطا على دار البطريركيّة وآذى الموارنة كثيرًا * وفي سنة ١٤٦٩ ارسل البابا بولس الثاني الى بطريركهم بطرس شرح معتقد الكنيسة الرومانيّة في امر تجسُّد المسيح ليقتدي بهِ في ارشاد طائفتهِ * وفي اواخر القرن الخامس عشر وقع فساد الراي في جانب من الطائفة المارونيّة . حتى انّ كثيرين منهم مالوا الى مذهب اليعاقبة . وكانوا يمنعون البطريرك المنصوب جديدًا (وكان اسمهُ شمعون الحدثي) من الإرسال الى

والفضائل * واضاف الباباوات الى تلك المدرسة مطبعةً شهيرة طُبعت فيها كتبٌ كثيرة في اللغات الشرقيّة وغيرها دينيّة وعلميّة لتوزَّع مجّانًا على الشرقيّين *

واعلم ان الطوائف الشرقيّة الكاثليكية قد قاست اضطهادات عظيمة واذيّات اليمة من الحكّام من بعد انفصالها من الطوائف المنشقّة. لانّ هذه الطوائف كانت تمانع الكاثليكيّين الانفصال عنها ونكث الطاعة لرؤسائها. فكانت تسعى فيهم عند حكّام السلطنة التركيّة وتنسب اليهم جريمة العصيان والخروج على الدولة. فكانت الدولة تذعن لقول المشاقّين وتتّخذ الكاثليكيّين متّفقين مع الافرنج في عدوان الدولة العثمانيّة لسبب انحيازهم الى مذهبهم الدينيّ. وطالما جرم الحكّام على البطاركة والاساقفة وسائر جماعات الكاثليكيّين وآذوهم بانواع شتّى حتّى القتل. كلّ ذلك من تحريك الطوائف المشاقّة ودسائس روسائها * ولم يحصل في النصف الاوّل من القرن التاسع عشر كمال الامان والراحة والحرّيّة للكاثليكيّين الشرقيّين الاّ بهمّة الدول الافرنجيّة ولاسيّما الفرنساويّة والأوستريّة ومساعيهنّ الخيريّة وتحريضات الاحبار الرومانيّين *
وليس في هذا فقط تفضّل الافرنج والفرنساويّون خاصّةً على الكاثليكيّين الشرقيّين. بل انّ مجرى فضلهم دائم الفيض لا ينقطع بما يرسلونهُ كلّ سنةٍ من المبالغ الجسيمة من الدراهم الى كلّ

قصادةٍ ورسالة لاتينيَّة ليُنفَق اكثرها في منفعة الشرقيين ولاسيَّما الاقليرس منهم * وبهمَّة هولآء الافرنج ومساعدتهم فُتحت في بلاد المشرق مدارس شتَّى لتثقيف الشبَّان الكاثليكيّين تحاكي مدارس اوروبا . اشهرها في غزير بكسروان لليسوعيّين . وفي عين ورقة للعازاريّين . وفي حلب للفرنسيسيّين . وفي بيروت للعازاريّين . وفي اورشليم للفرنسيسيّين . وفي قسطنطينية واسكندريّة وازمير وغيرها * واقامت الافرنج في مدن كثيرة من بلاد المشرق بيمارستانات مجّانيّة للمرضى الفقرآء * وانشأ المرسلون الافرنجيّون ايضًا مطابع عربيّة شتَّى في بلاد المشرق . اشهرها مطبعة الفرنسيسيّين باورشليم . ومطبعة اليسوعيّين في بيروت ومطبعة الدومنكيّين بالموصل * هذا ما راينا ان نشرحهُ عن احوال الطوائف الشرقيّة الكاثليكيّة بالعموم والاجمال . فهلمّ بنا في الفصول الآتية نشرح احوال كلّ طائفة منهم بالتفصيل والافراد . وربَّما سنضطرّ في ذلك ان نتجاوز حدود الزمان الذي عيّنّاهُ لهذا الباب . لكي لا نرجع الى هذا المبحث مرّة اخرى] *

الفصل الرابع والعشرون

في مختصر اخبار الكنيسة المارونيّة

[انّ الطائفة المارونيّة عقدت مع الكنيسة الرومانيّة عهد

في حساب السنة منذ عهد يوليوس قيصر قبل ميلاد المسيح بقليل • واوّل الذين اتّخذوهُ كان الموارنة. ثمّ السريان. ثمّ الارمن. ثمّ الملكيّون . ثمّ الكلدان * ثمّ انّ بعض الطوائف الشرقيّة مع اتّباعها عوائد الكنيسة اللاتينيّة قد اهملت في اشياء قوانين الآباء الجارية في الكنيسة اللاتينيّة نفسها: فمن هذه القوانين ان يقرأ الرسالة في القدّاس الشمّاس او الهفدياقون وهم ربّما قرأها عندهم صبيّ لا درجة لهُ . ومنها مراعاة خصوصيّات القدّاس بموجب اختلاف الايّام والاعياد . وتزهّد القسوس المزوّجين على التقليل يوم يقدّسون . وان يقدّس رئيس القسوس وحدهُ في خميس الفصح وسبت النور . واقتران القدّاس الاحتفاليّ بالصلوة الجمهوريّة . وحفظ القدّاس اليوميّ الجمهوريّ . وان يخدم القدّاس الجمهوري شمّاس دياقون . واتّخاذ كلّ اسقفٍ ارخدياقونًا لنفسهِ . ومراعاة المدّة القانونيّة بين رسامة درجة ورسامة درجة اخرى من درجات الكهنوت . وغير ذلك ممّا هو محفوظ عند اللاتين الى الآن بالضبط والطوائف الشرقيّة المذكورة اسقطتهُ ولو انحازت الى طاعة الكنيسة الرومانيّة * وقد اعتاد الكرسيّ الرسوليّ المقدّس منذ القرن السابع عشر ان يرسل الى كلّ طائفةٍ او صقع كبير من البلاد الشرقيّة رسولاً يسمّى القاصد الرسوليّ ليقوم مقامهُ لدى تلك الطائفة او الطوائف في الامور التي تحتاج الى سلطان الكرسيّ الرسوليّ * وفي

اغلب المدن الشرقية ايضاً جملةٌ من الرهبان اللاتينيين يرسلهم الكرسيُّ المقدّس بصفة منذرين رسليين ممتّعين بامتيازات شتّى. شانهم ان ينشروا الايمان القويم بين الكفّار والهراطقة. وان يساعدوا كهنة البلاد في رعاية النفوس. وهولآء لهم من الأزمان القديمة فضلٌ عظيم على الطوائف الشرقيّة لما بذلوهُ من النفقات التي لاتُحصَى والاتعاب التي لا توصف والاخطار التي لا تُقاس في تثقيفها واصلاح احوالها في الدين والدنيا * ولمّا راى الكرسيُّ المقدّس كثرة المصالح التي تتعلّق باحوال الطوائف الشرقيّة وجزيل الاهتمام الذي يقتضيهِ تدبير جميع امورهم الراجعة الى عهدتهِ. نصب في رومية في القرن السابع عشر مجمعاً خصوصياً دائماً من الكردنالات لقضاء حوائج الشرقيين يُعرَف بمجمع بروبغندا او انتشار الايمان. وعلى يد هذا المجمع تجري المعاطيات كلّها بين الكرسيّ الرسوليّ وبين الذين في بلاد الشرق * وكان اوّل من انشأ هذا المجمع من الباباوات غريغوريوس الخامس عشر. وبعدهُ البابا أُربانس الثامن انشأ بجانب ذلك المجمع وتحت نظارتهِ مدرسةً جليلة تُرسَل اليها جملة من الشبّان المختارين من كلّ طائفة من الطوائف الشرقيّة ليتفقّهوا مدّة عشر سنين او اكثر او اقلّ ويتعلّموا العلوم الدينيّة والدنيويّة مجّاناً. ثمّ يُرسَمون قسوساً ويُرسَلون الى بلادهم لافادة بني جنسهم بما اكتسبوهُ من المعارف

الكاثليكيّين الشرقيّين اكثر ما يمكن . سمح لهم باشياء كثيرة . من ذلك إنعامهُ على خمسة بطاركتهم ان يتمتّعوا كلّهم بكثيرٍ من الامتيازات والاختصاصات التي خصّت البطاركة القدماء . مع انّهم واحدٌ منهم فقط هو البطريرك الحقيقيّ الاصليّ . والباقون بطريركيّتهم اسميّة شرفيّة لا غير * ولقد صرف الكرسيّ الروماني الرسولي في الاجيال السالفة من العناية والجهد والمبالغ الجسيمة من الاموال ما لا يحصرهُ لسان لنشل هذه الطوائف من حال الهرطقة او الشقاق الموجودين هم فيهِ وتنظيفهم منهُ حتى حصلت امورهم الدينيّة والبيعيّة اليوم في حال منظوم كفايةً على قدر الضيق الذي هم واقعون فيهِ منذ اجيال واحقاب * ثمّ فرض عليهم قاطبةً ان يسلكوا مسلك الكنيسة الرومانيّة في كلّ ما يتعلّق بالمعتقد . من ذلك ادخال لفظة الابن في قانون الايمان في الكلام عن انبثاق روح القدس . والاقرار بوجود المطهر صريحًا . وبانّ الخبز والخمر في القدّاس يتقدّسان بكلمات المسيح لا بدعوة روح القدس . وانّ العذاب والسعادة موجودان من الآن في السماء وفي جهنّم . وحذف زيادة الانسانيّة على التريساجيون اي قدّوس الله . وذكر البابا الروماني في الدبتيخا بالقدّاس وبالصلوة الجمهوريّة . وما اشبه * واجرى عليهم شيئًا من الشرائع المتملّكة في الكنيسة اللاتينيّة . كالتزام الاعتراف والتناول ولو مرّةً في السنة . والتزام القسوس

بصلوة الجمهور ولو لم يحضروها مع الجمهور. ومنع الاقليرس من البيع والشرآء والمرابحة. وحرمة اشخاصهم بحيث يقع في الحرم من يضرب احدًا منهم. واجرآء موانع الزيجة وسائر ما يتعلّق بهذا السرّ مجرى الكنيسة الرومانيّة وغير ذلك. هذا سوى ما اختصّت بهِ كلّ طائفة * ولمّا كانت الكنائس الشرقيّة كلّها او اكثرها يوم انفصلت من سدّة بطرس الرسول لم تكن قد بلغت الى ذلك الكمال الذي لتتابع الازمان ولاسباب اخرى موافقة وصلت اليهِ الكنيسة الغربيّة. او قد انحطّت بعد ذلك عمّا كانت فيهِ سابقًا. رات جميع هذه الكنائس بعد رجوعها الى مركز الحقّ ان تتّخذ من الكنيسة اللاتينيّة ما سدّت بهِ عوزها او وافقت بهِ احوال الزمان. فمن ذلك استعمال الاساقفة الخاتم وصليب الصدر والتاج (١). واباحة شرب الخمر واكل اللحم لهم. وتخفيف شدّة الصوم. ونذور الرهبان. وادخال اعياد جديدة. واباحة القداديس المتتابعة كلّ يوم. والورديّة وثوب العذرآء وزيّاح القربان وما اشبه ذلك من العبادات. وجميع ما يتعلّق بالاحكام وقضاء الدعاوي في محكمة البيعة. واشيآء اخرى كثيرة عمّت جميع تلك الطوائف تشبّهاً باللاتين * وقد اتّخذت ايضًا كلّها الحساب المعروف بالغريغوريانيّ نسبةً الى البابا غريغوريوس الثالث عشر الذي بهِ صحّح غلطًا كان قد دخل

(١) انّ الروم فقط بقوا على تاجهم المدوّر. ومثلهُ يلبس قسوس الارمن *

الطقسيّة التي كان كثيرٌ منها قد نشأَ من الشقاقات بشرط ان لا تكون مخالفةَ لاصول الدين. وسمح لكلّ طائفة تاتي من الشقاق ان تحفظ العوائد التي عندها. بل اصدر اوامر قاطعة بان تتمسَّك كلّ كنيسة بالطقوس والعادات الغير المذمومة التي جلبتها معها. بحيث لا يجوز لاحد من الطقس الواحد ان يجوز الى طقس آخر قطعاً. او يستعمل غير الطقس الذي وُلد فيهِ. وأنَّ الطقس الذي وُلد فيهِ الانسان يلازمهُ الى الموت حيثما كان واينما انطلق: وهكذا ثبتت في البطريركيّة الانطاكيّة وحدها الطقوس الستّة الموجودة الى الآن. اي الكلدانيّ والسريانيّ والملكيّ والمارونيّ والارمنيّ واللاتيني * وفي البطريركيّة الاسكندريّة طقس آخر كاثليكيّ وهو طقس القبط * واعلم انَّ لاتين بلاد الشرق اصلهم نساطرة او يعاقبةٌ او ملكيّون صاروا كاثليكيّين قبل ان تنشأ لهذه الملل طوائف كاثليكيّة. او هم بقايا الافرنج القدماء الذين استولوا على بلاد الشام وفلسطين في القرن الحادي عشر وما بعدهُ. او هم الافرنج المتجدّدون القاصدون البلاد الشرقيَّة * وامَّا الاسباب التي حملت الاحبار الرومانيّين على ان يُبقوا الطقوس الموجودة عند الطوائف الشرقيّة فكثيرة. اعظمها رجآؤهم ان يتركوا الباب مفتوحاً لكلّ طائفة باقية في الشقاق ان تتبع اولادها الذين سبقوها في دخول الكنيسة الكاثليكيّة * ثمَّ انَّ الكرسيّ المقدّس لاجل الأسباب

عينها المشار اليها ابقى ايضاً البطريركيّات المتولّدة من الشقاق على حالها. وصار في البطريركيّة الانطاكيّة وحدها ستّة بطاركة كاثليكيّون. اقتسموا فيما بينهم جماعات تلك البطريركيّة. واخضع كلٌّ منهم تحت سلطانهِ من كان تابعاً لطقسهِ. الّا البطريرك اللاتيني فانّهُ لا سلطان لهُ في سوريّة ولا يسكن فيها * ومن هذه الطقوس أصحاب ثلاثة منها يقدّسون بالخمير. وهم الملكيّون والكلدان والسريان. واهل ثلاثة يقدّسون بالفطير. وهم اللاتين والأرمن والموارنة * وصار اربعة من هولاءِ البطاركة يسمَّون باسم انطاكية. اي اللاتينيّ والملكيّ والمارونيّ والسريانيّ. وهم كلّهم جعلوا مقرّهم خارجاً عن مدينة انطاكية. الّا انَّ اقربهم اليها مسكناً هو المارونيُّ. واقربهم اصلاً هو الملكيُّ * وكما كثرت البطريركيّات. كثرت الاسقفيات تبعاً لها. حتّى انّك ربّما ترى الآن اربعةً او خمسة اساقفة كاثليكيّين يحكمون على كنيسة واحدة مقتسمين فيما بينهم اهلها بموجب اختلاف طقوسهم * وليس من لا يرى انّ هذه الانقسامات اذا وُجد فيها نوعٌ من المحسَّن. لا تخلو من محذورات كثيرة. ويا ليت تجربة كلّ يوم لم تؤكّد لنا ذلك. واخفّ هذه المحذورات هو انّ الخارجين عن دين المسيح يتّخذون اختلاف الطقوس اختلافاً في الدين *

ثمّ انّ الكرسي المقدّس لشدّة حبّهِ ان يتفضّل على

القديمة المشروحة : فكان يبتغي منهم اوّلاً الموافقة والاتّحاد في الامور الطقسيّة. لانهُ كان يرى هذه الموافقة ادعى لاتّحاد الدين وزيادة القوّة والثبات واقرب الى الرسم الذي رسمهُ المسيح عن كنيستهِ حيث شبّهها بالسفينة الواحدة او البيت الواحد او المملكة الواحدة. وكلّ مملكة تزداد قوّة اذا كانت الشرائع والرسوم فيها واحدةً من تخم الى تخم[1] * والطوائف الشرقيّة نفسها تشهد بصواب هذا المبنى.

---

(١) لا يُنكَر انّ الطقوس منذ الاجيال الاولى اختلفت في الامور الفرعيّة بموجب ما بنت كلّ بطريركيّة او كلّ مطرانيّة كبيرة على الاصول الاوّليّة التي تسلّمتها الكنيسة من الرسل. ومن سبب ذلك حصل في كلّ بطريركيّة من البطريركيّات الشرقيّة طقس مختلف من غيرهِ قليلاً او كثيراً. هذا ما عدا الطقوس التي وُجدت في الكنائس الغربيّة. وانّ هذه الطقوس كلها لم تتكوّن برمّتها في زمن واحد. بل تكمّلت شيئاً فشيئاً في تمادي الزمان. ومن ذلك اختلاف طقوس النساطرة واليعاقبة والموارنة مع انّها باجمعها جارية من منبع واحد وهو طقس الكنيسة الانطاكيّة * الاّ انهُ ممّا يجب ان نعتبرهُ انّ اختلاف الطقوس لم يكن يوجب اختلاف الشريعة اصلاً في كلّ ما يتعلق بنظام الكنيسة وسياستها. فانّ المجامع المسكونيّة والاحبار الاوّلين لما سنّوا القوانين الشرعيّة قصدوا ان يفرضوها على جميع المسيحيّين من ايّ امّةٍ او جنس كانوا من دون استثناء. اذ كانت الكنائس كلها محسوبةً مقيّدةً بشريعة واحدة في العالم كلهِ * لا بل انّ اسلافنا احبّوا هذه الموافقة وهذا الاتّحاد في الامور الطقسيّة نفسها. فانهُ لما كانت الكنائس الشرقيّة الى مبادئ القرن الخامس تعيّد عيد الميلاد في يوم عيد الدنح. تبعت بعد ذلك الكنائس الغربيّة اذ حوّلتهُ الى ٢٥ من شهر كانون الاوّل *

فانَّ النساطرة اوجبوا طقسهم ولغتهم السريانيَّة على كلّ النصارى الذين تبعوا مذهبهم من جزيرة قبرس الى بلاد الصين • والكنيسة القسطنطينيّة الزمت سائر الكنائس الاخرى التي خضعت لها وللوكها اي الانطاكيّة والاسكندريّة والاورشليميّة والبلغاريّة والروثانيّة والجرجيّة والروسيّة والبغدانيّة والبلاقيّة ان يتمسّكوا بطقسها اليونانيّ كلّ طائفة منهم في لغتها الخاصّة بها * ولذلك فالاحبار الرومانيّون الزموا الموارنة والارمن الذين هم من الشرقيّين اوّل الامم التي طلبت الوصال مع الكرسي البطرسيّ المقدَّس بعد عهد الشقاقات. ان يتّخذوا كثيرًا من عوائد الكنيسة الرومانيّة الطقسيّة والشرعيّة * ثمَّ كان الاحبار الرومانيّون في الاوَّل يستقبحون وجود اكثر من بطريرك في كلّ كرسيّ من الكراسيّ البطريركيَّة. فكانوا من خصوص الكنيسة الانطاكيّة يسمّون البطاركة الآخرين غير البطريرك اللاتينيّ (الذي وحدهُ كانوا يتّخذونهُ بطريركًا انطاكيًّا) جثالقةً او بريماتات اي مقدَّمين بين المطارين او ربَّما سمَّوهم بطاركة بمعنى جثالقة. بل انَّ انوكنتيوس الثالث اخضع بطريرك الموارنة للبطريرك اللاتينيّ اذ امرهُ ان يقبل منهُ البليون دليلاً على قبول رياستهِ. وغريغوريوس التاسع اخضع الارمن ايضًا للبطريرك اللاتينيّ * الاَّ انَّ الكرسيّ المقدَّس في تمادي الزمان راى ان يغيّر سياستهُ هذه مع الطوائف الشرقيّة. فجعل يحتمل اختلاف العادات والرسوم

يسمّونها المشرق. اي من بحر الروم غربًا الى اقصى بلاد الفرس والهند شرقًا . ومن حدود اسيا الصغرى شمالاً الى تخوم ارض فلسطين جنوبًا . وتشمل بسلطتها جميع الامم الموجودة في هذه الاصقاع من ايّ جنس كانوا . اي سريانًا ويونانًا وروماً وكلدانًا وارمنًا وفرسًا وعربًا الى غير ذلك * فانّ اختلاف الطقوس بل اسمها نفسهُ بالمعنى الجاري الآن لم يدخل في الكنيسة الاّ في الازمان المتاخّرة . فكان قديمًا كلّ الذين ياتون من بلاد بعيدةٍ خارجة من تلك البطريركيّة ويسكنون فيها . ينقطع تعلّقهم مع روساء البلاد التي اتوا منها . ويتقيَّدون بطاعة روساء المكان الذي قصدوهُ وبموافقةِ اهلهِ في امور الديانة المحتملة الاختلاف اي الامور الطقسيّة كلّها . فالذين كانوا ياتون مثلاً من بلاد ايطاليا نفسها ويسكنون سوريّة ولو كانوا قسوسًا . كانوا ملتزمين ان يخضعوا لبطريرك انطاكيّة . ولم يعذرهم من ذلك كونهم في الاصل لاتينيّين لائذين بالبطريركيّة الغربيّة . ومن ذلك حدث انّ بعض باباوات رومية كانوا في الاصل سريانًا اي من سوريّة * الاّ انّ هذا النظام الحَسَن المرغوب قد فسد في البطريركيّة الانطاكيّة خاصّةً لسبب الهرطقات التي من القرن الخامس ازعجت تلك البطريركيّة * فتكوّنت في الاوّل داخل هذه البطريركيّة بطريركيّةٌ ثانية نسطوريّة . ثمّ لمّا سُمّي الارثدكسيّون ملكيّين . اقام اليعاقبة لهم

بطريركيَّة اخرى. وللارمن اخرى. ثمَّ الموارنة اخرى في القرن الثامن. حتى لمَّا تسلَّط الافرنج على انطاكية واقاموا فيها بطريركًا لاتينيًّا. اقام الروم المنشقّون لهم بطريركيّة اخرى. وهكذا البلاد التي لم يكن فيها في الاصل الاَّ بطريركٌ واحدٌ. وُجد فيها في القرن الحادي عشر ستّة بطاركة. واحد منهم فقط كاثليكيّ والباقون منشقّون من الكنيسة الكاثليكيّة * وكلُّ من هولآءِ البطاركة ما عدا اختلاف المذهب اختصّ بعادات ورسوم وقوانين واصطلاحات طقسيّة لهُ دون غيرهِ. فصارت الطقوس على عدد البطريركيّات * وكان كلّ من البطاركة ينصب اساقفةً على المدن التي تحوي من اهل مذهبهِ. وهكذا انثلمت الشريعة الأَبويّة ورُذلت. وصار في مدينة واحدة يجلس اسقفان او اكثر * وكان ذلك في زمان تملّك ملوك الروم ممنوعًا. لانّ هولآءِ لم يكونوا يسمحون في بلادهم للهراطقة ان ينصبوا لهم اساقفة. فلمَّا تسلّط الأَسلام. زال هذا المانع * ولمَّا اخذت الطوائف الشرقيّة في القرون المتوسّطة يأمّون الى مركز الكنيسة الكاثليكيّة وينكثون شقاقهم (وذلك بهمَّة المرسلين اللاتينيّين خاصَّةً وتبعهم رهبان مار عبد الاحد ومار فرنسيس الذين كابدوا في شان ذلك مشقَّات واخطارًا لا توصف ولا تُحصَى) كان الكرسي الرسوليّ الرومانيّ يعامل في الأوّل اولئك الراجعين بموجب هذه الشريعة

أَنْ يحاموا محاماةً مكشوفة عن القضايا التي حرّمتها. اكتفوا بنشر كراريس بين الناس غير مذكور فيها اسم مؤلّفها. فيها قرّروا تعصّبهم لينسانيوس * ثمّ قام بسكال العالم الفرنساويّ الشهير. والّف كتاباً فصيح العبارة دقيق المعاني. فيهِ برّأ ينسانيوس ودافع عنهُ وطعن في اليسوعيّين طعناً مرًّا. فحرّمت الكنيسة هذا كتاب بسكال * وفي مبادئ القرن الثامن عشر احييت من جديد هذه الفتنة بكتابٍ اسم مؤلّفهِ الباتري كسنل. فيهِ أُعيدت مباني تعليم ينسانيوس. فحرّمهُ البابا ببراءَةٍ مشهورة يقال لها أُونيجِنيتوس. ومن سبب هذه البراءَة سُعي في اثر تلاميذ ينسانيوس والمتحزّبين لهُ. وأُمروا بأَنْ يمضُوا قبول حرم ذلك التعليم. والذين أَبَوْا وعاندوا اصابهم القصاص. فكانوا بجهلهم وهيجان غرامهم يحسبون انّهم بهذا الاذى الذي كان يصيبهم جُعلوا عند الله في مقام الشهداء * وكان من جملتهم واحد يقال لهُ القسّ باريس. زعموا انّهُ مات موت اولياء الله وانّهُ كانت تجري على يدهِ كرامات علويّة. فكانوا يتجمّعون على قبرهِ افواجاً. وذلك في سنة ١٧٢٧. فصاروا ضُحكةً ومعيرةً عند العامّة. ثمّ اغتالت يد النسيان امر الينسانيّين واسمهم نفسهُ الى اواخر القرن الثامن عشر حيث وقعت الثورة الشهيرة في فرنسا. فنبع الينسانيّون حينئذٍ واتوا بالمنكرات في تلك البلبلة العامّة * وفي عصرنا هذا نفسهِ ربّما وجدت آثاراً يسيرة من الينسانيّين

مشتّتة في بلاد فرنسا وبلجيكا * يا للعمى الذي اعترى هولاء القوم: انّ مذهبهم ما هو الّا تكرار ما ذهب اليهِ الهراطقة الملحدون ممّا يقطع قلب الانسان ويوقعهُ في اليأس ويسوقهُ الى ارتكاب السيّئات. فانّ هذا المذهب يجعل الانسان مهزأةً لسخط الله عزّ وجلّ. ويجعل العمل الصالح موهبةً من الله مجرّدة. ينالها بلا تعب ويملكها من دون اجر ويفقدها من دون ذنب. ويجعل العمل السيّئ قضاءً مقدّرًا محتومًا على الانسان لا يستطيع ان يعوذ منهُ وشقاءً ملازمًا يصرعهُ وهاوية ينجذب اليها بقوّة لا تُردّ *

الفصل الثالث والعشرون

في احوال الطوائف الشرقيّة الكاثليكيّة على وجه العموم

[انّ القوانين البيعيّة الرسليّة رسمت ان لا يكون على كلّ كرسيّ الّا جالسٌ واحدٌ سوآءٌ كان اسقفيًا ام مطرانيًّا ام بطريركيًّا. وهذه السنّة جارية الى الآن بكلّ قوّتها في الكنيسة الغربيّة اي اللاتينيّة في جميع اقطار العالم الموجودة هي فيها. وكانت محفوظةً ايضًا بكلّ ضبط في الكنيسة الشرقيّة* وبناءً على ذلك كان على كرسيّ انطاكية لا يجلس الّا بطريركٌ واحدٌ شرعيٌّ. وكانت ولاية البطريرك الانطاكيّ الواحد تعمّ جميع البلاد التي كان الروم

الاوّل اي اباس سان سيران فاجتهد حتّى نال ان يكون مدبّرًا لاحدى المدارس. وهناك نفث سمّ بايوس كلّهُ * واما ينسانيوس فألّف كتابًا سمّاهُ اوغسطينس. فيهِ ادّعى ان يشرح تعليم مار اوغسطين الملفان العظيم في مسألة اختيار الله للانسان وحاجة الانسان الى النعمة للعمل بالصلاح. وكان شرحهُ موافقًا لتعليم بايوس * وهذا الكتاب ولو انّهُ لم يُطْبَع وينتشر الّا بعد وفاة مؤلّفهِ. اثار في الكنيسة فتنةً عظيمة بل من اعظم ما اصاب الكنيسة من البلايا * وذلك انّ كتاب اوغسطينس اذ وقع تحت الفحص في مدرسة باريس الكبرى. وُجدت فيهِ خمس قضايا هرطوقيّة مسطورة فيهِ بما يقوم مقامها معنًى لا بحروفها * وهذه القضايا خُلاصتها هي ان فينا محرّكَين اثنين للقصد والارادة. احدهما هو جاذبيّة الخير والآخر جاذبيّة الشرّ * وانّ هذين المحرّكَين يزداد كلٌّ منهما وينقص بحسب أحوال الانسان. فهما بمنزلة ثقلَين يخفّان تارةً ويثقلان تارةً. بحيث انّ ما كان الاقوى ربّما يضحي الاضعف * وانّ ارادة الانسان في كلّ ذلك تنقاد بالضرورة وبحركةٍ عمياءَ الى المتغلّب من الجاذبَين المشروحين. كما يرجح الميزان بالضرورة نحو العين الثقيلة * وكل احدٍ يرى النتائج الفظيعة الناتجة من هذه القضايا. فانّهُ ان كان بموجب هذا التعليم انّما يصنع الانسان الخير او الشرّ انقيادًا وكرهًا بدون تخيّر. بطل ان يكون صنيعهُ خيرًا او شرًّا. وبطل ان

يستحقّ الثواب او العقاب. وبطل ان يكون رابحًا او خاسرًا * ان في هذا لبدعة البرتستنت الموجبة القَدَر * وبعد ما طعنت المدرسة المذكورة كتاب اوغسطينس وايقظت قبل كلّ احد عيون الناس عليهِ. اقبل خمسةٌ وثمانون اسقفًا من اساقفة فرنسا فراوا في ذلك الكتاب الضلالات التي نفاها المجمع التريدنتيني وحرَّمها. والتجأوا الى الكرسيّ المقدّس في تدبير العلاج * فاصدر البابا أنوكنتيوس العاشر براءَةً سنة ١٦٥٢. فيها حرّم القضايا الخمس المشروحة. ثمّ تبع هذه البراءَة براءَتان أُخريان من البابا الكسندر السابع. احداهما بتاريخ سنة ١٦٥٦ والاخرى في سنة ١٦٦٥. وفيهما شُرحت البراءَة الاولى وتأيّد الحرم. وسُطِر صورة تقرير ليمضيها كلّ من يُشَكّ في ارثذكسيّتهِ * فاقتبل الاساقفة هذه البراءَات البابويّة. وركنوا لها بقلب واحد. وادّوا لها كلّ ما يجب من الخضوع والاحترام. ثمّ قرَّ عليها قبول الكنيسة الكاثليكيّة باجمعها* وكفى ذلك لإِبطال تعليم ينْسانيوس المضرّ وتحريمهِ. ولاسيما انّ ينْسانيوس نفسهُ كان قد اخضع كتابهُ لراي الكرسيّ المقدّس وحكمهِ وذلك في وصيّتهِ الاخيرة عند قضائهِ. فكان ينبغي لتلاميذهِ ان يحذوا حذوَهُ * ولكن لم يجرِ الامر هكذا. فانّ كثيرين من اصدقاءِ ينسانيوس وتلاميذهِ تعصّبوا لهُ. ولم يذعنوا لحكم الكنيسة في طعنها كتابهُ وتعليمهُ. واذ لم يقدروا ان ينفصلوا من جسم الكنيسة ولا

كثيرة مجهولة عند اهل العلم * فالديانة الحقيقيّة تنتصر على كلّ ما يمانع ملكها . ومن هذا يتّضح انها قاثليقيّة اي جامعة . فانّها تتّفق مع كلّ بلدٍ وكلّ جنس وتمتزج مع كلّ قوم وكلّ امّة . وها هي منشورة في العالم المعروف كلّهِ . غير محصورة في مكانٍ من الاماكن . وفي كلّ مكان تولّد بنين لله * وهي تشبه دوحةً او شجرة عظيمةً (كما قال بولس الرسول) مغروسةً على اساس الانبياء والرسل وعلى المسيح الذي هو حجر الزاوية . فاذا انفسخت من هذه الشجرة أغصان وسقطت منها . استغنت هي عنها بأغصان جُدُد تنبت لها في مواضع اخرى *

الفصل الثاني والعشرون

في بدعة يَنْسانيوس وامتدادها

انّهُ في نواحي وسط القرن السابع عشر كان الطلّاب في المدرسة الجامعة التي في مدينة لوبان [وهي من مدن بلجيكا] قد اثاروا مجادلات ومباحثات عميقة في امر اختيار الله للانسان سابقًا لعملهِ وفي نعمتهِ تعالى * واصل ذلك هو انّ احد العلماء يقال لهُ بايوس اذ كان يجاور البرتستنت ويخمهم . ظنّ في حرارة مجادلتهِ انّهُ وجد في كتب مار اوغسطين الملفان تعليمًا اشبه شيء

بتعليم القَدَر ومبطِّلاً للاختيار البشريّ تبطيلاً كاملاً * فاقبل الحبر
الاعظم بيوس الخامس في سنة ١٥٦٧ . وحرم تسعاً وسبعين قضيّة
مستخرجة من مؤلّفات بايوس المذكور. ثمّ اثبت هذا الحرم
غريغوريوس الثالث عشر ببراءةٍ في سنة ١٥٧٨ * وكلا البابوين
نهيا نهياً قاطعاً جميع اهل المدارس العلميّة عن ان يتباحثوا عن
هذه المسألة الغويصة المعقدة * الاّ انهُ في سنة ١٥٨٨ ظهر بين الناس
كتابٌ مؤلّفهُ احد اليسوعيّين الاسبانيّين يقال لهُ لويس مُلِينا .
وفيهِ رأى كثيرون تعليماً هو عكس تعليم بايوس اي موجباً عدم حاجة
الانسان الى نعمة الله للعمل بالصلاح * فاحتيت المجادلات من
جديد وعلى الخصوص في مدينة لوبان . ثمّ عُرض على الكرسيّ
المقدّس امر كتاب مُلِينا . وبعد عشر سنين اي في سنة ١٥٩٨ رسم
البابا اقليميس الثامن مجمعاً لفحص ذلك الكتاب * فلبث هذا
المجمع في الفحص تسع سنين . وبعد ذلك ابطلهُ البابا بولس
الخامس سنة ١٦٠٧ . وجدَّد النهي على كلّ الناس عن ان يبحثوا
في هذه المسألة المشكلة * وامّا كتاب مُلِينا فلم يحرَّم . وبعد قليل
طاح في عالم النسيان *

غير انّ تعاليم بايوس كانت قد دخلت في بلاد فرنسا على
يد اثنين من تلاميذهِ . احدهما يقال لهُ اباس سان سيران . والآخر
كرنيليوس جنسانيوس او ينسانيوس اسقف احدى مدن فلندرة * امّا

السرّآء والضرّآء. فكان اهل الامر تارةً يصلونهُ وينعمون عليهِ. وتارة ينغصّونهُ ويجفونهُ ويذوّقونهُ امرّ العدوان. حتّى توفّي سنة ١٦٦٦ مجهودًا بالمشقّات والمضايق. وكان قد قضى اربعًا واربعين سنةً في الإنذار*

ولحق اليسوعيّين في التبشير بالانجيل رهبانٌ من رهبنات شتّى ولا سيّما رهبنة مار دومنيك او عبد الاحد. وحصّلوا من إنذارهم ثمرًا كثيرًا في بلاد الصين* فاغتاظ عليهم البُنْزات (وهم كهنة الصين) والمَنْدَرينات (وهم الولاة). واثاروا على المرسلين اضطهادًا أَمرارًا. ولكنّهم لم ينالوا بذلك بغيتهم* وفي اواخر القرن السابع عشر حدث فتنةٌ عظيمة في تلك البلاد وانقلبت أَحوالها. فضبط زمام مملكة الصين دولةٌ من التتر. وهذه الدولة احسنت الى النصارى مدّةً طويلةً من الزمان. فقامت كنائس كثيرة في المملكة الصينيّة لتسبيح الله الحقّ. بل شيدت بيعةٌ عظيمةٌ جليلة في قصر الملك نفسهِ* وكان عدد المتنصّرين يكثر جدًّا يومًا فيومًا. والحصاد يغلب عدد الفعلة. الّا انّ الفعلة عوّضوا عن الكثرة بثباتهم وانصبابهم للعمل حتّى ادخلوا نور الانجيل الى اقصى أَطراف تلك المملكة*

وانهض الله سبحانهُ في القرن السابع عشر ايضًا اشخاصًا من ذوي الهمّة الرسليّة. والهمهم ان ينطلقوا لينذروا بالايمان القويم في

سواحل افريقية وبلاد الحبش ومصر واليونان والمشرق وفي اكثر نواحي اميركا * امّا ارض اميركا فكان المنذرون قد قصدوها منذ القرن السادس عشر وتوغّلوا فيها. وهذّبوا سكّانها الاصليّين باستنارتهم بنور الانجيل. واجتهدوا كلّ جهدهم ان يعوّضوا بحسن سيرتهم واشراق فضائلهم عن الخراب الذي جلبهُ اهل اوروبا في نفوس اولئك الاقوام الجاهليّة بحبّ الذهب والعليا الذي تظاهروا فيهِ بينهم واتوا من سببهِ باقبح الشرور * فكان اولئك المنذرون لا يصدّهم عن التبشير والفلاحة في كرم الربّ غلاظة اخلاق اولئك الأقوام ورثاثة حالهم وتوحّشهم. ولا بُعْد اراضيهم. ولا اختلاف مناخها. ولا اخطار البحار وهولها. ولا عجميّة لغاتهم وغرابتها * ولم يبالوا بزمهرير البلاد الشماليّة. ولا بقيظ البلاد الجنوبيّة. ولا اوهن حيلهم تعظّم الامم المتفقّهة كالصينيّين. ولا بَلَه الامم الجاهليّة كاهل اميركا. وكم شاطروا الموت نفسهُ * ومن الواضح المحسوس انّهُ لم يمكن ان يكن المحرّك لهذه الحماسة سبباً بشريّاً او غَرَضاً دنيويّاً. وانّ خدّام الانجيل لم ياتوا بهذه البدائع في التبشير والإنذار الاّ لمجرّد رغبتهم في زيادة مجد الله وافراط حبّهم للقريب * فالمنذرون الانجيليّون غلبوا همّة الملوك الغزاة وجرآتهم. وطمع التجّار وتيقّظهم. وتفنّن العلماء وتبحّرهم. فانّهُ لولا انّ المرسلين المسيحيّين داسوا اراضي لم يعرفها احدٌ قبلاً في الانذار بالمسيح ومهّدوا الطرق للسوّاح. لبقي الى الآن بلاد

سراج الايمان الصحيح اصلاً من تلك البلاد. ويموت زرع الحقّ من تلك الارض بعد ما كان قد زُرِع بأتعاب ومشقّات واخطار عظيمة *

الفصل الحادي والعشرون

في انتشار الايمان الصحيح في بلاد الصين وغيرها

قد راينا انّ مار فرنسيس شاوير قضى نحبهُ عند باب ارض الصين اذ كان مزمعاً ان يدخلها لينذر اهلها. فلم يقضِ وطرهُ * واما بعد ذلك ففي منسلخ القرن السادس عشر قصد ارض الصين ثلاثة من اليسوعيّين مقدّمهم يقال لهُ الباتري رِتْجي بنيّة ان يبشّروا بالانجيل. وبذلوا الهمّة حتّى امكنهم أَنْ يتسلّلوا فيها برفقة تجّار من البرتوغال * وكان رتجي خبيرًا بلغة الصين وشرائعهم واصطلاحاتهم. فابتدأ امرهُ بنشر مؤلّفات لهُ علميّة في ايدي الناس. فاستحسنوها ومدحوا مؤلّفها. وهكذا حدث انّ الديانة المسيحيّة دخلت في تلك البلاد تحت جناح علم الهيئة (اي علم الأَفلاك) والعلوم الرياضيّة. فانّ اولئك المنذرين اليسوعيّين شاع صيتهم لبراعتهم في هذه العلوم. حتّى ذُكروا بخيرٍ لدى الملك. فاذن لهم ان يبقوا في مملكتهِ * فجعل رِتجي مقرّهُ اوّلاً في مدينة

كَنْتون . ثمَّ في مدينة نَنْكين . وهناك ذاع اسمهُ كثيرًا وانضمَّ اليهِ كثيرٌ من الراغبين . فابتنى في تلك المدينة مرصدًا جليلاً لرصد الكواكب . واغتنم الفرصة من الجاه الذي اصابهُ في علم الأَفلاك . فشرع ينادي بدين المسيح ويحيي رميم النصرانيَّة التي كانت يومًا في تلك الارض منذ القرن السابع ثمَّ اندثرت * فاقتنع كثيرون بتعليمهِ وآمنوا . حتّى من المنْدرينات وهم عمّال الملك في تلك المملكة * فانفتح لرتجي السبيل الى دخول قاعدة المملكة نفسها وهي مدينة بكِين . وكان ذلك سنة ١٦٠٠ . وبعد علاج يسير حظي بمواجهة الملك . فاذن لهُ ان يمكث في تلك المدينة * فنقش رتجي صورة السيّد المسيح وصورة سيّدتنا العذرآء بالأَلوان الفاخرة . واهداها للملك . فتقبّلها مسرورًا . ونصبها في اعلى موضعٍ من قصرهِ ليكرمهما كلّ احد * فاهتبل رتجي تلك الفرصة . وجعل يشرح للناس عن امر المسيح وديانتهِ الامر الذي كان جلَّ مقصدهِ * فنجح في مسعاهُ وجذب كثيرين الى الايمان . وكان بعضهم من حشم الملك وأَعوانهِ * واذ ازداد حظّ رتجي لدى الملك وارتفع شانهُ . توصّل الى ان يبني بيعةً . ونصب جماعةً منظومة من المسيحيّين فخرُبت وانجبت . حتّى توفّاهُ الله في سنة ١٦١٧ * وتخلّف بعده الباتري شال اليسوعي . فنال هو ايضًا حظًّا وجاهًا لدى الملك . فجعلهُ رئيس العلمآء وخلع عليهِ وظيفة المَنْدرين * وتتابعت عليهِ

ارجلهم ويضربونهنّ برؤوسهم فتنفطر اكبادهنّ بصياحات اولادهنّ * وبهذه وامثالها كان الحكّام اليابانيون يجتهدون ان يطيلوا عذاب المسيحيين ويذوّقوهم امرّهُ * ولكنّ المسيحيين لم تكن عزائمهم ترتخي في كلّ هذا . بل كانوا يفرحون في ما يقاسونهُ في شهادة المسيح . فيلبسون افخر ثيابهم يوم يُساقون الى القتل . وفي السجون كانوا يسبّحون الله ويترنّمون بمدائحهِ تهلّلاً وابتهاجًا * ولمّا برز الامر اوّلاً في اضطهاد كلّ من يتديّن بدين المسيح في بلاد يابان كلها . كانت النسوان يجتمعن ويصلّين . ولم يخشين من ان يظهرن بعلامة دينهنّ . وكانت الأبكار ينذرن بتوليّتهنّ لله . والصبيان يسرعون الى محلّ الاستشهاد ويطلبون ان تُكتَب اسماؤهم في دفتر المشتكى عليهم * وربّما كان الصبيان الصغار اذا رأوا اباهم وامّهم يشفقان عليهم لضعف بدنهم . وعدوا ان يعرّضوا نفسهم للجلّادين اوّلاً . فسلّموا نفسهم الى العذابات طوعًا * وكان في نواحي مملكة نَنْغَساكي جبل هائل يقذف لهبات نار عظيمة وماء نتنًا وحجارة متّقدة * فعمد الظلّام الى إهلاك المسيحيين في تلك الهاوية . ولكن لم يكونوا يطرحونهم راسًا فيموتون عاجلاً . بل كانوا يغطّسونهم فيها قليلاً قليلاً ليطول عذابهم وينالوا بغيتهم من ان يجحدوا دينهم او يموتوا امرّ الميتات * وربّما اكتفوا بتمديدهم وهم عراة على حافّة تلك الهاوية . ثمّ كووهم بالحجارة المتّقدة فيمتلئ بدنهم قرحًا وتصير هيئتهم ارعب ما يكون .

ثمَّ يهملونهم سدى كالجثث المطروحة في المزابل * ثمَّ اخترعوا طريقةً جديدةً لتعذيب الشهداء. وذلك انهم كانوا يجبرون الشهيد ان يجرع ماءً كثيرًا حتّى ينتفخ. ثمّ يضعون لوحًا على بطنهِ ويمشون عليهِ دوسًا حتّى ينبثق منهُ كلّ الماء الذي شربهُ ومعهُ دمٌ كثير * واخترعوا ايضًا اختراعًا آخر. وهو انهم كانوا ينزلون الشهيد في حفرة مملوَّة نجاسات قذرة وراسهُ منكّس. ويربطونهُ على حقويهِ بلوحين مقوّرين يمنعان عنهُ الضوء ويجعان الى مشمّهِ كلّ النتانة. فكان الشهيد يكابد في هذه الحالة شيئًا لا يمكن تصوّرهُ من العذاب. فيخرج الدم من كلّ منافذ راسهِ مندفقًا. بحيث انهُ ان لم يفصدوهُ. يموت من ساعتهِ. فيفصدونهُ مرّات ليزيدوهُ عذابًا فيعيش فيهِ تسعة ايّام او عشرةً * فبهذه العذابات وامثالها عُذّبت الامَّة المسيحيّة العظيمة التي كانت في ممالك يابان. حتَّى عُدمت ديانة المسيح من تلك البلاد. اذ قتل الظلاَّم كلّ المنذرين الذين فيها قاطبةً باشنع العذابات. وتتبّعوا تلاميذهم الى آخرهم * ثمَّ اخرج الملك امرًا على جميع اهل المملكة ان يظهروا بعلامة كفرهم بدين المسيح. ومُنع من ذلك اليوم دخول النصارى كافّةً في تلك الارض. الاّ الهولنديّين فانَّ لهم ان يرسوا في مدينة واحدة فقط من تلك البلاد. اسمها نَنْغَساكي * فيا لأَحكام الله الغير المدركة. ويا للخَطْب العظيم الذي لا يعيهِ عقل: كيف سمح الله سبحانهُ ان ينطفئ

لتربية الأَطفال المطروحين. وفوّض الى اخويّة راهبات الرحمة القيام بخدمتهم * وهذه الاخويَّة في زمان قليل كثرت. وراهباتها اتين ببديع الفضيلة في مداراة المرضى وخدمتهم ممَّا لم يسبق مثلهُ في تواريخ الكنيسة واوجب لهنَّ المديح في العالم كلّهِ حتّى من فم البرتستنت نفسهم * وامَّا ما جمعهُ مار منصور من الصدقات وقسّمهُ بيدهِ على الفقرآء في فرنسا وفي العالم كلّهِ فبلغ اكثر من اربعين الف الف درهم اي اربعماية ربوة. وكلّ لسان تحدَّث بالمناقب التي اشتهر بها في اشباع الجياع عند حلول الغلآء. وفي جبر الخواطر المكسورة من سبب الحروب. وغير ذلك * ونقول بالاجمال انَّ منصور دي بَوْلا في كلّ البدائع التي كان ياتي بها من اعمال الرحمة الفريدة كان فقيرًا متواضعًا. ويحسب نفسهُ احقر الناس * تُوفّي دي بولا في سنة ١٦٦٠ وهو في سنة خمس واربعين من العمر. وبكاهُ كلّ اصناف الناس ولاسيَّما الفقرآء والمعسرين *

الفصل العشرون

في حال الديانة في بلاد يابان

انّ الديانة المسيحيّة دخلت في بلاد يابان في اواسط القرن السادس عشر على يد مار فرنسيس شاوير المارّ ذكرهُ. وثبتت

فيها. حتى انهُ بعد موتهِ بستين سنة كان فيها نحو عشرين ربوة من النصارى * ولكن حدث فتنةٌ عظيمةٌ في تلك الممالك بها انقلبت احوالها. فثار على النصارى اضطهاد قويٌّ بدل ما كانوا مترفهين فيهِ من السلامة والامان * وذلك ان الذي ضبط ازمّة الملك وكان اسمهُ تيكوساما امر باذى المسيحيين الى ان يُمحى اسمهم. فكان العمّال يقبضون على المسيحيين افواجاً. ويربطونهم بقيود وسلاسل. بل بآلات حادّة تخرق اعضاءهم وتمزّقها. وكان الجلّادون يسحبونهم من شعر راسهم. ويقلبونهم على الارض ويجعلونهم مداساً * وهكذا نشّم هذا الجهاد القاتول. الذي فيهِ من طلع غالباً. انثنى على معركةٍ اشدّ من الاولى * فانّ الحكّام في الاوّل اكتفوا بضرب أعناق المسيحيين الذين أُوقفوا قدّامهم او باحراقهم بالنار * ولكن تغيّر الامر بعد قليل. فانهم كانوا يسحقون ساقَيْ الشهيد بساريتين مسمّرةٍ فيهما اسياخ من حديد. او يخلعون اعضاءهُ عضواً عضواً قليلاً قليلاً. او يمدّدونهُ على بطنهِ فيضعون على ظهرهِ حجراً عظيماً جسيماً ثمّ يعلّونهُ بحبالٍ مربوطة في يديهِ ورجليهِ فينطوي ظهرهُ وتندقّ جثّتهُ كلّها في لحظة. او يقلعون اظافرهُ بشوكات من حديد. او يطرحونهُ في حفرة مملوّة من الافاعي. او يشكّون قصباً حاداً في كلّ جسمهِ. او يكوونهُ بمشاعل في ارقّ الاماكن من بدنهِ. وربما مزّقوا أجسام الامّهات وقلوبهنّ معاً اذ كانوا يمسكون أطفالهنّ من

والاقليرس . وافتقد ابرشيتهُ كلَّها فردًا فردًا وهو ينذر بالانجيل في القرى والضياع . ويعبر السيول والاودية بخطرٍ عظيم على حياتهِ. ويتسلّق في التلال والجبال الشاهقة . وكان يخاطب اهل القرى والسواد والفقرآء بكلام ليّن لطيف ابويّ فيجذب قلوب كلّ احدٍ. وكان يعجبهُ ان يعلّم هو بنفسهِ مبادئ التعليم المسيحيّ للصبيان . ويصلهم بصلات ليرغّبهم في التعلّم * والّف فرنسيس سالس كتبًا شتّى لارشاد المومنين في فرائض السيرة المسيحيّة وفي شروط التقوى . وظهرت في مؤلّفاتهِ الخصلة اللطيفة التي اتّصف بها هذا القدّيس . وهي الوداعة ومجاملة الناس على كلّ حالٍ في حبّ الله * وزيّن في مؤلّفاتهِ خوف الله بألوان حسنةٍ ظريفة حتّى لا يمكن ان يقرأها الواحد الّا وينجذب طوعًا الى مخافتهِ تعالى * وقضى فرنسيس نحبهُ في مدينة لغدون او ليون سنة ١٦٢٢ . وبعد ثلاث واربعين سنة أُحصي اسمهُ في دفتر القدّيسين *

وفي نواحي ذلك الزمان ظهر في بلاد فرنسا القدّيس ونِقيس او منصور دي بَوْلا * هذا في حداثتهِ تدرّب الى الكهنوت ثمّ صار قسّيسًا . وبعد سنين اذ كان مسافرًا من مدينة مرسيليه في البحر . وقع في ايدي العرب اسيرًا . فذهبوا بهِ الى مدينة تونس . ثمّ وفّقت لهُ العناية الربّانيّة النجاة * ونال ان يهدي مولاهُ وكان فرنساويًّا مرتدًّا . فاتّجها كلاهما الى ارض مولدهما * ولمّا صار ونِقيس

في فرنسا. حظي بوظائف شتّى. وفيها اظهر تواضعهُ وتقواهُ * ثمّ اختار ارشاد الناس في القرى. وجعل يهدي المحبوسين لسبب الجرائم ويعظهم. ويكثر من خدمتهم برافة عجيبة. ويسليّهم من الضيق الذي كانوا فيهِ. وبلغت بهِ الرحمة على واحدٍ من المجرمين كان كسير النفس لا يريد ان يهدأ الى انهُ نزع أَغلال ذلك المجرم الشقيّ وقيّد نفسهُ بها. ومكث مدّة هكذا مع المجرمين * وسلّمهُ مار فرنسيس سالس تدبير راهبات كان هو قد انشأ رهبنتهنّ. فقام بهنّ مدّة اربعين سنةً. ونفعهنّ كثيرًا بارشادهِ وحسن سيرتهِ * ولكنّ اعظم ما اشتهر بهِ مار منصور هو نصبهُ اخويّة قسوس الإرسالية وهم المعروفون بالعازاريّين. وتثبّت هذه الاخويّة بسلطان الكرسيّ المقدّس سنة ١٦٣٢ * ولم يكتفِ بنصب هذه الاخويّة. بل طاف بلاد فرنسا وايطاليا واسكوتيا والبربر في افريقية ومداغسكر وهو يكرز وينذر ويرشد ويعلّم * وانشأَ اخويّات كثيرة لعمل الرحمة. من ذلك اخويّة راهبات الرحمة لمداراة المرضى. وبيمارستانات كثيرة برّيّة. واقام اديرة كثيرة للراهبات * وبرعت فضيلتهُ على الخصوص في همّتهِ بتدبير امر الاطفال الذين والدوهم امّا من العار وامّا من الفقر او من سبب القساوة كانوا يطرحونهم في الازقّة في المدن الكبيرة ولاسيّما باريس. وجمع منهم بيدهِ ما جمع. ووجد من يقوم بتربيتهم. وبعد قليل وُضع بهمّتهِ اساس بيمارستان مخصوص

الفصل التاسع عشر

في مار فرنسيس سالس ومار منصور دي بوْلا

انهُّ في الزمان الذي فيهِ فقدت الكنيسة القدّيسة ترازية . سلاّها الله عزّ وجلّ برجل عظيم اظهرهُ فيها . وهو مار فرنسيس سالس الذي اسمهُ يذكّر الخاطر نفسًا ارقّ نفس خلقها الله * وُلد فرنسيس سنة ١٥٦٧ في بلدة من بلاد الفرنساويّين . ورُبّي منذ صغرهِ احسن تربية * وارسلهُ ابواهُ الى مدينة باريس ليتمّ درسهُ * ومع ما كانت تلك المدينة تحوي من الشراك والمصايد المهلكة للأرواح . حفظ هناك فرنسيس روحهُ طاهرةً من كلّ ملامة . ودام على سيرتهِ الصالحة التقويّة * وامتحنهُ الله يومًا امتحانًا قويًا . بهِ اشتدّ الامر على فرنسيس . حتّى كاد يقطع رجاءهُ . وظنّ انّ الله قد ارذلهُ وجعلهُ من اهل النار الابديّة * فيا لعظم العذاب الذي تعذّبت بهِ تلك النفس الشريفة الطاهرة : انهُّ كان يقضي النهار والليل وهو ينتحب ويبكي . ولم يهدأ ما فيهِ . حتّى اذا ركع ذات يوم امام صورة سيّدتنا العذراء وهو غائص في بحر الغمّ على آخرتهِ . ابتهل الى الله وقال « يا الاهي اذا كنت قد حتمت عليّ ان امقتك الى الابد في جهنّم . فانعم عليّ ان احبّك من كلّ قلبي في هذه الدنيا » * فلمّا فرغ من هذا الابتهال . انبسطت روحهُ وانشرح صدرهُ بنعمتهِ

تعالى. وزالت عنهُ تلك التجربة * ولمَّا بلغ من العمر سبع عشرة سنة. انطلق الى مدينة بادوا في ايطاليا. وقرأ علم الفقه وعلم الكلام اي اللاهوت. ونجح فيهما وفاق * وبعد سنين رجع الى بيت ابيهِ. فصار بيتهُ يتلألأ بفضائلهِ ورونق خصالهِ الحميدة النادرة * واراد ارباب الحكم ان يولّوهُ وزارةً سامية. فامتنع واشار اليهم انهُ قد صمّم على ان يتقلّد الكهنوت * فقامت عليهِ الموانع من كلّ جهة. ولكنّ اباهُ اذ رأى لجاجتهُ وشدّة عزمهِ. اذن لهُ في ما اراد * وكان إلحاد كلوين قد استولى على جانب كبير من اهل تلك الارض لجهلهم وغلاظة أخلاقهم * فلمّا ارتقى فرنسيس سالس الى درجة الكهنوت. افرغ همّتهُ اوّلاً في مدافعة تلك الهرطقة. فكان يطوف من بلد الى بلد وهو يعظ ويرشد. حتّى انّهُ في قليل من الزمان استرجع من اولئك الضالّين المخدوعين سبعين الفاً الى حظيرة الكنيسة * وكان حُسن خصالهِ وسموّ فضائلهِ معضداً قويّاً لكلامهِ في التاثير في قلوب القوم * وبعد سنين صار اسقفاً على مدينة جنفرا. فاشتدّ عزمهُ وزادت همّتهُ. ونال ان يدعو خلقاً كثيراً من الضلال الى الهدى * فلمَّا تسامعت الناس هذه مناقب فرنسيس الجليلة. كتب اليهِ الأَحبار الاعظمون ومدحوهُ. والملوك اثنوا عليهِ واكرموهُ واهدوا لهُ افخر الهدايا * وقضى فرنسيس مدّة اسقفيتهِ كلّها في الأَعمال الخيريّة وفي المشقّات الرسليّة. واصلح حال القسوس

تحبّ التقوى وترغب في قرآءة كتب سِيَر القدّيسين. وخالج قلبها شوق الموت شهادةً عن المسيح * ولمّا تيتّمت من امّها. وكانت هي في عمر البلوغ. وقعت في الغرور. لانّها جعلت تقرأ كتب الحكايات العنترية والقصائد والغزليّات. فتغيّر حالها وكاد قلبها يطغو * ولكن قبل ان تمتلك الرذيلة قلبها. أُخذت الى دير راهبات. فانعكفت على أَعمال الدين وانتبهت على حالها. ونوت ان تعيش لله * وفي عمر احدى وعشرين سنة لبست اسكيم رهبنة الكرمليّين (التي نشأت في القرن الثاني عشر في جبل الكرمل في سورية). وشرعت تعذّب نفسها بأَعمال التوبة * ونالت ترازيه من الله مواهب سامية. وكانت ترى الرؤى الكريمة العجيبة. حتّى اشتهر اسمها بذلك في كلّ مكان * وبعد زمان انقطعت هذه النعم اذ اضطُرّت ان تبارح الدير لسبب ضعف بدنها. فارتخت في تقواها. واحبّت الصحَب الاهليّة التي مع كونها بلا خطيّة تبرّد خوف الله من القلب * ثمّ مات ابوها. فتراجعت الى سيرتها الاولى. واتّقد فوادها بمحبّة الله. وارتقت في هذه المحبّة الى درجة سامية جدًّا. وكانت اذا ارادت ان تعبّر عن حبّها. عجزت عن الكلام وضاق صدرها وأُرتج عليها وخُطفت نفسها. فتصيح «يا الاهي وسّع قلبي. والاّ فاقطع عنّي هذه النعَم» * الاّ انّ ترازيه مع كلّ هذه الآلاء التي حازتها من الله اصابتها نوائب شتّى. فانّ كثيرين لم يكونوا يصدّقون قولها.

وكانوا يتخذونها مخبّلة العقل . بل بلغوا الى ان حسبوها تكفر بالدين * فاحتملت ترازيه كلّ ذلك وسائر ما اصابها من الكرب وضيق الصدر بصبرٍ وتسليم . وبذلك عقّلت مبغضيها . فاحسّوا على وهمهم وصاروا يمدحونها * وفي نحو هذا الزمان باشرت ترازية امر تجديد رهبنة الكرمليّين . وصادمتها في ذلك عوائق كثيرة . فلم يمكن ان ترخي عزمها ولا منعتها من ان تقضي ذلك الامر المهمّ . لانّها كانت ذات راي سديد وحذاقة موصوفة ودهاء يفوق على طبع النساء وطول روح قليل النظير * فقرّت عينها اذ رأت وهي بعد حيّة ستّة عشر من اديرة الراهبات واربعة عشر من اديرة الرهبان اقتبلت التجديد الذي رسمتهُ وشدّدت بهِ العيشة الرهبانيّة . وبعدها عمّ ذلك سائر اديرة تلك الرهبنة كافّةً * وكانت ترازية في وسط هذا العمل العظيم الذي تكلّفتهُ ممنوّةً بعاهات كثيرة واوجاع شديدة . فكانت تحتمل كلّ ذلك بصبر بل بسرور . اذ كانت تكثر من القول «إمّا التالّم وامّا الموت» * فلم تشكُ ابداً ضيماً . حتّى رحلت من الدنيا لتاخذ اجر اتعابها سنة ١٥٨٢ *

الراغبين الارتقآء الى درجة الكهنوت تبعاً لرسم المجمع التريدنتيني. وانشأَ في ابرشيّتهِ خمساً من هذه المدارس. وسطر لها قوانين اتّخذتها سائر المدارس قدوةً * ونصب ايضاً مدارس علميّة للعلمانيّين وبيمارستانات واديرة. وانشأَ اخويّات كثيرة لنشر روح التقوى بين المومنين. وهذَّب احوال الاقليرس والرهبان. وجمع ستّة مجامع. وكلّها اثبتها الكرسيّ المقدَّس * ومع كلّ هذه الأَعمال والمناقب كان يعاتب نفسهُ على انّهُ لم يوصّل رعيّتهُ الى قداسة السيرة كأَنّهُ كان متغاضياً * الاَّ انَّ العناية الربّانيّة ابتلتهُ ببليّة عظيمة. بها اشرقت أَنوار فضائلهِ: وذلك انَّ مدينة مديولان ضُربت بالطاعون. فشرع الوجوه والاغنيآء يبارحون المدينة. واشار على كارلُس أَصحابهُ ان يلتجئ هو ايضاً الى مكان امين ويصون حياتهُ من اجل رعيّتهِ. فانتهرهم قائلاً مع المخلّص «انّ الراعي الصالح يبذل نفسهُ بدل رعيّتهِ». وطفق يداري المطعونين. والتهبت في قلبهِ منذ ذلك اليوم الرحمة للقريب حتّى كان يطوف النهار والليل وهو يسلّي المرضى ويساعدهم ويرزقهم ويعظهم * ولمّا رأى حال الفقرآء في التلف ولم يبقَ لهُ سبيل الى مساعدتهم. باع أَملاكهُ واثاث بيتهِ حتّى المنام الذي كان ينام عليهِ. وشرع يذهب وبيدهِ يطعم المساكين ويسقيهم ويكسوهم * ولم يزل على هذه الأَعمال الخيريّة حتّى ترحّم الله تعالى على المدينة وصرف غضبهُ. فبطل

الطاعون قبل أنْ يتوفّى كارلس. وكانت وفاتهُ سنة ١٥٨٤ * وبكاهُ اهل ابرشيتهِ باشدّ التوجّع. وتاسّف على فقدهِ الكرسي المقدَّس لانهُ كان لهُ سندًا وزينةً للكنيسة * طوبى للبيعة الكاثليكيّة التي تولّد داهيةً مثل كارلس فائقًا في المناقب والفضائل * وايّ شيعة من الشيع الغير الكاثليكيّة قدرت الى الآن ان تاتي بمثل هذا الرجل العظيم *

الفصل الثامن عشر

في سيرة القديسة ترازيه وفي تجديد حال
الرهبنة الكرمليَّة (سنة ١٥٨٢)

بينما كان القدّيس كارُلس برُّوميًّا مهتمًّا باصلاح حال الاقليرس وضبط شرائع الكنيسة. وكان المنذرون بالانجيل منعكفين على دعوة الضالّين الى الهدى. والهراطقة ينغّصون الارثدكسيّين ويسفكون دم كثيرين منهم. نشأت في الكنيسة رهبنات جديدة. والسيرة الرهبانيّة تجدّد حالها وتراجعت الى بهائها الاوّل * فانّهُ في هذه المدّة أُنشئت رهبنات واخويّات كثيرة جليلة. وتجدّدت على الخصوص رهبنة الكرمليّين على يد القدّيسة ترازية * وُلدت ترازية في ارض اسبانيا. وكانت منذ نعومة اظفارها

وحرّض الملوك والشعوب قاطبةً ان يمتثلوها ويتمسّكوا بها تمسّكًا قدسيًّا * فقبلت المجمع المقدَّس ورسومهُ جميع الامم الكاثليكيّة. ولوانّ بعضها توقّفت في الاوّل كما ذكرنا * وانهض الله حينئذٍ بطلاً عظيمًا جليلاً ليقاتل عن قوانين هذا المجمع وينصرهُ. وهو مار كارُلُس برُّوميًّا * كان كارُلس من اشرف البيوت واجلّها في ايطاليا. وكان عمّهُ بيوس الرابع البابا قد رقّاهُ الى مرتبة الكردناليَّة ومرتبة مطرنة مديترلان. وفي علوّ منزلتهِ هذه كان متواضعًا حليمًا زاهدًا في لذَّات الحيوة الانسانيّة * وهو همّ جدًّا في بلوغ المجمع التريدنتيني الى النهاية المطلوبة. ولمّا انقضى المرام بختامهِ. حثّ الملوك والاساقفة في ان يشيّعوا في بلادهم رسومهُ * ثمَّ وجّه نظرهُ الى امر عظيم مهمّ جدًّا وهو اِجراء قوانين المجمع في العمل. اذ كان هو الذي جدَّ كثيرًا بتحرير الرسوم التي أُمضيت في جلساتهِ الاخيرة التي حضر فيها * فتفرّغ بكلّ وسعهِ ليجري اوامر المجمع واصلاحاتهِ. وبدأَ الاصلاح من نفسهِ. فحرم نفسهُ واهل قصرهِ من كلّ ما رآهُ لا يناسب الهيبة الاسقفيّة والمنزلة الكردناليّة. وابطل شيئًا كثيرًا من الرغد والعيش الطيّب ولوكان في نفسهِ حلالاً * وكان يصرف زمانهُ كلّهُ في الصلوة والوعظ واعطاء الاسرار وتدبير الكنيسة * ثمّ انّ كارلس اذ تامّل انَّ المجمع التريدنتيني سنّ حدًّا قويًّا على الاساقفة الذين لا يلازمون ابرشيّتهم. وكان هو يسكن في روميّة بامر صريح من الحبر

الاعظم . لم يهدأ فكرهُ من قبيل انَّهُ كان غائبًا عن كنيستهِ . فالتمس من البابا عمّهِ ان ينطلق الى ابرشيّتهِ . وبعد لجاجة كثيرة وتوسّل شديد نال مرادهُ . فانطلق الى مدينة مديولان * ولمّا صار بين قطيعهِ . افتكر في تقديس نفوسهم وفي مجد كنيستهِ * فاستجلب افضل الناس علمًا وصلاحًا وقرّبهم اليهِ . وعقد مجمعًا اقليميًّا . وسنَّ فيهِ قوانين جليلة لاجراء مراسيم المجمع التريدنتيني واصلاح حال الاقليرس ونظام امر عبادة الله * ثمَّ وجَّه نظرهُ الى نفسهِ . فتنزّل عن كلّ الايرادات التي كانت قد أُجريت لهُ عدا اسقفيّتهُ . وحرّم على نفسهِ لبس الحرير . واختار عيشة قشفيّة كسيفة * وفي آخر عمرهِ بالغ في التقشّف حتّى امسى طعامهُ من الخبز والماء وشيء دنيّ من البقل * وطاف جميع اراضي ابرشيّتهِ وهي واسعة جدًّا . وزارها زيارة راعويّة مرّات كثيرة . وزار ايضًا الابرشيّات الاسقفيّة التي كان هو مطرانًا عليها * وربّما رُؤي يمشي راجلاً في سفراتهِ . ويقاسي الجوع والعطش والحرّ والبرد . ويتسلّق الى اعلى الذرى الوعرة . وينحدر الى اعمق المهاوي واهولها . وهو يطلب الغنمة الضالّة ليردّها الى صيرة الحيوة الابديَّة * وكان اعزُّ شيءٍ لديهِ مجد الله تعالى وخلاص النفوس . فرتّب احوال خدمة الكنائس . ووضع لها قوانين وقواعد لضبطها وتأديتها باليق وجهٍ * وهو كان اوّل الاساقفة الذين نصبوا في ابرشيّاتهم مدارس اقليرسيّةً لتدريس الشبّان

سنناً كثيرة تتعلّق بالسيرة والسياسة البيعيّة والعمل . ورسم قوانين كثيرة لتهذيب طبقات الاقليرس في كلّ احوالهِ . ورتّب ابواباً كثيرة من ابواب الشرع البيعيّ وادخل فيها اصلاحات جديدة . كلّ ذلك بناءً على الاصطلاحات الدارجة في الكنيسة الغربيّة اي اللاتينيّة * ولذلك فكثير من الامم لم يقبلوا المجمع اوّل ما نُودي بحدودهِ ورسومهِ الاّ بعد صعوبات . لانّ الهوى الانسانيّ وضع عائقاً لقبول عكس ما تعوّدوا عليهِ من الصغر ولتحمُّل ما يشدّد الشريعة على النفس ويضيّقها وغير ذلك * واماَّ الطوائف الشرقيّة فلم تُجْرَ عليهم الى الآن شرائع المجمع التريدنتيني برمّتها الاَّ الموارنة وكلدان ملبار * واعلم انَّ المجمع التريدنتيني لم يحضر فيهِ احد من اساقفة المشرق . لانَّ اكثر الطوائف الشرقيَّة كانت اذ ذاك منشقّة عن الكنيسة الكاثليكيّة . وكان بطريرك الموارنة (الذين كانوا منضمّين الى طاعة الكنيسة الرومانيّة كما راينا) قد ارسل احد اساقفتهِ الى رومية ليحضر المجمع نيابةً عنهُ . فصرفهُ البابا ولم يستحسن حضورهُ في المجمع لعدم معرفتهِ باللغة اللاتينيَّة . وكتب الى البطريرك انَّهُ يكفي ان يقرّر انَّهُ مستعدٌّ لقبول جميع ما يرسمهُ المجمع وامضائهِ كما فعل عبديشوع بطريرك الكلدان الذي كان في رومية بنفسهِ] *

الفصل السابع عشر

في ختام المجمع التريدنتيني (سنة ١٥٦٣) وفي مار كارلس بُرُّومِيًّا (سنة ١٥٨٤)

انّ المجمع التريدنتيني الذي فُتح سنة ١٥٤٥ لم يفضّ الاّ سنة ١٥٦٣ اذ كان بيوس الرابع جالساً على كرسي روميّة * وكان روح الطغيان والضلال قد بذل كلّ ما في قوّتهِ في مدّة الثماني عشرة سنة التي فيها دام المجمع ليعطّلهُ ويبطّلهُ. ولكنّ الايمان انتصر. وذلك الذي وعد كنيستهُ بان يكون على الدوام معها اخرج من الأَهوآء البشريّة والمطامع الارضيّة أَسباباً لمجد عروستهِ. وجعل من الضربة الجسيمة التي اصابت الكنيسة بالهرطقات اللعينة سبباً لحصول منفعة عظيمة. حيث رُتّبت في المجمع التريدنتيني احوال الكنيسة وسُنّت شرائع كثيرة لنظام الاقليرس وحسن سلوك الامّة المسيحيّة * انَّ الجلسة الاخيرة من المجمع التريدنتيني عُقدت في ثالث يوم من كانون الاوّل سنة ١٥٦٣ * فبعد ما قرأَ الكاتب جميع الرسوم التي رُسمت منذ فُتح المجمع. نادى بالرسم الاخير الموجب ختامهُ. ولمّا امضاهُ آباء المجمع. ضجّوا جميعاً باصوات الشكر لله والتهليل والابتهاج كعادة المجامع القديمة * ثمّ اصدر البابا براءَة لإثبات رسوم المجمع وتحديداتهِ بتاريخ ٦ كانون الثاني سنة ١٥٦٤.

الرسول نادى بهِ اذ قال « ان مرض احدكم. فليستدعِ قسوس البيعة. فيصلّوا عليهِ ويدهنوهُ بالزيت باسم الربّ » الخ. وبهذه الكلمات تعلّمت الكنيسة حقيقة هذا السرّ اي مادّتهُ وصورتهُ وقاضيهُ او خادمهُ ومنفعتهُ. فانّ مادّتهُ الزيت. وصورتهُ الصلوة التي تقال في المشحة. وقاضيهُ هو القسّيس. ومنفعتهُ هي غفران الخطايا اي محو بقاياها واحيانًا شفآء امراض الجسد * وعلّم كتاب الكاتيكسم الذي أُلّف بامر المجمع انهُ لا يجوز تاخير اعطآء سرّ المشحة الى سكرات الموت * وختم المجمع شرحهُ عن الأسرار بطعن بدع لوثار وكلوين في خصوص سرّ الكهنوت وسرّ الزيجة. وحتم انّ الكنيسة الرومانيّة لا تغلط اذ تعلّم انّ عقد زيجة المسيحيّين المكتملة لا ينفكّ الاّ بالموت. خلافًا لما تعلّمهُ الطوائف الشرقيّة ولاسيّما اليونانيّون * ثمّ اتى المجمع الى باب المطهر. وعلّم انّ المطهر هو المحلّ الذي فيهِ النفوس المنتقلة بنعمة الله تُطهَّر من عيوبها وتوفي بالعذاب ما تبقّى عليها من عقاب خطاياها. وانّها تنتفع بصلوات المومنين واعمالهم البِرّيّة ولاسيّما القدّاس * وامر المجمع الاساقفة والقسوس ان يجتهدوا في ان يشرحوا للمومنين حقيقة المطهر * ثمّ اتى الى باب اكرام القدّيسين. وصرّح بانّ القدّيسين الذين في السمآء عند الله يتضرّعون اليهِ تعالى عنّا. وانّ طلب شفاعتهم نافعٌ ليعينونا لنوال نعمهِ تعالى لنا بوساطة يسوع المسيح الذي هو وحدهُ مخلّصنا وفادينا.

وانّ المومنين يجب عليهم ان يحترموا رمم القدّيسين لانّها كانت
اعضاء المسيح وهياكل روح القدس وستقوم ممجّدةً . وانّ الله طالما
ايّد ذلك بالآيات والمعجزات التي اجراها على قبورهم. كما فعل على
ظلّ بطرس الرسول والثياب التي لمست جسم مار بولس . وانّهُ
ينبغي اتّخاذ صور المسيح والقدّيسين وإكرامها . ليس بنيّة تأدية
الاحترام للصور نفسها كانّها فيها قوّةٌ ما الاهيّة كما كان الوثنيّون
يعتقدون . بل للاشخاص المصوّرة فيها . وانّ الاساقفة يجب عليهم
ان يقدّموا للمومنين صور سيرة المسيح وعجائبهِ وآلامهِ ليعتبروا بها
ويتفهّموا احسانات الله ويتذكّروا الفرائض التي عليهم ويقووا لتاديتها
ويقتدوا بسِيَر القدّيسين * ثمّ انّ المجمع ختم بشرح ما يتعلّق
بالغفرانات . فقال « لمّا كان المسيح قد اعطى بيعتهُ قوّةً لغفران
الخطايا . وكانت الكنيسة منذ الاوّل قد استعملت هذا السلطان
الذي اخذتهُ من العلى . حتم المجمع المقدّس وامران تبقى في الكنيسة
هذه العادة المفيدة للامّة المسيحيّة وقد ايّدتها المجامع . ويحرم كلّ من
يتجاسر ان يقول انّ الغفرانات هي غير نافعة او ينكر انّ الكنيسة
لها هذا السلطان * الّا انّ المجمع يتمنّى ان يكون استعمال هذا
السلطان في المقدار اللائق بموجب العادة المحفوظة قديمًا والمقبولة
في الكنيسة خوفًا على الشريعة ان ترتخي اذا زادت فيها السهولة » *
[واعلم انّ المجمع التريدنتيني ما عدا ما يتعلّق بالمعتقد قد سنّ

لا بالاجمال. وانهُ من ذلك يتضح انّ التائب يجب عليهِ قبل الحضور امام الكاهن ان يحاسب نفسهُ ويفحص ضميرهُ ليتذكّر الخطايا التي يشهد عليهِ بها ضميرهُ. ليمكنهُ ان يعترف بها كما يجب ولو كانت خفيةً لم يعلم بها الاَّ الله * وانَّ الخطايا العَرَضيّة ليست محصورة في فريضة الاعتراف. اذ انّها تُغفَر ايضًا خارجًا عن سرّ التوبة بأسباب كثيرة. واماَّ المميتة فيجب الاقرار بها بحسب أنواعها وعددها بالضبط. وانَّ الخطايا التي بعد الفحص الجهيد لا تاتي على بال التائب تُغفَر بالاعتراف بالخطايا التي ذكرها * وانَّ الاعتراف ولو بان امرًا ثقيلاً ولاسيَّما لسبب الخجل الذي يوجبهُ على الانسان الإقرار بذنوبهِ. فانَّ فيهِ منافع كثيرة وافرة. اخصّها السلوى الباطنة التي تفيض على قلبهِ بنوال الحلّة من خطاياهُ والانكفاف عنها لسبب التزام الاعتراف بها * ثمَّ انَّ المجمع علّم انَّ الله ولو غفر للخاطئ جريمتهُ باسرها اذا تاب. لا يغفر دائمًا كلّ العقاب الذي يستوجبهُ. واثبت ذلك من آيات الكتاب المقدَّس ومن الأخبار الواردة فيهِ. فانَّ العدل الالهيّ يقتضي ان يكون فرق عظيم بين عقاب من اخطأَ من الجهل قبل العماد ومن خان روح القدس بسقوطهِ في الخطايا بعد العماد * ثمَّ بيّن منافع العقوبات الالهيَّة وهي البلايا التي بها يجرّب الله تعالى الخاطئ في هذه الدنيا. فانّها تذعرهُ وتكفّهُ عن المحارم وتجعلهُ في حذر. وتشفي مما تبقّى من

أسقام النفس. وتعوّد الانسان على الملكات الصالحة * ثمّ برهن على انَّ الكنيسة قد علّمت دائمًا انهُ يجب علينا ان نعمل أعمال التوبة ونقهر انفسنا لننجو من عقابات الله. وانّنا بمعاناة الشدائد والآلام نتشبّه بربّنا يسوع المسيح. ويكون لنا ذلك عربونًا لنوال حصّةٍ من مجدهِ * ثمّ علّم انّ هذا الوفآء الذي بهِ نوفي عن خطايانا ليس هو الاّ من فضل المسيح وعونهِ. فانّنا بدون نعمتهِ لا نقدر على شيءٍ فلا حقّ لنا ان نفتخر * ومن هذا كلّهِ استنتج المجمع المقدَّس انّ الكهنة عندما يتوب الخطاة على ايديهم يجب عليهم ان يفرضوا عليهم أعمالاً برّيّة مفيدة ومناسبة لجرائمهم للوفآء عنها *

الفصل السادس عشر

في مجمل سائر ما شرحهُ وحدّدهُ المجمع التريدنتيني

علّم المجمع انّ سرّ المشحة الاخيرة اي مشحة المرضى هي كمال التوبة بل كمال الحيوة المسيحيّة التي يجب ان تكون توبةً غير منقطعة * وانّ المسيح مخلّصنا لمّا اراد ان يضع لنا علاجًا لكلّ احوالنا. رسم لنا هذا سرّ المشحة ليعيننا في آخر حياتنا على هجمات العدوّ التي فيها يبذل حينئذٍ كلّ ما في طاقتهِ ليهلكنا * وانّ هذا السرّ رسمهُ المسيح بعينهِ كما يشهد انجيل مرقس. وانّ يعقوب

بسفك دمهِ يوجد في سرّ الاوخرستيا بعينهِ مذبوحاً بلا سفك دم. ثبت انَّ ذبيحة القدَّاس هي غفّارةٌ ذاتاً. بها ننال من الله الرحمة والغفران وسائر النعم اذا كنّا تائبين. وانّها ينتفع بها لا الأَحياء فقط بل الموتى ايضاً الذين ماتوا بالمسيح ولم يتنقّوا تنقياً تامّاً *



الفصل الخامس عشر

في تعليم المجمع في التوبة والاعتراف والوفاء

علّم المجمع التريدنتيني بعد ذلك انّهُ لو كان كلّ الناس الذين يتبرّرون بسرّ المعموذيّة يثبتون على برارتهم. لم يكن حاجةٌ الى سرّ آخر غير العماذ لنوال مغفرة الخطايا * الاّ انّ الله الرحيم اذ علم بضعف طبيعتنا. جاد علينا بدوآء نجد فيهِ الخلاص اذا كنّا قد فقدنا النعمة بعد العماذ ونسترجعها من جديد. وهذا الدوآء هو سرّ التوبة الذي فيهِ يغتسل الخطاة بدم المسيح وينالون البرّ * وانّ المسيح رسم هذا السرّ لمّا قال للرسل بعد قيامتهِ «خذوا روح القدس. من غفرتم لهُ خطاياهُ. غُفرت لهُ». وبهذه الكلمات اعطى المسيح الرسل وخلفاءَهم سلطاناً ان يحلّوا من الخطايا ويغفروها وكالةً عنهُ * وانَّ هذا سرّ التوبة يقتضي منّا بكاءً وتنهّداً ومشقّة

كثيرة لننال بهِ التجديد الكامل الذي يوليهِ سرّ العماد. فبكلّ صواب سمّى الآباء القدّيسون التوبة عماذاً شاقّاً * وانّ صورة سرّ التوبة هي الكلمات التي بها الكاهن يحلّ الخاطئ. ومادّتهُ هي أعمال التائب اي الندامة والاعتراف والوفاء * وحدّد المجمع انّ الندامة ليست هي فقط الإقلاع عن الخطايا في المستقبل. بل ايضاً مقت ما سلف من الخطايا وبغضها * وانّهُ ولو كانت الندامة الكاملة المحرّكة من محبّة الله تصالح الانسان مع الله قبل ان ياخذ سرّ التوبة. لا ينتج من ذلك انّ هذه المصالحة تاتي من الندامة وحدها من دون ارادة اخذ السرّ. وانّ الندامة الغير الكاملة المحرّكة من خوف العقوبات او ما اشبه ليست مذمومةً وانّها عطيّةٌ من الله وعونٌ ليتهيّأ الخاطئ للتبرير. وانّها كافيةٌ لنوال غفران الخطايا في سرّ التوبة * ثمّ علّم المجمع انّ الاعتراف بجميع الخطايا المميتة التي يشهد ضمير الانسان بها باليقين ضروريّ في سرّ التوبة لمغفرة الخطايا برسم المسيح نفسهِ. وانّ المسيح لهُ المجد اذ كان عتيداً ان يعرج الى السماء جعل القسوس وكلاءهُ. واقامهم قضاةً ليرفع التائبون خطاياهم المميتة كلّها اليهم. واعطاهم سلطاناً ليقضوا فيها امّا بالحلّ وامّا بالربط. وانهُ من الواضح انّ القسوس لا يقدرون ان يقوموا بهذه الوظيفة ان لم يعرفوا حقيقة الخطايا التي لهم ان يقضوا فيها. فاذاً يجب على التائبين ان يقرّوا بخطاياهم امام القسوس بالتفصيل

الفصل الرابع عشر

في تعليم المجمع في اسرار البيعة والقدّاس

انّ المجمع المقدّس شرح بعد ذلك قضيّة اسرار البيعة. وقال انّها أسباب او وسائط لنوال البرارة الحقيقيّة او لازديادها فينا او لاسترجاعها اذا فقدناها. وانّ هذه الأسرار رسمها المسيح. وانّها سبعة لا اكثر ولا اقلّ. وانّ كلّ واحد منها يحوي النعمة التي هو علامتها ويولي هذه النعمة لكلّ من لا يضع لها عائقًا * ثمّ بعدما حرّم اضاليل لوثار في شان المعموذيّة وسرّ التثبيت او الميرون. اتى الى سرّ الاوخرستيا. وقرّر انّ الكنيسة الكاثليكيّة علّمت في كلّ زمان وكلّ مكان انّ الخبز والخمر بالتقديس يستحيلان الى جسد المسيح ودمهِ. وانّ جسد المسيح ودمهُ بعد التقديس يوجدان حقًّا وجوهريًّا تحت أشكال الخبز والخمر. وانّ اتّخاذ الكلمات التي بها المسيح رسم هذا السرّ بغير هذا المعنى كفرٌ واثمٌ. وانّ الكنيسة التي هي عمود الحقّ تستسمج تعليم من قال انّ كلمات المسيح ليست بالمعنى الحقيقيّ بل المجازيّ. وتحفظ على الدوام ذكر هذا الاحسان الذي تحسبهُ اجلّ ما تفضّل بهِ عليها المسيح * ثمّ انّ المجمع قرّر انّ جسد المسيح ودمهُ ونفسهُ والوهيّتهُ موجودة بعد التقديس تحت كلٍّ من شكلي الخبز والخمر وتحت كلّ جزءٍ منها

مهما كان صغيرًا. وانَّ جوهر الخبز وجوهر الخمر يستحيلان بالحقيقة
الى جسد المسيح ودمهِ بحيث لا يبقى منهما الاَّ الأَعراض او الاشكال.
وانَّهُ لم يامر المسيح كلَّ المومنين قاطبةً ان يتناولوا من الشكلين
كليهما. وانَّ الكنيسة اللاتينيَّة لأَسباب صوابيَّة رسمت على العلمانيين
ان لا يتناولوا الاَّ من شكل الخبز. وانَّهُ يجب العبادة للقربان المقدَّس
والسجود الذي يجب لله * وحرَّض المجمع المومنين ان يكثروا من
تناول هذا السرّ الشريف. وان يجتهدوا ان لا يقدَّس قدَّاس الاَّ
ويكون من يتناول فيهِ * ثمَّ انَّ المجمع علَّم انَّ الاوخرستيا ليست فقط
سرًّا من اسرار البيعة. بل هي ايضًا ذبيحة رسمها المسيح لذكر ذبيحتهِ
على الصليب وتكرارها. وانَّ المسيح لمَّا كان كاهنًا الى الابد وكهنوتهُ
لا يزول ابدًا. اراد ان يودع الى كنيستهِ المحبوبة ذبيحةً منظورةً
تؤبّد ضحيتَّهُ التي بها فدى العالم على الصليب وتكسبهم النعم التي
استحقّها لهم في تلك الضحيَّة * وانَّ هذه الذبيحة هي التي اشار اليها
الله اذ قال على لسان ملاخيا النبي انَّهُ سيُذبَح باسمهِ ذبيحة طاهرة
في كلّ مكان. تكون عظيمة بين الامم * وانَّ بولس الرسول اشار
الى هذه الذبيحة اذ قال للمسيحيّين لا تقدرون ان تشتركوا في مائدة
الشياطين اى ذبائح الاصنام وفي مائدة الربّ * وانَّ الشريعة
القديمة كان فيها رموز وأَلغاز كثيرة واشارات متنوّعة الى هذه
الذبيحة * وحدَّد المجمع انَّهُ لمَّا كان المسيح الذي ذُبح مرَّةً على الصليب

الاصليّة * فاتى المجمع التريدنتيني الى هذه القضيّة. وعلّم انّ كلّ واحدة من الخلال الحميدة التي بها ينال الانسان التبرير من الله هي حاصلةٌ من النعمة الملكيّة السابقة لعمل الانسان التي يعطيها الله للخاطئ من فضلهِ وجودتهِ تعالى. لا من حقّ يجب للخاطئ * وتفصيل ذلك انّ الانسان قدر ان يجرح نفسهُ ويذوّقها العطب. الاّ انهُ لا يقدر بقوّتهِ بدون نعمة المخلّص ان يشفي جروحهُ ولا ان يشتاق الى الشفآء اشتياقًا نافعًا لخلاصهِ. ولذلك فهو ملتزم ان يسأل كلّ ذلك وان يرجو كلّ ذلك من رحمة الله بحقّ فضل يسوع المسيح * وانّ اوّل الخلال التي تهيئ الانسان للتبرير هي ان يؤمن ايمانًا وطيدًا بالحقائق التي اوحى بها الله وبالوعود التي وعدها . وانّ من هذه الحقائق ما هو مخوّف. ومنها ما هو مسلٍّ * وانّ هذه الحقائق تولّد في قلب الانسان الخاطئ الخوف من العقوبات الالهيّة والرجآء بالغفران . فانّ الخوف يذلّل الخاطئ ويكسر خاطرهُ. فينتعش بتامّل رحمة الله. ويجد فيها ملجأً امينًا. وباتّكالٍ وطيدٍ على فضل المسيح وحنّهِ يترامى على هذه الرحمة التي لا تُستقصى. ويبتدئ ان يحبّ الله من حيث هو منبع كلّ برارة * فهذه هي خلاصة تعليم المجمع في الطريق الذي بهِ ياتي الانسان الى التبرير * ثمّ اخذ المجمع يشرح خواصّ هذا التبرير وفوائدهُ. وقال انّ كُنهَ التبرير ليس هو فقط في انّ الانسان تُغفَر خطاياهُ. بل ايضًا في تجديد باطنيٍّ تحصل

عليهِ روح الانسان. بحيث انّ الخاطئ يعود بارًّا بالحقيقة ومحبوبًا
لله تعالى ووارثًا للحيوة الابديّة. وانّ روح القدس هو الذي يفعل
فيهِ هذا التجديد العجيب. اذ يولّد في قلبهِ ملكات الايمان والرجاء
والمحبّة التي تصلهُ وتقرنهُ بيسوع المسيح وتجعلهُ عضوًا حيًّا من اعضاء
جسدهِ المقدّس * وانّ الانسان الصائر بارًّا هكذا بنعمة المسيح لا
يقف على الدرجة التي نالها من البرارة. بل يتقدّم من فضيلة الى
فضيلة. ولا يزال يزداد برارةً يومًا فيومًا بالصلوة واماتة النفس
والمواظبة على الأعمال الصالحة وحفظ وصايا الله ووصايا الانجيل
المقدّس. وفي قيامهِ بهذه الفرائض يشعر بصدق ما قالهُ الكتاب
المقدّس. وهو انّ وصايا الله ليست ثقالاً وانّ نير المسيح طيّب
وحملهُ خفيف. لانهُ من حيث قد صار ابن الله. يحبّهُ حبّ
الابن. وبحبّهِ يجد سهولةً وطيبًا لاطاعتهِ تعالى والعمل بمشيّتهِ *
وانّهُ ان كان الله ربّما ظهر انّهُ يصرف وجههُ عن الانسان ويخذلهُ
ويتركهُ على قوّتهِ. فذلك لكي يفهّمهُ احتياجهُ الى نعمتهِ تعالى
ويجعلهُ متواضعًا متيقّظًا. فلا ينبغي حينئذٍ للانسان ان يفشل.
بل من كونهِ يعلم انّ الله لا يامرهُ بما يفوق الطاقة الانسانيّة وانّهُ
باوامرهِ ينبّههُ ان يفعل ما يقدر عليهِ وان يطلب ما لا يقدر عليهِ.
يلتجئ اليهِ تعالى بالصلوة والاتّضاع متّكلاً اتّكالاً ثابتًا انّهُ ينال من
كرَمهِ العون اللازم ليسلك الى النهاية في طريق البرّ *

بواحد» * وعلّم المجمع انّ هذه الخطية لا يمكن ان تُمحى بقوّة الطبيعة.
بل بفضل يسوع المسيح فقط الوسيط الوحيد الذي صالحنا مع الله
بدمهِ. وهذا فضل المسيح يتفضّل بهِ تعالى على الكبار وعلى الاطفال
في سرّ المعموذيّة. والشاهد قول الرسول «لا يوجد تحت السماء اسم
آخر أُعطي للناس ليخلصوا بهِ». وقول يوحنّا المعمذان «هوذا
حمل الله. هوذا الذي يرفع خطايا العالم». وقول الرسول «انتم
جميعًا الذين اعتمذتم. لبستم المسيح» * وانّ الاطفال حتّى الذين
آباؤهم معمَّذون. يحتاجون الى اخذ المعموذيّة. لانّهم ملطوخون
بخطيّة آدم الاصليّة. وهذه الخطيّة لا يمكن ان تُمحى الاّ بماء الميلاد
الثاني لنوال الحيوة الابديّة * وانّهُ بناءً على هذا التعليم قد اوجب
التقليد الرسليّ الابويّ ان يعمَّذ عماذًا حقيقيًّا لنوال غفران الخطايا
الاطفال الصغار نفسهم. لكي يزول عنهم بالميلاد الثاني ما لحقهم
من الدرن في مولدهم الجسديّ. لانهُ كما قال الكتاب من لم يولد
من الماءِ والروح لم يقدر ان يدخل ملكوت الله * وعلّم انَّ الجريمة
المتوقّفة عليها الخطيّة الاصليّة تُغفَر وتزول بالنعمة التي تُعطَى في
العماذ. لانَّ الله تعالى لا يبغض شيئًا في الذين وُلدوا ميلادًا ثانيًا
ولا دينونة على الذين دُفنوا مع المسيح في المعموذيَّة ليموتوا عن
الخطيَّة. وهم لا يحيون بحسب الجسد. بل قد خلعوا الانسان
العتيق ولبسوا الجديد. وصاروا ابرياءَ لا عيب فيهم وَرَثة الله

ومشتركين مع المسيح في الميراث. فلا يبقى مانع يصدّهم عن دخول ملكوت الله * ولكنَّ المجمع علّم مع هذا انَّ الشهوة او هي الميل الى الخطيَّة تبقى في الذين يعتمدون. وانَّ هذه الشهوة اذ انّها تُركت فينا لكي نحاربها ونقاومها. لا يمكن ان تضرّ الذين لا يرضون بها ولا ينقادون لها. بل يقاومونها بكلّ قوّتهم بنعمة يسوع المسيح. لا بل انَّ الذي لا يجاهد هذا الجهاد لا ينال الاكليل * وانمَّا سمّى بولس الرسول هذه الشهوة خطيّة لانَّها متولّدة من الخطيّة وداعية الى الخطيّة. لا لانّها في ذاتها خطيّة * ثمَّ انَّ المجمع قرّر انّهُ في كلّ ما حدَّدهُ عن الخطيّة الاصليّة المعدية الى جنس البشر قاطبةً لم تكن نيّتهُ ان يعني ايضًا سيّدتنا مريم العذراء امّ الله الطاهرة المغبوطة. وبهذا الاستثناء بيّن المجمع قبولهُ للراي العامّ المتمسّك بهِ المؤمنون الانقياء في كلّ جيلٍ. وهو انَّ سيّدتنا العذراء حُبل بها بلا عيب [وصار ذلك من ابواب المعتقد الايمانيّ في عهد البابا بيوس التاسع كما سنرى] *

الفصل الثالث عشر

في تعليم المجمع في تبرير الخاطئ

انّ قضيّة تبرير الخاطئ لها نسبةٌ بيّنةٌ الى مسألة الخطيّة

جميع أَسفار العهد القديم والعهد الجديد والحديث المتعلّق بالايمان او بصلاح العمل كأنّها خرجت من فم المسيح او نطق بها روح القدس. وحُفظت في الكنائس بتتابع من جيل الى جيل بلا انفصال. ويتمسّك بها على السوآء وباحترام واحد وورع واحد ٭ واراد ان تدوَّن في هذا الشرح اسمآء الأَسفار المقدّسة التي اقتبلها. لئلاّ يبقى لاحد شكٌّ في حقيقتها» ٭ ثمّ تبعت أَسمآء الكتب المقدّسة المنزلة بموجب ما هي موجودة في الترجمة اللاتينيَّة المسمّاة الولغاتا. [التي اجازها المجمع وحدها دون سائر الترجمات اللاتينيَّة. وعيَّن اشخاصًا من ذوي العلم الفائق ليصحّحوها ويستحكموها وينقّوها من خطإِ النسّاخ وغير ذلك. وهكذا برزت في الطبع ممضاةً بتوقيع البابا اقليميس الثامن سنة ١٥٩٢. وهذه الترجمة هي التي تعمل بها الكنيسة اللاتينيَّة في جميع اقطار الدنيـا] ٭ ثمَّ انَّ المجمع اصدر حكمًا في هذا الشان وهو «من لم يقبل هذه الأَسفار ويتَّخذها مقدَّسةً منزلةً قانونيـَّة بجملتها وبكلّ اجزآئها. او احتقر التقاليد التي سبق القول عنها بعلمِهِ وخاطرهِ. فليكن محرومًا» ٭ ثمَّ اراد المجمع ان يهدّئ النفوس المقلقة ويزجرها. فامر العامَّة والخاصّة في الامور التي تتعلّق بالايمان والعمل بالصلاح وعليها متوقّف ثبات المعتقد المسيحيّ ان لا يثق احد براي نفسهِ ويعوّج اقوال الكتب المقدَّسة الى ما تسوّل لهُ نفسهُ من المعاني خلافًا للتفسير الذي بهِ تفسّرها الكنيسة

المقدَّسة التي يحقّ لها وحدها ان تحكم في حقيقة معاني الصحف الالهيَّة وتفسيرها الصحيح. او خلافًا للمعنى الذي اجمع عليهِ الآبآء *
ثمَّ انَّ المجمع نهى عن استعمال آيات الكتاب المقدّس في المصالح الدنيويّة الغير اللائقة. كاتّخاذها للهزؤ او الضحك او التملّق او التمسّك الباطل من تفاؤل وتكهّن وتطيُّر وما اشبه. واوجب على من يفعل ذلك عقاب من يفسد كلام الله *



الفصل الثاني عشر

في تعليم المجمع في الخطيَّة الاصليَّة

انّ المجمع التريدنتيني في الجلسة الخامسة شرح تعليم الكنيسة الكاثليكيّة في الخطيّة الاصليّة وفي دوآء هذه الخطيّة. وعلّم انّ آدم لمّا خالف وصيّة. الله فقد البرارة والقداسة التي فيها كان قد خُلق. وانّهُ بعصيانهِ على الله استوجب سخطهُ وغضبهُ ومقتهُ. وصار اسيرًا للشيطان وقابلاً للموت * وانّ آدم بمعصيتهِ لم يضرّ نفسهُ فقط. بل نسلهُ ايضًا. وبتوريثهِ الخطيّة التي هي موت الروح للجنس البشريّ باسرهِ. اورثهم ايضًا موت الجسد وعاهاتهِ على ما قال بولس الرسول «الخطيّة دخلت في العالم بانسان واحد. وبالخطيّة الموت. وهكذا عمّ الموت جميع الناس. اذ انّهم اخطأُوا جميعًا

والعاهات بغير عون من احد من الناس. ثمَّ توفّي سنة ستّ واربعين من عمرهِ * ودفنوهُ على الشطّ. وذروا نورةً حارَّة على جثتهِ بنيّة ان تفنى لحمانهُ عاجلاً. فيمكنهم ان يحملوا رمّتهُ الى الهند. ولكن بعد اكثر من شهرين وجدوا جثمانهُ طريّاً صحيحاً كانهُ حيّ. وثيابهُ لم تبلَ * ونقلوهُ الى مدينة غوا. وهناك وُضع في كنيسة مار بولس بزيّاح وتوقير. وتجري على ضريحهِ كرامات وآيات سماويّة *



الفصل الحادي عشر

في افتتاح المجمع التريدنتيني (١٥٤٥)

لمّا رأت الكنيسة هرطقة البرتستنت تنتشر في بلاد جرمانيا. افتكرت في التئام مجمع مسكوني لردع قوّة تلك الهرطقة وحسم المساوئ المتولّدة منها في جمهور المومنين * وكان كارُلس الخامس الملك القيصريّ [الذي كان مقدّم جميع ملوك اوروبا] يتمنّى ذلك بكلّ قلبهِ. والبابا بولس الثالث بعدما شاور سائر الملوك اصدر براءة في التئام المجمع. واختار مدينة تريدنت [التي هي في الجهات الشماليّة من بلاد الايطاليانيّين] لانّها كانت متوسّطة بين بلاد جرمانيا وايطاليا. فكان يهون الاجتماع اليها من كلّ جهة * وعرض عوارض أخّرت افتتاح المجمع الى سنة ١٥٤٥ * ولمّا اجتمع

الآبآء. اشتغلوا قبل كلّ شيءٍ في تعيين الامور التي كان يقتضي البحث عنها في المجمع والترتيب الذي يتمسّكون بهِ * وبعد القدّاس الاحتفاليّ قُرئ قانون الايمان كعادة المجامع القديمة التي كانت بهذا الترس تردّ سهام الهرطقات كلّها. وربّما بهذا فقط جذبت كثيرين من الكفر الى الايمان واخزت الملحدين * وبعد ذلك تفاوضوا في قانونيّة الكتب المنزلة التي هي الاساس الاوّل للايمان المسيحيّ. وصار الاتّفاق براي واحد على انّ جميع اسفار العهد القديم والعهد الجديد هي منزلة * وكان احد نوّاب البابا قد خطب في هذه القضيّة خطبةً بديعة عجيبة. وبيّن انّ هذه الكتب شهد بصحّتها وحقيقة انزالها المجامع القديمة وآبآء القرون الاولى * ثمّ جرى البحث عن امر التقليد الابويّ او هو حديث المسيح والرسل الذي لم يُدوَّن في الصحف المقدّسة. بل اتانا بتقليد من فم الى فم ابًا عن جدّ. وهو يوجد في مصنّفات الآبآء والملافنة وفي غير ذلك من آثار الكنيسة * وسطروا في هذين المعنيين شرحًا صورتهُ «انّ مجمع تريدنت المقدّس المسكونيّ العامّ الملتئم شرعًا بهدى روح القدس وتقدُّم نوّاب الكرسيّ الرسوليّ اذ تامّل انّ حقائق الايمان وقواعد صلاح السيرة موجودة في الأَسفار المكتوبة وفي التقليدات الغير المكتوبة التي تسلّمها الرسل من فم المسيح او اوحى بها روح القدس الى الرسل نفسهم ووصلت الينا بتواتر غير منقطع. اقتدآء بتعليم الآبآء الارثذكسيّين يقتبل

وتفسير ابوابهِ * ونال ان يواجه الملك. فاذن لهُ ان ينذر بالانجيل * فطفق ينادي وينذر. وتلمذ كثيرين. الاّ انَّ مسرّتهُ تنغصت من حيث انَّ كهنة تلك الامّة الوثنيَّة الذين يسمّى الواحد منهم البُنْز شوّشوا فكر الملك عليهِ. واثاروا عليهِ اضطهاداً * فرحل من هناك الى مدينة فيرندو قاعدة مملكة اخرى صغيرة * فلقيهُ الملك ببشاشة. واذن لهُ ان ينذر بايمان المسيح في جميع ولايات مملكتهِ * فانذر وتلمذ جمًّا غفيراً. وفي عشرين يوماً تنصّر من اولئك الوثنيّين اكثر من الذين تنصّروا في مملكة سشومة في مدَّة سنة صحيحة * وترك اولئك المسيحيّين بيد احد المنذرين كان رفيقهُ. وتوجَّه وجهتهُ نحو مدينة مياكو التي هي قاعدة ممالك يابان باسرها * وجاز على مدينة أَمَنْغوجي. وكان اهلها منهمكين برذائل وشرور كثيرة. فلم يثمر تعبهُ هناك. بل اصابهُ هوان وحقارة * ولمّا وصل الى مياكو. لم يلتفت احدٌ من اهلها الى قولهِ. وبتوجّعٍ راى انَّ اولئك القوم لم يكونوا مستعدّين لقبول استنارة الحقّ. فرجع الى مدينة أَمَنْغوجي. واذ شعر انَّ ما ظهر بهِ بين اهلها من الرثاثة ودناوة الزيّ جعلهم يستخفّون بهِ ويحتقرونهُ ومنعهُ من التوصّل الى حضرة الملك. راى من اللازم ان يتساير مع اولئك القوم. فلبس لباساً فاخراً وتهيّأ بهيئة الوجاهة. وقصد قصر الملك واهدى لهُ هدايا * فاستقبلهُ الملك بسرور. واذن لهُ ان ينذر بالانجيل * فانذر وتلمذ. وعمّد

ثلاثة آلاف نفس في تلك المدينة. وهذا النجاح اولاهُ سروراً لا يوصف * وانطلق شاوير من امنغوجي الى مملكة بنغو. وكان ملكها يشتهي ان يراهُ بشوق. وهناك حاضر البُنْزات اي كهنة الوثنيين الذين كانوا يمانعونهُ من التبشير بالايمان وجادلهم بحضور الجمهور. فافحمهم واخزاهم. لا بل تلمذ نفراً منهم * واثّر كلامهُ في قلوب الناس. حتّى صاروا ياتون الى الاعتماذ افواجاً * واقتنع الملك نفسهُ بصحّة دين المسيح. الاّ انّهُ منعهُ من التنصّر هوًى ذميم كان متملّكاً عليهِ * وبعد ذلك العهد ذكر الملك ارشاد فرنسيس واقوالهُ. فاقلع عن سيّئاتهِ واخذ العماذ * وبعد ما قضى شاوير نحو سنتين ونصف في بلاد يابان. اخذهُ غرامٌ روحانيٌّ في انذار امّة الصين بايمان المسيح * وكان الغرباء ممنوعين منعاً شديداً من دخول بلاد الصين. فافتكر في الأسباب التي بها يمكنهُ ان يصل الى اربهِ. وراى عوائق كثيرة تعيق الامر. وقامت عليهِ صعوبات ومشكلات متعدّدة من كلّ نوعٍ. ولكنّهُ لم يرخِ شيءٌ عزمهُ. وبعد المعالجة الطويلة والصبر الجميل نال ان يدخل جزيرة سَنْجِيان المجاورة لمدينة مكاو التي هي في ساحل الصين * انَّ الحكمة الالهيّة ربّما الهمت عبيدها افكاراً لا تريد ان تنجز بالعمل. لكي تجازيهم على نيّتهم الصالحة: وهكذا جرى الامر مع مار فرنسيس. فانّهُ اذ كان يرجوان يتوغّل في ارض الصين. وقع مريضاً. وقضى اثني عشر يوماً في الاوجاع

وكثر فيها الصلحاء والقدّيسون. وتقاطر الوثنيون الى حظيرة المسيح. وزاد عدد الذين كانوا يطلبون العماذ حتى انّ شاوير اعيا من تعميذهم ووهنت ذراعاهُ من التعب * فلمّا راى نجاح رسالتهِ في تلك البلاد. توغّل الى البلاد المجاورة. ولم يكن اهلها بعد قد سمعوا بيسوع المسيح. وبعد قليل من الزمان تغيّروا بوعظهِ من حال الى حال. وهدموا هياكل اصنامهم. وبنوا بدلها كنائس ومعابد لله الحقّ * وفي السنة التابعة انطلق الى ارض تَرَنْكُور. وفي مدّة شهرٍ واحدٍ عمّذ بيدهِ عشرة آلاف نفس من الوثنيّين. وبُنيت في تلك الارض خمس واربعون كنيسة. وقال فرنسيس نفسهُ في روايتهِ التي ارسلها الى اوروبا عن هذه الحوادث «انّ ممّا يولي العجب والاندهاش رؤية هؤلاء الوثنيّين المقتبلين دين المسيح اذ يتسارعون لدكّ هياكلهم الصنميّة» * وشاع صيت شاوير في بلاد الهند كلّها حتّى اقصاها. فكانوا يرسلون اليهِ من كلّ ناحية يلتمسون منهُ ان ياتي عندهم ليهديهم ويعمّذهم * ولمّا راى الحصاد كثيرًا والفعلة قليلين. جعل يكتب الى ايطاليا والى البرتوغال في طلب منذرين لمعاونتهِ. وكان لشدّة شوقهِ الى خلاص النفوس يودّ لو انّ معلّمي المدارس العلميّة في اوروبا يكونون كلّهم منذرين بالانجيل بين الوثنيّين * ثمّ قصد جزيرة منات وبلاد كوجين ومليابور وملاقة وملوقة وترنات. وجذب افواجًا كثيرة لا تُحصَى من تلك الاقوام الى دين المسيح.

ونصب في كلّ مكان كنيسةً من الذين عمّدهم * وقاسى في كلّ ذلك مشقّات واتعابًا وصعوبات وشدائد وضيقات لا يعبّر عنها اللسان . ولكنهُ كان في باطنهِ مسرورًا فارحًا * وكتب يومًا الى مار اغناطيوس رئيسهِ «انّ الاخطار التي تكتنفني والمشقّات التي اتكلّفها لاجل مجد الله وحدهُ تحوّلني فرحًا روحانيًا وعزآءً باطنيًا لا حدّ لها . ولا يخطر ببالي انّي في كلّ عمري طابت نفسي مثلما الآن . وهذه لذّات النفس نقيّةٌ حلوةٌ دائمة حتّى انّها تنسي اوجاع الجسد» * ولذلك فكان فرنسيس اذا كثرت فيهِ اللذّات الباطنيّة والمسرّات الروحانيّة . يطلب من الله ان يقلّلها *

الفصل العاشر

في تتمّة اتعاب مار فرنسيس شاوير .

كانت غيرة مار فرنسيس شاوير على خلاص النفوس لا نهاية لها . فلم يكتفِ بما صنعهُ في بلاد الهند . بل اراد ان ينذر اهل يابان [الذين هم في جزائر قاصية شرقيّ بلاد الصين] . فتوجّه نحو تلك الارض . ووصل في سنة ١٥٤٩ الى مملكة سشومة من تلك الممالك * وكان معهُ واحدٌ من يابان كان قد تلمذ في بلاد الهند . وبمعونة هذا اخرج الى تلك اللغة قانون الايمان

في ظاهرها وقوانينها. الاَّ انهَّا تختلف من الرهبنة من حيث انَّ نذورها ليست احتفاليَّة كنذور الرهبان] *

الفصل التاسع

في انتشار الدين المسيحيّ في بلاد الهند (سنة ١٥٤١)

انّ الكنيسة تعوّضت عن الخسارات التي اصابتها من الهرطقة والشقاق بدخول افواج كثيرة وامم لا تُحصَى في دين المسيح على يد القدّيس فرنسيس شاوير او كساوير اليسوعيّ * كان شاوير من اهل البيوتات في اسبانيا. وقرأ العلوم في مدينة باريس. ثمّ صُيّر معلّم الفلسفة في مدرستها الجامعة. واذ ذاك اجتمع بهِ القدّيس اغناطيوس لويولا منشئ اخويّة اليسوعيّين. ووعظهُ حتى اقنعهُ باتّباعهِ ودخول اخويّتهِ * فاختارهُ بولس الثالث البابا لينذر بالانجيل في بلاد الهند. وكان البرتوغيس او البرتوغاليّون [وهم جيل من اهل اوروبا مجاورٌ للاسبانيّين] قد تملّكوا على جانب من تلك البلاد. واقاموا فيها نظاماً وسياسةً * فرحل فرنسيس سنة ١٥٤١ نحو تلك الجهات. وبعد سفر طويل نزل في مدينة غوا التي كانت قاعدة أملاك البرتوغال في تلك البلاد * فلمّا راى الحال السيّئ الذي كان فيهِ اهل اولئك الاقوام في امور الدين. انفطرت

كبدهُ اشفاقًا وبكى عليهم * واذ علم انّ البرتوغاليّين بسوء تصرّفهم وقباحة سيرتهم كانوا يمنعون اهل البلاد الاصليّين من ان يحبّوا الديانة المسيحيّة ويتقرّبوا اليها. ابتدأ عملهُ الانذاري في اولئك بني جنسهِ. وشرع يعظهم ويرشدهم ويزجرهم ليصلح أحوالهم ويجعلهم ان يسلكوا مسلكًا لائقًا بالدين الطاهر الذي كانوا يتديّنون بهِ * ووجّه ألحاظهُ الى الشباب خاصّةً ليدرّبهم في سبيل الصلاح. فكان يجمع الصبيان الصغار ويسوقهم الى الكنيسة. ويعلّمهم قانون الايمان ووصايا الله وفرائض الديانة المسيحيّة * فبهت اهل المدينة لما رأوهُ في الصبيان من التقوى والورع وحسن السلوك. واعتبروا بهم وغيّروا أطوارهم * وانتبه المتغافلون وارعوى الخاطئون اذ ساءهم حالهم. وقصدوا فرنسيس. وتابوا على يدهِ. وهكذا باتعاب هذا القدّيس لم يبقَ في المدينة احد مذموم السيرة الّا نادرًا * ثمّ رحل من مدينة غوا وانطلق الى ارض ملَبار. وكان اهلها نصارى. الّا انّهم كان لهم عادات كثيرة تخالف دين المسيح * فانصبّ للعمل. وتعلّم اوّلًا بجهد بليغ اللغة الملباريّة. وترجم في هذه اللغة مختصر التعليم المسيحيّ وغير ذلك من مبادئ الدين * وتعلّم عن ظهر قلبهِ ترجمتهُ. واخذ يطوف القرى والضياع وهو ينذر بيسوع المسيح * وايّد الله إنذارهُ بكرامات ربّانيّة. فنجع في قلوب اولئك الانام. وتاب جمّ غفير منهم * فانقلب حال تلك الامّة الى حال جديد عجيب.

المدرسة الجامعة التي بباريس وكان يدرس فيها العلوم بعد توبتهِ * وفي عيد انتقال السيّدة سنة ١٥٣٤ جمع رفاقةُ الذين تلمذهم الى معبد منقطع عن الناس في نواحي باريس . وبعدما تناولوا القربان من يد احدهم كان وحدهُ قسيسًا بينهم . نذروا كلّهم بصوت واحد نذرًا صريحًا ان ينطلقوا الى بلاد فلسطين ليدعوا الغير المومنين الى الايمان الحقّ . او ان تعسّر ذلك ان يسلّموا انفسهم بيد البابا نائب المسيح ليرسلهم في خلاص النفوس حيثما شآء . ونذروا ايضًا ان يزهدوا في المقتنى وكلّ مال * فانطلقت الزمرة الى رومية لوفآء هذا النذر . واذ رأَوا صعوبة الذهاب الى بلاد فلسطين لسبب الحرب بين اهل بندقية وبين الترك . سلّموا انفسهم بيد الحبر الاعظم * وهناك كثرت جماعة اغناطيوس . فسمّاها يسوعيّة بالهام الاهيّ نسبةً الى يسوع مخلّصنا الذي الزموا انفسهم ان يحملوا رايتهُ وينشروا مملكتهُ بين الكفّار والجالسين في ظلمة الضلال * وبعد ما نظّمهم اغناطيوس وقيّدهم بقوانين وضوابط . ارسلهم الى البلاد المجاورة . فشرعوا ينصبّون للعمل في خير النفوس . وكانوا يدارون المرضى في البيمارستانات ويخدمونهم . ويعلّمون الصبيان اصول التعليم المسيحيّ . ويعظون في كلّ مكان وكلّ محلّ . وامّا طعامهم فكانوا يحصّلونهُ من الصدقة * فاحبّهم الناس وتعجّبوا من فضائلهم في كلّ مكان . ولاسيّما مدينة رومية حيث كان فيها اغناطيوس واثنان من

أفضل رفاقهِ * ونالوا ان يواجهوا البابا بولس الثالث. فاكرمهم ومدح غيرتهم. ثمّ قلّدهم وظيفة التدريس في المدرسة العظمى التي برومية * غير انَّ الهراطقة والجهّال حرّكوا الضغينة والعدوان على اغناطيوس ورفاقهِ. لكنّهم كرّوا خازين اذ اشرقت أَنوار الحقّ من اعمال تلك الاخويَّة الجديدة وخلالها * ومن الخيرات التي جاد بها الله باغناطيوس القدّيس على الكنيسة استنباطهُ طريقةً منظومةً للتامّل في حقائق الدين والاعتبار بها. تسمّى الرياضة الروحيَّة. يُرسَم فيها ان يختلي الانسان من كلّ احدٍ ويتفرّغ من كلّ شغل وفكر مدَّةً من الايَّام معلومة. ويبقى هكذا في تامّلات وصلوات متتابعة منتظمة باسلوب معيَّن بحيث تسند بعضها بعضاً * ثمَّ انَّ اخوة اغناطيوس زادوا على نذورهم نذرًا ثالثًا وهو نذر الطاعة كالرهبان. وزادوا نذرًا رابعًا وهو ان يطيعوا البابا حيثما اراد ان يرسلهم للعمل في خلاص النفوس * ومن جملة القوانين التي رسمها اغناطيوس على اخوتهِ ان لا يُنصَبوا اساقفةً الاَّ اذا اجبرهم البابا على ذلك * ثمَّ انَّ اغناطيوس بعد صعوبات كثيرة وتهم كاذبة نال سنة ١٥٤٠ من البابا بولس الثالث تثبيت اخويتهِ اليسوعيّة ببرآءة شريفة. ومن ذلك الحين قويت وانتشرت في العالم كلّهِ. حتَّى انَّ اللسان يعجز عن وصف جميع ما صنعتهُ من الخيرات الكثيرة المتنوّعة الى الكنيسة والى جميع الامم * واعلم انَّ اخويَّة اليسوعيّين تشبه الرهبنة

يكن بدٌّ من ان تتظاهر فيها اضاليل لوثار التي ثارت في ذلك الزمان . لا بل كانت قد سرت فيها خفيةً منذ حياة هنري بدون رضاهُ ولا علمِهِ * وبعد موت هنري قام أَدْوَرْد السادس ملك الانكليز ونفى الديانة الكاثليكيَّة من بلادهِ . وادخل البدعة المسمَّاة إِصلاح الدين . فابطل القدَّاس . واعدم صور القدّيسين . ونهب الكنائس ونجَّسها بالشناعات . ونصب واعظين ينادون جهرًا بدحض اصول المعتقد القديم وابطال رسوم الديانة المقدّسة * فهذا هو اصل شقاق قوم الانكليز الذين يُدعَون الانكليكان . وهذا هو المبنى الذي عليهِ بُنيت شيعتهم . اي الدعارة والفحشآء والاضطهاد وسفك الدم . حتّى انَّ هنري الثامن نفسهُ حكم عنها هذا الحكم اذ كان على فراش الموت في تلك الساعة المرجفة التي فيها يُرفَع البرقع من على بصيرة الانسان وتزول الغشاوة فيلوح الحقّ ويشرق بكلّ نورهِ *

الفصل الثامن

في انشآء اخويَّة اليسوعيّين (سنة ١٥٢٤)

[انَّ الكنيسة المقدَّسة في وسط البلآء العظيم الذي انزلهُ بها عدوّ الخير بالهرطقات والشقاقات التي اثارها فيها على يد لوثار وكلوين وهنري وتلاميذهم . تعزَّت غير قليل بظهور اخويَّة او شبه

رهبنة. ابدعت بعد قليل واجادت وانجبت بمناقب وفضائل استحقّت من سببها الشكر والثناء في جميع الأَحقاب. وهي اخوية اليسوعيين التي انشأَها القدّيس اغناطيوس لويولا * كان اغناطيوس من ذوي البيوتات في اسبانيا. وقضى شبوبيتهُ في التجنّد والعسكريّة * ولمّا كان ابن احدى وعشرين سنة. كُسر ساقهُ في حصار احدى المدن. وعسر برؤهُ. فضجر يومًا وطلب كتاب قصص ليتفرّج بقراءَتها * فأُتي بكتب قصص سيرة المسيح وقدّيسيهِ. فاستحلاها جدًّا. ووقعت من قلبهِ اجلّ موقع. واعتبر بها. وجزم على نفسهِ ان يقتدي بالقدّيسين ويسير سيرة الكمال المسيحيّ. وكما قال فعل * وشرع يحثّ غيرهُ من اهل الغفلة والطغيان. وجذب كثيرين الى الدعوى * وعاصاهُ يومًا رجل من معارفهِ كان في سوءِ الوصال مع امرأة. فشقّ عليهِ حالهُ. فلاقاهُ مارًّا على ساحل غدير وكانت الدنيا باردة اشدّ ما يكون. فغطس اغناطيوس في الغدير وقال للرجل «اذهب وتنعّم انت بشهواتك القذرة. وأنا بدلك اقاسي هذا العذاب لاردّ عنك نقمة العدل الالهيّ» * فاتّعظ الرجل وتاب توبةً نصوحًا * وجرت على يد اغناطيوس أَمثال كثيرة من هذه شفقتهِ على قريبهِ وغيرتهِ على خلاص النفوس * وهذه الغيرة الهمتهُ فكرًا عاليًا وهو ان ينشئ جماعةً من الأَخوة المترابطين للعمل في خلاص النفوس. ودعا الى ذلك في الاوّل نفرًا من تلاميذ

غار على الديانة الكاثليكيّة. واصدر اوامر قويّة لمنع رعيّتهِ عن اتّباع مذهب ذلك الملحد. لا بل كان قد صنّف كتاباً في دحض تلك البدعة * الاّ أَنّهُ بعد ذلك استعبد قلبهُ لهوىً محرّم. فافسد هذه الخلال الحميدة. وجلب على اهل مملكتهِ بلآءً عظيماً * وذلك انّ هنري كان قد تزوّج باذن البابا بكاترينه دي اراغون امراة اخيهِ بعد وفاتهِ. وبعد هذا الزواج بثماني عشر سنة تصلّف هنري على كاترينه. وكلف ظلماً بامراةٍ اخرى. وكان هذا سبباً لسقوطهِ هو ومملكتهُ في الشقاق والفرقة عن كنيسة المسيح * وكان اسم تلك المراة التي عشقها حنّه بولن. فاراد ان يرفعها الى منزلة مَلِكة. واقتضى لذلك ان يفسخ زواجهُ الاوّل بكاترينه بحجّة انّهُ غير شرعيّ. فسعى في نوال ذلك من البابا. واجتهد وافرغ كلّ وسعهِ * فلمّا فحص البابا اقليميس السابع الحجج التي تعلّل بها هنري. رآها لا تثبت البتّة. فحكم ان لا وجه لإبطال زيجتهِ. وابى ان يفرق ما ازوجهُ الله. وتهدّد بالحرم لهنري ان لم يرجّع زوجتهُ الشرعيّة اليهِ * فلمّا راى هنري نفسهُ خائباً. ساقهُ العشق الى كبائر مخوفة جسيمة ذات أَضرار عظيمة. فانّهُ شرع ينكر رياسة الحبر الرومانيّ. وفي مجالس وزرائهِ الكبير اصدر حكماً بانّهُ هو الراس الاعظم لكنيسة انكلترّة. وهكذا انشقّ من بيعة الله الجامعة * واضطهد كلّ الذين ابوا ان يقبلوا حكم مجلس الوزرآء. وعاداهم وآذاهم كثيراً. وقتل من جملتهم

توما مورس صدر الدولة الاعظم وفشر اسقف روجستر. لانهما امتنعا ان يعترفا بانّ الملك هو راس الكنيسة. وقال احدهما للملك وهو صدر الدولة «لو كنتُ انا وحدي في هذا الراي. لكنتُ اشكّ فيهِ وافضّل راي مجلس وزرآء انكلترة. ولكنّ رايي هو راي الكنيسة كلّها التي هي مجلس جميع المسيحيّين» * وموت هذين الشخصين الجليلين فتح الباب لقتل كثيرين. وهنري الذي كان الى ذلك الوقت حليماً يكره القساوة. اصبح ملكاً قاسياً طاغياً غشوماً * وابطل هنري الرهبنات وضبط اديرتها. لانّ الرهبان ابوا ان يوافقوهُ في استعلائهِ على بيعة الله. فكأنّهُ لم يجعل نفسهُ راس الكنيسة الاّ ليكون لهُ حجّة لينهب اموالها ويسلّحها * وقضى اربهُ بتزوّج حنّه بولن التي كانت سبب كلّ هذه الشرور. ولكنّهُ مقتها بعد قليل واصلفها. فقطع راسها. وتزوّج بغيرها. ثمّ باربع أُخر * وظهرت في كلّ ذلك يد الله سبحانهُ حيث عاقبت ردآءة هذا الملك المتهتّك الشقيّ ونجاسة قلبهِ بتسلّط ردآءات اخرى عليهِ وتراكمها على قلبهِ. وكما قال الرسول سلّمهُ الى شهوات قلبهِ المنحرفة * ومات هنري متندّماً متأسّفاً. لأنّ ضميرهُ كان ينخسهُ ويمزّقهُ ايّ ممزّق * واعلم انّ هنري لم يتعرّض لاصول المعتقد ولو نادى بالشقاق ووقع في الغرور. الاّ انّ الشقاق لا يبعد ان يسوق اهلهُ الى الضلال. فالمملكة التي كانت قد اصيبت بالسماجات والشناعات التي ارتكبت فيها كما شرحنا. لم

معلّمون جديدون لم يعجبهم ما سنّهُ مقدّموهم. فادخلوا فيهِ تغييرات وتبديلات. وطالما اختلفت صُوَر ايمانهم وناقضت بعضها بعضاً. بل انّ المقدّمين انفسهم لم يثبتوا على رأي واحد. فنقضوا في اليوم ما بنوهُ في الامس * فقد صحّ فيهم ما قالهُ احد آباء الكنيسة وهو القدّيس هيلاريوس للاريوسيّين «انكّم تشبهون البنّائين الجاهلين الذين لا يرضون ابدًا عن شغلهم. فانكم لا تزالون تبنون وتنقضون. وعندكم الآن قوانين ايمان على عدد رؤوسكم. وتختلف مذاهبكم على اختلاف اشخاصكم. وفي كلّ سنة بل في كلّ شهر تسطرون قانونًا جديدًا لايمانكم. وكأنّكم تستحون من القانون السابق. فتحرّرون لكم قانونًا غيرهُ. ثمّ ترفضون هذا ايضًا» * وناهيك انّ تقلّب البرتستنتيّين كان امرًا شائعًا حتّى انّهم لم يمكنهم ان يمتنعوا من ان يتشكّوا منهُ هم نفسهم. فقد قال احد ايمّتهم «يا تبًّا لقومنا نحن البرتستنتيّين. فانّهم يضلّون في كلّ حين. ثمّ يفيقون على حالهم. فهم يجذبون الى كلّ ريح تعليم تارةً من جهةٍ وتارةً من جهةٍ اخرى * انّهُ يمكن ان نعرف ما هو مذهبهم اليوم في امر الدين. ولكن لا يمكن البتّة ان نعرف ما يكون غدًا * وفي ايّ بابٍ من الأبواب التي من سببها افترقت هذه الكنائس من كنيسة رومية اتّفقت واستوت في القول * افحص ابواب معتقدهم واحدًا واحدًا من الاوّل الى الآخر. وبالكدّ تجد بابًا واحدًا يتمسك بهِ احد ايمّتهم الاّ ويرفضهُ

واحد آخر من ايمتهم ويستسمجهُ ويكفرهُ» * ولا عجب ان يتيه ويضلّ من لا هادي لهُ ولا دليل. فانّ البرتستنت اذ تركوا الكنيسة التي جعلها المسيح هُدًى للضالّين وامر كلّ احد ان يطيعها . وصاروا مقطوعين لا مرشد لهم. تاهوا في السبل السقيمة التي ساقتهم اليها روح الطغيان. وحادوا عن الحقّ الذي هو واحد بتعوّجات شتّى متفرّقة * واما الكنيسة الكاثليكيّة فليس امرها كذلك. فانك ترى في سياستها وتدبيرها وتصرّفها ثباتًا دائمًا عجيبًا يدهش العقل. ولمّا كان المسيح نفسهُ قد اسّسها وهو الذي يسوسها بموجب وعودهِ. كانت على الدوام راسخة على تعليم واحد. وايمانها لا يتغيّر ابدًا. وكما اخذتهُ من مؤسّسها الالهيّ تحفظهُ خالصًا صافيًا كانّهُ وديعة عندها منهُ تعالى. ولا تدع احدًا يغيّر فيهِ ادنى تغيير *

الفصل السابع

في شقاق الانكليز (سنة ١٥٣٢)

انّ هوى الملوك والحكّام كثيرًا ما صار سبب الفتن الواقعة في ممالكهم ولاسيّما تغيير الديانة * ومن ذلك ما جرى في بلاد الانكليز. التي كان يومًا الايمان مجيدًا زاهيًا فيها. حتّى سُمّيت جزيرة القدّيسين * وكان مَلِكها هنري الثامن عند ظهور بدعة لوثار قد

ناصحين ورعيةٍ طائعة وسلام عامّ وكلّ ما يمكن الانسان والملك ان يتمنّياهُ» * يا لهُ من تعليم شريف. ويا للفرق العظيم بين هذا التعليم وبين تعليم البرتستنت *

الفصل السادس

في تقلّبات الكنائس البرتستنتيَّة

انّ من خواصّ الهراطقة ان يخاصم بعضهم بعضاً ويختلفوا في المعتقد * ولا بدع. فانّ الهرطقة انّما هي مذهبٌ اخترعهُ الانسان على عقلهِ. فكلّ احد من تبّاعها لهُ ان ينسب الى نفسهِ الحقّ بان يغيّر ذلك المذهب على موجب فهمهِ. وصاحب الهرطقة ليس لهُ حقّ الابتداع اكثر من تبّاعهِ * وقد رُؤيت هذه الانقسامات والاختلافات في المذهب في شيعة الاريوسيّين والبلاجيّين والمنوفسيتيّين وغيرهم. ولكنّها ظهرت اكثر ما يكون في البرتستنتيّين. فانّ لوثار وكلوين لم يمكنهما ان يحصرا تبّاعهما في الحدود التي حدّداها لهم * لا بل كان ممّا يناقض اساس هذه الشيعة واصول مذهبهما ان يُرسَم لها حدّ. فانّ المدّعين باصلاح الدين كذباً بشّروا الناس بحرّيّة انجيليّة لم يُسمَع بها قبلاً. واباحوا لكلّ احدٍ ان يصوغ لنفسهِ مذهباً بحسب عقلهِ. ولم يكن لهم بدّ ان يفعلوا هكذا. اذ رأَوهم تبّاعهم

قبلاً نبذوا مذهب الجمهور وصاغوا لنفسهم مذهباً جديداً * فهذه الحرّية لم يكن مندوحة من ان يتولّد منها بلبلة في المعتقد وتغيّرات دائمة في الدين * قال احد آباء الكنيسة وهو ونِقيس الليرنسيّ الشهير الذي عاش في القرن الخامس «انّ الذين يُسقِطون باباً واحداً من أبواب الايمان. لا يبعدون من ان يسقِطوا غيرهُ • وايّ شيءٍ يكون العاقبة الناتجة بلا محالة من هذا النوع من إصلاح الدين الاّ انّ الذين يباشرونهُ لا يستريحون ابداً. بل لا يزالون يغيّرون حتّى يفنون كلّ ما في الدين» * وهذا هو الذي حدث في الشيعة البرتستنتيّة • فانّهم بعدما طرحوا عنهم نير الطاعة الواجبة الكنيسة. لم يبقَ لهم مسند يستندون عليهِ ليتّفقوا في المعتقد. فانّ الكنيسة هي وحدها السند الكافي الشافي الذي يضبط العقول من ان تتقلّب وتناقض بعضها بعضاً. ويقيّدها جميعاً براي واحد * ولذلك فالمذهب البرتستنتيّ لكونهِ واقفاً على رأي الأفراد من دون قيد عامّ. وقع في تقلّبات كثيرة وتشكّل تشكّلات كثيرة. وانقسم الى شِيَع كثيرة. منها الانابتِستيّون اي المُعِيدون العماد. والكوكرِيّون اي الرجّافون. والارمانيّون. والغوماريّون. والاسقفيّون. والبوريتانيّون. والسوقنيانيّون • وكلٌّ من هذه الشيع لها معتقدٌ يناقض معتقد البقيّة. وهم لا يتّفقون الاّ في امر واحد اي في احتقار ايمان الاوّلين ورفض الطاعة لكلّ رئيس * وطالما رُؤي فيهم

الانجيل قد صار سبب فتنٍ كثيرة في كلّ وقت. فيقتضي الآن سفك دم لتمليكهِ» * ومن يقدر ان يعدّ جميع المساوئ والشرور الكثيرة التي اصابت اوروبا من سبب هذا التعليم المحرّك الفتن * فانهُ في بلاد جرمانيا تحشّد البرتستنتيون وتسلّحوا وجلبوا على بلاد الكاثليكيّين الخراب والفناء. ونهبوا الكنائس واحرقوها. وهدموا الاديرة. ودكّوا القصور والحصون. وذبحوا القسوس والرهبان * وجمعوا عسكرًا بلغ عددهُ اثنين وسبعين الفًا. وازعجوا المملكة. حتى انَّ كارلس الخامس الملك القيصريّ تكلّف كثيرًا ليردعهم ويطوّعهم * وفي فرنسا سفك تبّاع كلوين دمًا كثيرًا جدًّا. فانَّ مملكة فرنسا مزّقت بالفتن الدائمة والشقاقات الاهليّة والقتالات الشديدة مدّة مُلك ثلاثة ملوك. ولا يستطيع القارئُ ان يقرأ أخبار الكلوينيّين الّا ويقشعرّ جسمهُ ويجيش جاشهُ على المنكرات والفواحش التي ارتكبوها في فرنسا: وحسبنا ان نقول انّهم اخربوا عشرين الف كنيسة. وفي احدى الولايات فقط ذبحوا ستّة وخمسين ومايتي قسّيس واثني عشر وماية راهب. واحرقوا تسع ماية من مدينة وقرية * وكانوا لا يشفقون على الموتى انفسهم. وبلغت بهم الجسارة الى انّهم احتقروا ذخائر الشهداء والمعترفين بالمسيح وجعلوها رذالةً. فنزعوا جثثهم من محافظها بالقهر. واحرقوها وذرّوا رمادها في الهواء * ومن جملة ذلك انّهم في سنة ١٥٦٢ كسروا الصندوق

المحفوظة فيهِ جثّة القدّيس فرنسيس بولا٠ فلمّا راوها غير بالية. سحبوها في الازقّة. وشعلوا نارًا بخشب صليب كبير واحرقوها * وفي تلك السنة ايضًا فازوا بالصندوق الحاوي جثمان القدّيس بوناونتورا. وكان فيهِ ذهب وجواهر ثمينة. فاخذوا هذا المال. واحرقوا الجثمان والقوا رمادهُ في احد الانهر * فنقول ان كانت ديانة البرتستنت التي يدّعون بانّها إِصلاح الدين تبيح هذه المنكرات والفواحش. فهل يمكن ان يكون انجيلها انجيل المسيح * انّ المسيح حينما ارسل تلاميذهُ. قال لهم «ها انّي مرسلكم كالخراف بين الذئاب. كونوا حكماء كالحيّات وودعاء كالحمام» * نعم انّ انتشار الانجيل اقتضى سفك دم. الاّ انّ ذلك الدم لم يكن الاّ دم الخراف. وكان الذئاب يسفكونهُ * وامّا المؤمنون فلم يسفكوا دم احد ولا آذوا احدًا. فانّهم تعلّموا من الرسل ان يصطبروا على الاضطهاد والبلوى ويخضعوا لاوامر الملوك. ولم يعصوا ابدًا الحكّام والولاة. وكان يُسطين صاحب التبرئة يقول عن لسان جميعهم «انّ رجاءنا نحن ليس واقفًا على هذه الدنيا. فلا نقاوم ادنى مقاومةٍ الجلاّد الذي ياتي علينا» * وكانوا يقولون للقياصرة «نحن لا نسجد الاّ لالهٍ واحد. ولكنّنا في ما عدا ذلك نطيعكم بالسرور» * وكانوا يقولون ايضًا مع ترتليان «نحن المسيحيّين نطلب الى الله في صلاتنا ان ينعم على الملوك بطول العمر ومُلكٍ مستامنٍ وراحةٍ في الداخل وظفرٍ في الخارج ووزراء

قول المسيح هذا هو جسدي وهذا هو دمي وقيّد من معتقد العامّة الدائم الثابت في شان هذا السرّ. فجعل في كلامهِ عن حقيقة هذا السرّ تحبيرًا غريبًا. وكأنّهُ استحيا من تعليمهِ نفسهِ: وبهذا العمل ادّى شهادةً للحقّ فيما كان يروم ان يدحضهُ * ثمَّ انَّ كلوين جال بلادًا شتّى ليبثّ ضلالهُ. وفي الآخِرِ جعل مقامهُ في مدينة جنفرا [التي هي من مدن شُوَيْسِر واهلها فرنساويّون]. وكان اهلها قد طردوا اسقفهم وتمسّكوا ببدعة لوثار * وتقلّد كلوين هناك وظيفة واعظ ومعلّم في اللاهوت. وحاز فيها صيتًا وجاهًا. فاحبّ تلك المدينة. وجعلها مركز شيعتهِ. ومن هناك نفث سمّ الهرطقة الى بلاد فرنسا والى بلاد اخرى * وكان كلوين في جنفرا ذا باس وبطش. فلم يكن احد يجسر ان يقاومهُ. والاَّ فالويل لهُ * ومع كونهِ خلع الطاعة الواجبة عليهِ للكنيسة. لم يكن يحتمل ان يعصيهُ احد ويقول بغير قولهِ. وحيث كان يعلّم غيرهُ انّهُ لا ينبغي استماع قول الكنيسة والبابا. كان يقتضي من تبّاعهِ ان يركنوا الى قولهِ ويقبلوا منهُ كلّ ما اتى بهِ ولو راوهُ غير صوابيّ * ولمّا تجرّأ احد العلماء الماهرين (وكان اسمهُ سَرْوَت) ان يخالف معتقدهُ في امر الثالوث المقدَّس. امر فاحرقوهُ وهو حيٌّ في احدى ساحات جنفرا. ومع كلّ ذلك كان يلعن الدولة الفرنساويّة لانّها كانت تردع الهراطقة * وكان اذا لم يمكنهُ ان ينتقم بمثل هذا انتقام الحريق. تخلّق واحتدّ

سخطاً وتصرّف تصرّفاً لا يليق لانسانٍ ذي سترٍ فضلاً عن المدَّعي باصلاح الناس. ورمى أخصامهُ بالشتائم الغليظة المخجلة بقولهِ يا خنزير او يا حيوان او يا حمار او يا كلب او يا احمق او يا مجنون الى غير ذلك * فيا ما اغرب هذا الكلام في لسان رجل يدّعي بانهُ رسول الله * وحسبُنا ان نقابل هذا اللسان مع لسان بولس الرسول. فنرى الفرق العظيم الموجود بين رسل الله وبين رسل روح الهرطقة او الكفر *

الفصل الخامس

في جفاء البرتستنت وقساوتهم

انَّ الهرطقة من شانها ان تكون قاسية متمردة * كان الاريوسيّون في القرن الرابع قد اثاروا اعظم الفتن. وجفوا المومنين واقلقوهم ونغّصوهم واضطهدوهم * وكذلك فعل البرتستنت في الازمان المتأخّرة. فانّهم خالفوا شرائع الملوك واوامرهم مثلما عصوا على اوامر البابا وشريعة الكنيسة * وقال لوثار يوماً لملكهِ «ان كان يجوز لي ان احتقر اوامر الباباوات ورسوم المجامع رغبةً في نوال الحرّية للمسيحيين لا بل ان ادوسها تحت رجليَّ. افتظنّني اعتبر قولك يا ايها الملك واتّخذهُ شريعةً عليَّ» * وقال يوماً آخر «انَّ

المسخرة عن وجههِ . وشرع يهجو بامرّ الهجو البابا واهل المراتب السامية في الكنيسة . وقذف فيهم اشنع الشتائم مما لا ياتي بهِ الاّ من ذهب عقلهُ ووقع في الجنون * فلا يمكن الواحد ان يقرأ مؤلفاتهِ الاّ وينتصب فيهِ عرق الغضب ويشجيهِ الندب على ما تضمّنتهُ من الفكاهات الذميمة والتهكمات الوخيمة والخلاعات المغضبة والهزليّات الفاحشة المخجلة . وينذهل تعجّبًا من انّ شخصًا هذه صفتهُ امكنهُ ان يغوي عقول شعوب وامم وممالك * ولا بدع . فانّ الطمع وحبّ اللهو اللذين استعملهما لوثار لنوال اربهِ . لهما سطوة شديدة على قلب الانسان حتّى انهما يعميان البصائر ويضعان برقعًا على قوّة النفس الادراكيّة . فيقع الانسان في اغرب المنكرات التي يستهجنها العقل ويتيه في اقبح الاضاليل *

الفصل الرابع

في ضلالات كلوين (سنة ١٥٢٦)

لمّا تجاسر لوثار ان يبتدئ مصادمة اصول الدين المقبولة عند جمهور المؤمنين . غار منهُ عدّة من المبدعين المسمّين انفسهم مصلحي الدين . وحذوا حذوهُ في اختراع هرطقات جديدة * وكان من جماتهم كَلْوِين . وهو ثاني راسٍ للمبتدعين البرتستنتيّين * كان

كلوين في الاصل من ارض فرنسا. ودرس العلوم في باريس قاعدة تلك المملكة. ثمَّ تمَّم درسهُ في مدارس اخرى شهيرة في تلك البلاد * وكان من جملة معلّميهِ رجلٌ قد شرب من سمّ لوثار. وكان ذا شهرة * فاستقى منهُ كلوين الميل الى اختراع تعاليم جديدة. وبعد برهةٍ ابدى ما في قلبهِ * وكانت الامّة الفرنساويّة مهمومة بردع سيل الاضاليل الذي جرى من لدن لوثار وكاد يسري فيها. وملكها فرنسيس الاوّل ناكر اللوثاريّين كثيرًا وازعجهم * فخاف كلْوين ان يُقبَض عليهِ. ولجأ الى مدينة باسيلية من مدن شُوَيْسِر * وفي تلك المدينة الّف كتابهُ الذي عنوانهُ في الهداية المسيحيّة. وفيهِ ملخّص جميع تعاليمهِ * وكانت تعاليم كلوين لا تفرق كثيرًا عن تعاليم لوثار سوى مسألة الاوخرستيا. لا بل فانهُ في الجرآءة. فانهُ علّم انَّ الاختيار الانسانيّ قد بطل وفني بالخطيّة الاصليَّة. وانَّ الله خلق اكثر الناس ليهلكهم في جهنّم لسبب انهُ يحبّ ذلك لا لسبب ذنوبهم. وانكر شفاعة القدّيسين والمطهر والغفرانات. ونفى من كنيسة الله الحبر الاعظم والاساقفة والقسوس والاعياد والعبادة الجمهوريّة والرسوم الطقسيَّة التي هي آلةٌ قويَّة لرفع النفس الى السجود للباري تعالى * امَّا لوثار فانهُ احبّ حبًّا شديدًا ان يبطّل سرّ الاوخرستيا اي القربان المقدَّس. الَّا انّ الحقّ الواضح اضطرّهُ ان يقبلهُ. وامّا كلْوين فرفضهُ * غير أنَّهُ اضطرَّ من

الفصل الثالث

في ظهور هرطقة لوثار (سنة ١٥١٧)

انَّ الله يعين كنيستهُ كما راينا في ما سبق ويسليها في النوائب والضيقات التي تلمّ بها بلا انقطاع * واعظم البلايا التي فجعت الكنيسة منذ عهد بدعة اريوس واشدُّها هي هرطقة لوثار التي ظهرت في مبادئ القرن السادس عشر * وُلد لوثار في بلد من بلاد جرمانيا . وترهّب في رهبنة مار اوغسطين المعروفة برهبنة الصومعيّين او المتفرّدين . ثمَّ صار معلّماً في المدرسة الجامعة في احدى مدن جرمانيا * وكان لوثار ذا مهجة متوقّدة . يحتدّ غضباً بلا سبب ويَغرَض ويقلق . وكان يحبّ العليا والرفعة . فساءهُ انَّ لاون العاشر البابا سلّم وظيفة اشاعة الغفرانات لعمارة كنيسة مار بطرس الى رهبان مار عبد الاحد لا الى رهبانهِ * فابتدأ أَنْ يذمّ سوء التصرّف في اعطاء الغفرانات . ثمَّ اخذ يطعن في الغفرانات نفسها * ثمَّ انكر تعليم الكنيسة في الخطيَّة الاصليَّة وفي تبرير الانسان وفي الأسرار * فحرم لاون العاشر البابا هذه البدع . فنهض حينئذٍ لوثار على رياسة كرسي رومية نفسها وانكرها . ثمَّ شرع يتهوَّر من هوتة الى هوتة ومن مهلكة الى مهلكة . واحيا الغوايات المحرومة التي ضلّ بها الالبجيّون وويكلف والهوسيّون * وكتب في تبطيل المطهر واختيار

الانسان واستحقاق الأعمال الصالحة وغير ذلك * فهذه كانت مباديّ هذا الارتداد الاثميّ الذي بهِ ارتدّ ذلك الملحد من ايمان آبائهِ وسمَّاهُ الرِّفُرْماتيون اي الإِصلاح * واذ راى لوثار ان لابدّ لهُ من عونٍ وسندٍ لنشر اضاليلهِ . اغرى ملوك جرمانيا وحكّامها بضبط أملاك الكنائس واوقافها . وفتح بذلك سبيلاً واسعاً لقضاء مرامهِ وجذب اولئك العظماء الى حزبهِ * وعرضت للوثار فرصة مناسبة ليصيد قلب احد الولاة ويسترقّهُ . وهي انّ ذلك الوالي اراد ان يتزوَّج بامراةٍ ثانية وامراتهُ الشرعيّة حيّة . وعلم انهُ لا يعسر عليهِ نوال ذلك من المبدع الجديد . فالتجأ الى لوثار . فجمع لوثار علماء حزبهِ في محفل . وبمشورتهم اعطى اذناً لذلك الوالي ان يكون لهُ زوجتان في وقت واحد على غرم نهي السيّد المسيح * ثمَّ انَّ لوثار لكي يكثر عدد تبّاعهِ . اخذ يهجو عزبيّة القسوس والرهبان . وصار قدوةً في ذلك هو بنفسهِ . فانهُ مع كونهِ قسيساً وراهباً تزوَّج براهبة شابّة كان قد اخرجها من ديرها ليطغيها * فلا غرو انَّ هذه التعاليم التي تملّق اهواء الانسان واميالهُ السيّئة وجدت تبّاعاً كثيرين في قليل من الزمان في البلد الذي نشأت فيهِ . ثمّ انتشرت بسرعة الى البلاد المجاورة . فصار للوثار امم كثيرة تتبعهُ في مذهبهِ الجديد الضلاليّ . وسمّى تبّاعهُ انفسهم برتستنتا اي مستنكرين كانّهم ينكرون على الكنيسة تعاليمها * فلمّا رأى لوثار انّ تحت يدهِ حزباً قوياً . رفع

في اوقات شتّى . فافتكر ملك الاسبانيّين وهو فردينَنْد الخامس ان يسترجع منهم البلاد . وفي سنة ١٤٨٩ حاربهم واخذ منهم معظم مدنهم * ثمّ حاصر مدينة غرناطة بدون قتال حتّى خار اهلها من الجوع . وبعد حصار ثمانية اشهر سلّموا . ففتح فردينند المدينة وامتلكها . وهكذا انقرضت انقراضاً تامّاً دولة العرب الاسلاميّة من بلاد اسبانيا بعد ما دامت ثمانية قرون ونيفاً * ولسبب فتح مدينة غرناطة استحقّ فردينند الملك وخلفاؤُهُ ان يُنعَتوا بنعت الملوك الكاثليكيّين رفعةً وفخراً * وتعاهد فردينَنْد مع الأَسلام ان لا يؤْذيهم ولا يتعرّض لهم في امر دينهم وغير ذلك . بل انّ الملك وإِسابلّة زوجتهُ وضعا تحت حمايتهما الأَسلام الذين يحبّون ان يبقوا في اسبانيا . وعاهداهم ان يعاملاهم معاملة سائر رعيّتهم * الاّ انّ العرب ولا سيّما امراءَهم ووجوههم احبّ اكثرهم ان يهجروا ارض اسبانيا بعد ما أُخذ منهم المُلك . وانتقلوا الى ارض افريقية . وفي سنة ١٥٠٠ تنصّر البقيّة منهم ولا سيّما اهل مدينة غرناطة وكانوا نحو مائة الف نفس . حتّى انّك لا تجد الآن في تلك البلاد من الاسلاميّة ادنى اثر سوى أَلفاظ كثيرة عربيّة في اسماء بلادهم وفي لغتهم *

وفي ذلك الزمان ارتفع شان الديانة النصرانيّة في الخصوص على يد الاسبانيّين بوجود العالم الجديد اي قارّة اميركا التي كانت مجهولة الى ذلك اليوم وبإِدخال نور الانجيل بين اهلها * وذلك

انهُ كان رجلٌ من بلد جينوا من أعمال ايطاليا اسمهُ خرستفور كلمبو قد افتكر في انهُ لا بدّ من وجود خلقٍ وراءَ البحر المحيط. فعرض على ملوك اوروبا ان يعينوهُ في كشف تلك الاراضي. ولكن لم يركن الى قولهِ الاّ فرديننذ ملك اسبانيا وزوجتهُ ايسابلّة. فجهّزاهُ في سنة ١٤٩٢ بثلاث سفن عظيمة ليباشر السفر الى نحو تلك الاراضي المجهولة * وبعد سير ثلاثة وثلاثين يوماً في ذلك البحر المحيط العظيم المخوف في هول وأخطار كثيرة. بلغ خرستفور كلمبو الى اوّل جزيرة عُرفت من جزائر قارّة العالم الجديد (التي سُمّيت ظلماً اميركا باسم غيرهِ تبعهُ بعد ذلك في سير تلك البحار وجسّ تلك الاراضي) * فاستولت الدولة الاسبانيّة على جميع الاراضي التي وُجدت اوّلاً من اميركا. وفي سنة ١٤٩٣ بدأ المنذرون بدين المسيح يقصدونها وينذرون اهلها. فانتشر في قليل من الزمان نور الانجيل في تلك الاراضي بين تلك الأقوام المتوحّشة. وتهذّبت بهِ أخلاقهم وتحسّنت احوالهم. وقام في تلك البلاد كنائس عامرة تحاكي كنائس اوروبا في النظام والحسن والرونق] *

الفصل الثاني

في هجوم الترك على ارض ايطاليا (سنة ١٤٨٠) وخروج العرب من اسبانيا (سنة ١٤٩٠) ووجدان العالم الجديد (سنة ١٤٩٢)

[لمَّا رأى محمَّد الفاتح سلطان الترك الظفر الذي نالهُ على مملكة الروم باخذهِ قاعدتها. لم يزل يحارب بقيَّة مدنها حتَّى فتح اكثرها. وسار على الممالك المجاورة. وحاربها واجلب عليها الرعب والدمار. وضبط بلاداً كثيرة * ثمَّ ساقهُ طمع المجد الى ان يشتهي الاستيلاء على ارض ايطاليا لا بل على مدينة رومية قاعدتها وقاعدة العالم المسيحيّ كلّهِ * فأرسل احد قوّاد جيوشهِ اسمهُ احمد باشا. كان قد اشتهر في الحروب السابقة. فسار احمد باشا في السفن حتَّى بلغ اسكلةً من مدن ايطاليا اسمها أُترَنْت في نواحيها الجنوبيّة. فحاصرها مدّة سبعة عشر يوماً وفتحها. وقتل بحدّ السيف جميع سكّانها. ولم يشفق على الشيوخ والنسوان. واستاسر منهم الصبيان. وارتكب فواحش أُخر كثيرة يطول شرحها * وبعد ذلك سار احمد على باقي ساحل ايطاليا المسمّى الادرياتيكيّ. وضبط بعض الاماكن حتّى بلغ الى مدينة لوريت الشهيرة بالنذور الفاخرة الثمينة التي فيها وقفاً لبيت سيّدتنا مريم العذراء الموجود فيها * فارتعب اهالي ايطاليا كلّها. واخذتهم الحيرة وانكسار القلب. وصاروا

يحصّنون بلادهم حذرًا من الترك. الاّ انّ الله تعالى بعنايتهِ دبّر ان يدبر احمد باشا بسفنهِ من غير فائدة * وبعد رجوعهِ بقليل. مات السلطان محمّد الفاتح سنة ١٤٨١ اذ كان متأهّبًا ان يحاصر جزيرة رودس ويبعث عساكر من جديد على ايطاليا * فاستراح اهل اوروبا قليلاً وتنفّسوا من هلعهم. ولاسيما انّ ابنَيْ محمّد بيازيد واخاهُ تنازعا السلطنة زمانًا. واشتغلا عن محاربة الامم الاجنبيّة * ثمّ انتصر بيازيد على اخيهِ. وضبط زمام الملك. واما اخوهُ فوقع في يد الافرنج. فاخذوهُ الى فرنسا. ثمّ استدعاهُ انّوكنتيوس الثامن البابا بنيّة ان يشاورهُ في امر ردع شوكة اخيهِ عن النصارى * فلمّا سمع بيازيد بذلك. عالج في الاوّل ان يدسّ من يسمّ اخاهُ والبابا. واذ خاب في ذلك. ارسل سفارةً الى البابا بهدايا نفيسة وجواهر ثمينة. وبذلك حصل نوع من الصلح بين الجانبين *

واعلم انّهُ في نحو ذلك الزمان الذي فيهِ الديانة الاسلاميّة تسلّطت بيد الترك العثمانيّين على بلاد النصارى وقرضت دولتهم الروميّة وارعبت الممالك الافرنجيّة. تظاهرت النصرانيّة على الاسلام في قسم من بلاد اسبانيا يقال لهُ الاندلس كان بيد العرب. وكانت قاعدة مملكتهم غرناطة. وكانت مدينة عظيمة عامرة ذات محاسن * وفي نحو تلك الازمان سئم الاسبانيّون وجود العرب في جوارهم واستملاكهم احسن بلادهم. وكان العرب قد آذوا النصارى كثيرًا

الصور المقدَّسة وذخائر القدّيسين وعلامة فدائنا. الى غير ذلك من الفواحش التي يقشعرّ الجسم لذكرها * ولمّا انقضت الأيّام الثلاثة. امر السلطان بان ينادي المنادون بالامان. واخذ الناس يتراجعون من الوهلة العظيمة التي داهمتهم. وحصل النظام قليلاً قليلاً] * تامَّل في العقوبة الجسيمة التي بها عاقب الله الامّة اليونانيَّة لإصرارها على الشقاق من البيعة الجامعة * انهُ تعالى كان قد اصطبر عليهم متمهّلاً. فلمّا لم يستفيدوا من المهلة التي اعطاهم أيَّاها ليرجعوا الى حظيرة كنيستهِ الواحدة. واحتقروا كلّ التنبيهات والنصائح. استحقّوا ان يقعوا تحت يد الانتقام الالهيّ. وحيث انَّهم لم يقبلوا ان يخضعوا لسلطنة خليفة بطرس الرسول. وقعوا تحت رقّ اعداء الصليب. وذاقوا منهم كلّ المرائر والاذيَّات والقهر والذلّ * ولا غرو. فانَّ كلّ مملكة تقوم على مملكة يسوع المسيح تحلّ عليها اللعنة الالهيَّة. ولا تبعد من ان تنقرض عاجلاً *

[وبعد ما تملّك السلطان محمّد الفاتح على القسطنطينيّة. وجّه ألحاظهُ نحو الصنائع وفنون المعارف والتجارة. وشرع يبني ويعمّر المنازل الشاهقة والقصور الفاخرة. وعمل كلّ وسعهِ ليطيّب خواطر المسيحيّين. فاذ كانت كنيسة قسطنطينيّة فارغة من بطريرك. امر النصارى ان ينصبوا لهم بطريركًا كعادتهم السابقة * فاجتمع مَن امكن من الاساقفة واقليرس المدينة ووجوه الجماعة. واختاروا

بطريركاً سُمّي جناديوس . وكان رجلاً صالحاً فاضلاً محبّاً للاتفاق والخضوع للكنيسة الرومانيَّة . واراد السلطان ان يقضي رسم تجليس البطريرك كالعادة الجارية في عهد ملوك الروم * فلمّا سيم جناديوس . ذهب الى قصر السلطان . وكان السلطان قد زيَّن القصر وزخرفهُ فوق العادة . فسلّمهُ عكّازاً من ذهب مرصّعاً بالجواهر والدرر الكريمة قائلاً « الله العليّ الذي اعطاني المُلك جعلك بطريركاً على رومية الجديدة (اي قسطنطينيّة) » * ثمَّ اركبهُ على جوادٍ من خيلهِ . وامر عظماءهُ ووزراءهُ ان يشيّعوهُ مشاةً . حتّى اوصلوهُ الى كنيسة الاثني عشر رسولاً . وجُعلت هذه الكنيسة كرسيّةً بدل كنيسة صوفيا التي ضبطها السلطان وجعلها جامعاً * والّف جناديوس كتباً كثيرة . وفيها اجتهد ان يدعو الروم بني جنسهِ الى الرعوى والطاعة للكنيسة الكاثليكيَّة * اعلم انَّ الافرنج انتفعوا كثيراً من هذه نكبة اليونان . فانَّ كثيرين من الامّة اليونانيّة نجوا من هول الترك والتجأوا الى بلاد الافرنج . وجلبوا معهم العلوم والمعارف وخزائن كتب الاوّلين . ولاسيَّما انَّهُ قبل ذلك الزمان بقليل كانت صناعة طبع الكتب قد استُنبطت وشاعت في بلاد اوروبا] *



الاّ قوّةٌ يسيرة . فانهُ لم يكن فيها الاّ خمسة آلاف من الروم والفان من الغرباء استأجرهم ملك الروم قسطنطين فاليولوغ وسلّم قيادتهم بيد رئيس من مدينة جينوا من اعمال ايطاليا اسمهُ يسطنيان كان ذا مهارة وخبرة كثيرة * وكان الملك قد حصّن المدينة بكلّ ما اتى في يدهِ قبل ان قدم الترك عليها * واذ علم السلطان انَّ للمدينة سورَين . كان قد جهَّز لحصارها اربعة عشر مدفعاً كبيرة الجسم جدًّا . كان بعضها يقذف حجارةً وزن كلّ منها نحو خمسين رطلاً * فكانت هذه المدافع الهائلة تقذف النار في المدينة نهارًا وليلاً . وضربتها ضربًا قويًّا . حتَّى انهُ في زمان قليل فتحت في السور ثلمات واسعة * وكان اهل المدينة يدافعون عن انفسهم بكلّ طاقتهم . ويجتهدون ان يرمّوا الثلمات على قدر امكانهم . ويخرجون احيانًا على العدوّ فيقتلون افواجًا منهم ويحرقون مصنوعاتهم بالنار * فحصل الترك من ذلك في مشقَّة وضيق عظيم . وكادوا يدبرون وينكفّون عن الحصار . فشجّعهم السلطان محمَّد ووعدهم بان يترك لهم ان ينهبوا المدينة مدَّة ثلاثة ايّام . حتّى اقنعهم ان يهجموا على المدينة هجمًا شديدًا برًّا وبحرًا * فدافع الروم عن المدينة بكلّ حيلتهم . واتوا بالنجابة والحماسة . الاّ انَّ قائدهم يسطنيان اذ اصابهُ جرح زهيد . صغرت نفسهُ فخلّى العسكر وانصرف بلئامةٍ جلبت على راسهِ اللوم من كلّ احد والاسف الدائم * فلمّا راى عسكر الروم قائدهم قد

اجفل . ارتخت عزائمهم وذلّوا . وجعلوا يولّون منهزمين * فوقع عليهم الترك بشدّةٍ وعزمٍ من الثرعة المفتوحة . ولحقوهم وقتلوا معظمهم * وكان قسطنطين الملك قد لازم الثرعة ودافع بقوّة وسطوة . الاّ انّهُ طاح مع المزدحمين وباد معهم * وبعد موت الملك فضا السبيل للترك . فدخلوا المدينة وضبطوها وامتلكوها * وامر السلطان ان يفتّشوا على جثّة الملك . فدفنوها بإكرام وإجلال * وكان قسطنطين هذا آخر ملوك الروم الشرقيّين . وبهِ انقرضت تلك المملكة الروميّة بعد حصار سبعة وخمسين يوماً . وكانت هذه دولة الروم القسطنطينيّة قد دامت ثلاثاً وعشرين ومايةً والف سنة من يوم انشائها على يد قسطنطين الملك الكبير سنة ٣٣٠ * وممّا يستحقّ الذكر انّ قسطنطين كان اسم اوّل ملوكها واسم آخرهم * ولمّا دخل الترك مدينة قسطنطينيّة . قتلوا من اهلها ما ينيف على الاربعين الفاً . واستاسروا منهم ستّين الفاً واسترقّوهم عبيداً . وكما كان السلطان قد وعدهم . هجموا على البيوت والمنازل ونهبوها مدّة ثلاثة ايّام . وارتكبوا فيها كلّ نوع من المنكرات والمساوئ سوى الحريق . فانّ السلطان كان قد نهاهم عنهُ نهياً شديداً * فقتلوا وذبحوا وارتكبوا من القبائح والفواحش ما لا يطاوع اللسان ذكرهُ . ونجّسوا الكنائس والمعابد . ونبشوا قبور الملوك القياصرة وميناثات الشهداء . ورذّلوا قدس الاقداس . واحتقروا

الاّ انَّ هذه الامم كلّها لم تثبت زمانًا كثيرًا على هذا العهد . بخلاف الموارنة والنساطرة الذين في جزيرة قبرس * فانَّهُ لمّا كان البابا اوجانيوس الرابع قد حوَّل المجمع من فلورنسا الى رومية . ارسل الى جزيرة قبرس سنة ١٤٤٥ قاصدًا ليدعو الهراطقة والمشاقّين الذين فيها الى طاعة الكنيسة الرومانيّة . فنال ذلك القاصد ان يقنع طيمثاوس مطران النساطرة بان يرفض ضلال النسطوريَّة ويكتب الى اوجانيوس صورة ايمانهِ . وايليا اسقف الموارنة بان يقتبل الطاعة للكنيسة الرومانيَّة ويرسل الى الكرسي الرومانيّ رسولاً في هذا الشان ليقرّر بين يدي البابا والمجمع خضوعهُ وقبولهُ ايمان الكنيسة الكاثليكيَّة * ففرح الحبر الاعظم ومع اهل المجمع بذلك غاية الفرح . وفي المجمع نفسهِ اصدر منشورًا فيهِ اقتبل اولئك النساطرة والموارنة في حظيرة الكنيسة الكاثليكيّة . وامر ان لا يعود احدٌ من ذلك اليوم يسمّيهم هراطقة . وان يسمَّى اولئك النساطرة كلدانًا ويُطرَح عنهم اسم النسطوريّة * وثبت من ذلك اليوم هذا اسم الكلدان على النساطرة الراجعين الى الكنيسة الرومانيّة حيثما كانوا . الاّ انّ كلدان قبرس انحازوا الى طقس اللاتين مع اليعاقبة الذين كانوا فيها . ولم يبقَ من هٰذين الطقسين اثرٌ في تلك الجزيرة *



الباب السادس

في اخبار الكنيسة من فتح قسطنطينيّة الى شقاق ينسانيوس

الفصل الاوّل

في فتح السلطان محمد الفاتح مدينة قسطنطينية (سنة ١٤٥٣)

[انّ العصيان الذي بهِ طائفة اليونان او الروم تمرّدت على كنيسة الله الجامعة بانفصالها منها ومخالفة العهود التي ضربتها معها اكثر من مرّةٍ. كانت عاقبتهُ هذه النكبة العظيمة الفاجعة التي لا يقدر بشرٌ ان يبكيها ويندبها ويعدّد مساوئها. وهي انقراض الدولة الروميّة بفتح مدينة قسطنطينيّة قاعدتها * وذلك انّ الترك العثمانيّين كانوا قد تقوّوا وتملّكوا على كلّ بلاد اسيا الصغرى (وهي اناضول) وعلى بلاد اخرى كثيرة ممّا يجاور مدينة القسطنطينيّة. حتّى انّ سلطانهم محمّد الثاني وهو المعروف بالفاتح قصد سنة ١٤٥٣ ان يفتح مدينة القسطنطينيّة نفسها. فاتاها بجيش عرمرم يبلغ عددهُ ثلاثماية الف وبماية سفينة حربيّة وسفن اخرى صغيرة كثيرة. وحاصرها حصارًا شديدًا برًّا وبحرًا * ولم يكن في المدينة للمدافعة

يزل مقيماً في مدينة فلورنسا مع الاساقفة بصفة مجمع * وكان في غضون المجمع قد وافى الى البابا اربعة رسلٍ من قبل طائفة الارمن. ارسلهم جاثليقهم اذ بلغهُ خبر افتتاح المجمع لمعالجة صلح الكنيسة الشرقيّة مع الغربيّة واتّحادهما. وامرهم ان يشرحوا المسائل والمشاكل التي تعرض لهم وياخذوا حلّها. ويقوموا مقامهُ في امضاء تحديدات المجمع * فاعتنى اوجانيوس البابا بامر طائفة الارمن بعد ذهاب اليونانييّن من المجمع. وسطر لهم مرسوماً شهيرًا يسمّى مرسوم الارمن. فيهِ الحبر الاعظم شرح معتقد الكنيسة الرومانيّة وعوائدها من خصوص سبعة أَسرار البيعة * وكان البابا قد دعا الى المجمع القبط اي يعاقبة مصر ايضاً. وارسل اليهم رسلاً * فارسل بطريركهم الى المجمع اندراوس رئيس دير مار انطون. وامرهُ ان يتّخذ تعليم الكنيسة الرومانيّة ويرجع بهِ الى ارضهِ ليتمسّك بهِ اهلها. وسلّمهُ كتاباً الى البابا فيهِ يعظّمهُ ويجلّهُ ويصفهُ باسنى الصفات * فلمّا شُرحت للرسول القبطيّ اصول معتقد الكنيسة الرومانيّة. اقتبلها بكلّ سرور باسمهِ وباسم بطريركهِ وباسم طائفة القبط كلّها. وضُرب عهد بينهُ وبين الكرسيّ الرومانيّ بانضمام طائفة القبط (وسمّوا ثَمَّ يعاقبة) الى الكنيسة الرومانيّة * والبائن انَّ هذا العهد لم يقف عليهِ القبط. فانّهم بعد قليل ظهروا منفصلين من طاعة الكنيسة الكاثليكيّة. فاحتاجوا ان يحرّضهم الأَحبار الرومانيّون على الصلح مرّةً بعد مرّة

كما سنرى * ومن الأقوام المشرقيّين الذين احبّوا الاتفاق مع الكنيسة الرومانيّة في عهد المجمع الفلورنتيني كانت طائفة الحبش الذين يسكنون النواحي الجنوبيّة من ارض افريقيـة. وهم نصارى تابعون البطريركيّة الاسكندريّة القبطيّة. ولهم عوائد غير مستقيمة خاصّة بهم. منها انهّم يختتنون ذكورًا واناثًا كالعرب الجاهليّة. ومنها انّهم يتعمّدون كلّهم في كلّ سنة في عيد الدنح. ومنها أنّهم يبيحون الطلاق لأسباب خفيفة ايضًا * فكتب ملك هذه طائفة الحبش الى البابا اوجانيوس الرابع رسالة الخضوع والطاعة * وكتب ايضًا فيلوثاوس بطريرك الاسكندريّة الملكيّ رسالةً الى الحبر الاعظم المذكور. فيها يعظّمهُ ويبجّلهُ غاية ما يكون. ويسمّيهِ راس الكنائس كلّها وخليفة بطرس الرسول وصخرةً غير متزعزعة للايمان. ثمَّ قبِل الاتّحاد الذي صار في المجمع الفلورنتيني. وجعل الذين لا يقبلونهُ هراطقة * وكان احد بطاركة الملّة اليعقوبيّة (التي بعد وفاة ابن العبري كانت قد انقسمت بيد ثلاثة بطاركة) وهو اغناطيوس بهنام الهدليّ بطريرك ماردين قد أرسل الى البابا اوجانيوس سفيرًا عبد الله مطران الرها ليقرّر بين يديهِ خضوعهُ وتسليمهُ لايمان الكنيسة الرومانيَّة باسمهِ وباسم طائفتهِ * ففرح البابا بهِ : وفي براءَة اصدرها سنة ١٤٤٤ اثنى عليهِ ومدح الطائفة اليعقوبيّة التي ارسلتهُ. وشرح ما فرض عليهم ان يقتبلوهُ من عقيدة الكنيسة الكاثليكيّة *

ولو لم ترافقها دعوة روح القدس. فانَّ اليونانيين والشرقيين قاطبةً اعتقدوا انَّ دعوة روح القدس التي تكون بعد الكلام الجوهريّ هي التي بها يتحوّل الخبز والخمر الى جسد المسيح ودمهِ. واللاتينيّون اعتقدوا انَّ ذلك يكون بالكلام الجوهريّ فقط * ووقع الإجماع ايضاً في الاعتراف برياسة البابا بعد مجادلة يسيرة * ثمَّ انّهُ في الجلسة العاشرة التي عُقدت في ٦ تموز سنة ١٤٣٩ قُرئ مرسوم المجمع في اليونانيَّة واللاتينيَّة. وامضاهُ من اللاتين البابا اوجانيوس الرابع وثمانية كردنالات وبطريركان وثمانية مطارين وسبعة واربعون اسقفاً وخمسة واربعون رئيس دير. ومن اليونان يوحنا فاليولوغ الملك ونائبا بطريرك الاسكندريّة (لانَّ بطريرك قسطنطينيّة كان قد مات في زمان المجمع) ومطران المسقوف نيابةً عن بطريرك انطاكية (فانَّ نائبهُ الآخر وهو مرقس الافسسي اصرَّ معانداً في الشقاق) ونائب بطريرك اورشليم ونحو عشرين من مطارين واساقفة وعشرة من روساء اديرة وقسوس ذوي مرتبة * وقبل ان ينصرف اليونانيّون من المجمع فاتحهم اللاتينيّون في مسائل شتَّى تتعلّق بطقسهم. وشرحوا لهم حقيقة معتقد الكنيسة في امر سرّ التثبيت وصحَّة القدّاس بالخبز الخمير والفطير وعدم انفكاك عقد الزواج] * ولمّا رحل اليونانيّون من مدينة فلورنسا ورجعوا الى ديارهم. وجدوا اهل مدينة قسطنطينيَّة من اقليرسها الى عامّتها

متذمرين من الصلح الذي صار. وكانوا يشتمون اولئك الذين امضوهُ ويعيّرونهم. ويصفون مرقس الافسسي ويعظّمونهُ لانّهُ لم يوافقهم هو وحده * فخاف اولئك الذين كانوا قد حضروا المجمع الفلورنتيني من غيظ الجماعات عليهم. فنكثوا ما كانوا قد عقدوهُ من الصلح والميثاق. واحتيا الشقاق من جديدٍ وتملّك من دون أن يزول * وبعد سنين اذ تامّل البابا نقولاوس الخامس الذي كان ذا تقوى وصلاح في خيبوبة العلاجات والمشقّات الكثيرة التي كانت قد صُرفت لردّ اليونانيّين من الشقاق. كتب اليهم رسالةً. فيها بعدما ذكر التجهيزات التي كان الترك يجهّزونها لياتوا عليهم. نصحهم ان يفتحوا عيونهم ويروا حال عنادهم المولم. وقال لهم «طالما ارذل اليونانيّون طول روح الله بإِصرارهم على الشقاق * والله عزّ وجلّ بموجب المَثل المضروب في الانجيل يصطبر على التينة ليرى هل تحمل ثمرًا بعدما غُرست بكثيرٍ من الاهتمام. فان كانت الشجرة في مهلة ثلاث السنين التي يمهلها الله فيها ايضًا لا تاتي بثمرٍ. تُقلَع الشجرة من اصلها. ويهجم على اليونان قومٌ هم آلة الله وخدّام عدلهِ الالهي. يرسلهم ليجروا الحكم الذي برز منهُ تعالى في السماء» * فهذه نبوّةً قد صحّت في اوانها كما سنرى في الفصل الآتي *

[اعلم انّ البابا اوجانيوس الرابع بعد ذهاب اليونانيّين لم

اليونانيين * وجرت المفاوضة والمباحثة زمانًا طويلاً في الأبواب التي كان اللاتين ينكرونها على اليونان او اليونان على اللاتين * [والذين اشتهروا اكثر من غيرهم في البلاغة والفصاحة من اليونان كانوا بسّاريون مطران نيقية ومرقس مطران افسس وميخائيل بلسمون الحافظ الكبير لخزانة كتب الكنيسة القسطنطينيّة * وكان نقولا سَقُنْدِين اللاتينيّ يكتب في اللاتينيّة ما كان الروم يقولونهُ في اليونانيّة. فانهُ كان خبيرًا كمال الخبرة باللغتين * واوّل باب فتحوهُ للمجادلة كان امر انبثاق روح القدس وزيادة اللاتين على قانون الايمان لفظة والابن . وكان ذلك اعظم أسباب افتراق اليونان من اللاتين * فبرهن الآباء اللاتينيّون انَّ لفظة والابن لم تكن تغييرًا في معنى قانون الايمان ولا زيادةً عليهِ . بل هي تفسير لما فيهِ مستندٌ على نصّ الانجيل الطاهر وشهادات الآباء والملافنة * وكان اليونانيّون يعترضون على اللاتينيّين الحدّ الذي وضعهُ مجمع افسس بان لا يتجاسر احد من الناس ان يؤلّف قانون ايمان جديد ولا ان يغيّر ذلك الذي كان قد سُنَّ. فكان اللاتينيّون يردّون هذا الاعتراض بقولهم. انَّ اللفظة المبحوث عنها لمّا كانت تفسيرًا لا زيادة ولا تغييرًا . جاز ادخالها في قانون الايمان . ولاسيَّما حيث انَّ ذلك جرى برضى الكنيسة وامرها لا بهوى احد الأفراد * وكما جاز لمجمع نيقية ان يشرحوا قانون الايمان الذي الّفهُ الرسل

ويفسّروهُ بكلمات كثيرة ادخلوها فيهِ. ولمجمع قسطنطينيّة ان يشرحوا قانون ايمان نيقيه ويوسّعوهُ. كذلك جاز للكنيسة الجامعة التي هي واحدة بالسلطنة والقوَّة والاستناد على مواعيد المسيح وايد روح القدس في كلّ الازمان ان تفسّر معنى الانبثاق بلفظة واحدة * وعلى كلّ حال لمّا كانت رسوم البيعة وقوانينها التي لا تتعلّق بالايمان لا باس ان تغيّرها البيعة نفسها وتوسّعها او تقتصرها او تنسخها كما نرى جاري العادة في امور كثيرة وكان رسم المجمع الافسسي تهذيبيًّا لا ايمانيًّا. جاز للكنيسة ان تنسخهُ وتبطّلهُ * ومن الذين اقتنعوا من الاوّل واحبّوا الصلح مع اللاتين كان بطريرك قسطنطينيّة. ثمَّ الملك. وبعد قليل اتّفق جميع الآباء اليونانيّين واجمعوا على قبول انبثاق روح القدس من الآب والابن ما عدا مرقس مطران افسس. الاَّ انهم اشترطوا ان لا يُجبَروا على ادخال لفظة الابن في قانون الايمان * ثمَّ فُتح البحث عن ابواب اخرى اي رياسة الحبر الرومانيّ ومتعلّقات القدَّاس والمطهر * امَّا البابان الاخيران اي المطهر والقدَّاس فوقع الاتّفاق فيهما بلا صعوبة. الاَّ انَّ اليونان اشترطوا ان لا يُحدَّد من ايّ جنسٍ هي عذابات المطهر اذ لم يكن قد جاء فيها التسليم الأَبويّ. واشترط اللاتين على اليونان ان يعترفوا بانّ تقديس الخبز والخمر وتحويلها الى جسد المسيح ودمهِ يكون في الكلمات التي تسمّيها العامة الكلام الجوهريّ

قلاون ملك ابنهُ السلطان الخليل. فحلّ على مدينة عكّة وحاصرها سنة ١٢٩١ . وتدبّر اهل المدينة فارسلوا الى قبرس شيوخهم وضعفاءهم ونسوانهم واطفالهم وكنوزهم وتحفهم القدسيّة . ودافعوا دفاعًا شديدًا. الأ انهم لم يمكنهم ان يردّوا قوّة العدوّ. وبعد خمسة اسابيع فتحها هجمًا. فهرب اكثر المسيحيّين الذين فيها بالسفن. ومن الجملة غرق نقولا بطريرك اورشليم اللاتيني الاخير * فدخل الاسلام المدينة. وقتلوا في الأوّل خلقًا كثيرًا من النصارى وسبوا بقيّتهم * وكان في المدينة دير فيهِ راهبات. فلمّا سمعت رئيستهنَّ بدخول الأسلام في المدينة. جمعتهنَّ وقالت لهنَّ «اننا في خطر عظيم. فافعلن ما ترينني افعل لننجو كلّنا من الخطر». قالت هذا وجدعت انفها بالموسى. ففعل مثلها سائر الراهبات. وشوّهن وجوههنَّ تشويهًا مريعًا * فلمّا دخل الأسلام الدير ورأوهنَّ على هذه الحال. قتلوهنَّ بالسيف الى آخرهنَّ. وقتلوا ايضًا الرهبان الفرنسيسيّين الذين كانوا في المدينة * وفي ذلك اليوم عينهِ سلّمت مدينة صور ومدينة بيروت للعدوّ. وهرب كثير من نصارى اهلها في السفن * وهكذا انقرضت في بلاد المشرق المملكة الافرنجيَّة التي أنشأها الصليبيّون وعُدمت من اصلها. ولم يمكن استرجاعها الى اليوم. وانقطعت منذ ذلك الحين الجهادات الصليبيّة في بلاد المشرق * وممَّا يُذكَر في تلك الوقائع انَّهُ لمّا فتح الاسلام مدينة

انطاكية. هرب كثير من الافرنج الى جبال لبنان. فاغاثهم بطريرك الموارنة وآواهم * فارسل البابا الكسندر الرابع وشكر ذلك البطريرك. وجزاءً لصنيعهِ سمّاهُ بطريركًا انطاكيًّا] *



الفصل الثاني والثلاثون

في معالجة صلح اليونان وفي المجمع الفلورنتيني (سنة ١٤٣٧)

انّ الأَحبار الرومانيّين منذ وقع اليونان او هم الروم في الشقاق كانوا قد بذلوا كلّ وسعهم ليدعوهم الى الصلح. ولكن ذهب تعبهم كلّهُ باطلاً. الى انهُ في سنة ١٤٣٧ حدثت معاطيات بين يوحنا فاليولوغ ملك الروم والبابا اوجانيوس الرابع في امر الصلح. وصار الاتّفاق بينهما ان يُعقَد مجمعٌ مسكونيّ مؤلَّف من لاتين ويونان * وبناءً على هذا الاتّفاق فتح البابا نفسهُ المجمع في مدينة فرّارا من أَعمال ايطاليا. وحضر في المجمع من اليونان بطريرك قسطنطينية وعشرون مطرانًا من مطارنة المشرق مع عدّةٍ كثيرة من قسوس ورهبان ذوي علم رائق وفضل فائق * واذ لم يمكن بطاركة اسكندرية وانطاكية واورشليم الملكيّين ان يحضروا بنفسهم. ارسلوا نوّابًا عنهم * وبعدما فُتح المجمع. وقعت أَسباب صار منها بقاء المجمع في مدينة فرّارا محظورًا. فتحوّل الى مدينة اخرى من مدن ايطاليا اسمها فلورنسا برضاء

قاعدة بلاد الصين. وكان اسمهُ يوحنّا الذي من جبل كَرْبِين الفرنسيسيّ. مع اساقفة متعلّقين بهِ * وفي سنة ١٣١٨ يوحنّا الثاني والعشرون نصب مطرانًا على سلطانيّة في بلاد فارس فرنكس الراهب الدومنكيّ. واعطاهُ اساقفةً يلوذون بهِ * وفي سنة ١٣٢٣ اقام اسقفًا لاتينيًّا على مدينة توريز ايضًا. وارسل الى مفريان اليعاقبة رسالةً فيها يحرّضهُ على الصلح مع الكنيسة الرومانيّة هو وامّتهُ. ويوصي في الاسقف المذكور وفي المرسلين الدومنكيّين والفرنسيسيّين الذين بعثهم الى تلك النواحي *

وفي سنة ١٣٤٠ اجتمع مجمع اقليمي في جزيرة قبرس بامر البابا على يد ايليا مطران تلك الجزيرة. حضر فيهِ ايضًا رؤساء اليونان اي الروم والنساطرة واليعاقبة والموارنة والارمن. وهناك باسمهم وباسم جماعاتهم رفضوا الشقاق واعترفوا برياسة الحبر الروماني على الكنيسة كلّها وبكونهِ نائب المسيح على الارض وابًا وراعيًا ومولًى لجميع المؤمنين وانّهُ يجب على جميع الرعاة والاساقفة ان يطيعوهُ. واقرّوا بايمان الكنيسة الرومانيّة وطلبوا ان يبقوا على طقوسهم الغير المخالفة للمعتقد * والبائن انّ اليعاقبة والارمن الذين كانوا في جزيرة قبرس بدخولهم حظيرة الكنيسة الكاثليكيّة تبعوا طقس اللاتين. كما انّ اليعاقبة والنساطرة الذين كانوا في فلسطين صاروا كذلك لاتينيّين. والذين في فونيقي صاروا موارنة. حتى لم يبقَ منهم اثرٌ

منذ أجيال *

واما اشهر انضمام الطوائف المشرقيّة الى الكنيسة الرومانيّة امّ الكنائس فحدث في عهد المجمع الفلورنتيني كما سنرى *

ونختم هذا الفصل باقتصاص حال الافرنج الذين كانوا في سوريه وفلسطين * فنقول انّ الافرنج الصليبيّين بعد موت لويس التاسع القدّيس ملك فرنسا كان قد بقي لهم حصون قليلة في سورية . اخصّها مدينة عكّة كما راينا * وفي سنة ١٢٦٨ أَدْوَرْد ملك الانكليز جاءَ الى ارض فلسطين بجيوشهِ . ولكنّهُ لم يعمل فيها عملاً يستحقّ الذكر. لا بل هيّج بيبرس سلطان مصر ان يهجم على البلاد التي بيد الافرنج . وفي قليل من الزمان ضبط منهم حصوناً كثيرة وفتح مدينة يافا وانطاكية . وقتل سبعة آلاف نفس من مدينة انطاكية وسبى نحو ماية الف . وهكذا خربت خراباً تامًّا هذه المدينة العظيمة التي كانت يوماً سلطانة المشرق * وبقيت بيد الافرنج مدينة اطرابلس وبيروت وصور وعكّة . وكانت عكّة اقواها واحصنها واغناها . لانّهُ قد اجتمع فيها كلّ اجناس الافرنج الذين في سورية وفلسطين وحوت كنوزاً عظيمة لا توصف باللسان . وكان اهلها في زخرفة وزهو وهرج دائم * ولمّا مات بيبرس . ملك بعدهُ السلطان قلاون . فحاصر مدينة اطرابلس وفتحها بالهجم . واحرقها تمامًا حتّى لم يبقَ منها طَلَل . وابتنى بدلها مدينةً اخرى في القرب منها * وبعد موت

البلاد الكثيرة المشرقيَّة التي قد كان اهلها طالما خبطوا في ديجور الشقاق او الهرطقة * وذلك انَّهُ من جرى انثلام شوكة ملوك الروم ومخالطة الافرنج المتملّكين على ارض القدس وجانب من سورية والانقلابات الحربيّة الكثيرة التي حدثت في بلاد الشرق انفتح السبيل للأَحبار الرومانيّين الذين يهمّهم رعاية جميع الامم في العالم كلّهِ ان يرسلوا الى البلاد الشاسعة منذرين بالدين القويم. كانوا من رهبنة الاخوة الواعظين ومن رهبنة الاخوة الصغار خاصَّةً كما راينا سابقًا * وعند ذلك كثيرٌ من الطوائف المسيحيَّة نهضوا مفيقين من حال الغفلة التي كانوا فيها. وتشوّقوا الى ضرب العهد مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ الذي ولو كانوا مفترقين عنهُ بالشقاق كان آباؤهم قد سلّموهم انّهُ هو مركز الدين النصرانيّ وكتبهم تحوي شهادات واضحة بوجوب خضوع جميع الكراسي لهُ * فمن اوَّل الذين تعاطوا مع الاحبار الاعظمين بعد الارمن والموارنة كان النساطرة. فانَّهُ في سنة ١٢٤٧ ارسل سبريشوع بطريرك النساطرة الى الحبر الرومانيّ انّوكنتيوس الرابع رسولاً اسمهُ الربّان آرا نائب المشرق. فقدّم باسمهِ وباسم البطريرك الى البابا صورة ايمانٍ امضاها نصارى الصين ومطران نصيبين ومطرانان آخران وثلاثة اساقفة * ومن ذلك الحين زُرع في الطائفة النسطوريَّة بذار التقرّب الى الكنيسة الكاثليكيّة. ولكنّهُ لم ينبت نباتًا كاملاً الاَّ بعد حين كما سنرى *

وفي السنة المذكورة ايضاً اقتبل الاتّفاق مع الكنيسة الرومانيّة اغناطيوس الثاني بطريرك اليعاقبة مع مفريانهِ يوحنّا بن المعدني الذي صار بعد ذلك بطريركاً. وارسلا في شان ذلك كلّ منهما صورة ايمانهِ الى البابا انوكنتيوس الرابع * ومن جملة الشروط التي وضعها اغناطيوس للصلح كان ان يبقوا على عوائدهم ورسومهم وان لا يكون للبطاركة والاساقفة اللاتينيّين الذين في سوريّة وفلسطين سلطان عليهم ولا ياخذوا منهم الريشيت. ويكون الذين من اليعاقبة ينضمّون الى الكنيسة الكاثليكيّة لا يجبرهم اللاتين باخذ سرّ التثبيت ثانيةً * وتصالح ايضاً النساطرة مع الكنيسة الرومانيّة في نحو سنة ١٢٨٨ على يد يابلّاها بطريركهم المذكور سابقاً. فارسل اليهِ نقلاوس الرابع البابا رسالةً فيها يثني عليهِ لاقتبالهِ بالاكرام المرسلين من الاخوة الصغار. وبعث صورة الايمان القويم اليهِ والى برصوم اسقف نصيبين ليرشدا بها رعيّاتهم * وبعث يابلّاها صحف الاحترام والخضوع للكرسيّ الرومانيّ الى البابا بندكتس الحادي عشر بيعقوب الراهب الدومنكيّ الذي اقامهُ وكيلاً عنهُ لدى الحبر الاعظم *

ولمّا انتشر في مبادئ القرن الرابع عشر الايمان الارثذكسيّ في البلاد الواقعة تحت حكم التتر بين النساطرة والارمن والمغول. وذلك على يد المرسلين الدومنكيّين والفرنسيسيّين. نصب البابا اقليميس الخامس في سنة ١٣٠٧ مطراناً على مدينة كَمبلُواو هي كنتون

حياة الانسان دينًا ودُنيا . والتواريخ الى زمانهِ نسختان سريانيّة وعربيّة * اعلم انَّ ابن العبريّ كان في اوّلهِ نصوحًا على معتقد آبائهِ . وكان يحامي عنهُ في كتبهِ بكلّ قواهُ تبعًا لما تعلّمتهُ شيعتهُ من الكنيسة الكاثليكيَّة حين خروجها منها ان تخطّئ من لا يعتقد معتقدها او يابي طاعتها وتحرم الاشتراك معهُ في امور الدين. الاَّ انَّهُ في الآخر زاغ عن هذا التعليم النقّ . وفي كتاب لهُ سمّاهُ الحمامة في سيرة الرهبان قال انَّ الدرجة الاسقفيّة الجاَئهُ في الاوَّل ان يجادل اهل المذاهب النصرانيّة وينكر عليها معتقداتها . وانّهُ بعد ذلك راى انَّ هذه المذاهب كلّها مقبولة كأنَّها لا تختلف في جوهر المعتقد شيئًا * وليس من لا يرى انَّ هذا التعليم الغريب الذي في ذلك العصر بدأ ان ينشو بين علماء المذاهب النصرانيَّة في بلاد المشرق هو مخالف لتعليم الآباء * وبعد ابن العبريّ قلّما ظهر بين السريان سواء من اليعاقبة او من النساطرة احدٌ يستحقّ الوصف المخصوص. فكأنّهُ بموتهِ انطفأ سراج العلوم الدينيّة في تلك البلاد * وممن يستحقّ ذكرًا ما من اليعاقبة برصوم الصفيّ اخو غريغوريوس بن العبريّ وهو الذي ذيَّل تواريخ ابن العبريّ السريانيَّة. وديوسقورس وهو جبرائيل البرطلّيّ اسقف جزيرة ابن عمر صاحب التقلب وهو تقويم حساب الاعياد المتحوّلة لكلّ سنة *

وظهر بين القبط والارمن في هذه الحقبة علماء . منهم ابو اسحاق

بن العسّال والصفيّ ابو الفضائل اخوهُ القبطيّان اللذان الّفا في العربيّة كتبًا شتّى في شرع الكنيسة واللاهوت . وحيتون او حاتم الارمنيّ الذي كتب تواريخ التتر والمغول . وغيرهم *

وهولآء المؤلفون المختلفوا المذهب مهّدوا الطريق لبني مللهم ان ينهضوا من حال الشقاق الذي كانوا فيهِ ويتشوّقوا الى القرب من مركز الحقّ الذي نصبهُ السيّد المسيح على الارض وهو كرسيّ بطرس زعيم الرسل . كما سنرى في الفصول الآتية * لانَّ كتبهم ولو كانت لا تخلو من ضلالات لسبب انَّ الابتعاد من الكنيسة الحقيقيَّة الوحيدة التي شادها المسيح لابدّ ان يدعو صاحبهُ الى الغلط كما حدث الامر خاصَّةً في الامّة اليونانيّة. الاَّ انها تحوي معظم التقاليد الرسليَّة المبنيّ عليها الدين المسيحيّ . وفيها شهادات واضحة تبيّن ضرورة الاتّفاق مع الكنيسة الرومانيَّة التي هي كرسيّ بطرس الرسول . وتخزي اولئك الذين ينفرون من الطاعة الواجبة لهذه الكنيسة] *

الفصل الحادي والثلاثون

في معاطيات الكرسي الرسوليّ الرومانيّ مع الطوائف المشرقيَّة ونقرّبها اليهِ وفي اندثار المملكة الافرنجيَّة من سورية

[اشتهرت هذه الأعصار بإشراق نور الايمان الحقيقيّ في

في العربيّة الفصيحة. وسليمان الخلاطيّ اسقف البصرة صاحب كتاب النحلة الذي جمع فيهِ علوماً كثيرة في السريانيّة. وخميس بن قرداح صاحب الميامر السريانيّة التي يلهج بها النساطرة في صلواتهم * وفي القرن الرابع عشر عُرف طيمثاوس الثاني البطريرك صاحب كتاب شرح الأَسرار. واشتهر اكثر ما يكون عبد يشوع أسقف صوبا وارمنيه الشهير بكتب كثيرة نفيسة. منها كتاب الفردوس الذي الَّفهُ تشبّهاً بمقامات الحريري العربيّة واودع فيهِ فنون اللغة السريانيّة واسرارها البديعة الغويصة. وكتاب الفقه الذي يعمل بهِ النساطرة لاختصارهِ وشمولهِ *

وعند اليعاقبة اشتهر في القرن الثاني عشر يوحنا اسقف ماردين الذي كتب في الطقوس واللاهوت. وميخائيل البطريرك الذي رتّب طقوس الاسرار والرسامات ورسم قوانين لتهذيب البيعة. واشتهر اكثر ما يكون ديونوسيوس يعقوب بن الصليبيّ اسقف امد او هي ديار بكر الذي صنّف كتباً كثيره نفيسة في اللغة السريانيّة الفصيحة. اخصّها تفسير العهدين القديم والجديد وشرح قواعد الديانة النصرانيّة والردّ على المذاهب وقوانين التوبة للمعترفين وشرح القدّاس وسائر الاسرار * وفي القرن الثالث عشر يعقوب البرطلّي المعروف بسويرس صنّف في السريانية كتباً شتّى. اخصّها كتاب الكنوز في اللاهوت والأَسرار وكتاب نحو

منظوم وكتاب موسيقي وكتاب في البيان والبديع تتبعًا لليونان .
وداود بن فولوس الذي فسّر الكتاب المقدّس * ولكن الذي
اشتهر اكثر من الذين سبقوهُ من يعاقبة ونساطرة وسائر من برع
وشاع بين السريان بكثير هو ابو الفرج غريغوريوس بن العبريّ * كان
ابن العبريّ اصلهُ من مدينة ملاطيه او مليطيني. ووُلد سنة ١٢٢٦ .
وفي حداثتهِ صار اسقفًا على حلب . ثمّ نُصب مفريانًا بتكريت . الاّ
انهُ سكن اكثر زمانهِ في الموصل . وفي سنة ١٢٨٦ توفّي بعد ما جال
البلاد الكثيرة وطاف الاصقاع الشاسعة ورأى عجائب وغرائب
وقضى امورًا عظيمة * وكان بارعًا فائقًا في معرفة اللغة السريانيّة
والعربيّة واليونانيّة * وكتب كتبًا كثيرة يبلغ عددها فوق الثلاثين
في السريانيّة والعربيّة . بعضها الّفها . والقليل منها استخرجهُ من لغة
غريبة * واظهر في هذه مصنّفاتهِ طول باعهِ وسموّهُ في جميع العلوم
ولاسيَّما الحكمة او الفلسفة . والكلام اي اللاهوت . والطبّ . والتواريخ
بفنونهِ . والفقه البيعيّ والمدنيّ . والسماويَّات . والنحو . وخبرتهُ الفائقة
بكتب الاوّلين ولاسيَّما اليونانيّين * واشهر كتبهِ تجارة التجارات في
الطبيعيّات والالاهيَّات . ومنارة الأَقداس في علم اللاهوت . وخزانة
الأَسرار في تفسير الكتاب المقدَّس . والصمحا في النحو وهو احسن
ما أُلّف في هذا الباب في السريانيَّة . والمعلتا في النحو ايضًا وهو
موزون . والهداية في فقه الكنيسة . والايثيقون في ترتيب

المجمع عن مذهبهِ * فرأوا من الواجب ان يتركوهُ في حراسة . وعيّن المجمع اشخاصاً يفحصون كتبهُ . فوجدوا فيها ضلالات كثيرة . فامروهُ ان يرجع عن غيهِ . ولكنهُ ابى مصرّاً * ثمّ حضر في الجلسة التي عُقدت في ٥ حزيران . فاظهروا من كتبهِ أقوالاً كثيرة تتضمن ضلالات وكُلّف المارّ ذكرهُ . وبعد ما اعطوهُ مهلة ليفسّر أقوالهُ واحداً واحداً . نصحوهُ أَنْ يخضع لحكم المجمع . وقدّموا لهُ صورة رفض ضلالهِ ليمضيها . فابى عنيداً ان يمضيها * وعالج المجمع كلّ الحيل لامالتهِ . لانّهم لم يكونوا يحبّون أَنْ ينتهوا بهِ الى مكروه . فلم يستفيدوا شيئاً * فابتدأوا باحراق كتبهِ بالنار . وظنّوا انّهم بذلك يخوّفونهُ . ولكنّهُ لبث مصرّاً على عنادهِ * فاتوا الى تنزيلهِ من درجة الكهنوت باحتفال . ونزعوا عنهُ المرتبة الكهنوتيّة . وسلّموهُ الى حكّام مدينة قسطنسا . فحكم عليهِ اولئك الحكّام بان يُحْرَق بالنار بموجب شريعة المملكة * وعاقبوا ايضاً هذا العقاب هيّرونيم تلميذهُ . لانّهُ هو ايضاً اصرَّ عنيداً على الطغيان * اعلم انّ المجمع لم يطلب من الحكّام ان يعاقبوا يوحنا هوس . بل تركهم ان يعملوا بموجب ما تقتضيهِ عدالتهم . فانَّ الحكّام لهم حقّ بلا شكّ ان يعاقبوا الذين يبلبلون نظام المملكة بمذاهبهم السيّئة التي بانتشارها بين الناس تذهب عنهم اغلب الاحيان الراحة والسلامة *

الفصل الثلاثون

في الذين اشتهروا بالعلوم الدينيّة في بلاد المشرق في تلك القرون

[كما راينا سابقًا كانت الديانة النصرانيّة تثمر لمجد الكنيسة الحقيقيّة في بلاد المشرق ولو كانت مقهورة تحت رقّ الغير المومنين ومبتلاةً بروح الطغيان والشقاق. فانهُ في هذه القرون الثلاثة التي كتبنا مختصر تواريخها في هذا الباب لم تخلُ الطوائف الشرقيّة ولاسيّما النساطرة واليعاقبة من جهابذة تناولوا تعاليم الاوّلين وشرحوها في صحفهم ومجّدوا الديانة المسيحيّة * فمن النساطرة في القرن الثاني عشر اشتهر ماري بن سليمان القسّيس الذي كتب بالعربيّة الفصيحة سِيَر البطاركة النسطوريّين وكتاب المجدل وهو في علم اللاهوت. وهبة الله بن التلميذ الطبيب المشهور. وايليا الثالث البطريرك المعروف بابي حليم الحدثي صاحب الترجامات العربيّة الفصيحة البليغة الشهيرة. وهو الذي زاد على طقس النساطرة صلوات طويلة يصلّيها الكاهن تشبّهاً بحسّايات اليعاقبة. وصاعد ابو الحسن وماراس ابو الخير الطبيبان الشهيران * وفي القرن الثالث عشر عُرف يوحنّا بن زعبي العلّامة في فنون كثيرة. وجرجس وردا صاحب الميامر السريانيّة المستعملة في طقس النساطرة. ويشوعياب بن ملكون النصيبينيّ الذي الّف كتبًا شتّى

الفصل التاسع والعشرون

في هرطقة وِكْلَف ويوحنا هوس وحرمها

ان مجمع قسطنسا من غير إطفاء الفتنة التي سبق شرحها قصد ان يدحض الهرطقات الجديدة التي كانت قد انتشرت في بلاد جرمانيا بحماية الشقاق الذي كان متملكًا . وكان من اخص اصحاب هذه الضلالات وِكلَف معلّم المدرسة الجامعة في مدينة أُكْسِفُرْد التي هي من مدن انكلتره او الانكليز * كان وكلف قد ابتدأ بزعم بعض مقالات غريبة. فكذّبها أُربانس الخامس البابا واساقفة انكلتره * فغضب وكلف من ذلك . واخذ تارةً بالقذف في الكهنوت وفي الرياسة البيعيّة باسرها . وشرع يزعم انّ البابا ليس هو راس الكنيسة . وانّ الاساقفة لا مرتبة لهم فوق مرتبة القسوس . وانّ الخطيّة المميتة تعدم صاحبها سلطان الكهنوت . وانّ الاعتراف غير نافعٍ لمن كان متندّمًا على خطاياهُ ندامةً كافية * وهذه الضلالات ولوانّها تولّدت في بلاد انكلتره . لم تتأصّل فيها . فلمّا مات وِكلف . زالت فرقتهُ رويدًا رويدًا * الاّ انّ هذا المضلّ كان قد ترك كتبًا مسمومة مشحونة من الغوايات . فجلب هذه الكتب الى مدينة براغا التي هي من اعمال مملكة بوهيم رجلٌ من الاغنياء كان قد درس العلوم في مدرسة اكسفرد . واطلع عليها يوحنّا هوس معلّم

المدرسة الجامعة التي في براغا * فطغي يوحنا هوس بتلك الكتب وغوي بها. وشرع يبثّ الضلالات التي فيها في خِطَبِهِ وعظاتهِ ويجتهد في جذب عقول الناس اليها * وزاد عليها ضلالات اخرى. منها لزوم تناول القربان المقدّس بالشكلين اي الخبز والخمر * فانضمّ اليهِ تلامذة كثير. وكان اشدّهم همّةً هِيِّرُونيم البراغي. وقويت هذه الشيعة وامتدّت في بلاد بوهيم * وبذل مطران براغا ويوحنّا الثالث والعشرون الحبر الاعظم كلّ وسعهما لردع هذه البدعة ودعاء صاحبها الى الحقّ والرعوى. فخابا في جهدهما. ويوحنا هوس لم يزل يبثّ تعاليمهُ في المدن والقرى. وكان يصحبهُ خلقٌ كثيرٌ من الناس يسمعونهُ بشوق زائد * وكانت الامور على هذا الحال اذ عُقِد مجمع قسطنسا. فوافى الى المجمع يوحنا هوس بنفسهِ ليدافع عن مذهبهِ. وقبل مجيئهِ كان قد علّق على ابواب كنائس براغا إعلانًا يقرّر فيهِ أنّهُ راضٍ ان يُحاكَم ويقبل العقوبات التي يستوجبها الهراطقة ان اثبتوا عليهِ ضلالاً مخالفًا للايمان * وبعد هذا التقرير كان سِجِسْمُنْد الملك القيصريّ قد اعطاهُ ذمامًا لكي يكون في امانٍ في سفرهِ ولكي يسهّل لهُ السبيل ان يحامي عن نفسهِ اذا راى نفسهُ متهومًا ظلمًا كما كان يزعم. لا لكي يؤمّنهُ من العقوبة المستوجبة لهرطقتهِ اذا ثبتت عليهِ. فانّهُ هو بنفسهِ صرّح بقبولها * ولمّا بلغ الى مدينة قسطنسا وحضر المجمع. شرع في الحال يتفلسف من دون ان ينتظر حكم

أُربانس السادس * فلمّا خرج الكردنالات بعد ذلك من رومية .
قرّروا انَّ نصبهم لذلك البابا كان غير صحيح لسبب ان لم يكن
لهم حرّيَّة العمل . وانتخبوا بابا آخر تسمّى اقليميس السابع * فحدث
من هذا الانقسام بلاءٌ عظيمٌ في الكنيسة وبلبلة لا توصف باللسان .
فانَّ الارثذكسيّين كلّهم انقسموا الى قسمين . كلّ قسم كان مع واحد
من الحبرين * ولشدَّة تعصّب كلّ حزب لوليّهِ على الحزب الآخر
اشتدَّ الشقاق وقوي . وزادت الشرور الحاصلة منهُ * ثمَّ مات
أُربانس . ولكن بموتهِ لم تُمت الفتنة . فانَّ اهل حزبهِ اقاموا واحدًا
آخر مكانهُ . وهكذا فعل اهل الحزب الآخر اذ مات عقيدهم *
وتكرّرت هذه الحوادث المولمة المحزنة مرّات كثيرة * فلمَّا اشتدَّ
الخطب على الكردنالات وشقَّ عليهم الانقسام المخجل الذي كانوا
فيهِ . اجتمعوا في مجمع بيسا احدى مدن ايطاليا . وراوا ان لا علاج
لإطفاءَ الفتنـة الاَّ بعزل البابوين كليهما . فعزلوهما ونصبوا واحدًا
آخر تسمّى الكسندر الخامس باتّفاق واحد . ولكنَّ الشقاق لم يبطل
بذلك . والشرور لم تزل تزداد وخاف الضعيفوا الايمان على الكنيسة
ان يفضي بها الشقاق الى البوار * ولكنَّ الكنيسة موعودة من الله . فلم
يهملها عزَّ وجلّ في هذه النكبة العظيمة . بل دبَّر الامور كلّها ووفّق
الاحوال على رغم الأَهواءَ البشريَّة حتّى اجتمع مجمعٌ مسكونيٌّ في مدينة
قسطنسا [التي هي في نحو قلب اوروبا] في سنة ١٤١٤ . وفي هذا المجمع

ضُرِب عهد الصلح والاتحاد * فانَّهُ في هذا المجمع اجتمع البابوات المدَّعون بالبابويّة . فمنهم من تنازل من نفسهِ . ومنهم من عزلهُ المجمع . ونصبوا واحدًا آخر سمّي مرتين الخامس . فقبلهُ كلّ الجمهور واتّخذوهُ قاطبةً هو وحدهُ البابا الشرعيّ الحقيقي * ويجب أَنْ تعلم انَّ اهل هذا الشقاق ولو كانوا متقسّمين في التعصّب لاحد المدّعين بالبابويّة . كانوا متمسّكين بطاعة الكرسيّ الرسوليّ الروماني المقدَّس كرسي بطرس الرسول . ويمكن انَّ هذا الشقاق مع كونهِ مولمًا جدًّا احدث في نفوس العامَّة أَضرارًا اقلّ من حوادث اخرى سمجة حدثت في الكنيسة * قال في شان ذلك انطونيوس القدّيس مطران فلورنسا الذي اشتهر في نحو منتصف القرن التابع «كان يمكن ان يكون الواحد في خلوص النيّة واستقامة الضمير في كلا الحزبين . فانّهُ نعم ينبغي لكلّ احد ان يومن انَّ الكنيسة لها راسٌ منظور واحد . الاّ انّهُ اذا اتّفق ان يُنصَب باباوان في وقتٍ واحد . لا ينبغي ان يومن الواحد انَّ البابا الشرعيّ هو هذا دون هذا . بل يكفي ان يؤمن انَّ البابا الشرعيّ هو الذي نُصِب نصبًا قانونيًّا . ولا يُطلَب من العامَّة ان تميّز وتحكم في هذا الامر . بل حَسْبُها ان تتبع راي راعيها المختصّ بها * انَّ المقصد العظيم الذي يقصدهُ الله وهو قداسة المختارين . ينالهُ تعالى في الحوادث المولمة ايضًا . وناهيك انّهُ في كلا الحزبين كان أَشخاص ذوو قداسة » *

في الايمان * فحدث من ذلك التقرير فرح عظيم في الكنيسة * ثمَّ انهُ في عيد مار بطرس الرسول قدَّس البابا في كنيسة لغدون الكبرى بمحضر المجمع كلّهِ . وبعد ما رتّلوا قانون الايمان في اللغة اللاتينية. تلاهُ جرمانس البطريرك مع سائر اليونانيين في اللغة اليونانيّة دليلاً على اتّحاد الايمان * وحضروا في الجلسة الرابعة. واجلسهم البابا عن يمينهِ بعد الكردنالات . فقُرئت بصوتٍ عالٍ الرسائل التي كانوا قد جلبوها معهم. واقبل جرجس اللوغوثيت الكبير فقرّر رفض الشقاق باسم الأمة. واقتبل تقرير الايمان الذي تتمسَّك بهِ الكنيسة الرومانيّة. واعترف برياسة الحبر الرومانيّ * فشرح البابا بالايجاز الفرح الحاصل للكنيسة من ذلك الصلح الذي بهِ الاولاد الضالّون بالعصيان انضمّوا الى حضنها . وابتدأ ترنيم نشيد الشكر. فاطلقت الجماعة الحاضرة كلّها اصواتها في التسبيح لله والحمد البليغ على ما اولاهم من النعمة في ذلك اليوم *

اعلم انَّ هذا الصلح لم يدم الاَّ الى موت ميخائيل الملك الذي سعى فيهِ. فانَّ ابنهُ الذي جلس بعدهُ اعاد الشقاق في الكنيسة القسطنطينيّة *



الفصل الثامن والعشرون

في شقاق اهل المغرب (سنة ١٣٥٨) وفي مجمع قسطنسا

بعد شقاق اليونان بزمان قليل حدث في بلاد المغرب اي في الكنائس اللاتينية شقاق اهول من ذلك * وسببهُ كان انَّ البابا اقليميس الخامس الذي كان في الاصل فرنساويًّا اقام سكناهُ في مدينة أَوِنْيُون من مدن فرنسا . والذين جلسوا بعدهُ سكنوا في تلك المدينة * فاصاب اهل ايطاليا أَضرار كثيرة لسبب بُعد البابا عنها . وكانت مدينة رومية على الخصوص ممنوَّة بالانقسامات والخصومات . فكان العامَّة والخاصَّة يتمنّون رجوع البابا الى مقرّهِ الحقيقيّ . وسعوا في ذلك بجهد شديد . حتّى انهُ في الآخر اذعن البابا غريغوريوس التاسع . وترك مدينة اونيون . ولمّا بلغ مدينة رومية . استقبلوهُ بما لا يوصف من الاكرام والتعظيم والتجليل والابتهاج * وبعد موتهِ خاف اهل رومية من انَّ البابا الجديد اذا كان فرنساويًّا ينصب مستقرهُ في مدينة أَوِنْيُون . فتجمّعوا الى المكان الذي كان فيهِ الكردنالات مجتمعين لانتخاب البابا . وشرعوا يصيحون « نريد ان يكون البابا رومانيًّا » . وتهدّدوا للكردنالات * فتخوّف الكردنالات من غيظ الشعب . ونصبوا بدون التروّي الكافي واحدًا رومانيًّا كان مطران احدى مدن ايطاليا . وتسمّى

كما سنرى في ما ياتي . حتّى وفّق الله ان تحيا فيها حيوة جديدة احسن من الاوّل كما سنرى] *

الفصل السابع والعشرون

في صلح اليونان الاوّل وفي المجمع اللغدونيّ الثاني (سنة ١٢٧٤)

افتكرت الكنيسة ان تعالج امر صلح اليونانيّين او هم الروم مع الكنيسة الغربيّة اذ كان (كما راينا) قد تمّ شقاقهم منها من زمان . وفي شان ذلك عزمت ان تجمع مجمعًا مسكونيًّا . وكان ذلك في مدينة لغدون او ليون من مدن فرنسا . وهو المجمع الثاني المسكونيّ المعقود في تلك المدينة * وفُتح هذا المجمع في يوم ٢٧ من شهر ايار سنة ١٢٧٤ . ودام الى يوم ١٧ من شهر تمّوز * وكان المجتمعون كثيرين جدًّا . فانّ الاساقفة كانوا خمس ماية ورؤساء الاديرة سبعين * وحضر المجمع يعقوب احد ملوك تلك البلاد . وكان فيهِ وكلآء عن ملوك أُخر وحكّام النواحي * وكان ميخائيل فاليولوغ ملك الروم بقسطنطينية يشتاق غاية الشوق الى هذا الصلح المرغوب . وانّما دعاهُ الى ذلك سبب دنيويٌّ وهو خوفهُ ان يعارضهُ الملوك الافرنجيّون ويضبطوا بلادهُ * ولذلك بعد ما اسقط من عرش المملكة بلدوين الثالث ملك قسطنطينيّة الافرنجيّ . كتب الى البابا

الرومانيّ في ذلك رجاء أن يردّ عن نفسهِ النكبة التي كانت عتيدة عليهِ. ووعدهُ ان يبذل كلّ وسعهِ لاطفاء الشقاق * فطاب هذا المقال لخاطر الحبر الاعظم غاية ما يكون. اذ كان اليونانيّون من تلقاء انفسهم طلبوا الصلح مع انَّ الاحبار الرومانيّين كانوا قد عالجوا كثيرًا ان يدعوهم اليهِ ويرغّبوهم فيهِ فخابوا. ولكن حينئذٍ زاد فرح البابا (وكان غريغوريوس العاشر) حيث كانت الأحوال موافقةً لاجراء الصلح * وكان ميخائيل الملك الذي طلب الى البابا ان يجمع المجمع قد ارسل اليهِ قصّادهُ. وهم جرمانس بطريرك قسطنطينية وثاوفنتس مطران نيقيه وجرجس اللوغوثيت اي حافظ خزائن المملكة * وحملوا كتابًا الى البابا. فيهِ سمّاهُ الملك الحبر الاوّل الاعظم والاب العامّ لجميع المسيحيّين. وكان معهم ايضًا رسالةٌ اخرى باسم خمسة وثلاثين مطرانًا من مطارين الروم مع اساقفتهم. فيها اولئك رؤساء الكهنة قرّروا رضاءهم بالاتّفاق مع كنيسة روميه واجتهادهم في نوال ذلك * ولمّا بلغ اولئك القصّاد الى نحو مدينة المجمع. خرج جميع آباء المجمع لملتقاهم. وانطلقوا بهم الى قصر البابا. فاكرمهم البابا واعطاهم قبلة السلام واحسن مثواهم * والقصّاد ادّوا ما يجب عليهم من الاحترام والخضوع للحبر الاعظم الذي هو نائب المسيح وراس الكنيسة كلّها. وقرّروا انّهم قد وافوا ليؤدّوا الطاعة للكنيسة الرومانيّة باسم ملك الروم واساقفة المشرق ويتّحدوا معها

القدس برصوم الاسقف النسطوريّ الذي كان قد زار بلاد الصين مع يابلاّها البطريرك * وهكذا في اواخر القرن الثالث عشر بهمّة هذا الملك ارغون وسعي يابلاّها جاثليق النساطرة واسقفهِ برصوم المذكورين وعناية البابا نقولاوس الرابع ذاعت الديانة الكاثليكيّة في بلاد المشرق على يد الرهبان الفرنسيسيّين المعروفين بالصغار. كما تشهد على الخصوص الكتب الكثيرة التي ارسلها نقولاوس الحبر الاعظم المذكور الى ملوك التتر او المغول وملكاتهم وغيرهم من الوجوه والرؤساء * وهذا يابلاّها البطريرك نال من ملوك المغول من الجاه والعزّ والسلطان (كما قال احد المؤرّخين المعاصرين) ما لم ينلهُ احد قبلهُ. حتّى كان ملوك المغول وقانات[1] التتر العظام واولادهم يكشفون رؤوسهم ويتبرّكون قدّامهُ. ونفذ حكمهُ في جميع الممالك بالمشرق. وارتفع النصارى في ايّامهِ الى عزّ عظيم * فكان اسم المسيح ممجّداً وديانتهُ مشتهرة في ذلك العصر ليس فقط في البلاد التي كانت يوماً تحت حكم العرب. بل في جميع البلاد التي تجاورها الى اقصى ارض المشرق اي اعمق بلاد الصين ولاسيّما الاصقاع الشماليّة. وذلك انَّ هذه الاراضي الواسعة كلّها كانت في ذلك العصر بيد القانات اي ملوك التتر الذين كانت شوكتهم قويّة مخوفة ارعبت العالم كلّهُ وكانوا كما راينا

---

(١) القان او الخان كان عند التتر ملكهم الاعظم ويسمّى ملك الملوك *

يحبّون النصارى ودينهم * الاَّ انَّ هذه الازمان السعيدة أعتقبتها بعد قليل ازمنةٌ سيّئةٌ. فانَّ التتر تركوا دين النصارى ودخلوا دين الأَسلام قاطبةً. فصار ملوكهم يبغضون المسيحيّين ويضطهدونهم * واشهر ذلك ما جرى سنة ١٢٩٨ . وذلك انَّ قازان ملك المغول اصدر امرًا بهدم كنائس النصارى ونهب اديرتهم. فهُدمت من الجملة كنائس مدينة توريز ومدينة اربل (او ارويل) كافّةً. واما اهل الموصل فبالكدّ البليغ امكنهم ان يفدوا بِيَعهم ويخلّصوها من الخراب والنهب بمبلغ خمسة عشر الف دينار من الذهب * واما في مدينة بغداد فكانت النكبة هائلة اعظم ما يكون. حتى انَّ النصارى كانوا يخافون الظهور في الازقّة. فكانت نساؤهم تقضي اشغالهم. فاذا عُرفت أُهينت هي ايضًا وأُوذيت وهُتكت. واخذ المسلمون في تلك المدينة بيعة الدويدار التي كان هولاكو الملك قد وهبها للبطاركة النساطرة. وامروا النصارى ان ينبشوا المقابر التي فيها وياخذوا منها الموتى * الاَّ انَّ بلاد الارمن سلمت من هذه النازلة العظيمة. فانَّ ملكهم حاتم او حيتون قصد ملك الملوك المغولي بهدايا عظيمة. فانعم عليهِ بان تبقى كنائس بلادهِ على حالها * واما بلاد السريان فمنذ ذلك العصر تراكمت عليها النوائب شيئًا بعد شيء من جرى الحروب الكثيرة الشديدة التي حدثت فيها. فاخذت الديانة النصرانيّة من ذلك الحين تنحطّ فيها وتتنازل

وغيرهم من الاساقفة النسطوريّين * وفي اواخر القرن الثالث عشر ارسل البابا نقولاوس الرابع راهبًا من الاخوة الصغار الى ملك التتر الذي كان مستوليًا على بلاد الصين. فبلغ هذا الرسول الى مدينة الملك بكين (ويقال لها كَبَلُو). وحظي بالكرامة والقربى لدى الملك. ودعا الى الايمان الكاثليكيّ احد الامرآء النسطوريّين الذين هناك مع شيعتهِ. وكان اسمهُ الملك جرجس. وعمّد مقدارًا كثيرًا من الوثنيّين *

ودخلت الديانة النصرانيّة على يد النساطرة في بلاد التركمان والتتر ايضًا. وفي القرن السادس نفسهِ من جملة الكراسيّ المطرنيّة النسطوريّة يُذكَر مطرنيّات في مدينة مَرُو او مروان وفي مدينة هرات وفي مدينة سمرقند. وفي القرن التاسع دعا طيمثاوس بطريرك النساطرة خاقان ملك الترك وغيرهُ من الملوك الى الديانة النصرانيّة * وفي مبادئ القرن الحادي عشر تنصّر احد ملوك التتر مع خلقٍ عظيم من قومهِ. واذ لم يكن قوتهم الّا باللحم والحليب خاصّةً. اباح لهم بطريرك النساطرة ان ياكلوا الحليب في الصوم الكبير * واشتهر في اواخر القرن الثاني عشر اونك خان ملك التتر المعروف بيوحنّا القسّيس. وكاتب ملك فرنسا وغيرهُ من الملوك والبابا الروماني في امر الديانة الصحيحة * ولمّا قويت شوكة جيلٍ من التتر اسمهم المغول في مبادئ القرن الحادي عشر على

يد ملكهم جنجزخان الشهير. اخذت الديانة النصرانيّة تنتفع في تلك البلاد لسبب انَّ امراة هذا جنجزخان كانت نصرانيّة. وتتلمذ لايمان المسيح بعض من اولادهِ. ومن سبب ذلك استحقّ واحدٌ منهم ان يرسل اليهِ البابا انّوكنتيوس الرابع رسالة تهنئة سنة ١٢٥٤ * وفي سنة ١٢٤٨ ورد الى لويس القدّيس ملك فرنسا رسالةٌ من قائد جيوش التتر. منها يتّضح جاه الديانة المسيحيّة في تلك البلاد وقوّتها * وفي سنة ١٢٥٨ اشتهر هولاكو ملك المغول وفتح مدينة بغداد. وقرض دولة الخلفاء العربيّة العبّاسيّة وكان آخِرهم اسمهُ المستعصم بالله. وتملّك على كلّ البلاد التي كانت تحت حكمهِ * وكانت دوقز خاتون زوجة هولاكو الملك نصرانيّةً ذات تقوى. وكان هولاكو نفسهُ يحبّ النصارى ويعينهم وينفعهم * وتنصّر ايضاً اباقا ابن هولاكو الذي تخلّف بعدهُ في الملك. وتزوّج بابنة ميخائيل فاليولوغ ملك الروم. جلبها اليهِ افتيميوس بطريرك انطاكية الملكي * واثبت هذا الملك لدنخا بطريرك النساطرة قصر الدويدار مسكن الخلفاء العبّاسيّين في بغداد الذي كان هولاكو قد وهبهُ لمكيخا البطريرك سالفهِ * الاَّ انَّ نخودور الذي ملك بعد اباقا انحاز الى دين الأسلام وسمّى نفسهُ احمد. فقتلهُ اعوانهُ. واجلسوا مكانهُ ارغون. وكان نصرانيّاً. وكتب صحفاً الى ملوك الافرنج والى بابا رومية. وارسل الى البابا في امر فكّ ارض

الفصل السادس والعشرون

في انتشار الديانة النصرانيّة في البلاد المشرقيّة القاصية

[كان السريان المشرقيّون وهم المسمَّون كلدانًا قد ظهروا منذ الازمان الاولى غيورين على الديانة المسيحيَّة وانتشارها . ولو انهَّم لسبب ضلالة نسطور كانوا منشقّين من الكنيسة الكاثليكيَّة * فانَّ بلاد الهند التي على قول كثيرين من المؤلّفين الثقات تلمذ اهلها مار توما الرسول . انتشرت فيها الديانة المسيحيَّة على يد النساطرة المذكورين الذين التجأوا فيها جيلاً بعد جيل امَّا لسبب اضطهاد ملوك الفرس والعرب وامَّا لسبب انذار اهلها وامَّا لأَسباب اخرى . حتَّى انَّهُ في القرن السادس نفسهِ كان في بلاد الهند كنائس كثيرة يسوسها اسقف كان يُرسَم في بلاد الفرس * وفي القرون التابعة كان بطاركة النساطرة يرسلون اساقفةً راساً الى بلاد الهند . ولاسيَّما جانبًا كبيرًا منها يقال لهُ ارض مَلَبار حيث كان مُعظَم النصارى * وفي قليل من الزمان جازت الديانة النصرانيّة من بلاد الهند الى ارض الصين المجاورة لها . وفي القرن السادس كان بطريرك النساطرة يرسل مطرانًا الى نصارى تلك البلاد * وفي سنة ١٦٢٥ وُجد في قرب مدينة سيغنفو من بلاد الصين تحت ردم جدارٍ خربٍ لوحٌ من حجر كبير مكتوب في

الصينيّة والسريانيّة. نُصِب في سنة ٧٨١. تُشرَح فيهِ في الصينيّة اصول العقيدة المسيحيّة وسيرة المسيح والرسل. ويُذكَر أنَّهُ في سنة ٦٣٠ للمسيح جُلبت الديانة النصرانيّة من بلاد السريان الى بلاد الصين على يد رسول اسمهُ يابلاَّها. وأَنَّ ملك الصين استحسنها وامر عمّالهُ (ويقال لهم المنْدَرينات) أَنْ يبنوا كنيسةً. وانَّ الملك الذي ملك بعدهُ احبَّ الديانة المسيحيّة كثيرًا جدًّا. حتّى انَّهُ بهمّتهِ انتشرت في جميع أَعمال المملكة الصينيّة. ويُذكَر ما اصاب النصارى بعد ذلك من ملوك الصين تارةً من الحماية وتارةً من الاضطهاد * وامَّا في السريانيَّة فيُذكَر اسمآء سبعين منذرًا سريانًا من النساطرة انذروا بالانجيل في تلك البلاد من سنة ٦٣٦. واسمآء الذين اقاموا تلك النصبة من خورفسقوفات اي خوارنة وقسوس وشمامسة. وأَنَّها نُصِبت في سنة ٧٨١ في عهد حنانيشوع البطريرك المشرقيّ اي النسطوريّ * ولم يزل عدد المسيحيّين يكثر في بلاد الصين. حتَّى انَّهُ لمّا ارسل انوكنتيوس الرابع البابا سنة ١٢٤٥ الى تلك النواحي منذرين من الرهبان الدومنكيّين ومن الفرنسيسيّين ليهدوا اهلها الى ايمان المسيح والى طاعة الكنيسة الكاثليكيّة. كان نصارى الصين من جملة الذين اهتدوا بانذارهم. وفي هذا المعنى ارسل راعي اولئك النصارى (وكان اسمهُ الربّان آرانائب المشرق) رسالةَ الى الحبر الاعظم المذكور مختومةً بامضآء نصارى الصين

اطّلع بوناونتورا بعد ذلك على هذه النعمة التي نالها من الله. وقعت من قلبهِ موقعاً عزيزاً. فدخل رهبنة الاخوة الصغار في عمر اثنتين وعشرين سنة بموجب النذر الذي كانت امهُ قد نذرتهُ. وبعد قليل من الزمان ارسلوهُ الى مدينة باريس قاعدة بلاد فرنسا ليتمّ درس العلوم على معلّم شهير اسمهُ اسكندر هالس كان زين تلك الرهبنة بعلمهِ وحكمتهِ * فاتقن بوناونتورا العلوم في قليل من الزمان. واخذ الاجازة في الوقت الذي فيهِ اخذها توما الاكويني * وكان توما وبوناونتورا متصادقين متواليين. يتزاوران ويتواجهان كثيراً. وكان الواحد يعظّم قدر الآخر * ووجد توما يوماً بوناونتورا مشتغلاً باكتتاب قصّة سيرة مار فرنسيس منشئ رهبنتهِ. فلم يشأ ان يعطّلهُ. وقال « سبيلنا ان نترك القدّيس يشتغل في شان قدّيس آخر. ومن قلّة الادب ان نقطع شغلهُ » * وبعد ما قضى بوناونتورا في الرهبنة سبع سنين. نصبوهُ معلّماً في مكان اسكندر هالس. فراق واشتهر في ذلك المنصب * وكان جلُّ مقصدهِ في تدريس علم الكلام (وهو المسمّى علم اللاهوت) ان يجعل تلاميذهُ مسيحيّين صادقين. فانهُ اذ كان بالتدريس يعلّمهم ما يجب الاعتقاد بهِ. كان بسيرتهِ يعلّمهم ما يجب عملهُ * ولمّا بلغ خمساً وثلاثين سنة من العمر. نُصِب رئيساً عامّاً للرهبنة كلّها كرهاً منهُ. فساسها بالفطنة وحزم الراي وحسن التدبير * وجلّت منزلتهُ لدى غريغوريوس

العاشر البابا. فاراد ان يجعلهُ كردنالاً. فلمّا فهم ذلك بوناونتورا.
هجر ارض ايطاليا مستخفيًا. لعلَّهُ يقدر بذلك أَنْ يصدّ ارادة البابا.
فاتاهُ امرٌ صريح من الحبر الاعظم أَنْ يرجع الى ايطاليا. فرجع
بالعجلة * واذ كان في دير من اديرة مدينة فلورنسة. وافاهُ رسولان
من قبل البابا ومعهما حلّة الكردناليَّة ليلبّساهُ. ووجداهُ مشتغلاً
بعمل دنيّ من خدمة الدير. فلمّا راياهُ على هذا الحال. تعجّبا. فلم
يتحيّر بوناونتورا من ذلك. واقبل بحضورهما على الشغل الذي كان
في يدهِ. ولمّا فرغ منهُ. اخذ الحلّة الكردناليّة وهو متثقّل. ولم يمكنهُ
ان يواري الغمّ الذي اصابهُ من سبب هذه المرتبة السامية حيث
استبدل الفرائض العظيمة المتعلّقة بها بالاعمال الديريّة التي لا
توجب الهمّ والخوف * وبعد زمان قليل سامهُ البابا بيدهِ اسقفًا على
مدينة أَلْبان (وهي احدى المدن المجاورة لرومية العظمى). وامرهُ
أَنْ يستعدّ للمسائل التي كان ينبغي البحث عنها في مجمع لُغدون
المسكونيّ * فانطلق بوناونتورا الى ذلك المجمع. وخطب في الجلسة
الثانية والثالثة. ولكنّهُ غُشي عليهِ حينئذٍ. وكان ذلك سبب
وفاتهِ * وترك مصنّفات كثيرة تفوح منها روائح التقوى الحبّيّة.
وهو محسوب على الخصوص بين ملافنة عصرهِ اجلّ معلّم في
السيرة التقويّة *

ولمّا بلغ هذا الخبر ابويهِ. شقّ عليهما ذلك وهمّا في منعهِ. فلم يصيبا منهُ شيئاً * وبلغوا معهُ الى انهم قبضوا عليهِ والقوهُ في سجن وآذوهُ. فلم ينحرف خطوةً عن رايهِ * وفي الآخر وفّق الله لهُ ان يطلقوهُ ويبيحوا لهُ ان يفعل ما شاء * فارسلهُ روساؤُهُ الى مدينة كولونيا من اعمال جرمانيا ليقرأ الفلسفة والحكمة على أَلْبَرْت الكبير المشهور في ذلك العصر. فقرأ عليهِ الفلسفة وعلم الالهيّات. وفي قليل من الزمان فاق ونبغ في هذه العلوم. الاّ انّهُ مع ذلك كان متواضعاً. يتكلّم قليلاً خوفاً ان تجد روح الكبرياء سبيلاً لتلج قلبهُ * وكان رفاقهُ يتّخذون سكوتهُ هذا دليلاً على بلَهٍ منهُ. فكانوا يلقّبونهُ بالثور الصامت تعييراً * ولكنّ مدرّسهُ كان يعرفهُ حقّ المعرفة ويحكم فيهِ غير ذلك الحكم. فكان يقول لمعيّريهِ انّ زمجرات هذا الثور الفهيم ستطنّ في الارض كلّها * وقد صدق. فانّ توما بعد ما قضى درس العلوم واخذ الاجازة. صار معلّماً في مدرسة باريس. واشتهر هناك وراق كثيراً * والّف كتباً كثيرة جليلة. ذاع بها اسمهُ في الآفاق * وكان توما القدّيس ينسب علمهُ الى الصلوة اكثر ممّا الى الدرس. فكان قبل مباشرة التصنيف يدعو اسم الله ليحلّ روحهُ عليهِ. واذا استعصى عليهِ مشكل. التجأ الى الصلوة * وعرض عليهِ البابا اقليميس الرابع ان يكرمهُ بمطرنة نابلي. فابى توما قبول هذا المنصب السامي. ولم يشأ الحبر الاعظم ان يغصبهُ. فامرهُ ان

ينطلق الى المجمع الذي كان معقوداً في مدينة لُغدون (وتسمّى الآن ليون) ويحضرهُ * فاطاع توما القدّيس مع انهُ كان حينئذٍ في الحمّى. الاَّ انَّ مرضهُ اشتدَّ عليهِ في الطريق. فوقف في مسيرهِ وومات في دير من اديرة البلاد المجاورة مدينة رومية * [اعلم انَّ توما الاكويني هو الذي شرح الفلسفة الدينيَّة المسمّاة الاسكولستيَّة اي المدرسيّة باوضح ما يكون من العبارة واوصلها الى اوج الكمال. ومؤلّفاتهُ صارت في كلّ زمان قدوة المدرّسين في كلّ مكان] *

الفصل الخامس والعشرون

في القدّيس بوناونتورا

كما اشتهر في رهبنة الدومنكيّين توما الاكويني. كذلك تزيّنت رهبنة مار فرنسيس بالقدّيس بوناونتورا * وُلد بوناونتورا في ارض تسقانا من أعمال ايطاليا. وكان ابواهُ من اهل التقى * وسمّي باسم بوناونتورا اي الحظّ السعيد لانّ مار فرنسيس قال هذه اللفظة لمّا اراد ان ينبئ عن النعم التي كانت الرحمة الالهيّة مزمعةً ان توليهُ ايّاها في المستقبل * واذ كان بوناونتورا طفلاً في عمر اربع سنين. مرض مرضاً عضالاً. فاخذتهُ امهُ وهي غارقة في بحر الحزن عليهِ وذهبت بهِ الى مار فرنسيس. فصلّى ودعا لهُ فبرئ * ولمّا

بل كان يامر وينهى بنشاط تامّ كأنّهُ في كمال العافية . وكان يفتكر في شان غيرهِ اكثر ممّا في امر نفسهِ . فلم يهمل شيئًا لتسليتهم وتفريج اوجاعهم * ولكن في الآخِر اضطرَّ ان يلازم الفراش . وكان ابنهُ الكبير الامير فيلبّس معهُ دائمًا . وكان لويس يحبّهُ . واذ راى انّهُ عن قريب مورّثهُ عرش مملكتهِ . جمع كلّ قواهُ ليوصيهُ التوصيات العجيبة التي اتّصلت الينا . وهي تبتدئ هكذا « يا ابني اوّل شيء اوصيك بهِ هو أَنْ تحبَّ الله من كلّ قلبك . وان تكون مستعدًّا ان تفضّل كلّ بليّة على ان تخطئ خطيّة مميتة » * وكانت هذهِ الوصيّة التي تعلّمها من امهِ منذ صبائهِ . واتّخذها قاعدةً لسيرتهِ على الدوام * وطلب ان يناولوهُ الأسرار . فتناولها بخشوع بكى لهُ جميع الحاضرين * ولمّا دنت ساعة رحيلهِ من الدنيا . امر ان يضجعوهُ على سرير مفروش بالرماد . فلمّا تمدَّد عليهِ . صلّب ذراعيهِ على صدرهِ . واحدق بعينيهِ الى السمآء . وقضى وهو متلفّظ تلفّظًا فصيحًا هذهِ كلمات المزمور وهي « يا ربّ سادخل بيتك . واسجد لك في هيكل قدسك . وامجّد اسمك » *

وهكذا توفّي هذا الملك الذي كان احسن الملوك والذي لا يتأمَّل احد في عجيب فضائلهِ الاَّ ويبارك الديانة التي ولّدتها *



الفصل الرابع والعشرون

في فضائل القدّيس توما الاكويني

كان لويس الملك القدّيس يعظّم قدر اولاد الرهبنتين
الجديدتين اي رهبنة الاخوة الصغار ورهبنة الاخوة الواعظين
ويخصّهم بالودّ . وكان يمدحهم لأتعابهم في خلاص النفوس ولشدّة
تواضعهم وقشفة سيرتهم وتجرّد قلوبهم من كلّ غرض دنيويّ *
وكان يقول بانّهُ يمكنهُ ان يقسم نفسهُ الى قسمين . ويعطي القسم
الواحد لاولاد مار فرنسيس . والقسم الآخر لاولاد مار عبد الاحد *
ومن الذين زيّنوا رهبنة الواعظين في ذلك العصر كان مار توما
الاكويني * كان توما من البيوتات في مملكة نابلي من أعمال
ايطاليا . ورُبّي تربيةً تليق بالحسب الذي كان لهُ وبالامل الذي
كان يرجَى فيهِ * وأُرسل الى اشهر مدارس ايطاليا . واوّلاً الى دير
جبل كسّين الشهير برهبان مار بندكتس . ثمَّ الى مدينة نابلي نفسها .
وكان فيها مدرسة جامعة جليلة * وكان توما مع صغر سنّهِ يفوق
ويبرع في استحكام العلوم . ويجيد في صلاح السيرة وتقوى الله *
فتخاطب يوماً مع راهب من رهبان مار عبد الاحد كان ذا
صلاح وتقوى . فخالج قلبهُ منذ ذلك اليوم الشوق الى ان يترهّب .
وفي سنة سبع عشرة من عمرهِ لبس اسكيم رهبنة مار عبد الاحد *

السفينة وهم يدعون لهُ ويثنون عليهِ * وفي مسيرهِ في البحر اهتمَّ كثيرًا بالصلوة ومداراة المرضى وارشاد الملاَّحين * واقتدى بسيرتهِ اهل السفينة . فكانت فرائض الدين تؤَدَّى فيها بضبطٍ كعادة الرهبان في ديرهم * وبلغ الى مدينة باريس في خامس يوم من شهر ايلول * وقبل كلّ شيء انطلق الى كنيسة مار ديونيس وشكر الله . واهدى لها هدايا نفيسة *

الفصل الثالث والعشرون

في الجهاد الصليبي الثاني الذي جاهدهُ لويس القديس
وفي وفاتهِ (سنة ١٢٧٠)

انَّ لويس الملك القدّيس بعد ما رجع من ارض فلسطين لم يترك الصليب . لانّهُ كان مفتكرًا ان يتكلّف جهادًا ثانيًا لفكّ الاراضي المقدَّسة * واشتدَّ عزمهُ لمّا بلغتهُ الأَخبار السيّئة عن تلك البلاد . وذلك انّهُ بعد سفرهِ ضبط الأَسلام بعضًا من الحصون التي كان قد حصّنها . وكانوا يلجئون النصارى الى الارتداد عن دينهم والتديّن بدين محمّد * فعزَّ الامر عند لويس . واظهر قصدهُ ان ينطلق لإِنجاد اولئك المسيحيّين . ثمَّ دبّر مصالح مملكتهِ . ودعا الامرآء والاشراف الذين في أَملاكهِ ان يحذوا حذوهُ ويحملوا الصليب

معهُ * فاجابوا الى دعوتهِ . وفي قليل من الزمان اجتمع تحت يدهِ جيش عظيم قويّ * فنزل في البحر في شهر تمّوز سنة ١٢٧٠ . وتوجّه نحو مدينة تونس في بلاد المغرب * وسبب انطلاقهِ بعسكرهِ الى ذلك البلد كان أَنَّ ملك تونس كان قد وهّمهُ انهُ يروم ان يتنصّر لولا الخوف من رعيّتهِ . فكان لويس يرجو انَّ تنصّر ذلك الملك يسهّل امر استرداد الارض المقدَّسة . ولذلك همّهُ حصول ذلك جدًّا * وكان يقول «يا ليتني اكون اشبينًا في عماد ملكٍ عربيٍّ» * ولكن بعد قليل خاب ذلك الامل وزال . فانّ ملك تونس اوّل ما بلغهُ خبر وصول الصليبيّين الى ارض المغرب . قبض على جميع النصارى الذين في تونس . وتهدَّدهم بالقتل ان دنا عسكر الفرنساويّين من المدينة * فلمّا راى لويس المدينة محصّنةً جدًّا وفيها حراسةٌ قويَّة . لم يباشر امرًا . واصطبر أَنْ ياتيهُ المدد الذي كان ينتظرهُ . واكتفى بان يحجر عسكرهُ عن اذى اهل البلاد . فجعل حولهُ خندقًا وسدًّا * ولكن لم يمرّ زمان الاَّ وطاح بجيوش الفرنساويّين الطاعون وداءَ الامعاءِ . وكان سبب ذلك شدَّة الحرّ الذي لم يكونوا معتادين عليهِ ورداوة المياه . حتَّى عطب منهم نحو نصفهم * واصاب الداءَ الملك نفسهُ . فخال من اوّل يوم أَنَّهُ لا محالة من الموت * ولكنّهُ في ذلك كلّهِ ما عدم نجابتهُ . لا بل انجب اكثر ممّا سبق . فانّهُ مع شدَّة المهِ لم يعطّل مصالح الحكومة .

الفصل الثاني والعشرون

في سفر لويس الملك القديس الى ارض فلسطين

انَّ المصريّين امسكوا عندهم كثيرًا من الأَسرى المسيحيّين الفرنساويّين بخلاف شروط العهد. وكانوا يرومون ان يحملوهم على ترك دينهم. وهذا هو الذي منع لويس ان يرجع الى ارض فرنسا كما كانوا يلحّون بهِ * فتوجّه الى ارض فلسطين بنيّة ان يخلّص بقيّة الماسورين من يد المماليك وان يتدارك حال الارض المقدَّسة المائل الى الخراب. فبلغ بسلامةٍ الى مدينة عكّة * فاستقبلهُ اهل المدينة باكرام واعزاز. وخرجوا للقائهِ بالزفاف البهيّ الى شطّ البحر * وكان العسكر الذي بقي لهُ نزرًا جدًّا بالكدّ يبلغ ستّة الآلاف. وبهذا العدد القليل لم يمكنهُ ان يباشر الحرب * ولكنّهُ لمّا التمس منهُ النصارى الذين في تلك البلاد ان يبقى عندهم زمانًا. اجاب الى سؤَالهم. وارسل اخويهِ الى ارض فرنسا * وفي مدَّة اقامتهِ في الارض المقدّسة. حجَّ الى الاماكن القدسيّة التي تشرّفت بحياة مخلّص العالم. وزارها بعبادةٍ متّقدة واحترام فائق * ولمّا انطلق الى الناصرة. وكان يوم عيد البشارة. نزل من بُعدٍ عن الفرس اوّل ما راى هذه المدينة المقدّسة. وجثا على ركبتيهِ. ثمَّ قضى باقي الطريق ماشيًا. مع انهُ كان تعبان قد اعيا وكان ذلك اليوم قد صام على الخبز

والمآء * واشتاق ان يحجّ الى اورشليم . فاباح لهُ ذلك السلطان الذي كانت تلك المدينة بيدهِ • ولكنّ اصحابهُ فهّموهُ انّهُ ان انطلق الى اورشليم من غير ان يفكها . كان ذلك سبباً لسائر الملوك المسيحيّين الذين يقصدون الارض المقدّسة ان يتشبهوا بهِ ويحسبوا انفسهم في حلٍّ من نذرهم ويكتفوا بالحجّ الى المدينة المقدّسة مثلهُ * فابطل الذهاب الى تلك المدينة • وقضى كلّ الزمان الذي فيهِ اقام في ارض فلسطين في اصلاح احوال النصارى الذين هناك . ورمّ الحصون التي كانت لهم وجعلها منيعة * وبينما كان مشتغلاً بكلّ هذه الأعمال الخيريّة . اذ وردت اليهِ منعاة امّهِ بلنكة . فبكاها بكآءً مرًّا . الاّ انّهُ سلّم للارادة الربّانيّة كما يليق للمسيحيّين . وركع امام المذبح . وناجى الله تعالى قائلاً « يا ربّ اشكرك على انّك ابقيت لي في الحيوة الى اليوم امّي التي تستحقّ ان احبّها بكلّ قلبي : انّها كانت عطيّة من رحمتك . والآن قد استرددت ما هو ملكك . فلا حقّ لي أنْ اتذمّر * نعم انّي كنتُ احبّها حبًّا فائقاً . ولكن لمّا كانت ارادتك ان تعدمني ايَّاها . فليكن اسمك مباركاً الى دهر الداهرين » * وهذه وفاة امّهِ اخطرت على بالهِ امر الرجوع الى ارض فرنسا . وكان لهُ نحو ستّ سنين منذ خرج منها * فاوصى وصيّتهُ الاخيرة . وجهّز حصون فلسطين بحرّاسٍ . ورحل من مرساة عكّة في شهر نيسان من سنة ١٢٥٤ . وشيّعتهُ الجماعة كلّها مع الأشراف والأساقفة الى

الفرنساويين بلآءً عظيماً لا يوصف باللسان. فانَّ الأَسلام هجموا على رجالهِ كالليوث ومزّقوهم. فاسرع عسكر الفرنساويين لإِنجاد اخي الملك وفرقتهِ. واشتبك القتال بين الجانبين وفيهِ قُتل ابن الملك * وباد من الجانبين خلقٌ عظيم. الّا انَّ العدوّ امكنهُ ان يرمّ حالهُ لانّهُ كان في ارضهِ. ولم يكن الامر هكذا مع الصليبيّين * فانّهم ما عدا هذه النازلة العظيمة قدح فيهم دآءٌ مُعْدٍ. وجعلهم في العُطْلة مدَّة شهور كثيرة. وانفدوا جميع ما كان عندهم من القوت. فادركتهم المجاعة * فرأى الفرنساويون ان لا محالة من ان يكرّوا الى مدينة دمياط. فلحقهم العدوّ. ولم يزالوا يتحرّشون بهم حتّى انَّ مسيرهم كلّهُ قضوهُ بالقتال * وانجب لويس الملك في تلك الوقائع وحمس. الّا أَنهُ في الآخِر اضطرَّ ان يقيم في مدينة صغيرة. فوقع في ايدي الاعدآء هو واخواهُ ومعظم عسكرهِ * وظهر لويس في الاسر كريماً نبيلاً كما كان في عرش المملكة. وابدع في القيود عظمةً كما لو انتصر في حومة القتال * وكان الترك نفسهم الذين استاسروهُ يتعجّبون من ثباتهِ. وكانوا يقولون عنهُ انّهُ يغلب في الفخر جميع النصارى الذين راوا * وكان اذا اساءوا اليهِ. يسلك مسلك الملوك الذين لا تخلّ النوائب بعظمتهم والمسيحيّين الصادقين الذين يستغنون بالله عن كلّ شيء والأَبطال الشجعان الذين تعلو نفسهم على كلّ شدَّة * وكان الذين كان هو في رقّهم يقولون لهُ

« كيف وانت اسيرٌ تعاملنا كأنّنا نحن مستاسرون عندك » * ولمّا راى سلطان مصر هذه الكرامة العجيبة في لويس. عرض عليهِ ان يطلقهُ الى الحرّية بشرط ان يدفع لهُ عشر ربوات من الذهب لفدائهِ وفداء سائر خاصتهِ * فقال الملك « انَّ نفس ملك فرنسا لا تُفتدَى بالذهب: اعطيكم مدينة دمياط فديةً عنّي. وادفع لكم المبلغ الذي تريدونهُ منّي فداءً عن رعيّتي » * فتعجّب الملك من هذا الجواب. وترك لهُ خُمْس ثمن الفدى * فضُرب العهد. وقبل ان يُجرَى بالعمل مات السلطان قتيلاً بيد احد امرائهِ. فوقع لويس من جديد في الحيرة. واتى المماليك عليهِ في السجن وهم يتقدون بنار الغضب. فلم يفرق لويس عند دخولهم ولا تحرّك قلبهُ. فتعجّبوا من شجاعتهِ * ثمَّ انهم اثبتوا العهد معهُ. لا بل افتكروا في ان يجعلوهُ سلطانًا عليهم. الاّ انهم خافوا منهُ أنْ يسلّط دين النصارى عليهم. فامتنعوا من ذلك الراي * ولمّا أُطلق لويس من الاسر. اجرى كلّ ما تعاهد بهِ. فانهُ سلّم للاسلام مدينة دمياط في اليوم المؤجّل. ودفع لهم مبلغ الذهب المصطلح عليهِ. ولمّا احسَّ أنّهم توهّموا في احصائهِ وهو كان ناقصًا. بعث لهم تمامتهُ. ولو انهم لم يقفوا على شروط العهد بكلّ الضبط *



فرحلت سفن الفرنساويين من جزيرة قبرس . وانتهت الى ما قدَّام مدينة دمياط التي كانت من احصن مدن ديار مصر * وكان العدوّ ملازمًا الساحل ليمنع نزول الصليبيّين الى البرّ * فرقي لويس الملك الى اعلى السفينة التي كان فيها . واجتمع اليهِ اصحاب دولتهِ واعوانهُ . فخطبهم قائلاً « يا ايّها الرجال الكرام انّنا قد باشرنا هذا السفر بآيةٍ ربّانيّة . فلا نشكّنّ انَّ الله لهُ مقصد جليل فيهِ * انّنا اذا اتّفقنا واتّحدت افكارنا . لا يمكن ان نغلب . ومهما كانت عاقبة الامر . فنحن رابحون : فانّنا ان متنا . نلنا اكليل الشهادة الذي لا يبلى . وان انتصرنا . تمجّد الله * فهلمّ نحارب في سبيلهِ تعالى . فيسبَّح اسمهُ فينا * لا تنظروا الى شخصي . فانّي انّما انا انسان حياتهُ هي في يد الله » * فلمّا سمعوا هذا الكلام من الملك . اتّقدت في قلوبهم نار النجابة . وتوجّهوا بوجههم نحو الشاطئ متهلّلين * وكان رسول البابا في السفينة التي كان فيها الملك . وكان حاملاً الصليب عاليًا جدًّا ليشوّق قلوب الجنود بمنظرهِ . وقدّام تلك السفينة كانت تمشي فُلَيكة حاملة الراية التي كان ملوك فرنسا يمشّونها قدّامهم عند ذهابهم الى الحرب * ووصلوا الى موضع ضحضح . فلم يمكنهم ان يسيروا بالسفن نحو الشطّ لقلّة الماء . فقفز الملك في البحر والسيف في يدهِ . وتبعهُ العسكر كلّهُ * فانقضّت عليهم السهام من العدوّ كالبَرَد . الّا انَّ العدوّ لم يمكنهم ان يقفوا مقابل

الفرنساويين. فولّوا منهزمين مبلبلين . وهرب ايضاً سكّان قلعة دمياط وتركوها . فدخلها الملك بلا ممانعة * ولم يدخل لويس المدينة برهج وكبكبة وتعظّم كعادة الملوك المتظفّرين . بل كما يليق للملوك المسيحيّين الحقيقيّين بتواضع وتذلّل وهو ينسب غلبتهُ الى الله تعالى لا الى نفسهِ : فانهُ دخل المدينة بزفاف كالعادة الجارية في الكنائس في الاعياد حافياً هو والامرآء والاقليرس . وانتهوا بهذا الحال الى الجامع الكبير الذي كان يوماً بيعةً نصرانيّة . فاستردّوهُ . وطهّرهُ الرسول البابويّ وقدّس فيهِ تقدّاساً احتفاليّاً *

الفصل الحادي والعشرون

في استئسار لويس الملك القدّيس (سنة ١٢٥٠)

انَّ لويس الملك القدّيس بعد ما تملّك على مدينة دمياط . اراد أَنْ يسير الى مدينة القاهرة قاعدة بلاد مصر * فاقتضى ان يحارب عسكر المسلمين . [وكانوا تركاً يسمّون المماليك . وملكهم كان اسمهُ المعظّم من نسل صلاح الدين الايّوبي] . وكان المماليك حالّين في مدينة المنصورة . فسار عليهم لويس بجيوشهِ وقاتلهم . ولكنَّ المسلمين دافعوا مدافعةً شديدة * واذا باخي الملك تجرّأَ خلاف امر لويس وتوغّل الى مدينة المنصورة . وجلب على راسهِ وعلى راس عسكر

اوعية من فضّة مرصّعة بجواهر. وبنى مسجداً شهيراً في موقع المصلّى في قصرهِ. واقام فيهِ قسوساً قانونيّين ليقيموا فيهِ الصلوة الجمهوريّة وسائر الخدم * وكرّس المسجد باحتفال وكبكبة عظيمة. واتّخذ لويس هذا المسجد محلّ خلوتهِ للصلوة. وربّما تهجّد الليل فيهِ. الاّ انهُ لم يكن مع كلّ ذلك يقصّر في الاعتناء بالمملكة وسياسة الامّة. اذ كان يعلم انَّ العبادة التي تخلّ باداء الواجبات التي على صاحبها ليست عبادةً حقيقيّة * فكان لويس يلقي الحافظهُ بعناية جزيلة على كلّ ابواب الحكومة. ويجعل واجبات المملكة اوّل همومهِ. والشاهد كثرة الآثار التي وصلت الينا من مُلكهِ. فانَّ الامّة الفرنساويّة قد اغتنت بما شادهُ لويس من المباني الجمهوريّة كالاديرة والبيمارستانات ومحاوي الفقراء وما اشبه ذلك. وتزيّنت بالشرائع الحكميّة التي اشترعها *

الفصل العشرون

في الجهاد الصليبي الاوّل الذي تكلّفهُ لويس القدّيس (سنة ١٢٤٨)

انَّ لويس وقع في مرض عضال. وصار ذلك سبباً ليتكلّف الجهاد الصليبيّ الاوّل لفكّ الارض المقدّسة. فانهُ بقي ساعةً كالمائت. فاضطرب اهل فرنسا قاطبةً وخفقت قلوبهم. وصاروا

يصلّون ويتضرّعون الى الله ليردّ اليهم ذلك الذي كان اباهم وملكهم * ولمّا ادنف لويس . وضعوا على بدنهِ عود الصليب الكريم وسائر الذخائر القدسيّة التي كانت قد اتتهُ من قسطنطينيـة . فافاق وانطلق لسانهُ . واوّل كلمة لفظها كانت انّهُ استدعى اسقف باريس وسأَلهُ صليباً كرسم المحاربين الصليبيّين . لانّهُ نوى ان يباشر الجهاد في فكّ الارض المقدّسة * فتمنّع الاسقف من ذلك . ولكنّ الملك الحّ عليهِ حتّى انّهُ لم يبقَ للاسقف مندوحة ان ينكر عليهِ ما طلبهُ * فلمّا اخذ لويس الصليب . قبّلهُ بشوقٍ وانعطاف وقال بانّهُ قد تعافى * وكان الامر صحيحًا . فانّ لويس بعد قليل ظهر بين امّتهِ . ورقّ قلبهُ لما رآهُ فيهم من الفرح والابتهاج لسبب رجوعهِ الى العافية * وجعل يستعـدّ بانواع الأَعمال البِرّيّة لإِنجاز نذرهِ بمباشرة الجهاد الصليبيّ * فاخذ الصليب مثلهُ اكثر امرآء دولتهِ . وتبعهم أَشراف المملكة والعامّة * فركب الملك السفن بجيشهِ . وقصد ارض مصر ليحارب سلطانها اذ كان قد استولى على الارض المقدّسة * فبلغوا بسلامة الى جزيرة قبرس . وكان الملك قد امر ان يجهزّوها بما يقتضي للحرب * ومن هناك ارسل الى سلطان مصر [وكان اسمهُ الملك صالح . وكان من ذرّيّة صلاح الدين الايّوبي الكرديّ] وسامهُ الحرب او يردّ الى النصارى المدن التي كانت قد أُخذت منهم * فابى السلطان ان يردّها . وتهيّأَ للحرب *

الفصل التاسع عشر

في جلب اكليل الشوك الى فرنسا في عهد القديس لويس (١٢٣٩)

بعد ما باشر لويس الحكم بقليل من الزمان. جاءته فرصة فيها اظهر تقواهُ وحبهُ للديانة * وذلك انَّ بلدوين الثالث ملك قسطنطينيّة [صاحب دولة الافرنج الذين ضبطوا تلك المدينة من ملوك الروم سنة ١١٩٥] اتى الى ارض فرنسا مستنجدًا مَلِك هذه البلاد في شان مُلكهِ الذي كان قريبًا أَنْ يسقط. لانَّ هذا المُلْك الافرنجيّ كان من اصلهِ ضعيفًا. ولم يمكنهُ ابدًا ان يقوى. وكان الروم في ذلك الزمان ينازعونهُ * فتلقّى لويس بلدوين باجزل الإكرام واحسن مثواهُ. واراد بلدوين ان يظهر شكرهُ لهُ. فاهدى لهُ اكليل الشوك الذي بهِ كُلّل ربّنا يسوع المسيح. وكان محفوظًا منذ زمان غير معهود اوّلهُ في مسجدٍ من قصر ملوك الروم بقسطنطينيّة * فقبل لويس هذه الهديّة بما لا يوصف من الفرح والابتهاج. وارسل من ساعتهِ رسلاً الى قسطنطينيّة ومعهم كتبٌ من بلدوين الملك بامر ان يسلّوهم ذلك الاكليل الشوكيّ الثمين * فلمّا بلغ الرسل الى قسطنطينيَّة. وجدوا أَنَّ اهل المدينة كانوا قد اضطرّوا ان يرهنوا اكليل الشوك الذي الكلام عنهُ بيد اهل بندقية[1] عن

(١) اعلم انّ بندقية (ويسمّيها اهلها بَنَتْسيه) هي مدينة من مدن ايطاليا

قرضة مبلغ جسيم اقرضوهم اياهُ * فاقتضى اداء ذلك المبلغ لفكّ الاكليل * فلمّا بلغ الى لويس الملك خبر ذلك العهد. فكّ الاكليل باداء مبلغ القرضة من كيسهِ. فأُخذ الاكليل الى فرنسا وهو مختوم بختوم المملكة القسطنطينيّة وختوم مشيخة بندقية * ولمّا سمع الملك انَّ الاكليل قد قرب قدومهُ الى مدينة سَنْس من مدن فرنسا. خرج لملتقاهُ الى مسافة بعيدة مصحوبًا باهل دولتهِ وجمع كبير من الاقليرس * فلمّا وقعت الهديَّة الكريمة تحت نظرهِ. انسجمت الدموع من عينيهِ. وبكى معهُ الحاضرون اجمعون * ثمَّ حمل هو واخوهُ روبرت الصندوق الذي كان يحوي الاكليل. وذهبا بهِ وهما ماشيان حافيين بين خلقٍ لا يعرف عددهم الاّ الله. حتّى بلغوا الى مدينة سَنْس المذكورة الى كنيسة مار اسطفانس * ثمَّ جُلب الاكليل الى مدينة باريس. فخرج لويس هناك ايضًا وتلقّاهُ بالتوقير والتجليل. ثمَّ اودعهُ في قصرهِ الملكيّ * وبعد سنين وافتهُ من القسطنطينيّة ذخائر اخرى قدسيّة. اي قطعة كبيرة من عود الصليب الكريم. ونصل الحربة التي بها طُعن جنب ربّنا. والاسفنجة التي سُقي بها وهو على الصليب خلاًّ ومرارة * فوضع هذه التحف في

شهيرة من وجوه كثيرة. وكان اهلها في الزمان الذي كلامنا عنهُ مستقلّين من حكم كلّ ملك. فكانوا يدبّرون السياسة بيد اشخاص من افاضلهم يختارونهم في اوقات معلومة. وكان رئيسهم يسمّى الدوجا ويسمّون المشيخة] *

والاعمال الصالحة منذ نعومة اظفارهِ . ودرّبتهُ في تقوى الله * وكانت تقول لهُ كثيرًا هذه الكلمات التي تليق بامٍّ مسيحيّة فاضلة . وهي « يا ابني انت عزيز عليَّ . ولكن لأَنْ اراك تعدم تاج المملكة والحيوة احبُّ اليَّ من ان اراك ترتكب خطيّةً واحدة مميتة » * وكان لويس مع صغرهِ يلتذّ بنصائح والدتهِ وارشاداتها . ويحفظها في قلبهِ * واذ لم تكن بلنكة كافيةً للقيام بتربية لويس . اختارت لهُ اشخاصاً ذوي حكمةٍ كاملة ليتولّوا تثقيفهُ . فاحسنوا تربيتهُ . حتّى صيّروهُ متّصفاً بصفات الملك العظيم ومزيّناً بخلال الرجل القدّيس الكامل * فكانوا يعلّمونهُ أَنَّ كلّ ما في الديانة المسيحيّة هو عظيم يعلو بلا قياس على كلّ ما يجلّ في الدنيا * وكان حسن خلق لويس ولطافة شيمهِ يسهّلان لهُ الاقتداءَ بوصايا مهذّبيهِ . فيزداد صلاحاً وفضلاً فوق ما كانوا يدرّبونهُ اليهِ * واظهر في حياتهِ كلّها القدر الزائد الذي بهِ كان يجلّل نعمة العماذ بحبّهِ الخصوصيّ للموضع الذي فيهِ تعمّذ * وربّما امضى اسمهُ لويس دي بواسي [وبواسي هو اسم الموضع الذي فيهِ اعتمذ] بدل لويس ملك فرنسا . ليبيّن انّهُ يفضّل اسم المسيحيّ على اسم ملك فرنسا * وكُرّس ملكاً في مدينة رَمْس [وهي مدينة اوّل كرسيّ من كراسي فرنسا المطرنيّة] في الاحد الاوّل من السبّار سنة ١٢٢٦ * وجعلها لويس عبادةً لله مخصوصة . بل اتّخذها عهدًا بهِ واثق الله عزّ وجلّ ان يبذل الجهد في صلاح

امتهِ . واستعدَّ لها برياضات تقويّة متضرّعًا الى الربّ ان يسكب
على روحهِ مسحة النعمة القدسيّة * ووقعت من قلبهِ موقعًا جليلاً
آيةٌ من المزمور الذي ترنَّموا بهِ في بدء الخدمة . واتّخذها على نفسهِ .
وهي « اليك يارب رفعتُ نفسي . يا الاهي بك رجوتُ فلا اخزى » *
وتعلّم لويس ايضًا العلوم . وخاصّةً علم سياسة الناس وعلم الحرب .
وعُلّم ايضًا علم التواريخ (وكان يتّخذ علم التاريخ مدرّس الملوك) .
وغير ذلك من المعارف التي لا يحسن بالملوك العظام ان يجهلوها *
وكان يفهم اللغة اللاتينيّة فهمًا كافيًا . حتّى انهُ كان يقرأ كتب الملافنة
القدّيسين ويقدّس بذلك درسهُ وتروّضهُ في العلم * ولمّا تولّى
لويس زمام الحكم . جعل يؤدّي كلَّ الواجبات التي عليهِ بكلّ
نصاحة وضبط * فكان كريمًا سموحًا كلّما اقتضى ان يكون كذلك .
الّا أَنّهُ كان يحبّ الاقتصاد . ويفضّل التقليل في كلّ شيءٍ على
الزخرفة الزائدة . فكانت ثيابهُ ومائدتهُ وقصرهُ وكلّ ما لهُ شهادةً
على انّهُ يبغض الإسراف والتعظّم * وكان اذا فرغ من مهمّات
المملكة . يطيب لهُ ان يجالس الاشخاص الاتقياءَ . وكان كلّ يوم
يقضي ساعات في اداءِ فرائض الديانة . واذا عابهُ على ذلك اعوانهُ
الذين لم يحبّوا مثلهُ تقوى الله . يجاوب قائلاً « يا للعجب من الناس .
انّهم اذا تفرّغتُ للصلوة يلوموني . واذا قضيتُ الزمان بدل ذلك
في لعب القمار وفي الصيد لا يقولون شيئًا »

الضلالات والهرطقات. وانطلق منهم سبعة الى مدينة باريس قاعدة بلاد الفرنساويين. فأُعطوا هناك ديرًا كان على اسم مار يعقوب. ومن ذلك سُمّوا يعقوبيين. وفي سنة ١٢١٩ اذ جاء عبد الاحد القدّيس ليفتقد رهبان هذا الدير. وجدهم قد بلغوا عدد الثلاثين * وكان مار عبد الاحد يتهلّل فارحًا اذ يرى عمل الربّ يقوى ويمتدّ. وكان يتضرع الى الله بلا فتور في توبة الخطاة ورجوع الضالّين * ولو لم يلزمهُ صلاح اخوتهِ الرهبان ان يبقى معهم لتدبيرهم. لكان ينطلق الى بلاد الكفّار وينذر بالانجيل ويُقتَل شهيدًا في دين المسيح * ولكثرة ما كان يحبّ خلاص النفوس وانتشار دين الحقّ والسيرة الصالحة بين الناس. جعل اوَّل قاعدة من قواعد رهبنتهِ الانذار. وكان يتمنّى ان يباشرهُ جميع تلاميذهِ * واذ كانت وظيفة الانذار جليلة في نفسها. كان يهيّئ لها رهبانهُ ويثقّفهم بالعمل بجميع الفضائل. وكان يعلّمهم صناعة الكلام النافذ في قلب السامع لا المطرب الاذنين. وذلك بايقادهِ في قلوبهم نار المحبَّة للقريب * وخطب يومًا. فلمّا فرغ. سُئل «في ايّ كتاب قرأتَ خطبتك». فقال «في كتاب المحبَّة» * وتنبّأ عن ساعة موتهِ قبل أَنْ يدركهُ الاجل بزمان. فانّهُ في اواخر شهر تموز قال لبعض اصحابهِ «تروني في عافية. ولكنّي سابارح الدنيا قبل عيد السيّدة (اي انتقالها الى السماء)» * وبالحقيقة طرقتهُ الحمّى في الوقت

المؤجّل. فوعظ رهبانهُ ونصحهم أَنْ يسلكوا مسلكًا صالحًا ليقتدي بهم العلمانيّون وان يشرّفوا منزلتهم بحسن اعمالهم. ثمَّ سلَّم الروح بهدوٍ وهو منضجع على الرماد * اننا اذا اعتبرنا الفوائد الجليلة التي حصلت من الرهبنات دينًا ودنيا. وقايسنا جميع ما عملوهُ لإرشاد الناس وردعهم عن الضلال والسيّئات. والخدمات التي بها عاونوا الرؤساءَ والقسوس في تدبير مراعيهم. فلابدّ من ان نقرّ انَّ الرهبنات قد اسبغت على الكنيسة وعلى المملكة شيئًا لا يوصف من المعروف والاحسان *

الفصل الثامن عشر

في ولادة لويس التاسع القدّيس ملك فرنسا وتربيتهِ (سنة ١٢١٣)

انَّ الله تعالى ملأَ مكيال الخيرات التي جاد بها على ذلك العصر الشهير بكثرة الذوات الذين ظهروا فيهِ. برزقهِ امّة الفرنساويّين ملكًا زيّن عرشها بمناقبهِ وفاق في حسن سيرتهِ وجلالة فضائلهِ. وهو القدّيس لويس ملك فرنسا. وهو المسمَّى لويس التاسع * انَّ لويس كان عمرهُ اثنتي عشرة سنة يوم مات ابوهُ. فربّتهُ امّهُ بلنكه او بلَنْشَه التي تولّت زمام الحكم في مدّة صغرهِ * وكانت بلنكه امراة فاضلة نقيّة. فعلّمت ولدها لويس ان يحبّ الفضائل

لأنَّهم كانوا مظلّلين بحماية احد حكّام تلك البلاد * فرأى الكاثليكيّون نفسهم في حاجة ان يردعوا جسارة اولئك المفسدين. فنادوا بالجهاد الصليبيّ عليهم لسبب انّهم كانوا يخرّبون البلاد اكثر ممّا لسبب ضلالهم في الدين * وتولّى هذا الجهاد احد الامرآء الفرنساويّين. وصار قائد عسكر الصليبيّين. وطارد الألبجيّين وضيّقهم. وربّما افرط في تدميرهم واتى بما يتجاوز حدود الرحمة. وهو كان معذورًا في ذلك. لانَّ الألبجيّين كانوا بلآء عظيمًا على الجمهور. فرأى أَنْ لا سبيل للخلاص من مكايدهم ودهائهم الاّ بإفنائهم * وامّا القدّيس دومنيك فلم يتداخل في الجهاد. بل كان الحلم والصبر اخصّ سلاحهِ * ولمّا راى عسكر الصليبيّين يدنو. شدَّد عزمهُ في إنذار الهراطقة لعلّهُ يردّ عنهم الخطر الموافي عليهم * ثمَّ لمّا وجد نفسهُ بين الصليبيّين وراى انَّ كثيرًا منهم لم يكن مرادهم الاَّ النهب والسلب وانّهم كانوا ياتون بالمنكرات. اقبل عليهم وجعل يعظهم ليردعهم عن ذلك. واهتمَّ بصلاحهم مثلما كان قد اهتمَّ بهدى الألبجيّين *

الفصل السابع عشر

في اثبات رهبنة الدومنكيّين (سنة ١٢١٦)

انَّ الحرب التي ثارت في بلاد الألبجيّين لم تكن الطريق

الوحيد الاحسن لترجيع الايمان الصحيح في تلك البلاد وإِثباتهِ فيها .
بل اراد الله ان يبطّل الطغيان بالطوع والاقتناع اكثر مما
بالتخويف والتكريه * فالهم قلب دومنيك القدّيس ان ينشئ جماعة
من المترهّبين يكون دابهم انذار الناس ووعظهم ونشر الايمان
وجذب الأَقوام الى التوبة وقداسة السيرة * وفي هذه الغاية ضمّ
دومنيك اليهِ رفاقًا اجابوا الى دعوتهِ بان يعيشوا معًا . ورضوا
بالاسلوب الذي سطرهُ لهم * واستصوب اسقف تولوزه (مدينة
من مدن فرنسا) هذا الراي . وافرغ وسعهُ في اجرآئهِ * فانطلق
الاسقف بدومنيك الى رومية لنوال تايد رهبنتهِ من الحبر الاعظم *
فوُجد في الاوّل مشكلات . فحلّها دومنيك كلّها . وعند ذلك
اثبت البابا الرهبنة الجديدة وايّد قوانينها بسلطانهِ * واعطى
الاسقف اولئك الرهبان الجدد كنيسةً وهي اوّل كنيسة حازوها .
وكانت مسمّاةً على اسم مار رومانوس في مدينة تولوزه . وانضمَّ الى
تلك الرهبنة أَفواج من اهل المدينة * وامتدَّ حبّ هذه الرهبنة
الى سائر الولاية . فدعت الحاجة بعد قليل ان يقام اديرةٌ شتّى في
مدن اخرى * وسُمّي هولآء الرهبان الاخوةَ الواعظين * وشاع
اسمهم في كلّ مكان . حتّى دخل رهبنتهم اشخاص من اهل الفضل
والجاه * وعند ذلك شرع القدّيس عبد الاحد يرسل رهبانهُ الى
البلاد المتفرّقة لينذروا بالتوبة ويردّوا عن نقاوة الايمان دغل

الفصل السادس عشر

في انشآء رهبنة الاخوة الواعظين (سنة ١٢١٦)

انَّ الرهبنة الثانية التي نشأَت في ذلك الزمان كان صاحبها دومنيك او عبد الاحد القدّيس * كان دومنيك من اهل البيوتات في اسبانيا. وكان منذ صغرهِ يشتاق الى العمل في خلاص النفوس ولاسيّما اصحاب الضلالات والطغيان * وتقدَّمت لهُ فرصة مناسبة. وذلك انَّ دومنيك نُصِب قانونيًّا اي جُعل من اكليرس كرسيّ كنيسة أُزمة من مدن اسبانيا الذين يسمَّون قانونيّين (١). وكان اسقف تلك المدينة قد امرهُ البابا أنوكنتيوس الثالث ان يهتمّ بارشاد فرقة من الهراطقة ظهرت في ذلك الزمان يسمَّون الألبجيّين. وكانوا في مدينة اسمها أَلْبي. وجذبهم الى الايمان القويم * فرافق دومنيك اسقفهُ في هذه الرسالة الرسليّة. وبذل جهدًا جزيلاً في هدى اولئك القوم الضالّين * اعلم انَّ الألبجيّين كانوا

(١) [انَّ القانونيّين في كنائس اللاتين هم جماعة مختارة من القسوس يخدمون كنيسة الكرسي. ويلازمون الاسقف في اكثر احوالهِ. ويقيمون الصلوة الجمهوريّة والقدّاس الكبير كلّ يوم. ويعتاشون من اوقاف الكرسي. ولهم رسوم وضوابط لنظام سلوكهم وخدماتهم * وهم مميَّزون من سائر القسوس بلبسهم وبغير ذلك ممّا يطول شرحهُ * واذا فرغ الكرسي يتولّون هم سياسة الابرشيّة باقامة واحد منهم يسوسها بصفة نائب] *

جماعة من الملحدين مختلفين في المذاهب. الّا انهم كانوا جميعًا متفقين في احتقار سلطنة الكنيسة ورفض استعمال الأسرار وابطال قوانين البيعة كلّها ورسومها وعوائدها * وكانوا يجلبون معهم الخراب والبلآء في كلّ مكان. فانهم كانوا يتجمّعون افواجًا وجيوشًا وربّما بلغوا عدد ثمانية آلاف. فينهبون المدن والقرى. ويقتلون الكهنة. ويرذّلون الكنائس. ويكسّرون الآنية المقدّسة * ورأى المرسلون الذين ذهبوا لردّ اولئك القوم عن غيّهم صعوبة الامر والاخطار اللاحقة بهِ. ولكنّهم لذلك لم يكفّوا عن مباشرتهِ ولا ارتخوا في عزائمهم. بل كانوا مستعدّين ان يهدروا دمهم في نجاح هذه المصلحة * ونجّاهم الله من أخطار شتّى. منها انَّ الملحدين وضعوا كمينًا في طريق كان دومنيك عتيدًا ان يجوز فيهِ ليقتلوهُ. فافلت من ايديهم * ولمّا سألوهُ بعد ذلك «لو امسكوك ما كنت تصنع». قال «كنتُ اشكر الله واطلب اليهِ ان يجعل دمي يجري نقطةً نقطةً واعضائي تُقطَّع واحدًا بعد الآخر. ليطول عذابي ويعلو اكليلي» * وصار هذا الجواب ينخس قلوب الاعدآء * ثمَّ انَّ المرسلين اقاموا اكثر من مرّة جدالاً مع اولئك الملحدين بحضور العامّة. ونصروا الحقّ كلّ مرّة * وكان كثير من اولئك الهراطقة يرجعون عن غيّهم. ولم يكن يوم الَّا وفيهِ يهتدي اناس منهم الى الحقّ * ولكنَّ ذلك زاد قوم الملحدين قساوةً. فافسدوا في الارض وجلبوا الدمار.

وكثيرًا ما شتموهم وعيّروهم. وربّما رمتهم الصبيان ورعاع الناس بالحجارة والوحل * وكانوا هم يحتملون هذه الاهانات من اجل حبّ المسيح الذي كانوا ينذرون بحقّهِ فارحين بذلك * غير انهم في الآخِرِ بخلوص سيرتهم وصبرهم اظهروا لكلّ احد حقيقة ما كانوا عليهِ. وازالوا من عقول الجهّال ظنونهم السيّئة في حقّهم. وصار كلّ احد يحترمهم في كلّ مكان *

ولمّا رأى فرنسيس تلاميذهُ يكثرون. سطر لهم قانونًا فحواهُ اتّباع المشورات الانجيليّة. وزاد عليها فقط شيئًا من التمسّكات لاجراءِ عيشهم على نسق واحد * وانطلق الى رومية. ونال تثبيت قانونهِ من البابا انوكنتيوس الثالث * ثمَّ رجع وجمع تلاميذهُ في كنيسة ذات الملائكة المذكورة. وكانت خاصَّة رهبان مار بندكتس فوهبوها لهُ * ثمَّ اقبل على رهبانهِ. وجعل يرشدهم ويهيّئهم لمصلحة الانذار بالانجيل. ويهديهم الى سبل كمال السيرة واكتساب النفوس لملكوت السماءِ. وكان يوصيهم خاصّةً ان يتمسّكوا معتصمين بايمان الكنيسة الرومانيّة * وكان يقول لهم «لا تخافوا من انّنا نظهر محتقرين ادنياءَ. اتّكلوا على الله الذي غلب العالم: انكم ستجدون قومًا قساةً يؤذونكم. فتعلّموا ان تحتملوا الاهانات والشتائم بصبر» * ثمَّ ارسل تلاميذهُ الى بلاد شتّى لينذروا. وانطلق هو الى ارض مصر بنيَّة ان يموت شهيدًا * فلمّا بلغ الى مدينة دمياط. واجه ملكها. فقال لهُ

الملك «من ارسلك الينا». فقال «انَّ الله العليّ ارسلني لاهديك انت وقومك». فقال لهُ الملك «اقِمْ عندنا» * قال «ان تركتم دينكم وتمسَّكتم بدين الحقّ. اقمتُ عندكم * اوقدوا نارًا عظيمة. وانا واياك ندخلها. فترى ايمّا هو دين الحقّ». قال الملك «انَّ ايمّتنا يشفقون على نفوسهم من هذا التجريب. ولا يبعد ذلك من ان يثير فتنةً» * الَّا انَّ الملك انبسط بكلام فرنسيس وخلع عليهِ خلعًا نفيسة. فابى فرنسيس ان ياخذها * ولمَّا رجع فرنسيس الى مدينة اسِّيس. جمع روساء اديرة رهبنتهِ. فراى انَّ رهبانهُ في العدد قد جاوزوا خمسة الآلاف * وطلب بعضهم ان ينال من البابا امتيازًا بان يباح لهم ان يكرزوا في كلّ مكان بدون اذن اسقف المكان. فقال «كلَّا انَّكم لا تعرفون ما هي مشيّة الله: انَّهُ يريد منّا ان نطيِّب اوَّلاً خواطر الروساء بتواضعنا واحترامنا. وبعد ذلك يسوغ لنا ان نجذب قلوب رعيَّاتهم بكلامنا وحسن سيرتنا * فاذا راى الاساقفة سيرتكم مقدَّسة ولا تريدون ان تستعلوا على سلطانهم. فلابدَّ من ان يتضرَّعوا هم اليكم ان تتعبوا في خلاص النفوس المسلَّمة لهم * انَّ امتيازنا هو ان لا يكون لنا امتياز» *

بقليل يوجب السرور على محبّي الديانة اكثر من فتح مملكة اذا كان هذا الفتح غير موطّد * واول هاتين الرهبنتين هي المسمّاة رهبنة الاخوة الصغار. وكان منشئها مار فرنسيس * وُلد فرنسيس في احدى مدن ايطاليا اسمها أَسّيس * وكان ابوهُ تاجرًا. فاهتمّ بتربيتهِ وعلّمهُ حرفة التجارة * وكان فرنسيس في صغرهِ مع حبهِ للّهو اكثر من الصلوات يحبّ الفقرآء ويلاطفهم ويحسن اليهم على قدر طاقتهِ * ومنع ذات يوم احد الفقرآء صدقةً خلاف عادتهِ. ولكنّهُ ندم على ذلك اشدّ ندامةٍ. وجزم على نفسهِ أَنْ يتصدّق على كلّ من يسأَلهُ باسم الله * واصيب يومًا بمرض ثقيل. فعزم ان يهجر الدنيا ويعيش لله قانتًا * وبعد ايّام صادف فقيرًا لابسًا خلقانًا. فنزع ثوبهُ وكان جديدًا وكسا بهِ الفقير * وكان ذات يوم في سفر. فلقي في الطريق رجلًا ابرص قد بلغ بهِ البرص غايتهُ. فارتاع منهُ اوّلًا. ثمّ افتكر انّهُ يجب على من يعبد المسيح ان يقهر نفسهُ. فنزل من على الفرس. وقبّل الابرص واعطاهُ الصدقة * ولا بدع انّ الذي تكون هذه مبادئهُ. لابدّ من ان يتوغّل في قليل من الزمان في السيرة الفاضلة السامية * فرُؤي فرنسيس بعدها كأَنّهُ انسانٌ جديد. فكان يحبّ الاختلاء. ويتأمّل بشوقٍ في آلام ربّنا يسوع المسيح * واما ابوهُ فلم تعجبهُ هذه سيرتهُ المتوحّدة. فكان يوذيهِ كثيرًا. وانتهى الى انّهُ حرمهُ من الميراث * ولكنّ فرنسيس

جعل نفسهُ غنيًّا بالحقيقة حينما ابتدأَ أَنْ لا يملك شيئًا بل اغنى ممَّا كان في سابق حياتهِ. واحتمل كلّ شيءٍ بصبرٍ * وكان يقول «قد تركني ابي على الارض. فسبيلي ان اتوجّه بكلّ الاتكال الى ابي الذي في السموات» * ثمَّ انفرد في جوار كنيسة صغيرة مسمّاة على اسم العذراء ذات الملائكة. وجعل يخدم البُرْص ويعمل اشقّ ما يكون من أَعمال الرحمة والتواضع * وسمع يومًا قرآءة هذه الكلمات من الانجيل. وهي قول المسيح لرسلهِ «لا تحملوا ذهبًا ولا فضّة. ولا قميصين. ولا نعالاً. ولا عصاً». فاهتشّ فرحًا وقال «ها هوذا مرادي. ها هوذا ما اتمنّى من كلّ قلبي» * ومن ساعتهِ ترك حذآءهُ وقضيبهُ. وعاذ من الفضّة. وحفظ عندهُ قميصًا واحدًا فقط. وشدّهُ بمنطقةٍ من حبل. وهكذا امتثل امر الانجيل بحرفيتّهِ * ثمَّ اخذ يعظ الناس بالتوبة بكلام بسيط غير مصنّع. الّاَ انَّ وعظهُ كان سديدًا ينفذ في القلوب ويؤَثّر فيها * وتتلمذ لهُ كثيرون وحذوا حذوهُ في أَعمال التوبة وحرارة الدين. وكانوا مثلهُ ينادون بكلام الله. ويعظون كلّ الذين يلاقونهم بان يخافوا الله ويحبّوهُ ويحفظوا وصاياهُ * فكان من الناس من يسمع كلامهم ويصغو اليهِ. الّاَ انَّ كثيرين كانوا ينصدّون منهم لسبب كسافة لبسهم وقشفة عيشهم * وكانوا يسأَلونهم: من ايّ بلدٍ انتم. وما صناعتكم * وربَّما منعوهم المأوى كأَنَّهم مجرمون. فكانوا يضطرّون ان يقضوا الليالي في اروقة البيَع *

انّوكنتيوس الثالث البابا رسالةً فيها يعترف برياسة الحبر الروماني على الكنيسة كلّها. وكتب ايضًا بهذا المعنى الى البابا المذكور لاون ملك الارمن * فارسل انوكنتيوس الى الارمن احد كردنالات الكنيسة الرومانيّة اسمهُ بطرس قاصدًا رسوليًّا ومعهُ صُحُف وبلّيون(١) من كنيسة مار بطرس ليوشّح بهِ الجاثليق. وانعم على هذا الجاثليق ان يكون مستقلاً من رياسة كلّ بطريرك اجنبيّ. فانَّ البطاركة القسطنطينيّين كانوا يبذلون الجهد ليخضعوا طائفة الارمن لسلطانهم. وكان ايضًا بطريرك انطاكية اللاتيني يدّعي بالتصرّف في امّة الارمن بحسب حقّ البطاركة الانطاكيّين القديم * والبائن انَّ هذه مصالحة الارمن مع الكنيسة الرومانيّة دامت زمانًا كما يظهر من كثرة الرسائل التي ارسلها اليهم البابا انّوكنتيوس الثالث وخلفاؤهُ * ثمّ اننا نعلم من رسالة وجّهها البابا انّوكنتيوس الثالث المذكور الى بطريرك الموارنة وسائر الطائفة المارونيّة في سنة ١٢١٦ وسلّمها بيد ارميا العمشيتيّ بطريركهم نفسهِ (وكان قد انطلق الى رومية وحضر المجمع اللاتراني الرابع الذي عُقد سنة ١٢١٥) انّ الكردنال بطرس المذكور قاصد الكرسيّ الرسوليّ كان قد مرّ

(١) [اي درع او حلّة شرف منسوجة من صوف حَمَل مبارك في كنيسة مار بطرس في خميس الفصح. يلبسها الباباوات في المواسم * ومن عادة الاحبار الرومانيّين ان يكرموا بها البطاركة والمطارين الغربيّين والشرقيّين الطائعين للكنيسة الكاثليكيّة *

ايضًا على بلاد الموارنة الساكنين في جبال لبنان وسائر بلاد فونيقي . وانّ بطريركهم المذكور مع بعض اساقفتهِ وطائفتهِ بحضور ذلك القاصد البابويّ اعترفوا برياسة الحبر الروماني على الكنيسة الجامعة نيابةً عن المسيح وبسائر ما تعتقد بهِ الكنيسة الرومانيّة . ووعدوا ان يجرّوا بعض عاداتهم الطقسيّة مجرى الكنيسة الرومانيّة كما علّمهم الكردنال المذكور . وانّ خبر ذلك اوجب فرحًا جزيلاً للبابا والكردنالات . وانّ الحبر الاعظم مجازاةً للبطريرك اثبت لهُ بعض الحقوق والامتيازات ورسم لهُ أنْ ياخذ بلّيون الحبريّة من يد البطريرك الانطاكي اللاتيني . كما رسم البابا غريغوريوس التاسع بعد ذلك بنحو عشرين سنة على بطريرك الارمن نفسهِ * وجرت منذ ذلك اليوم عند طائفة الموارنة عوائد كثيرة لاتينيّة . وتشبّه اساقفتهم باساقفة الغرب في لبس التاج والخاتم . وتبعهم بعد ذلك في هذه الخلّة الاخيرة اساقفة سائر الطوائف الشرقيّة الذين تصالحوا مع الكنيسة الرومانيّة الى يومنا هذا] *

الفصل الخامس عشر

في انشآء رهبنة الاخوة الصغار (سنة ١٢٠٤)

أنّ حدوث رهبنتين شهيرتين بعد الجهاد الصليبيّ الرابع

القدّاس * وانتهت رسالة ثاوريان بتقريب طائفة الارمن الى الكنيسة الكاثليكيَّة * وفي سنة ١١٧٧ عقد البابا الكسندر الثالث مجمعًا مسكونيًّا في رومية . وهو اللاتراني الثالث . فارسل اليهِ عمانويل ملك الروم المذكور احد الاساقفة اليونانيّين نائبًا عن كلّهم * الّا انهُ لا ينكر انَّ تصرّف الافرنج الذين تسلّطوا على بلاد سورية وفلسطين قد ارخى قليلاً أَسباب الوصال بين الكنيسة الشرقيَّة والغربيّة : وذلك انَّ الافرنج لمّا استولوا على تلك البلاد . اقاموا بطاركةً واساقفةً من جنسهم على كثير من تلك الكنائس من دون اعتبار البطاركة والاساقفة الاصليّين الّا نادرًا * فلهذا السبب ولسبب انَّ اهل البلاد رأَوا عوائد روسائهم الجدد مختلفةً من عوائدهم . لم يكن بدٌّ من ان تؤَزّ في قلوبهم نار الضغينة التي كان بطاركة قسطنطينيّة قد اوقدوها حسدًا وظلمًا على الكنيسة اللاتينيّة * ولذلك فوجود الافرنج في بلاد المشرق اضرّ بصلح الكنيستين اكثر ممَّا نفع *

الّا انَّ الله مدبّر كنيستهِ المختارة . في ذلك الزمان عينهِ الذي فيهِ كان اهل المشرق باختلاط اهل المغرب معهم يتباعدون عن وصالها . شاء ان ينسّيها الم هذه الخسارة بتحريك قلوب الملوك والامم البعيدين عن حظيرتها وتشويقهم الى الانضمام اليها * فمن ذلك انَّ سلطان قونيه في اسيا الصغرى (المسمّاة الآن اناضول) واصل مراسلات ومكاتبات الى الكسندر الثالث البابا الرومانيّ

يسترشدهُ في حقيقة الدين المسيحيّ ويطلب منهُ اشخاصًا من عندهِ يشرحون لهُ ذلك * فارسل اليهِ البابا شرحًا مستوعبًا في اصول العقيدة النصرانيّة . ولكن لا يُعلَم كيف انتهت هذه المراسلة * واشتهر في القرن الثاني عشر ملك عظيمٌ من جيل التتر (الذين تفرَّع منهم الترك) كان اسمهُ الملك يوحنّا . وكان قد تنصّر على يد النساطرة وتمسّك بمذهبهم . وفتح بلادًا كثيرة وتملّكها . ثمَّ جعل مقرّهُ في مدينة سوس في عيلام * وكان هذا الملك يسمّي نفسهُ يوحنّا القسّيس . وبهذا الاسم يسمّيهِ المورّخون الغربيّون * فهذا الملك المشهور في زمانهِ ارسل الى البابا الكسندر الثالث رسولاً افرنجيًّا كان قد قصد تلك البلاد اسمهُ فيلبّس . يقول لهُ انّهُ يروم الاهتداء الى الايمان الصحيح الذي تتمسّك بهِ الكنيسة الرومانيّة . فكتب اليهِ البابا جوابًا لطيفًا . وبعث بهِ فيلبّس اليهِ ليرشدهُ تمامًا * ومن الامم الذين يستحقّون غاية الثناء في ذلك العصر لتقرّبهم الى وصال الكنيسة الرومانيّة امّ الكنائس كلّها هم الارمن * فانَّ جاثليقهم غريغوريوس ديغا كتب سنة ١١٨٤ الى البابا لوقيوس الثالث رسالة الطاعة والتسليم . فارسل اليهِ الحبر الاعظم جوابًا مع رسول . وشرح لهُ حقوق الكرسيّ الرومانيّ وامرهُ ان يتمسّك بايمان هذا الكرسي ويوافق عادات طائفتهِ مع عادات الكنيسة الرومانيّة * وفي سنة ١١٩٨ كتب جاثليقهم غريغوريوس ابيراد الى

ابتدأت المملكة اللاتينيّة في قسطنطينيّة. ولكنّها لم تدُم كثيراً. فانّهُ بعد سبعٍ وخمسين سنة استظهر اليونانيّون ووضعوا على عرش المملكة ميخائيل فاليولوغ. وكان من نسل الملوك الاوّلين * اعلم انّ تسلّط الافرنج على قسطنطينيّة لم يسهّل امر مصالحة اليونانيّين (وهم الذين يقال لهم الروم) مع الكنيسة اللاتينيّة كما كان يُنتَظَر. بل صار سبباً لينفصلوا منها انفصالاً تامّاً * وذلك انّ المساوئ والمنكرات الجسيمة التي ارتكبها الافرنج في فتح مدينة قسطنطينيّة ودخولها. جعلت الروم يبغضون اللاتين اشدّ بغضٍ. وهذا هو بالحقيقة الزمان الذي فيهِ حدث تماماً شقاق الكنيسة اليونانيّة المسمّاة الروميّة *

الفصل الرابع عشر

في حال الكنيسة الكاثليكيّة في بلاد المشرق في القرن الثاني عشر

[انّ الكنيسة الكاثليكيّة كانت قد انضرّت كثيراً في بلاد المشرق (والمراد بالمشرق اسيا وافريقية واوروبا اليونانيّة) منذ الشقاق الذي صار في القرن الحادي عشر على يد ميخائيل قرولاريوس. فانّ اليونانيّين كلّهم والملكيّين الذين وحدهم في تلك البلاد كانوا متمسّكين بالايمان الارثذكسيّ ومشتركين مع الكنيسة الكاثليكيّة

بواسطة ما كانت بطاركتهم الشرعيون يؤدّونهُ من الطاعة لحبر كنيسة رومية خليفة مار بطرس الرسول. شرعوا منذ ذلك الحين يتباعدون قليلاً قليلاً من شركة الكنيسة الكاثليكيّة باختراع الاحتجاجات الباطلة على اللاتينيّين وتهييج القلوب السليمة على الكنيسة الرومانيّة * الاّ انّهُ بذلك لم ينقطع تماماً حبل الوصال بين الكنيسة الشرقيّة والغربيّة. ولا الشرقيّون الارثذكسيّون لسبب تعلّلاتهم على اللاتينيّين تحرّشوا في اصول الديانة او احدثوا فيها تغييراً يُذكَر * بل لم يزل ملوك الروم القسطنطينيّون يواصلون حيناً فحيناً المكاتبات والمراسلات مع الاحبار الرومانيّين في أغراض شتّى. والاحبار الرومانيّون كانوا في الغالب يرعون خاطرهم * وكان هولآء الملوك كثيراً ما ياتون بما يأول الى صلاح الدين الحقّ * فمن ذلك انّهُ في نحو سنة ١١٧٥ كتب نِيَرْسِس جاثليق الارمن رسالةً الى عمانويل قمنين ملك الروم. فيها شرح ابواب معتقد ملّتهِ وعاداتها طالباً الاتّفاق مع الكنيسة اليونانيّة * فارسل اليهِ الملك رجلاً حكيماً فيلسوفاً اسمهُ ثاوريان. فاخذ هذا يتفاوض مع الجاثليق حتّى اقنعهُ بوجوب قبول ايمان المجمع الخلقيدوني الذي كان الارمن يرفضونهُ. واتّفق معهُ في ابقآء عاداتهم التي لا تخلّ بالدين. الاّ مادَّة سرّ الميرون فانَّ ثاوريان بيّن للجاثليق انّها يجب ان تكون من الزيت الحقيقيّ اي دهن الزيتون لا كما كان الارمن يتّخذونها من السيرج. وامر مزج المآء مع الخمر في

الفصل الثالث عشر

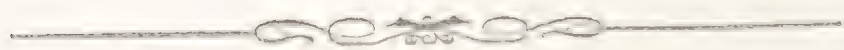
في الجهاد الصليبي الرابع (سنة ١١٩٥)

انّ قلّة نجاح الجهاد الثالث لم يمنع الافرنج من ان يباشروا جهادًا رابعًا بعد رجوع فيلبس اوغسطس ملك فرنسا بسنين قليلة. ولكنّ هذا الملك لم يتشبّث بهِ. بل باشر الجهاد الصليبي جماعة من امرآء فرنسا وايطاليا. كان يقودهم المركيس دي منفرّات وبلدوين القوميس دي فلَنْدرا. وتعاهدوا ان يجتمعوا في مدينة بندقية من اعمال ايطاليا. وكانت مشيخة هذه المدينة قد وعدت ان تقدّم سفنها لجلب الصليبيّين الى الارض المقدّسة * فانجز البندقيّون وعدهم. وجمعوا كلّ ما اقتضى من السفن. بل زادوا على ذلك انّهم ارادوا ان يشتهروا في هذه الحرب التي اقيمت لحبّ الدين. فجهّزوا من كيسهم خمسين سفينة بمجاذيف لحمل خمس ماية واحد من أشرافهم انضمّوا الى الصليبيّين * وكانوا كلّهم لا ينتظرون شيئًا الاّ قدوم الأبّان الصالح للسفر. واذا بالكَسْيس ابن ملك الروم القسطنطينيّ قد وافاهم طالبًا منهم العون لابيهِ على احد الخوارج كان قد انزلهُ من عرش المملكة وحبسهُ في سجنٍ ضيّق بعد انْ فقأ عينيهِ * وكان الكسيس بعد باعادة الصلح بين اليونان واللاتين. وان يدفع لهم مايتي الف دينار ورزقًا لقوت سنة صحيحة. وان

يسهّل لهم فتح الارض المقدّسة ويقيم فيها كلّ ايّام حياتهِ خمس ماية
فارس لحراستها * فاعجب الصليبيّين هذه الشروط . وعزموا على
تلبية دعوة ملك الروم ولو انّهم بذلك كانوا يبتعدون عن مقصدهم
الاوّل . وهكذا توجّه الصليبيّون الى نحو مدينة قسطنطينيّة بدل
فلسطين . وفتحوها في ستّة ايّام فقط * فهرب الذي كان قد خطف
الملك . وجعل الافرنج أَلكسيس ملكًا مكان ابيهِ . ولكن بعد قليل
قام احد اعوانهِ عليهِ وخنقهُ . وضبط المُلك منهُ * فعقد الصليبيّون
مشورةً ليروا ما ينبغي عملهُ في هذه الأَحوال . وظنّوا أَنهُ يحقّ لهم
ان ينتقموا للملك الذي كانوا هم قد انجدوهُ * فحاصروا مدينة
قسطنطينيّة من جديد . وفتحوها هجمًا وسلّموها للنهب * ولم يمكن
الضبّاط ان يردعوا الجنود . فاجروا في المدينة كلّ نوعٍ من
المنكرات * ولمّا تملّك الصليبيّون على قسطنطينيّة . افتكروا ان
يجعلوا واحدًا منهم ملكًا عليها . واختاروا بلدوين قوميس فلندرا .
وكان فاضلاً اثنى عليهِ اليونانيّون نفسهم . فأُلبس هذا الملك التاج
باحتفال ورهج في كنيسة القدّيسة صوفية . ومن ذلك العهد اتّخذ
اسم الملك القيصريّ على بلاد المشرق وتزيّا بزيّهِ * وتقاسم الامرآء
الصليبيّون بسائر معاملات المملكة الروميّة التي كانت في اوروبا .
واشتغلوا بالتوطّن والتوطّد فيها . وطرحوا من بالهم امر جهاد
الارض المقدّسة الذي من سببهِ كانوا قد تجنّدوا * وهكذا

الغلبة واستظهر جدًّا. وفتح اغلب المدن التي كانت بيد الافرنج * وحاصر مدينة اورشليم وامتلكها. وهكذا وقعت هذه المدينة من جديد بيد المسلمين بعد ما فتحها المسيحيّون بستٍّ وتسعين سنة * فلم يبقَ بيد المسيحيّين الافرنج من بلاد فلسطين ونواحيها الاَّ ثلاثة حصون معتبرة اي انطاكية وصور واطرابلس * ولمّا بلغت أَخبار هذه البليّة في اوروبا. جلبت معها الرعبة والانكسار. ومات منها البابا اربانس الثالث حزناً * وكان اذ ذاك ملك فرنسا مشتبكاً بالحرب مع ملك الانكليز. فلمّا بلغت اخبار تظفّر صلاح الدين. ارتاع الملكان من ذلك وتصالحا. وافتكرا في تدبير العلاج لردّ المجد للديانة المسيحيّة * ولكنّ هنري الثاني ملك الانكليز مات قبل أَنْ يبلغ هذه الامنيّة. فتكلّف الجهاد ابنهُ رِيكَرْد مع فيلبّس اوغسطس ملك فرنسا * وللقيام بنفقات الحرب فرضوا فريضةً على جميع اوقاف الكنائس والاديرة. سُمّيت عشور صلاح الدين. لانّها كانت العشر من اثمار الاوقاف وكانت محدودةً لاقامة الحرب على صلاح الدين * فسافر الملكان كلٌّ مع جيشهِ. وبلغ فيلبّس الى ارض فلسطين اوّلاً. وانضمَّ الى النصارى الافرنجيّين الذين كانوا يحاصرون مدينة عكّة منذ سنتين * فاستظهر المحاصِرون بهذا المدد. وهان عليهم فتح المدينة. الاّ انّ فيلبّس احبَّ مراعاة خاطر ريكرد ملك الانكليز. فأُخّر الفتح الى حين

قدومهِ ليكون لهُ حصّة في ذلك المجد * فلمّا بلغ ريكرد. سلّمت المدينة بشروط. وكان احد الشروط ان يُدفَع عود الصليب الكريم بيد النصارى * وكان هذا الفتح الاوّل يرجّي الافرنج نجاحاً كثيراً. الاّ انّ سقم فيلبّس اوغسطس وقلّة الاتّفاق بينهُ وبين ملك الانكليز الجأاهُ ان يرجع الى ارض فرنسا * غير أنّهُ حذراً من ان يُشكَى بخيانة. ترك عند ملك انكلتره عشرة آلاف من المشاة وخمس ماية من الخيّالة وما يكفيهم من الدراهم لمعاشهم مدّة ثلاث سنين * فبقي ريكرد وحدهُ في فلسطين. وكانت العساكر التي عندهُ عظيمةً كافيةً لمباشرة امر جليل. واستظهر في واقعة على صلاح الدين. ولو سار على اورشليم بوجههِ لفتحها. ولكنّهُ لم يعرف ان يغتنم الفرصة. وترك للعدوّ زماناً ليحصّن المدينة * فابطل ريكرد من قلبهِ محاصرة اورشليم. ورجع الى بلاد اوروبا وكان قد عقد هدنة ثلاث سنين مع صلاح الدين * وهكذا كان حاصل الجهاد الصليبيّ الثالث مقصوراً على فتح مدينة عكّة. وصارت هذه المدينة ملجأً الافرنج القاصدين بلاد المشرق. وطالما انتظروا فيها الفرصة المناسبة لاسترجاع مملكة اورشليم فلم ينالوها. وبقيت مدينة عكّة بيد الافرنج مدّة ماية سنة *



الظاهر انَّ مراد الملك بالعادات هو التعدّيات التي شرحناها. فابى ان يحلف * فاثار هنري اضطهادًا مبينًا على توما. حتّى حصل في خطر الموت. فالتزم ان يلتجئ الى بلاد فرنسا. ثمَّ ارسل الى لويس السابع ملك فرنسا اثنين من الذين رافقوهُ في هجرتهِ ليطلبا منهُ ملجأً في ارضهِ * فلمّا سمع الملك ما اقتصَّهُ عليهِ الرسولان عن الاذيّات التي اصابت توما. قال لهما متلطّفاً «كيف نسي ملك الانكليز ما قالهُ صاحب المزامير وهو اغضبوا ولا تاثموا». فقال لهُ احد الرسولين «يا مولاي. لو كان ملكنا يحضر القدّاس مثلك لكان يذكر ذلك». فتبسّم الملك. ووعد انّهُ يحمي مطران كنتربري قائلاً «انّهُ من مناقب ملوك فرنسا منذ القديم ان يجودوا بالحماية والامان في مملكتهم على الابرياء المظلومين ولاسيّما خدّام الكنيسة» * ثمّ اتّفق مع البابا في وجود الطرق لمصالحة توما مع هنري الملك. وصالحاهما * فرجع توما الى ارض انكلترة استنادًا على هذه المصالحة. ولكن بعد رجوعهِ بثلاثة اشهر هاج غضب الملك عليهِ من جديد. وقال في حدّة غيظهِ «يا للعجب. اما يوجد في كلّ مملكتي احدٌ ينتقم لي من قسّيس ازعج مملكتي كلّها». فكانت هذه كلمات الملك كقضيّة الموت على المطران القدّيس * فانَّ اربعة من خاصّة الملك تواطأُوا على الجريمة الجسيمة ان يقتلوا توما. وذهبوا مستخفين الى مدينة كنتربري. وقتلوهُ وهو في كنيستهِ * فارتاع هنري الملك

من هذا الخَطْب . وقرَّر بحلفان انَّهُ لم يامر بهِ قطّ . واقام في مقصورتهِ ثلاثة ايّام مختليًا صائمًا لا يواجه احدًا . واستعدَّ ان يؤدّي القانون الذي يُفرَض عليهِ كفّارةً عن جريمتهِ * ثمَّ انَّ الله سبحانهُ وتعالى اجرى الآيات والكرامات الربّانيّة على ضريح القدّيس توما . وايّد شهادتهُ وقداستهُ . وسلّط ايضًا على هنري بلايا كثيرة الى ان ارضى العدل الالهيّ بتوبة نصوح *

الفصل الثاني عشر

في الجهاد الصليبي الثالث (سنة ١١٩٠)

كان هنري الثاني ملك انكلترة المارّ ذكرهُ قد جزم على نفسهِ ان يكفّر عن سيّئاتهِ بانطلاقهِ الى بلاد فلسطين لاغاثة المسيحيّين * وكانت تلك البلاد في اسوإ حال . فانَّ صلاح الدين الملك الايّوبي الكرديّ كان قد غار عليها بخمسين الفًا . وتظفّر على المسيحيّين وكسرهم كسرةً عظيمة . واستاسر غوي دي لوسنيان ملك اورشليم ورنلد دي كستيليون رئيس روساء الرهبان المضيفين وغيرهما من الوجوه الاجلاّء . ولكنَّ اصعب النوازل التي ألّمت المسيحيّين هي انَّ العدوّ اخذوا منهم عود الصليب المكرَّم اذ كانوا قد اخرجوهُ معهم في القتال * وتقوّى صلاح الدين بعد هذه

القدّيس برنرد. لانهُ نادى بالجهاد ورجّى الناس بالظفر والغلبة. فبرّأَ برنرد نفسهُ قائلاً انَّ الصليبيّين جلبوا على رؤُوسهم سخط الله بمنكراتهم. ومنعوا نجاز وعودهِ. كما كان بنو اسرائيل قد صنعوا يوماً في التيه فحُرموا من ارض الميعاد* ولم يعش برنرد بعدها زماناً. فانَّ المشقّات والتقشّفات كانت قد اخلّت بعافيتهِ* اعلم انَّ القدّيس برنرد اتُّخذ آخر ملافنة الكنيسة. وقد استحقّ هذا النعت بفضائلهِ السامية وحذاقتهِ وعلمهِ الزاخر وبراعتهِ في التدبير*

الفصل الحادي عشر

في قتل القديس توما مطران كنتربري شهيداً (سنة ١١٧٠)

تزيّنت كنيسة الانكليز في ذلك العصر بدهاء القدّيس توما مطران كنتربري واستشهادهِ* وُلد توما في مدينة لندن سنة ١١١٧* ورُؤي منذ حداثتهِ متّصفاً باحسن الصفات واجلّها* وارتقى الى مرتبة عالية اعلى المراتب في المملكة. وحظي باعظم الزلفى والعزّ لدى هنري الثاني الملك* ولمّا فرغ كرسيّ كنتربري (وهو اوّل كرسيّ من كراسي انكلترّه) من راعٍ. اراد الملك ان يرقّي اليهِ توما محبوبهُ ووزيرهُ. فامتنع توما. وفهّم الملك انهُ ان صار مطراناً فلابدّ من ان يقع في سخط الملك لانّهُ يكون مضطرّاً ان يقاوم

العادات الغير المستقيمة الموجودة في المملكة * فلم يبالِ هنري باعتباراتهِ . واهتمَّ حتّى نُصِب توما مطرانًا على كنتربري بانتخاب اقليرس كرسيّها * وحدث ما كان توما قد انبأَ بهِ * وذلك انَّ الملك كان قد اعتاد ان يستولي على واردات الاوقاف(١) كلّما انقطع من يستولي عليها من الاقليرس . وكان يبطئ زمانًا مديدًا في نصب المتولّين ليتنعّم بالواردات زمانًا * فنهض توما على هذه التعدّيات . وقاومها مقاومةً شديدة . وناضل ايضًا القضاة العلمانيّين حيث كانوا يوقفون اهل الاقليرس في محكمتهم ضدًّا للانعامات التي كان الاقليرس قد حازها في كلّ مكان وفي انكلترة على الخصوص بان لا يقام عليهم دعوى في محكمة العلمانيّين * وكان ايضًا الامرآء والولاة يتعدّون على الكنيسة ويسلبون أَموالها . فقام عليهم توما ايضًا * فاحتدَّ هنري الملك لذلك غضبًا . وفرض على الاساقفة ان يحلفوا انّهم يحفظون كلّ عادات المملكة * وفهم توما

(١) [اعلم انّهُ في اوروبا كان اوقاف كثيرة تحت تدبير الاقليرس والرهبان لاحقة بالكنائس والاديرة وغير ذلك من الأملاك المتنوّعة * فكان لاوقاف كلّ كنيسة او دير والٍ واحد او اكثر من الاقليرس او الرهبان يختارهُ الاسقف او غيرهُ يتصرّف في واردات الوقف الذي يقام عليهِ ويعتاش منها ما دام واليًا * ولكنَّ هذه الاوقاف ضبطها الملوك والحكّام منذ اواخر القرن الثامن عشر في اكثر بلاد اوروبا . وعوّضوا الاقليرس عنها برواتب اجروها لبعضهم في كلّ شهر ممّا بالكدّ يعتاشون بهِ] *

الفصل العاشر

في جهاد الصليبيّين الثاني وفي موت القدّيس برنرد (سنة ١١٤٦)

انَّ القدّيس برنرد تعاطى امرًا جلب على راسهِ ملامةً كبيرة واحزنهُ كثيرًا * وذلك انَّ الارض المقدّسة التي كان الافرنج الصليبيّون قد فكّوها من يد الأَسلام. كانت في خطر عظيم ان تقع في ايديهم من جديد. اذ كانوا قد اخذوا مدينة الرها وقتلوا خلقًا عظيمًا لا يُحصَى من النصارى * وكان ملك اورشليم يلحّ في طلب العون والمدد من ملوك اوروبا * فاضطرب البابا على حال الارض المقدَّسة وخاف عليها. فاقبل على ملوك الافرنج. وجعل يحثّهم وينهض همّتهم كما كان أُربانس الثاني قد فعل قبل خمسين سنة * وكتب الى ملك فرنسا رسالةً فيها نصح جميع الامّة الفرنساويّة ان يتسلّحوا لحماية الديانة * ووُكّل القدّيس برنرد ان ينادي بالجهاد الصليبيّ. فانَّ ملك فرنسا دعاهُ الى ذلك. والبابا كتب لهُ في هذا الشان. ولكنّهُ لم يذعن الى قبول هذه الرسالة الّا بعد ما اتاهُ امرٌ صريح منهُ * فباشر مناداة الجهاد في فرنسا وايضًا في جرمانيا. ونجح في عملهِ نجاحًا عجيبًا. فانّهُ مع الوعظ كان ياتي بالآيات. وجمٌّ غفير من الامرآء الكرام طلبوا الصليب بشوقٍ زائد حتّى كادت اوروبا كلّها ترتحل الى اسيا * وكانوا قد

اعدّوا شيئاً كثيراً عظيماً من الصلبان للمتجنّدين. ولكنّها لم تكفهم. فالتزم برنرد أنْ يخرق شيئاً من ثيابهِ ويصنع منهُ صلباناً * وتجنّد من الجملة ملك فرنسا بنفسهِ. وكان اسمهُ لويس الصغير. وبذلك صار قدوةً لاهل مملكتهِ ليتبعوهُ. وصار هو قائداً لعسكرهِ * وتجنّد ايضاً للصليبيّة كنراد ملك جرمانيا القيصريّ. وسار بطليعتهِ في عيد الصعود من سنة ١١٤٧. وكان عسكرهُ مركّباً من سبعين الف فارس مدرّعين وعدد لا يُحصَى من الخيّالة المجرّدة والمشاة * وبعد خمسة عشر يوماً توجّه جيش ملك فرنسا. ولم يكن اقلّ من ذلك عدداً * ولكنَّ هذه الجحافل العظيمة باد اكثرها بل كلّها الاَّ قليلاً في الطريق لقلّة نظامها وادبها * فلمّا بلغوا الى اراضي مملكة الروم. اتوا بمكروهاتٍ. فاستراب من ذلك عمانويل ملك قسطنطينيَّة. وخاف على مملكتهِ. وعزم ان يهلك الصليبيّين. فاعطاهم ادلّة خائنين ساروا بهم في اراضٍ مقفرة من اسيا الصغرى. فسقطوا في ايدي العدوّ * وبصعوبة عظيمة نال لويس وكنراد الملكان ان يوصلا بقايا جيوشهما الى ارض سورية * فحلّوا على مدينة دمشق وحاصروها. ولكنّهم اضطرّوا ان يرفعوا الحصار ويرجعوا الى بلادهم. وهكذا انتهى هذا الجهاد الصليبي المشئوم. الذي بهِ انقرض وفني عسكران جليلان لم يُرَ مثلهما منذ زمان مديد * وصار الناس لشدّة اسفهم على هذه النازلة العظيمة يدمدمون على

برنرد . وذهب برنرد وقدَّس القدَّاس * وقبل أَنْ ينقضي القدَّاس * انطلق لسان المريض وصار يتكلَّم بلا مانع . وطلب أَنْ يعترف بخطاياهُ * فاعترف اعترافًا مقرونًا بالدموع الحارَّة . ثمَّ تناول الأَسرار كلّها . وبعد ثلاثة ايَّام مات في حال توبة صدوق نصوح *
وحدث ايضًا انَّ امراة قصدت القدّيس برنرد . وقدَّمت اليهِ ولدها . وكان اشلّ اليد افلج الذراع منذ ولادتهِ * فرقَّ قلب برنرد على المراة . وامرها أَن تضع طفلها على الارض . ثمَّ صلَّى . ورسم اشارة الصليب على ذراع الطفل . فبرئَ من ساعتهِ واسرع واحتضن امَّهُ * وذاع خبر هذه الاعجوبة . فجعل الناس ياتونهُ من بُعدٍ بالمرضى والمعتلّين والعميان والمقعدين . فيشفيهم باللمس او برسم اشارة الصليب عليهم * ومن كراماتهِ كثرة الناس الذين دعاهم الى التوبة . فانَّ كلامهُ كان ينفذ في قلوب الخطاة . بل كان روح الله الذي ينطق بهِ يحرّكهم الى الرعوى * ومن ذلك انَّ رفقةً من الشباب النبلاَء كانت ذاهبةً الى لهوٍ وطرب . فمرَّت في طريقها بدير كلاراولَّا * فاراد اولئك الفتيان ان يروا الدير . فتلقّاهم رئيس الدير برنرد بإعزاز واكرام . واراد ان يصدّهم عن الامر الذي كانوا ذاهبين في شانهِ . فدعاهم ان يبقوا عندهُ في الدير الى الصوم الكبير . وكان قريبًا . فابوا وامتنعوا الى النهاية * فقال لهم «لي رجاَء بالله أَنْ يعطيني ما منعتموني انتم» * ثمَّ قدَّم

لهم نبيذاً. وقال لهم اشربوا على صحّة نفوسكم. فشربوا وهم يضحكون. ثمَّ ارتحلوا * فلمّا بعدوا قليلاً عن الدير. تذكّروا ما قالهُ لهم برنرد فتغيّرت قلوبهم. ورجعوا الى دير كلارا ولاً. ولبسوا اسكيم الرهبنة كلّهم * ولشهرة برنرد العظيمة اشتاق كثيرٌ من الكنائس أن يكون اسقفاً عليهم. وطلبتهُ من الجملة كنيسة مديولان في ايطاليا وثلاث كنائس في فرنسا. فامتنع امتناعاً قاطعاً من قبول هذه المناصب. وكان الأحبار الرومانيّون الاعظمون يشفقون ان يغصبوا ارادتهُ حرمةً لهُ * فكان برنرد يحبّ التواضع والذلّ. ولم يكن امر يهمّهُ سوى ان يختلي في صومعتهِ ومنسكهِ وان يرشد الرهبان تلاميذهُ ويدرّس نفسهُ في سبل الله عزَّ وجلّ * ولكنَّ صيت علومهِ وحزمهِ وبراعتهِ في التدبير وقداستهِ ازعج بعد ذلك خلوتهُ. فصارت المسائل والمشاكل تتوارد اليهِ من كلّ صقع. وحبّهُ للكنيسة اضطرّهُ ان يكون لهُ حصّةٌ في جميع مصالحها * فترى انَّ برنرد كان جابر البائسين وناصر المظلومين وقاهر الملحدين ومشير الأحبار الاعظمين وهادي الاساقفة والملوك والمتولّين. وبالاجمال كان برنرد وليّ الكنيسة. مستعدّاً كلّ وقت ان يحامي عن حقوقها ويجتهد في حفظ الاتّفاق فيها ويردع أضدادها *

لديهم بكلّ ضبط مع كثرتهم. فكان العلمانيّون الذين يقصدون الدير يندهشون من سكوتهم ويستهيبونهم. فلم يكونوا يتجاسرون أن يتكلّموا كلامًا دنيويًّا في داخل الدير * وربّما رُؤي أشخاص كانوا يومًا اغنياء وذوي كرامة في الدنيا. فهجروا هذا الحال. واتوا الى الرهبنة وصاروا يفتخرون بفقر المسيح. ويحتملون بسرور وفرح مشقّات عمل الايدي والجوع والعطش والبرد والذلّ * وكان برنرد يتقدّمهم في كلّ شيء. بل كان يصنع هو بنفسهِ اكثر ممّا كان يطلب منهم * وكان يعتبر السيرة الرهبانيّة اعتبارًا جليلاً حتّى انّهُ في مبادئ سياستهِ كان يتكدّر من اصغر النقائص التي لا يمكن تجنّبها على الاطلاق في هذه الدنيا. ويريد ان يكون رهبانهُ كالملائكة. ولكنّ الله اعلمهُ أنّهُ في غلط. فتعلّم بعد ذلك ان يعامل الرهبان برفقٍ مناسبٍ لضعف الطبيعة البشريّة. ويقودهم الى الكمال بطرق مختلفة بحسب اختلاف درجات النعم التي كان يراها فيهم *

ثمّ انّ برنرد القدّيس قدّس كلّ عشيرتهِ. فانّ اخوتهُ جميعًا كانوا معهُ. وابوهُ ايضًا اتى في شيخوختهِ ولبس اسكيم الرهبنة في كلاراولاّ * ولم يبقَ لهُ احد في العالم سوى اختهِ. وكانت مزوّجة ومنهمكة بامور الدنيا. وارادت يومًا أنْ ترى اخاها برنرد. فاتت الى الدير مسربلة بافخر الملابس ومعها شيعة كثيرة * فابى القدّيس برنرد ان يراها وهي على هذه الصفة. فخزيت غاية الخزي وذلّت.

وارسلت قالت لهُ « نعم اني خاطئة. الاَّ انَّ المسيح مات عنّي • فان كان برنرد من حيث هو اخي يستقبح جسدي. فليعتبرنَّ نفسي من حيث هو خادم الله: فلياتينَّ وليامرنَّ بما شاءَ. فانّي مستعدَّة ان اطيع » * فاتى عند ذلك برنرد لزيارتها. ووقع كلامهُ في قلبها احسن موقع. حتَّى انّها ابغضت بطرها وزهوها. وبعد سنتين لبست اسكيم الرهبنة باذن زوجها في دير كان قد اقيم جديدًا للراهبات. وهناك تُوُفّيت بالقداسة *

الفصل التاسع

في شهرة القدّيس برنرد

انَّ صيت برنرد القدّيس لم يزل يزداد شهرةً من يوم الى يوم بفضائلهِ وحسن صفاتهِ. وبما تبعها بعد قليل من صنع الآيات والكرامات الربّانيّة * واوّل ذلك جرى في حقّ احد الأَشراف كان من جنس برنرد * وذلك انَّ هذا الشخص الوجيه وقع مريضاً. ومن ساعتهِ غاب عن عقلهِ ونطقهِ * فاضطرب اهلهُ واخذتهم المخاوف. ولاسيَّما انَّ المريض كان قد ارتكب تعدّيات ومظالم على الناس زمناً * فاحضروا برنرد. فقال لهم « ان افتديتم المظالم التي ارتكبها المريض. رجع الى حسّهِ » * فعملوا مثلما قال

فتبعهُ في دخولهِ رهبنة الشسترسيين اخوتهُ كلهم. الاَّ آخرهم فانهُ خلاَّهُ عند ابيهِ ليسند شيخوختهُ * وبينما كانوا في الرحيل. راى كبيرُهم اخاهم الصغير يلعب في الزقاق مع صبيان أُخر. فقال لهُ «انت تكون وحدك وريث بيتنا. وقد تركنا لك كلَّ اموالنا» * فقال «نعم. إنَّ اموال السماء تكون لكم. واموال الارض تكون لي. اهذه القسمة هي حقّ» * فانَّ هذا الاخ الاصغر ولو انَّهُ اقام في الدنيا حينئذٍ. تبع اخوتهُ بعد ذلك بزمان ودخل الرهبنة * ولمَّا دخل برنرد دير الشسترسيين. اشرقت منهُ منذ الاوَّل أَنوار الفضائل السامية * فكان يميت نفسهُ ويقهر حواسَّهُ قهرًا عجيبًا. حتَّى صار كأَنَّهُ قد انقلب الى انسان روحيّ بتَّةَ. وكان يعاتب نفسهُ على الطعام الذي يتناولهُ. فكان الاكل عذابًا لهُ * وكان يجمع عقلهُ وحواسَّهُ على الدوام. حتَّى انَّهُ بعد ما سكن سنةً صحيحةً في قلاَّية المبتدئين. يوم تحوَّل منها لم يكن يعرف كيف كانت مبنيةً لانَّهُ لم ينظر اليها قطّ * وكان يسهر جانبًا كبيرًا من الليل. ويحسب ضياعًا الزمان الذي فيهِ ينام * وسيرتهُ صارت سببًا قويًّا لتحريض رفاقهِ الى التشبُّه بهِ * وكان يحرّض نفسهُ بنفسهِ للازدياد في فضائل السيرة النسكيَّة اذ يذكّرها سبب دخولهِ الرهبنة ويقول «يا برنرد لايّ غرَضٍ اتيت الى هنا». فكان بهذه الكلمات يحترّ ويقوى لتادية فرائض السيرة الرهبانيَّة *

الفصل الثامن

في صيرورة القديس برنرد رئيساً على دير كلاراوَلاّ

لمّا شاع صيت فضائل برنرد. تقاطرت أفواج الناس وترهّبوا في دير الشسترسيّين. ولكثرتهم لم يسعهم المكان. فدعت الحاجة الى اقامة اديرة جديدة لتحويهم. واشهرهم دير كلاراوَلاّ * كان موقع هذا دير كلاراولاّ ارضاً مستوحشة. وكانت تسمّى وادي الافسنتين. وطالما التجأ في شجرها قُطّاع الطريق واللصوص * ثمَّ صارت ملجأ للرهبان ومحوى القدّيسين * ونُصِب برنرد رئيساً على هذا دير كلاراولاّ. فجاب معهُ اثني عشر راهباً. ولكن بعد ذلك كثر عدد رهبانهِ جدًّا جدًّا * وكان برنرد معتاداً ان يقول للمبتدئين الذين يقبلهم في الدير «ان كنتم تريدون ان تدخلوا هاهنا. فاتركوا عند الباب الجسد الذي جلبتموهُ من العالم. فانَّ باب الدير لا يُفتَح الاَّ للنفس» * وبالحقيقة كان قانون ذلك الدير شديداً الى الغاية * وكان الدير فقيراً جدًّا في الاوّل. فكان الرهبان لا ياكلون الخبز الاَّ مخلوطاً بالشعير والدخن. وكان طبيخهم من ورق الزان * ومع رداوة هذا الطعام كان اولئك الرهبان مسرورين بحالهم. فكان حبّ التزهّد يقوم مقام التوابل لطعامهم الدنيّ * وكان دابهم الصلوة وشغل اليد لا غير. والسكوت محفوظاً

وأمَّا ما امتلكهُ الرهبان فانَّما حصّلوهُ بأتعابهم الشاقّة في إحياء الاراضي البائرة وبعيشة مرتّبة وبالانصباب للشغل والعمل على الدوام *

الفصل السابع

في انشآء رهبنة الشِسْتَرسيّين (سنة ١١١٠)

في نحو الزمان الذي فيهِ نشأت رهبنة البريمنستريّين . قامت رهبنة الشسترسيّين . واشتهرت مثلها ومثلها نفعت الكنيسة * وكان اسم منشئها روبَرْت * كان روبرت قد لبس اسكيم الرهبنة في سنة خمس عشرة من عمرهِ . ثمّ عمد الى سيرة ذات خلوة فيها يمكنهُ ان يقضي قانون رهبنة مار بندكتس بكلّ ضبط ومن دون تخفيف . فانقطع مع رفاق لهُ الى أَجَمَة اسمها شِتْسَترس في سواد مدينة ديجون من مدن فرنسا . وكانت هذه الارض مستوحشة خاليةً من كلّ انس . تلقيّ الرعب . وكانت ماوى السباع * ولكنَّ اولئك عبيد الله احبّوا تلك الاجمة . لانّهم راوا انّهم فيها يمكنهم ان يتفرّغوا للسيرة النسكيّة بدون ادنى عائق * فاقبلوا على الارض وجعلوا يحرثونها . وشادوا لهم صوامع من خشب وسكنوها . فكان منظرها يشبه مجموع اكواخ اكثر من دير * فكان اولئك النسّاك

في ذلك الموضع يضحّون على الدوام أجسادهم لله بشدّة تقشّفاتهم. وقلوبهم بغزارة نار محبّتهم * وربّما اعازهم الخبز لسبب انَّ شغلهم لم يكفِ لكفافهم. ولكنّهم ابوا أَنْ ياخذوا من احد الامرآء العظام ما اراد ان يكرمهم بهِ من الهدايا النفيسة. فانَّ الفقر كان لديهم عزيزًا * واعلم أَنَّ هذه الرهبنة الجديدة اشتهرت بقداسة سيرة رهبانها. الاَّ انهَّا بقيت مدَّة من السنين من غير ان تنتشر في بلاد اخرى انتشارًا ظاهرًا. فكانت تحاكي دوحةً مدَّت اصولها الى اسفل العمق قبل أَنْ ترتفع وتبدي أَغصانها * فاراد الله أَنْ يرفع هذه الرهبنة بنوعٍ عجيب ويشرّفها * وذلك أَنَّ احد الاغنيآء جآء الى اولئك الرهبان. وطلب ان يقبلوهُ في رهبنتهم هو وثلاثين رفيقًا دعاهم الى ذلك وقادهم معهُ. كأَنّهم غنيمة اغتنمها من العالم قبل ان يهجرهُ. وهو القدّيس بَرْنَرْد المشهور. فقبلوهُ مع رفاقهِ مسرورين *

كان برنرد قد وُلد في قصر اميريّ في ارض برغونيا من أَعمال فرنسا. وكانت لطافة خَلقهِ وخُلقهِ وملاحة شمائلهِ ورقّة خاطرهِ ترجّي كلّ احد فيهِ امرًا عظيمًا * واذ كان محفوفًا بكلّ الرفاهية والرغد والهنآء في الدنيا. اختار ان يهجر كلّ ذلك ليحيا لله فقط * فلمّا علم اخوتهُ واصدقاؤهُ بقصدهِ. حاولوا ان يصدّوهُ عن ذلك. وافرغوا جهدهم لمنعهِ. ولكنَّ برنرد ازداد تمسّكًا برايهِ. لا بل انتهى الى ترغيب اولئك الذين كانوا يمانعونهُ في الاكثر واقناعهم أَنْ يتبعوهُ *

القانونيّين الرهبانيين * كان نربرت قد وُلد في احدى بلاد فرنسا. وكان ابواهُ من اهل الجاه والشرف * وسيم قسّيسًا منذ حداثتهِ. ولكنّهُ لم يفهم في الاوّل قداسة دعوتهِ. فانّهُ ما كان يصيبهُ من الرواتب المتعدّدة من الكنائس التي كان يخدمها كان ينفقهُ في الإسراف واللهو والصفا * الّا انّ الله الذي كانت عينهُ عليهِ. كبّهُ الى الارض كما صنع يومًا مع بولس الرسول لكي ينهضهُ ممجّدًا * وذلك انهُ بينما كان نربرت ذات يوم سائرًا في بقعة اريضة وهو راكب. اذ حدث نوء عظيم في الجوّ. فانقضّت الصاعقة تحت قوائم فرسهِ. فانصرع الفرس. وانقلب نربرت وهو بين الموت والحيوة. وبقي نحو ساعة مغشيًّا عليهِ * فلمّا افاق. صاح مثل شاول قائلاً « يا ربّ ماذا تريد ان اصنع » * فاجابهُ الله في باطنهِ بانّهُ يجب عليهِ ان يصلح أَحوالهُ ويسير سيرة لائقة لدعوتهِ * فاهتدى نربرت من ذلك. وارعوى. وترك السيرة الاولى. وخلع الثياب الفاخرة. ولبس ثيابًا رثّة وتردّى بمسح. وتنازل عن كلّ الرواتب التي كانت لهُ. وباع أَموالهُ وقسَّم الحاصل منها على الفقرآء والمساكين. وجآء حافيًا الى كالِسْتس البابا. وكان حينئذٍ قد جمع مجمعًا في احدى مدن فرنسا * فاستقبلهُ البابا بلطف. وامر احد الاساقفة ان يعنَى بامرهِ * وبعد ما فضّ المجمع. اخذهُ ذلك الاسقف الى بلدهِ. وامسكهُ عندهُ طول الشتآء حتَّى تتراجع عافيتهُ. وكانت قد تهرَّت من شدَّة

اماتة نفسهِ وتقشّفهِ * فاظهر نربرت للاسقف قصدهُ ان يختلي ويتنسّك في صومعةٍ . فاراد الاسقف ان يمسكهُ في ابرشيّتهِ . وطاف بهِ في اماكن شتّى منها لكي يختار من تلك الاماكن ما يعجبهُ * فاعجبهُ مكان اسمهُ بريمنستر . وكان في خلوة . واقام فيهِ سكناهُ * وشاع صيت وعظهِ وقداستهِ . فانضمَّ اليهِ تلاميذ كثيرة . وفي قليل من الزمان حصل عندهُ اربعون من الاقليرس وعلمانيّون كثيرون . وكانوا كلّهم ملهمين بروحهِ . مشتاقين ان يسيروا سيرتهُ * فافتكر حينئذٍ نربرت ان يتّخذ قانوناً لرهبنتهِ . وبعد التفكّر والتروّي اختار قانون مار اوغسطين . ثمّ انطلق الى رومية . وطلب الى الحبر الاعظم تثبيت رهبنتهِ * فقضى البابا مرامهُ (وكان اسمهُ هنوريوس) . وبارك الله على هذه الرهبنة الفاضلة حتّى انّها في زمان قليل انتشرت في العالم المسيحيّ كلّهِ * وكان المختارون يتقاطرون أفواجاً لينضمّوا الى هذه الرهبنة الجديدة المقدّسة . حتّى انّ احد العظماء المقتدرين قصد نربرت يوماً وطلب اليهِ ان يدرجهُ في سلك رهبانهِ . فاشار عليهِ نربرت ان يبقى في العالم فيمجّد هناك اسم الله اكثر بجملهِ الأقوام اللائذين بهِ ان يعبدوهُ كما يليق * واعتبر من هذا الذي شرحناهُ الى الآن انَّ تاسيس الرهبنات كان في اصلهِ خالصاً من كلّ طمع او غرض دنيويّ . وممَّا يؤكّد لدينا ذلك سيرتهم القشفيّة وانقطاعهم الدائم . وابتعادهم عن التماس الهدايا *

والديانة التي من اجلها حملوا السلاح بسالةً جديدة * وكما كانوا اشدَّاء مخوفين مع اعداء الديانة المسيحيّة خارجًا عن المدينة. كانوا داخل البيمارستان يخدمون الغرباء بتواضع وتنازل * وكانوا على انفسهم ممسكين. ومع غيرهم كريمين مشفقين. فياكلون خبزًا من طحين خشن. ويبقون الطحين الخالص للمرضى * وارادوا ان يؤبّدوا هذا المقام الخيريّ. فالزموا انفسهم بالنذور * ومدح بطريرك اورشليم هذا الراي واثبتهُ. فنذروا بين يديهِ نذور الرهبان الثلاثة اي الفقر والعفّة والطاعة. وزادوا عليها نذرًا رابعًا وهو أَنْ يحاربوا الغير المومنين * وايَّد البابا (وكان اسمهُ بسقال) هذه الاخويّة. وجاد عليها بامتيازات كثيرة * فكان اهل هذه الاخويّة رهبانًا وجنودًا في وقت واحد. يسيرون سيرة الرهبان ويؤدّون نذورهم ويقومون بخدمة البيمارستان. ومع ذلك يتهيّأُون كلّ وقت لمقاتلة الذين يعادون المسيحيّين * وكبرت هذه الرهبنة الجديدة وانتشرت في قليل من الزمان. وصارت ذات أَملاك وافرة في جميع ممالك بلاد المغرب. وكان يحتوي فيها كثير من الفتيان الأَشراف من جميع بلاد اوروبا * فهولاء الجنديّون المترهّبون الأَبطال ابدوا في اوقات كثيرة بسالتهم وحماستهم. وصاروا عضدًا قويًّا لمملكة اورشليم الافرنجيَّة ما دامت قائمة * ولمّا سقطت هذه المملكة. وكان ذلك بعد قيامها بستٍّ وتسعين سنة. تحوّلوا الى جزيرة رودس. وهناك

شتهروا بمدافعة حصار سليمان سلطان الترك العثمانيّين. الحصار
لذي هو من اشهر ما يُذكَر في التواريخ * ثمّ هجروا رودس. واقاموا
في جزيرة مالطة. وجعلوا فيها مستقرّهم. وصارت هذه الجزيرة منذ
ذلك مركز هذه رهبنة المضيفين الجنديّة. وكان يسكنها رئيسهم
الاكبر. وبعد زمان انعم احد الملوك العظام (وهو كارلُس الخامس
ملك اسبانيا المشهور صاحب تلك الجزيرة) على رئيس روساء
تلك الرهبنة بان يمتلك تلك الجزيرة * ولم يزَل اولئك الرهبان
مالكين جزيرة مالطة الى ان اخذها الفرنساويّون في زمان بونبرته.
ثمّ صارت في يد الانكليز *

الفصل السادس

في انشآء رهبنة البريمُنسْتَرِيّين (سنة ١١٢٠)

بعد ما فرحت الكنيسة اذ رأَت في بلاد المشرق اقامة
رهبان مقاتلة أَبطال. سُرّت سرورًا زائدًا بانشآء رهبنات جديدة
في فرنسا. كانت عتيدة ان تصنع خيرًا عظيمًا من جنس آخر غير
المحاربة السلاحيّة * ومن جملة ذلك ما صنعهُ الله على يد نُرْبَرْت
القدّيس بضمّهِ القسوس والاقليرسيّين على وجه العموم الى عيشة
مشتركة ذات قوانين وبضبطهم بنوع من الرهبنة سمّي اخويّة

رقّة القلب والرحمة. فانّهم خلعوا ثيابهم الملطّخة بالدم. وساروا وهم حفاةً يبكون ويدقّون على صدورهم الى الاماكن المقدَّسة التي تطهّرت بآلآم المسيح. وزاروها واحدًا واحدًا * وكان المسيحيّون القليلون الذين كانوا قد بقوا في المدينة يتهلّلون فرحًا وابتهاجًا. ويشكرون الله على انّهُ خلّصهم من الرقّ * وبعد ثمانيـة ايّام اجتمع الامرآء والعظمآء لينتخبوا ملِكًا يتولّى حكم البلاد التي فتحوها. فوقع الاختيار على غفريد دي بُليون الذي كان اشدّهم باسًا واكثرهم فضيلةً * فانطلقوا بهِ الى كنيسة القبر المقدَّس. وبايعوهُ هناك بالمُلك * وقدَّموا لهُ تاجًا من ذهب ليكلّلوهُ بهِ. فامتنع قائلاً «حاشا لي ان البس هذا التاج في الموضع الذي فيهِ كُلِّل ملك الملوك باكليل من شوك» * [واعلم انَّ فرقةً من الصليبيّين توجّهوا في سيرهم نحو الشرق. وكان قائدهم بلدوين اخو غفريد. حتّى دنوا من مدينة الرها (وهي ارفا) وكانت مشحونة من النصارى هي وسائر البلاد التي في نواحيها. فاهتشَّ اولئك النصارى لمجيء الافرنج. وسهّلوا لهم الطريق. ففتحوا مدينة الرها وضبطوها. واقاموا فيها امارةً افرنجيّة. وكان اوّل امرائها بلدوين المذكور] *

الفصل الخامس

في انشآء الرهبنة الجنديّة (سنة ١٠٩٨)

انَّ الصليبيّين انشأوا الرهبنات الجنديّة. واقدمهم عهدًا هي الاخويّة المعروفة بجنديّة المضيفين على اسم مار يوحنّا. وهي موجودة الى الآن باسم جنديّة مالطة * وكان اوّل بيت أُنشئ لهذه الرهبنة بيمارستانًا أُقيم في مدينة اورشليم. كان يحوي الغربآء الحجّاج والمرضى * وكان هذا البيمارستان قد اقامهُ تجّار ايطاليانيّون من مملكة نابلي اذ كانت مدينة اورشليم بعد في ايدي الأَسلام * ولمّا صارت اورشليم تحت ضبط الصليبيّين. كان مدبّر ذلك البيمارستان رجلًا صالحًا فاضلًا تقيًّا فطينًا من ارض فرنسا اسمهُ جيرَرْد * ولمّا بايعوا غفريد بالمُلك. شمل غفريد البيمارستان بعنايتهِ. وخلع عليهِ الخلع الوافرة واوقف لهُ اوقافًا * وكان جملةٌ من الفتيان الكرام الذين تبعوهُ في الجهاد وقع في قلبهم ما رأَوهُ في ذلك البيمارستان من أَعمال الخير للحجّاج والمرضى. فنفوا من خاطرهم الرجوع الى ارض ميلادهم. واحبّوا ان ينضمّوا الى اولئك الذين كانوا يخدمون في البيمارستان. ولكنّهم لم يكتفوا بعمل الخير والرحمة كما كان الامر سابقًا. بل حملوا السلاح لدفع اعدآء الديانة * فكانوا مقاتلين أَبطالًا. الهتهم تقوى الله التي كانت في صدورهم

وكان العدوّ قد استعدّوا لهذا الحصار. فموّنوا المدينة بكلّ ما يقتضي لحصار طويل. وكان لهم جيشٌ عظيم للمدافعة [واتاهم للنجدة قطبوغا ملك الموصل بجيش عظيم] * وبعد حصار ثمانية اشهر اذ كان الصليبيّون قد اعيوا وكادوا ييأسون. حدث امرٌ فتح لهم باب الظفر * وذلك انّ احد عظماء المدينة [وكان ارمنيًّا] وقع ابنهُ اسيرًا بيد الصليبيّين. وكان كريمًا عزيزًا لديهِ * فعرض ابوهُ على الصليبيّين مالاً جزيلاً ليفديهُ. فارسلهُ الامير الذي كان في حوزتهِ الى ابيهِ بلا فدية * فلمّا راى ذلك الارمنيّ هذه النجابة. فتح باب المدينة وادخل الصليبيّين فيها. [فضبطوها بخيانة ذلك الارمني * ولمّا دخل الافرنج مدينة انطاكية. افتكروا قبل كلّ شيءٍ في نظام امور الدين. فجهّزوا الكنائس بالادوات الثمينة. ورتّبوا احوال الاقليرس الخادمين فيها. وعيّنوا لهم رواتب لمعاشهم * وكان بطريرك المدينة اسمهُ يوحنّا وكان يونانيًّا. وقد اشتهر بمجادلة توما اسقف كفرطاب المارونيّ (المارّ ذكرهُ) في قضيّة تجسّد المسيح * وامّا الافرنج ففي اوّل امرهم قيّدوهُ وآذوهُ * الاّ انهم بعد ذلك انتبهوا على غلطهم. فارجعوهُ الى منزلتهِ واثبتوهُ على كرسيّهِ. واكرموهُ غاية الاكرام * ولكن يوحنّا بعد زمان اذ راى انهُ لا يفيد كثيرًا في سياسة قوم الافرنج وهو يونانيّ. هجر انطاكية وانطلق الى القسطنطينيّة ونزل عن البطريركيّة * وكان ملك الروم قد تعاهد مع بوامند

امير انطاكية ان لا يُقام على انطاكية الاَّ بطريرك يونانيّ * ولكنَّ الافرنج نقضوا هذا العهد. فاقاموا بطريركًا لاتينيًا بعد يوحنّا * فتجرَّأَ الروم واقاموا بطريركًا آخر يونانيًّا كان يقيم في القسطنطينيّة. وذلك أَنَّ الشقاق بين اللاتين واليونان لم يكن قد وصل الى غايتهِ حينئذٍ * وهذا اوّل مَثَل اسقفين على كرسيّ واحد يجلسان في وقت واحد من بعد نهي المجمع النيقاويّ] * ثمَّ انّ الأَسلام وقعت الرعبة في قلوبهم لمّا سمعوا فتح انطاكية. وتواصلت الأَخبار الى بلاد فلسطين. فسار الصليبيّون على هذه البلاد بلا ممانعة. حتّى انتهوا الى مدينة اورشليم التي كانت اخصّ ما كان يهمّهم * وكانت اورشليم محصّنة غاية التحصين. وكان الأَسلام قد جهّزوها وموّنوها [وكانت تحت حكم المستعلي بالله احد الخلفاء الفاطميّين] * ولكنَّ الصليبيّين شدَّدوا الامر على اهل المدينة واظهروا بسالةً نادرة حتّى انّهم بعد حصار خمسة اسابيع فتحوها بالقسر. وكان ذلك يوم الجمعة في الساعة الثالثة بعد الظهر. واعتُبر انّهُ في مثل ذلك اليوم وتلك الساعة مات المسيح على الصليب * فهجم عسكر الصليبيّين على المدينة. واحلّوا فيها الدمار. فقتلوا من الأَسلام الذين فيها خلقًا عظيمًا لا يعرف عددهم الاَّ الله * ولكن بعد قليل هدأَ غضبهم وخمدت نار جواهم. وتندّموا على ما فعلوا في سَوْرة غضبهم الحربيّ كما كانت العادة. فانقلبت فيهم تلك القساوة الى

الفرنساويين في هذه الحرب. اشهرهم غُفرِيد او غدُفرِيد دي بلْيون الدوقا. وهوغون الكبير القوميس. ورَيمند القوميس. وروبرت قوميس فَلَندرا. وروبرت دوقا النُرمَنْد * وهولآء الأَبطال لو لم يكن فيما بينهم شيءٌ من الانقسام ولم يكن في جيوشهم قلّة النظام والادب. لامكنهم ان يضبطوا العالم كلّهُ * فانَّ غدفريد دي بلْيون الذي اشتهر في هذه الحرب الاولى اكثر من كلّ احد وسُمّيت باسمهِ. كان فطينًا رزينًا مع كونهِ في عنفوان الشباب وحدّتهِ. وكان ذا باس وبسالة مع كونهِ تقيًا خائفًا من الله متعبّدًا * نعم انّهُ لم يكن اقدر الامرآء الصليبيّين. الاَّ أنَّ جيشهُ كان فائقًا على غيرهِ بالزهو والعظمة. لانَّ صيتهُ الذائع جذب الى لوآئهِ جمًّا غفيرًا من الأَشراف. فكانوا يحسبون فخرًا لهم ان يتعلّموا صناعة الحرب في مدرستهِ * ثمَّ انَّ الصليبيّين تقسّموا الى كتائب شتّى. وكلّ كتيبة منهم توجّهت في طريق الى القسطنطينيّة. التي كانت ميعاد الاجتماع. ولكن باد منهم جانب كبير في الطريق اذ لم يحفظوا النظام ولا اصول العسكريّة واتوا بكلّ نوع من المنكرات والمكروهات *

الفصل الرابع

في اقتصاص ما صنعهُ الصليبيّون

انهُ من امرآء الجيوش الصليبيّة كان غفريد دي بلْيُون قد ضبط عسكرهُ وساسهم احسن من غيرهِ . فبلغ الى القسطنطينيّة قبل كلّهم . وانتظر الباقين * فلمّا اجتمعوا كلّهم . اجتازوا البوغاز . وحلّوا على مدينة نيقية قاعدة بيثنيّة [وكانت بيد الترك السلجوقيّين] وحاصروها ليفتحوا لهم طريقاً الى الارض المقدَّسة * وكانت هذه المدينة محصّنة . الّا انها ما قدرت ان تدفع الحصار زماناً . فسلّمت بشروط * وبعد ايّام قليلة ضرب الصليبيّون في الارض . ففاجأَهم الاعدآء بكثرة لا تُحْصَى . وتشابك الفريقان . فنزل المسيحيّون كالاسود الى حومة القتال . وهزموا العدوّ واهلكوا منهم شيئاً كثيراً * ولكنَّ هذه الغلبة ما رفعت عن المسيحيّين كلّ الاخطار . فانَّ الصليبيّين وقع فيهم الجوع والعطش . حتَّى صاروا يفصدون خيلهم ليشربوا من دمها . لانَّ العدوّ كانوا قد اخربوا البلاد واقفروها * ومات من الجوع والتعب جمٌّ غفير لا يُحصَى من عساكر الصليبيّين . وباد اكثر خيلهم * ولمّا وصلوا الى برّ الشام او سورية . حلّوا على مدينة انطاكية . وكانت حينئذٍ من اعظم مدن المشرق واحصنها . [وكانت هي ايضاً تحت ضبط الترك] فحاصروها *

الفصل الثالث

في اوّل جهاد الصليبيّين (سنة ١٠٩٥)

انّهُ في اواخر القرن الحادي عشر ابتدأَت الجهادات الصليبيّة اي الحروب التي باشرها الافرنج في سورية وفلسطين لفكّ الاراضي المقدَّسة من يد الأَسلام * كان ملوك الروم البوزنطيّون الذين سلب منهم العرب احسن معاملاتهم ولاسيَّما فلسطين طالما طلبوا من الافرنج العون والغوث * ولم ينالوا هذا العون الأَّ لمّا اوجبهُ سببٌ دينيّ * وذلك أَنَّ احد القسوس الفرنساويّين اسمهُ بطرس الصومعيّ كان قد حجّ الى القدس الشريف. فشقَّ عليهِ ما راَهُ هناك من حال النصارى والاماكن التي قُدّست بحضور مخلّص العالم * وفاوض في ذلك سمعان بطريرك اورشليم. ومن مخاطبتهما انتهيا الى أَنَّهُ لابدّ من فكّ ارض فلسطين من الرقّ الذي كانت فيهِ منذ أَجيال * واتّفقا على أَنْ يكتب البطريرك في هذا الشان الى البابا. ويقدّم بطرس رسالتهُ بيدهِ ويجتهد في امالة البابا الى ذلك واستحسانهِ * فتوجّه بطرس الصومعيّ الى ارض ايطاليا. وكان البابا اسمهُ اذ ذاك أُربانس الثاني. فسلّمهُ رسالة سمعان. وشرح لهُ حال الشقآء الموجودة فيهِ ارض القدس * فوقع ذلك في قلب أُرْبانس. وعزم على إِرضآء ملوك اوروبا بان يجمعوا قواهم

وينضمّوا ليفكّوا الارض المقدَّسة * فنادى بمجمع في مدينة كلارامنْت. واجتمع الى المجمع جمٌّ غفير من ملوك اوروبا وعظمائها * فخطبهم البابا. ووصف لهم حال الذلّ والضنك والشقاوة الموجودة فيهِ اراضي القدس. واجاد في وصفهِ ونبغ. حتّى انّ الحاضرين كلّهم رقّت قلوبهم وهطلت الدموع من عيونهم. وصاحوا بصوتٍ واحد «الله يريد ذلك» * وتفاءَل كلّ انسان بهذه الكلمات حيث لفظها الحاضرون باجمعهم ارتجالاً كأنّهُ من إلهام. وجعلوها بعد ذلك آيةً لمناداة الجهاد * واغلب الحاضرين في المجمع قدَّموا نفسهم لهذا الجهاد. وكانت علامة معاهدتهم صليبًا من نسيجٍ احمر يحملونهُ على كتفهم اليمنى. ومن ذلك سُمّوا الصليبيّين * وعند ذلك اخذ الاساقفة ينادون في ابرشيّاتهم بجهاد الصليبيّين. فانضمَّ اليهم خلقٌ عظيم لا يُحصَى * وكان بطرس الصومعيّ يطوف البلاد وهو يحثّ الناس ويحضّهم ويغريهم. وكان العامّة تتّخذهُ كنبيّ لما راوا فيهِ من لهمّة والإخلاص والسيرة القشفيّة * وفي زمان قليل قامت اهالي فرنسا وإيطاليا وجرمانيا على ارجلها. ورُؤي العظمآء والوضعاء يتسارعون ليكتتبوا للجهاد الصليبيّ * وما ادهش كلّ احد هو انَّ العداوات والنزاعات الكثيرة التي كانت مشبوبةً في كلّ مكان انطفأَت حينئذٍ من بغتةٍ. وكأنَّ السلام والعدل قد وافيا الى الارض ليعِدّا الناس للحرب المقدّسة * واشتهر كثير من امرآء

افضل المعلّمين * واُقيم في مدينة من مدن فرنسا مدبّرًا للمدارس وحافظًا لسجلّات كنيستها * ثمَّ ترك هذه الوظيفة اذ راى الأَخطار الكثيرة التي كان خلاص نفسهِ مشتبكًا بها في العالم. وجزم أَنْ يتخلّى للسيرة الرهبانيّة ويقضي حياته بالتقشّف وأَعمال التوبة * وكاشف على قصدهِ هذا بعضًا من اصدقائهِ. واقنعهم باتّباعهِ * فالتجأُوا الى اسقف مدينة من مدن فرنسا. فدلّهم على بريّة في اراضي ابرشيّتهِ اسمها قرتوس. وهناك جعل برونون مقامهُ مع رفاقهِ * وشرعوا يمارسون السيرة الرهبانيّة النسكيّة العجيبة . وبرعوا فيها حتَّى حاكوا رهبان برّ الصعيد المسمّى الاسقيط * قال احد الرواة المعاصرين «انَّ هولآء النسّاك هم بالملائكة اشبه منهم بالناس * فانَّ لكلّ واحدٍ منهم قلّايةً او عرينًا مفصولاً من غيرهِ. ويُؤتَى لكلّ منهم من الخبز والبقل ما يكفي لمعاشهِ مدَّة اسبوع. وفي يوم الاحد فقط يجتمعون. ويقضون هذا اليوم المقدَّس بالسويّة * واَمَّا لباسهم فَدَنيٌّ. وتحتهُ يلبسون المسح * وكلّ شيءٍ عندهم فقريٌّ حتّى مصلّاهم. فانهُ لا يحوي شيئًا من الذهب او الفضّة سوى الكاس * وهم يسكتون على الدوام سكوتًا تامًّا. حتّى انهم اذا احتاجوا الى شيءٍ غاية الاحتياج. طلبوهُ بالاشارات * ويتعيّشون بشغل ايديهم. واكثر شغلهم نسخ الكتب» * وشاع صيتهم في كلّ ناحية. ونبه كثيرًا من الغافلين من غفلتهم. ودعاهم الى التشبّه بهم * فتسارع أَفواج

الناس من كلّ قدرٍ ومن كلّ رتبةٍ الى ارض قرتوس. وحملوا صليب المسيح. وبعد قليل من الزمان نشأَت منهم اديرة شتّى في البلاد * وقبل أَنْ تنقضي السنة السادسة منذ فُتحت هذه الرهبنة العجيبة. استدعى البابا أُربانس الثاني برونون الى مدينة رومية ليعينهُ بمشورتهِ في مصالح بيعيّة. ولكنّهُ لم يقِمْ في تلك المدينة زمانًا الاَّ وحنّ قلبهُ الى وحدتهِ. فصار يطلب الاذن في الرجوع * فعرض عليهِ البابا ان يجعلهُ أسقفًا على احدى المدن القريبة رجاءَ ان يبقيهُ عندهُ * فلم يزِد ذلك في قلب برونون الاَّ شوقًا الى الانصراف * ولمّا لم يمكن ممانعتهُ. أُذن لهُ في الذهاب. فذهب الى ارض كالَبْرِيا من أَعمال ايطاليا. واقام فيها ديرًا. وجمع فيهِ رهبانًا انضمّوا اليهِ من بلاد ايطاليا. وقضى باقي حياتهِ في الصلوة والتقشّف * ولمّا دنت ساعتهُ. استدعى اهل ديرهِ اليهِ. وقرّر بين ايديهم صورة ايمانهِ. وفي الخصوص صرّح برفضهِ بدعة برنجار حيث قال «انا اومن بأَسرار البيعـة. وعلى الخصوص اعتقد أَنَّ الخبز والخمر المقدَّسين على المذبح هما جسد المسيح ربّنا الحقيقي ولحمهُ الحقيقيّ ودمهُ الحقيقيّ. ونحن نتناولهُ لغفران خطايانا ولرجاءِ الحيوة الابديّة» * ولم يمُت مع القدّيس برونون روح سيرتهِ. بل ورّثهُ اولادهُ وداموا على حفظهِ من دون فتور. حتّى انّهُ لمّا كان اغلب الرهبنات احتاج الى تجديد أَحوالهِ وإِصلاحها. لم تحتَج رهبنة القرتوسيّين الى ذلك قطّ *

[ومن مناقب البابا غريغوريوس السابع المجيد ما جرى لهُ مع طائفة الارمن * وذلك انَّ رئيس اساقفة الارمن (ويسمَّى الجاثليق والبطريرك) كتب الى هذا الحبر الاعظم صورة ايمانهِ. وشرح فيها عوائد كنيستهِ. وقرّر الطاعة للحبر الروماني خليفة بطرس الرسول * فاقتبل غريغوريوس هذا الشرح بكلّ سرور. وارسل الجواب الى الجاثليق سنة ١٠٧٥ . وفيهِ هنّأ البطريرك وايّدهُ. ورسم عليهِ ان يحذف من الترِيساجيون الزيادة التي كانت ملّتهُ تستعملها كسائر اليعاقبة وهي يا مَن صُلب لاجلنا * فلمّا بلغت هذه الرسالة الى جاثليق الارمن. اقتبلها بكلّ احترام. وسافر للوقت الى رومية. وتعلَّم هناك تعاليم الكنيسة الكاثليكيّة وتمسَّك بها. ورجع الى طائفتهِ وعلّمهم ايّاها. وطبّق ايضًا عوائد كنيستهِ على عوائد الكنيسة الرومانيّة * هذا هو اوّل حادث فيهِ جرى معاطاةٌ بين الكرسيّ الرومانيّ وبين احدى الطوائف الشرقيّة المنشقّة من الكنيسة الكاثليكيّة في القرن الخامس وما بعدهُ * فالطائفة الارمنيّة لها الفضل على سائر الطوائف الشرقيّة التي لم تكن مشتركة مع الكنيسة الرومانيّة. لانّها قبل جميعهم اذ كانت قد سَئِمت من المعاملات الجوريّة التي بها كان بطاركة قسطنطينيّة يعاملونها . حيث كانوا يحاولون ان يخضعوها لسلطتهم بحجّة ان يجذبوها الى الايمان الارثدكسيّ وكانوا يؤذونها كثيرًا . لم

تجد سبيلاً للتخلّص من اذاهم الاَّ بالالتجآء الى سدَّة ذلك الرسول الذي جعلهُ المسيح راعيًا لكلّ قطيعهِ وامرهُ ان يثبّت اخوتهُ * والبائن انَّ هذه المعاطاة التي جرت بين غريغوريوس السابع البابا وبين طائفة الارمن لم ينتج منها ثمرةٌ ثابتةٌ. فانَّ الارمن رجعوا على شقاقهم حتَّى اقتضى ان يجدّدوا صلحهم مع الكنيسة الرومانيّة مرارًا كثيرة بعد ذلك العهد] *

الفصل الثاني

في إنشآء رهبنة القرتوسيّين (سنة ١٠٨٤)

قد تسلّت الكنيسة غير قليل عن البلايا التي كانت مصابةً بها في ذلك العصر بظهور صنفٍ جديد من الرهبان المتوحّدين في داخلها. اتوا بشيءٍ بديع لا مثيل لهُ من قداسة السيرة والاختلآء وإماتة النفس والتقشّف والصلوة مّما صاروا بهِ قدوةً جليلة للأقوام ومجدًا للديانة * كان منشئ هذه الرهبنة راهبًا اسمهُ برونون. وكان من البيوت الكريمة في مدينة كولونيا من أَعمال جرمانيا * وكان القدّيس برونون منذ نعومة أَظفارهِ يحبّ التقوى والعبادة . وكلّما شبّ . زادت هذه الخلال الصالحة فيهِ * وتعلّم ايضًا العلوم وبرع في علم الكلام اي علم اللاهوت . حتَّى جُعل من

الباب الخامس

في اخبار الكنيسة الى المجمع الفلورنتيني

الفصل الاوّل

في ما حدث في بلاد اوروبا من السجس من سبب تقليد المناصب (سنة ١٠٧٥)

بعدما انشقّت الجماعات المشرقيّة من الكنيسة الكاثليكيّة على يد ميخائيل قرولاريوس بزمان قليل . حدث في اوروبا فتنةٌ شديدةٌ على يد هنري الرابع ملك جرمانيا القيصريّ. جرى منها شرور كثيرة على الكنيسة وعلى المملكة * وذلك انّ العادة كانت قد جرت في جرمانيا أَنْ يكون الملك يقلّد مناصب الاسقفيّة ورياسة الاديرة بتسليمهِ الى من يختارهم لذلك العكّاز والخاتم . وكان ذلك يسمّى سنّة التقليد * ولكنّ هنري الرابع لم يكتفِ بهذا . بل اغتنم العادة ليتاجر بالمناصب البيعيّة بئس المتاجرة . فكان لا يقلّدها الأشخاص المستحقّين الجديرين . بل للّذين يطمعونهُ بالدراهم * فنهض عند ذلك البابا غريغوريوس السابع القدّيس .

واحتدّ شهامةً على شريعة الكنيسة القدسيّة . وعزم على إبطال جسارة هنري * فلمّا تأمّل انّ العكّاز والخاتم هما علامة السلطنة الروحيّة وانّ السلطنة الروحيّة لا يمكن ان يقلّدها العلمانيّون . ابطل سنّة التقليد المشروحة من عين اصلها . وحكم انّ الملوك والحكّام لا حقّ لهم أَنْ يتفاضلوا في المناصب البيعيّة . وتهدّد بالحرم كلّ من يتجاسر أَنْ يقلّد الوظائف الكَنَسيّة او يتقلّدها بهذه الصورة * ولكنّ الملك لم يزدجر ولا ارتدع . فلمّا رآهُ البابا مصرًّا معاندًا . حرمهُ * ولم يكتفِ غريغوريوس بهذا العقاب الروحيّ . بل حكم انّ هنري سقط من مرتبتهِ الملكيّة وانّ رعيّتهُ معفَوْن من عهد الطاعة لهُ * فتلقّى هذا حكم البابا بعض من وزراء الدولة المتذمّرين على حكم هنري . وعزلوهُ . ونصبوا مكانهُ شخصًا آخر اسمهُ رودُلْف . وبعد اثني عشر يومًا كُلّل رودلف بتاج الملك القيصري * فاشتبكت الحرب بين هنري ورودلف . وانكسر في الاوّل هنري . ولكن في واقعة ثانيةٍ قُتِل رودلف . فتظفّر هنري واغتنم الفرصة لياخذ ثارهُ من البابا * فغار على ارض ايطاليا . وهمّ حتّى عزل غريغوريوس من البابويّة . ونُصب مكانهُ جيبَرْت مطران راونّا وتسمّى اقليميس الثالث * وعاش هذا البابا الكذّاب الى آخر القرن الحادي عشر . وفي هذه المدّة الطويلة ازعج جدًّا غريغوريوس السابع القدّيس والباباوات الذين جلسوا بعدهُ *

الذي انحاز الى المعتقد الكاثليكيّ * وفي القرن الثامن طيمثاوس البطريرك المشهور. وسورين المفسّر. وبولس اسقف الانبار. وشهدست اسقف طرهان. وباباي النصيبيني الذي اصلح الاغانيّ البيعية. وابرهيم بن ليفا * وفي القرن التاسع يشوع بن نون البطريرك. وميخائيل الاهوازي. وحُنين بن اسحاق الطبيب. وحبيب الراهب. ويشوع داد الحدثي. وابو نوح. والكندي. ويشوع بن عليّ. وجبرائيل بختيشوع. وتوما اسقف مرجه المورّخ. وسبريشوع الدمشقيّ. وايليا الدمشقي المعروف بالجوهريّ الذي الّف كتاباً في فقه البيعة بالعربيّة الفصيحة * وفي القرن العاشر يوحنّا البطريرك المعروف بابن الاعرج. وايليا اسقف الانبار. ومتي بن يونان المعروف بابي بشر المنطقي. وجرجس اسقف اربل والموصل الذي شرح أسرار الكنيسة وطقوسها. وعبديشوع البطريرك الاوّل. ويشوع بن بهلول صاحب القاموس المشهور. وعمانويل الملفان. ويوسف الساهر الطبيب. وابو سهل الطبيب المعروف بالمسيحيّ معلّم ابن سينا المشهور. وايّوب القطريّ * وفي القرن الحادي عشر عبديشوع اسقف اثور الفقيه. ودانيال اسقف تحل المعروف بطوبانيث. وايليا الاوّل البطريرك. وايليا بن شيني اسقف نُصيبين الذي كتب جدالاً مع احد علماء الأسلام في العربيّة البليغة وكتاباً في الفقه وغير ذلك. وابو الفرج عبد الله بن الطيّب الذي الّف في العربيّة تفسير الكتاب

المقدَّس وكتاب فقه الكنيسة وكتباً اخرى نفيسة . ويحيى بن جزله الطبيب *

وظهر ايضاً بين القبط والارمن مؤلّفون شتّى في تلك المدّة * وهذه الكتب التي ذكرنا الى الآن اسماء بعض مؤلّفيها ولو أنّ اصحابها هم غير كاثليكيّين باجمعهم الاّ الملكيّين منهم . تستحقّ الاعتبار لدى المحقّقين العارفين . لانّها في الغالب تنطوي على معارف الأولين وعلومهم واخبارهم وفضائلهم . وتشهد بصحّة حقائق معتقد الكنيسة الكاثليكيّة ورسومها الدينيّة . وتخزي اولئك النصارى المتجدّدين وهم البرتستنت الذين يزعمون انّ البابا وات الرومانيّين في الازمان المتأخّرة اخترعوا تلك الحقائق والرسوم] *



البطريرك المعروف بالتلمحريّ الذي الّف كتاب تواريخ شهير (سنة ٨٤٥) * ويوحنّا اسقف دارا الذي الّف كتبًا شتّى لاهوتيّة (سنة ٨٣٧) * واليعازر بر سبتا المعروف بابن العجوز اسقف بغداد اللاهوتيّ (سنة ٨٢٩) * وبولا الرهاويّ اسقف تلّة مترجم العهد القديم من اليونانية السبعينيّة * وموسى بر كيفا المعروف بابن الحجر اسقف الموصل الذي الّف كتبًا كثيرة في اللاهوت وشرح الأَسرار وترجامات وغير ذلك (سنة ٩٠٣) * وعيسى ابو عليّ الفيلسوف البغداديّ المنطقيّ المتطبّب الذي في كتب الّفها بالعربيّة ردّ على اعتراضات الأَسلام (سنة ١٠٠٨) * ويحيى بن حميد التكريتي المعروف بابن عديّ الذي صنّف في العربيّة مصنّفات كثيرة نفيسة اخصّها للردّ على الأَسلام (سنة ٩٧٤) * وابرهيم ابو اسحاق الفيلسوف الذي الّف كتبًا جليلة في الحكمة في العربيّة * ويوحنّا المعروف بالماردنيّ المسمّى بحر الحكمة الذي درّس في دير مار هارون (سنة ١٠١٧) * ويوحنّا عبدون البطريرك الذي استُؤسر الى القسطنطينيّة ومات في نفي ملك الروم (سنة ١٠٣٣) * واغناطيوس برقيقي البطريرك الذي اسلم لدين محمَّد ثمّ تاب (نحو سنة ١٠١٦) * وابو نصر يحيى بن الحريريّ التكريتي الذي كتب في اساس دين المسيح (نحو سنة ١٠٤٠) * ويوحنّا بر شوشان البطريرك الذي جادل الارمن كثيرًا. واعتنى بجمع ميامر مار افرام ومار اسحاق وضبطها

(سنة ١٠٧٣) * ويوحنّا بن الصابونيّ اسقف ملاطية (سنة ١٠٩٤) *

واما الذين الّفوا الكتب بين النساطرة في المدّة المذكورة فيفوقون عددًا على اليعاقبة بكثير. الّا انّ مؤلّفاتهم احطّ قيمةً في الغالب ممّا خلّفهُ لنا كتّاب اليعاقبة. وذلك لانّ علماء اليعاقبة كانوا باللغات الاجنبيّة ولاسيّما اليونانيّة اخبر من النساطرة. فانتفعوا من معرفة هذه اللغات. وجمعوا في كتبهم فرائد اليونان ونوادر كثيرة تهمّ المؤرّخ واللاهوتي ومفتّش العتائق البيعيّة وغير ذلك ممّا قلّما تراهُ في كتب النساطرة * فمن اشهر المؤلّفين النسطوريّين من زمان ظهور النسطرة الى اواخر القرن الحادي عشر: في القرن الخامس نَرْسَيْ ملفان النساطرة صاحب الميامر الشهيرة التي يقرأُونها في طقسهم. وبرصوم اسقف نصيبين. وداديشوع البطريرك * وفي القرن السادس مارابا البطريرك. وتوما الرهاوي. وبولس النصيبينيّ. وداديشوع رئيس الدير. ويوسف الاهوازيّ المعروف بالحزّاي اي الرائي. وابراهيم الكشكري. واليشاع البطريرك المفسّر. ويوحنّا فنكايا. ودانيال الرشعينيْ * وفي القرن السابع باباي الكبير رئيس الدير. ويشوعياب البطريرك الجدليّ. ويشوعياب الحديابي البطريرك. وشمعون المعروف بطيبوثا. ويوحنّا الازرق. وقرياقس النصيبيني. ودانيال بن مريم المورّخ. وسهدونا اسقف باجرمي

وكان في زمان فوتيوس. وسعيد بن بطريق بطريرك الاسكندريّة الذي اشتهر بتواريخ الّفها في العربيّة في مبادىء القرن العاشر. ويحيى بن سعيد المورّخ *

ومن الموارنة الذين اشتهروا بالعلم يوحنّا مارون بطريركهم الاوّل الذي يُظَنّ انهُ عاش الى مبادئ القرن الثامن والّف كتاباً يحوي شرح معتقد الملّة المارونيّة وردًّا على المنوفسيتيّين والنساطرة * وثاوفيل الرهاويّ المنجّم. الذي الّف كتاب تواريخ وغير ذلك لم يصل الينا منها شيءٌ. واشتهر في القرن الثامن في قصر الخلفاء العبّاسيّين * وفي مبادئ القرن الحادي عشر عُرف بين الموارنة داود الاسقف باستخراجهِ من اللغة السريانيّة الى العربيّة كتاب شرع تلك الملّة ويسمّى كتاب الهُدَى * وبعدهُ بنحو خمسين سنة اشتهر في مدينة كفرطاب بقرب حلب توما اسقف تلك المدينة. والّف كتاباً سمّاهُ المقالات العشر لإثبات مذهب المنوثليتيّة وهو القول بالمشيّة الواحدة في المسيح *

واماَّ اليعاقبة فظهر فيهم جمٌّ غفير من العلمآء والمؤلّفين يصعب استقصاؤُهم هنا * فمن الذين اشتهروا قبل ظهور الإسلام منذ إنشآء الشيعة اليعقوبيّة (وقد اهملنا ذكرهم سابقًا لنذكرهم هنا) فيلكسينس المنبجيّ (توفّي سنة ٥٢٢). وهو جدّ كثيرًا في نشر البدعة المنوفسيتيّة. والّف في السريانيّة الفصيحة كتبًا كثيرة * وبولس او

بَوْلاَ اسقف قلّينيقوس . وهو ترجم كتباً كثيرة من اليونانيّة الى السريانيّة (سنة ٥١٨) * وشمعون القوقي (سنة ٥١٠) المنسوبة اليهِ القصائد السريانيّة التي على الوزن المعروف بالقوقاي * ويوحنا بن افتون رئيس دير قنسرّين مؤلّف تتمّة معانيث سويرا (سنة ٥٣٨) * وزكريا المسمَّى المنطيق او الفصيح اسقف ملاطية المورّخ * وشمعون رئيس دير ليقين مترجم المزامير من السبعينيّة * ويوحنّا اسقف اسيا اي اسقف المنوفسيتيّين الذين في بلاد اسيا الصغرى المورّخ الى سنة ٥٧٤ * واسحاق اسقف نينوى (سنة ٥٨٠) * واحودامي اوّل المفريانات (سنة ٥٧٥) * وتوما الحرقليّ الماهر باللغتين اليونانيّة والسريانيّة. الذي ترجم من الاصل اليونانيّ الى السريانيّة العهد الجديد الترجمة المعروفة بالحرقليّة التي يستعملها اليعاقبة في كنائسهم مع الترجمة القديمة المعروفة بالبسيطة (سنة ٦١٦) * ويوحنّا البطريرك المعروف بابي السذرات اي مؤَلّف الحسّايات المستعملة في طقس اليعاقبة والموارنة (سنة ٦٤٩) * ويوحنّا البصريّ اسقف العرب البادية (سنة ٦٥٠) * وتوما الشمَّاس النحويّ * ويعقوب الرهاويّ المشهور بكلّ فنٍّ من العلوم . وهو يُلقَّب عند السريان بالمترجم لانّهُ ترجم كتباً كثيرة من اللغة اليونانيّة الى السريانيّة الفصيحة (سنة ٧٠٨) * وجرجس البطريرك الذي حبسهُ خليفة بغداد (سنة ٧٩٠) * وقرياقس البطريرك (سنة ٨١٧) * وديونوسيوس

الى النصارى كان الحاكم بامر الله خليفة مصر الفاطميّ في القرن العاشر * كان الحاكم بامر الله امّهُ نصرانيّة. وابغض النصارى وعاملهم شرَّ المعاملة. حتّى اصدر امرًا على الاساكفة بان لا يصنعوا احذيةً لنسآء النصارى لئلاَّ يخرجن من بيوتهنَّ * قال احد المورّخين «مُحِنت النصرانيّة بامر هذا الخليفة بمصر والشام. وأُخذت آلات البِيَع. وأُلبس النصارى صليبًا من خشب وزنهُ خمسة أَرطال في اعناقهم. واليهود عُلّق في رقابهم عجل عظيم المقدار. وأَسلم خلقٌ كثير... وحكى الاسقف بمصر انَّ مبلغ ما خرب في أَعمال المغرب من البيع نحو اربعين الف بيعة ودير» * وبامر هذا الخليفة الطاغي أُحرق هيكل القيامة الذي كان قسطنطين الملك قد شادهُ في اورشليم المقدّسة. وأُغلقت جميع بيع النصارى وكنائس اليهود التي تحت حكمهِ * وحدث ذات يوم أَنّهُ وُجد في احد جوامع اورشليم جيفة كلب ميّت. فاتُّهمت بهِ النصارى. وهاج غضب الولاة عليهم. واصدروا مناديًا ينادي بانّهُ إنْ لم يسلّم النصارى راكب هذا الفعل. قُتلوا جميعًا الى آخرِهم * فصار النصارى في حال لا يوصف من البؤس والشقآء والرعب. واذا بفتى كريم اتّقدت في قلبهِ نار النجابة تقدَّم الى محفل روسآء المسيحيّين وقال لهم «لَأَنْ يموت واحد بدل الامّة خيرٌ من ان تموت الامّة كلّها. دعوني أُقتَل بدلكم ولو كنتُ بريًّا». وطلب منهم البركة. وعرض نفسهُ

على حكّام الأَسلام كأنَّهُ هو صاحب تلك الجريمة. فقتلوهُ ومات فديةً عن اخوتهِ *

ولم يزل المسيحيّون الذين تحت حكم العرب تارةً في امان وراحة وتارةً في جزع وضيق الى ان انقرضت دُوَل العرب وقام مكانها دولٌ اخرى كما سترى في الباب الآتي] *

الفصل الخامس والعشرون

في ذكر بعض العلمآء الذين اشتهروا في البلاد الشرقيّة
تحت حكم الأَسلام الى القرن الحادي عشر

[انّ الرقّ الذي تحتهُ خضع المسيحيّون لنير الأَسلام في بلاد المشرق لم يمنعهم من ان يظهر فيهم فضلآء كثيرون اشتهروا بفنون العلوم وبالمؤلّفات النفيسة التي خلّفوها لنا منذ ظهر الإِسلام الى القرن الحادي عشر * واوّل ذلك الارثذكسيّون المعروفون بالملكيّين. الذين كان منهم جماعات كثيرة في سورية ولاسيّما جهاتها الجنوبيّة. الاَّ انَّ علمآء هذه الطائفة لم تعُد تظهر عندهم اللغة السريانيّة. بل كانوا يؤلّفون الكتب باللغة اليونانيّة وربّما بالعربيّة * منهم قزما الاورشليميّ والقدّيس يوحنّا الدمشقيّ السابق ذكرهُ. وثئودورس ابو قرّة الذي جادل في مؤلّفاتهِ اليعاقبة والنساطرة والأَسلام

وليدًا الثاني خليفة دمشق الذي جاس في سنة ٧٤٣ قطع لسان مار بطرس اسقف دمشق. وقتل مار بطرس اسقف مايوما شهيدًا * وفي مبادئ القرن الثامن بقي الكرسيّ الانطاكيّ فارغًا مدَّة اربعين سنة لسبب انَّ العرب كانوا يمنعون الارثدكسيّين اي الملكيّين أن يقيموا لهم بطريركًا * وفي اواخر القرن الثامن في خلافة منصور العبّاسيّ أُلقي في السجن ثلاثة بطاركة. اي يعقوب النسطوريّ وجرجس اليعقوبيّ وثيودريط الكاثليكيّ الانطاكيّ. وبعد تسع سنين لم يُطلَقوا من السجن حتّى تشفّع فيهم مطران نصيبين النسطوريّ * وكان العرب مع اتّخاذهم جميع ملل النصارى ملّةً واحدةً يفضّلون تارةً واحدة وتارةً اخرى من الملل المسيحيّة على غيرها. فينصرونها عليها ويدمّرون الأُخر * فانَّ الخلفاءَ الأَمويّين بعدما منعوا الملكيّين من اقامة بطريرك مدَّة اربعين سنة كما ذكرنا. صاروا يعينون هذه الفرقة الارثدكسيّة على سائر الفِرَق النصرانيّة ولاسيّما فرقة الموارنة الذين كانوا في جبال لبنان وسائر جهات فونيقي * وروى احد المؤرّخين المعاصرين انّهُ بعد ما عُقد المجمع السادس الذي فيهِ حُرمت البدعة المنوثليتيّة. انقسم اهل حلب الى فرقتين. احداهما منوثليتيّة مع اسقفهم. والاخرى ارثدكسيّة اي ملكيَّة. وجرى بين الفرقتين مخاصمات شديدة من سبب بيعتهم. فامر الامير ان ياخذ كلّ فريق نصف البيعة. فلمّا راى انَّ السجس لا يزال يكثر

اضطرّ الفرقة المنوثليتيّة ان تصير ملكيّة * وروى ايضاً أَنَّهُ في سنة ٧٤٥ لمّا اباح مروان الخليفة للانطاكيّين الملكيّين ان ينصبوا ثاوفيلوطا بن قنبره بطريركاً عليهم بعد فراغ اربعين سنة كما ذكرنا. اخذ هذا البطريرك امراً وعسكراً ليلجئ المنوثليتيّين الى ان يقبلوا المجمع السادس * فلمّا اتى الى مركز ملّتهم. ضايقهم ليرفضوا مذهبهم ويبطّلوا من التريساجيون اي قدّوس الله زيادة يا من صُلب لاجلنا. فرجع خائباً * وكذلك فعل باهل مدينة منبج التابعين ذلك المذهب. فخسّرهم اربعة آلاف دينار. فاقبل اندراوس وجيههم. وبامر الخليفة بنى بيعةً للمنوثليتيّين في منبج * وكان العرب يمنعون الطوائف الاخر غير الملكيّين ان يكون لهم بطريرك في انطاكية * ولكنّ الامر حدث بعكس ذلك في بغداد. فانَّ اولئك الخلفاء العبّاسيّين كانوا يفضّلون النساطرة على سائر الملل النصرانيّة. حتّى انّهم لم يسمحوا ان يكون اسقف على بغداد غير بطريرك النساطرة * وفي مبادئ القرن العاشر لمّا كثر الملكيّون في تلك المدينة. وطلبوا لهم مطراناً من بطريركهم ايلياء الانطاكيّ. ارسل البطريرك اليهم مطراناً. ولكن لم يُسمَح لهذا المطران ان يسكن في بغداد زماناً. فانَّ الخليفة طردهُ بهمّة بطريرك النساطرة. وسُمح فقط من ذلك اليوم للملكيّين المذكورين ان ياتيهم كلّ مدّة من الزمان اسقفٌ من قبل بطريركهم يزورهم ثمَّ يرجع الى محلّهِ * ومن اشهر الولاة المسلمين الذين اساءوا

بالوصاية عليهِ وعلى النصارى وبرعاية ذمّتهم. فكان يظهرهُ لكلّ من يتولّى من روساء الجيوش وامرائهم فيمتثلونهُ * وشهد احد بطاركة النساطرة وهو يشوعياب الحديابيّ الذي توفّي سنة ٦٦٠ انَّ العرب كانوا يحمون النصارى ويكرمون الكهنة واولياء الله ويحسنون الى البيَع والاديرة * وروى المؤرّخون انَّ احد امراء العرب اسمهُ عمرو بن سعيد طلب من يوحنا بطريرك اليعاقبة المعروف بصاحب السنذرات ان يترجم لهُ الانجيل الى العربيّة. فجمع البطريرك زمرة من العارفين الماهرين باللغتين. فاستخرجوا الانجيل من السريانيّة الى العربيّة * وكان الخلفاء في الاوّل يستعملون النصارى ويولّونهم سياسة المدن والقرى. ومن الجملة كان سرجيس ابو القدّيس يوحنّا الدمشقيّ واليًا على دمشق من قبل الخليفة. وكان يوحنّا نفسهُ من اهل مشورة الخليفة * وقد جرت العادة عند الحكّام الأسلام منذ الاوّل انْ يكون اطبّاؤهم والمتولّون على خزائنهم وصيارفتهم وكتّابهم نصارى * وامّا في بلاد الاندلس اي بلاد اسبانيا الواقعة بيد الأسلام فكان النصارى في راحة وطمانينة اكثر ممَّا في سائر البلاد. وكانوا قد نالوا عهدًا من القوّاد الذين فتحوا بلادهم بانَّ النصارى يلتزمون ان يؤدّوا الجزية كلّ واحد ضعف ما يؤدّي المسلم. وان يكون لهم اميرٌ في كلّ مدينة ينظر في دعاويهم ويقضي لهم. الّا اذا صدر منهُ حكم الموت فيقتضي ان

يؤيّدها قاضي الأسلام * بل انّ نصارى تلك البلاد حفظوا لغتهم ولم يُلزموا ان يتعلّموا لغة العرب *

ولكنّ هذه الأحوال الطيّبة لم تعمّ كلّ الازمان ولا كلّ الاماكن * فانَّ بلاد اليمن والحجاز من بعد ما طُرِد منها النصارى الكثيرون الذين فيها . وُضع حرجٌ عليهم بان لا يدخلها احد منهم . والاّ قُتل * والديانة النصرانيّة التي كانت يومًا مزهرةً ومتقويّةً في بلاد افريقية التي تسمّى الآن بلاد المغرب من الجزائر وفاس ومراكش . اندرست من هذه البلاد الكثيرة كلّها منذ فتحها الأسلام . حتّى انّهُ لم يبقَ فيها بيعةٌ ولا ديرٌ ولا ادنى اثر نصرانيّة * وذكر المؤرّخون انَّ ابا بكر اوّل الخلفآء المعروف بالصدّيق شدّد الامر على النصارى واذلّهم . حتّى انّهُ منعهم من أنْ يركبوا الخيل ويحملوا الصليب في الزقاق ويجادلوا الأسلام في امر الدين ويتزيّوا بزيّ الأسلام في ملابسهم ويُسمّوا بأسمآئهم ويرفعوا أصواتهم في أفراحهم او أحزانهم . وسنّ ان لا تُقبل شهادة نصرانيّ على مسلم . الى غير ذلك * وكان الولاة الأسلام كثيرًا ما يؤذون النصارى من دون داعٍ وينغّصون عيشهم . ولاسيّما مقدّميهم اي الاساقفة والقسوس والرهبان . وذلك امّا طمعًا في أموالهم . وامّا بغضةً لدينهم . وامّا لظنونهم الخبيثة فيهم . وربّما اصاب النصارى بلايا اليمة من سبب انقساماتهم وعدوان الطائفة الواحدة للاخرى * فمن ذلك انَّ

لنفسهم بما لا يُحتمَل من التعظّم والاستكبار اسم البطريرك المسكوني مع انّ الحبر الروماني نفسهُ لم يتّخذ قطّ هذا الاسم وهو حقّهُ . وان يتسلّطوا على البطريركيّات الشرقيّة الثلاث الرسليّة مع توابعها ويتحكّموا عليها ويخضعوها تحت هواهم . وان يجبروها أَنْ تترك كلٌّ منها عوائدها الطقسيّة المختصّة بها وتتبع عوائد الكنيسة القسطنطينيّة . وان يعدموها لغاتها البيعيّة الاصليّة وعنائق آبائها وأَسلافها . بل ملأُوا مكيالهم بسحب الكنائس الشرقيّة كلّها قاطبةً معهم في زلق العصيان على خليفة ماربطرس الرسول نائب يسوع المسيح لتسقط اسمهُ من الدبتيخا (١) وتابي الاشتراك معهُ والطاعة الواجبة لهُ . وبذلك تهوّروا جميعاً في مهلكة الشقاق العامّ من كنيسة الله الواحدة الجامعة الرسليّة] *

الفصل الرابع والعشرون

في حال النصارى في بلاد المشرق من زمان ظهور الاسلام الى اواخر القرن الحادي عشر

[كان الأَسلام الذين منذ القرن السابع قد استولوا على

---

(١) [الدبتيخا لوحٌ يحوي اسماءَ الآباءَ الجالسين على الكراسي الرسليّة واوّلهم البابا الروماني . كانت الكنيسة الشرقيّة معتادة ان تقراهُ في ايّام الاحد والاعياد في القدّاس] *

جانب عظيم من بلاد الجنوب والمشرق واخضعوا تحت حكمهم جميع النصارى الذين في تلك البلاد. قد اختلفت أَحوالهم حقباً بعد حُقب. فانهُ بعد انقراض الدولة الأَمويّة المنسوبة الى بني أُميَّة التي كانت قاعدتها مدينة دمشق. قامت دولةٌ اخرى في مدينة بغداد اسمها العبّاسيّة. وهذه دامت زمانًا * ونشأَت دولةٌ اخرى في مصر اسمها الفاطميّة. كانت قاعدتها مدينة القاهرة * واستولى العرب منذ الاوّل على جانبٍ من بلاد اسبانيا. وصار لهم هناك دولةٌ اسلاميّة دامت اجيالاً * وظهر دولٌ اخرى أَسلاميّةٌ في بلاد الفرس والترك وغير ذلك * وبعد ما اخضع الأَسلام جميع النصارى الذين في هذه البلاد وقرضوا جانبًا عظيمًا منهم امّا بالسيف وامّا باغتصابهم ان يسلموا. اختلفوا في معاملة النصارى الذين سلّموا وادّوا الجزية * فكانوا تارةً يرفقون بهم ويحسنون اليهم بل يكرمونهم. وكان ذلك داب بني عبّاس خاصّةً. فانّهم لسبب ما كانوا ينتفعون من علوم النصارى وصنائعهم كانوا ينزلونهم احسن منزلة. ولذلك فالديانة النصرانيّة ازهرت في ايّامهم وقويت * قيل انَّ عُمَر بن الخطّاب احد الصحابة والخلفآء عاهد يشوعياب المذكور بعهد بان لا توخذ الجزية من اخوانهِ وخَدَمهِ واشياعهِ * وذكر المؤرّخون النسطوريّون انَّ ماراما بطريركهم الذي تخلّف بعد يشوعياب نال صكًّا ثانيًا من عليّ بن ابي طالب الخليفة

ان يتعرَّض لها احد في ذلك . منها استعمال السكّين في القدّاس . وجعل برشانة القدَّاس مربّعة . وصبّ الماء السخن في الكاس بعد تقديسهِ . وانَّ هذه العوائد لم يكن بطاركة المشرق يستعملونها وخاصّةً بطريرك اورشليم * وهذا الشرح اعجب الملك حتّى انهُ همَّ باستخراجهِ الى اللغة اليونانيَّة . وارسلهُ الى كلّ ناحية] * ولكنّ ميخائيل قرولاريوس لم يلتفت الى القصَّاد . ولم يقبل ان يكلّمهم ولا ان يراهم * فشقَّ ذلك على القصّاد اكثر ما يكون . واذ لم يبقَ لهم سبيل أَنْ يطوّعوهُ . حرموهُ بحضور الاقليرس والجماعة . وجعلوا صكّ حرمهِ على مذبح الكنيسة المتقدّمة [اي كنيسة صوفيا المقدّسة] وخرجوا وهم ينفضون غبار ارجلهم ويقولون « الله يبصر ويحكم » * ثمَّ استاذنوا الملك في الانصراف . اذ انّهُ لم يكن لهُ قوَّة ليقهر البطريرك ولو انّهُ لم يكن راضياً عنهُ وعن فعالهِ * [فلمّا ذهب القصّاد من قسطنطينيَّة . حدث بعد ايّام انَّ الملك وهو قسطنطين منومخوس قضى نحبهُ . وتولّت السلطنة بعدهُ ثاودورة اختهُ . وكانت تخاف من ميخائيل البطريرك ان ينكي بحياتها * فاغتنم ميخائيل هذه الفرصة . ورفع لوآء الشقاق والعصيان على كنيسة الله الواحدة . فجمع مجمعاً فيهِ حرم قصّاد البابا . ونادى بالعصيان في كلّ ناحية من البلاد المتعلّقة ببطريركيّتهِ وجرّهم كلّهم ورآءهُ في سبيل الشقاق * لا بل اجتهد ان يجذب الى الوهدة اساقفة المشرق ايضاً . فقاومهُ

في الاوّل بطاركة الاسكندريَّة وانطاكية واورشليم الملكيّون . ومن
جملتهم بطرس بطريرك انطاكية كتب الى ميخائيل مبيناً لهُ أَنَّ
أَبواب شكواهُ على اللاتينيّين لم تكن في الاكثر الاَّ عوائد لا تضرّ
الدين . وانَّ اليونانيّين ايضاً عندهم عوائد خصوصيّة . وانّهُ ما
دامت العقيدة محفوظة يجب الحذر من عمل يحدث منهُ ثلم المحبة
والاتّفاق . وختم رسالتهُ قائلاً «اعتبر أَنّهُ من سبب الانقسام بين
كنائسنا وبين الكرسيّ الرسوليّ العظيم الممّت بنا كلّ البلايا
والمصائب . ولهذا السبب نرى الامم مضطربة والمدن خربة
والولايات مسحوقة ولا تنجح جيوشنا في مكان» * الاَّ انَّ البطاركة
المشرقيّين الثلاثة الملكيّين الذين كانوا مع اساقفتهم ومع جماعاتهم
حافظين وحدهم الايمان الارثذكسيّ في المشرق ومشتركين مع
الكنيسة الكاثليكيّة بواسطة الطاعة لأَحبار الكنيسة الرومانيّة . بعدما
قاوموا اوّلاً مساعي ميخائيل قرولاريوس السيئّة . اطغاهم هذا بطريرك
قسطنطينيّة هم وجماعات بلاد المشرق كلّها . فسقطوا قاطبةً مع
اليونانيّين في الشقاق . وانفسخوا من وحدانيّة الكنيسة الكاثليكيّة .
وهكذا هذه الربوات الكثيرة التي الى ذلك اليوم كانت قد سلمت
من البدع النسطوريّة والمنوفسيتيّة والمنوثليتيّة المستولية على جانب
كبير من بلاد المشرق حصلت هي ايضاً في حال الخروج عن
الكنيسة الكاثليكيّة * فبطاركة قسطنطينيّة لم يكتفوا ان يتّخذوا

هي مركز الدين تمرّدًا مفضوحًا ويفترق من شركتها * [وبذلك احدث امرًا جديدًا فضلاً عن أَنّهُ بعصيانهِ على اوّل الكراسيّ الرسليَّة انشقّ من جسم الكنيسة الكاثليكيَّة الواحدة الرسلية. فانَّ احد ملافنة اليعاقبة نفسهم وهو ديونوسيوس بن الصليبي شهد في القرن الثاني عشر انَّ اليونانيّين كانوا قبل شقاقهم ياتيهم بطريركٌ من رومية على الدوام. اي كان الحبر الرومانيّ يثبّت بطريركهم] * وستر ميخائيل قرولاريوس عصيانهُ بتعلّلات فوتيوس على الكنيسة اللاتينيَّة من جهة أَنّهم يقولون بانَّ روح القدس ينبثق من الآب والابن [وزاد على ذلك شكاوي اخرى. منها انَّ اللاتين يقدّسون بالخبز الفطير. وكان يدّعي أَنَّ خبز الخمير هو وحدهُ الخبز الصحيح للقدّاس. كأَنَّ المسيح امر بهِ دون الفطير. مع انَّ الراي الارجح هو انَّ المسيح سبحانهُ قدّس بالفطير. لانَّ اليوم الذي فيهِ قدّس كان على اليهود عيد الفطير الذي فيهِ لم يجز لهم ان يحووا في بيوتهم خبزًا مختمرًا] * ولهذه العلل وأَمثالها تجاسر قرولاريوس ان يمنع الاشتراك مع البابا. واغلق كنائس اللاتينيّين التي في قسطنطينيّة. [لانهُ كان في تلك المدينة طائفة كبيرة غريبة من بلاد المغرب. فكان لهم كنائس تُقضَى فيها الخِدَم البيعيَّة باللغة اللاتينيّة. كما كان في روميّة وما يجاورها كنائس يونانيّة للغرباء اليونانيّين] * ولم يكتفِ قرولاريوس بذلك. بل ابطل عماذ

اللاتين وحكم بتعميذهم ثانيةً [وذلك بحجَّة أَنَّ اللاتينيين يعمّذون
بالصبّ لا بالتغطيس. مع أَنَّ الشرقيين نفسهم ومن جملتهم اليعاقبة
يجوّزون العماذ بالصبّ] * فلمَّا بلغ الى البابا لاون التاسع هذه
الأخبار السيّئة. بذل كلَّ ما في وسعهِ من الجهد والتعب لإطفاء
تلك الشرور وإهداء أفكار الناس * فكتب شرحًا فيهِ فنَّد تهم
ميخائيل. وكشف زورهُ وافكهُ وظلمهُ. وبيّن انَّ اختلاف العوائد
الطقسيةَّ لا يمكن ان يكون سببًا لثلم الاتّفاق والمحبّة. [وذكر انَّ
كنيسة قسطنطينيّة كانت موصومة بعيوب كثيرة. من جملتها أَنَّها
كانت ترقّي الخصيان الى درجة الاسقفيّة نفسها. حتَّى صار ذلك
سببًا ليقال انَّ امراةً جلست على كرسيّ قسطنطينية] * واذ كان
البابا يتمنّى الصلح من كلّ قلبهِ. ارسل ثلاثة قصّاد الى قسطنطينيّة
اوَّلهم كان اسمهُ همبِرْت. وكان من اخصّ كردنالات الكنيسة
الرومانيّة. وكان خبيرًا ماهرًا باللغة اليونانيّة] ليفاوضوا ميخائيل
البطريرك ويَسْعَوا في ترجيع الاتّفاق. وسلّمهم رسالتين احداهما الى
الملك والاخرى الى البطريرك * فلمَّا وصل القصّاد. قبلهم الملك
باعزاز واكرام * [فاقبل همبرت وكتب شرحًا فيهِ دافع عن أَبواب
الشكاوي التي بها ميخائيل قرولاريوس وبعض من أَصحابهِ عابوا
الكنيسة الرومانيَّة ولاسيّما استعمال الفطير في القدَّاس. وبيَّن انَّ
الكنيسة القسطنطينيّة ايضًا كان لها عوائد مختصَّة بها من دون

بهِ . ووعد أَنْ يختم ما يقدّم اليهِ المجمع من صورة الايمان * فقدّموا اليهِ تقريرًا . صورتهُ « انّي العن كلّ الهرطقات ولاسيَّما الهرطقة التي شُكيتُ بها . واقرّر بلساني وقلبي انّي في امر الاوخرستيا ماسكٌ ما حدّهُ لي البابا والمجمع بمقتضى قول الانجيل الطاهر ونصّ الرسول . وهو أَنَّ الخبز والخمر اللذين يقرَّبان في القدَّاس هما بعد التقديس جسد المسيح الحقيقيّ ودمهُ الحقيقي » * واثبت برنجار هذا التقرير بقَسَم . ورمى الى النار كتبهُ التي فيها اودع الضلال * وبعد زمان احسّوا عليهِ أَنّهُ صار يتقلّب . وانَّهُ كان يزعم أَنَّ جوهر الخبز لا يتغيّر ويصير جسد المسيح . بل انَّ الخبز يبقى مع جسد المسيح * وكان هذا آخِر مهربٍ التجأَ اليهِ برنجار . الاَّ انَّ الكنيسة من شانها أَنْ تتتبّع الهراطقة خطوةً خطوةً لتحطم اضاليلهم كلّها كلّما نبت واحدة منها . فبعد ما قرّرت تقريرًا واضحًا حضور المسيح في سرّ الاوخرستيا بصورة الايمان التي سطّرتها اوّلاً . دوّنت صورةً ثانيةً فيها يصرَّح اكثر من الاوّل بتحوّل جوهر الخبز والخمر * واقتبل برنجار هذه الصورة الثانية وامضاها . واعترف أَنَّ الخبز والخمر الموضوعين على المذبح يتحوّلان جوهريًّا بقوّة كلمات المسيح القادرة الى جسد المسيح ودمهِ الحقيقيّين . وانَّ الجسد الذي نتناولهُ في القربان هو الجسد نفسهُ الذي ولدتهُ مريم العذراءَ وعُلّق على الصليب وهو جالس عن يمين الآب * وهكذا ابطل برنجار بدعتهُ ثاني مرَّة * وهذه

البدعة التي حرمها مبدعها نفسهُ . زالت واضمحلّت في ذلك الزمان . ولكنّها نبعت من جديدٍ بعد أَجيال كثيرة حيث احياها البرتستنت ✲

الفصل الثالث والعشرون

في شقاق الكنيسة اليونانيّة على يد ميخائيل قرولاريوس بطريرك قسطنطينية (سنة ١٠٥٣)

في نحو الزمان الذي فيهِ تنغّصت الكنيسة المغربيّة ببدعة برنجار . اخذ ميخائيل قرولاريوس بطريرك قسطنطينيّة يجدّد الانقسام الذي كان فوتيوس قد احدثهُ ✲ فانّ الجرح الذي كان فوتيوس قد جرح بهِ الكنيسة لم يكن قد ضُمد تماماً . وكان بطاركة قسطنطينية منذ ذلك العهد تتكوّى قلوبهم بنار الضغينة . فكان يسوءهم ان يروا كرامة كرسيّ رومية . الذي هو الكرسيّ الاوّل المهتدي بهِ كلّ المومنين . وهو كرسي بطرس الرسول الذي جعلهُ المسيح اساس الكنيسة بقولهِ لهُ «انت الصخرة . وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي» ✲ غير انّ ميخائيل مع كونهِ خاليًا ممّا كان فوتيوس متّصفًا بهِ من الدراية والعلم والحكمة والراي . فاق فوتيوس في التصلّف والعجرفة . وتجاسر ان يتمرّد على الكنيسة الرومانيّة التي

الفصل الثاني والعشرون

في هرطقة برنجار (سنة ١٠٥٠)

انّ الكنيسة على الارض ليست في محلّ الراحة. فانّها لا تزال تتضايق امّا بالهرطقات وامّا بالشقاقات وامّا بالشرور التي يرتكبها بعض من اولادها * وفي اواسط القرن الحادي عشر ابتُليت بكلّ هذه البلايا * وذلك أنّ شمّاسًا من مدينة أَنْجر في فرنسا اسمهُ بَرَنْجار أحبّ أنْ يذيع اسمهُ ويشتهر بانكار حقيقة سرّ الاوخرستيا. وصار يزعم أنّ جسد المسيح ودمهُ ليسا في القربان المقدَّس بالحقيقة بل بالصورة * فنهض المؤمنون المحقّون قاطبةً على هذا التعليم الجديد المضادّ لما علّمتهُ الكنيسة على الدوام وفي كلّ مكان. واخذ العلماء الكاثليكيّون يفنّدون هذا الضلال بكلّ قوّتهم. وكُتبت الصحف السديدة في كلّ ناحية لدحضهِ * وكتب الى ذلك الضالّ لَنْفَرَنْك مطران كُنتربري (اوّل كرسيّ في بلاد الانكليز) وأَدَلمان اسقف مدينة اخرى يحثّانهِ الى ان يرعوي. وقال لهُ من الجملة ادلمان «اتضرّع اليك ان لا تنغّص راحة الكنيسة الكاثليكيّة التي حارب عنها الوفٌ وربواتٌ من الشهداء والملافنة * اننا نؤمن أنّ في الاوخرستيا جسد المسيح الحقيقيّ ودمهُ الحقيقيّ: هذا هو التعليم الذي تمسّكت بهِ الكنيسة منذ الأزمان

الاولى. والى الآن هي متمسكة بهِ. هذه الكنيسة التي هي منتشرة في العالم كلّهِ وتسمَّى القاثليقية * فكلّ الّذين يجعلون نفسهم مسيحيّين. يفتخرون بانّهم في سرّ القربان. يتناولون جسد المسيح الحقّ ودمهُ الحقّ. ولك أَنْ تسأَل في هذا الشان جميع الذين لهم خبرة بكتبنا المقدّسة. واستفتِ اليونانيّين والارمن وسائر النصارى من ايّ امّةٍ شئتَ. فتجد أَنّهم كلّهم يعتقدون هذا المعتقد» * ثمَّ اخذ ادلمان يبرهن في رسالتهِ على صحّة المعتقد الارثذكسيّ من شهادات الكتاب المقدَّس. ولمّا كان برَنجار يحتجّ بانّهُ لا يفهم كيف يصير الخبز جسد المسيح. ردّ عليهِ ادلمان قائلاً «انَّ الانسان البارّ الذي يحيا بالايمان. لا ينقّب على كلام الله. ولا يلتمس ان يدرك بالعقل ما هو فوق العقل. بل يجبّ أَنْ يعتقد بالأَسرار السماويّة لياخذ يوماً جزآءَ ايمانهِ افضل من ان يجهد نفسهُ في إِدراك ما لا يُدرَك وهو لا يتوصّل اليهِ * فلا يعسر على المسيح أَنْ يحوّل الخبز الى جسدهِ. كما لا يعسر عليهِ ان يحوّل الماءَ الى خمر وان يخلق النور بكلمتهِ» * وعُقد مجمع في مدينة باريس لإِبكام ذلك المبدع. وقُرئت فيهِ الرسائل التي كان قد كتبها في هذا الشان * فلمّا سمع أَصحاب المجمع ما في تلك الرسائل. اشمأَزّوا كلّهم منها. واغتاظوا على قائلها وحرموهُ بصوتٍ واحد * وجمع ايضاً البابا نقولا الثاني مجمعاً في رومية. واحضر اليهِ برَنجاره فلمّا سُئل عن تعليمهِ. لم يجسر ان يقرّ

بلادهُ . واوصى عليهم بان يعاملوا بإِكرام * وهذا عملهُ الاول مهَّد لهُ الطريق ليعرف قداسة الديانة المسيحيَّة . ودعاهُ الى ان يتنصر تنصُّرًا كاملاً . وتعمَّذ هو وجميع عيالهِ * ورُزق ابنًا . فعمَّذهُ اسقف مدينة براغا وسمَّاهُ اسطفان * وأُحسن تربية اسطفان منذ الأوَّل . فنشا في التقوى وشاع فيها . حتَّى انَّهُ في الآخِر صار نذير قومهِ * فانَّهُ لمَّا ارتقى الى المُلك . افتكر قبل كلّ شيءٍ في الطريق السهلة لجلب رعيَّتهِ الى التنصّر ولتاسيس دين المسيح في بلادهِ * وقاومهُ في ذلك بعضٌ من رعيَّتهِ كانوا محبّين لعبادة الاوثان . فعصوا عليهِ وخرجوا وحملوا السلاح * فمشى الملك عليهم بجيشهِ متَّكلاً على الله وحاملاً في ألْوِيتهِ صورة مار مرْتين (الاسقف الفرنساويّ المتوفَّى في نحو سنة ٤٠٠) . وكان المجر يوقّرون هذا القدّيس توقيرًا زائدًا لانَّهُ كان في الاصل من ارضهم * وكسر اسطفان الخوارج واذلَّهم . فضبط اراضيهم وجعلها وقفًا لبرّ الله . وشيَّد ديرًا على اسم مار مرْتين * ولمَّا راى الراحة حصلت في مملكتهِ . اقبل على كلّ ما توصَّل اليهِ لنشر الانجيل فيها . فكان يؤيّد رعيَّتهُ على دين المسيح بالصدقات الوافرة والصلوات المتكاثرة . وكثيرًا ما رُؤي في البيعة جاثيًا على الحضيض في صلوة خشوعيَّة ودموع حارَّة * وكان يستجلب المنذرين من كلّ ناحية لينذروا أقوامهُ ويرشدوهم بحقائق الدين . فكان اولئك القسوس يلهمهم الله ان

يتغرّبوا عن أَوطانهم ويسرعوا الى تلبية دعوة ملك المجر * وكثر عدد النصارى في تلك البلاد. وعمّت الديانة المسيحيَّة فيها. حتّى انَّ الملك نال ان يرى عبادة الاوثان انمحت من مملكتهِ قطعًا * واقتضى حينئذٍ أَنْ يُؤتَى الى ما يوطّد منشأ الكنيسة الهنغريّة ويثبّتها على قاعدة. فقُسمت الى عشر اسقفيّات. وجُعلت امّها اي مطرنتها في مدينة استراغونيا. ونُصِب على هذه المدينـة مطرانٌ تقيٌّ اسمهُ سَبَسْتيان * وارسل الملك اسقفًا الى رومية ليلتمس تثبيت هذا النظام من البابا. فاقتصّ هذا الرسول على الحبر الاعظم جميع ما كان الملك يصنعهُ من الخير للديانة * ففرح البابا فرحًا جزيلاً. واجاب الى كلّ ما طُلب منهُ * وارسل الى الملك تاجًا. وايضًا صليبًا ليُحمَل قدّامهُ علامةً لاتّصافهِ بصفة رسوليّ. ومن ذلك جرت العادة ان يُنعَت كلّ ملكٍ من ملوك هُنْغريا بنعت الرسوليّ * ولمّا رجع سفير الملك. كُلّل الملك بالتاج باحتفال وتزيح هو وزوجتهُ. وكانت صالحةً فائقة في تقواها. تعاون الملك في صنائعهِ الخيريّة * وكان للملك عبادة خصوصيَّة لامّ الله. فوضع نفسهُ ومملكتهُ تحت حمايتها * وفي ذلك اقتدى بهِ احد ملوك فرنسا بعد زمان * ولم يزَل اسطفان الملك يزداد في التديّن وخوف الله الى أَنْ طرقتهُ المنيّة. فلمّا راى ساعتهُ قد دنت. احضر الاساقفة واكابر الدولة. واوصاهم قبل كلّ شيءٍ ان يحفظوا الديانة المسيحيّة في بلاد المجر *

الدوقا . سأَل المطرانَ ما هي الكنائس التي شاع اسمها اكثر من غيرها في تلك المعاملة * فلمَّا سمَّاها المطران لهُ . سأَلهُ الدوقا «ايّ واحد من القدّيسين في جوارنا لهُ القربى الى الله» . قال «هو مار ديونيس رسول الفرنساويّين» * فقال الدوقا «انّي قبل ان اقسم اراضيَّ على قوَّاد جيشي احببتُ ان اهب منها لله تعالى ولسيّدتنا العذرآء وللقدّيسين الذين سمَّيتهم لي . لكي استاهل شفاعتهم» * وفعل كما قال * فانّهُ في كلّ يوم من الايّام السبعة التابعة عماذهُ التي فيها كان متردّيًا بثيابٍ بيض كعادة المعمَّذين . وهب لكلّ من الكنائس التي ذُكرت لهُ قطعةً من الارض * ثمَّ قسَّم اراضي دوقيتهِ على قوَّاد عسكرهِ * وكان قد اعتنى ان يدرّب أَعوانهُ وعامَّة قومهِ الى ايمان المسيح . فتعمّذوا كلّهم تقريبًا . والنعمة الالهيَّة ايَّدت ما كان قد جرى من الدنيويّ في تنصرّهم في اوّل الامر . فانَّ أَخلاقهم بعد قليل من الزمان تهذَّبت * ولا بدع . انّهُ لم يمكن ان يقهر باس النرمنديّين الذين كانوا مشهورين في الحرب ويصلح أَحوالهم الّا ايمان المسيح * وظهر رولون الدوقا بعد تنصّرهِ حليمًا انيسًا متديّنًا . كما كان قبل ذلك شديدًا مخوفًا * وكان يُظَنّ في الاوّل شيخ غزاة فقط . الّا انَّ الواقعة بيّنت أَنَّهُ كان شارعًا حكيمًا . وانّهُ بحسن اوامرهِ وأَحكامهِ ساس قومهُ كما كان بباسهِ قد خوَّف الامم الاجنبيّة * فاهتمَّ قبل كلّ شيءٍ أَنْ

يرسم شرائع لتدبير مُلكهِ الجديد . واذ كان النرمنديّون قبل ذلك دابهم الغزو والنهب . اصدر اوامر شديدة في منعهم عن ذلك . ودخلت حرمة اوامرهِ القلوب حتّى انّ الواحد لم يكن يتجاسر ان ياخذ ما وجدهُ في الطريق * وممّا يشهد لذلك انّ رولون اذ كان ذات يوم في الصيد . علّق سوارهُ في شجرة ثمّ نسيهُ هناك . فبقي ذلك السوار في تلك الشجرة ثلاث سنين . ولم يتجرّأ احد ان ياخذهُ *

الفصل الحادي والعشرون

في تنصّر الهنغريّين وهم المجر سنة (١٠٩٢)

بعد تنصّر النرمديّين بنحو ماية سنة هجم الهنغريّون وهم المجر على بلاد جرمانيا . وجلبوا فيها الخراب والدمار والبوار . فكانوا يحرقون البيع . ويذبحون الكهنة امام المذابح . ويسبون افواجًا غفيرة من المسيحيّين من رجال ونسآء وصبيان وأطفال * ولكنّ الديانة وحدها قدرت ان تليّن أخلاق هولآء الأقوام المتوحّشين . وذلك أنّ الله سبحانهُ شآء بدعوتهم الى دينهِ . فحرّك قلب واحد من ملوكهم . وجعلهُ يحبّ النصارى الذين كانوا في جوار بلاد الهنغريّين * فاصدر امرًا منشورًا بهِ سمح للنصارى ان يدخلوا

في نواحي مدينة رومية * وعند ذلك شمَّر الساعد لمحاربة الرذائل بكلّ وسعهِ من دون ادنى خوف ولترجيع شريعة الكنيسة الى رونقها الاوّل * وجمع القسوس الى حظائر يعيشون فيها في حالٍ واحدةٍ منضمّين ومنظومين تشبّهاً بالرهبان. فكانوا لا يملكون شيئاً مختصًّا باحد منهم. وكانوا تحت امر اسقف المدينة * وكانوا يعيشون في وسط المدن عيشة قشفيّةً. ويحاكون النسّاك على قدر ما كانت وظائفهم الكهنوتيّة تترك لهم * وكانت هذه العادة قد جرت في الكنيسة منذ القرن الرابع. الاَّ أنّها مالت رويدًا الى الانحطاط. حتَّى كادت تزول وذلك من جرى غارات الأَقوام المتوحّشين الذين اخربوا الكنائس في القرن العاشر * فاحيا القدّيس بطرس دمياني هذه العادة القدسيّة من رميها كما ذكرنا * ومن أَثمار غيرة هذا القدّيس القوانين التهذيبيّة التي رُسمت في مجمع عُقد برومية سنة ١٠٦٣ *

الفصل العشرون

في تنصّر النرمنديّين (سنة ٩١٢)

إِنَّ مّما يشرّف الكنيسة اكثر ما يكون ويبيّن يد الله القادرة التي تحميها باجلى برهان. تنصّر الشعوب الشماليّة المتوحّشة. فانَّ

قلب المتأمّل ينبسط سرورًا وعقلهُ يتوطّد في الايمان اذ يرى الكنيسة في عصرٍ كانت فيهِ مهانةً مضروبة بكثرة المساوئ والاضطرابات وظهرت كأنّها تميل الى النقصان. اغتنمت غنائم جديدة بإخضاعها لشريعتها الامم الوحشيّة التي كانت قد نغصتها * ومن جملة هولآء الامم كان النُرْمَنْديّون * فانّ النُرْمَنْديّين كانوا يفسدون بلاد فرنسا بغاراتهم منذ سبعين سنة. حتّى شآء الله ان يوقف سيل الشرور التي كانوا يجلبونها * فانّ الزمان الذي عيّنتهُ العناية الربّانيّة لتنصّر هذا الشعب كان قد حان. غير أَنَّ الأَحوال لم تكن تعد بهذا اليُمْن. فانّ شيوخ تلك الامّة ولاسيّما رولون شيخهم الاوّل كانوا يتقدّون شوقًا الى مداومة الحرب * فعزم ملك فرنسا المسمَّى كارلس السِمْبَل اي السليم ان يكلّم رولون في امر الصلح. وعرض عليهِ أَنْ اذا رضي ان يتعلّم اصول الدين المسيحيّ ويعتمد. اعطاهُ أحدى معاملات فرنسا وزوّجهُ بابنتهِ * فاجاب رولون الى ذلك. وضُرب العهد بين الجانبين * وطفق احد مطارين تلك المعاملة يتلمذ الشيخ ويرشدهُ. وفي مبادي سنة ٩١٢ عمّدهُ * وثبت رولون بإخلاص على التمسّك بالدين المسيحيّ ولو بان أَنهُ تنصّر لأَسباب دنيويَّة. وذلك أَنَّ السؤَال الذي عرضهُ عليهِ ملك فرنسا لم يكن الاَّ حجّةً وفّقتها العناية الالهيّة لدعوة ذلك الشيخ وامّتهِ الى الايمان الحقّ * وبعد ما تعمّذ رولون ووُسم بنعمت

قليل من الزمان ثارت غيرة اهل الصلاح . فاقاموا اديرة اخرى بقرب ذلك الدير. وجعلوها تحت ضبط برنون القدّيس. حتى صار يسوس سبعة اديرة في وقت واحد * وخرج من دير اكلونيا باباوات من المشاهير زيّنوا الكنيسة الجامعة. واساقفة فاضلون صلحاء احيوا روح الديانة المسيحيّة في اقاليم فرنسا *

الفصل التاسع عشر

في اصلاح حال الاقليرس

انّ من جملة الذين في ذلك العصر بذلوا الهمّة في إصلاح حال الدين في بلاد اوروبا بل من افضلهم لاون التاسع البابا . فانّهُ حارب بالخصوص رذيلتين اي السيمونيّة[1] والعهارة اللتين كانتا في ذلك الزمان تفسدان حال الكنيسة * وفي شان ذلك باشر السفر اكثر من مرّة الى بلاد فرنسا وجرمانيا . ولم يمتنع من المشقّات والأخطار التي كانت حولهُ * وجمع مجامع . فيها وُضعت رسومٌ وقوانين صالحة لتهذيب حال الاقليرس ومحو اثر تينك

(١) [انّ السيمونيّة هي تجارة الامور القدسيّة . وذلك بان تقلَّد الوظائف الدينيّة والرتب البيعيّة لمن يطمّع اولياءها بالدراهم او بما يقوم مقامها * ومن لا يرى كم من المحذورات والمساوئ الجسيمة يتولّد من هذه الرذيلة] *

الرذيلتين على الخصوص * وفحص اولي الرتب . فمن وجدهُ منهم مرتكبا . انزلهُ من مرتبتهِ . ومن لم يطاوع . حرمهُ *

وحذا حذو هذا الحبر الاعظم البابا وات الذين تخلّفوا بعدهُ في كرسيّ مار بطرس . ونجحوا هم ايضاً في رمّ الخراب الروحاني الذي كان شاملاً اهل الاقليرس * وانهضت العناية الربّانيّة في ذلك الزمان شهامة رجل من مشاهير الكنيسة لمعاونة البابا وات في محاربة الرذائل . وكان ذلك الرجل مار بطرس دَمياني * وُلد بطرس دمياني في مدينة راوِنّا من أعمال ايطاليا . وكان ابواهُ قد سلتاهُ . فالتقطتهُ امراة ذات رحمةٍ . وربّتهُ وقامت لهُ مقام امّ * ووفّق لهُ الله الذي كانت عينهُ عليهِ ان يتفقّه بدرس العلوم . ومع العلوم اكتسب الفضائل . فكان مع الدرس يقرن اماتة النفس . ويكثر من الصوم والسهر والصلوة * ثمّ زهد في الدنيا . وترهّب في دير فنْتاوِلّا في مدينة أُمْبريا من أَعمال ايطاليا . وكان رهبان ذلك الدير متفرّدين في قلاليّ صغيرة متفرّقة منقطعين للصلوة والقرآءة فقط * وكانوا يعيشون بالخبز والمآء اربعة ايّام من الاسبوع . ويأكلون قليلاً من البقل يوم الثلاثآء ويوم الخميس * وصار بطرس قدوةً لاولئك النسّاك بقنوتهِ وهجودهِ وسيرتهِ القشفيّة المكمّلة في الفضائل * واذ راى البابا وات الخلال الجليلة المتّصف بها بطرس دمياني . قلّدوهُ المراتب البيعيّة . فاضحى كردنالاً اسقفاً على مدينة أُسْتيا التي هي

الفصل الثامن عشر

في إحياء بهاء السيرة الرهبانيّة في فرنسا (سنة ٩١٠)

إنّهُ مما صار سبباً قويًّا لإصلاح حال الديانة في بلاد فرنسا كان ديرٌ شهير يسمَّى دير أكلونيا اقيم في ذلك الزمان. وصار منبع رجال حاكوا الرسل بسيرتهم * كان تاسيس هذا الدير على يد بَرْنون الفاضل. وهو صار اوّل رئيس على رهبانهِ * وكان بَرْنون من بيوت الأشراف من بلاد برْغونيا من أَعمال فرنسا. ولبس اسكيم الرهبنة في احد الاديرة. وبعد زمانٍ قليل أُخرج من ذلك الدير وجُعل رئيساً على دير آخر. وهناك مشّى قوانين الرهبنة بكلّ ضبطها وكل رونقها * وحدث أنّ نفرًا من أَعوان احد الامرآء اجتازوا على ذلك الدير. فتعجّبوا ممَّا رأَوهُ فيهِ من سيرة الرهبان. فاقتصّوا ذلك على مولاهم عند رجوعهم. فعمد الامير ان يقيم في ارضهِ ديرًا يحاكي ذلك الدير وان يدفع تدبيرهُ بيد بَرْنون المقدَّس * فارسل استدعى برنون الى ارضهِ وكانت تسمَّى أكلونيا. فلبَّى برنون دعوتهُ. ووافاهُ مع راهب آخر اسمهُ هوغون كان من اخصّ اصدقائهِ * فقبلهما الامير بغاية الاكرام. وكاشفهما على قصدهِ ان يشيّد في ارضهِ ديرًا عامرًا. وفوّض اليهما ان يجدا موضعاً مناسباً لذلك * وكان الراهبان الفاضلان قد اعجبتهما ارض اكلونيا التي

كانا فيها. فاجابا الامير وقالا لهُ «لا يمكن ان نجد احسن من هذه الارض لما تطلبهُ» * فاعترض عليهما الامير بانّ تلك الارض لا يمكن ان يقام فيها دير. لانّها كانت تحوي سرب الكلاب التي بها كان يتصيّد * فقال لهُ برنون «بلى يا مولاي. اطرد منها الكلاب. وضع فيها الرهبان» * فاذعن الامير اخيرًا لراي الراهبين. وطلب ان يسمَّى الدير باسم الرسولين القدّيسين بطرس وبولس * وامر لوقتهِ بتحرير صكّ إِنشاء الدير. وهذا الصكّ محفوظ الى الآن. وفيهِ ذُكر سبب اقامة ذلك الدير. حيث قال «اني اذ اردتُ ان انفق لوجه الله الأَموال التي رزقني اياها تعالى. رايتُ أَنْ التمس خلّة فقراء يسوع المسيح واقدّس نيّتي هذه باقامة دير يجتمع فيهِ رهبان * فقد وهبتُ في حبّ الله والمسيح مخلّصنا الارض التي لي في اكلونيا. ليشيَّد فيها على اسم الرسولين بطرس وبولس ديرٌ يكون الى الابد محوًى للّذين يخرجون من العالم بلا مال ويلتمسون في الرهبنة غنى الفضائل» * وكما نوى الامير. جرى الامر. فانَّ رهبان ذلك الدير صنعوا خيرًا عظيمًا. واشتهروا بفضائلهم. وظهر فيهم روساء مجيدون * ومن هذا الدير انتشر بعد ذلك الى سائر بلاد فرنسا روح السيرة الرهبانيّة * واعلم أنَّ برنون لم يضع اوّلاً في دير اكلونيا الاّ اثني عشر راهبًا. ولكنّهم كانوا في درجة سامية من الفضائل حتّي شاع اسمهم الى بلاد بعيدة * وبعد

الفصل السابع عشر

في اصلاح حال الدين في بلاد جرمانيا (سنة ٩٠١)

في ذلك الزمان اشتهر في بلاد جرمانيا اساقفة صالحون انقياء في إصلاح حال الدين في تلك البلاد بمعونة اوتون الملك القيصريّ. واشهر هولاء القدّيس برُونون مطران كولونيا واخو اوتون الملك المذكور * كان برُونون قد تربّى تربيةً نعم التربية بمقتضى علوّ منزلتهِ. فانهُ اذ كان في عمر اربع سنين أُرسل الى مدينة أُتْرَخْت ليتهذَّب ويتثقّف في مدرسة كان اسقفها بَدْري قد جمع فيها افضل المدرّسين * وهناك تعلّم برونون العلوم وبرع فيها. ولكنّهُ فاق اكثر من ذلك في صلاح السيرة * فكان نقيًّا متعبّدًا مع كونهِ محبًّا للدرس. وكان يتحيّن صلاة الجمهور بلا انقطاع. ويصير قدوةً لجميع الحاضرين بورعهِ واحتشامهِ * واذا راى واحدًا ياتي بما لا يليق في البيعة. يخلّق ويتّقد شهامةً * وابصر ذات يوم هنري اخاهُ يتفاوض مع احد الامراء في الكنيسة وقت القدّاس. فتهدّد لهما بغضب الله تعالى * وكان يحبّ الناس المتديّنين ويفضّلهم على غيرهم. ويساعد اهل المساعي المتّجهة الى مجد الله تعالى * ولمّا رجع برونون من مدينة اترخت الى مدينة الملك. وجد قصر الملك موافقًا للسيرة التقويّة التي كان متمسّكًا بها. فكان ذلك القصر

كمدرسة تُعلَّم فيها الفضائل الملكيّة والمسيحيّة * وممّن اشرق بهذه
الفضائل خاصّةً متلدة امّ الملك وأُوتون الملك نفسهُ وأَدليدة
زوجتهُ . فكان هولاَء قدوةً لاهل القصر بحسن سيرتهم وزكاوة
حياتهم وروق تقواهم * وقبل أَنْ يقام برونون اسقفًا . وُلّي سياسة
بعض من الاديرة . وهناك ظهرت حكمتهُ ونجاحهُ في ضبط سيرة
اولئك الرهبان * فلمّا ارتقى الى مطرنة كولونيا . اوسع همّتهُ وشمل
بها جميع بلاد جرمانيا * واوّل امرٍ افتكر فيهِ كان ان يجلب الصلح
والامن والاتّفاق في ابرشيّتهِ . وان تُقضَى فيها الخِدَم البيعيّة باللياقة
الواجبة * ولمّا سافر اخوهُ اوتون الى بلاد ايطاليا . سلّمهُ سياسة
المملكة مدَّة غيابهِ . فقام برونون بهذه الولاية وقضاها بكلّ نصاحة .
وقرن فضائل الاسقفيّة مع مناقب الملكيّة * واغتنم تلك الفرصة
لاقامة أَبواب خيريّة وإِجبار الخواطر المكسورة وإِسعاف الفقرآء
وتخويف الأَشرار وتقوية الصالحين . وبنى كنائس كثيرة واديرة . ورمّ
كثيرًا منها * وكان ينادي بالانجيل ويعظ ويفسّر كلام الله بلا
فتور * ولكنّ اخصّ همّتهِ كانت في وضع اساقفة حكمآء صالحين
على الكنائس حيث كان ارتخآء السيرة قد داخلها وكثرت فيها
العوائد السيئّة . اذ كان يعلم أَنّ احسن الطرق واقواها لردع الشرور
وجلب الناس الى ادآء فرائضهم هو الارشاد والتعليم ولاسيّما قدوة
الروسآء *

توجب عليهِ ان يعتني بصلاح كنائس انكلترة كلّها . اخذ يطوف البلاد الانكليزيّة وهو يرشد اهلها في قواعد السيرة المسيحيّة . ويعظهم بكلام قويّ ابويّ ان يمارسوا العمل بجميع الوصايا وتادية جميع الفرائض * وكان ذا سطوة في كلامهِ . حتى انّ السامعين كانوا يرون انفسهم مضطرّين ان يتّعظوا من قولهِ * وكان ذا همّةٍ عالية . وينصبّ لدأبهِ بدون مَلَل ولا انقطاع . فكان تارةً يزجر المذنبين . وتارةً يفصل بين المتخاصمين . وتارةً يصالح المتباغضين * وكان اذا اراد الاستراحة من أتعابهِ ومشقّاتهِ . يتفرّغ للصلوة * وهمّهُ اكثر من كلّ شيءٍ إصلاح حال الاقليرس . فالزم الملك ان يعاقب بلا رحمةٍ مَن تجاسر منهم ان يشين اسكيمهُ المقدَّس بسيرة مذمومة . ونال اربهُ بذلك . فانَّ الاقليرس بهمّتهِ تطهّر واشرق بأنوار الفضائل . حتّى انَّ اشرف بيوت الانكليزيّين صاروا يتفاخرون بدخول اولادهم في السيرة القسّيسيّة * وممّا اختصّ بهِ دُنْستان ايضًا تثبتهُ . والشاهد لذلك ما نقتصّهُ * وذلك أنَّ احد عظماء المملكة تزوّج بامراة كانت من ذوي قرابتهِ . فزجرهُ دنستان وامرهُ ان يفارقها . فلم ينتهِ * فمنعهُ دنستان من دخول الكنيسة . فشقّ ذلك على الامير . وشكا حالهُ الى الملك . واخذ منهُ امرًا الى المطران دنستان بان يرفع الحرم عنهُ * فتعجّب دنستان غاية التعجّب اذ راى ذلك الملك الخائف من الله انخدع لذلك

الامير. وطفق ينصح الامير ويحثّهُ الى التوبة • ولكنَّ الامير لم يزددْ الاّ غيظًا. فاقبل عليهِ المطران وقال لهُ من دون خوف «متى ما رايتك تائبًا بالحقيقة. اطعتُ امر الملك بسرور• ولكن ما دمتَ مصرًّا على خطيّتك. معاذ الله ان يجبرني احد ان اخالف شريعة الله واجعل قوانين الكنيسة مضحكةً» * فتحرّك الامير من هذا الكلام القويّ ولان قلبهُ. وتندَّم ندامةً نصوحًا. وانقاد لامر المطران. ففارق تلك المراة• لا بل اذ كان في تلك الايّام قد جُمع مجمع اقليميّ من جميع روساء البلاد الانكليزيّة. وافى الامير الى المجمع حافيًا ولابسًا خلقانًا وماسكًا بيدهِ عُصيًّا دليلاً على تذلّلهِ * ووقع على رجلي مطرانهِ متضرّعًا. فرقّ المطران عليهِ وبكى معهُ. ورفع عنهُ الحرم * وجرى لدنستان واقعةٌ اخرى اظهر فيها تثبتّهُ وشجاعتهُ اكثر ما يكون * وذلك أَنَّ الملك مع كونهِ متديّناً ارتكب جرمًا جسيمًا. فانطلق دنستان في الحال اليهِ. وانتهرهُ على ما فعل ووبّخهُ اشدّ توبيب * فانعطف قلب الملك. وسالت الدموع من عينيهِ• واستفهم من المطران ما عساهُ ان يصنع لينال الغفران من خطيّتهِ * فوضع عليهِ القدّيس دُنستان قانونًا مناسبًا. فادّاهُ الملك اداءً كاملاً *



منها ادنى شيء. فانَّ الديانة المسيحيَّة قد عوّضت عن ذلك كلّهِ بما ينسينا اسف تلك الخسارة: وذلك أَنَّ هذه الديانة القدسيَّة مع كونها بقيت في بلادنا مدَّةً من الأَجيال مستاسرةً بيد الهرطقة او الضلال او خاضعةً تحت رقّ الكفر. احيت اللغة السريانيَّة بإِنهاضها عزائمِ فحول الاساقفة والقسوس والرهبان في سورية والجزيرة والعراق الى مباشرة أَجناس التصانيف المنثورة والمنظومة في كلّ باب وكلّ فنٍّ. حتَّى كان من المحتمل انَّهُ لولا الديانة المسيحيَّة. لانقرضت اللغة السريانيّة من عين اصلها وما وُجد منها الآن ادنى اثر البتَّة * والامر كذلك في اللغة الارمنيّة. التي يسوغ لنا ان نقول بانَّها نشأَت من الديانة المسيحيَّة وبها قامت وبها تكوّنت * لا بل انَّ فضل الديانة المسيحيَّة قد عمَّ ايضاً الامم الذين لم يحنوا رؤوسهم لنيرها او هجروها. وكم من المعارف والعلوم استعار العرب من النصارى ولاسيّما علم الفقه الذي اخذتهُ الكنيسة من الروميّين القدماءَ وحسّنتهُ وكمّلتهُ وعلّمتهُ للملوك والحكّام شرقًا وغربًا * ومن المعلوم انَّ العرب قبل ظهور الاسلام تعلّموا الكتابة من النصارى. وانَّ حروفهم مستعارة من الحروف السريانيّة. وانَّ الكتب الاولى التي استعملوها لدرس العلوم كان النصارى قد استخرجوها من اللغة اليونانيّة او السريانيّة * فالكنيسة المسيحيّة لم تظهر عظمتها وجلالتها فقط في البلاد التي فيها كانت هي مسلّطة متحكّمة. بل

ايضًا في الأمصار التي فيها اولادها العققة واعداؤها تسلّطوا عليها وذلّلوها بضلالهم او عصيانهم على ايمّتها الشرعيين او بكفرانهم بها] *

الفصل السادس عشر

في اصلاح احوال الدين في بلاد انكلتره (سنة ٩٤٣)

انّ الله تعالى لا يهمل كنيستهُ . فاذا ارتخت في الكنيسة عزائم اولادها وفترت دياناتهم . وجدت في باطنها عرقًا من الحيوة يجدّدها ويعيد عليها بهاءها الاوّل * فمن ذلك ما جرى في بلاد الانكليز * وذلك أنّ أُودون القدّيس اقامهُ الله في ذلك العصر ليحيي ادب الديانة الذي كان قريبًا ان يفنى * فانّهُ لمّا ارتقى اودون المذكور الى مطرنة كنيسة كَنتُرْبَري وهي اوّل كرسيّ في انكلترّه . رسم ضوابط وقوانين لتهذيب الاقليرس والعظماء والعامّة * وكان أَدْوَرْد الملك يعينهُ في ذلك . فانهُ كان ملكًا صالحًا . واخرج مراسيم واوامر لإجراء الصلاح والنظام في كلّ الامور * وإنّ الاسقف النشيط الهُمام اذا وجد عونًا من الملك . فلابدّ من انّهُ يصنع خيرًا عظيمًا * وعلى هذا فالقدّيس اودون وصلت يدهُ الى انّهُ اصلح أَحوالًا كثيرة ورفع شرورًا شتّى * وتخلّف لهُ في هذا العمل الخيريّ خليفتهُ دُنِستَان . وتمّ عملهُ * وهذا دنستان اذ راى مرتبتهُ

بالبلآء الجسيم الذي المّ بها * وممّا يستحقّ الاعتبار أنّ الايمان لم ينقص من المسيحيّين بين تلك الشرور العظيمة ولا ضعف . ولم يسمح الله عزّ وجلّ ان ياتي احدٌ من المعلّمين بادنى قول يخلّ بقاعدة صلاح السيرة المسيحيّة او بقانون المعتقد الكاثليكي * ولم يزَل الصالحون يزجرون اهل الشرور ويبكّتونهم . وكانت المجامع حينًا حينًا تعيد تقرير القوانين الطاهرة وتسنّ سننًا جليلة لاجرآئها في العمل في كلّ مكان * وانهضت العناية الربّانيّة أشخاصًا من الصلحآء والقدّيسين المشاهير ردّوا سَيْل الاثم بقوّة عجيبة وغيرة الاهيّة * وفي الآخر طلعت الكنيسة ظافرة من هذه الحرب الاليمة . وجبرت الضربات التي اصابتها من الامم الشماليّة البربريّة . بل فازت بهم اذ اخضعتهم تحت نير شريعتها وجعلتهم خرافًا في صيرتها حيث كانوا اوّلاً اضرى من الذئاب * وهكذا حدث أنّ الأقوام الذين قلبوا المملكة الروميّة في المَغرب وقرضوها . صاروا هم بانفسهم سببيّةً للكنيسة عوضًا عن ان يفنوها * نعم إنهُ اقتضى زمان طويل لمحو كلّ اثر التوحّش من اولئك الشعوب وازالة الجاهليّة التي تبعتهم في قدومهم . الاّ أنهُ في الآخِر وفّق الله للكنيسة ان تنتصر على الجاهليّة وعلى التوحّش كما كانت قد انتصرت على اضطهادات الملوك وشرور الهراطقة * فوجدت الآداب والعلوم والصنائع ملجأً ومحوى في الاقليرس وفي الرهبان . وصارت القلاّيات

الاسقفية والاديرة مدارس مشتهرة فيها حُفظ حبّ الدرس ورغبة العلم * وبينما كان وجوه الناس وأشرافهم يتفاخرون بحمل السلاح ويزدرون بالادب والعلم. كان بنو الاقليرس والرهبان يشتغلون بنقل الكتب القديمة التي خلّصوها من ايدي الأقوام المتوحّشين. فلو لم تعتنِ الكنيسة بحفظ آثار الاوّلين وكتبهم. لبادت وعدمت على الدهر * فشرارات هذه الذخائر العتيقة انمّا قدحت في زند الكنيسة . وهناك ابدت شيئًا من اللميع . والديانة هي التي ولّدتنا بلا انقطاع وبلا فتور الحقائق التي تتهذّب بها سيرتنا وتتقوّم بها عقيدتنا. لا بل هي ايضًا التي احيت المعارف والعلوم وفنون الادب والصنائع في بلاد اوروبا * [واذا خصّصنا الكلام في البلاد المشرقيّة. نقول انَّ الديانة النصرانيّة تقوّت في تلك البلاد واظهرت عظمتها ولو أنّها كانت مذلّلةً غالبًا تحت نير الهرطقات والشقاقات وعدوان الديانات الفاسدة * فانَّ أدب اللغة اليونانيّة ولا دين المسيح . لانقطع اصلاً ولم يبقَ منهُ اثر في البلاد الكثيرة التي كانت متملّكة فيها تلك اللغة * واماّ فضل الديانة المسيحيّة على اللغة السريانيّة فلا يمكن وصفهُ . وناهيك أنّهُ ان كان آباؤنا الاوّلون في عصر الرسل وتلاميذهم بلغت بهم محبّتهم للديانة المسيحيّة الى حدّ أنّهم محوا كلّ اثر من العلوم والصحف والبقايا التي اختصّت بأجدادهم السريان الوثنيّين حتّى صرنا الآن لا نعرف

تقول كما كان نسطور يقول. اي انَّ المسيح هو هيكل كلمة الله. وانَّ فيهِ شخصين. وانَّ مريم ليست والدة الله. وهم يرفضون المجمع الافسسي كما يُرفَض اشنع التجاديف. ويتعوّذون من الاشتراك مع الكاثليكيّين المعتقدين عكس معتقدهم ويتّخذونهم هراطقة بل نوعًا من الكفّار. ويحرمون الكنيسة الكاثليكيّة وملافنتها وقدّيسيها. ويشنّعون عليها في كتبهم وفي صلواتهم. وينهون أصحابهم عن الاشتراك معها في الروحانيَّات نهيًا شديدًا * فهل كان يمكن الكنيسة ان تبقي في حظيرتها قومًا يعاملونها هذه المعاملة. ام هل كان يسوغ لها ان تتّخذ كاولادها جماعة اناس خرجوا منها باختيارهم نافرين كمن يهرب من الموت. ام هل كان يجوز لها ان تديم العهد مع طائفة نقضت معها العهد هي اوّلًا * وقس على النساطرة سائر الشيَع المتولّدة من البِدَع القديمة * فبكلّ حقٍّ وكلّ عدلٍ قد حرمت الكنيسة الكاثليكيّة هذه الشيع واصحابها الاوّلين وقذفتهم من حضنها ونهت اولادها عن مخالطتهم في امور الدين. اذ كانوا هم قبلًا قد انفصلوا منها وابوا مخالطتها وفرّوا عنها مشنّعين عليها بالزور والبهتان * فلا حقّ اذًا للطوائف المشاقّة الشرقيّة ان يتشكّوا من الكنيسة الكاثليكيّة لانّها تعوذ من الاشتراك معهم في الروحانيّات وتجعل الحقّ عندها وحدها وتجعل سائر الملل في ضلالة. فانّهم هم ايضًا يعاملون الكاثليك هذه المعاملة] *

الفصل الخامس عشر

في سوء حال القرن العاشر

انّ الكنيسة قد حصلت في ضنك وضيق عظيم في القرن العاشر من جرّاء الشعوب الشماليّة الوحشيّة التي هجمت بالتتابع على بلاد المملكة المغربيّة واحلّت فيها الخراب والدمار. فانّ النُرْمنديّين والهونيّين وغيرهم من الشعوب البربريّة انقضّوا مسلّحين على بلاد جرمانيا وانكلتره وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا. وجلبوا في كلّ مكانٍ بلآءً عظيماً * فقد رُدمت المدن. ودُكّت الاديرة ونُهبت. وأُغلقت المدارس. ودُرست العلوم والصنائع * وحصل من الجهل رخاوة في السيرة وفساد الأعمال. وكثرت المنكرات. وصارت الشرائع القدسيّة تُداس بلا استحيآءٍ. واتّصل الشرّ الى الرعاة المتقدّمين حتى انّ روميّة نفسها لم تخلُ من شيءٍ من ذلك * فكانت الكنيسة في اسفٍ وحزن على هذه الأحوال السيّئة. وجلّت لديها هذه المحنة اكثر جدًّا ممّا امتُحنت بهِ من الاضطهادات * فاذا تأمّلنا في هذا حال الشقآء الذي كانت بهِ الكنيسة في تلك الأحقاب. فلسنا محقوقين ان نرتاب في امانتا بايد الله. بل بعكس ذلك سبيلنا ان نتعجّب من حكمتهِ تعالى. حيث انّهُ حرس الكنيسة واسندها ولم يتركها تسقط وتعدم

متسلسلين بلا انقطاع من بطرس الرسول الذي اقامهُ المسيح رئيسًا على الرسل. بخلاف شِيَع الهراطقة فانها لم يكن لها هذا التقليد والتتابع من الاصل. بل في عدّ نسبتها كانت تنتهي الى مبدعها الذي انشأها. ومنشئها نفسهُ كان يومًا قد تربَّى في الكنيسة قبل ان يقيم ملّة منفردة * فهذا الانفصال كان امرًا واضحًا لا يمكن إنكارهُ . والزمان الذي فيهِ حدث بيّنٌ معروف. حتى انَّ الوثنيّين نفسهم كان يحسبون الكنيسة جذرًا. منهُ انفسخت سائر الشيَع النصرانيّة. كما تنفسخ فنون الشجرة من ساقها وهي تبقى حيَّة على الدوام. فكانوا يسمّونها الكنيسة الكبيرة او الكنيسة الكاثليكيّة. ولم يكن ممكنًا ان تسمَّى باسم آخر ولا ان تُنسَب الى غير يسوع المسيح * واما الهراطقة فكانوا بعكس ذلك يظهرون لكلّ احدٍ بعلامة التجدّد والعصيان علامة لم يمكنهم ان يغطّوها. ولا امكنهم أَنْ يخلعوا اسم زعيمهم الذي انشأَ هرطقتهم. فكان الاريوسيّون والبلاجيّون والنسطوريّون مثلاً يكرهون هذه الأَسماءَ التي كان العامّة والخاصّة يسمّونهم بها. ولكنّ الناس لم تبالِ بقولهم. بل كانت تنصفهم اذ تنسب كلّ شيعة منهم الى اسم صاحبها الذي انشأها * ثمَّ إنّ برهان انفصال ملّة كلّ هرطقة من الكنيسة القديمة الجامعة الرسليّة لم يزَل ملازمًا اياها على الدوام ما دامت حيّة. بل انَّ وسمة الاستجداد بقيت ظاهرةً فيها دائمًا لا يمكنها

ان تمحوها. فكانت تشهد عليها دائمًا وتبيّن أنَّ جماعتها كانت شيعةً اقامتها الارادة البشريّة * فلا بدع انَّ هذه الفروع المقطوعة من جسم الدوحة قد عدمت على الدوام الخصوبة. فلم تربَ ولا كبرت. حتّى انها جفّت في ذلٍّ وانخذال * فقد بادت أعمال الناس على رغم ابليس الذي كان يسندها. ولكنّ عمل الله لم يزل ثابتًا لا يتزعزع * والكنيسة انتصرت على الهرطقات كما كانت قد انتصرت على عبادة الأَصنام * وهكذا سيكون الامر في كلّ الهرطقات التي ستحدث في كنيسة المسيح. فانّها ستسقط كلّها قدّام رجليها. وما فازت بهِ الكنيسة من الظفر سابقًا على الهرطقات القديمة هو ضمانٌ لها بانّها ستظفر ايضًا بالهرطقات التي ستأتي. فانَّ المواعيد التي وُعدت بها دائمةٌ ابديّة لا يمكن ان يطرو عليها الإخلاف مدى الدهور كلّها *

[ثمَّ إنَّ لنا ان نفنّد هاهنا الاحتجاج الذي بهِ اعداء الكنيسة المحدثون في زماننا هذا اي البرتستنت يفترون على الكنيسة بقولهم انّها قد ظلمت الهراطقة حيث نسبت اليهم ما لم يكن في بالهم. واخترعت عليهم ضلالات لم يقولوها حتّى طردتهم من جماعتها * فنقول: كفانا برهانًا على هذا الافتراء بالنظر الى حال الجماعات التي نراها اليوم متناسلةً من الهرطقات القديمة التي الكلام عنها * فانّنا اذا التفتنا الى النساطرة مثلاً. نرى هذه الشيعة الى الآن

فعذَّب المومنين الارثدكسيّين في الارض كلها . وصار مضطهدًا جديدًا للكنيسة اقوى من المضطهدين السابقين . اذ كان باسم المسيح يحارب المسيح نفسهُ * وقام بعدهُ واليس . وهو ايضًا تعصّب للاريوسيّين . وآذى الكنيسة اكثر من قسطنطيوس * وكم قام بعدهما من ملوك اسندوا الهرطقات والمبدعين والعصاة على الكنيسة وحموهم * فتعلّمت الكنيسة من التجربة أَنَّ البليّة التي اصابتها من الملوك الوثنيّين لم تكن اشدّ مَّا كان لها ان تُبتَلَى بهِ في عهد الملوك المسيحيّين . وأَنّها كان محتومًا عليها ان تحامي الى حدّ الدم عن أَبواب ايمانها . ليس فقط بالجملة بل ايضًا فردًا فردًا * فانَّهُ لا يوجد باب من أَبواب المعتقد الاَّ ورات اولادها ينكرونهُ ويضادّونهُ . كالوهيّة المسيح وتجسّدهِ ونعمتهِ وأَسرارهِ . وفي الإجمال كلّ ابواب المعتقد صارت سببًا لهرطقات مختلفة . وفتحت بابًا لشقاقات شتَّى * وفي هذه البلبلة الحاصلة من اختلافات الشيَع لم يهمل الله كنيستهُ الحقيقيَّة ولم يغفل عنها . بل نصرها وجعلها ممجّدةً بالظفر الوسيم . كما كانت قد ظهرت في حروبها مع الاعداء البرّانيّين * وحدث من هذه حروب الهراطقة منافع عظيمة . وذلك انَّ جميع أَبواب المعتقد قرّرتها الكنيسة واثبتتها باحتفال وقوَّة بابًا بابًا . ومعنى ذلك أَنَّها ايَّدت ما كان المومنون متمسّكين بهِ ويعتقدونهُ يوم ظهرت كلّ بدعةٍ . وقذفت من حضنها اولئك الذين برايهم

الجديد حاولوا أن يشوّهوا ذلك المعتقد * فكما رات الكنيسة الهرطقات تنشأ وتتولّد بمقتضى إنباء السيّد المسيح. راتها ايضاً تسقط وتضمحلّ الواحدة بعد الاخرى بموجب وعوده. ولو انّ الملوك والحكّام كانوا يعضدون تلك الهرطقات * فلم يتمكّن قسطنطيوس وواليس من ان يفسدا صحّة الايمان. كما لم يتمكّن نيرون وديوقلطيانس من ان يمنعا ظهورهُ وقيامهُ * وان كان الله سبحانهُ قد سمح ان تنتشر بعض الهرطقات وتقوى. فذلك كان لكي يمتحن الناس المعتصمين بالحقّ ويثبّتهم عليهِ ٠ الاّ أنَّ الضلالة لم تتغلّب على الحقّ ابداً. وعامّة المسيحيّين في كلّ مكان امسكوا الحقّ. والكنيسة تظاهرت على الدوام بسطوة وباس بهِ قهرت الضلال على رغم أَصحابهِ * فانّها في كلّ ذلك لم تزل قاثليقيّة اي جامعةً. اذ كانت ممتدَّة الى كلّ ناحية. وبطردها من حضنها اولادها العاصين لم تفقد كونها جامعةً عامّةً * واذا تاملّنا في تواريخ الكنيسة حسن التامّل. راينا انّ الكنيسة كانت كلّما انتقصت بظهور بدعةٍ من البدع. ازدادت من جهة اخرى بانضمام امم جديدة الى حظيرتها * فكانت شبه دَوْحة عظيمةٍ. اذا قُطعت منها بعض الأَغصان. لم يزَلْ لبّها باقياً حيّاً. وتفرع من مواضع اخرى. بحيث انّ قطع الفروع الزائدة فيها يزيد ثمرها حسناً ورونقاً * ثمّ انّ الكنيسة دامت في وسط البدع رسليّةً. فانَّ رعاتها لم يزالوا

دخولهم الى قسطنطينيّة بكبكبة عظيمة . وهم في كلّ تصرّفهم بيّنوا شان رياسة السدَّة الرسليّة الرومانيّة وجلّلوها ✲ وجلسوا في المجمع فوق كلّ احد . وبعدهم اغناطيوس . ثمَّ نوَّاب البطاركة الثلاثة ✲ وحضر في المجمع احد عشر جنديًّا من أعوان الملك لحفظ الترتيب ✲ وقرأَ قصّاد البابا صورة الافتتاح . فقبلها المجمع وايّدها ◦ وفيها صُرّح برياسة الكنيسة الرومانيّة على كلّ كنائس العالم . وطُعنت بالحرم جميع الهرطقات وبالخصوص فوتيوس وجميع من يستمرّ مشاركًا لهُ ✲ امّا الاساقفة الذين بالقسر او من الخوف كانوا قد وافقوا فوتيوس وتحزّبوا لهُ . فعُفي عنهم اذا طلبوا الغفران مقرّين بزلّتهم ✲ واستُدعي فوتيوس الى المجمع . فابى الحضور حتى انّهم ساقوهُ بالغصب ✲ فلمّا حضر المجمع . تظاهر بالبرآءة والاستقامة . وجعل نفسهُ مصابًا مظلومًا ✲ فسأَلوهُ مسائل شتّى . فلم يردّ جوابًا ◦ ولمّا اضطرّوهُ ان يتكلّم . استعار اجوبة ربّنا يسوع المسيح التي ردّها للّذين دانوهُ في ايّام آلامهِ . فاخرجوهُ من المجمع مغتاظين ✲ ثمَّ جلسوا الجلسة الاخيرة . وكانت حافلة اكثر من سائر الجلسات . وحضرها الملك نفسهُ مع ابنيهِ . وفيها ايّدوا برآءات نقولا وادريان الحبرين في حقّ القديس اغناطيوس وفي دحض فوتيوس ✲ ولمّا راوا فوتيوس عنيدًا متمسّكًا بكبريائهِ . حرموهُ هو وكلّ مَن يتبعهُ ✲ ثمَّ انَّ الملك قال ان كان لاحدٍ مشكل في تحديد المجمع فليبيّنهُ قبل ان يفضّ

المجمع. لانهُ بعد ذلك لا يقدر احد ان يستعفي من الطاعة • ومَن عصى. استوجب غضب الملك * ثمَّ كُتب باسم المجمع رسالتان. احداهما الى ادريان البابا. فيها طلبوا اليهِ ان يؤَيّد بسلطانهِ اوامر المجمع ويجريها في جميع كنائس المغرب. والاخرى الى جميع المومنين لكي يخضعوا لأَحكام المجمع *

الفصل الرابع عشر

نظر في البدع والهرطقات

انَّ الهرطقات والشقاقات هي بعد الاضطهادات المحنة الثانية التي بها ابتُليت الكنيسة. وكان ذلك لا محالة من وقوعهِ. لانَّ الرسول قال لابدَّ من ان تكون البدع لكي يظهر المختارون * وانَّ اشدّ ما اصاب الكنيسة من الاذى من الهراطقة كان في الزمان الذي فيهِ بطل اضطهاد الوثنيّين. فانَّ الشيطان افرغ حينئذٍ كلّ وسعهِ ليجعل الكنيسة التي كانت قد ضعفت من ضربات اعدآئها الاوّلين اي الوثنيّين تفني نفسها بنفسها بالهرطقات * فاوّل ما وجدت راحةً ما بالصلح الذي اعطاهُ قسطنطين الملك. قام عليها اريوس. واثار في وجهها عجاجًا لم تبصر مثلهُ الى ذلك اليوم * ثمّ انّ قسطنطيوس بن قسطنطين تحزّب للاريوسيّين.

لاهوت واحد ». واليونانيون الذين بلغتهم هذه الرسالة وقرأوها . لم يجدوا في هذه الكلمات شيئاً يستحقّ اللوم * والمجمع الافسسيّ المسكونيّ اثبت مقالات مار قورلّس على نسطور التي فيها قال « ليس روح القدس بعيداً من الابن . لانّهُ يسمّى روح الحقّ . والمسيح هو الحقّ . ولهذا فهو ينبثق منهُ كما ينبثق من الاب » . وقال ايضاً « روح القدس هو من الابن . وهو ملازم لهُ جوهريّاً » * وقال مار اثناسيوس في كتاب الثالوث « انَّ الابن هو مصدر روح القدس » . وقال في الخطبة الثالثة ضدّ الاريوسيّين « انَّ الابن يعطي للروح . وكلّ ما هو للروح ياخذهُ الروح من الابن » * والمجمع الافسسي المذكور دحض قانون الايمان الذي سطرهُ النساطرة وقالوا فيهِ عن روح القدس « لا نظنّ فيهِ أنّهُ هو الابن ولا انّهُ ياخذ وجودهُ من الابن » * والكنيسة السريانيّة اعترفت على الدوام بانَّ روح القدس ينبثق من الآب وياخذ من الابن . ومن الواضح أنّهُ لا يمكن ان ياخذ منهُ شيئاً سوى الجوهر والوجود كما ياخذ ذلك من الاب] * وعاب فوتيوس في رسالتهِ الى اساقفة المشرق الكنيسة اللاتينيّة لسبب امور اخرى كان هو بنفسهِ قد اتّخذها الى ذلك الحين شرعيّة وغير مذمومة * وفي هذا تصرّف فوتيوس أُلقي خفياً بذارٌ نبت وافرع زماناً حتّى تولّد منهُ الشقاق القسطنطينيّ اللعين الذي ثبت الى هذا اليوم *

الفصل الثالث عشر

في رجوع اغناطيوس الى كرسيهِ وفي المجمع الثامن المسكوني سنة (٨٦٩)

بعد ما مات ميخائيل الملك. جلس على عرش المُلك باسيليوس * فهذا لم يكن محبًّا لفوتيوس. وعوضًا عن أَنْ يحميهُ كميخائيل. جمع في قصرهِ الاساقفة الموجودين في المدينة. وبرأيهم انزل فوتيوس من البطريركيَّة. وحبسهُ في دير * وعند ذلك عُرف الغشّ الذي بهِ كان فوتيوس قد اخترع أَخبار المجمع الكاذب الذي سبق الكلام عنهُ. وأُخذت النسخة التي كانت عند فوتيوس وأُريت لزمرة مشيخة المملكة. ثمَّ عُرضت لاهل المدينة ليشهدوا قباحة الخبث الذي فيها * ولمَّا طُرد فوتيوس. رجع في الحال القدّيس اغناطيوس البطريرك الشرعيّ الى كرسيّهِ باحتفال. وطلب من الملك أَن يجمَع مجمع عامٌ لإصلاح احوال كنيستهِ * فارسل الملك الى بابا رومية سفرآء يلتمسون منهُ ان يبعث بقصّاد الى المجمع. ثمَّ كتب الى البطاركة الثلاثة المشرقيّين وسائر اساقفة المملكة ليوافوا الى المجمع * فعُقد المجمع في مدينة قسطنطينيّة سنة ٨٦٩ * وكان ادريان الثاني البابا الذي تخلّف بعد نقولا قد ارسل ثلاثة قصّاد. وسلّمهم رسالتين احداهما الى الملك والاخرى الى البطريرك * وكان

والمواعيد والتخويفات ❊

الفصل الثاني عشر

في المعاملات الشهيرة التي بها ظهر خبث فوتيوس الشنيع

انّ القدّيس اغناطيوس وجد طريقةً ليوقف نقولا الحبر الاعظم على كلّ ما جرى في تلك المدينـة ❊ فارسل البابا بكّت قاصديهِ على شناعة صنيعهما . وابطل جميع ما كان قد جرى . وكتب الى الملك والى فوتيوس رسائل فيها قرّر أنّ اغناطيوس هو البطريرك الشرعيّ . وابطل انتخاب فوتيوس ❊ ولكنّ فوتيوس اخفى رسائل البابا . واظهر بدلها رسائل زوريّة فيها جُعل البابا يقول بانهُ متاسّف على انّهُ صار ضدًّا لفوتيوس . وبانّهُ قد احسّ على الحقيقة ووعد بان يكون صديقًا لهُ على الدوام ❊ ولكنّ هذا التزوير خاب ❊ فالتجأ فوتيوس الى حيلةٍ اخرى بديعـة قلّما أُتي بمثلها في سالف الزمان ❊ وذلك أنّهُ اخترع أخبار مجمع مسكونيّ عُقد ضدّ نقولا البابا . واظهر هذه الأخبار مزيّنة مزوّقة كأنّها صحيحة لا غشّ فيها ولا ريب . حتّى كان ينغشّ بها افهم الناس ❊ واذ كان الخبيث خبيرًا بأحوال المجامع ومَمشاها . جعل مجمعهُ المزوّر حاصلاً على كلّ شروط المجامع الصحيحة . فزوّر فيهِ اناسًا يشتكون على البابا

ويطلبون الحقّ عليهِ. وشهودًا يثبتون أبواب الشكوى بأيمانٍ مغلّظة * وجعل فوتيوس نفسهُ ناصرًا للبابا. وانّهُ مانعَ كثيرًا من ان تُقام دعوى على نقولا وهو غائب. وانّ آباءَ المجمع الزوريّ لم يقتنعوا ببراهين فوتيوس لمحاماة نقولا. وجعل أنّهُ في الآخر اذ لم يمكنهُ ان يمانع اكثر. اضطُرَّ ان يذعن ويحكم بنزول نقولا من كرسيّهِ وبجرمهِ * واسلك فوتيوس تزويرهُ هذا على نفرٍ من الاساقفة. ورشاهم حتّى انّهم امضوا ذلك المجمع المخترع. وزاد هو عليهِ من عندهِ إفكًا نحو الف ختم. ودوّن فيهِ اسماءَ وكلاءَ البطاركة الثلاثة المشرقيّين واسم الملك * وكلّ هذه الختوم كانت مغشوشة لا حقيقة لها. ومع ذلك لم يستحِ فوتيوس ان يرسل نسخةً من هذا المجمع الزوريّ الى لويس دابونار ملك فرنسا. ويطلب منهُ ان يسقط نقولا من كرسيّهِ * وارسل ايضًا منشورًا الى اساقفة المشرق فيهِ يشكو الكنيسة اللاتينيّة بأبوابٍ شتّى. وقرفها على الخصوص لتعليمها أنَّ روح القدس ينبثق من الآب والابن. كأنَّ ذلك ضلالةٌ. مع انَّ هذا المعتقد الكاثليكيّ قد علّم بهِ آباءَ الكنيسة اليونانيّون واللاتينيّون وحدّدتهُ المجامع *[فمن ذلك ما كتبهُ هرمزدا الحبر الرومانيّ الى يسطين الملك سنة ٥٢١ اذ قال «من المعلوم انَّ خاصّة الاب ان يلد الابن. وخاصّة الابن ان يُولد من الاب مساويًا لهُ. وخاصّة روح القدس ان ينبثق من الاب والابن في جوهر

الحقّ. سمح بان تُدمَّر من الجهة الاخرى بارتقاءَ فوتيوس الى كرسيّ قسطنطينيَّة خلاف الحقّ والقانون * كان فوتيوس من بيوت الأَشراف متّصفًا بصفاتٍ نادرة. وكان ذا علم واسع فاق فيهِ جميع اهل عصرهِ. ونال في دولة الملك وظائف جليلة. الاَّ أَنَّهُ كان محبًّا للرفعة والمجد مكّارًا غاية ما يكون * وكان يوالي بَرْداس قيصره. وهو كان خال ميخائيل الملك الذي كان صغير السنّ ووزيرهُ * وكان برداس متهتّكًا في سيرتهِ. ولذلك حرمهُ اكثر من مرّة اغناطيوس بطريرك قسطنطينيَّة * فنوى ان يغتال اغناطيوس. واذ كان ذا قربى وحظوى لدى الملك ابن اختهِ. شرع يسعى عندهُ ليرسل اغناطيوس الى المنفى * ثمَّ عمل كلّ حيلةٍ ليحمل اغناطيوس على ان يتنازل من الاسقفيَّة. واذ لم ينل ذلك. أجلس فوتيوس على كرسيّ قسطنطينيَّة خلافًا لكلّ قاعدة. وكان فوتيوس علمانيًّا * فجاش جاش كلّ الناس. واساقفة البطريركيَّة القسطنطينيّة لم يقبلوا فوتيوس ولم يحسبوهُ بطريركًا في الاوّل. ولكنّ فوتيوس وأَصحابهُ امالوا بعضًا من الاساقفة الى حزبهِ. ونفي الباقون منهم * وكان فوتيوس يرى أَنَّهُ لو امال ايضًا بابا رومية الى نحوهِ. لكان ذلك لهُ من اعظم المصالح. فكتب الى نقولا البابا. واطلعهُ على ارتقائهِ الى كرسيّ قسطنطينيّة. وزين امرهُ لهُ وزوّقهُ بكلّ الأَلوان ليحسّنهُ في عيني الحبر الاعظم. وقال انّهُ جلس

دون طلبهِ . بل قسروهُ واجبروهُ واغتصبوهُ . وانَّهُ لم ينتهِ في الآخرِ الى قبول وضع الايدي الَّا بسيول من الدموع جرت من عينيهِ * وقال ايضاً انَّ اغناطيوس البطريرك كان قد اعتزل عن البطريركيَّة بخاطرهِ ورضاهُ . واختلى في احد الاديرة ليقضي باقي ايَّامهِ في راحة ممدوحة . وانَّ الذي حملهُ على ذلك انَّما كان شيخوختهُ وأَسقامهُ * واسند الملك هذه الرسالة الافكيّة برسالةٍ اخرى منهُ * وكان اغناطيوس في تلك الأَثناء محبوساً في سجن منتن . معامَلاً بئس المعاملة * واراد أَعداؤُهُ ان يهلكوهُ . فاتّهموهُ بانَّهُ عقد مؤامرةَ سريّة على قتل الملك * ومع أَنَّهم لم يمكنهم ان يقيموا عليهِ بيّنة . قيِّد بالسلاسل . وأُرسِل منفيًّا الى احدى الجزائر * امَّا البابا فلانّهُ لم ياتهِ خبر من اغناطيوس اذ كان اعداؤُهُ قد حجزوا عنهُ كلّ طريق للكتابة . امسك عن الحكم في امر ارتقاء فوتيوس الى أَنْ يتحقّق القضيّة * فارسل الى قسطنطينيّة قاصدَين ليفحصا عن الامر ويطلعاهُ على حقيقتهِ . فبعث الملك وفوتيوس الى القاصدين وهما في الطريق هدايا ليرشواهما * ولمّا وصل القاصدان الى قسطنطينيَّة . وُضعا تحت الحفظ . لئلَّا يطّلعا على المعاملة السيّئة التي بها عُومل اغناطيوس . وتهدّدهما الملك إِن أَبيا أَن يعترفا بصحّة بطريركيّة فوتيوس * فتمنّع القاصدان في الاوّل ودافعا كثيراً . الَّا أَنَّهما في الآخرِ سلّما . ووافقا خاطر الملك من شدَّة اللجاجة

ثاودورة زمام السياسة بدل ابنها الذي كان صغيرًا . فاقام ملك البلغار حربًا على الروم لظنهِ أَنَّ فرصتهُ قد جاءَت لياخذ ثارهُ * فارسلت ثاودورة جوابًا الى ملك البلغار وقالت لهُ « ايَّاك أَنْ تتخطّى في ارض الروم. والاّ وافيتك بجيوشي وكسرتك . وإِنْ غلبتني انت . اصابك العار من أَنَّك تكون قد حاربت امراةً » * فلمّا سمع ملك البلغار هذا الجواب. تعجّب منهُ . وجلّت ثاودورة في عينيهِ . فعرض عليها الصلح بشروط اشترطها . فقُبلت الشروط . وكان من جملة هذه الشروط ان تُطلَق الحرّيّة لاخت الملك * فلمّا رجعت اخت الملك الى ارضها . جعلت تكلّم اخاها كثيرًا في امر الديانة المسيحيّة . وتعظهُ ليقتبلها * ولم تكفّ حتّى حرّكتهُ * وحدث اذ ذاك أَنَّ اهل الارض ابتُلوا بوبأ قاتول . فاستغاث ملك البلغار بالاه اختهِ . فانصرفت النازلة * فاقتنع الملك بصحّة الديانة المسيحيّة . الاّ أَنهُ كان متوقّفاً من خوفهِ ان يهيّج عليهِ غيظ قومهِ الذين كانوا متمسّكين بعبادة الاوثان تمسّكًا شديدًا * ولكنَّ العناية الربّانيّة دبّرت تدبيرًا بهِ زال ذلك الخوف * وذلك أَنَّ ملك البلغار اراد ان يزيّن اروقة قصرهِ بتصاوير. فامر المصوّر ان يصوّر صورةً تدعو الى الخوف والرعب تبعًا لخلقهِ الذي كان قاسيًا وحشيًّا * فصوّر المصوّر (وكان مسيحيًّا) صورة الساعة اي الدينونة الاخيرة وعقاب الهالكين في جهنّم . واضاف الى ذلك كلّ ما من شانهِ

ان يدعو الى الارتعاب والقشعريرة * فلمّا راى الملك الصورة وسمع تفسيرها. اخذتهُ الرعبة هو بنفسهِ وجمدتهُ. فجزم في قلبهِ أَنْ يترك عبادة الأَصنام. وكتب الى ثاودورة ملكة الروم في طلب كاهن من كهنة النصارى يرشدهُ ويعمّذهُ * فارسلت اليهِ ثاودورة اسقفاً. فعمّذهُ في الليل حذرًا من ان يعلم بهِ احد * ولكنَّ خبر ذلك لم يبقَ خفيًّا. بل شاع بين رعيّة الملك اي البلغاريّين. فهاجوا وتشغّبوا. وتراكضوا على قصر الملك لينكلوا بهِ . فخرج الملك متوكّلاً على الله بأَعوانهِ. وبدّد اولئك المفتتنين. ثمّ غفرهم. فعظم امر الديانة المسيحيّة في عيونهم واحبّوها وصاروا نصارى * فارسل الملك رُسلاً الى بابا رومية راس الكنيسة. وطلب اليهِ ان يرسل لهم منذرين بالانجيل. واستفتاهُ في مسائل شتّى تخصّ الديانة وصلاح السيرة * وكان اسم البابا نقولا الاوّل. ففرح بتنصّر البلغار. وترحّب برسلهم. وسرّهُ خاصّةً أَنّهم طلبوا الرشد منهُ مع بُعد بلادهم * فردّهم مسرورين محفوفين بلطفهِ. وارسل معهم اسقفين معروفين بحكمتهما وصلاحهما *

الفصل الحادي عشر

في ضبط فوتيوس كرسيّ قسطنطينيّة (سنة ٨٥٨)

بينما كان الله يفرّح الكنيسة بدخول الامم الشماليَّة في دين

الفصل التاسع

في تنصّر الدانيّين والسويديّين (سنة ٨٠٢) والصقالبة والروسيّين (سنة ٨٤٢)

الدانيّون او اهل دانمرك والسُّوَيْديّون كانوا في الاصل من الأَقوام الشماليّة المتوحّشة. يسكنون اقصى بلاد الشمال * وانذر الدانيّين مبشّرٌ فرنساويٌّ اسمهُ أَنْسكار كان قد ترهَّب في احد اديرة فرنسا * فكثر الذين تنصَّروا على يدهِ في تلك البلاد. وتوصّل الى ذلك خاصَّةً بافتداءِ العبيد وتحريرهم وتعليمهم اصول الديانة المسيحيّة * ولمّا بلغت مسامع ملك السُّوَيديّين أَخبار تنصّر الدانيّين. طلب من ملك فرنسا منذرين لبلادهِ. فارسل اليهم ملك فرنسا مبشّرين مع هدايا للملك * فشرعوا ينذرون هناك بالانجيل. وجذبوا كثيرين الى الايمان * ولمّا كثر عدد المسيحيّين. نُصِب كرسيّ مطرنة في هَمْبُرْغ. وصار أَنْسكار مطرانًا عليهِ *

وكان في الاراضي الشماليّة في الناحية التي تسمَّى الآن بلاد اللاه او الليه شعبٌ عظيم يسمَّى الصقالبة. وكانوا كثيرًا ما يهجمون على مملكة الروم المشرقيّة ويتردّدون فيها. فاطّلعوا على الديانة المسيحيّة وتاقوا الى التمسّك بها * فالتمسوا منذرين من ثاودورة الملكة التي كانت ماسكةً زمام الحكم لسبب صغر ابنها الملك * فأُرسل اليهم

منذرٌ اسمهُ قسطنطين. فلمّا وصل بلادهم. طفق يتعلّم لغتهم. ونقل الى تلك اللغة الانجيل وغيرهُ من الكتب المقدّسة ممّا رآهُ نافعاً لإرشادهم * وبعد قليل من الزمان دخلت الامّة كلّها في دين المسيح. وكان ذلك في اواسط القرن التاسع * وانَّ تنصّر الصقالبة فتح الطريق لتنصّر الروسيّين او المسكوب. وهم فرع من الامّة الصقلبيّة وكانوا مجاورين لهم * وضرب باسيليوس الملك المعروف بالمقدونيّ عهدًا مع الروسيّين بهِ تهذّبت أَخلاقهم الوحشيّة. واتاهم أسقفٌ سامهُ اغناطيوس بطريرك قسطنطينيّة فقبلوهُ *

الفصل العاشر

في تنصّر البلغاريّين (سنة ٨٥٥)

انَّ البلغاريّين كانوا جيلاً من الأَقوام الشماليّة البربريَّة. يسكنون سواحل البحر الاسود وبحر ازوف. وكانوا أَحياناً احياناً يغزون بلاد الروم * وفي احدى حروبهم مع ثاوفيل ملك الروم انكسروا في واقعة شهيرة. وأُخذت من جملة المسبيّين اخت ملك البلغار. وجُلبت الى مدينة قسطنطينيَّة مع سائر المسبيّين. وبقيت هناك ثماني وثلاثين سنة * وفي هذه المدَّة من الزمان تعلّمت اصول الديانة المسيحيّة وتعمَّدت * ولمّا مات ثاوفيل الملك. تسلّمت زوجتهُ

ولكنَّ المقلَّدين بها لم يكن لهم سلطان ما * ثمَّ بعد ذلك سُمّي عامل الولاية البعيدة بطريقًا. ثمَّ اسم البطريق صار لقب الحكّام الاجنبيّين) * ولكن لم يكتفِ الرومانيون بهذا الإِكرام الذي بهِ اكرموا كارُلس. بل احبّوا ان يضعوا على راسهِ تاج المُلْك الروميّ القيصريّ جزآءً لمناقبهِ وأَتعابهِ في صلاح الكنيسة * فلمّا انطلق كارُلس في احد أَسفارهِ الى رومية. ارتأَى لاون الثالث البابا مع اخصّ وجوه كبرآء المدينة ان يرقّوا كارُلس الى رتبة ملوك الروم المغربيّين. ولم يُطلِعوا كارُلس على قصدهم هذا. لئلَّا يظنّ احد أَنَّهُ هو الذي سعى في نوال ذلك. وليحصل لهُ فخر اكثر في ترقيتهِ * فحدث أَنَّهُ لمّا ذهب الملك الى كنيسة مار بطرس يوم عيد الميلاد ليسمع القدَّاس. اقبل نحوهُ البابا على غفلةٍ منهُ. وبعجب عظيم منهُ وضع على راسهِ تاج المُلك الروميّ بينما كانت الجماعة تصيح قائلةً «عُمرًا طويلاً وظفرًا لكارُلس التقيّ الجليل الذي كلّلهُ الله وجعلهُ ملكًا قيصريًّا عظيمًا محبًّا للصلح» * ومسح البابا بالزيت المقدَّس الملك وابنهُ لويس. ثمَّ ادَّى هو قبل الجميع الحرمة للملك الجديد اذ جثا امامهُ بحضور الجماعة * وهكذا مُلك الروم المغربيّ الذي كان أَصحابهُ قد تركوهُ يفلت من ايديهم صار الى الفرنساويّين على يد واحد من ملوكهم كان جديرًا لبسالتهِ وتقواهُ ان يتحمَّل كلّ ثقل المجد الذي حازهُ اعظم ملوك تلك الدولة الروميّة كقسطنطين وثاودوسيوس الكبيرين *

واظهر كارُلس في هذا الحادث تواضعاً عظيماً بهِ كبر شان الرفعة التي حصل عليها • وروى كاتبهُ أَنَّهُ لمَّا انصرف كارلس من الكنيسة. قال انَّهُ لو علم ما كان اهل رومية ناوين ان يصنعوا لهُ. لامتنع في ذلك اليوم العظيم من الذهاب الى الكنيسة * وخلع كارلس فخر الخلع على كنيسة مار بطرس وعلى سائر كنائس رومية واهدى لها الهدايا النفيسة. وسافر بعد عيد الفصح ورجع الى بلاد فرنسا * ولمَّا راى كارلس نفسهُ في راحة وامان من جهة الامم القريبة كلِّها. افتكر ان يجلِّل قيصريتَّهُ بأَعمال تليق لها. وذلك أَنَّهُ اجتهد في زيادة صلاح الامم التي كانت في حوزتهِ وقلْع الرذائل. وفي شان ذلك ارسل الى ولايات مملكتهِ وكلآء ليفتّشوا على التعدّيات والمظالم ويسمعوا دعاوي المتظلّمين ويحكموا لهم بكلّ العدل * وبهذا الحال دانتهُ المنيَّة. فوجدتهُ متأَهّباً لها • ولمّا حان الوقت الذي فيهِ حتم الله ان يجازي هذا الملك العظيم. طرقتهُ الحمّى * فلمّا راى كارلس ساعتهُ قريبة. طلب الزوادة الاخيرة. وتناول القربان المقدّس بعبادة بليغة. ثمَّ قضى نحبهُ في سنة اثنتين وسبعين من عمرهِ * وهكذا جرت وفاة هذا الملك السامي الذي كان اسطى ملوك فرنسا واشدّ ناصر للكنيسة. الملك الذي جعلتهُ الدنيا من الجبابرة والديانة من اوليآء الله *

ولمّا كان كارُلُس يعلم أَنَّ درس العلوم والصنائع نافع لصلاح الديانة كما لصلاح المملكة. ورأى انّ الفرنساويّين كانوا في جهل عامّ يكرهون العلوم والادب ولم يكن لهم معلّمون ولا مدارس. افتكر ان يحيي العلوم وفنون الادب في مملكتهِ * فارسل جلب من البلاد الغريبة الى قصرهِ افخر العلمآء والفقهاء. واقامهم ليدرّسوا في مملكتهِ. وخلع عليهم وعيّن لهم رواتب وافية جزيلة. ولم يقصر بشيءٍ في امر كان يعلم أَنّهُ منهُ يحصل الاسم لفرنسا وللديانة * ومن الذين استعملهم الملك بالاخصّ كان احد مشاهير ذلك العصر اسمهُ أَلْكُوين. وكان انكليزيًّا. واكرمهُ الملك غاية الإكرام ورفع منزلتهُ. لانّهُ لبَّى دعوة الملك وهجر وطنهُ الذي كان فيهِ شائعًا صيتهُ فوق كلّ احد * واشار الكوين الى الملك ان ينصب مدارس في اكبر المدن واعظم الاديرة. فاجاب كارُلُس الى ذلك. وكتب رسالةً منشورة الى الاساقفة وروسآء الرهبان في هذا الشان * ووجَّه الملك عنايتهُ الى الكتب ايضًا. فاصدر مرسومًا بان لا تُنسَخ الكتب الّا بيد أَشخاص عارفين بالغين في السنّ * وصرف جزيل الهمّة في العلوم الدينيّة خاصّةً. فاهتمّ بإِصلاح نسَخ العهد القديم والعهد الجديد من كلّ غلط. وبتنقيح كتب الطقس المستعملة في الكنائس * واستجلب من مدينة رومية العظمى مغنّين او مرتّلين. وجعلهم يعلّمون الفرنساويّين تراتيل البيعة الرومانيّة

خالصةً من كلّ تغيير. وامر جميع معلّمي التراتيل الذين في بلادهِ ان يعرضوا على اولئك كتبهم ليصلحوها وان يتعلّموا منهم صناعة الترتيل * ونصب في قصرهِ نفسهِ مدرسةً لاولادهِ ولأكابر الدولة. وكان هو بنفسهِ كثيرًا ما ينزل من عرشهِ ويختلط مع تلامذة الكوين * قيل انَّ مدرسة باريس الكبرى التي اشتهرت في كلّ الأجيال وهي اقدم مدارس اوروبا واشهرها. اخذت اصلها من زمان الملك كارُلس الكبير *

الفصل الثامن

في صيرورة كارُلس الكبير ملكًا على المغرب (سنة ٨٠٠)

كان كارُلس الكبير ملك فرنسا حائزًا في قبضتهِ جميع البلاد التي منها تركّبت يومًا المملكة الروميّة المغربيّة. فانَّ بلاد جرمانيا وغاليا باسرها وجانبًا عظيمًا من بلاد ايطاليا واسبانيا كانت تحت حكمهِ. فكان هو في الحقيقة ملك المغرب كما كان يومًا ملوك الروم. الّا أنّهُ لم يكن لهُ هذا النعت * نعم انَّ اهل رومية زيّنوهُ بنعت من النعوت القديمة اي سمّوهُ بطريقًا. (وكان قسطنطين الملك الكبير قد استجدَّ هذه مرتبة البطريق. وكانت تقلّد للأشخاص الذين يكونون قد قاموا بوظائف سامية او ادّوا خدمات جليلة.

وتنسّك في دير مار سابا المشهور. وتلألأ بجميع الفضائل الكاملة* وصنَّف هناك في اللغة اليونانيّة المصنّفات الجليلة. وبها حارب جميع الهرطقات والبدع المتملّكة في زمانهِ. ولاسيّما النسطوريَّة والمنوفسيتيَّة والمنوثليتيَّة وبدعة محاربي الصور وضلالة الذين يزيدون على التريساجيون اي قدّوس الله يا من صُلب لاجلنا. وتشاهد أَنَّهُ يقبل الموت افضل من الاشتراك معهم* ومن مؤَلَّفات مار يوحنَّا الدمشقيّ اناشيد تتضمَّن أَسرار حياة المسيح وتدابيرهِ ومديح القدّيسين. اتّخذتها الكنيسة الكاثليكيّة الشرقيّة وادرجتها في صلواتها الفرضيَّة التي تصلّيها في أَعياد مدار السنة مع غيرها من اناشيد قزما الاورشليميّ واندراوس اسقف اقريطش وغيرهم الذين اشتهروا في نحو ذلك الزمان. وتُعرَف هذه الاناشيد بالقوانين* وهذه القوانين اليونانيَّة لجلالة معانيها ورقّة الفاظها وحلاوة نغماتها قد اتّخذتها الشيعة اليعقوبيَّة ايضاً. ونقلتها الى اللغة السريانيّة. وادرجتها في طقسها على نسق الكنيسة الكاثليكيّة اليونانيّة]*



الفصل السابع

في خلال كارُلس ملك فرنسا (سنة ٧٦٨)

اشتهر في ذلك العصر كارُلس مَغنُس اي الكبير (ويسمّيهِ

الفرنساويون شَرْلَمَنْيا) ملك فرنسا . وهو كان فخر الكنيسة . ونفعها كثيرًا مدّة ملكهِ الطويلة * ارتقى كارُلس الى عرش مملكة فرنسا في حداثتهِ . الاّ أَنّهُ لم يكن لهُ من خصال الشبوبيّة سوى نشاطها وقوّتها . فكان فطينًا رزينًا في كلّ تدابيرهِ . وكان محبًّا للديانة . فاستعمل شوكتهُ لنشر مُلك المسيح * وفي مبادئ جلوسهِ بطلبة اساقفة فرنسا اعطى برآءَةً في شان نظام سياسة الكنيسة وشريعتها لإِثباتها وإِسنادها واجرائها * ونصر كارُلس حبر الكنيسة الرومانيّة واعانهُ على ملك اللُنْغُبَرْد الذي كان يروم ان يسلب من أَملاك كرسيهِ الرسلي * وكان جيل من الاقوام الشماليّين اسمهم السَّكْسون كثيرًا ما يغزون بلاد مملكتهِ ويؤذونها . فاقام عليهم جهادًا شديدًا طويلاً . ولم يكفّ عنهم حتى دعاهم الى الايمان المسيحي . وكان ذلك لديهِ افضل من كلّ غلبة . فانهُ كان يهمّهُ أَن يخضعهم لدين الحقّ اكثر من ان يقهرهم تحت شوكتهِ . فلمّا اقتبلوا الديانة المسيحيّة . عفا عنهم وغفر لهم كلّ سيّئاتهم وعصيانهم * واذ خاف كارُلس أَنّ تنصّرهم لم يكن من حبّهم للحقّ بل من أَسباب دنيويّة وانّهم لايثبتون على ذلك الشان . ارسل اليهم منذرين ذوي همّة ليرشدوهم ويثبّتوهم على الايمان * ونسب كارُلس ظفرهُ الى حَوْل الله تعالى لا الى قوّتهِ . وامر ان تقام تسابيح الشكر في الكنائس على تنصّر امّة السكسون *

المجامع السابقة . ثمَّ اتوا الى القضيَّة وقالوا « نحكم بانَّ الصُوَر ينبغي ان توضَع في الكنائس وعلى الآنية المقدَّسة وملابس القدس والحيطان . لا بل في البيوت والطرق • فانَّهُ كلَّما راينا المسيح ربّنا وامّهُ القدّيسة والرسل وسائر القدّيسين في صورهم . يزداد قلبنا شوقًا الى ذكرهم وتكريمهم * وامَّا الإكرام الذي بهِ تكرَم هذه الصور فهو إِكرام السلام والتوقير . لا إِكرام السجود • فانَّ اكرام السجود لا يليق الاَّ للذات الالهيّة * وينبغي ان تكرَم هذه الصور بالتبخير واضاءة الشماع . كما يُكرَم الصليب والانجيل وسائر الاشياء القدسيَّة . لانَّ إِكرام الصورة ينتهي الى الشخص المصوَّر فيها * هذا هو تعليم الآباء والكنيسة الكاثليكيّة » * ثمَّ ضُرب محاربوا الايقونات بالحرم * وامضى هذا القضاء القاصدان الرسوليّان وجميع الاساقفة * ثمَّ انطلق الآباء الى مدينة قسطنطينيّة . وجلسوا هناك الجلسة الثامنة بحضور الملك وامّهِ . وهما ايضًا امضيا تحديد المجمع . بينما كان الحاضرون يحيّونهم ويتهلّلون لهم ويهنّئونهم * وهكذا انطفأَت نار هذه الهرطقة في ذلك الزمان * ولكنَّ الهراطقة المتأَخّرين وهم البرتستنت جدّدوا هذه الهرطقة في القرن السادس عشر سالكين مسلك اولئك الهراطقة الحمق اي محاربي الايقونات . وحاربوا صور القدّيسين بما بهِ حاربها اولئك من النفاق والقساوة والجنون *

الفصل السادس

في القدّيس يوحنّا الدمشقيّ (سنة ٧٨٠)

[اشتهر في ذلك العصر في دمشق الشام يوحنّا القسّيس بن سرجيس المعروف بيوحنّا الدمشقيّ. وسُمّي باسم منصور لقباً. لانَّ اباهُ كان ابن منصور * كان ابو يوحنّا واليًا على الشام ونواحيها من قبل خليفة العرب الذي كان مقرّهُ في دمشق. وكان ارثذكسيًّا في المعتقد تقيًا ذا همّة وغيرة على صحّة الايمان. وربّى ابنهُ يوحنّا خير تربية * وقرأ يوحنّا العلوم على راهب اسمهُ قزما كان العرب قد جلبوهُ اسيرًا من بلاد ايطاليا الى مدينة دمشق. وتكمّل في العلوم كلّها واكثر من ذلك في الفضائل حتّى صار من اعظم ملافنة الكنيسة * وقضى فرائض القسوسيّة مدّة من السنين في مدينتهِ. وزيّن الكهنوت بمحاسن أَعمالِهِ البرِّيّة وصنائعهِ الخيريّة. ونال حظًّا لدى الخليفة نفسهِ حتّى جعلهُ من اهل مشورتهِ * وقاوم هرطقة محاربي الايقونات الثائرة في عصرهِ. وقاسى من سببها اذًى كثيرًا. حتّى قيل انَّ يدهُ قُطِعت بامر الخليفة وبراي لاون الإِيسوريّ ملك الروم عقيد تلك الهرطقة. وانّها برئت بآيةٍ سماويّة بشفاعة سيّدتنا العذراء امّ الله * ثمَّ انَّ يوحنّا ترك دمشق. وانطلق الى اورشليم. وانقطع للسيرة الرهبانيّة

ومشى عليهِ * فوثب عليهِ أَعوان الملك ليمزّقوهُ . فقال اسطفان متنهدًا ومتاسفًا الصعداء « يا للخطب العظيم . انَّ مَن يدوس صورة ملكٍ ارضيّ يُحسَب مذنبًا . ولا يُحسَب مذنبًا من يحرق بالنار صورة ملك السموات » * ولم يكن للملك جوابٌ . بل امر ان يُأتَى في السجن . وبعد قليل اماتوهُ * وعُذّب ايضًا تسعة عشر جنديًّا من أَعوان الملك . شُكي عليهم بانهم كانوا مرتبطين مع الشهيد اسطفان وبانَّهم مدحوا تجلّدهُ على العذابات . واثنان منهم حُزَّ راسهما بامر الملك * واتّصل الاضطهاد الى الولايات . فكان العُمّال من طمعهم في جلب خاطر الملك يعاملون الكاثليكيّين بئس المعاملة في المملكة كلّها * وكانوا يحاربون ذخائر القدّيسين ما عدا ايقوناتهم . فكانوا ينزعونها من المذابح . ويطرحونها في المراحيض والانهر . وربَّما احرقوها مع عظام الحيوانات لئلاَّ يمكن افراز رمادها *

الفصل الخامس

في المجمع السابع المسكوني وهو الثاني النيقاويّ (سنة ٧٨٧)

بعد موت قسطنطين الزبليّ ولاون ابنهِ وقع زمام حكم الروم بيد ايرانة امّ وليّ العهد الذي كان صغير السنّ . فتولّت تدبير المملكة باسمهِ * وعند ذلك حصلت الكنيسة على راحة .

فانَّ ايرانة كانت مستقيمة المعتقد. فجعلت ترمّ الخراب الذي ادخلهُ الملكان السابقان * وبمشورة طَرَاسيوس بطريرك المدينة كتبت الى ادريان البابا في شان التئام مجمع عامّ. فاستحسن البابا هذا الراي. وارسل قاصدَين من قبلهِ ليضبطا رياسة المجمع نيابةً عنهُ * وكانوا في الاوّل قد اختاروا مدينة قسطنطينيَّة لتكون محلّ المجمع. ولكن اذ راوا انَّ محاربي الايقونات الذين كانوا كثيرين جدًّا في تلك المدينة بدأُوا ان يلقوا السجس والقلق فيها. حُوّل المجمع الى مدينة نيقية التي اشتهرت بالمجمع الاوّل المسكونيّ * فاجتمع الاساقفة من البلاد. وكان عددهم ثلاثماية وسبعين. وحضر اثنان من أَعوان الملك لحفظ النظام في المجمع. وحاز الاساقفة حرّيَّةً كاملةً * وبلغت جلسات المجمع الى ثمانٍ: في الجلسة الاولى منها قُرئت رسالة البابا التي فيها اثبت تعليم الكنيسة المقلَّد من الرسل في إكرام الايقونات القدسيّة. وشَرَحَ حقيقة هذا الاكرام * ثمَّ قُرِئَ تقرير الايمان سطرهُ بطاركة الشرق الثلاثة [اي الاسكندريّ والانطاكيّ والاورشليميّ مع اساقفتهم]. الذين لم يمكنهم ان يوافوا الى المجمع لانَّهم كانوا تحت ولاية الأَسلام. ووُجد مطابقًا لتقرير الحبر الرومانيّ * ثمَّ أُوردت نصوص الكتاب المقدّس والآباء الاوّلين في شان اكرام الايقونات. وفُنِّدت حجج محاربي الصور. وأُخزيت الهرطقة وأُفحمت * وبعد ذلك قرّر الآباء أَنَّهم يقبلون

ظفرهِ بان يُسحَق ضرباً بالقدّوم * وكان في الجملة نسآءٌ حاضرات . فحاولنَ ان يرددن إِجرآء امر الملك بتوسّلاتهنَّ الى الجنديّ الموكّل على ذلك . ولكنَّ الجنديّ لم يلتفت الى تضرّعهنَّ . ورقي الى السلّم وضرب الصليب ثلاث ضربات * فلم تتمالك النسآء نفسهنَّ من الغضب أَنْ جررن رِجل السلّم . فاهوى الجنديّ ومات من الوقعة * فامر لاون بقتلهنَّ الى آخرهنَّ مع عشرة أَشخاص أُخر ظنَّ الملك فيهم أَنّهم تواطأُوا على ذلك الصنيع * وطُرد القدّيس جرمانوس البطريرك من كرسيّهِ . ومات في المنفى في سنة تسعين من عمرهِ *

الفصل الرابع

في تعدّيات محاربي الصور

جلس في عرش المملكة الروميّة بعد لاون ابنهُ قسطنطين المعروف بالزبليّ . وهذا تتبّع آثار ابيهِ في محاربة الايقونات اي الصور المقدّسة . بل غلبهُ * فانهُ اذ كان قد تربّى بئس التربية وكان طبعاً شرس الأَخلاق بليطاً فظّاً . اقبل على اضطهاد الذين يكرمون الايقونات القدسيّة * فصارت قسطنطينيّة كلّها نوعاً من المقصبة . فكانوا يفقأُون عيون المومنين . ويجدعون مناخرهم . ويمزّقون

لحومهم. ويطرحونهم في البحر * وكان اشدُّ حنق الملك على الرهبان. فلم يترك حقارةً ولا عذابًا الاَّ وذوّقهم ايّاهما. حتّى انَّ جندهُ كانوا يطلون لحاهم بالقير ثمَّ يطلقون فيها النار. ويرضّون رؤُوسهم على صُوَر من ايقونات القدّيسين منقوشة على الخشب * وكان قسطنطين يجد لذَّة في كلّ ذلك. واذا جلس للطعام. لم يكن حديث يطربهُ اكثر من اقتصاص هذه القساوات * ولم يكتفِ بان يامر جندهُ بتلك القساوات. بل اراد ان يكون هو بنفسهِ راعيها * فنصب محكمةً عند أَبواب المدينة. وكان هو يجلس وحولهُ الجلّادون في وسط العظمة الملكيّة. فكانوا يُؤْذون الكاثليكيّين قدَّامهُ. وهو ينسرّ ويستأْنس بهذا المنظر الذي كان يوتي القشعريرة لكلّ احد * وكان في مدينة نِقُومَدِيّة رئيس رهبان اسمهُ اسطفان. كان شائعًا اسمهُ عند العامّة ومكرّمًا لسموّ فضائلهِ * فاحضرهُ الملك الى قسطنطينيّة ليميّلهُ الى مذهبهِ. وجعل يسائلهُ هو بنفسهِ آملاً ان يفحِمهُ ببراهينهِ. لانّهُ كان يحسب نفسهُ ماهرًا في علم المنطق * واخذ يجادل الراهب الصالح وقال لهُ «يا ايّها الغبيّ. كيف لا تفهم أَنَّهُ يجوز ان تداس بالارجل صورة يسوع المسيح من غير ان يُحتقَر المسيح» * فدنا منهُ اسطِفان. واراهُ دينارًا فيهِ صورة الملك. وقال لهُ «فاذاً يجوز لي ان ادوس هذه الصورة من غير ان احتقرك ايّها الملك» * ولمّا قال هذا. رمى بالدينار الى الارض

الفصل الثالث

في هرطقات محاربي الايقونات (سنة ٧٢٧)

كانت الكنيسة في بلاد المشرق تُصَاب بنوائب مولمة نوائب الهرطقات تترادف عليها. وقبل أَنْ تزول الواحدة كانت تنقضّ عليها الاخرى * ففي القرن الثامن عُذّبت الكنيسة بهرطقة محاربي الصور. وكانت اشدّ من غيرها ضررًا لانَّ الملك نفسهُ كان مقدامها بل مخترعها * نعم قد رُؤي سابقًا ملوكٌ حاموا عن الضلال واسندوهُ. ولكن حينئذٍ رُؤي ملك صار هو راس ملّة. وهو لاون الإِيسوريّ الذي لمناقبهِ الحربيّة كان قد ارتقى الى عرش المملكة الروميّة * واذ كان ماهرًا في علم الحرب مروّضًا فيهِ فائقًا على غيرهِ. كان بالغًا اعظم مبلغ من الجهل في امور الديانة. ومع ذلك ادّعى لنفسهِ ان يكون مطهِّر الدين * فكان يستقبح عبادة الايقونات اي الصور المقدَّسة. وينسب هذه العبادة الى عبادة صنميّة. فجزم ان يبطّلها. واخرج امرًا بان تُرفَع من الكنائس صور السيّد المسيح ومريم العذراء الطوباويّة وسائر القدّيسين * فثار غيظ جميع المسيحيّين على هذا الامر المخالف للعادة القديمة الدائمة العامّة التي جرت في الكنيسة. ومن الجملة اهل قسطنطينيّة تحرّكوا الى فتنة * وقام على هذه الضلالة جرمانوس بطريرك تلك الكنيسة

وحاربها بكلّ قوّتهِ . ولم يعبأ بغضب الملك ٠ وحاول في الاوّل ان يرشد الملك الى الهدى بمفاوضات جرت بينهُ وبينهُ . وفهّمهُ أَنَّ الاكرام الذي يؤَدَّى للصور لا ينتهي الى الصور نفسها . بل الى المصوَّرين فيها كما تُكرَّم صورة الملك . وانّهُ من زمان الرسل أُكرمت بهذا الاكرام صور المسيح وامّهِ الطوباوية . وأَنَّ من افظع الغوايات محاربة سنّةٍ قد مضت عليها الدهور كلّها * ولكنَّ لاون الملك لم ينعطف قلبهُ لهذه الاعتبارات . اذ كان عديم الخبرة بامور التعليم المسيحيّ . ولبث مصرّاً على عنادهِ * فكتب حينئذٍ جرمانوس الى البابا . واطلعهُ على حقيقة الامر وما جرى في مدينة قسطنطينيّة * فردّ الحبر الاعظم جواباً . فيهِ حمد البطريرك على همّتهِ في منع البدعة الجديدة في اوَّل انشائها . وعقد في مدينة رومية مجمعاً من الاساقفة وحرموا تلك البدعة * وكتب البابا ايضاً الى الملك يعظهُ وينصحهُ ليبطّل الامر الذي كان قد اخرجهُ . واعلمهُ أَنَّ الملوك ليس لهم سبيل ان يتداخلوا في امور الايمان ولا ان يخترعوا شيئاً في شريعة الكنيسة * ولكنّ الملك لم يتّعظ بتلك الرسالة . ولا احتفل بما فيها من الوصايا . بل ازدادت لوعتهُ الى اجرآء امرهِ ٠ فكان يامر بإِحراق الصور في الشوارع وتبييض الكنائس المصوّرة حيطانها . وامر على صليب عظيم فيهِ صورة المصلوب كان قسطنطين الملك قد وضعهُ على باب القصر الملكيّ من بعد

القسطنطيني مجمع القصر. حتَّى انَّ النساطرة واليعاقبة والموارنة لا بل الارثذكسيين الملكيّين نفسهم صار عندهم من قبيل العادة بل السنة ان لا يقيموا قسّيسًا على رعيةٍ الاَّ مزوّجًا * الاَّ انَّ هذا كلّهُ لم يمكن ان يخلّ بالشريعة المقدَّسة القديمة المانعة الاساقفة من الزواج بتّةً. فانَّ جميع الطوائف المذكورة تمسّكت في كلّ زمانٍ بهذه الشريعة تمسّكًا شديدًا الى يومنا هذا. حتَّى النساطرة فانَّهم لم يمكنهم ان يحتملوا السنَّة الفسقيّة التي رام برصوم النصيبيني ان يركزها عندهم بجواز تزوّج الاساقفة. وبعد سنين قليلة رفضوها وحرّموها * اما زعم بعض الشرقيّين بانّهُ لا يجوز ان يكون القسّيس المتصرّف في الرعيّة ولاسيّما باستماع اعترافات التائبين الاَّ مزوّجًا فضلالٌ يوجب الضحك اكثر من الردّ عليهِ * واي مجمع من المجامع المسكونيّة او الاقليميّة شرقًا او غربًا سنّ هذه الشريعة. او ايّ اب من الآباء او ملفان من الملافنة وضع هذا القانون * اليس أَنَّ مجمع القصر نفسهُ لم يجسر ان يسنّ هذه السنَّة القبيحة مع تفضيلهِ القسّيس المزوّج على العزب * أَلاَ ترى انّ الاسقف هو مصدر كلّ سلطانٍ في كلّ كنيسةٍ وهو الذي لهُ التصرّف الاوّل العامّ في كلّ الابرشيّة. ومع هذا فالاسقف يجب ان يكون بتولاً مطلقًا لا محالة * اوَليس الرهبان في مواضع كثيرة في الأَزمان الخالية وفي زماننا هذا قُلّدوا رعاية النفوس التي تلوذ باديرتهم * فالقسّيس

العزب اليق بسياسة النفوس وتوزيع الأسرار من المزوّج. لانهُ اشبه منهُ بالاسقف وبالراهب. ولانَّهُ لعدم ارتباطهِ بقيود العالم يهون عليهِ إدراك الامور الروحانيّة التي تقتضيها سياسة النفوس. ولا مانع لهُ من ان يتفرّغ لها ويستكملها نظرًا وعملًا *

ثمَّ انَّ من جملة مستقبحات مجمع القصر قانونهُ الذي بهِ حاول ان يرقّي كرسيّ بوزنطيه اي قسطنطينيّة الى المرتبة الثانية بين الكراسيّ بعد الكرسيّ الروماني بحجّة أنَّ تلك المدينة كانت كرسيّ المملكة الروميّة * ولكن هذه الحجّة مردودة في تعليم الكنيسة. فانَّ الكنيسة لا يليق لها ان تطبّق رسومها على مجرى الرسوم الدنيويّة وتقلّبات الزمان. والاّ وجب إبطال الكرسيّ الانطاكيّ اصلاً مثلاً. لانّ مدينة انطاكية قد خربت من زمان. ولم يبقَ منها الاّ بيوت قليلة حقيرة لا تستحقّ أنْ تسمّى أطلال تلك المدينة العظيمة التي كانت يومًا سلطانة المشرق *

فلهذه الأسباب وغيرها لم يُقبَل هذا المجمع في الكنيسة الكاثليكيّة. لانَّ سرجيوس البابا الروماني الذي في زمانهِ عُقِد المجمع لم يقبل انْ يؤيّد قوانينهُ. وكذلك ابَى الباباوات الذين بعدهُ مطلقًا ان يقبلوا ذلك المجمع على رغم كلّ ما عالجهُ يسطنيان الاخرم الملك ليغريهم بذلك امّا طوعًا وامّا كرهًا] *



اهتمامهُ بالتئام مجمعٍ . وهو المسمّى مجمع قصر الملك لانهُ في ذلك القصر اجتمع. ويسميهِ اليونان المجمع الخامس السادس. كأنهُ كان متمماً لعوز المجمع الخامس والمجمع السادس . اذ لم يكن أصحاب هذين المجمعين قد حدّدوا شيئاً مّما يخصّ التهذيب وسياسة الكنيسة. فكأَنَّ مجمع قصر الملك قد سدَّ ذلك العوز في راي اليونانيين * وكان عدد الاساقفة المجتمعين في هذا المجمع الذين امضوهُ بختومهم مايتين وأحد عشر. وتولّى رياستهُ بولس بطريرك قسطنطينيَّة. ولم يكن فيهِ اساقفة من الاسكندريَّة ولا من اورشليم. لانَّ هذين الكرسيَّين كانا فارغين لسبب الحروب وهول السراكسة * وكان مراد آباء ذلك المجمع ان يسطّروا قوانين تهذيبيّة ليكون لها قوّة الشريعة في الكنيسة كلّها. وبلغ عدد قوانينهم ماية واثنين * وفي مفتتح جلوسهم قرّروا انهم ثابتون على ايمان المجامع الستَّة المسكونيَّة. ثمَّ صرّحوا بالقوانين الجارية في الكنيسة التي قبلوها اي تحديدات المجامع المسكونيَّة والخصوصيَّة ورسوم الآباء المختصَّة بالسياسة والتهذيب* لا ينكر أنَّ في جملة قوانين مجمع القصر كثيراً مّما يستحقّ المدح او لا يستوجب العذل. الاَّ انَّ فيها قوانين شتَّى جعلت ذلك المجمع مكروهاً مذموماً على الدوام في الكنيسة الكاثليكيَّة ومرفوضاً رفضاً قاطعاً * فمن ذلك ما سنّوهُ في شان زواج القسوس. وذلك أنَّهم خفضوا شان عادة الكنيسة اللاتينيَّة الممدوحة

الناهية الشمامسة والقسوس عن الزواج . وفضّلوا عليها عادة الكنائس الشرقيَّة في جواز بقاء المذكورين مع نسآئهم اللواتي تزوّجوا بهنَّ قبل رسامة الشموسيَّة . مع انَّ حقيقة الامر هي بعكس ذلك * اي انَّ سنَّة الكنيسة الغربيَّة هي الاصليَّة في ديانة المسيح . لانَّها مقتدية بالرسل اجمعين . وقد كانت كنائس كثيرة في بلاد الشرق متمسّكةً بها . ومن جملتها كنيسة جزيرة قبرس كما شهد مار ابيفانيوس الملفان . حتى انَّ الكنائس الشرقيَّة نفسها التي اجازت بقاء الشمامسة والقسوس مع نسآئهم فرضت عليهم من قديم الزمـان (ما عدا النساطرة الذين زاغوا بمهارة برصوم النصيبيني) اوَّلاً ان يمتنعوا من نسآئهم في الايَّام التي فيها يقدّسون القدّاس . وثانياً اوجبت على نسآئهم ان يسرنَ في الخارج سيرةً تقرب الى سيرة الراهبات المسمَّيات بنات العهد . وثالثاً حرَّمت عليهم حرماً قاطعاً ان يتزوّجوا بعد الرسامة * افليس هذا كلّهُ برهاناً ساطعاً على انهُ في نيّة الكنيسة الشرقيّة يتفضّل الشمامسة والقسوس البتولون على المزوّجين . وأنَّ الاصل فيهم ان يكونوا بلا زواج تبعاً للرسل وتلاميذهم . وأنَّ بقاء المزوّجين منهم مع نسآئهم هو من قبيل المسامحة والتساهل لا من قبيل الاستحباب والتفضيل * الاَّ انَّهُ لسبب تزلّق الطبيعة البشريَّة والحال المبلبل الذي كانت فيهِ الطوائف الشرقيَّة في تلك الأجيال قد سرى سريعاً في هذه الطوائف روح المجمع

فنوى في قلبهِ ان يحذو حذوهم . وبقيت صورة فضائلهم مرسومة في قلبهِ دائمًا * فدخل ديرًا من الاديرة . وتهذَّب هناك في السيرة الرسليّة * وسيم قسيسًا في سنة الثلاثين من عمرهِ . وعند ذلك اخذ شوقهُ يتزايد ويعظم الى إنذار الامم ودعائهم الى طريق الخلاص . وكان يتأسَّف نهارًا وليلاً على الذين كانوا جالسين في ظلمات عبادة الأصنام * وبهذه الأحوال عمد الى البابا غريغوريوس الثاني ووقع على رجليهِ . وكشف لهُ ما في قلبهِ . فلمّا تحقّق الحبر الاعظم صحّة دعوتهِ . قلّدهُ امر انذار الجرمانيّين بالانجيل * فتوجَّه بونفاق الى ارضهم واخذ ينذرهم . وحمل مشقّةً عظيمة ليليّن قلوبهم ويدعوهم الى الرفق والرحمة كما يامر الانجيل بدل القساوة التي كانوا متَّصفين بها لسبب عيشتهم الوحشيَّة . ولم تذهب أتعابهُ عبثًا . فانّهُ قطف منها اثمارًا وافرة وافية * وفي احد البلاد التي انذر اهلها اضطُرَّ انْ يشتغل بيديهِ ليعتاش . لانَّ اهلها كانوا قد بلغوا الغاية القصوى من الفقر * ولمّا بلغت الى البابا أخبار بونفاق الرسليّة . استدعاهُ الى رومية وسامهُ اسقفًا * ثمَّ رجع بونفاق الى بلاد جرمانيا . واقبل على شانهِ الاوّل بنشاط جديد وشوق متزايد . وردَّ أقوامًا كثيرة منهم الى ايمان المسيح . ونصب كنائس كثيرة واديرة * ثمَّ جعلهُ البابا نائبهُ او قاصدهُ في بلاد جرمانيا . وفوَّض اليهِ أنْ يرسم كلّ ما يراهُ مناسبًا من الرسوم والضوابط

لاثبات تلك الكنيسة الجديدة * واشتهر بونفاق وذاع اسمهُ في اوروبا كلّها. حتّى انضمَّ اليهِ كثيرٌ من الرجال الصالحين وعاونوهُ في أتعابهِ * وعند ذلك اذ راى بونفاق انَّهُ قد شاخ وطعن في السنّ. نزل عن الاسقفيَّة. واختار واحدًا آخر ليقوم مقامهُ وسامهُ مطرانًا على ماغُنْزَة. وتفرّغ هو لعمل الإنذار بالانجيل الذي كان قلبهُ يشتاق اليهِ غاية ما يكون * فاخذ يتوغّل في البلاد القاصية من جرمانيا حيث لم يكن هناك قد نُودي باسم المسيح. وانذر كثيرين وعمّدهم. وعيّن يومًا ليعطيهم سرّ التثبيت في بقعةٍ باديةٍ لكثرتهم * واذ كان منتظرًا ايَّاهم في الأَجَل المعيّن. هجم عليهِ بدل اولئك المتنصّرين الجدد جماعة من الوثنيّين. وافترسوهُ هو والذين معهُ كالاسود ومزّقوهم ايَّ ممزَّق. وهكذا ختم بونفاق أتعابهُ وفضائلهُ الرسليّة باكليل الشهادة * وجرت على قبرهِ كرامات وآيات كثيرة *

الفصل الثاني

في مجمع قصر الملك الغير المقبول (سنة ٦٩١)

[جلس في عرش المملكة الروميَّة بعد قسطنطين اللحياني المارّ ذكرهُ ابنهُ يسطنيان الثاني المعروف بالاخرم. وكان صغيرًا جدًّا في العمر. فكان ذا خرقٍ وجهلٍ في سياستهِ * ومن مصنوعاتهِ

من مركز الحق والحيوة كالأغصان المقطوعة من الكرمة حتى فقدت قليلاً قليلاً بقايا النسمة التي كانت فيها يوم انقطاعها * أَلاَ إنّهُ مّا يوجب علينا نحن الشرقيّين التأسّف والخجل هو أَنَّهُ بينما كان اهل المغرب يناولون دينهم الحقيقي للأقوام البربرية التي سطت عليهم واخذت بلادهم. كان بعكس ذلك الشرقيّون لسبب نقسّماتهم وبغضتهم بعضُ لبعض يتركون للأقوام الاعجميّين الذين فتحوا بلادهم ان يسلّطوا دينهم عليهم] *



الباب الرابع

في اخبار الكنيسة الى شقاق الكنيسة القسطنطينيّة

الفصل الاوّل

في تنصّر اهل جرمانيا (سنة ٧٢٢)

انَّ شمس الايمان لا تغيب عن بلدٍ الّا لتضيء على بلد آخر كما راينا سابقاً * فبينما كان نور الانجيل يضعف في بلاد المشرق بالهرطقات والشقاقات والاديان الجديدة التي ظهرت فيها . جعل ينبسط الى البلاد الشماليّة من اوروبا بهمّة منذرين شتّى قصدوا تلك البلاد ببشارة الخلاص * واشهر هولآء كان بونِفاق مطران ماغنْزة من اعمال جرمانيا رسول الجرمانيّين ويقال لهم الألمّان ايضاً * كان بونِفاق في الاصل انكليزيّاً . ورُؤي فيهِ من صغرهِ سيماء الدعوة الالهيّة لخَطْب عظيم * وذلك انَّ نفراً من المنذرين وافوا الى ابيهِ . وفاتحوهُ في امر الايمان بالله وفي امور خلاص النفس . فوقع كلامهم من قلب بونفاق موقعاً عظيماً . تحرّك الى تعظيمهم وحبّ سيرتهم لما رآهُ فيهم من الخلال العجيبة .

سورية فخضع لتحديد المجمع السادس كلّ اهلها الذين لم يكونوا يعاقبة . ورفضوا الضلالة المنوثليتيّة التي التطخوا بها في زمان البطاركة الثلاثة المارّ ذكرهم . الاّ جماعةً في فونيقي . فانّها بقيت مصرّة على رفض تحديد المجمع السادس وعلى القول بالمشيّة الواحدة في المسيح مع قولها بطبيعتيهِ * وهولآء لسبب هذا عصيانهم على المجمع المسكوني قذفتهم الكنيسة الكاثليكيّة من حضنها . فانشقّوا منها وانشاوا شيعةً جديدة قائمة بذاتها عاصية على روسائها وهم بطاركة انطاكية الملكيّون . وجعلوا لنفسهم بطاركة مستقلّين يسوسونهم على حدة . كما فعل قبلهم اليعاقبة والنساطرة * وهكذا من اواخر القرن السابع الى مرور نحو سبعماية سنة واكثر وُجد نصارى البطريركيّة الانطاكيّة مقسومين الى اربع فِرَق او مِلَل . اي الارثذكسيّة المسمّاة الملكيّة المعتقدة مع سائر الكنيسة الكاثليكيّة باقنوم واحد وطبيعتين ومشيّتين في المسيح . والنسطوريّة . واليعقوبيّة . والمنوثليتيّة * امّا الملكيّون فكانوا في الجهات الشماليّة والمتوسّطة من سورية خاصّةً . وكان منهم كثير في الجزيرة اي بين النهرين . ومن الجملة كنيسة عامرة في أَمَد واخرى في الرها . ولم يخلُ منهم العراق ايضاً * ومدينة انطاكية مركز بطريركيّتهم استبدّوا بها على الدوام . فلم يمكن ابدًا ان يسكنها بطريركٌ من الشِيَع المنشقّة حتى زمان الشقاق القسطنطيني * وامّا اليعاقبة فكانوا مبثوثين في سورية كلّها ولاسيّما الجهات

الشرقيّة والجنوبيّة وفي الجزيرة وايضاً في العراق . ولم يكن في الاوّل مركز لبطريركيتهم . لانّ ملوك الروم كانوا يزعجونهم كثيراً ويضطهدونهم • وفي الازمان المتأخّرة وُجد يعاقبة سريان كثيرون في بلاد الهند . كانوا في الاصل نساطرة * واما المنوثليتيّة فكانوا يسكنون بلاد فونيقي خاصّةً * واما النساطرة فكان مركزهم في بلاد العراق . وكانوا كثيرين في الجزيرة وكردستان وفارس . وبعد سنين قليلة انتشروا بكثرةٍ الى البلاد القاصية شرقاً وغرباً . حتى بلغوا الى بلاد الهند والصين من جهة والى جزيرة قبرس من الجهة الاخرى * فيا للأضرار الجسيمة التي اصابت دين المسيح من ورآء هذه الانقسامات * لعمري انهُ لو كانت تلك الشِيَع الغير الكاثليكية تعتبر انهُ في دين المسيح يقتضي ان يوجد على الدوام قاضٍ يحكم بين الحقّ والباطل اذا وقع خلاف بين المسيحيّين وانهُ لولا هذا القاضي لما كان نهاية للنزاعات والخصومات اذ كان كلّ احد يدّعي انّ الحق عندهُ ويكذّب غيرهُ . وانّ هذا القاضي ليس هو الاّ الكنيسة الرومانيّة المؤسّسة على ايمان بطرس زعيم الرسل الذي قال لهُ المسيح «ارجع وثبّت اخوتك» وانّ هذا الكرسيّ البطرسيّ المحترم لبث في كلّ جيلٍ لامعاً بأضواءٍ تنبعث منهُ وتحيي الكنائس اللائذة بهِ . مع انّ سائر الكراسي الشرقية اصابها الدمار واحدةً بعد واحدة . لما كانت تلك الشيع تنفصل

في جمع مجمع مسكوني لتقويم الدين الطاهر. فكتب في ذلك الى اغاثون بابا رومية. واغاثون اعلم اساقفة المغرب بهذه ارادة الملك الصالح. ووكّل عنهُ ثلاثة نوّاب وارسلهم الى قسطنطينيّة ليكونوا روساء المجمع * وكان اساقفة المغرب يعترفون قاطبةً اجمعون بانَّ في المسيح مشيّتين كما كانوا يعترفون بانَّ لهُ طبيعتين. لانَّ هرطقة المنوثليتيّين لم تكن قد دخلت تلك البلاد * واستقبل الملك قصّاد البابا بكلّ إكرام. فُفتح المجمع في مدينة الملك في احدى قاعات قصرهِ. وكان كتاب الاناجيل منصوبًا في الوسط كالعادة * وحضر الملك المجمع مع ثلاثة عشر من اخصّ أعوانهِ * فتكلّم نوّاب البابا قبل الجميع وقالوا «انّهُ منذ نيّف واربعين سنة شاع تعليمٌ جديدٌ على يد سرجيوس وغيرهِ بانَّ في المسيح مشيّةً واحدةً وفعلاً واحدًا. ولكنَّ الكرسيّ الرسليّ قد رفض هذا الضلال. ونصح اولئك القوم أَنْ يكفّوا عنهُ. فلم يستفدِ شيئًا * ولهذا فنحن نطلب منهم أَنْ يبيّنوا ما في صدورهم» * واخذ أَصحاب المجمع يفحصون قوانين المجامع السابقة ونصوص الآباء القدّيسين. فوجدوا ضلال المنوثليتيّين مناقضًا للانجيل وللتقليد الابويّ * واقاموا البيّنة على المنوثليتيّين بانّهم حرَّفوا الأَقوال التي كانوا يستشهدونها من الآباء لإسناد مذهبهم الضلاليّ * وفُحصت ايضًا رسالة القدّيس صفرونيوس اسقف اورشليم المارّ ذكرها. وحُكم

بانها موافقة تماماً للايمان القويم ولتعليم الرسل وملائمة الكنيسة * وبعد هذا الفحص اتوا الى تحرير صورة الايمان . وقرّروا انهم متمسكون بالمجامع السابقة . ثمَّ سطّروا القضيّة بهذه الصورة . وهي « نحكم بانَّ في المسيح مشيّتين وفعلين طبيعيّين . وننهى عن القول بخلاف ذلك * ونرفض رفضاً قاطعاً اقوال الهراطقة الكفريّة من انَّ في المسيح مشيّةً واحدةً وفعلاً واحداً اذ كانت هذه الأقوال مناقضة لتعليم الرسل وحدود المجامع وآرآء جميع الآباء » * ثمَّ انَّ المجمع ضرب بالحرم أصحاب البدعة المنوثليتيّة [اي اساقفة قسطنطينيّة وانطاكية والاسكندريّة الذين نشروا القول بالمشيّة الواحدة وتبّاعهم] . ولم يشفقوا على هنوريوس البابا نفسهِ لكونهِ احبّ أنْ يتساير مع اولئك الهراطقة * وبعد ذلك حيّا آباء المجمع قسطنطين الملك الحاضر وهنّأوهُ مثلما كان جرى الامر في المجامع السابقة لقسطنطين الكبير وثاودوسيوس ومرقيان * وامضى أخبار المجمع قصّاد الكرسيّ الروماني والاساقفة (وكانوا مائة وستّين عدداً) والملك نفسهُ * واعطى الملك امراً في إجراء حكم المجمع وردعِ مَن يقاومهُ * وبذلك كلّهِ انكسرت شوكة الهرطقة المنوثليتيّة في كلّ مكان . واستراحت الكنائس [الاّ في مصر وسورية . فانَّ مصر لتملّك شقاق اليعاقبة فيها لم يمكن ان يقام فيها حالاً اساقفة للارثذكسيّين . ولذلك لم يمكن في الحال ان يجرَى فيها رسماً رفض البدعة المنوثليتيّة * وامّا

والبحث عن المشيَّة او المشيئتين في المسيح. كأنَّ ذلك اقرب طريق لاهداءِ الناس وموافقتهم * فوقع هنوريوس في احبولة سرجيوس. وردَّ اليهِ جوابًا فيهِ استحسن رأيهُ بالسكوت عن الحقّ وعن الباطل وبترك الجدال عن المشيَّة وعن المشيَّتين. وبهذه المجاملة اوهم الناس بانَّهُ وافق الضلال مع انَّهُ لم يقُل بهِ ابدًا * ولكنَّ صفرونيوس كتب الى البابا واطلعهُ على دسائس الهراطقة. وبيَّن لهُ انَّهُ لابدَّ من ردع جسارتهم لكونها تمتدُّ وتقوى يومًا فيومًا * ولمَّا بلغت الرسالة. كان هنوريوس قد توفّي. والذي قام بعدهُ في الكرسيّ حرم مذهب المنوثليتيَّة ومنشور هرقل الذي كان يسندهُ * وبعد ذلك ايَّد هذا الحكم القدّيس مرتينس البابا الذي جلس على كرسيّ مار بطرس. وهمّتهُ في إِسناد الحقّ والردّ عنهُ جلبت على راسهِ بلاءً عظيمًا * وذلك انَّ قسطاس الملك الذي تخلَّف بعد هرقل وقوَّى المنوثليتيَّة بمنشور آخر عُرف بالطوفس اي الرسم. بعث استأسر مرتينس القدّيس واستجلبهُ من رومية. فأُتي بهِ مغلولاً مسلسلاً الى القسطنطينيَّة. وأُذيق اشنع الضنك والجفاءِ * ثمَّ نفاهُ الملك. وهناك مات بعدما بقي اسيرًا سنتين وقاسى عذابًا شديدًا من غير ان يتظلَّم ولا يرتخي في القيام بما كانت تفرضهُ عليهِ مرتبتهُ * وفي ذلك الزمان ظهر في الكنيسة رئيس دير في قسطنطينيَّة اغتار على الايمان الارثذكسيّ. وهو القدّيس مكسيموس. ونزل الى حومة

القتال مثل مرتينس مع المنوثليتيين . وعُومل معاملتهُ . وضُرب بالسياط . وقُطع لسانهُ . ومات في اشقى حالٍ في المنفى * [ومن الذين وافقوا تعليم سرجيوس المنوثليتيّ كان قورش بطريرك الاسكندريّة على الارثذكسيين الذين يقال لهم الملكيّون . والبطاركة الثلاثة الذين جلسوا بالتتابع على كرسيّ انطاكية للملكيين في تلك الحقبة وهم مقدونيوس وجيورجيوس ومقاريوس * ثمَّ انَّهُ لمَّا كان هرقل قد شدَّد الامر بقبول منشورهِ وخوّف على الخصوص اليعاقبة القائلين بالطبيعة الواحدة وقهرهم . انقاد كثيرٌ من هذه الشيعة في نواحي معاملة فونيقي الى مذهب المنوثليتيّة ولاسيّما بعض الرهبان . واقتبلوا معتقد المجمع الخلقيدوني بالطبيعتين . الّا انهم افسدوهُ بضلال هرقل القائل بالمشيئة الواحدة والفعل الواحد] *

الفصل التاسع عشر

في المجمع السادس المسكوني (سنة ٦٨٠)

لمّا جلس قسطنطين المعروف باللحياني على عرش مملكة الروم . سلّى الكنيسة من الاحزان التي اصابتها من جرّاء هرطقة المنوثليتيّين . ورمَّ الخراب الذي ادخلهُ فيها الثلاثة الملوك الذين قبلهُ وهم هرقل وقسطنطين وقسطاس * وافتكر قسطنطين اللحياني

من بيعها واديرتها وضبطوا كثيرًا منها . وقرضوا من المدن النصرانية اللغات المتملّكة فيها اي السريانيّة والكلدانيّة او النبطيّة واليونانيّة والقبطيّة . ولم تبقَ اللغات القديمة الاّ في بعض القرى . واخضعوا تحت الجزية او الخراج جميع النصارى واليهود الذين لم يسلموا . وذلّلوهم في امورٍ شتّى * الاّ انّ الاسلام بعد ما استوطنوا في البلاد واستراحوا من الحروب . وجّهوا ألحاظهم نحو العلوم والمعارف . واحبّوا ان يحيوها في بلادهم * وكان ذلك اوّلاً بهمّة المنصور والمهديّ وهارون الرشيد والمامون خلفاء بغداد الذين افتتحوا هذا الباب بين الأسلام . واستعانوا في ذلك بعلماء النصارى . فدعوا المشاهير منهم وقرّبوهم اليهم . واكرموهم وعظّموا منزلتهم . وهولاء استخرجوا كتب العلوم من اللغة السريانيّة او اليونانيّة الى العربيّة * فبنى الأسلام على مبنى تلك الكتب النصرانيّة . وتوغّلوا في العلوم المتضمّنة فيها . وحصلوا على فوائد كثيرة . ووسّعوا كثيرًا من العلوم بمعارف جديدة استحقّ العرب من سببها جزيل المديح والثناء] *

الفصل الثامن عشر

في هرطقة المنوثليتيّين (سنة ٦٣٠)

انّهُ في نحو الزمان الذي فيهِ لاح دين الاسلام نبعت في

الكنيسة المسيحيّة هرطقة جديدة. كأنّها انست الحبور الذي فيهِ احتفل المسيحيّون رجوع عود الصليب الشريف الى مكانهِ * وذلك انَّ بعضًا من تبّاع مذهب الطبيعة الواحدة [ولاسيّما بطريرك اليعاقبة السريان اثناسيوس] شرعوا يشيّعون بين الناس القول بمشية واحدة وفعل واحد في المسيح. ولذلك سمّوا بلفظة يونانيّة منوثليتيّين اي قائلين بالمشيّة الواحدة * امّا الكنيسة الكاثليكيّة فكما علّمت انَّ في المسيح طبيعتين. كذلك اعتقدت انَّ فيهِ مشيّتين اي المشيّة الالهيّة والمشيّة الانسانيّة. وأَنها متميزتان غير متضادّتين * ومن الذين تمسكّوا منذ الاوّل ببدعة المنوثليتيّين كان سرجيوس بطريرك قسطنطينيّة. وهو بذل كلّ جهدهِ ليقدّم هذه الضلالة. ولقّنها هرقل الملك. حتّى انَّ هرقل ابرز منشورًا شهيرًا في تايد هذه البدعة سُمّي الأَكْثسِيس اي الشرح * وقام صفرونيوس اسقف اورشليم على هذه الهرطقة اوّل ما بدت. وفنّدها في رسالة واضحة العبارة سديدة المعنى. فيها برهن على انَّ الكنيسة آمنت على الدوام بانَّ في المسيح مشيّتين وفعلين تبعًا لطبيعتيهِ الالهيَّة والانسانيَّة * وامَّا سرجيوس فمن خوفهِ ان يُوشَى بتعليمِهِ الجديد الى البابا هنوريوس. راى ان يبتدئهُ بالمكاتبة * فكتب اليهِ رسالةً ذات مكر وترغيب. وقال انَّ هذه المسأَلة التي نهضت كانت من الموانع لرجوع الهراطقة. وطلب فقط ان يُبطَل التكلّم

مقدار ما يشاء . وصار هو قدوةً لهم في ذلك . فانَّهُ تزوَّج بعشر نساءٍ كلّهنَّ احياءٌ • وإباح لهم الطلاق ايضاً * وامر تبّاعهُ بمحاربة اهل الأَديان الاخرى ولاسيَّما المشركين . وبقتل المشركين او يومنوا . وبفرض الجزية على النصارى واليهود . وسمّاهم اهل الذمَّة * ووعد الذين يموتون قتلى في الجهاد عن الدين بنعيمٍ لذَّاتهُ جسديَّة *

كان لمحمَّد زمرةٌ من اخصّ تبعتهِ يلازمونهُ في اكثر الأَحوال . وكان اسمهم الصحابة . واشهرهم ابو بكر وعُمَر بن الخطّاب وعليّ بن ابي طالب * وبعد موت محمَّد تقلّد الامارة على العرب ابو بكر . وخُصَّ بصفة الخليفة . وكذلك سُمّي جميع الذين بعدهُ تولّوا سياسة الامّة الاسلاميّة * واوَّل شيءٍ صنعهُ ابو بكر هو انّهُ طرد من بلاد العرب جميع النصارى واليهود كما كان قد اوصى محمّد * واذ كان في ذلك الزمان العالم المعروف من بلاد المشرق مقسوماً بيد ملوك الروم وملوك الفرس . افتكر تبعة محمَّد ان يقرضوا هاتين الدولتين ويستولوا على البلاد التي تحت حكمهما * فغاروا اوَّلاً على العراق . ثمَّ على برّ الشام . وفتحوا في زمان قليل مدينة دمشق (سنة ٦٣٤) ودخلوها بالسيف . والله يعلم كم اهلكوا فيها من النفوس * ثمَّ فتحوا بعلبك . وبعدها بقليل بلاد الساحل كلّها وفلّسطين حتى انَّ اورشليم سلّمت بعد ما دافعت سنتين * ثمَّ توجه العرب نحو المشرق . وفتحوا حلب . ثمَّ كرّوا علي انطاكية . وفي واقعة عظيمة

فتحوها. وبذلك تملَّكوا على سائر بلاد سورية * واما الاسباب التي سهَّلت للأَسلام فتح هذه البلاد الواقعة تحت حكم الروم فكثيرة. اخصها أَنَّ سكَّان تلك البلاد اذ كانوا في الغالب يعاقبة او نساطرة. كانوا يبغضون ملوك الروم ويتوقَّعون النجاة من حكمهم لشدَّة الاضطهاد الذي بهِ كان اولئك الملوك يعاملون مَن لا يتديَّن بدينهم من رعيَّتهم. فقد قيل انَّ النصارى في كثيرٍ من البلاد التي حاصرها الأَسلام تواطأُوا سرًّا معهم ليفتحوها بخيانة منهم ويخلّصوهم من يد الروم *

وحدث ذلك خصوصًا في بلاد مصر. فانَّ العرب غاروا عليها مثل الجراد اللاطي على الجدران. وحلّوا على مدينة الاسكندرية العظيمة. فاهتشَّ القبط لقدومهم الى بلادهم. وكان بطريركهم قورس متَّفقًا معهم في تسهيل فتح بلادهِ * وبعد جهاد طويل شديد فتح العرب مدينة الاسكندريَّة العظيمة. واستولوا على كلّ بلاد مصر *

ثمَّ انَّ العرب توجَّهوا نحو الجنوب الشرقيّ. وفي قليل من الزمان فتحوا قاعدة مملكة الفرس وهي المدائن. وقتلوا ملكها وكان اسمهُ يزدجرد. وقرضوا تلك المملكة الفارسيَّة المعروفة بالساسانيَّة. واستولوا على جميع بلادها * وهكذا في سنين قليلة استولى الأَسلام على بلاد النصارى كلّها في سوريَّة ومصر والجزيرة والعراق ومادي وفارس * وادخلوا افواجًا افواجًا من اهلها في دينهم بالسيف. وهدموا كثيرًا

للتجارة . وهناك تعلّم مبادئ دين النصارى من راهب نسطوريّ اسمهُ سرجيس . وقيل بل كان اسمهُ بحيرة . وهذا الراهب تنبّأَ لمحمد بانهُ سيكون عظيمًا في الدنيا ويشتهر اسمهُ . ومن ذلك اليوم ابغض محمدٌ عبادة الأَصنام * ثمَّ انَّ خالهُ اودعهُ عند امراة غنيّة اسمها خديجة . فصار يتاجر لها ويطوف البلاد في تجارتها * واعجب كلّ معارفهِ واصدقائهِ لما ابداهُ من حسن الشِيَم وظرافة الأَخلاق . حتّى انهُ لُقِّب بالامين * ثمَّ تزوّج بخديجة . فحصل على ثروة وافرة * وكان ينقطع في كلّ سنة الى احد الجبال . ويقضي هناك زمانًا في التفكّر والتامّل . ومع انهُ كان معروفًا اميًّا كان فصيحًا بليغًا الى الغاية . والشاهد الكتاب الذي اتى بهِ المسمّى القُرْآن * ولمّا بلغ الاربعين سنة من العمر . قال انَّ جبرائيل الملاك اتاهُ برسالة أَنْ ينذر بدين الله . وكاشف على ذلك في الاوّل زوجتهُ وقليلاً من أَصحابهِ . وكان يقول بانّهُ لم ياتِ بدين جديد . بل بدين ابرٰهيم واسماعيل * وشرع يذمّ عبادة الاوثان ويشنّع عليها . ويدعو العرب بني قومهِ الى تركها والى كسر اصنامهم . وكان يستند في ذلك على التوراة وعلى الانجيل . ويظهر أَنّهُ يكرم أَصحاب هٰذين الكتابين المنزَلين . وكان يسمّيهم اهل الكتاب * ولمّا عرض دينهُ على اهل مكّة . قاموا عليهِ وافتتنوا . فهجر المدينة وهرب . وكان ذلك سنة ٦٢٢ من التاريخ المسيحيّ . وهو اوّل سنة من تاريخ الأَسلام المعروف بالهجرة

لسبب هذه هجرة محمّد * وانطلق الى مدينة يثرب المسمّاة المدينة
على سبيل الغلبة. وانذر اهلها. فصار لهُ هنالك تبعة كثيرون *
وكان اذا سُئل آيةً او كرامةً لاثبات دعوتهِ. يقول انهُ لم يُرسَل
ليصنع الآيات بل ليهدي الناس الى الحقّ * وسمّى اهلَ مكّة الذين
تبعوهُ المهاجرين. واهل المدينة الأنصار. وسمّى اتّباع دينهِ إسلاماً
والتابعين لهُ أسلاماً او مسلمين * وغار بأنصارهِ ومهاجريهِ على قبائل
العرب ليدعوهم الى الإِسلام. وكسرهم في وقعات كثيرة. فاخذتهم
الرعبة منهُ وسلّموا لهُ. فدكَّ أصنامهم وهدم معابدهم * وبعد حروب
شتَّى وقتالات كثيرة مع قبائل العرب وقع مريضاً بحمَّى. وقيل انَّ
ذلك كان من سمٍّ سقتهُ أيَّاهُ امرأة يهوديّة من خيبر. وتوفّي سنة
٦٣٢ للميلاد وهي سنة احدى عشرة للهجرة في عمر ثلاث وستّين سنة *

انَّ محمّداً انكر انَّ المسيح هو ابن الله وانّهُ صُلب ومات. وكان
يقول انَّ شبه المسيح صُلب ومات لا المسيح بعينهِ * الَّا انهُ جعل حبل
مريم امّهِ من غير زرع بشريّ. بل من نفخة روح الله * وانذر باله
واحد لا اله الَّا هو. ولكن لم يميّز فيهِ الاقانيم الالهيّة * وصورة الإِسلام
متوقّفة في ان يتشاهد المسلم قائلاً بان لا اله الّا الله وانَّ محمّداً
رسولهُ * ومن فرائض الإِسلام الختان وصوم شهر واحد في السنة
وهو رمضان * وحرّم محمّد على تبّاع دينهِ شرب الخمر واكل الدم
ولحمِ الخنزير * وبدل ذلك اباح لكلّ رجل أَنْ يتزوّج بنساءٍ

انقّدت في مهجتهم الأشواق . وقدحت عيونهم بشرارات الجرآءة . وهجموا على الفرس كالليوث * والملك نفسهُ نزل الى حومة القتال فجُرح حصانهُ . الاّ انهُ نجا من الموت بسلاحهِ * ودام القتال من الصباح الى المسآء . حتى كَلَّ الفرس واعيوا . وهلك منهم ثلاثة من الروسآء الكبار واكثر من نصف عسكرهم * واما الروم فلم يَبِدْ منهم الاّ خمسون * وما كان من امر ملك الفرس الاّ انهُ هرب . وبعد ان قطع ثمانية فراسخ سيرًا بات في كوخ خسيس يعسر دخولهُ * وفوق الضيق الذي كان فيهِ اصيب بوجع الأمعآء . ولمّا اشتدَّ عليهِ الوجع . عيّن احد اولادهِ (وكان كريمًا لديهِ) ليجلس بعدهُ على عرش المملكة * فشقّ ذلك على ابنهِ الاكبر . فرفع على ابيهِ لوآء العصيان . وقبض عليهِ واماتهُ جوعًا في سجن . واستولى على المملكة * فطلب هذا ملك الفرس الجديد من هرقل المهادنة . وارسل اليهِ جميع النصارى الذين كانوا مسبيّين في بلاد الفرس . ومن جملتهم زكريا بطريرك اورشليم مع عود الصليب الكريم الذي كان قد سُبي قبل اربع عشرة سنة . وكان في تلك المدّة محفوظًا في حُقّهِ . ولم يفتكر الفرس ان يكسروا ختمهُ . ولمّا راى البطريرك الختم . عرفهُ وحكم بكونهِ ايّاهُ . وأُسلم الى يدهِ في الحال الذي فيهِ كان قد أُخذ . وكلّ احد شكر الله على الحماية التي بها صان تعالى هذا الكنز الثمين * ورجع هرقل الى قسطنطينية منصورًا

مظفرًا . وكان جالسًا في مركبٍ تجرّهُ اربعة افيال . وعود الصليب المقدّس قدّامهُ . وكان ذلك افخر غنائمهِ وامجدها * وفي مبادئ الربيع رحل هرقل الى القدس . ليشكر الله على ما اولاهُ من النصر والفتح . ويردّ عود الصليب الى مكانهِ في كنيسة القيامة * واحبّ ان يتشبّه بالمسيح ربّنا . فحمل الصليب هو بنفسهِ على عاتقهِ الى ان بلغ علوّ جبل الجلجلة . وشمل المسيحيّين في ذلك اليوم فرح عظيم وابتهاج وسيم *

الفصل السابع عشر

في ظهور دين الاسلام واستيلائهم على البلاد

[بينما كانت الاقوام الشماليَّة تدخل أَفواجًا افواجًا تحت نير المسيح في بلاد المغرب . حدث عكس ذلك في بلاد المشرق . وذلك بظهور دين جديد وهو دين الإِسلام واستيلائهِ على جميع البلاد الشرقيَّة . وصاحبهُ محمّد بن عبد الله العربيّ القريشيّ[1] * وُلد محمّد في مدينة مكَّة في قسم من بلاد العرب يقال لهُ الحجاز . وكان ابوهُ وثنيًّا . وامّهُ يهوديّة * وفي حداثة سنّهِ تيتّم من ابيهِ وامّهِ . فاخذهُ ابو طالب خالهُ وربّاهُ * وسافر بهِ خالهُ الى مدينة دمشق

(١) نسبةً الى قُرَيش فرع قبيلة من قبائل العرب مشهورة بفصاحتها *

الى قسطنطينيّة . وهناك عُرضتا لعبادة المومنين . فكانوا مدّة اربعة ايّام يوقّرونها ويبكون قدّامها * وامّا عود الصليب المقدّس فاخذهُ الفرس ووضعوهُ في مدينة توريز . والى الآن تُرى أَطلال القصر الذي كان الصليب موضوعًا فيهِ بدون ما يستحقّهُ من الاعتبار والاحترام * ثمّ انّهُ لمّا انصرف الفرس من ارض اورشليم . اخذ سكّان اورشليم الذين نجوا بالهرب من سبي الفرس ومن قتل اليهود يتراجعون الى المدينة المقدّسة * وتسلّم زمام سياسة الكنيسة قسّيسٌ اسمهُ مُدَسْطس في غياب البطريرك . وهو اجتهد في رمّ المواضع المقدسة * واعانهُ في هذا العمل الصالح يوحنّا بطريرك الاسكندريّة المعروف بالرحوم . وكان اهل فلسطين قد التجأُوا الى تلك المدينة . فقبلهم يوحنّا الرحوم وتلطّف بهم وداراهم بكلّ شفقة . وانزلهم في البيمارستانات . وكان هو بنفسهِ يداوي جروحهم ويجبر قلوبهم المنكسرة ويمدّهم بالقوت * وكانت رحمتهُ غير محدودة لا يعصيها عائق * ثمَّ لمّا رجعوا الى ارضهم . سيّر اليهم مقدارًا من الدراهم والقمح والثياب . وعمل كلّ جهدهِ في تفريج كربهم *



الفصل السادس عشر

في رجوع عود الصليب المكرّم الى اورشليم (سنة ٦٢٨)

انّ هرقل ملك الروم ارسل وفدًا الى كسرى ملك الفرس
في طلب الصلح . فلم يرضَ كسرى بالصلح الاّ بشرطٍ كفريّ اشترطهُ
على هرقل . وهو ان يكفر بالمسيح ويعبد الشمس التي كانت اخصّ
آلهة المجوس. وهم اهالي مملكة الفرس الوثنيّون * فابى هرقل هذا
الشرط مغتاظًا . وجزم ان يقيم الحرب حتّى الموت من اجل كرامة
الدين وخلاص المملكة . فجهَّز عسكرًا . وسار على العدوّ. واتى الأَيد
من الله الى شعبهِ . فانّ ملك الروم كسر الفرس منذ اوّل واقعة
جرت معهم * فتشجّع عسكرهُ بذلك . ولم يزالوا يقاتلون العدوّ مدَّة
اربع سنين متوالية * وفي الآخر عزم هرقل ان يقيم على الفرس
قتالاً قاطعًا . فجمع جيشهُ وطفق يحضّضهم على الثبات والجراءة .
وبيَّن لهم جميع الشرور التي كان الفرس قد جلبوها على المملكة من
غزو المدن ونهبها وهدم المذابح ونقضها وردم الكنائس ودكّها *
وقال لهم في خُطبتهِ «انكم ترون ايّ عدو انتم مقاتلون . انّهم اقاموا
الحرب على الله نفسهِ . وقد اوقدوا بالنار هياكلهُ ومعابدهُ * فالله
يحارب معكم . فتسلّحوا بالاتّكال عليهِ . انّ الايمان يعلو على كلّ
خوف . وينتصر على المنيّة نفسها» * فلمّا سمع العسكر هذا الكلام .

اولئك الذين أُرسلت لخلاصهم * إنَّك قد علمت ما قال الحقّ نفسهُ في الانجيل: كثيرون سيقولون لي: قد صنعنا العجائب باسمك. فاقول لهم اني ما اعرفكم» * انَّ هذه وصايا القدّيس غريغوريوس من اوضح البيّنات على صدق الكرامات التي كانت تجري على يد اوغسطين المهديّ * ثمَّ انّ البابا كان كلّما كثر عدد المتنصّرين في بلاد الانكليز. يرسل اليهم منذرين جددًا. ليفلحوا الحقل الذي كان الربّ يباركهُ بنعمتهِ وينبت فيهِ ذلك الخصب العجيب *



الفصل الخامس عشر

في فتح كسرى ملك فارس مدينة اورشليم (سنة ٦١٤)

انّ كسرى ملك الفرس بجيوشهِ غار على مملكة الروم والقى فيها الخوف والرعبة * فانّ الفرس بعدما عبروا نهر الفرات. اخذوا مدينة حمص. ووصلوا الى نواحي انطاكيــة * وعارضهم شرذمةٌ من عسكر الروم. فكسروها وافنوها * ثمّ دخلوا ارض فلّسطين. وجازوا نهر الاردن. وخرّبوا كلّ معمور على سواحلهِ * امّا سكّان البلاد فهربوا. ولكنّ النسّاك لم يحبّوا ان يهجروا قلاليّهم. فاصابهم ضنك كثير من جيش الفرس. وكثير منهم قُتلوا * وتوجّه

عسكر الفرس الى مدينة القدس وهي اورشليم . فدخلوها من دون ممانعة . واحلّوا فيها البوار والدثار . وباد فيها جمٌّ غفير من القسوس والرهبان والراهبات . فانّ الفرس كان اشدّ بغضتهم لهولاء الذين هم ايمّة النصرانيّة * واما بقيّة اهل المدينة فاستأسروا منهم جمًّا غفيرًا ليجلبوهم الى بلاد الدجلة * الّا أنّ اليهود وجدوا من الفرس لطفًا لسبب انّهم كانوا يبغضون النصارى . وافرغوا بغضتهم هذه في شيء فاقوا فيهِ على الفرس الوثنيّين . وذلك انّهم اشتروا من الفرس كلّ من امكنهم من المسيحيّين الماسورين ليميتوهم على هواهم . وقيل انّ اليهود قتلوا ثمانين الفًا من النصارى* واما زكريّا اسقف المدينة فأُخذ الى السبي * ونُهبت كنائس اورشليم والقبر المقدّس وأُحرقت بالنار . وأُخذت من المعابد كلّ الآنية والامتعة القدسيّة التي فيها * واما ما اوجب على المسيحيّين اشدّ الحزن والاسف كان أنّ الفرس في جملة ما نهبوهُ من اورشليم اخذوا عود الصليب الشريف الذي يعلو ثمنهُ عندهم على كلّ ثمن في الدنيا كلّها . واخذوهُ بالهيئة التي فيها وجدوهُ . اي موضوعًا في حقٍّ مختوم بمهر الاسقف * الّا انّ الاسفنجة التي سُقي بها يسوع وهو معلّق على الصليب نجت من النهب . وكذلك الحربة التي بها طُعن جنبهُ . وذلك انّ احد اعوان ملك الروم فتدى هاتين الذخيرتين من يد احد الفرس بثمن جسيم . واوصلهما

وكان اسمهُ أَثَلبَرْت * فاخذ المنذرون بالتوجّه الى الملك بالنظام مصطفين اثنين اثنين . وقدّامهم صليبٌ من فضة ومعهُ صورة المخلّص . وهم يصلّون ويطلبون الى الله ان يمنّ بالخلاص على اولئك الشعوب الذين من سببهم اتوا من بلاد بعيدة * فاجلسهم الملك ليسمع كلامهم على راحتهِ * فقال لهُ اوغسطين « نبشّرك باطيب البشائر . وهي أَنَّ الاله الذي ارسلنا يهب لك بعد هذه الحيوة مملكةً المجد واثبت الى الغاية من مملكة الانكليز » * قال الملك « نِعمْ البشارة هذه . ولكنّي لمّا كان خبركم جديدًا . لستُ استطيع ان اهجر الشيء الذي كلّ هذا الزمان قد تمسّكتُ بهِ مع الامّة الانكليزيّة كلّها . غير أَنّي لا احجر عنكم ان تجذبوا من استطعتم الى دينكم . واذ كنتم قد قدمتم من بعيد لتاتونا بما تظنّونهُ الاحسن . اريد ان يجرى لكم رزق معاشكم » * فباشر النذرآء رسالتهم . وشرعوا ينادون بالانجيل . وكانوا بسيرتهم الصالحة العجيبة يحاكون سيرة الرسل * فلمّا راى اولئك الوثنيّون طهارة اعمالهم وقناعتهم وعدم حرصهم وكرامة العجائب التي كان الله يجريها على ايديهم . تحرّك كثيرٌ منهم وكفروا باوثانهم وطلبوا الاعتماذ * بل انَّ الملك نفسهُ احبّ الدين المسيحيّ لما راى من اولئك المنذرين من الاعمال الباهرة والفضائل الفاخرة . وتبعهُ جمٌّ غفير من رعيّتهِ * فراى القديس اوغسطين من الواجب ان يرسم رسمًا ثابتًا لكنيسة الانكليز التي كانت مزمعة

ان تنشأ. فانطلق الى بلاد فرنسا وصار اسقفاً بيد احد اساقفتها كان نائباً عن الكرسيّ الرسليّ الروماني في تلك البلاد * ثمَّ عاد الى بلاد الانكليز. وتناول شانهُ الاوّل. وهناك بارك الله على أتعابهِ وكرازتهِ. وايّدها بآيات ربّانيّة وكرامات سماويّة * وفي عيد الميلاد عمّذ في مدينة كَنْتُرْبرِي اكثر من الفَي نفس * وبلغ مدينة رومية خبر مناقب القدّيس اوغسطين وما اجراهُ الله على يدهِ في بلاد الانكليز. فكتب غريغوريوس البابا اليهِ واوصاهُ وصايا مفيدة. وذكّرهُ ان لا ينسى الخوف في وسط الكرامات التي كان الله يجود بها عليهِ * فانهُ بعد ما هنّأهُ على تنصّر الانكليز. قال في رسالتهِ «انَّ فرحك يجب ان يكون ممزوجاً بخوفٍ. فانّي اعلم انَّ الله صنع على يديك اموراً عظيمة في وسط تلك الامّة * فلنتذكّر اذاً انّهُ لمّا قال الرسل للمسيح: يا ربّ الشياطين ايضاً تخضع لنا باسمك. قال لهم: لا تفرحوا بذلك. بل افرحوا أَنَّ اسماءكم مكتوبة في السموات * فاذا رايت الله سبحانهُ يؤيّد عملك من خارج هكذا. يجب عليك يا اخي ان تدين نفسك من باطنٍ دينونةً صارمة وان تعرف من انت * فان كنت تذكر انّك اسأتَ الى الله بالكلام او بالاعمال. فاجعل ذنوبك هذه دائماً حاضرةً قدّام عينيك. لكي تقهر ما يمكن أَنْ يخالج قلبك من الإعجاب بنفسك. واعتبر أَنَّ هذه موهبة صُنْع الاعاجيب لم تُعطَها من سبب نفسك بل من سبب

ماسكون ايمان المجامع الاربعة . وهكذا جعلوا المجمع الخلقيدوني مساويًا في المرتبة للثلاثة الاخر * وحكموا أَنَّهُ يجوز إبطال الكتب وتحريمها من غير تحريم مصنّفيها * وانَّ بيجيليوس البابا تمنّع في الاوّل . ولكن اخيرًا ايّد هذا القضآء . فقبلهُ جميع الكنائس شرقًا وغربًا . وهكذا جُعل هذا المجمع خامسًا بين المجامع المسكونيّة * وتاملّ في ما اتّضح من عمل هذا المجمع . وهو انَّ الكنيسة لها سلطان ان تحرم الكتب وتحكم في معانيها وتوجب على المومنين ان يمتثلوا اوامرها في ذلك * وهذا السلطان ضروريّ للبيعة لإمساك الايمان . فانَّ من اقوى الوسائط لحفظ وديعة الحقائق التي تعلّمها البيعة هو ان تبيّن للمومنين ما هي الينابيع الطاهرة التي منها يستقون مآء تلك الحقائق . وما هي الابآر المنتنة الحاوية سمّ الطغيان ليتحذّروا منها * ولمّا كانت الكنيسة قد فوَّض اليها مشيدها ان تعلّم التعليم الصحيح . حازت ايضًا مع ذلك لامحالة سلطانًا ان تحذّر اولادها من التعليم الناسد وتحرّم عليهم قرآءة الكتب الحاوية هذا التعليم التي لا تبعد ان تفسد قلوبهم *



الفصل الرابع عشر

في تنصّر الانكليز (سنة ٥٩٦)

كان ايمان المسيح قد أُنذر بهِ في بلاد الانكليز منذ القرن الثاني . ولكنّهُ بعد ذلك نُفي منها منذ استولى على تلك البلاد جيلٌ من البرابرة اسمهم سَكْسون وكانوا عبّاد اصنام . وقرضوا منها السكّان الاوّلين * وانَّ البابا غريغوريوس العظيم اذ كان بعد شمّاسًا افتكر في جلب اهل تلك البلاد الى الدين النصراني • وذلك انّهُ بينما هو ذات يوم يمشي في سوق مدينة رومية . راى عبيدًا من الانكليز كانوا معروضين هناك للبيع . فتعجّب من رشاقة قدّهم . وسأَل بائعهم هل اولئك العبيد نصارى . فقال لهُ : لا بل هم وثنيون * فقال غريغوريوس « اسفًا على امَّة حسنة الخَلق كهذه ان تكون تحت حوزة الشيطان » * وعزم ان يتلمذ اولئك الشعوب . الّا أَنّهُ مُنع . ولكنّهُ لم يطرح ذلك الفكر من بالهِ * ولمّا جلس على كرسيّ بطرس الرسول . كان اوّل امرٍ اهتمَّ بهِ ان يقضي هذه المصلحة التي من زمن كانت في قلبهِ * فارسل الى بلاد الانكليز اربعين نذيرًا . وجعل عليهم رئيسًا اوغسطين الذي كان راعي دير مار اندراوس * فتوجّه اولئك البشيرون نحو تلك البلاد بشجاعة ونشاط • ولمّا بلغوا الى مقصدهم . اراد الملك ان يواجههم

وصحفهم ووصّلوها الينا سالمةً من الدثار *

الفصل الثالث عشر

في المجمع الخامس المسكوني (سنة ٥٥٣) وفي قضية الصحف الثلاث

بعد ما مات مرقيان الملك انتعش في بلاد مصر حزب اوطاخي او ديوسقورس . وارتكبوا شروراً كثيرة . ولم يمكن ردعهم لكثرتهم وباسهم * وكان جُلّ مرادهم ان يقلّلوا قوّة المجمع الخلقيدوني واعتبارهُ في عقول الناس حتّى الذين كانوا قد قبلوهُ * ولنوال ذلك التجأوا الى طريقة ظنّوا ان يقضوا بها اربًا . وذلك بإنشاء مسألة عُرفت بمسألة الصحف الثلاث * وذلك أنّهُ في زمان نسطور ظهر ثلاثة كتب توافق معتقد ذلك الملحد . وهي كتاب ثاودوريط اسقف قورس ردًّا على مقالات مار قورلّس . ورسالة إيهيبا اسقف الرها الى ماري . ومؤلّفات ثاودورس اسقف مصيصة * انّ هذه الصحف الثلاث كانت تحوي بالحقيقة اشياء ذميمة . الّا انّ مولّفيها ظهروا انّهم نقضوها بما قرّروهُ من الايمان في المجمع الخلقيدوني * غير انّ آباء ذلك المجمع لم يكونوا مجتمعين من سبب هذه الكتب . فلذلك لم يفحصوها . واكتفوا بجعل أصحابها ان يحرموا نسطور * امّا ثاودوريط وإيهيبا فأدّيا ذلك . وامّا

ثاودورس فكان قد قضى نحبهُ • وعند ما صرّح ذانك الاثنان بايمانهما. قبلوهما في شخصهما. ولكن لم يحكموا في مؤلّفاتهما * ولكنّ اعداءَ المجمع الخلقيدوني اذ كانوا يلتمسون حجّة على المجمع ليوقعوهُ في الملامة . احتجّوا عليهِ بانّهُ صمت عن الصحف الثلاث التي كلامنا عنها وقبل اصحابها بين الارثدكسيّين * فجعلوا يقلقون ويلتمسون تحريم الصحف الثلاث بكلّ جهدهم. واما لوا يسطنيان الملك الى رايهم * واذ كان هذا الملك مادًّا يدهُ الى الامور الدينيّة فوق حقوق سلطنتهِ. ابرز امرًا فيهِ ابطل الصحف الثلاث * فخاف الكاثليكيّون انّ هذا تحريم الصحف الثلاث يكون مخلًّا بحقّ المجمع الخلقيدونيّ ويكون حجّةً للتنديد بهِ. ولو انّهم لم يكونوا يقبلون التعاليم الموجودة في تلك الصحف. بل كانوا يقرّون أنَّ فيها شوائب * وحدث من جرى ذلك شجس كبير بين النصارى * امّا البابا بيجيليوس فرفض في الاوّل الامر الذي ابرزهُ يسطنيان في شان الصحف الثلاث. ولكن بعد ذلك رغبةً في السلام ابطل تلك الصحف بشرطٍ مصرَّح. وهو ان لا يُشان بذلك المجمع الخلقيدوني • وعند ذلك قرّ الراي ان يُحشَد مجمع عامّ في مدينة قسطنطينيّة لقطع النزاع * فاجتمع المجمع . وفحصوا تلك الصحف الثلاث التي كانت سبب تلك المجادلات الشديدة . فابطلوها. ولكن لم يخلّوا بكرامة المجمع الخلقيدوني * لا بل انّ آباءَ المجمع صرّحوا بانّهم

وبعدهُ خلفاؤهُ حذَوا حذوهُ الى انقضاء اثني عشر قرنًا . ولذلك استحقّوا ان يُنعَتوا دون سائر ملوك العالم بنعتٍ جليل وهو ان يسمَّوا الملوك المسيحيّين على سبيل الفخر *

الفصل الثاني عشر

في القديس بندكتس (سنة ٤٨٠)

انَّ الله اقام هذا القدّيس العظيم بَنَدِكْتس لكي يحيي رسم السيرة الرهبانيَّة في بلاد المغرب وينعشها الى رونق جديد * كان بندكتس مسقط راسهِ في بلدة من ايطاليا . وأُرسل في صبائهِ الى رومية ليدرس العلوم * ولمّا راى نفسهُ في خطر الفساد من مخالطة شباب المدارس . اختلى في مغارة ضيّقة في نواحي رومية . واقام فيها ثلاث سنين . ولم يكن احد يعرف بهِ سوى راهب طاهر اسمهُ رومانس كان ياتيهِ كلّ يوم بخبزٍ لقُوتهِ * ولكنَّ قداستهُ لم تتركهُ مستخفيًا زمانًا طويلاً . فانَّ صيتهُ شاع . وشرعت الزهّاد تتقاطر اليهِ حتّى انقلب مختلاهُ الى ارض عامرة . وكانوا يلجّون بهِ متوسّلين ان يقبلهم ويجعلهم تلاميذ لهُ . فاضطرَّ ان يجيب الى سؤالهم . وصار قائدًا لهم وقدوة في طريق تقوى الله * وبنى اثني عشر ديرًا . ووضع في كلّ منها اثني عشر راهبًا ورئيسًا . وابقى عندهُ من كان محتاجًا الى

ارشادهِ * وكان الشبّان يتقاطرون اليهِ من كلّ ناحية . والوالدون من بيوت الاشراف يسلّمونهُ اولادهم ليربيهم *

وافضل ما اشتهر بهِ بندكتس كان دير جبل كسّين في مملكة نابلي * ولمّا انقضت عمارة الدير . واتى بندكتس اليهِ . جاءهُ توتيلا ملك الغوثيّين الذي كان مستوليًا على تلك البلاد . وكان قد سمع بصيت بندكتس . ولمّا واجههُ . جثا راكعًا قدّام رجليهِ . ولم ينهض حتّى امرهُ بندكتس * فوعظهُ بندكتس ونصحهُ . وتنبّأ لهُ عمّا اصابهُ في حياتهِ * وارسل بندكتس كثيرًا من تلاميذهِ الى بلاد فرنسا ليشيّدوا فيها اديرة * وقبل ان ياتيهُ القضاء . اخبر بموتهِ سالفًا . فلمّا دنا يوم رحيلهِ . طلب فحملوهُ الى البيعة . وهناك تناول جسد ودم ربّنا يسوع المسيح . ثمَّ رفع يديهِ نحو السماء وسلّم روحهُ وهو في سنة ثلاث وستّين من العمر * وخلّف بندكتس لتلاميذهِ قوانين . مدحها البابا غريغوريوس القدّيس العظيم . وهي تحوي علمًا ساميًا وحكمةً فائقةً سماويّة داعية الى سيرة الكمال المسيحيّ باجمل الطرق . حتّى انَّ جميع رهبنات المغرب اتّخذت هذه القوانين قاعدةً لنفسها * وجلّ دير جبل كسّين بالمحاسن والفضائل المتنوّعة التي ظهرت فيهِ في كلّ عصر . ورهبانهُ لم يشتهروا فقط بقداسة السيرة وعجيب الكرامات . بل اولوا العالم فضلاً عظيمًا بما خلّفوهُ للأجيال الآتية من أخبار أزمانهم . وحفظوا آثار الاوّلين وعلومهم

تزوَّج بفتاة مسيحيّة رائقة بالجمال. اسمها كلوتلده * وكانت هذه المراة
الصالحة تفاتح زوجها كثيرًا في امور الديانة المسيحيّة. وتبيّن له
بطلان عبادة الاوثان. ولكنَّ الملك لم يذعن لقولها * ووُلد لهما
غلام. فنالت كلوتلده ان تعمّذهُ عند النصارى. ولكن لمّا راى ابوه
انهُ بعد ايَّام قليلة مات. اتّخذ ذلك من فعل غضب الآلهة
الكاذبة. واغتاظ على زوجتهِ * غير انَّ كلوتلده لم تفشل. ولما
ولدت ولدًا ثانيًا. عمّذتهُ كالاوّل. ثمَّ مرض واشرف على الموت.
حتى صار ابوهُ ينسب ذلك ايضًا الى نقمة آلهتهِ الباطلة * فشرعت
كلوتلده تصلّي صلوة حارَّة. ولم تكلّ حتّى تعافى ابنها * وكان
كلوبيس محبوبًا عند رعيتهِ لحسن اخلاقهِ وكرامة شيمهِ. فكانوا
يصلّون من اجلهِ في كلّ مكان لكي يليّن الله قلبهُ ويدعوهُ الى
اقتبال الديانة المسيحيّة * ولم يخِب املهم. فانَّ الله سبحانهُ اجرى
آيةً سماويَّة بها استنار عقل كلوبيس كما كان قد صنع مع قسطنطين
الملك الكبير * وذلك انَّ كلوبيس في حربٍ جرت لهُ مع قبائل
جرمانيا استغاث باله النصارى. فنصرهُ الله على اعدائهِ. وايقن
كلوبيس انَّ ذلك كان من حول الاه زوجتهِ * فاحبَّ الديانة
المسيحيّة. وتعلّم اصولها * فلمّا سمعت كلوتلده الملكة بانتصار زوجها
فرحت فرحًا عظيمًا. وخرجت للقائهِ الى مسافة طويلة. وهنّأتهُ بظفره
واكثر من ذلك باستعدادهِ للتنصّر * ثمَّ انَّ القدّيس رَميج الاسقف

د كلوبيس الملك تماماً في معرفة الديانة المسيحيّة * فجمع كلوبيس
اكرهُ . وعرض عليهم ان يتركوا عبادة الآلهة الكاذبة ويتنصّروا
ة . فاجابوا الى ذلك * وقرَّ الراي مع القدّيس رميج ان يعتمد
وبيس ليلة عيد الميلاد • فلمّا حان اليوم . زُيّنت الكنيسة وبيت
وذيّة بالتحف النفائس . وأُوقدت المصابيح الكثيرة المعطّرة
ر الروائح * وأُخذ الملك ومعهُ جندهُ الى بيت المعموذيّة
نتفال ورهج . ماشياً قدّامهم الصليب والانجيل مع تراتيل وتسابيح *
ن مار رميج ماسكاً الملك بيمينهِ . وخلفهما الملكة زوجتهُ مع اختيهِ .
صفوف عسكرهِ . وكانوا اكثر من ثلاثة آلاف . اكثرهم من
اط الجيش * فلمّا بلغوا الى بيت المعموذيَّة . طلب الملك العماد .
ل لهُ رميج « يا ايُّها الملك احنِ راسك تحت نير الربّ . اعبد
ن ما احرقت . واحرق ما عبدت » * ثمَّ قرَّر ايمانهُ . فعمّدهُ رميج
حهُ بالميرون المقدَّس * والفرنساويّون الثلاثة الآف عمّذهم
ساقفة والقسوس الحاضرون . وعُمّذت ايضاً من اختيْ كلوبيس
مدة . والاخرى كانت معمّذة . الاَّ انها كانت قد هرطقت فحلّوها
الهرطقة بدهن الميرون * وفرح العالم المسيحيّ كلّهُ بتنصّر
وبيس ملك الفرنساويّين مع قومهِ . وفرح اكثر من كلّ احدٍ
طاس البابا . لانّهُ رجا ان يجد سنداً للبيعة في كلوبيس *
بت آمالهُ . لانَّ كلوبيس احبّ الكنيسة . وحامى عنها الى موتهِ .

والاورشليمية. حتى انّ الكرسي الانطاكي نفسهُ لم يكن لهم الاّ بالاسم فقط * واعلم انّ اليعاقبة ولو انهم في انفصالهم من الكنيسة الكاثليكيّة حفظوا عندهم جميع تقاليد هذه الكنيسة وتعاليمها الاّ الباب المختصّ بالطبيعتين الذي من سببهِ انفصلوا وابوابًا أُخر زهيدة. الاّ انهم قد ادخلوا في قوانين الكنيسة القديمة تغييرات معتبرة. من ذلك اختصاص بطريركهم لنفسهِ انتخاب جميع المطارين والاساقفة ورسامتهم وامر عزلهم ونصبهم. ومداخلتهُ في تدبير الكنائس الاخرى دون حدود السلطنة البطريركيّة. وغير ذلك *

امّا الطقس الذي يستعملهُ اليعاقبة السريان فهو الذي كان موجودًا في الكنيسة الانطاكيّة يوم انفصالهم. الاّ انهم جعلوا فيهِ تغييرات شتّى. اتّخذوها في الغالب من الكاثليكيّين اليونان * واشهر الذين تعبوا في ترتيب طقس اليعاقبة سويرا البطريرك وبولا اسقف الرها وفيلكسينس المنبجيّ وغيرهم. واشهر كلّ هولآء يعقوب الرهاوي الذي توفّي في سنة ٧١٠ * وناهيك انّ اليعاقبة قد انتفعوا كثيرًا من نسمة الحيوة التي اتّخذوها من الكنيسة الكاثليكيّة حين انفصالهم. فانهم بهذه النسمة قدروا أَنْ يعيشوا احقابًا وقرونًا مضيئين بانوار الفحول الكثيرين الذين اجادوا وبرعوا في كلّ فنٍّ من فنون العلوم الدينيّة والدنيويّة وزيّنوا البلاد الشرقيّة بمصنّفاتهم التي اودعوا فيها ذخائر الاوّلين مع ما

بطوهُ من هذه الذخائر من الدرر النفيسة] *

الفصل الحادي عشر

في تنصّر الافرنج او الفرنساويّين سنة (٤٩٢)

[الافرنج[1] او الفِرَنس اسم امّةٍ او جيل قدموا من البلاد
ليَّة الى الجهات الجنوبيّة. واستوطنوا في البلاد التي كانت
غاليا التي سُمِّيت بعد ذلك فرنسا على اسمهم. وكانوا في
ل متوحّشين كسائر الاقوام الشماليّة. ثمَّ تمدّنوا قليلاً قليلاً.
جوا لغتهم مع اللغة اللاتينيّة المتملّكة في تلك البلاد. فنشأ من
المزج لغةٌ جديدةٌ تغيّرت من جيل الى جيل حتّى غدت في
ل الموجودة فيها الآن اللغة المسمّاة الفرنساويّة] * انّهُ لمّا دنا
ن الذي حتمهُ الله لسقوط مملكة الروم الغربيّة. لم يترك سبحانهُ
غاليا التي كانت النصرانيّة مزهرةً فيها ان تقع بيد حكّام
ن. فدعا الى الدين المسيحيّ كُلوبيس ملك الفِرَنس * وكان
س او الفرنج او الفرنساويّون قد خرجوا من بلاد جرمانيا
ولوا على بلاد غاليا واستقرّوا فيها * وملكهم كلوبيس المذكور

[1] انّ اسم الافرنج هو اسم الفرنساويّين فقط في الاصل. الّا انهُ بعد
عمّ جميع اهل اوروبا في لغة العرب *

اقرب الى تعليم اوطاخي . فانّهم يزعمون انّ جسد المسيح في ذاتهِ
كان غير فاسد وغير متألّم * وهكذا في القرن الخامس ومبادئ
السادس وُجد الارمن قاطبةً والقبط الاّ القليلين واكثر اهل
سورية ممسوكين بضلال المنوفسيتيّة ومفصولين من شركة
الكنيسة الكاثليكيّة * الاّ انّهُ لم يتألّف من كلّ هؤلآء الأقوام
شيعةٌ واحدة . فانّ الارمن اذ كان لهم الى حين انشقاقهم مطران
كبير متّصف بصفة جاثليق . جعلوا من بعد انشقاقهم هذا
الجاثليق بطريركًا عليهم . وكان مستقرّهُ في مدينة قيلقيّة او سيس *
وهم كانوا مستبدّين بامورهم لا يراجعون احدًا . بل طالما جرى
بينهم وبين اليعاقبة السريان محاورات ومجادلات ومخاصمات افضت
احيانًا قليلة الى صلح بين الشيعتين لم يدُم زمانًا * وامّا بين
اليعاقبة السريان والقبط فكان موافقة اكثر . لانّهم لم يختلفوا في
شيء من قِبَل المعتقد . لا بل كان لهم عادة ان يخابروا بعضهم
بعضًا في اوقات معلومة ولاسيّما يوم جلوس بطريرك جديد *
امّا اليعاقبة السريان فمنذ مات سويرا اقاموا لشيعتهم سلسلة
بطاركة غير منقطعة سمّوها باسم انطاكية . ولو انهُ لم يجلس منهم
احدٌ في مدينة انطاكية . بل كانوا غالب الزمان ينتقلون من
كنيسة الى كنيسة ومن دير الى دير . ثمّ منذ مبادئ القرن
الحادي عشر صاروا يسكنون مدينة امد او هي ديار بكر .

ـل مقرّهم الى دير مار حنانيا المكنّى بدير زعفران بقرب
ـدين *

واعلم انّ اليعاقبة في انفصالهم من الكنيسة الكاثليكيّة لابدّ
انّهم احسّوا في باطنهم على انهم قد خرجوا من مركز الحقّ
ـادهم عن الكنيسة الرومانيّة كرسيّ بطرس الرسول الذي جعلهُ
ـيح اساساً لبيعتهِ . وكنيستهُ الرومانية اتُّخذت في كلّ زمان
ـدة الايمان المستقيم . وحُسب الذي يخالف تعليمها مخالفاً لايمان
ـرس نفسهِ . وكتبهم نفسها التي يتداولونها الى اليوم تحوي شهادات
ـحة على انّ جميع اساقفة العالم وجماعات المسيحيّين قاطبةً هم
ـزمون ان يخضعوا لاوامر الاحبار الرومانيّين في ما يخصّ
ـين والسياسة * وناهيك انّ المنوفسيتيّين لم يجسروا ان يجعلوا المجمع
ـفسسي الثاني المسمَّى اللصوصي بمنزلة مجمع مسكوني . مع انّهُ بحسب
ـمهم كان فيهِ كلّ ما يقتضي ليكون مسكونيّاً . وما سبب ذلك
انّ الكرسيّ الروماني لم يؤيّد هذا المجمع . ولذلك فاليعاقبة الى
ـن ما يعدّون الاَّ ثلاثة مجامع مسكونيّة * وهم بعلمهم ولسان
ـلهم يفهمون انّ كنيستهم ناقصة تعوزها العلامة العظيمة المختصَّة
ـيسة المسيح وهي كونها جامعة . فانّ اليعاقبة من يوم انفصالهم
الآن لم يمكنهم ان يعقدوا مجمعاً مسكونيّاً . ولا قدروا ان يجلّسوا
شيعتهم اساقفة على الكنائس الاولى الرسليّة ولاسيّما الرومانيّة

ومن ذلك يتّضح انّ سمعان في حياتهِ لم يوافق اعداء المجمع الخلقيدوني كما ذكرنا] *

الفصل العاشر

في انشقاق اليعاقبة من الكنيسة الكاثليكيّة

[انّ المنوفسيتيّين لم ينشقّوا انشقاقاً تامّاً عن جسم الكنيسة الكاثليكيّة الاّ حينما صاروا شيعةً على حدة قائمةً بنفسها مفصولة عن سائر الجماعات النصرانيّة * وجرى ذلك تماماً في سورية في مبادئ القرن السادس اذ جلس سَوِيرا او سويرس البطريرك الشهير على كرسيّ انطاكية * فهذا مع حذاقة ذهنهِ وطلاقة لسانهِ وتفنّنهِ في فتق الحيل قرن بغضة شديدة للمجمع الخلقيدوني ولتباعهِ وازعج الكاثليكيّين كثيراً حتّى حرمهُ سُمَّكوس البابا فهرب مستخفياً من كرسيهِ سنة ٥١٨. ونُصِب مكانهُ بولس الارثذكسي * وامّا المنوفسيتيّون فلم يقبلوا هذا البطريرك الارثذكسي. ولم يزالوا يحسبون سويرا بطريركاً شرعيًا على انطاكية حتى قضى نحبهُ في التغرّب فنصبوا خلفهُ سرجيوس بطريركاً لشيعتهم. وكان في ذلك الزمان افرام الكاثليكي جالساً شرعاً على ذلك الكرسي * وبهذا العمل الغريب الذي لم يسبق مثلهُ تمّ انشقاق المنوفسيتيّين السريان من

يسة الكاثليكيّة * وسُمّيت هذه الشيعة يعقوبيّة نسبةً الى يعقوب
ادعي اسقف الرها الذي منذ زمان سويرا المذكور اجتهد ان
ت السريان الغربيّين والمصريّين على معتقد الطبيعة الواحدة
ي عصيان الكنيسة الكاثليكيّة كما كان برصوم النصيبيني قد
ع في بلاد السريان الشرقيّة لبثّ بدعة نسطور. وبذل يعقوب
هذا الامر ما لا يمكن وصفهُ من الهمّة والتعب والتفنّن والسطوة
أس. اذ كان يطوف البلاد متّقدًا بحرارةٍ جزيلة ويغري
اقفة والاقليرس والجماعات باتّباع تعليمهِ المنوفسيتي. وسام
قفة لكنائس شتّى من دون ان يكون لهُ سلطان شرعيّ *
مذ ليعقوب البرادعي اهل مصر ايضًا كلّهم الاّ القليلين. وسُمّوا
يضًا يعاقبة على اسمهِ. ولو انّهم انشقّوا من وحدة الكنيسة
اقًا تامًّا قبل السريان بكثير. وهم يُسمَّون ايضًا قبطًا بلفظة
ّة معناها مصريّون * وتبع القبطَ في الضلالة اليعقوبيّة الحبشُ
ن من زمان القدّيس اثناسيوس كانوا قد تنصّروا قليلاً قليلاً
اساقفة الاسكندرية * ومن الاقوام الذين في القرن الخامس
كوا بضلال المنوفسيتيّة كانت امّة الارمن الذين في زمان
طنطين الملك الكبير كانوا قد تنصّروا على يد القدّيس
غوريوس المعروف بالمنوِر. وصاروا حينئذٍ من الرافضين المجمع
ع على يد سموئيل تلميذ برصوم. بل كان معتقدهم بتجسّد المسيح

ارسلوها اليهِ ان ينزل من العمود او يخفّف شيئًا من نقشفهِ ويتطبّب. فلم يجِب الى سؤَالهم * وكعادتهِ حبس نفسهُ مدَّة صوم الاربعين في سياج عملهُ على العمود. وقبل ان تنقضي الايّام شفاهُ الله من بليّتهِ وعاهاتهِ * وفي ايّام الفصح اتى دُمْنوس بطريرك انطاكية ورقي العمود وناولهُ القربان المقدَّس بيدهِ * وكانت الناس تتقاطر اليهِ من كلّ ناحية للنظر اليهِ وهو على عمودهِ بتلك الهيئة. ولاستماع مواعظهِ وارشاداتهِ. ولطلب المشاور والافادات الروحيَّة والجسديّة منهُ * وهو مع ما كان فيهِ من الاهتمام بتعذيب جسدهِ لم يكن ينسى الفقرآء والمساكين والمظلومين. فيصلّي من اجلهم ويوصي الحكّام والاغنيآء فيهم. ويلتمس من أَرباب الامر ان يعاملوهم بالرفق والرحمة * والتجأَ اليهِ من الجملة اهل جبل لبنان وطلبوا منهُ الغوث على آفة عظيمة كانوا ممنوّين بها. وذلك انَّ شرذمةً من الوحوش الضارية كانت تسرح في تلك الجبال. وتفترس الصبيان وتفسد الحقول وتجلب الخراب في كلّ مكان * وكان اولئك الاقوام وثنيّين يعبدون الأَصنام. فشرع سمعان يعظ الذين قصدوهُ منهم ويحثّهم على ترك اضاليلهم والتمسّك بعبادة الله الواحد الحقّ. ووعدهم بانّهم ان فعلوا ذلك كان لهُ املٌ ان يخلصوا من تلك البليّة * فلمّا رجع اولئك الى جبالهم. راوا انَّ الوحوش انقطعت كما طلبوا وكما وعدهم مار سمعان * فشمل اولئك الأَقوام فرحٌ

ندهاش لا يوصفان. وتعجّبوا من كرامة مار سمعان ومن قوّة
ديانة المسيحيّة. واحبّوا ان يتنصّروا كما طلب منهم. واقبلوا
ى دين المسيح افواجًا افواجًا وتعمّذوا. وصار من ذلك اليوم سكّان
ك الجبال مسيحيّين * وكثير من بلاد العرب التي كانت بيد
لوك الفرس اذ سمعوا بكرامات مار سمعان. تنصّروا * وشاع اسمهُ
ي كلّ مكان وتعظّم شانهُ. حتّى انَّ ثاودوسيوس الملك كتب اليهِ
لتمسًا ان يقنع يوحنّا بطريرك انطاكية بترك التحزّب لنسطور *
وكذلك لاون الملك الذي جلس بعد مرقيان لمّا اراد ان
كتب الى الاساقفة في شان المجمع الخلقيدوني ليعرف الذين يقبلونهُ
ن الذين يرفضونهُ. كتب من الجملة الى مار سمعان. فكتب
معان في حقّ المجمع رسالتين احداهما الى لاون الملك والاخرى
لى باسيليوس اسقف انطاكية * فلقد غلط اذًا اولئك المخبرون
لذين رووا انَّ سمعان العموديّ رفض المجمع الخلقيدونيّ وتبع
اي اهل الطبيعة الواحدة * ولمّا راى سمعان يوم قضائهِ قريبًا.
ستدعى تلاميذهُ وكثيرًا من القسوس والاقليرس والشعب
وعظهم وهم مجتمعون حول عمودهِ. واوصاهم وصيّتهُ الاخيرة *
كانت وفاتهُ في ثاني يوم من شهر ايلول سنة ٤٥٩. ودُفن برهج
ظيم واحتفال وسيم في كنيسة انطاكية الكبرى التي بناها
سطنطين الملك. ولم يكن قد دُفن فيها احد قبل ذلك اليوم *

واودع إرشادات ومواعظ نفيسة جليلة في إتقان السيرة المسيحيّة وتجنّب الرذائل. وخلّف للرهبان والمتعبّدين خاصّةً فوائد عظيمة. وهو كان رئيس دير رائق بالرهبان * ولمّا كان السريان اليعاقبة قد تداولوا مولّفات مار اسحاق خاصّةً . حذفوا منها كلّ ما رأوهُ فيها مخالفًا لمعتقدهم. ولذلك كانت النسخ المشاعة في ايدي العامّة من ميامر مار اسحاق خاليةً من الأقوال المقرّرة الطبيعتين في المسيح * وتوفّي مار اسحاق في سنة ٤٦٠ *

ومن الذين اشتهروا في بلاد السريان في ذلك الزمان كان سمعان العموديّ * وذلك انّهُ لمّا كانت السيرة الرهبانيّة قد بلغت اوجها في ذلك الجيل. وصار الرهبان في كلّ البلاد النصرانيّة ولاسيّما سوريّة وفلسطين ومصر ياتون بالمدهشات والاعاجيب في سيرة الكمال المسيحيّ والتنسّك الفائق كلّ وصف وفي صنع الآيات والكرامات. شرع محبّوا هذه السيرة يتفنّنون في اقتراح الطرق الجديدة للتوصّل الى اعلى درجة من الكمال في الفضائل * ومن هذا القبيل استنباط مار سمعان الذي كلامنا عنهُ السيرة العموديّة التي اشتهر بها * كان سمعان في الاصل من قرية صيص في بلدة من بلاد العرب الشماليّة اسمها عند اليونان ناخُفْلة. وكان في صبائهِ يرعى غنماً لابيهِ * ثمّ لمّا مات ابوهُ وخلّف لهُ مالاً كثيرًا . قسّمهُ على الفقراء وعلى دير رهبان اسمهُ تَلْعَدَّة في

احي انطاكية * ثمَّ دخل ذلك الدير وترهَّب فيهِ . ولبس اسكيم
هبنة . وانصبَّ بكلّ قوّتهِ وبكلّ نشاطهِ للسيرة الرهبانيّة . وفاق
التنسّك والتقشّف والعمل بالفضائل السامية على سائر الرهبان .
ى انّهُ قضى مرَّةً صوم الاربعين كلّهُ في احدى مغاير الدير من
ر ان يواجه احدًا * ولمّا راى رئيس الدير انَّ سيرتهُ شديدة
دًا وانَّ عوائدهُ القشفيّة لا توافق نظام الدير . وهو كان يحوي
وماية وعشرين راهبًا . اخرجهُ من الدير واطلقهُ الى حال
بيلهِ * فتوجَّه سمعان وجهتهُ . حتّى انتهى الى دير في قرية تَلَنِّسَآء في
احي مدينة انطاكية . وصنع لهُ هناك كوخًا . وسكنهُ زمانًا باشدّ
يكون من السيرة القشفيّة * ثمَّ تركهُ وتبدَّى . وسكن زمانًا تحت
سماء ليلاً ونهارًا * ثمَّ اذ كان هذا الرجل العجيب مشتاقًا ان
ذّب جسدهُ اشدّ ما يمكنهُ عذابًا دائمًا غير منقطع . لم يكتفِ
لك السيرة . بل اقام عمودًا مرتفعًا نحو اربعين ذراعًا عرضهُ
راع واحدة . وسكنهُ ثلاثين سنــةً منتصبًا على الدوام ورجلاهُ
عمومتان دائمًا حتى تمزّق لحمهُ وتهرّى . ولم يكن يبالي بقيظ الشمس
الصيف ولا بشدَّة برد الشتآء وصرّهِ وأمطارهِ * واصابهُ من
دَّة تقشّفهِ هذا عاهة في رجلهِ . واذ لم يبالِ بها . قرّحت رجلهُ
سالت مادَّة كريهة . وبقي على هذا الحال بين الموت والحيوة نحو
عة اشهر * والتمس منهُ الاساقفة وثاودوسيوس الملك بكتب

والافسسيّ انّ فيهِ اقنوماً واحداً . فاين المخالفة * وثانياً انّ المجمع الافسسي ما لهُ حقّ ان يُقبَل ويُطاع اكثر من المجمع الخلقيدوني فانّ كليهما كانا مسكونيّين . وكليهما حضرهما الكرسيّ الرسولي الروماني بواسطة نوّابهِ وايّد حدودهما . وقبلهما العالم كلّهُ * فكما يخطئ النساطرة خطيّةً جسيمة برفضهم المجمع الافسسي . كذلك واكثر من ذلك تخطئون انتم خطيّة جسيمة برفضكم المجمع الخلقيدوني * ٣ . انتم تقولون انّ المسيح بعد الاتّحاد هو بطبيعة واحدة من طبيعتين . فنسالكم عن هذه الطبيعة الواحدة : اطبيعة الآب هي ام لا . فان قلتم هي طبيعة الاب جعلتم الاب متأنّسا وهذا كفر شنيع . وان قلتم ليست طبيعة الاب جعلتم في الثالوث اكثر من طبيعة واحدة وهذا كفر آخر اشنع * ٤ . نسالكم عن الطبيعة الانسانيّة التي تقولون انّها كانت قبل الاتّحاد : اين راحت بعد الاتّحاد * فان قلتم عُدمت باتّحادها بالطبيعة الالهيّة . جعلتم بلبلةً في تجسّد المسيح كاوطاخي وان قلتم انّها موجودة متّحدةً مع الطبيعة الالهيّة . صدقتم واثبتّم التعليم الكاثليكيّ . فاقبلوا اذاً المجمع الخلقيدوني » * بهذه البراهين وامثالها كان الارثذكسيّون يفحمون تبّاع ديوسقورس وبرصوم العنيدين *

واعلم انّ الارثذكسيّين في سورية سمّاهم الهراطقة منذ القرن الخامس ملكيّين اي تابعين لايمان ملك الروم وهو مرقيان

[ال]ذي بهمّتهِ اجتمع المجمع الرابع وأُجري تعليمهُ * ولم يزل الكاثليكيّون [في] سورية يسمَّون ملكيّين في الاجيال التابعة . وعمَّ هذا الاسم جميع [ال]كاثليكيّين الذين في بلاد الشرق الى زمان الشقاق القسطنطينيّ * [و]كانوا يسمَّون ايضاً روماً نسبةً الى المملكة الروميّة التي كانت [تح]امي عن الايمان الكاثليكي . ويونانًا نسبةً الى سكّان قسطنطينيّة [ق]اعدة المملكة وما يجاورها * ثمَّ انَّ الكاثليكيّين الشرقيّين استحقّوا [خ]اصّةً اسم الملكيّين والروميّين بعد أَجيال قليلة لتركهم طقوس [ك]نائسهم واتّباعهم طقس الكنيسة القسطنطينيَّة وعوائدها في كلّ [ش]يءٍ حتّى اللغة] *

الفصل التاسع

في مار اسحاق الملفان ومار سمعان العموديّ

[اشتهر مار اسحاق الملفان في زمان المجمع الخلقيدوني في مدينة انطاكية . وكان اصلهُ من مدينة أَمَد التي تسمّى الآن ديار بكر * وهو من اعظم ملافنة الكنيسة الشرقيَّة . وأَلّف في السريانيّة بالفصاحة الرائقة والبلاغة الفائقة شيئًا كثيرًا عظيمًا من الميامر والمقالات . وفيها فسّر اقوال الكتب المقدَّسة . وشرح قواعد الايمان . ودحض الضلالات ولاسيّما بدعة نسطور وهرطقة اوطاخي .

الاعتبار انَّ كرسيّ اورشليم لم يجلس عليهِ قطّ اسقف شرعيّ ملوّث
بهرطقة الى عهد انفصال الكنائس الشرقيّة من الكنيسة الكاثليكيّة
بالشقاق القسطنطيني . وهذه الكنيسة التي تقدَّست بخطوات مخلّص
العالم اختصَّت بهذه الخلّة الكريمة دون سائر الكنائس الشرقيّة *

واما اهل سورية الذين كانوا قد سلموا من هرطقة نسطور
فلا يقدر لسانٌ بشريّ ان يصف ويعدّ جميع الشرور والبلايا التي
المَّت بهم من بعد المجمع الخلقيدوني * فانَّ ما اثارهُ المنوفسيتيّون
في تلك البلاد من الفتن والاضطراب والاضطهاد والتعدّي على
الارثذكسيّين الخاضعين لتحديد المجمع الخلقيدوني لم يُرَ مثلهُ في ما
سلف من الزمان * واوّل من رفع لوآء العصيان كان برصوم
رئيس الرهبان . فانهُ لمّا طُرد من المجمع الخلقيدوني . ادبر ممتلئًا حنقًا
وشرع يبثّ تعليمهُ السيّء في بلاد سورية الشرقيّة الشماليّة . وارسل
سموئيل تلميذهُ لينذر اهل ارمنية ويضلّهم * ثمَّ بعد سنين قليلة اشتهر
في سورية الغربيّة بين اعدآء المجمع الخلقيدوني بطرس المكنّى بالقصّار
الذي جلس على كرسيّ انطاكية سنة ٤٧٠ . وهذا عُرف خاصَّة
بانّهُ زاد على التسبحة الموجّهة الى الثالوث المقدَّس (وهي قدّوس
الله قدّوس القويّ قدّوس الذي لا يموت) كلماتٍ افسدت معنى
هذه التسبحة وجعلتها فرصةً للتجديف . وهي يا من صُلب لاجلنا *
وفي مبادئ القرن السادس اشتهر بين المنوفسيتيّين فيلكسينس او

ايا اسقف منبج . وهذا افرغ كلّ وسعهِ وما جادت بهِ الطبيعة
من حدَّة الذهن وبلاغة اللسان في صدّ الناس عن التمسّك
تقد المستقيم . وكتب في هذا الشان بالسريانيّة الفصيحة صحفاً
. وجرت لهُ مناقشات ومعاطيات كثيرة ابدى فيها طول
في تحريك الفتن والشرور * وكان من جملة ملوك الروم
ن اعانوا المنوفسيتيّين على الارثذكسيّين زينون وانسطاس *
زينون فمن مستقبحاتهِ صحيفة مشهورة باسم هنوتيكون . دسّ فيها
الملك بدعة المنوفسيتيّة خفيةً من دون ذكر المجمع الرابع .
د ان يجعلها احبولةً ليصيد بها الارثذكسيّين ويسقطهم . ولكنّهُ
ع بصفقة خاسر * ونهض على المنوفسيتيّين كثيرٌ من فحول علماء
بسة . وفندّوهم وافحموهم واخزوهم * وهاك خلاصة ما كان
ذكسيّون يفنّدون بهِ المنوفسيتيّين : كانوا يقولون لهم «١ . انتم قد
تم اوطاخي لسبب انّهُ قد جعل ناسوت المسيح مختلفاً من
يّتنا وحرمتم تعليمهُ . (والى الآن اليعاقبة الذين هم اولاد
ك المنوفسيتيّين يحرمون تعليم اوطاخي كما يحرمون النسطوريّة) .
ف اذاً تقبلون برصوم وديوسقورس بين القدّيسين العظام
اللذان بكلّ قوّتهما دافعا عن اوطاخي * ٢ . انّكم تقولون انَّ
ع الخلقيدوني قد خالف المجمع الافسسي فهو اذاً في ضلالة .
ل لكم اوّلاً انَّ المجمع الخلقيدوني حدّد انَّ في المسيح طبيعتين .

الفصل الثامن

في عصيان المنوفسيتيّين على المجمع الخلقيدوني

[انَّ اعداءَ الايمان الارثذكسيّ المسطور في طومس لاون البابا والمحدَّد في المجمع الخلقيدوني المسكوني الرابع. التابعين بدعة اوطاخي ويقال لهم المنوفسيتيّون اي المعتقدون بالطبيعة الواحدة في المسيح. لم تردعهم عن ضلالتهم هيبة المجمع المذكور. ولا ارتاعوا من شوكة الدولة الروميّة التي كانت تبذل كلّ ما في طاقتها من القوَّة والتخويف والعزل والنفي لتجري قانون المجمع الخلقيدوني المقدّس في كلّ سعة المملكة الروميّة * وذلك انَّ ديوسقورس بطريرك الاسكندريّة الذي عُزل في المجمع المذكور نفسهِ وسيم بدلهُ آخر ارثذكسيّ. كان لهُ تبّاعٌ كثيرون في مصر. بل كان اكثر رهبان اديرة مصر وقسوسها معتلّين ببدعة الطبيعة الواحدة ومتحزّبين لبطريركهم * فلمّا أُرسل ديوسقورس الى المنفى بامر مرقيان الملك. حدث في الاسكندريَّة وسائر ارض مصر شجنٌ عظيم وأَضرار جسيمة شتّى دامت زمانًا. لا بل انّهُ منذ ذلك اليوم تملّك في تلك البلاد ضلال المنوفسيتيَّة الى هذا اليوم. ومع كلّ اجتهدت الكنيسة بمعاونة ملوك الروم ان ترجّع فيها الايمان الارثذكسي اي قبول طومس لاون البابا وتحديد المجمع الرابع بطبيعتي المسيح

تنظّف تلك البلاد من آثار المنوفسيتية . لم تستفد من ذلك
يسيرًا وهنيهةً من الزمان * وكان السبب الاقوى الذي صلّب
ب اولئك المصريين المغشوشين واثبتهم على عنادهم . ظنّهم
الي" انَّ المجمع الرابع بتحديد الطبيعتين قد دحض تعليم قورلس
يركهم المشهور الذي كانوا بهِ يفتخرون . واضاع كلّ ما بذلهُ
ك الملفان العظيم من العلم والحكمة والغيرة لابطال بدعة
طور . والحال انَّ المجمع الخلقيدوني بعكس ذلك قد كرّر حرم
طور وبدعتهِ اكثر من مرّة *

واما بلاد فلسطين فحدث فيها في الاوّل بلبلة غير قليلة
يد ثاودوسيوس الراهب الذي بعد ما فضّ المجمع اخذ يطوف
 البلاد ويهيّج الناس على المجمع المقدَّس * وانَّما كان مستعينًا
ذلك باودكسيّة الملكة التي كانت لبغضتها للخارية زوجة مرقيان
ك تبغض المجمع الخلقيدوني المعقود بهمّتهِ . وكانت حينئذٍ في
شليم . وكانت تنصر أعداءَ المجمع * الاَّ انّهُ بعد سنتين لمَّا رجع
ال بطريرك اورشليم الارثذكسيّ الى كرسيّهِ . نظّف بلاد فلسطين
كلّ اثر ضلال . واستراحت هكذا تلك البلاد * لا بل
كسيّة نفسها قبل موتها رجعت عن غيّها . واقلعت عن معاداة
ع الخلقيدوني . وماتت ارثذكسيّة * ومن ذلك الحين لم تزل
. فلسطين ثابتةً على الايمان الارثذكسيّ . بل ممَّا يستحقّ غاية

يديهِ «لا ادري لايّ سبب أثَّر بي كلام هذا الكاهن» * وتلطّف اتّيلا. وسمع ما عرضهُ عليهِ لاون باسم ملك رومية. وقبل ذلك وكفَّ عن اذى البلاد. وانصرف مع جيوشهِ من ايطاليا * وهكذا انتصرت الفضيلة المسيحيّة وليّنت قلب رجل متوحّش متعطّش الى الدم *

وحدث للاون مثل هذه الواقعة بعد ثلاث سنين اذ غار على بلاد ايطاليا جَنْسَريك ملك الوَنْدَلِيّين (وهم جيلٌ اصلهُ من الصقالبة. وكانوا قد قدموا من بلادهم الشماليَّة وضبطوا جانباً من بلاد غاليا اي فرنسا. وتوغّلوا في اسبانيا. واستوطنوا هناك ومنهم سُمّيت بلاد الأَنْدَلس). وكان جنسريك حيثما دخل جلب الخراب * ولمّا بلغ الى ظاهر مدينة رومية. تجرّأَ لاون القديس ومثل بين يديهِ. وطلب منهُ ان يشفق على اهل المدينة. وكان كلامهُ ذا رزانة وحكمة. حتى انهُّ نال ان يليّن قلب ذلك الملك الصنديد. فعاهدهُ انهُ لا يستعمل معهم السلاح ولا النار. وانّهُ يصفح عن ابنية تلك المدينة العظيمة وعن اهلها * غير انَّ لاون بصنيعهِ هذا ما امكنهُ الاّ ان يؤَخّر الى سنين قليلة انقراض الدولة الروميّة الغربيّة التي كانت مائلةً الى الخراب. فانهُّ بعد سنين قليلة هجمت شعوب متوحّشة متعدّدة اتوا من الاراضي الشماليّة على بلاد تلك المملكة واستولوا عليها شيئًا بعد شيء * ومنهم أُذُوعكر

الهروليّين ضبط بلاد ايطاليا. وانتهى باخذ مدينة رومية
ا. وقرض هكذا المملكة الروميّة الغربيّة. واسقط اسمها نفسهُ.
سمّى نفسهُ ملك ايطاليا * وحدث بعد هذه الواقعة العظيمة
راب وبلبلة عظيمة في بلاد المغرب. فكانت الامم المتوحّشة
من اماكن بعيدة كالجراد واحدةً بعد واحدة. وتضبط كلّ
قدّامها من بلاد المملكة الغربيّة الواسعة حتّى تقاسموها كلّها بينهم *
ذا سقطت هذه المملكة العظيمة مملكة الروم التي كانت اكبر
صارت على الارض. واندثرت تماماً في نحو ثمانين ومايتين
سنة من بعد ما وضع اساسها رومُلوس مشيد رومية العظمى.
منها فرع فقط الى زمان في المملكة الروميّة المشرقيّة التي
سريرها في مدينة قسطنطينيّة التي سمّاها اليونانيّون لذلك
الجديدة] * ألا انّ صروف الزمان تقرض على هذا النسق
الدول البشريّة واثبتها. فليس الأفراد والملوك فقط يفنون
ون. بل تبيد الممالك ايضاً. ولا تثبت دائمةً الاّ مملكة يسوع
التي اقامها بصليبهِ *

الروم في مصالح الدين واستيلائهم على حقوق البيعة في امور كثيرة * ولعمري انهُ مثلما بهمّة الملوك الصالحين اجتمعت المجامع المسكونيّة في بلاد الشرق وافادت الكنيسة تلك الفوائد الجمّة الحميدة . كذلك بهمّة الملوك السفهاء قويت الهرطقات في سورية ومصر وتجرّأت واتّسعت وتثبّتت . وصدرت منها تلك الأضرار العظيمة التي يعجز اللسان عن وصفها * والحال انَّ بلاد المغرب التي لم تسطُ عليها شوكة ملوك الروم البوزنطيين . وكان الملوك الذين حكموا عليها قانعين بالحدود التي توجبها لهم سلطتهم الدنيويّة . لم تتمكّن الهرطقات ان تقوى فيها في الاجيال الاولى ولا احتاجت في تلك الاعصار الى مجامع مسكونيّة] *

الفصل السابع

في اوصاف القدّيس لاون البابا

انَّ الله اقام لاون البابا ليقهر هرطقة اوطاخي خاصّةً . ولكن لم تكن هذه الخلّة وحدها هي التي اتّصف بها هذا الحبر العظيم * فانّهُ من جملة الاحسان الذي اسداهُ الى الكنيسة هو انّهُ خلّص امّتهُ مرّتين من خطوب عظيمة كانت ملمّة بها وعتيدة ان تدمّرها * وذلك انّهُ في زمان هذا البابا انقضّ على البلاد

سرانيّة قومٌ من الشمال اسمهم الهونيّون مع أَتّيلا ملكهم الذي
ن يسمّي نفسهُ سوط الله . وبعدما اخربوا كلّ ما اتى قدّامهم في
ى ايطاليا حلّوا على مدينة رومية وتهدّدوها بان يصنعوا بها
صنعوا بغيرها * فوقعت الحيرة والدهشة في قلوب اهل المدينة .
د المشاورات والمقاولات قرّ الراي ان يرسلوا الى ملك اولئك
وم سفيرًا من قبلهم يدعوهُ الى الصلح والكفّ عن اذى المدينة *
ند لاون نفسهُ هذه المصلحة المخطرة متّكلاً على الله الذي يلين
سب القلوب . وتوجَّه نحو محلّة القوم المتوحّشين بشجاعةٍ بهت
اتّيلا ملكهم * وكان اتّيلا في هيئتهِ وخارجهِ خاليًا ممّا يدعو
العظمة . الاّ انّهُ كان منظرهُ مخوفًا مرعبًا دالاًّ على اصلهِ وكونهِ
ن قوم من المتوحّشين * وكان ذا قامة قصيرة عريض الصدر
يم الراس وقبيحهُ . متقّد العينين . قليل اللحية والذؤابة . وكان
شاب قبل زمانهِ بالاسفار والحروب . وكان انفهُ مفلطحًا . ولون
رتهِ ضاربًا الى السمار الاكمد . وكان متجرفًا في مشيتهِ متهدّدًا *
ت اليهِ لاون مسلّحاً بحَوْلٍ غير منظورٍ وفائق على كلّ القوى
رية . وظهر امامهُ بوجهٍ بسيطٍ طَلِق . ولم يخف من هيبة ذلك
ي كانت الملوك اللائذون بهِ يرتعدون من الوقوف امامهُ .
ة باحترام وقوّة . وطلب اليهِ ان يكفّ عن اذى بلاد ايطاليا *
راى اتّيلا ثبات الحبر النصرانيّ . اندهش منهُ وقال للّذين بين

بطريرك القسطنطينيّة. فانّ هذا البطريرك حيث كان الى ذلك اليوم في الرتبة رابعًا بعد الرومانيّ والاسكندريّ والانطاكيّ. حتم اولئك المجتمعون ان يكون ثانيًا بعد الحبر الروماني. وبلبلوا بذلك نظام القوانين القديمة. واحدثوا شيئًا جرى منهُ بعد ذلك أضرار كثيرة شتّى في الكنيسة * ولذلك فنوّاب البابا في غد تلك الجلسة عذلوا اولئك الاساقفة عذلاً شديدًا على صنيعهم هذا. ولاون البابا في تأييدهِ تحديدات المجمع استثنى هذا الحتم المختصّ بالبطريرك القسطنطيني ولم يرضَ ابدًا ان يؤيّدهُ. وكذلك خلفاؤهُ قاطبةً الى مرور اجيال كثيرة * فانّهُ عند ما انختم المجمع. كتب الآباءُ اليونانيّون رسالة الى لاون البابا الروماني يطلبون منهُ تثبيت ما حدّدوهُ في شان رفع مرتبة كرسيّ قسطنطينيّة. وقالوا في هذه الرسالة «نرغب اليك متوسّلين ان تشرّف حكمنا بإسنادهِ برايك. وكما انّنا من جهتنا قد اتّفقنا في وحدانيّة الايمان معك انت الذي هو ابونا وراسنا. بقي لسموّ سلطانك ان تختم القضيّة التي سطّرها اولادك لاكرام المدينة الملكيّة * فان انت شملت باهتمامك كنيسة قسطنطينيّة. بعثت عليها شعاعًا من ذلك النور الساطع اللامع الباهر الذي يحتاط كرسيّك الرسليّ * هذه هي منيتنا. وهذا هو رجاؤنا الوطيد بجودة ابينا الذي بكلّ خاطرهِ يسبغ آلاءَهُ على بنيهِ * انّ نوّابك نعم قد قاوموا شديدًا. ولكن لم يكن ذلك

يبقوا لقداستك شرف هذا العمل الجميل. وليمكنك ان تشهر
ك على بهاء القوانين البيعية كما تشهرها على صحّة الايمان» *
انّ لاون في صكّ تثبيت المجمع ايّد التحديدات المتعلّقة
يمان. ولكن ابى ان يؤيّد القانون المختصّ بكرسيّ قسطنطينيّة.
ب الى اناطوليوس بطريرك تلك الكنيسة قائلاً «معاذ الله
بلغك امانيّك الطالبة الارتفاع خلافاً لما يدلّني عليهِ ضميري.
م انّ قانون مجمع قسطنطينيّة الذي عليهِ اعتمدت لتسند تعظّمك
وّة لهُ. لانّهُ لم يُرسَم بالاتّفاق مع الكرسيّ الرسوليّ». وعذلهُ
شديد على انّهُ تجاسر ان يسيم مكسيموس بطريرك انطاكية
افاً للقوانين * وترى هنا مبادئ ذلك التعظّم والاستعلاء
ي في الاجيال التابعة ساق بطاركة قسطنطينيّة الى ان يتسلّطوا
سائر الكنائس ويتولّوا السياسة العامّة على جميع نصارى بلاد
رق وما وراء ذلك. وان يضبطوا لو امكنهم زمام تدبير امور
يانة في العالم كلّهِ * ولكن كما سلّطوا هم عظمتهم على سائر اساقفة
رق. تسلّطت عليهم آفة اقوى منهم. وهي شوكة حكّام مدينتهم
ملوك الروم الذين صاروا يلعبون بهم على هواهم ويضبطون منهم
لطتهم الروحيّة ويتصرّفون فيها كيفما شاءوا * ومن يقدر ان
ي جميع الاضرار التي في الاجيال السالفة اصابت كنيسة الله
معة وخصوصاً في البلاد الشرقيّة من جرى هذا تداخل ملوك

طويلاً وملكاً سعيدًا لمرقيان محبّ المسيح» * ثمَّ طلب الملك ان يقرأوا لهُ تقرير الايمان الذي حدّدهُ المجمع. ولمّا فُرغ من قراءتهِ. سأَل الاساقفة «هل انتم متفقون جميعًا في هذا التقرير». فاجابوا كلّهم بصوت واحد «نعم نحن ما عندنا الاَّ ايمان واحد وتعليم واحد. هذا هو ايمان الملافنة الأَطهار. هذا هو ايمان الرسل. هذا هو الايمان الذي خلّص العالم» * ثمَّ أُعيدت التحيّات والتهنئات من جديد لمرقيان وبلخاريا زوجتهِ وكنّوهما بقسطنطين الجديد وهيلانة الجديدة. ونعتوهما باشرف النعوت واحلاها * ثمَّ انَّ الملك اصدر امرًا ملكيًّا لتاييد حكم المجمع. قال فيهِ «من باحث بعد هذا الحكم. فهو يريد ان يجد الكذب» *

الفصل السادس

في تدابير سياسيّة جرت في المجمع الخلقيدوني

[انَّ المجمع الخلقيدونيّ قد اجرى تدابير سياسيّة ما عدا تقرير صورة الايمان الارثذكسيّ * فمن ذلك إسقاطهم ديوسقورس الاسكندريّ لاتّباعهِ مذهب اوطاخي وتجاسرهِ في مجمع افسس الكاذب الذي عقدهُ سنة ٤٤٩ ان يقرّر بدعة اوطاخي ويؤيّدها ويحرم لاون بابا رومية نفسهُ * وحضر في الجلسة الرابعة برصوم

ى الاديرة السرياني الذي اشترك هو ايضاً في مجمع افسس
ذب • واوّل ما دخل المجمع. صاح اهل المجمع قائلين « اخرجوا
وم من هنا. فانهُ محروم ». فاخرجوهُ مهاناً * وبعد الجلسة
دسة التي فيها حدّوا صورة الايمان. عُرض على ثاودوريط
ب قورس السابق ذكرهُ ان يحرم النسطورية التي كان يُظَنّ محبّاً
وبعد اعتراضات شتى حرم نسطور ومذهبهُ. فحيّاهُ المجمع واثبتوهُ
كرسيهِ وايدوا حكم لاون البابا في شانهِ. وحيوا من جديد
ن ونعتوهُ باجلّ النعوت واسماها * ثمّ فُحص امر إيهيبا اسقف
ا المارّ ذكرهُ. وكان قد قُرس مع ثاودوريط في مجمع افسس
ذب. فحضر وطلب ان يردوهُ الى مرتبتهِ * فعرضوا عليهِ ان
م نسطور واوطاخي. فحرمها وتباعها. فردّاهُ الى كرسيهِ * ثمّ اتوا
مصلحة مكسيمس الذي كان المجمع المذكور الكاذب قد نصبهُ
يركاً على انطاكية براي اناطوليوس اسقف قسطنطينيّة خلاف
انين والحقّ • ولانّ البابا لاون كان قد قبل هذا البطريرك
باب سياسيّة. قبلهُ المجمع الخلقيدوني ايضاً واثبتوهُ. وحكموا في
ن دُمنوس الذي عُزل ظلماً عن ذلك الكرسيّ ان يُعال من
ات الكرسيّ نفسهِ * وفي الجلسة الخامسة عشرة اجتمع الاساقفة
ونانيون مع قليل من الاساقفة السريان والمصريّين في غياب
ب الحبر الاعظم. واصدروا شرعاً جديداً غريباً في شان

اسبب هرطقة اوطاخي. افتكر في مداواتها. وكان احسن دوآء
لذلك في مجمع مسكونيّ * فكتب لاون في هذا الشان الى مرقيان
الملك. فجمع الملك المجمع في مدينة خلقيدوني التي كانت من
دساكر قسطنطينيّة. لانهُ احبّ ان يحضر المجمع هو بنفسهِ لحفظ
النظام فيهِ * واجتمع من الاساقفة ثلاثمائة وستّون اسقفاً. وكان
ذلك في كنيسة القدّيسة اوفيمية الشهيدة. وفُتح المجلس الاوّل في اليوم
الثامن من تشرين الاوّل سنة ٤٥١ * امّا لاون البابا فاذ كان
متعذّراً من الذهاب الى المجمع. ارسل ثلاثة نوّاب عنهُ. وهم تقلّدوا
رياسة المجمع باسم لاون * وكان كتاب الاناجيل موضوعاً على عرش
منصوب في وسط المجمع كما في افسس * وفُتح المجمع بالبحث عن
تصرّف ديوسقورس بطريرك الاسكندريّة في شان فلابيانس
القسطنطينيّ حيث اساء اليهِ وظلمهُ. واقيم عليهِ البيّنة بانهُ داس
كلّ القوانين والرسوم. وحُكم عليهِ بالسقوط من كرسيهِ * ثم
قُرئت الرسالة العجيبة المسمّاة الطومس (اي المجلّة) التي كتبها مار
لاون الى فلابيانس في مبادئ هرطقة اوطاخي. وفيها شرح
بايضاح بليغ وعبارة سديدة الايمان الكاثليكيّ في امر سرّ التجسّد
اي بانّ في المسيح المتجسّد اقنوماً واحداً وطبيعتين * فلمّا قُرئت هذه
الرسالة. اعجبت آبآء المجمع غاية ما يكون. ووجدوا التعليم المقرّر
فيها مطابقاً لقانون الايمان النيقاويّ ولقانون مجمع قسطنطينيّة

حوها كلّهم بصوت واحد . وجعلوها قاعدة وطيدة امينة للايمان .
احوا قائلين « هذا هو ايماننا نحن اجمعين . هذا هو ايمان الآبآء .
هو ايمان الرسل . انّ بطرس بنفسهِ قد تكلّم بفم لاون . انّ
التعليم هو التعليم الارثذكسي الذي يجب التمسّك بهِ . ومن
عتقد هكذا فهو محروم » *

ثمَّ انَّ آبآء المجمع حرّروا شرحًا في الايمان . افتتحوهُ بقانون
ة وقانون قسطنطينيّة . ثمَّ قالوا « نحتم انّهُ يجب الاعتراف بانَّ
وع هو ربٌّ واحد ومسيح واحد وهو الاه حقًّا وانسان حقًّا .
مل في الطبيعتين مساوٍ للآب في الالوهيَّة ومساوٍ لنا في
سانيّة . مولود من الآب قبل الدهور في الالوهيّة ومولود من
م العذرآء في الزمان في الانسانيّة . وهو مسيح واحد وربٌّ واحد
طبيعتين من دون بلبلة ولا تغيير ولا انقسام ومن دون ان
ل تمييز الطبيعتين بالاتّحاد . بل انَّ خاصّة كلّ منهما محفوظة
نهيان الى اقنوم واحد بحيث انّهُ هو بعينهِ ابن واحدٌ وحيدٌ
الله الكلمة ربّنا يسوع المسيح » * ولمّا عُقدت الجلسة السادسة .
سرها مرقيان الملك بنفسهِ . وقرّر انّهُ على نسق قسطنطين الملك
دخل المجمع المقدّس الاَّ ليسند تحديداتهِ بقوّة السلطنة الملكيّة
بانع آرآء الاساقفة * وحيّا آبآء المجمع مرقيان وصاحوا « هنيًا
طنطين الجديد . نعيمًا للملك المتديّن والملكة الارثذكسيّة . عمرًا

اصدقاؤهُ . وجعلوا ينصحونهُ ليكفّ عن قولهِ ويكفي نفسهُ شرًّا عظيمًا . ولكن ذهب تعبهم عبثًا . ولم يمكنهم ان يقنعوهُ على ايّ وجه كان * فوُشي بهِ لدى مار فلابيانس اسقف المدينة . فاستعمل معهُ فلابيانس في الاوّل اللطف الزائد والكلام اللّين ليرعوي ويرجع عن غيّهِ * ولمّا راى انَّ ذلك لا ينفع . جمع مجمعًا من الاساقفة الذين كانوا في المدينة . واستدعى اوطاخي الى المجمع . فابى زمانًا ان يحضر * فلمّا راى أَصحاب المجمع اوطاخي عنيدًا في رايهِ . ابطلوا تعليمهُ . ونزعوا عنهُ رياسة ديرهِ * غير انَّ اوطاخي وجد في قصر الملك أَنصارًا على اسقفهِ . وكان من جملتهم خروساف وزير الملك . وكان هذا رجلًا اعجميًّا قرن مع صباحة الوجه البخل والشراسة والكفر وسائر الرذائل * وكان قد استولى على قلب ثاودوسيوس الملك . وتسلّط على ارادتهِ بحيث يسوس ويامر وينهى المملكة على خاطرهِ * ونال من الملك امرًا بان تُفحَص قضيّة اوطاخي في مجمع ثانٍ من الاساقفة . واقام رئيسًا على المجمع ديوسقورس الشهير اسقف الاسكندريَّة الذي كان محبًّا لاوطاخي ولم تكن نيّتهُ صافية على فلابيانس . [لانّهُ اذ كان ديوسقورس خليفة مار قورلّس كان يظنّ انَّ فلابيانس بمقاومتهِ لاوطاخي نقض التعليم الذي ناضل عنهُ قورلّس] * ولمّـا اجتمع مجمع الاساقفة الذي سعى خروساف . صار هو مقدام المجمع ومدبّرهُ . واجرى فيهِ التعدّ

يسر حتّى اضحى مجلس لصوص لا مجالس اساقفة * ودخل المجمع
ن موكّلان من قبل الملك مع جندٍ بيدهم أَغلال ليكبّلوا بهِ من
وافق ارادة الوزير * واذ كان المجمع على هذا الحال. حكم لاوطاخي
عطاهُ الحقّ . وابطل حقّ فلابيانس القدّيس * ولمّا كان من
قفة المجمع نفر لم يرضوا ان يمضوا هذا الحكم الظلميّ. أُغلقت
بواب وغُصبت الاساقفة ان يختموا الحكم * والذين لم تنكسر
تهم بالغصب. أُرسلوا الى المنفى. وكان من جملتهم فلابيانس.
دا آذوهُ في الطريق كثيرًا حتى انّهُ مات بعد وصولهِ الى المنفى بايّام
ة * وبعدهُ بقليل مات ايضًا ثاودوسيوس الملك الذي اساءَ اليهِ *
ينكَر انَّ المجد الذي اكتسبهُ ثاودوسيوس بمناقبهِ ومآثرهِ الاولى
ذبل غير يسير بهذه زلّتهِ الاخيرة * وجلس بعدهُ في المملكة
يان الملك الصالح المتديّن. وهو اهتمّ اوّل كلّ شيءٍ بتقويم
ارة الايمان *

الفصل الخامس

في المجمع الرابع المسكوني وهو الخلقيدوني (٤٥١)

كان في تلك الايّام لاون البابا جالسًا على كرسيّ بطرس
ول الرومانيّ. واذ راى الجروح التي بها كانت الكنيسة مجروحة

ايهيبا المذكور اسقفاً على الرها. وقبل المجمع الافسسي بهمّة ملك الروم الذي كانت مدينة الرها تحت حكمهِ. واجتهد ان يجذب الشرقيّين الى الصلح. لم يقبلوا ذلك. بل اصرّوا على رفض قورلّس وعلى التحزّب لنسطور * واشهر من سعى في نشر البدعة النسطوريّة في البلاد الفارسيّة كان برصوم اسقف نصيبين الذي كان يوماً من تلامذة مدرسة الرها المطرودين. وعقد هذا مجامع كثيرة لاثبات تلك البدعة. واقبح هذه المجامع مجمع بيت لافط الذي فيهِ بلغت الشناعة بهِ حتّى انّهُ اباح للقسوس بل للاساقفة ان يتزوّجوا * وهكذا في قليل من الزمان صار اهل البلاد الشرقيّة نساطرةً اي ضالّين كنسطور واصحابهِ بالقول باقنومين في المسيح وبالإنكار انَّ مريم العذراء هي امّ الله. وانفصلوا من جسم الكنيسة الكاثليكيّة. وصاروا شيعةً قائمة بذاتها * وهم اذ كانوا يزعمون انَّ البطاركة الغربيّين اي الروماني والاسكندري والانطاكي قلّدوا في القرن الرابع مطرانهم الكبير وهو مطران المدائن مرتبة الجاثليق لسبب بُعد بلادهم. لم يكتفوا بذلك بعد ما انشقّوا من الكنيسة. بل اقاموا لهم بطريركيّةً مستقلّة عاصيةً على رئيسها الشرعيّ وهو بطريرك انطاكيـة. وكان اسم اوّل بطاركتهم بابي الذي جلس على كرسيّ المدائن سنة ٤٩٨ * وكان بطريرك النساطرة يسمّي نفسهُ بطريرك المشرق. وفي الاجيال الاخيرة ربّما سُمّي ايضاً بطريرك بابل مع انّ بابل كانت قد اندثرت

المسيح باجيال * واعلم انّ النساطرة حفظوا حين انشقاقهم من
سة جميع ما كان عندهم من التقاليد والتعاليم التي تسلّموها من
سة الكاثليكيّة سوى امر تجسّد المسيح الذي من سببهِ انفصلوا
ر اخرى زهيدة * وحفظوا ايضاً طقس الكنيسة الانطاكيّة
يانيّة الموجود في زمان انفصالهم. الاّ انَّ بطاركتهم نظموهُ نظماً
يدًا وغيّروهُ حتّى اصبح بصورة طقس جديد. وهو الذي
ة يستعملهُ الكلدان الكاثليكيّون في زماننا هذا] *



الفصل الرابع

في هرطقة اوطاخي

بعد هرطقة نسطور نبتت هرطقة اخرى هي عكسها. وكان
تبها اوطاخي او اوطخِيس. وهو كان رئيس دير من الاديرة بقرب
ة قسطنطينيّة * فهذا لشدّة محاربتهِ لبدعة نسطور سقط في
لة هي عكسها. وقال بانهُ في المسيح لا يوجد بعد التجسّد الاّ
ة واحدة وانّ المسيح لم يصِرْ انساناً مثلنا * فكما فصل نسطور
المسيح. كذا بلبل اوطاخي طبيعتيهِ * امّا في اوّل الامر
اخي لم يكاشف على رايهِ الاّ قليلين من خاصّتهِ. ولكن
ذلك اخذ ينشر غوايتهُ في اديرة قسطنطينيّة * فاقبل عليهِ

الاثنتي عشرة التي كتبها ردًّا على نسطور * وكان كثير من اساقفة البطريركيّة الانطاكيّة السريان يوافقونهُ في رايهِ * فلمّا اجتمع المجمع في افسس . شقّ على هولآء المشرقيين انّ المجمع افتتح قبل وصولهم الى المدينة ، ثمّ اذ وافوا الى المدينة بعد الجلسة الاولى . ابوا حضور المجمع . لا بل عقدوا مجلسًا مزوّرًا في افسس نفسها . فيهِ قثرسوا قورلّس وممنون اسقف افسس لسبب المقالات الاثنتي عشرة المذكورة . وكتبوا في ذلك الى ثاودوسيوس الملك بمعونة قنديديان المذكور سابقًا . وهكذا امالوا الملك الى رايهم زمانًا حتى بلغت اليهِ الاخبار الصحيحة عن المجمع * الّا انّ يوحنّا واصحابهُ لمّا راوا بعد حين انّ حزب المجمع الافسسي قد تغلّب وظهرت فيهِ يد الله بتملّكهِ في كلّ مكان . وراوا ايضًا من قورلّس علامات اكيدة على أنهُ لم يكن مبغضًا لنسطور بل لتعليمهِ . تنحّوا عن رايهم ومالوا الى راي قورلّس . لا بل صار يوحنّا الانطاكي يحامي عن المجمع الافسسي بكلّ عزمهِ . وبذل جهدهُ في جذب اساقفتهِ الى ذلك . فنال اربهُ الّا مع قليلين * واشهر هولآء الذين قاوموا المجمع بكلّ الاصرار كان ثاودوريط اسقف قورس والكسندر مطران هيرابليس او منبج * امّا ثاودوريط فكان يستقبح بكل قوّتهِ مقالات قورلّس الاثنتي عشرة . وقاومها زمانًا . ولكن نزل اخيرًا عن قولهِ . وجدّ في صلح المتنازعين ، ولا بدع . فانّ ثاودوريط كان من

ل اساقفة ذلك العصر واشرف جهابذته علمًا وحكمةً * وامّا
سندر فلم يمكن امالتهُ ابدًا. فانزلهُ بطريركهُ يوحنّا عن
سيهِ. ومات في النفي * ومن الذين تبعوا نسطور ظاهرًا كان
طيوس اسقف مصيصة خليفة ثاودورس الشهير. وهذا ثاودورس
ن يومًا معلّم نسطور وكان في مؤلّفاتهِ قد القى زرع الضلالة
طوريّة • ومع انّ مؤلّفاتهِ كانت موعبة حكمة وصوابًا. رفضها
ذكسيّون في زمان المجمع الافسسي لما كان فيها من الاقوال
طوريّة. وكذلك رفضوا كتب ديودورس الشبيهة بها. ولكنّ
ع نسطور السريانيّين استخرجوا هذه الكتب الى اللغة السريانيّة.
فظت عندهم بغاية التكريم كأنها كتبٌ رسليّةٌ * وهكذا بهمّة
ك الروم زالت قليلاً قليلاً من النواحي الغربيّة من البلاد
قعة تحت سلطنة البطريرك الانطاكي كل آثار البدعة
طوريّة *

واما البلاد الشرقيّة التي كانت تحت حكم ملوك الفرس
دت بالضلالة النسطوريّة منذ الاوّل. وذلك على يد تلامذة
سة الرها إِيهيبا وماري ورفاقها. الذين طردهم رابولا اسقف الرها
اعهم راي نسطور. فانتشروا في البلاد الواقعة تحت حكم الفرس•
وا فيها الضلالة النسطوريّة وكُتُب ثاودورس وديودورس التي
رجها إِيهيبا الى اللغة السريانيّة * حتى انهُ لمّا صار بعد ذلك

العذراء هي والدة الله. وأُبرزت قضيّة القثرسة اي النزول عن
الكرسيّ على نسطور الملحد * ولمّا سمع اهل مدينة افسس هذ
الحكم. ارتقشوا فرحًا وترنّحوا ابتهاجًا وتهلّلاً. واوصلوا الى آباء المجمع
كلّ الادعية والبركات. وكانت مدينة افسس تهتزّ وترعد بصوت
مدائح امّ الله * وكتب الاساقفة الى الملك واعلموهُ بحكمهم. ولكنّ
قنديديان القوميس حرَّج على رسائلهم. وتواطأ مع نسطور في افساد
نيّة ثاودوسيوس على المجمع باخبار كاذبة عنهُ * فلم يمكن ان تصل
الى الملك رسائل المجمع ووفدهُ. لانَّ قنديديان رصد السفن والطرق
واغلق كلّ الابواب. ولولا انَّ الله نصر الحقّ وايّدهُ ليغلب جميع
الموانع ويخيّب جميع المكايد التي صُنعت لقهرهِ. لانقهر لا محالة
وانخذل * وذلك انَّ احد رسل المجمع تنكَّر بزيّ فقير متسوّل
وحمل تقرير المجمع داخل جوف قصبة. ودخل قصر الملك. واوقفهُ
على الحقيقة * فلمّا وقف ثاودوسيوس الملك على الامر كلّهِ واطّلع
على كلّ ما جرى في مدينة افسس. امر بنفي نسطور الى دير من
اديرة انطاكية * فلمّا أُخذ نسطور الى منفاهُ. شرع يبثّ هناك ايضًا
مذهبهُ الفاسد. فنُفي حينئذٍ الى موضع قاصٍ من برّ مصر. وهناك
بعد سنين مات بئس الميتة *

الفصل الثالث

في عصيان اهل البلاد المشرقيّة على المجمع الثالث وانفصالهم من الكنيسة الكاثليكيّة بسقوطهم في النسطرة

[انّ البلاد المغربيّة انتفعت غاية المنفعة بالمجمع الذي
في افسس . فانّ اهاليها قاطبةً قبلوا تحديدهُ ولبثوا ثابتين
التعليم الارثذكسيّ الذي خالفهُ نسطور ببدعتهِ . وبعد قليل
الزمان تطهّرت تلك البلاد من كلّ اثر ضلال نسطوريّ *
كن لم يحدث الامر كذلك في بلاد المشرق . بل انّ المجمع
لث المقدَّس صار علّة لاهل تلك البلاد السريانيّة ليسقطوا
وطًا اليمًا يُرثَى لهُ . فكأَنّ روح الضلالة النسطوريّة الجهنّميّ لمّا
ى نفسهُ مطرودًا من بلاد المغرب . التجأ الى بلاد المشرق
اك نفخ بنسمة الموت * وهاك تفصيل ذلك :

لمّا كان نسطور في الاصل من ارض سوريّة مولودًا في قرب
اكية ومربًّى فيها . حدث انّهُ اذ قام عليهِ المنع والتريب
قورلّس الاسكندري لسبب تعليمهِ الجديد . جعل يوحنّا
ريرك انطاكية يدافع عنهُ . ولم يكن ذلك منهُ لسبب موافقتهِ
في تعليمهِ . بل لظنّهِ انّ نسطور كان مظلومًا وانّ قورلّس اتّخذ
مةُ بغير معناهُ الحقيقيّ وسقط في ضلالة أَبلّناريس بمقالاتهِ

مار قورلّس مدح همّتهُ وتيقّظهُ. واعلمهُ بانّهُ قد استحسن اقوالهُ في امر التجسّد. وانّهُ ان اصرّ نسطور على عنادهِ ودام مقاوماً التعليم الارثدكسيّ. ولم يحرم تعليمهُ الكفريّ في وقتٍ اجّلهُ لهُ. يُسقَط من جسم الكنيسة *



الفصل الثاني

في المجمع الثالث المسكوني وهو مجمع افسس (سنة ٤٣١)

انَّ نسطور لم يخضع لحكم الكرسي الرسليّ الروماني. بل ازداد عناداً وتمسّكاً بضلالهِ كعادة سائر المبدعين * وكان في ذلك الزمان في قسطنطينيّة ثاودوسيوس الصغير جالساً على كرسيّ مملكة الروم. وهذا كان يحبّ الديانة حبّاً خالصاً. فلمّا راى تنفّر اهل قسطنطينيّة من تعليم نسطور وتشغّبهم. فتح عينيهِ وعزم على التئام مجمع مسكوني في مدينة افسس * فلمّا سمع المسيحيّون المحقّون خبر التئام مجمع. اهتشّوا لهُ وفرحوا الى الغاية * وشرع الاساقفة يتجمّعون الى مدينة افسس. واجتمع منهم مايتان من كلّ اقطار العالم المسيحيّ. وكان رئيس المجمع مار قورلّس باسم بابا رومية * ووافى نسطور ايضاً الى افسس بصحبة قنديديان القوميس. ارسلهُ الملك ليحرس آباء المجمع. وكان هذا موافقاً لنسطور ظاهراً * ثمَّ انَّ آباء

ع استدعوا نسطور الى المجمع ثلاث مرّات. وثلاث مرّات ابى
يحضر. وكان يحتجّ بغياب يوحنا بطريرك انطاكية واساقفة تلك
طريركيّة الذين لم يكونوا بعد قد جآءوا * ولمّا راى آباء المجمع
ءاء اولئك الاساقفة كانّهُ عن سبب وقد انقضى منذ خمسة عشر
ا الاجل الذي حدّدهُ الملك لفتح المجمع . فتحوا المجمع وجلسوا
لسة الاولى * وكان مجتمعهم في الكنيسة. وهناك صنعوا عرشًا
ليًا. ووضعوا عليهِ كتاب الاناجيل دليلاً على حضور يسوع
سيح معهم حيث قال بانّهُ يكون حيثما اجتمع رعاة الكنيسة باسمهِ.
ان منظر المجمع مدهشًا باهرًا داعيًا الى الخشوع. وبالمجمع الافسسي
دت بعد ذلك سائر المجامع * وكان الاساقفة جالسين صفّين
الجهتين. مرتّبين بموجب رتبة كراسيهم *

ولمّا يئس آباء المجمع من حضور نسطور بشخصهِ. اخذوا
صون تعليمهُ في كتبهِ. فلمّا قُرئت كتبهُ. صاح الجمهور «لعنة الله
هذا التعليم الكفريّ. لعنة الله على من يذهب هذا المذهب
الف للكتب المقدّسة ولتقليد الآبآء» * ثمَّ قُرئت رسالة البابا
سطينس الى نسطور. وأُوردت نصوص الآباء القدّيسين العظام.
قبريانس واثناسيوس وامبروسيوس وباسيليوس. وقوبلت مع
سايا نسطور * ثمَّ شرع الاساقفة يقرّرون واحدًا واحدًا ايمان
ائسهم. وعند ذلك حدّدوا تحديدًا معظمًا انَّ سيّدتنا مريم

لئلَّا يشاركوا الملحد الذي تلفظ بهِ * ولنا ان نعتبر هذا الصوت الاوّل الذي سُمع من المومنين دليلاً على انَّ ما اتى بهِ نسطور كان شيئًا جديدًا مخالفًا لما عهدهُ المومنون قاطبةً . وهذا وحده كافٍ لاخزاء اهل هذه البدعة • ومثل ذلك يحدث في اوّل ظهور جميع الهرطقات . فانَّ الحقّ عند ظهور بدعة جديدة بقلقهِ وتألّمهِ منها يوضّح انّهُ هو المالك * وكان نسطور ذا جاه في قصر الملك . فاغتنم ذلك ليقنع الملك بقبول رايهِ ولينشر تعليمهُ بهذه الواسطة الى كلّ ناحية * ولكنَّ الله كان قد اعدّ علاجًا للدآء . وناصرًا للايمان المظلوم * وذلك انَّ القدّيس قورلّس او كيرلّس اسقف الاسكندريَّة اوَّل ما بلغهُ خبر ما كان نسطور ينفثهُ من السمّ . انهض عزيمتهُ وشمَّر الساعد لسحق راس هذه الداهية . واجاب بكلّ نصاحة الى صوت الله الذي دعاهُ الى ان يناضل ذلك الملحد ويكسرهُ ويخزيهُ * وكتب قورلّس منذ الاوّل رسالةً فيها اوضح ايضاحًا جليًّا سرّ التجسّد : قال «انّي متعجّب من انّهُ يوجد احد يشكّ هل يجوز ان تسمَّى مريم العذرآء القدّيسة والدة الله • فانّهُ لمّا كان ربّنا يسوع المسيح الاهًا . وكانت مريم امّهُ . نتج انَّ مريم هي امّ الله * هذا هو الايمان الذي علّمنا ايّاهُ الرسل . وهذا هو تعليم آبائنا . وليس ذلك انَّ طبيعة الكلمة او الالوهيّة اخذت الوجود من مريم . بل انَّهُ في حشا مريم تكوّن وتنفّس بنفسٍ عاقلةٍ الجسد

دّس الذي اتّحد بهِ كلمة الله اتحادًا اقنوميًّا. ولذلك يقال انَّ
لة وُلد بحسب الجسد * الاَ ترى انَّ الامّ في امور الطبيعة لا
صة لها في خلقة نفس الولد. ولكن مع ذلك يقال انَّ الامّ هي
ة الانسان كلّهِ لا والدة الجسد فقط » * وانتشر في الحال هذا
تاب قورلّس في جميع كنائس المشرق. فتسلّى المومنون من
نكسار الذي بهِ اصيبوا من الضلالة الجديدة * وكتب قورلّس
نسطور رسالةً باسمهِ. فيها اجتهد ان يردّهُ عن ضلالهِ. وتوسّل
ه ان يبطّل الشرّ باقرارهِ بانَّ مريم القدّيسة هي والدة الله: وقال
كن متيقّناً انّي مستعدّ ان اقاسي كلّ شيءٍ حتّى السجن والموت
ن اجل ايمان المسيح » * ولم تنجع هذه الرسالة في قلب نسطور.
 بدع. فانَّ من اصعب الامور ارتداد انسان مبتدع بدعة
ديدة عن غيّهِ * فلمّا راى القديس قورلّس انّهُ لا ينتفع شيئًا من
الجة نسطور. التجأَ الى قلسطينس البابا الحبر الاعظم القدّيس.
رح لهُ الواقعة كلّها وحال كنيسة قسطنطينيّة. وتضرّع اليهِ
 يستعجل في وضع الدواء للداء * وارسل نسطور ايضًا الى البابا
تبهُ مختومة بختم يدهِ * فعقد قلسطينس مجمع اساقفة في رومية.
حصت كتب نسطور. فوُجدت مناقضةً لصُحُف الآباء. وحكم
طالها * وكتب قلسطينس الى اساقفة الكراسيّ المتقدّمة في بلاد
شرق يوقفهم على ذلك الحكم * وفي الرسالة التي بعث بها الى

الباب الثالث

في اخبار الكنيسة الى زمان المجمع السادس

الفصل الاوّل

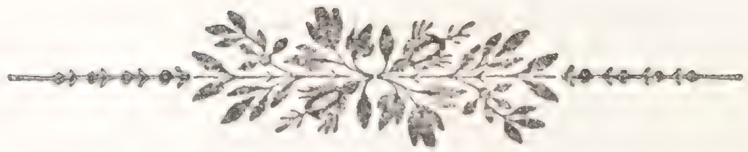
في هرطقة نسطور

[كانت الكنيسة المسيحيّة الى هذا العصر قد بُليت بهرطقات شتّى ظهرت فيها. وافسدت كثيرين من اولادها في اوقات مختلفة. وبلبلت راحتها وازعجتها ۰ الاّ انّ هذه الهرطقات كلّها ما امكن ان تعيش زماناً طويلاً. فانّها بعد ما ملكت قليلاً من الزمان انقرضت شيئاً بعد شيء. وزالت حتّى لم يبقَ منها ادنى اثر في العالم * وهكذا في مبادئ القرن الخامس الذي نحن مزمعون ان نقصّ اخبارهُ كانت قد اندثرت السبليانيّة والمرقيونيّة والبرديصانيّة والاريوسيّة والمقدونيّة وسائر الهراطقة الذين كانوا قد ظهروا الى ذلك اليوم * الاّ انّ تلك الراحة لم يترك الشيطان عدوّ الخير ان تدوم زماناً ۰ فانّهُ بعد مهلة اي في نحو اواسط القرن الخامس اثار (اخزاهُ الله) علي بيعة الله هرطقةً جديدةً اتّسعت

ثبتت وتأصَّلت وانتشرت في البلاد الشرقيَّة. ودامت اجيالاً
كبرت وتعظَّمت جيلاً بعد جيل. حتَّى مالت الى الانحطاط
والزوال. والى الآن لم تندرس آثارها من الدنيا * ووقع من ذلك
في بلادنا بلآءٌ لم تر سابقاً مثلهُ. وذلك انَّ كنيستنا الشرقيَّة التي
كانت الى اواسط القرن الخامس رائقة بوحدانيَّة ايمانها واتّفاق
رؤسائها ووحدة الرياسة فيها. ابتدأَت من ذلك العهد ان تتقسَّم الى
بدع شتَّى وملل مختلفة اخلَّت بحسنها واذهبت رونقها واورثتها اضراراً
دامت اثمارها الى يومنا هذا] * وكان مبدأُ هذه البلايا من هرطقة
نسطور * وذلك انَّ روح الطغيان بعدما حارب في الازمان
السالفة سرّ الثالوث وحقيقة الخطيَّة الاصليَّة وضرورة النعمة. افرغ
وسعهُ ليخلّ بايمان المسيحيّين بسرّ تجسّد الكلمة * وحيث كان المومنون
يعتقدون دائماً بانَّ يسوع المسيح ما هو الَّا كلمة الله المتجسّدة وانَّ في
المسيح المتجسّد من الضرورة طبيعتين واقنوماً واحداً او شخصيَّة
واحدة. قام على هذا التعليم نسطور اسقف قسطنطينيَّة. وزعم أَنَّ في
المسيح اقنومين * وتجرَّأ ايضاً ان يقول بانَّ مريم العذرآء المباركة
لا يجوزان تسمَّى امّ الله بل امّ المسيح فقط. وذلك لتمييزهِ شخص المسيح
عن شخص الكلمة * وحدث من سبب هذا التعليم الجديد الذي لم
يسمع قبلاً نجس كثير وشرّ عظيم في الاقليرس والشعب. واوَّل
ما سمع المومنون في كنيسة قسطنطينيَّة هذا التجديف. هربوا بعيداً

يوحنا * وباهتمامها أُنزل مار يوحنّا من كرسيّهِ ثانيةً. وأُرسل الى مدينة صغيرة في بلاد الارمن اسمها كوكوس. وقصدت الملكة ان تفني يوحنّا في ذلك البلد الشديد البرد الاجدب * فوصل القدّيس يوحنّا الى منفاهُ بعد سفر سبعين يومًا وهو في حال التلف لسبب أَسقامهِ اللازمة لهُ ولسبب ما قاساهُ في الطريق من الاذى من الجند الذين كانوا يقودونهُ * ولمّا تراجع الى عافيتهِ. لم يتمالك نفسهُ أن يصنع الخير مع اهل ذلك البلد. فكان يعظهم ويرشدهم. ويفتقد المرضى فيهم. ويفدي الاسرى * ولمّا بلغ خبر ذلك الى اعدائهِ. شقّ عليهم وجودهُ في نوع من الخير. فخرج امر ان يحوَّل من تلك المدينة الى مدينة اخرى قاصية كانت في حدود المملكة الروميَّة. وكانت ارضها جدباء رديّة السكنى * فأُخذ القدّيس يوحنا الى هذا المنفى الجديد. والله يعلم كم قاسى في الطريق من تعب السير ومن قساوة قائديهِ. وكانوا قد اوصوهم ان يجهدوا في ان يموت في الطريق. ووعدوهم لذلك بخلعة * فحصل القدّيس يوحنّا في اسوأ حال وصار في غاية التلف. وبعد مسير ثلاثة اشهر بلغ الى مدينة كومان في بنطس. فاخذتهُ حمَّى شديدة واوقفتهُ عن السير * وفي الغد اذ كان يصلّي على قبر مار باسيليقس اسقف تلك المدينة الشهيد. ظهر لهُ طيف هذا الشهيد. وقال لهُ «لا تجزع يا اخي. غدًا نكون انا وانت في مكان واحد» * وفي الغد مات

ديس يوحنا فم الذهب في الحقيقة. وكان ذلك في يوم ١٤ ايلول
سنة ٤٠٧ * [كان القدّيس فم الذهب من اعظم الملافنة
ين تنوّرت بهم الكنيسة الشرقيّة والعالم المسيحيّ باجمعهِ * وخلّف
ؤلّفات شتّى جليلة. من جملتها كتاب في الكهنوت الّفهُ في
انفرادهِ . وفيهِ اذ بحث عن جلالة الكهنوت المسيحيّ وشرفهِ.
عظمتهُ على جميع المراتب الارضيّة والسماويّة. ومنها خُطَبٌ في
ير الكتب المقدّسة شهرتها تغني عن وصفها] *



الذهب * [كان يوحنا في الاصل من مدينة انطاكية. وُولد سنة ٣٣٤. وكان ابواهُ من اوجه بيوت المدينة * وفي صغرهِ درس العلوم وتفقه فيها وبرع. وشاع اسمهُ حتى لُقِّب بالخُرُوسُسْطُموس الذي معناهُ في اليونانية فم الذهب. وذلك لفصاحتهِ الرائقة وبلاغتهِ الفائقة * وقصد اوَّلاً ان يشغل فصاحتهُ في الامور الدنيوية. ولكنهُ بعد قليل دعتهُ النعمة الالهيَّة. فانفرد في احد جبال انطاكية. وحبس نفسهُ في مغارة. وقضى هناك سنتين في الدرس والنسك * ثمَّ الجأتهُ اسقامهُ ان يدخل المدينة. وصار اولاً شماسًا بيد ملاطيوس اسقف المدينة. ثمَّ قسيسًا بيد فلابيانس وذلك في سنة ٣٨٢. وتقلد وظيفة الوعظ. واشتهر بهذهِ الخلة في كل النواحي. وخُطَبهُ هي من اعجب ما خلفهُ لنا الاولون * وهو الذي صنَّف الخطبة التي وجَّهها فلابيانس بطريرك انطاكية الى ثاودوسيوس الكبير في شان طلب العفو لمدينة انطاكية] * ولما فرغ كرسي قسطنطينية بموت نقطاريوس. انتُخب يوحنا ليجلس في مكانهِ. فزيَّن يوحنا كنيسة قسطنطينيَّة بفضائل كثيرة سامية. ولاسيما بغيرتهِ على دين الله القويم وعلى صلاح حال الاقليرس وجماعة المؤمنين * فكان في خُطَبهِ يوبخ الاغنياء لاسرافهم وبخلهم. والنساء لافراطهنَّ في التحلي والتزين. والعظماء لكبريائهم وتعظمهم. وفي كل ذلك كان يبرع وينجب من دون ادنى خوف * لا بل انَّ قصر الملك نفسهُ لم تفتهُ

ية فم الذهب . وطالما نبّه الملك وزوجتهُ اودكسية وذكّرهما
ضهما * ولم تبعد هذه الجسارة الرسليّة ان تنهض عليهِ عداوة
سّاد من الاقوياء . والملكة على الخصوص حنقت عليهِ من
ب خطبةٍ خطبها واتّخذها الملاّقون اشارةً اليها وتوبيخًا لها *
ت ان تاخذ ثارها . فاستعانت بثاوفيلس بطريرك الاسكندريّة
ي كان من المبغضين ليوحنّا . وبهمّة هذا البطريرك قُثِرس
حنّا اي أُنزل عن كرسيهِ وحُكم عليهِ بالنفي * [فاستغاث يوحنّا
طان الحبر الاعظم البابا انوكنتيوس . وكتب اليهِ طالبًا منهُ
نجاد . فلمّا وقف البابا على حقيقة الامر بعد فحص اخبار المجمع
ي فيهِ قُثِرس . حكم بكونهِ بريًّا] * ولكن مع ذلك أُخذ يوحنّا
المنفى . فحدث في الغد زلزلة في قسطنطينية اتّخذها الناس
لامة الغضب الالهيّ * واودكسية نفسها اخذتها الرعبة من ذلك
انّها استردّت يوحنّا من المنفى . فرجع الى كنيستهِ برهج وتظفّر *
وثار على يوحنّا شرّ آخر بعد قليل من الزمان * وذلك
كانوا قد نصبوا بقرب الكنيسة الكبرى في قسطنطينيّة شخصًا
صنمًا من فضّة مصوّرًا على صورة اودكسية الملكة . وفي بعض
يام كان الجمهور يجتمع هناك ويلعبون ملاعب تخالف الدين
طاهر . فذمّ يوحنّا فم الذهب في خُطَبهِ هذه العادة السيّئة . ولمّا
ذلك الى الملكة . اتّخذت ذلك حقارةً لها . وحلفت ان تهلك

هيرونمس وهو في منسكهِ . اتّقدت في مهجتهِ الغيرة على الايمان . وشرع يناضل مذهب ذلك الملحد بكلّ قوّتهِ * فاحتدَّ بلاجيوس غضباً . وكتب في المدافعة عن مذهبهِ . وهيّج تباعهُ على هيرونمس حتَّى انهم ارادوا التنكيل بهِ . فغاروا على الدير الذي كان يسكن فيهِ ونهبوهُ واطلقوا فيهِ النار * فرحل هيرونمس الى مدينة انطاكية . وهناك رسمهُ بولينس اسقف المدينة قسّيساً * ولكنّهُ لم يحبّ ان يقيم في تلك المدينة ولا ان يلازم كنيسة من الكنائس . لانّهُ كان ناوياً ان يرجع الى سيرتهِ الرهبانيّة * وانطلق الى مدينة قسطنطينيَّة . واجتمع هناك مع اسقفها القدّيس غريغوريوس النازينزيّ زماناً . وقرأَ عليهِ علم الكتاب المقدَّس وتفسيرهُ . وكان يجد في ذلك لذّةً عظيمة * ومن هناك ذهب الى مدينة رومية . فامسكهُ البابا دَمَسُوس عندهُ ليعطي الفتاوي للطالبين في مسائل الكتاب المقدَّس وفي مسائل اخرى دينيّة * وبعد ما مات دَمَسُوس . رجع هو الى ارض فلسطين . وجعل مقامهُ في بيت لحم * وهناك حصل على ما كان يتمنّاهُ من الراحة والامن . فطفق يصنّف تلك الكتب النفيسة الجليلة في الكتاب المقدَّس التي بها خوَّل كنيسة الله مقداراً من الفضل لا يوصف ولا يُستقصَى * واذ اراد ان يتحف الكنيسة بترجمة لاتينيَّة للكتاب المقدَّس تكون مضبوطة بموجب اللغات الاصليَّة التي فيها كُتب . تفرّغ لدرس اللغة العبرانيّة .

ل في اكتسابها اهتمامًا جزيلاً واجتهادًا طويلاً . وتعلّم ايضًا
ة السريانيّة . وكان معلّمهُ رجلاً يهوديًّا علّامةً في ملّتهِ * ثمّ
ل يكشف عن غوامض الكتاب المقدس . واتحف الكنيسة
بيّة بترجمة لاتينيّة [بعد اجيال قليلة تملّكت هي وحدها في
الكنيسة . والى الآن لا يُستعمَل في تلك الكنيسة قاطبةً الاّ
ة مار هيرونمس] . وألّف مقدّمات وترجمات لتوضيح امور كثيرة
ن الكتاب المقدّس * ووصل الينا من مار هيرونمس تفاسير
يرة لاسفار هذا الكتاب الشريف * قال في ترجمة اشعيا الذي
ش قبل المسيح بسبعماية سنة في مقدّمة تفسير نبوّتهِ بانّ اشعيا
كن عندهُ نبيًّا فقط . بل كان ايضًا انجيليًّا ورسولاً . لانّهُ حوى
سفر نبوّتهِ كلّ اسرار المسيح . اي ميلادهُ من عذراءَ . وآيات
هِ . وعار موتهِ . ومجد قيامتهِ . واتّساع كنيستهِ في العالم كلّهِ *
ل «انّ اشعيا تكلّم كلامًا واضحًا عن هذه الاشياءَ كلّها كانّهُ
ث عن امور وقعت لا عن امور ستقع» *

الفصل الرابع والاربعون

في فضائل مار يوحنّا فم الذهب وفي ما اصابهُ من الاذيّات

اشتهر في ذلك الزمان في بلاد المشرق القديس يوحنّا فم

الفرس برسالة اخرى • فقضاها على احسن منوال . واقنع ملك الفرس بالصلح مع الروم وكفِّ الاذى عن النصارى * وحظي ماروثا عند ملك الفرس بالعزّ والكرامة لما ظهر منهُ من صلاح السيرة والمنزلة الالهيَّة . فاحبَّ الملك الديانة المسيحيّة ونوى ان يتدين بها * واغتنم ماروثا هذا اليُمن . وشمّر الساعد لرمّ الكنائس المهدومة او الخربة واصلاح حال النصرانيّة في تلك البلاد * وعقد مجمعاً في المدائن قاعدة مملكة الفرس من اساقفة تلك البلاد . وكان اسم اسقف المدائن يَابَلاّها • وفي هذا المجمع جدَّدوا تحديدات المجمع النيقاوي . ورسموا قوانين شافية لترتيب حال الكنيسة ومنع المساوئ . وكان ذلك سنة ٤١٤ * وقد كتب القدّيس يوحنّا فم الذهب رسالةً الى ماروثا فيها اسهب بمدحهِ والثناء عليهِ *

ولماروثا مؤلّفات شتّى استفادت بها الكنيسة الشرقيّة . اشهرها اخبار الشهداء الذين استشهدوا في بلاد الفرس في الاضطهاد الاوّل الذي اثارهُ سابور الملك وفي الاضطهاد الثاني الذي ثار في ايّام يزدجرد ووارارن . وتاريخ المجمع النيقاويّ مع قوانين يبلغ عددها ثمانين قانونًا ونيفاً ممّا لا يوجد عند اليونان ولا عند اللاتين . وعونيثات او اغانيّ تسبيحيَّة لاكرام الشهداء تترنّم بها الكنيسة الى اليوم في طقس الكلدان والسريان والموارنة في صلاة الصباح والمساء] *

الفصل الثالث والاربعون

في القديس مار هيرونمس

انَّ القدّيس هيرونُمس هو من اعظم آباء الكنيسة اللاتينيّة
هرهم . واشتهر خصوصاً في مرافقة القدّيس مار اوغسطينس في
ض هرطقة البلاجيين * وُلد هيرونمس في ارض دلماط . وكان
ة من المسيحيّين الاغنياء . واذ رآهُ ابوهُ ذا قابليَّة للعلوم . بذل
ه في تثقيفهِ وتمليكهِ الادب وفنون العلم * فارسلهُ الى مدينة
ية العظمى . وهناك قرأ علم البيان والبديع وما يُلحق بذلك
فيها * وكان في اوَّلهِ محبّاً للفخر والمجد الباطل . فاهملهُ الله
وقع في فخاخ الشيطان * الاَّ انَّهُ لم يتأخَّر ان يرجع على عقلهِ
قوي . وفي نحو سنة ٣٧٤ انقطع الى احدى صحارى سورية
كف على النسك * وكانت تلك الصحراء واسعة تقلي الشمس
. ومع ذلك فكان فيها فئة من الزهّاد يسكنونها لشدَّة حبّهم
نة القشفيَّة * وحكى هيرونمس عن نفسهِ انَّهُ في تلك الصحراء
يرتعب من احكام الله ويخاف من ذكر دينونتهِ الرهيبة .
يجهد نفسهُ ليصير اهلاً ان يقف بين يديهِ بوجه
* وفي اثناء ذلك اتّفق مرور بلاجيوس المبدع المذكور سابقاً
فلسطين . حيث اجتهد ان يبثّ اضاليلهُ * فلمّا احسّ عليهِ

اعضاؤُهُ كلّها ثمَّ يحزّ راسهُ * فاعجب الملك واراران هذا الراي. وانفذ امرًا بذلك * فاخذ الجلّادون يعقوب الى محلّ العذاب. ولمّا انتهوا اليهِ. طلب منهم ان يمهلوهُ ريثما يصلّي * فجثا على ركبتيهِ. وصلّى صلوة حارّة متقدة بالشوق والحبّ الالهيّ * ولمّا فرغ من صلاتهِ. شرعوا يقطّعون اصابع يدهِ اليمنى اوّلاً. ثمّ قطّعوا اصابع يدهِ اليسرى. ثمَّ اصابع رجلهِ اليمنى ثمَّ اليسرى. وكان هو على كلّ اصبع تُقطَع. يسبّح لله ويحمدهُ ويقرّب الاصبع المقطوعة قربانًا لهُ تعالى * ثمَّ قُطِّعت اعضاؤُهُ كلّها فردًا فردًا على النسق الذي ذكرناهُ. وفي الآخرِ احتزّوا راسهُ. وفي كلّ ذلك لم يسمعوا منهُ كلمةً تدلّ على نفور او تالّم او تظلّم. بل كان يحثّ الجلّادين ان يجروا امر ملكهم بلا تعويق * وبعدما قضى استشهادهُ. طرحوا جثّتهُ على الارض. فالتمس بعض النصارى من الحرّاس ان يبيحوا لهم اخذها. وبذلوا لهم شيئًا غير يسير من الدراهم. فابى الحرّاس ان يجيبوا الى ذلك * ولمّا انصرف الحرّاس. اقبل النصارى على الجثّة المباركة وحملوها باكرام وتجليل. وقبروها في مكان لائق] *

الفصل الثاني والاربعون

في مار ماروثا اسقف ميافرقين

[في نحو ذلك الزمان اشتهر في بلاد المشرق القدّيس
وثا اسقف ميافرقين التي في ما بين النهرين * هذا لمّا راى
ة الاضطهاد الثائر على اخوتهِ بامر ملك الفرس . اخذتهُ الشهامة
دين المسيح . فرحل الى مدينة قسطنطينيَّة ليسترحم قلب
ديوس ملك الروم لعلّهُ يتشفّع لدى يزدجرد ملك الفرس في
يل الاضطهاد * وفي ذلك الزمان جمع ثاوفيلس بطريرك
كندريّة مجمعاً في مدينة خلقيدوني على القدّيس يوحنّا فم
ب لمراعاة خاطر اودكسية الملكة . وحضر في المجمع اساقفة
ان . الّا انّ ماروثا لم يرضَ ان يحضرهُ . بل اذ كانت امور الكنيسة
كة في تلك البلاد . لم يواجه الملك حتّى قضى نحبهُ * ولمّا جلس
ابنهُ ثاودوسيوس الملك . ارسل هذا الملك ماروثا الى ملك
ن في رسالة * فلمّا حصل ماروثا الى يزدجرد بتلك الرسالة .
لهُ الملك بغاية الاكرام . وانزلهُ منزلة عظيمة * فحسدهُ كهنة
ن عبّاد النار . وارادوا ان ينكلوا بهِ . فاخزاهم ماروثا بحول الله
. فعظم شانهُ عند الملك . واذن لهُ ان يبني كنائس حيثما شاء *
لق ماروثا ثانيةً الى قسطنطينيّة . فارسلهُ ملك الروم الى ملك

الفصل الحادي والاربعون

في اضطهاد النصارى في بلاد الفرس واستشهاد القديس يعقوب المقطّع (سنة ٤٢٢)

[كان ملوك الفرس اذا وقع حرب بينهم وبين ملوك الروم يثيرون الاضطهاد والعذاب والقتل على النصارى الذين تحت حكمهم بغضةً للروم الذين كان دينهم النصرانيّة * واشتهر خصوصًا في نحو ذلك الزمان اضطهاد قويّ بامر يزدجرد ملك الفرس وابنهِ واراران. ومن الذين اشتهروا في هذا الاضطهاد القدّيس يعقوب المقطّع * هذا كان اوّلاً مكرّمًا في قصر ملك الفرس. وكان عزيزًا لدى يزدجرد. فكان يقدّمهُ ويوليهِ المراتب الكريمة والوظائف الشريفة * ولشدّة حبّ الملك لهُ وخدعهِ بالصِلات والهدايا اغترّ يعقوب في الاوّل. فانكر الديانة المسيحيّة * فلمّا بلغ هذا الخبر امّهُ وزوجتهُ . شقّ عليهما ذلك جدًّا . وكتبتا اليهِ عتابًا قويًّا ولومًا شديدًا . وقالتا لهُ «انّ الملك الذي حُبّك الزائد اليهِ جعلك ان تكفر بالاله السرمديّ هو انسان زائل كسائر الناس. وها انّهُ قد مات. وتشوّهت صورتهُ . وانتن جسمهُ . واستاكلهُ الدود. ومع كلّ قناياهُ وثروتهِ لا تصل يدهُ ان ينشل احدًا من العذاب الدائم * فتُب وارجع عن غيّك. والاّ فانت تحت عقاب يد الله

درة ونحن لا نعرفك البتّة» * فلمّا بلغت الرسالة الى يعقوب.
ه على حالهِ ورأى عظيم الجرم الذي كان قد ارتكبهُ. وندم
ما فعل. وتاب توبةً صادقة نصوحاً. وانقطع لعبادة الله
ل * فلمّا وقف ملك الفرس واراران (وكان قد جلس مكان
يزدجرد) على ارتداد يعقوب الى دين النصارى. امر
ضارهِ * ولمّا مثل بين يديهِ. سألهُ الملك وقال «اصحيح انّك
ت نصرانياً». فقال «نعم». قال «افما كنت مجوسياً». فقال
». قال «كيف لا وقد وهب لك الملك كذا وكذا جزآء
ك» * واشتعل الملك غضباً على يعقوب. وقال لهُ «ان
ت مصرًّا على قولك. فعلتُ بك كذا وكذا. ولا تظنّ انني
ي امرك باخذ راسك بالسيف» * ولكنّ يعقوب ما ارتاع
هذه التهدّدات. بل تشجّع واخذ يردّ على كلّ احتجاجات
ك في شان عبادة الاوثان ويفنّدها واحدة واحدة. ثمّ اذ
انّهُ لا محالة من موتهِ عن ايمان المسيح. سلّم نفسهُ لله وقرّب
ـهُ كالذبيحة لاكرامهِ. وتوسّل اليهِ تعالى ان يعينهُ ويتقبّل
ـهُ * واما الملك فاستدعى فقهاءَ مملكتهِ. وامرهم ان يقترحوا
العذاب الذي يستحقّهُ يعقوب * فاقترح واحد منهم على
ك ان يعذّب يعقوب بتقطيع اصابع يديهِ ورجليهِ واحدةً
دة ثمّ يديهِ ثمّ رجليهِ ثمّ ذراعيهِ ثمّ ساقيهِ ثمّ فخذهِ. ثمّ تقطّع

الايمان وبحركة اولى الى الفضيلـة دون عونهِ تعالى * وقام مار اوغسطينس على هذه البدعة ايضـًا وفندها تفنيدًا قويًّا . وصارع المذهب البلاجيّ الى آخرِ فرع منهُ * وصنَّف في هذا الشان كتابين . فيهما بيَّن انَّ الله هو الذي يعين الانسان بنعمتهِ ليس فقط ليزيد ايمانهُ بل ايضًا ليبتدئ بهِ . وانَّ النعمة الاولى التي تاتينا من الله لا يمكن ان تكون مبنيَّة على فضلنا . وانَّها لا اصل لها منّا البتّة * واورد لاثبات ذلك نصوصًا شتّى من الكتـاب المقدّس . فيها يقال انَّ الله هو الذي يهيّئ ارادة الانسان ويحوّلها نحو الصلاح . واشهر هذه النصوص قول بولس الرسول « ما الذي لك ولم تاخذهُ » ومنهُ يتّضح انَّ الانسان محتاج الى نعمة الله ليبتدئ بالصلاح الموافق للخلاص وليعملهُ عملًا . وانَّ الله لا يدعو الناس الى الايمان لكونهم مومنين بل ليكونوا مومنين * وبيَّن من الصلوات التي استعملتها الكنيسة من قديم الزمان انَّ الكنيسـة تنتظر النعمة من لطف الله عزَّ وجلّ لا تبعًا لاستحقاقنا . وانَّهُ لو لم تكن النعمة مجّانيّة لم تستحقّ ان تسمَّى نعمة * وايَّد مبناهُ بعماذ الاطفال . واوضح انَّ الاطفال مدعوّون الى نعمة العماذ من دون ان يسبق منهم ادنى عمل يجعلهم مستحقّين لذلك . وقال « اين هنا الايمان واين الاعمال التي سبقت النعمة على قولكم » *

ولمّا بلغ البابا قلسطينس انّ قسوس مرسيليه كانوا يذهبون

هبًا مخالفًا لهذا تعليم اوغسطينس . ابطل تعليمهم . وحدَّد انّ
تعالى هو الذي يصنع في قلب الانسان صنيعًا . بحيث انّ
لّ الافكار المقدّسة وكلّ المقاصد التقوية وكل حركات الارادة
سالحة في امر الخلاص تاتي من ذلك الذي بدونهِ لا نقدر ان
ل شيئًا *

وانقطعت هذه المجادلات كلّها بالقانون الثاني الذي حدّدهُ
ع التام في مدينة من مدن فرنسا . وقال فيهِ « من قال انّ
دياد الايمان او ابتداءهُ ايضًا والحركة الاولى التي بها القلب
ن بالله الذي يبرّر الخاطئ ليس هو من فعل النعمة الالهيّة
انّ ذلك يُصنَع فينا بنوع طبيعي . فقد خالف الاقوال
سليّة . فانّ بولس الرسول قال « انّ لنا هذه الثقة بانّ الذي
فيكم بالعمل الصالح سيكمّلهُ الى يوم ربّنا » . وقال « قد أُعطيتم
تومنوا بيسوع المسيح . . . وبهذه النعمة خلصتم بالايمان . وليس
ك منكم . بل هو عطيّة من الله » *



يثبت ويجري الحكم الذي ابرزهُ انوكنتيوس على بلاجيوس وقلسطيوس الى ان يعترفا اعترافًا مصرّحًا باننا نحتاج الى نعمة المسيح لتعيننا على ان نعرف قواعد البرارة في كلّ اعمالنا ونتبعها. حتّى اننا اذا عُدمنا هذا العون لم يمكنّا ان نحصل على ما يخصّ التقوى او ان نفتكر فيهِ او نقولهُ او نعملهُ * ولا يكفي انَّ قلسطيوس خضع خضوعًا مبهمًا لحكم الكرسي الرسوليّ. بل يقتضي ان يرفع سبب التشكّك برفضهِ كلّ ما هو مغشوش في كتابهِ وتحريمهِ بدون مغالطة ولا ابهام. فيفهم كلّ احد انَّ المبدع نفسهُ قد اقلع عن اضاليلهِ لا انَّ روح القدس قد حكم بصوابها» * ولمّا وصلت هذه التفاصيل الى رومية. حصل منها الارب. فانَّ زوسيمس البابا فحصها فحصًا دقيقًا. وتاكّد لديهِ غشّ قلسطيوس. وابرز حكمًا ايَّد بهِ تحديدات اساقفة افريقية وابطل بلاجيوس واصحابهُ * وهذا الحكم قُبل عند الكاثليك قاطبةً بغاية الاحترام. وفهم كلّ احد حينئذٍ انَّ التقريرات التي بها المحدون يحاولون ان يغطّوا بِدَعهم قبل انْ يجري الحكم عليهم ليست خالصة * غير انَّ البلاجيّين طلبوا حكم المجمع المسكونيّ على حكم البابا. ولكن لم يصغِ احد الى تحجّجهم. وقال مار اوغسطينس بانَّ هذا عمل البلاجيّين برفع دعواهم الى المجمع المسكونيّ تعلّلٌ باطل. وانَّ الكنيسة اذا اجتمعت لابدَّ من ان تحكم بموجب ما حكم اساقفة افريقية منضمّين الى البابا.

ن الهرطقة قد شُجبت شجباً كافياً . وانّهُ لم يبقَ سبيل الى فحصها
الى ردعها * واثبت هنوريوس الملك هذا الحكم وايّدهُ . وامر
نفي على كلّ من يتجرّأ ان يقول تلك المقالات المحرومة *

الفصل الاربعون

في ضلال المتشبّهين بالبلاجيّين

لمّا انكسرت شوكة البدعة البلاجيّة وصُرعت الى الارض
نيت رويداً رويداً . قام من رمّتها بدعة اخرى سُمّيت بدعة
شبّهين بالبلاجيّين . لانّ اصحابها كانوا يقولون قول بلاجيوس
انّهم كانوا يلطّفونهُ ويزخرفونهُ . فكان معتقدهم متوسّطاً بين
تقد الارثذكسيّين وبين ضلال البلاجيّين * وكان الذين ابدعوا
ا الضلال الآخَر قسوساً من مدينة مرسيلية من اعمال فرنسا *
ان هذا الضلال متوقّفاً في انّ اختيار الانسان هو الذي يبتدئ
لايمان ويحرّك الانسان الى اشتهاء الصلاح . وانّ الله تعالى اذا
ى في الانسان هذا التشوّق الاوّل يجود عليهِ بزيادة الايمان
عمة ليعمل الاعمال الصالحة * فكان البلاجيون يقولون بالخطية
صليّة كالكاثليك . ومثلهم يوجبون نعمة من الله باطنة لعمل الصلاح .
انّهم كانوا يقولون انّ الانسان يقدر ان يستحقّ هذه النعمة بابتداء

الصلاح * وكتب آباء مجمع ميلة الى القدّيس انوكنتيوس بابا رومية . والتمسوا منهُ ان يؤيّد التحديد الذي حدّدوهُ بقوّة السلطان الرسليّ * فردّ الحبر الاعظم جواباً الى رسالة المجمع . فيهِ مدح همّتهم على حفظ نقاوة الايمان . وشرح ببيّنات ثابتة وبراهين ساطعة المعتقد القديم بالخطيّة الاصلية وبضرورة النعمة للاعمال المسيحيّة التقويّة . وجزم جزماً قويّاً على بلاجيوس وقلسطيوس وتبّاعهما . وحتم بانَّهم مفصولون من شركة الكنيسة ما لم يرفضوا اضاليلهم * وعند ذلك حكم مار اوغسطينس الملفان أنَّ الدعوى قد خُصِمت ولم يبقَ محلّ للجدال . وقال « قد تكلّمت رومية . وحُكم اساقفة افريقية قد أُرسل الى الكرسيّ الرسليّ . ووفدت صُحُف البابا في تأييد ذلك الحكم . فقد انتهت الدعوى . ويا ليت الضلال ايضاً ينتهي » *

الفصل التاسع والثلاثون

في مكايد البلاجيّين وعنادهم

انَّ ما تمنّاهُ القدّيس اوغسطينس لم يحصل عليهِ . فانَّ الضلال لم يزَل ثابتاً على رغم الحرم الذي اصابهُ * وبلاجيوس واصحابهُ عوضاً عن ان يسلّموا لتحديد الكنيسة ويرفضوا ضلالهُ . افتكروا ان يزيلوا عن انفسهم في عيون الناس العار الذي اصابهم

الحرم الذي ضُربوا بهِ * فاقبل بلاجيوس وكتب رسالة ذات
خضوع واحترام الى زوسيموس الذي تخلّف بعد القدّيس انّوكنتيوس
على كرسيّ رومية. واجتهد ان يبرّئَ نفسهُ * وانطلق قلسطيوس
نفسهِ الى رومية. وقدّم بين يدي البابا تقريرًا مغالطًا يحوي غشًّا
ومكرًا. ووعد فيهِ بان يحرم كلّ ما يحرمهُ الكرسيّ الرسليّ * فالقى
البابا على قلسسطيوس مسائل شتّى. فاجاب قلسطيوس على كلّها
بظاهر الوداعة والاستقامة الحاوية داخلها المكر * فاكتفى البابا
بتلك الاجوبة. وحكم انَّ قلسطيوس بريٌّ. ولم يكن ذلك لسبب
انّهُ استحسن مذهبهُ. بل لسبب انَّ قلسطيوس قرّر سلفًا انَّهُ خاضع
لحكم الكرسيّ الرسوليّ * ثمَّ كتب زوسيمس الى اساقفة افريقية رسالةً.
فيها اظهر انّهُ مقتنع بخلوص بلاجيوس. ووبّخهم نوعًا على وجه
تصرّفهم مع هذا المبدع. الَّا انَّهُ لم يقُل كلمةً تؤيّد مذهبهُ الضلاليّ *
ولمّا وصلت هذه الرسالة الى افريقية. فهموا انَّ البابا انخدع بمكر
اولئك المكّارين. وراوا انّهُ لابدّ من اجتماع مجمع كبير اكبر ما يمكن *
فعُقد المجمع وحضرهُ مايتان واربعة عشر اسقفًا. شرحوا كلّ ما يتعلّق
بهذه القضيَّة شرحًا مستوعبًا. وذكروا بالتفصيل كلّ ما جرى في
بلاد افريقية. وبيَّنوا السمّ المختفي في تقريرات اولئك الهراطقة
ودسائسهم. وحرّروا قوانين دغماطيَّة اي تخصّ المعتقد. وارسلوها
الى رومية مصحوبةً برسالة قالوا فيها «قد قرّرنا انَّهُ لابدّ من ان

الفصل الثامن والثلاثون

في هرطقة البلاجيين (سنة ٤١٢)

قبلما تزول فتنة الدوناطيين كلّ الزوال بُليت الكنيسة بضربة اخرى. وقام عليها اعداءٌ جددٌ حاربوها وآذوها زمانًا * كانت هذه هرطقة البلاجيين. وكان إمامها بلاجيوس. وهو كان في الاصل من بلاد برتانيا. وكان ذا تفنّن وتحايل ومراءاة. فكان كثيرًا ما يتقلّب في الكلام من دون ان يتقلّب في المعنى * وجاء بلاجيوس الى مدينة رومية العظمى. وشرع يبثّ فيها تعليمًا جديدًا ملقًا لهوى الانسان وداعيًا ايّاهُ الى التعظّم. فانهُ كان ينكر الخطيّة الاصليَّة. ويقول بانّ الانسان لا يحتاج الى نعمة المسيح للخلاص * وكان في اوّل امرهِ يكتم حقيقة مذهبهِ خوفًا من ان يهيج عليهِ الناس بمخالفتهِ للتعليم القديم الراسخ في عقول الجميع. وكان مرادهُ ان يدعوهم شيئًا فشيئًا الى التمسّك بضلالهِ. فكان يغطّي ضلالهُ بكلمات تحتمل معاني شتّى * واتّخذ لهُ تلميذًا اسمهُ قلسطيوس. وهو عاونهُ كثيرًا في نشر هذه البدعة * وانطلق قلسطيوس الى بلاد افريقية. ولكونهِ فاق معلّمهُ جراءةً وبطشًا. اخذ ينذر بمذهبهِ علانيةً ومصرّحًا. وشرع يعلّم خلافًا لتعليم بولس الرسول انّ خطيّة الانسان الاوّل لم تُعْدِ الى اولادهِ. وانّ الانسان لا يحتاج الى نعمة باطنيَّة

ل بوصايا الله . بل تكفيهِ لذلك قوّتهُ الطبيعيّة *

وحدث من جرّاء هذا المذهب الكفريّ سجس كثير *
ن الذين اشتهروا في محاربة هذه البدعة كان القدّيس
غسطينس الذي سبق الكلام عنهُ . وهو برهن من النصوص الصريحة
وجودة في الكتاب المقدَّس ومن العماد الذي يُعطَى للاطفال على
انولَد ممسوكين بخطيّة آدم ابينا الاوّل . وبيّن من الصلوة التي
اها ربّنا يسوع المسيح اننا محتاجون الى نعمة تسبقنا وتعين
دتنا في كلّ اعمالنا التي تخصّ خلاص النفس *

وحُرم قلسطيوس في مدينة قرطاجنة . وعُزل عن شركة
كنيسة * وفي اثناء ذلك انطلق بلاجيوس الى بلاد فلسطين .
ل بتزويقاتهِ واكاذيبهِ ان يغشّ اساقفة تلك البلاد . وذلك
ه جرآءَةً وكبرياء . فكتب الى مار اوغسطينس احتجاجهُ .
بهِ استند على رأي اساقفة المشرق لاثبات مذهبهِ * غير انّ
اقفة افريقية شقّ عليهم هذا النصر الذي أُوتي ذلك المبدع
لاف الحقّ . فاجتمعوا وعقدوا مجمعين . احدهما في مدينة قرطاجنة .
لآخر في مدينة اخرى اسمها مِيلة . وفيهما حدَّدوا معتقد الكنيسة
كاثليكيّة . وهو انّ خطيّة آدم تورّثها اولادهُ . وانّ الانسان لا
تطيع ان يعمل عملاً فائق الطبيعة او نافعاً للخلاص ان لم
ه عون من النعمة الالهيّة يحرّكهُ في الباطن الى ارادة

ودوناطيّين ان يجتمعوا الى مدينة قرطاجنة. فيسوغ للاساقفة المختارين من الحزبين ان يتفاوضوا بعضهم مع بعض * وعيّن الملك احد اعوانهِ ليحضر في المجلس ويمنع السجس والبلبلة * فعُقد هذا المجلس الشهير في اليوم السادس عشر من شهر أيّار سنة ٤١١. واختاروا من كلا الفريقين سبعة اساقفة ليتفاوضوا. واربعة كتّاب من القسوس والشمامسة ليكتبوا اخبار المجلس. واختاروا اربعة اساقفة ليراقبوا الكتّاب دفعًا لكلّ توهُّم او غشّ * فلمّا انتظم المجلس وترتّب كلّ شيء. قال الاساقفة الكاثليكيّون مشافهةً وتحريرًا «ان غلبَنا خصمنا في المجلس. رضينا ان ندفع اليهم كراسينا ونبقى تحت امرهم. وانْ انغلب خصمنا واقبلوا الى طاعة الكنيسة. قاسمناهم الاسقفيّات» * وادّى الاساقفة الكاثليكيّون بهذا القول شيئًا عجيبًا من الحلم والنجابة. بل بلغت بهم نجابتهم الى اكثر من ذلك. فقالوا «وان تثقّل المومنون من ان يروا اسقفين في كنيسة واحدة خلافًا للعادة الجارية. اعتزلنا نحن وسلّمنا لهم كراسينا * فاننا يكفينا لخلاصنا ان نكون مسيحيّين. وانّما قد سيم كلّ واحد منّا اسقفًا من سبب المومنين. فان اقتضى خير المومنين ان ننزل من مراتبنا. رضينا بذلك مسرورين» * ذُكر انهُ من بين نحو ثلاثماية اسقف من الكاثليكيّين الذين في المجلس لم يوجد من قاوم هذا العهد الكريمي العجيب الاّ اثنان فقط. وذلك ممّا يستحقّ التعجّب. لا بل

هذين الاثنين سلمًا بعد ذلك للراي العامّ * وهذا الراي كان
من نطق بهِ القدّيس اوغسطينس . وكان هو واحدًا من
ساقفة السبعة المختارين من الكاثليكيّين ليحاموا عن حقوق
نيسة . والستّة الآخرون رفاقهُ فوّضوا اليهِ امر المدافعة عن
ويل الدوناطيّين وحججهم * وبقي المجلس معقودًا ثلاثة ايّام .
نضى فيهِ كلّ شيء بالترتيب * وشرح القدّيس اوغسطينس في
س وبيّن انّهُ لا يمكن ابدًا ان يكون سبب شرعيّ للانفصال
الكنيسة الكاثليكيّة . وانّ الذي يشقّها ياثم اثمًا عظيمًا . وانّهُ
يخلص من كان خارجًا عن حضن الكنيسة . وانّهُ من خرج
حضنها لا يمكن ان يرجو لنفسهِ الخلاص . وذلك لانّهُ خارجًا
هذه الكنيسة الواحدة لا يمكن ان يوجد قداسة حقيقيّة ولا
حقيقيّة . وانّ الكنيسة الحقيقيّة التي هي وحدها عروسة يسوع
يح هي ممتدّة في الارض كلّها بمقتضى مواعيده . وليست محصورة في
ة من زوايا افريقيّة . وانّها على الارض تجمع صالحين واشرارًا .
نعم لا يجوز الاشتراك مع الاشرار في شرّهم . ولكن لا ينبغي
صال عنهم في الظاهر * وبارك الله في همّة اوغسطينس . فاثمر
مهُ في قلوب السامعين . والدوناطيّون الذين كانوا يحبّون
من جميع الذين بلغهم خبر ما جرى في المجلس فتحوا عيونهم
روا الحقّ . ومن ذلك الزمان دخلوا حظيرة الكنيسة افواجًا *

قبول فيقيليان * وجرى من هذا الشقاق شرور كثيرة وبلايا
متنوّعة في بلاد افريقية * وذلك انّ الدوناطيّين لم يرهبهم الجزم
الذي بهِ تضرب الكنيسة اولادها العصاة . فانفصلوا وصاروا جماعة
قائمة بنفسها . ولم يرتدعوا من قوّة الحرم الذي يرهبهُ كلّ احد.
وانشقّوا هكذا من جسم الكنيسة * وزاد عددهم شيئًا فشيئًا . ولمّا
رأوا حزبهم قويًا . اتوا بالمنكرات . وارتكبوا ما يقشعرّ الجسم لذكرهِ
ممّا لا يصدَّق . لولا انَّنا نرى من التجربة انَّ روح الشقاق تفضي
باصحابها كروح الهرطقة الى كلّ نوع من الفواحش * فانَّ
الدوناطيّين انقلب عنادهم الاوّل الى فتنة . فغاروا على الكنائس
وهم مسلّحون واستولوا عليها . وطردوا الاساقفة وقلبوا المذابح وكسروا
الاواني القدسيَّة * وبلغ بهم كفرهم الى حدّ انّهم عمَّذوا بالقسر من
جديد من كان معمَّذًا خارجًا عن جماعتهم . كأنَّ الكنيسة كانت
قد بادت في بقيَّة العالم . ولم يبقَ منها الاّ شيء زهيد في زاوية من
زوايا افريقية * وكانوا يعاملون شرَّ المعاملة من لا يرضى ان يعتمد
ثانيةً منهم . فكانوا تارةً يجرحون المقاومين . وتارةً يطرحون في عيونهم
خلاًّ ونورة * وقيل انَّهم عمّذوا عماذًا ثانيًا ثمانية واربعين نفسًا لم
يقدروا ان يحتملوا شدَّة العذاب * امّا الاساقفة ففي الاوّل لم
يكن لهم سبيل سوى ان يصبروا ويتأنّوا على قساوة المشاقّين .
وكانوا يرجون انّهم بذلك يجذبونهم الى الرعوي * ومن جملتهم

ـديس اوغسطينس اسقف هبونة الذي اشتهر فيما بعد شهرةً
ـيرة بذل همَّةً وافرة في اقناعهم بالرجوع الى حظيرة الكنيسة ٠
ـب منهم جماعةً غير يسيرة ٠ واما الباقون فاشتدَّ غيظهم عليهِ ٠
ـى انهم كمنوا لهُ اذ كان منطلقًا الى زيارة البِيَع الكاثليكيّة * وكاد
ـت يوم يقع في حبائلهم ٠ ولولا سهو قائدٍ اذ حاد عن الجادّة حيث
ـان اعداؤهُ كامنين لهُ الى طريق غير مطروق . لهلك في الكمين *
رای الاساقفة الكاثليكيّون ان جسارة هولاءِ المنشقّين لا تزال
ـاد عجرفةً . التجأُوا الى الملك وطلبوا منهُ عونًا عليهم . ونالوا منهُ
ـرًا قويًا بهِ يُحرَم على الدوناطيّين ان يتجمّعوا في محلّ واحد . وان
ـسوا يعاقَبون بالموت *

الفصل السابع والثلاثون

في المفاوضة التي صارت في مدينة قرطاجنة
لاطفاء الفتنة (سنة ٤١١)

ان الاساقفة الكاثليكيّين كان يهمّهم تعقيل الدوناطيّين
ـثر من معاقبتهم . فالتمسوا من الملك ان يخفّف الامر عليهم *
ـرضوا عليهِ ان يدعوهم الى مفاوضات مع الكاثليكيّين . فاستحسن
ـك هذا الراي * فبلغ الامر الى جميع اساقفة افريقية من كاثليكيّين

لادنى مَن في رعيّتي . وانا أُحرَم من دخولهِ » * ثمّ انطلق الى قاعة قريبة من الكنيسة لا الى الكنيسة نفسها . وتوسَّل الى القديس امبروسيوس ان يحلّهُ * ففهّمهُ امبروسيوس انهُ لا يمكن ان يُحَلَّ الاّ بعد ما يكون قد قضى فرائض التوبة الجهريَّة . فاجاب الملك الى قبولها * ثمّ فرض امبروسيوس على الملك ان يبرز امرًا بان تُوقَف مدَّة ثلاثين يومًا القضايا الموجبة الموت على المذنبين * فكتب ثاودوسيوس لساعتهِ هذا الامر وامضاهُ وختمهُ . ووعد بان يجريهُ * فلمّا راى امبروسيوس تواضعهُ وايمانهُ . رفع عنهُ الحرم . واذن لهُ ان يدخل الكنيسة * فدخل ثاودوسيوس الهيكل . وطرح نفسهُ على الارض وهو يتنهَّد ويبكي بدموع حارّة . ويدقّ على صدرهِ . وقال بصوت عالٍ مع داود الملك « انّ نفسي لصقت بالارض . فاحيِني يا ربّ بحسب قولك » * وكانت الجماعة تبكي معهُ بقلب منكسر . وترافقهُ في الصلوة . وحيث كان هذا الملك قبل ذلك يلقي الرعب وغضبهُ يرجف المملكة كلّها . صار في تلك الساعة اهلاً ان تحنّ عليهِ رعيّتهُ وتتوجَّع لهُ * ورقّ قلب امبروسيوس عليهِ اكثر من كلّ احد . ولذلك راى ان يفسّح مع الملك في قوانين البيعة التي كانت تامر بان لا يُقبَل في شركة الكنيسة سافك الدم الاّ في ساعة موتهِ . وهذا التفسيح زاد اسف الملك على جريمتهِ . حتى انّهُ في سني حياتهِ الباقية

نت ثماني سنين لم يزل يبكي خطيتهُ *
انَّ ثاودوسيوس قد حفظت الكنيسة ذكرهُ بالبركة والاكرام.
ؤلفون القدماء والمجامع جعلوهُ قدوةً للملوك المسيحيين *

الفصل السادس والثلاثون

في شقاق الدوناطيين

في نحو ذلك الزمان اشتهر شقاق الدوناطيين في كنيسة
يقية * وهذا الشقاق آذى هذه الكنيسة نحو مايتي سنة. وكان
بدأ من ايام قسطنطين الملك الكبير. ولكنهُ قوي شيئاً فشيئاً
ى صار من شرارةٍ صغيرة سعيراً عظيماً * وكان سببهُ خلاف
امر قيقليان اسقف قرطاجنة قاعدة تلك البلاد هل كانت
امتهُ شرعيةً. فادَّعى بعض الاساقفة انَّ رسامتهُ لم تكن شرعيةً.
عتزلوا من شركتهِ. وكان مقدمهم دوناط الاسقف * فرُفعت
عوى الى البابا. وكان البابا اسمهُ اذ ذاك ملكياد. فحكم ملكياد
حة رسامة قيقليان. ثمَّ تايد هذا الحكم بامرٍ خرج من لدن
طنطين الملك * ولكنَّ دوناط واصحابهُ ابوا الطاعة واصرُّوا على
ادهم. واقاموا مذبحاً على رغم المذبح الصحيح اي نصبوا اسقفاً آخر
طاجنة * وكتبوا الى نواحي افريقية كلها يصدُّون الناس عن

ذلك اليوم المرهوب الذي فيهِ الملوك والرعيَّة يمثلون امام منبر الديَّان العظيم. واعتبر انَّ ذنوبك الكثيرة ستُغفَر كلّها بالغفران الذي تكون قد جدت بهِ» * فحنّ قلب ثاودوسيوس بهذا الكلام. وهطلت الدموع من عينيهِ. وقال «ايمكنني ان انكر العفو عن قوم هم مثلي من بعد ما ربّ العالمين اذ اتّخذ صورة عبد من سببنا طلب الغفران من ابيهِ لاولئك الذين عذّبوهُ وصلبوهُ. وكان قد اسدى اليهم جزيل الصنائع» * ثمَّ قال لفلابيانس «اذهب الى جماعتك يا ابي. اذهب ولا تتأَخَّر من ان تظهر لرعيّتك. لكي تنال مدينة انطاكية الهدوّ والامان. فانَّها لا يمكن ان تحصل على راحة وسكون من بعد الاضطراب والنوءِ الذي اصابها الاّ بحضور مدبّر سفينتها» *

الفصل الخامس والثلاثون

في سقوط ثاودوسيوس الملك وتوبتهِ (٣٨٩)

انّ ثاودوسيوس بعد زمان نسِي الحلم الذي صنعهُ مع اهل انطاكية. وسلَّم نفسهُ تحت رقّ غضبهِ * وذلك انّ مدينة تسّلونيقي التي كانت اوّل مدينة في بلاد إلّوريون اقامت فتنةً على واليها. واثارت عليهِ شغباً. فيهِ وجد العطب * فلمّا بلغ ثاودوسيوس

لك هذا الخبر . استشاط غضباً . وارسل امرًا الى جنـدهِ ان
وا في اهل تلك المدينة قتلاً بلا تمييز البري من المذنب *
تل هكذا منها سبعة آلاف نفس * وكان ثاودوسيوس حينئذٍ
مدينة مديولان التي من اعمال ايطاليا . فكتب اليهِ القديس
روسيوس اسقف تلك المدينة يوبّخهُ على عظم جريمتهِ ويحثّهُ
ن ان يرعوي ، واعلمهُ بانّهُ ما لم يتُب توبةً نصوحاً . لا يجوز لهُ
يحضر الاسرار المقدّسة * ولكن ثاودوسيوس لم يبالِ بذلك .
وجّه نحو الكنيسة * فقابلهُ القديس امبروسيوس وقال لهُ « قف
دك يا ايُّها الملك . اما انتبهت بعد على جسامة جريمتك . افتكر
ما صنعت * وبايّ وجه تعاين هيكل الله القدّوس . وكيف
خل مقدس ربّ القوّات الرهيب * انّ يديك ملطوختان
الآن بدماء الازكياء . أَوَتجسر ان تتناول بهما جسد الربّ *
بيلك ان تنصرف يا ايّها الملك . ولا تزِد شرًّا على شرّ » *
رع ثاودوسيوس يعذر ذنبهُ بمثَل داود الملك حيث فسق
ل . فقال لهُ امبروسيوس « انّك قد حاكيت داود في خطيتهِ .
ليك ان تحاكيهُ في توبتهِ » * فاقتبل ثاودوسيوس هذا التنبيه
الاسقف كانّهُ من فم الله تعالى . ورجع الى قصرهِ متحسّرًا .
بس نفسهُ فيهِ مدّة ثمانية اشهر * ثمّ دنا عيد الميلاد . فاشتدّ
ـ الملك وازداد المهُ . وكان يقول « ويحي . انّ هيكل الله مفتوح

يلين بسهولة . والتقوى التي كان متّصِفًا بها ربمّا كسرت جموح غضبهِ * ومن ذلك ما جرى في مدينة انطاكية * وذلك انَّهُ في هذه المدينة حدث فتنة عظيمة لسبب مادّة سلطانيَّة وُضعت على اهلها . فهاج القوم شغبًا . واقبلوا على صورة الملك وصورة الملكة زوجتهِ وكسّروهما . وجرّوهما في الازقّة * فلمّا بلغ ذلك مسامع الملك. نبض فيهِ عرق الغضب الشديد . واراد في اوّل وهلة ان يخرب المدينة ويردم اهلها تحتها * الاّ انّهُ لمّا افاق من سورة غيظهِ . ارسل اثنين من اعوانهِ ليفحصا حال المذنبين ويحقّقا واقعة الامر. واعطاهما سلطانًا ان يعاقبا المذنبين ولو بالموت * وكان اهل مدينة انطاكية قد رجعوا على عقلهم وانتبهوا على شناعة صنيعهم. وكانوا ينتظرون الجزآء الذي يستوجبهُ جرمهم العظيم * واستتروا باجمعهم في بيوتهم وهم في ياس ووله . وانتظروا ان تبادر عليهم المنايا ساعةً فساعةً * وكان اسقف المدينة (واسمهُ فلابيانس) غائصًا في بحر عميق من الالم على حال المدينة . وكانت احشاؤهُ تتمزَّق . ويقضي النهار والليل وهو يصلّي ويتنهّد وينتحب ويتخشّع . لعلّ الله بكرَمهِ وفضلهِ يليّن قلب الملك * ثمَّ انَّهُ نهض وانطلق الى الملك ليشفع في اهل المدينة كي يعفو عنهم ويردّ غضبهُ ويعاملهم بالحلم. وكانت قد استهُ اكثر من شيخوختهِ سببًا لقبول شفاعتهِ * فلمّا دخل على الملك . وقف في الاوّل بعيدًا وهو مطرق الى الارض كأنَّهُ

وحدهُ حامل ثقل جريمة اولادهِ كلّهم * فلمّا رآهُ الملك كسيفًا
سور الخاطر. دنا منهُ. وشرع يعدّ الصنائع الجميلة الكثيرة التي
ان قد اسداها الى مدينة انطاكية. وعلى كلّ واحدة كان يقول
فلهذا استحقّيتُ كلّ هذه الحقارة» * وكان فلابيانس يسمع كلّ
ك وقلبهُ يتفطّر اسفًا وحزنًا. وهو يتنفّس الصعداء. ثمّ قال للملك
م يا ايّها الملك نحن نستحقّ كلّ العقوبات. فخرّب مدينة
اكية واعدمها الى اساساتها. واجعلها غبارًا. وبكلّ ذلك يكون
آؤنا اقلّ من استحقاقنا * ولكن قد بقي علاج لوجعنا. وانت
لك ان تتشبّه بالله تعالى في الكَرَم. فانّهُ اذ اهانهُ اولئك الذين
نوا خليقتهُ. غفر لهم وفتح لهم باب الملكوت * فان غفرت لنا.
ون خلاصنا على يدك ومن فضلك. ويكون حلمك سببًا آخر
ك * وسيقول حينئذٍ الكفّار «ما اعظم الاه النصارى. فانّهُ
ع الناس ويعلّيهم فوق الطبيعة ويجعلهم ملائكة» * ولا تخف
انّ عفوك يكون حجّة للمدن الاخر لتتمرّد. فانّ ما جرى براسنا
فٍ لتخويفهم وارعابهم. والانكسار الذي نحن موجودون فيهِ هو
من العقاب * ولا يشقّنّ عليك ان تتكرّم على رجل هرم.
ك تكون بذلك قد سلّمتَ لله تعالى لا للانسان. وهو الذي
لني لاذكّرك الانجيل واقول لك من لسانهِ: ان لم تغفر لمن
الیك. فابوك السماويّ ايضًا لا يغفر لك سيّئاتك * اذكر

فيهِ راى الملك ملاطيوس يقدّم لهُ الارجوان بيدٍ والتاج باليد الاخرى * فكان ثاودوسيوس من ذلك اليوم يكرم ملاطيوس غاية الاكرام ولو انّهُ لم يرَهُ قطّ *

ولمّا اجتمع الاساقفة الى المجمع . انطلقوا كلّهم الى الملك ليزوروهُ ويسلّموا عليهِ * فقال لهم : لا تقولوا لي من هو ملاطيوس . وذلك ليرى هل يقدر ان يعرفهُ من بينهم * فنظر اليهم محدقًا . فعرف ملاطيوس من شكل شيخوختهِ الذي كان قد رُسم في بالهِ منذ يوم راهُ في الحلم . واسرع وعانقهُ بانعطافٍ واحترام . وقبّل يدهُ التي كانت قد وضعت على راسهِ التاج سلفًا * ثمَّ سألهُ الاساقفة كلّهم ان يلتمسوا العلاج الافضل لحصول الكنيسة في راحة وامان . ووعدهم بان يقوّيهم وينصرهم بكلّ حَيلهِ *

ثمَّ فُتح المجمع بكلّ أُبهة وبهآء . وتفاوضوا اوّلاً في تعقيل المقدونيّين ونشلهم من الضلال . وثاودوسيوس نفسهُ وعظهم بان يرجعوا الى ايمان الكنيسة وشركتها * ولكنّهم لم يذعنوا ولم يرعووا . وانصرفوا من المجمع . فحكم المجمع حينئذٍ بكونهم هراطقة عاصين على بيعة الله * ثمَّ انَّ آباء المجمع جدّدوا تحديد المجمع النيقاوي . واثبتوا قانون ايمانهِ . وزادوا عليهِ كلمات توضيحًا لما فيهِ عن سرّ تجسّد المسيح والوهيّة روح القدس * فحيث كان قانون مجمع نيقيّة يقال فيهِ « نزل من السمآء وتجسّد وصار انسانًا . وتالّم وقام في اليوم الثالث وعرج

ن السماءِ. وسياتي ليدين الاحياءَ والاموات». قال آباءُ مجمع
القسطنطينية «نزل من السماءِ. وتجسّد بروح القدس من مريم
العذراءَ وصار انسانًا. وتألّم ومات وقُبر وقام في اليوم الثالث كما
في الكتب. وعرج الى السماءِ وجلس عن يمين الآب. وسياتي
ثانيةً بمجدٍ عظيم ليدين الاحياءَ والاموات. ولن يكون لملكهِ
انقضاءٌ» * وحيث كان القانون النيقاوي يقال فيهِ عن روح
القدس «نؤمن بروح القدس» فقط. زاد المجمع القسطنطينيّ على
ذلك من سبب المقدونيين قولهُ بعد «نؤمن بروح القدس»
«الذي هو الربّ المحيي المنبثق من الآب. وهو مع الآب والابن
يُمجد لهُ ويُسجَد. وهو الذي نطق بالانبياءِ» * واتّخذ ثاودوسيوس
الملك هذه القضيّة كانّها خرجت من فم الله عزّ وجلّ. ونشر امرًا
باجراءِ جميع ما حدّدهُ المجمع * انّ هذا المجمع كان مؤلّفًا من اساقفة
المشرق فقط. الّا انّ بابا رومية والاساقفة الغربيين اثبتوهُ وايّدوهُ.
فصار بذلك هذا المجمع مجمعًا مسكونيًا في الكنيسة باجمعها *

الفصل الرابع والثلاثون

في حلم ثاودوسيوس الملك (سنة ٣٨٧)

كان ثاودوسيوس متّقد الجنان حارّ الطبع. الّا انّهُ كان

وصار لهم حزب قويٌّ في قسطنطينية. وانتشرت هرطقتهم الى البلاد المجاورة * وكان اذ ذاك قد امتطى ذروة الحكم ثاودوسيوس الملك بدل اخيهِ واليس. فصرف مبادئَ مُلكهِ في ردع تلك الهرطقة * واستحقّ هذا الملك ثاودوسيوس انْ يكنَّى بالكبير لسبب ما بهِ نصر الكنيسة واعانها اكثر ممَّا لسبب مناقبهِ الملكيّة والحربيّة. فانهُ بعد اعتماذهِ بقليل ابرز امرًا شهيرًا بهِ بيّن انَّ الاشتراك مع الكنيسة الرومانيّة هو العلامة الامينة للكاثليكيّة * قال «نحن نريد من جميع الامم الذين هم تحت حكمنا ان يتبعوا الدين الذين علّمهُ رئيس الرسل للرومانيين والذي نرى في هذا الزمان دَمَسُوس (حبر الكنيسة الرومانيّة) يتبعهُ . فنحن تبعاً لتعليم الانجيل وتقليد الرسل نومن بلاهوت واحد للاب والابن وروح القدس في ثالوث واحد مسجود لهُ وفي جلالة واحدة * ونامر ان يكون الذين يقبلون هذا المعتقد يُسَمَّون كاثليكيين. والذين يرفضونهُ (نعوذ بالله من غباوتهم واجارنا الله من كفرهم) يُسَمَّون هراطقة لخزيهم. وان لا تُسَمَّى جماعاتهم باسم كنيسة. منتظرين ان يذوقوا الرجز الالهيّ» * ولا غرو. فانَّ الايمان الكاثليكيّ هو الذي علّمهُ المسيح. وانذرت بهِ الرسل. وتقلّدتهُ الآبآء * والكنيسة واقفة راسخة على هذا الايمان . فمن تباعد عنهُ. لم يكن كاثليكيًّا * وما اسهل ما يسوغ لنا أَنْ نفحم كلّ الهراطقة ونخزيهم بتبيينا لهم انَّ تعاليمهم ليست جارية من هذا الاصل

نها جديدة * فانَّ التعليم الحقّ يتقادم عهدهُ على الهرطقات. الرسل كانوا قبل المبدعين قاطبةً. والحقّ قد سبق الباطل. الاجمال نقول انَّ المعتقد الذي تُمسّك بهِ اوّلاً هو الصحيح. وانَّ معتقد الذي ظهر بعدهُ هو باطل وكاذب *

الفصل الثالث والثلاثون

في المجمع القسطنطيني وهو الثاني المسكوني (سنة ٣٨١)

كان ثاودوسيوس يعلم حقّ العلم انَّ تثبيت الايمان في عقول جميع الناس لم تكفهِ اوامر ملكيَّة. بل يقتضي لذلك حكم اصلهُ انفع واقوى وهو حكم الكنيسة * وكان هو منذ جلوسهِ متفكّرًا في اجتماع مجمعٍ مسكونيّ كما كان قد صار في زمان قسطنطين العظيم. لكنّهُ لاجراء ذلك كان ينتظر انْ يحصل في صلح * فلمّا حصل ذلك. كتب الى جميع اساقفة المشرق. ودعاهم الى مدينة قسطنطينيّة. وهناك اختار ان تجتمع الاساقفة. لانّهُ احبّ ان يحضر في المجمع * فاجتمع الاساقفة من كلّ ناحية من بلاد الشرق. وبلغ عددهم مائة وخمسين * وكان الراي قد قرَّ ان يكون ملاطيوس اسقف انطاكية رئيسًا على المجمع. وكان الملك يتمنّى كثيرًا ان يراهُ. اولا لما كان قد شاع عنهُ من صيت القداسة. وثانيًا لسبب حلمٍ

وبلاغتهِ * فكان اذا انتصب للخطاب . برع واجاد في المحاماة عن الدين بنطقهِ . واحسن وسما في وعظ الناس بفضائلهِ وسيرتهِ الصالحة * ثمَّ انَّ القدّيس لم يكن يملّق الاغنياءَ وارباب الدرجة ولا يراعي اهواءَهم * فاثاروا عليهِ شغباً من حسدهم لهُ على صفاتهِ الجليلة الساطعة * ومن اجل هذه الفتنة اضطرَّ الى ان يعود الى خلوتهِ * فجدَّ في طلب سلامة القلب . ولمّا حصل عليها . طاب لهُ ذلك جدًّا حتّى قال لبعض من اصحابهِ « لستُ اقدر ان اصف لكم الخير العظيم الذي اصابني من اعداءَي في اثارتهم عليَّ حسدهم . اذ انهم بذلك نشلوني من الضوضاءَ . واراحوني من اثقال الدرجة الاسقفيّة واهوالها * اعلم انَّ الخِطَب التي خطبها هذا القدّيس هي جلّ ما وصل الينا من تاليفاتهِ . فاذا تبحّرت فيها . رايتها سامية المعاني جليلة العبارة . بينها وبين أسرار الديانة مناسبة عجيبة . حتّى انّهُ بسببها سُمّي غريغوريوس اللاهوتي *

الفصل الثاني والثلاثون

في هرطقة مقدُونيوس

انَّ بدعة الاريوسيّين ماتت في بلاد المشرق بموت واليس الملك الذي كان ينصرها ويقوّيها . ولكن برز من ورآئها بدعة

رى بها تجديف على سرّ الثالوث المقدّس * كانت هذه هرطقة
دونيين القائلة بانَّ روح القدس ليس هو الله. وكان منشئها
ـونيوس. وكان هذا قد ارتقى الى كرسيّ القسطنطينيّة * وهذه
طقة كانت قد اختفت زمانًا تحت غطاء البدعة الاريوسيّة.
يمكنها ان تتظاهر اذ كانت تلك البدعة متملّكة * ولكن لمّا
س واليس الملك. أُعلم القدّيس اثناسيوس بوجود ضلال
ـونيوس اذ لم يمكن ان يفوت هذا الرجل الغيور الهمّام شيءٌ ممّا
صّ بالايمان. وكان قد صنّف كتابًا لدحض ذلك الضلال *
هذا الكتاب بيّن اثناسيوس انَّ الكنيسة لم تزل في كلّ الاجيال
ن وتعلّم بانّهُ يوجد ثالوث واحد في الله. وانَّ الثالوث المقدَّس
لهُ الّا طبيعة واحدة. وانّهُ ما هو الّا الاه واحد لا الاه غيرهُ *
هن من الكتب المقدّسة على انَّ روح القدس الاه. وانَّ الصفات
ي يُوصَف بها ليست الّا خواصّ الاله. من ذلك انَّ روح
دس يقدّس ويحيي ولا يتغيّر ولا يُحَدّ * وختم كتابهُ بقولهِ انَّهُ لم
ـ شيئًا الّا ممّا تعلّمهُ من تعليم الرسل *

ولمّا حصل الاريوسيّون في انخذال. اخذ المقدونيّون يرفعون
وسهم. وشرعوا يبثّون تعليمهم بين الناس * وكانوا صالحين في
يرة. وظاهرهم مهيبًا وعيشتهم كسيفة * فانخدعت العامّة كعادتها
ـ نظرها ذلك. وانضمّ كثيرٌ الى المقدونيّين. فاجتمع منهم شيعةٌ.

السيرة الرديّة من واحد الى آخر. مثلما تعدي الامراض البدنيّة * وانّا ما تعاطينا الأَ مع الذين كانوا ممدوحي السيرة مؤدّبين عقلاءَ. وغاية ذلك كانت ان نرتشد فنكون مواظبَيْن على الصلاح كلّما راينا ملاحتهم * اننا في مدينة اثيناس كلّها ما كنّا نعرف الاَّ طريقين اعني طريق البيعة وطريق المدرسة * امّا الطرق التي تفضي الى المشاهد والى مواضع الرهج والفرح والملاعب والى محافل الناس. فكنّا نجهلها قطعًا» * يا لقداسة هذين الصبيّين. ولعمري ليس في الامكان ان نقدّم للصبيان نموذجًا افضل وابلغ من سيرة هذين القدّيسَين وهما بعد في صباهما * فطوبى لمن طلب الالفة منذ صغرهِ تعاونًا للحصول على التقوى واعتضادًا على اكتساب الفضيلة * ويا ما اسعد الذين يحسّون على وقت بحال العالم الواهي وزوال لذّاتهِ وعبور ملاهيهِ * واعلم انَّ غريغوريوس قضى جانبًا صالحًا من عمرهِ وهو في الانفراد والوحدة. اذ كان لهُ ولع شديد في الاختلاءَ * فلمّا انتُخِب اسقفًا على القسطنطينيّة. اقتضى لباسيليوس صديقهِ النبيل ان يجدّ ويتعب كثيرًا في اخراجهِ من خلوتهِ. فخرج كرهًا منهُ وهو في انكسار الخاطر * فأُرسل الى القسطنطينيّة في سنة ٣٧٩ ليتولّى امرها ويسوسها. وعلى الخصوص ليزحزح مذهب آل اريوس عنها. فانهُ كان ممتدًا متّسعًا فيها * وكان كفوءًا لذلك. بل انَّ فضائلهُ النفيسة وعلمهُ الجليل وبلاغة

يدة كانت تنبئ على حميد عاقبة جهادهِ * فاقبل على محاربة
هب آل اريوس . ولحق في اثرهِ وتتبعهُ حتى في قصر الملوك
ين كانوا يحامون عنهُ *

وكان اعدآؤهُ يسيئون اليهِ جدًّا . امَّا هو فما كان يدافعهم
بالصبر الجميل . وبذلك كان ينتصر عليهم ويقهرهم * ومما اشتهر
مار غريغوريوس . المحبة التي بها كان يحب كل احد بدون
ثناء * ومع هذا كلهِ فكان القديس على الدوام ملازمًا التقشف
عيشة القهرية . وكان يبالغ في الهجود والخشوع امام الرب .
اظب على الصلوات . ويشتغل بقرآءة الكتاب الشريف . ويتامل
ما ينطوي عليهِ من المعاني الغويصة * وكان مرادهُ بذلك ان
ل بكل ما يجعلهُ قابلاً جديرًا بخدمة القدس * فلما رات الجماعة
ك واطلعت على حسن سيرتهِ . ايقنت ان لها راعيًا يستحق ان
ر بهِ على غيرها * فهذا كان مما جذبها ميلاً اليهِ ورغبها في محبتهِ .
ارت تبرز لهُ انعطافها اليهِ . وتقرن ذلك بالاحترام العظيم
كرام الجزيل اللائق بمنزلتهِ الوسيمة في العلم والقداسة * وكان
يس خبيرًا بعلم الكتاب المقدس . قد توغل في اعماقهِ . وكان
الفكرة مصيب الحكم ذا مخيلة سعيدة غنية . وكان طلق
سان سلس العبارة . ياتي بكلام فصيح متقن * فصار اهل المدينة
اظرون الى استماع خِطَبِهِ وهم مندهشون مندهلون من فصاحتهِ

وجذبوهُ الى حزبهم وآرائهم * فعزم واليس على نفي مار باسيليوس. وفي الحال وقع ابنهُ في حمى قويّة شديدة عجز الاطبّاء عن ان يحسموها * فانتبه الملك على غيهِ. اذ علم انّ هذا انّما هو قصاص جاءهُ من لدن الله عقاباً لما كان قد حتم عليهِ في شان مار باسيليوس * فاستدعى القدّيس في الحال. وكان اوّل ما دخل باسيليوس في القصر. اخذ ابن الملك بالشفاء قليلاً قليلاً * واكّد لهم باسيليوس انّهُ اذا علّموا الولد العقائد الكاثليكيّة وثقّفوهُ بها. نال الشفاء التامّ * فوعدوا بان يصنعوا ذلك * فجعل القديس يصلّي ويتضرّع الى الربّ. وبصلواتهِ نال ابن الملك الشفاء * غير انّ الملك لم ينجز وعدهُ. بل سمح لاسقف من تبعة اريوس ان يعمّدهُ. فوقع ابنهُ مريضاً عند ذلك * والعجب كلّ العجب من انّ واليس لم يتّعظ ولم يرعوِ لما شاهدهُ من القصاص المريع. بل بلغت غباوتهُ الى انّهُ جزم ثانيةً على نفي باسيليوس * فتناول القلم واخذ يكتب على الورقة امر نفيهِ. فانكسر القلم ثلاث دفعات بيدهِ. والملك اعترتهُ الرجفة. ولم يتمكّن من كتابة حرف واحد من القضيّة * وما زال مصرّاً على شرّهِ. حتى انزل الله عليهِ اخيراً العقاب. وذلك في حرب كان قد اثارها مع اعداء المملكة. وهناك خفي وعُدم. ولم يعلم احد ما جرى من جثّتهِ * ويُظَنّ انّهُ جُرح بسهام. فحُمل الى بيت كان قريباً. فاحترق حيث اطلق

دوّ النار على ذلك البيت *

الفصل الحادي والثلاثون

في فضائل القدّيس غريغوريوس النازينزيّ

كان للقدّيس باسيليوس خليل فريد صدوق وهو القدّيس يغوريوس النازينزيّ * وكانت مناقب غريغوريوس تحاكي مناقب سيليوس . ولاسيّما غيرتهُ على الديانة . فانّها لم تكن تنقص شعرةً ن غيرة باسيليوس * ونشأَت الالفة بينهما في مدينة اثيناس . كانا يشتغلان في درس العلوم . وما زالت تشتدّ ثبوتاً وتمكّناً نهاية حياتهما * وقد خلّف لنا مار غريغوريوس نفسهُ كتاباً ى شيئاً عن صفة هذه الالفة واصلها . قال فيهِ « انّ كلينا كان نا امر واحد . واثنانا كنّا في طلب كنز واحد . وهو كنز الفضائل * نّا نفكّر في ان نجعل صداقتنا ابديّة دائمة بسلوكنا في الطريق ي يؤدّي الى الحيوة المؤبّدة المغبوطة * وكان دابنا ان يكون احد منّا معاوناً لرفيقهِ . فكان احدنا يرشد صاحبهُ . ويكون افظاً عليهِ ومراقباً لهُ . ويحرّض الواحد الآخر على التقوى * ثمّ كنّا نتعوّذ غاية التعوّذ من الرفاق السيّئين وكنّا نتجنّب داتهم . ونحن كنّا نعلم انّهُ لا شيء اسهل من ان يعدي مثل

ولا نبذل ايماننا * يا ايّتها الرها ذات العفافة والفطنة والعقل. يا ايّتها المتسربلة بالذهن الرزين. يا ايّتها المتمنطقة بالايمان والمسلّحة بالحقّ الذي يغلب كلّ شيء. يا ايّتها المكلّلة بالحبّ الذي يزين كلّ شيء. بارك المسيح على سكّانكِ * يا مدينة الرها التي اسمها ممجّد. والرسول زاد فخرها. وراعيها يشهد بحكمتها. يا ايّتها المدينة المتملّكة على رفيقاتها»] *

الفصل الثلاثون

في ارتعاد واليس امام مار باسيليوس

اتّفق للملك انّهُ في عيد الدنح كان في قيصريّة. فمضى الى الكنيسة العظيمة التي هناك في وقت الصلوة والاحتفال * ومضى بابّهة وعظمة. وصحبهُ الجند حرّاسهُ. وكانّهُ رجا بذلك انّ القديس باسيليوس يخاف ويجفل عندما يشاهد عظمتهُ وجنودهُ * فلمّا حصل في البيعة. وجدها في نظام وترتيب عجيب. ووراى الجماعة الغفيرة المزدحمة في هدوّ واحتشام وسكوت. والقدّيس باسيليوس حبرهم في المذبح يصلّي وهو لا يلتفت يمينًا ولا شمالاً. بل قد احدق نظرهُ وعقلهُ في الله عزّ وجلّ. والشمامسة وسائر الخَدَمة القدسيّين قائمون حولهُ بوَجَل واحترام. وهم اشبه بالملائكة

بالبشر * فلمَّا شاهد هذا المنظر الخشوعيّ. ارتاع وبهت وصار
شيًا عليهِ . وكادت نفسهُ تنفطر لشدّة خوفهِ * ثمّ عادت عليهِ
حهُ قليلاً . فتهيّأ ليقدّم تقدمتهُ . ولم يتحرّك احد من خدّام
دس لاقتبالها منهُ كما كانت العادة توجب . بل خافوا من
القديس باسيليوس برفضها * فخجل الملك خجلاً شديدًا واخذتهُ
عشة في الحال . ولم يمكنهُ القيام. فلحقهُ احد الكهنة ليسندهُ لما
ى من حال ضعفهِ * ولكنّ القديس باسيليوس راى في
ك الاوان ان يخفّف قليلاً شدّة القوانين البيعيّة . وتنازل الى
ال تقدمتهِ * فطاب ذلك للملك . وشرع يستميل القديس
. وارسل اليهِ بعضًا من افاضل سفرآئهِ ومقدّمي ضبّاطهِ
رفاء مملكتهِ . وآل الامر الى انّهُ حظي هو بشخصهِ بمفاوضة مع
يس . والقديس في هذه المفاوضة لم يتجاوز ابدًا حدود
اقة . بل كرّمهُ واحترمهُ كما يليق بهِ * بيدَ انّهُ لم يجعل الحياء
سري يتغلّب عليهِ . بل كلّمهُ بدالّة وسليّة . ثمّ امر بالصمت
سكوت واحدًا من حشمهِ تجرّأ على ان يرفع صوتهُ ويتهدّد
يس في حضور الملك نفسهِ * وطاب ذلك للملك ورضي
ولم يتعسّف منهُ البتّة . ولبيان ذلك وهب لمار باسيليوس
ا كافية لاقامة بيمارستان في قيصريّة * وشقّ هذا على تبعة
س جدًّا . فقصدوا الملك ولم ينفكّوا منهُ الى ان اقنعوهُ .

الرها. وكان اسقفها يومئذٍ اسمهُ برْسا * فضرب الملك اللئيم مضاربهُ
حول المدينة. وارسل اليهم رسولاً يخبرهم بان يخرجوا اليهِ بلا
تعوّق ويعلموهُ هل هم مستعدّون ان يطيعوا امر الملك * فاجتمع
الرهاويّون في كنيسة مار توما الكبرى. وشرعوا يدعون ويصلّون
مع اسقفهم * فلمّا راى الملك انهم لا يخرجون. ارسل الى المدينة
مدسطس قائد جيشهِ ليميلهم الى الطاعة للملك * فلمّا خطبهم القائد.
لم ينَل منهم بغيتهُ. فانهم اجابوهُ بصوتٍ واحد قائلين «نحن ثابتون
على ايماننا. فاصنع ما بدا لك» * فلمّا بلغ الملك ذلك. غضب
على القائد لانّهُ لم يشتّت تلك الجماعة المجتمعة في الكنيسة. وامرهُ
ان ياخذ كلّ الجنود الذين كانوا تحت يدهِ. ويدخل ويبدّد تلك
الجماعة * وكان القائد يكره التعنيف ولو انهُ لم يكن محبّاً للكاثليكيّين.
فارسل الى اهل المدينة امرًا في خفيةٍ بان لا يعودوا يجتمعون في
الكنيسة. لانَّ الملك قد امرهُ ان يعاقب كلّ المتجمّعين • ورجا
بذلك ان يمنع الجماعة من ان تجتمع وان يليّن قلب الملك بذلك *
ولكنَّ اهل المدينة لم يتوقّفوا من ان يجتمعوا للصلوة كعادتهم. بل
ازداد عددهم وادلجوا باكرًا اكثر من العادة * فاحتار القائد في
امرهِ. ثمَّ توجَّه نحو محلّ اجتماعهم • واسمع العسكرُ الذي معهُ صوت
ضوضاءٍ وارتجاف ليخوّف اهل المدينة المجتمعين ويبدّد شملهم * وفيما
هو مجتاز في المدينة. اذا بامراة صعلوكة خرجت من بيتها ولم تفتكر

نقفل بابهُ . وكانت ماسكةً ولدها بيدها. وازارها كان مسدولاً
ها بلا نظام ولم يكن يغطّيها كعادة اهل البلد * وبهذه الحال
ازت على صفوف العسكر وهم يمشون امام القائد . ومرّت مستعجلة
دون ان تظهر ادنى علامة خوف * فاوقفها القائد . وقال لها
لى اين وانتِ مهمومة هكذا » * قالت « انا رائحة الى المكان
مع فيهِ المؤمنون » * قال « افلم تسمعي انَّ الملك قد امر بقتل
ل المتجمّعين » * قالت « بلى قد سمعتُ ذلك . ولهذا انا مسرعة
الذهاب خوفًا ان تفوت منّي الفرصة بان اموت شهيدة » *
ل « وعلى مَ اخذتِ معكِ هذا الصبيّ » * قالت « ليموت هو
ما شهيدًا » * فلمّا سمع القائد هذا الخطاب . رجع الى الملك
هشا . وقصّ عليهِ ما رآهُ وسمعهُ . واشار عليهِ ان يكفّ عن
، خوف ان يخيب في تقاديرهِ فيخزى * قال الراوي : ثمَّ خرج
ل المدينة مع اسقفهم وكشفوا للملك ارادتهم * فاطلقهم الملك ولم
رّض لهم * ورجع وإليس الملك في خزيهِ . وهكذا نجت المدينة
انها *

[وفي ذلك قال مار افرام في احد ميامرهِ « تركت الرها
ب البيوت مفتوحة اذ خرجت مع راعيها قدّامها الى الحفرة
ار لنفسها الموت بدل خيانة الايمان * قالت : لنسلمنَّ للملك المدينة
لاسوار والديار والبيوت وكلّ شيء . ولنخسرنَّ الاموال والذهب .

الكاثليكيّين. ولكنهُ وجد فيهم شجعانًا مقاتلين عن الحقّ ابطالاً *
وعُرف على الخصوص القدّيس باسيليوس بثباتهِ • فانَّ لجج الطغيان
قامت عليهِ لتغرّقهُ. وهو بدّدها وكسر قوّتها * وذلك انَّ واليس
الملك اذ كان مزمعًا ان ينطلق الى مدينة قيصرية. ارسل مدَسْطس
قائد جيشهِ ليجعل باسيليوس ان يقبل الاريوسيّين في شركة الكنيسة
امَّا طمعًا وامّا خوفًا * فاحضر القائد بين يديهِ مار باسيليوس.
وكان هو متجلببًا بافخر حلّة وجالسًا على المنبر واعوانهُ حولهُ وهم
حاملون اسلحتهم * فحضر باسيليوس بطلاقة وجه وبدون جزع.
واكرمهُ القائد في الاوّل. ثمَّ عرض عليهِ امر الملك بانْ يشترك مع
الاريوسيّين. وكلّمهُ كلامًا طيّبًا ليستميلهُ * فلمَّا راى انَّ باسيليوس
لا يذعن. شرع يتهدَّد وقال بغضب «العلّك تروم ان تكسر امر
الملك المعظّم الذي تنقاد الدنيا كلّها لامرهِ • اما تخاف من غضبهِ.
اليس هو قادرًا ان يسلبك اموالك وان يطردك الى المنفى وان
يقتلك ايضًا» * فقال باسيليوس «لستُ ارتعد من هذه التهدّدات.
فانَّ الذي لا يملك شيئًا لا يمكن ان يفقد شيئًا • العلّك تريد ان
تغتصبني خلقاني هذه والشيء القليل الذي لي من الكتب * امَّا
النفي فلستُ اعرفهُ. فانّي لا احبّ موضعًا دون موضع * انَّ للّٰه
الارض بكمالها. فحيثما كنتُ فيها. فذاك وطني. بل ذلك موضع
غربتي * وامَّا الموت فلا اخافهُ. بل اتمنّاهُ لانّي بهِ ارجو ان اجوز

الحيوة الحقيقية. ويا ما اكثر ما تغرّبتُ عنها * واما الاذيّات
لا يمكن ان تضعف عزمي. لانَّ جسمي نحيف مهزول فلا يمكنهُ
يحملها مدّة. واوّل ضربة تاتيني تقطع حياتي وبلاياي» * فلمّا
ع الامير هذا الكلام المملوء من شجاعة الاهية. اضطرب وقال
انّي لم اسمع قطّ احدًا يكلّمني بهذه الجسارة» * قال باسيليوس
ذلك لانَّك ما جرى لك امر مع اسقف قطّ» * ولا بدع انَّ
سطس انذهل ممَّا راهُ وممَّا سمعهُ من باسيليوس. وانطلق الى
لك وحكاهُ الواقعة. وقال «انّنا قد غلبنا رجل واحد. وهذا
رجل لا يمكن امالتهُ بالتهدّدات ولا بالمواعيد. وما لك الاّ أَنْ
املهُ بالقسر والقهر* ولكنّ الملك لم يستحسن هذا الراي. بل
ضهُ خوفًا من اهل مدينة قيصريَّة واحترامًا لاسقفها *

الفصل التاسع والعشرون

في ذكر امراة وُصفت بشجاعتها

أنَّهُ في هذا اضطهاد واليس الملك لم ياتِ الاساقفة والقسوس
ط بعجائب البرهان على ايمانهم وفضيلتهم. بل كثير ايضًا من
مّة المومنين حتّى من النسوان * وهاك مثالاً لذلك: اذ كان
ليس يطوف المدن ويبدّد اساقفتها وكنائسها. جاءَ الى مدينة

يكابدون ما لا يوصف من الشدائد. من اهانتهم ونهب اموالهم
واسرهم وقتلهم وغير ذلك مما يتفطّر القلب لذكرهِ * ولنقتصر على
ذكر شيء واحد * وذلك انَّ اهل القسطنطينيّة اذ لم يكونوا
يصدّقون بأَنَّ واليس كان منشئ هذه العذابات ومسببّها. اختاروا
زهاء ثمانين واحدًا من افضل قسوسهم وشمامستهم وبعثوا بهم اليهِ
ليطّلعوا على حقيقة الامر * فلمّا وصل الرسل الى الملك واليس
وحضروا بين يديهِ. جعلوا يشكون قدَّامهُ هذه النازلة ويرثون لهذه
الشدَّة * امّا هو فتظاهر بالسكوت. وكظم غيظهُ * ولكن عند ما
خلا بهِ المجلس. استدعى مودسطس رئس جيشهِ. وامرهُ ان يبيدهم
طرًّا بدون استثناء. الاَّ انَّ مودسطس تامّل في عواقب الامر.
ورأى انَّهُ ان قتلهم في القسطنطينيّة علانيةً. اثار الشعب وهيّجهم عليهِ.
فأَمر بنفيهم * ولم يشقّ ذلك على اولئك الاقليرسيّين * فانزلوهم
اجمعين في سفينة واحدة. وكانوا قد امروا الملاّحين بانْ يوقدوا
نارًا ويحرقوهم اذا ابتعدوا عن الارض وغابوا عن منظر الخلق *
ففعلوا كذلك. وما نجا منهم احد قطعًا. بل بادوا باجمعهم حريقًا
وغريقًا * ولمّا انتشر خبر الضنك والاضطهاد الذي كانت عليهِ
حينئذٍ كنيسة الشرق في البلاد وتنافذ الى قلالي المتوحّدين
والنسّاك. خرجوا من زواياهم. واقبلوا على اخوتهم ليشجّعوهم * وحدث
انَّ الملك صادف واحدًا منهم اتّفاقًا. وكان شيخًا مهيبًا وقدّيسًا

ـلاً * فقال لهُ «الى اين تنطلق . ما لك تجول في المدن والديار
ـت تقلق الشعب وتهيّجهم . ما بالك لا تلزم قلاَّيتك» * فقال لهُ
ـدّيس بشجاعة . وهو قد انّقد غيرة «يا مولاي . انّني ما زلتُ في
ـوتي اذ كانت غنم المسيح في سلامة وامان . واماّ الآن فمن حيث
ـاراها في خوف وخطر . فكيف يسوغ لي ان اهجع واتركها واغفل
ـا * انَّك قد اطلقت النار على بيت الربّ . وانا من قلاَّيتي
ـنتُ النار واسرعتُ لاطفئها» * فسكت الملك عند هذا
ـواب * بل اظهر نوعاً من اللين وخصوصاً نحو القدّيس اثناسيوس .
ـاح لهُ ان يرجع الى كنيستهِ . وليس ذلك من سبب انّهُ غيَّر
ـارهُ . بل من سبب انّهُ خاف من غضب والنْطِنيان اخيهِ
ـي كان يعزّ اثناسيوس * فرجع اثناسيوس الى الاسكندريّة .
ـد ما اشتهر بكلّ هذه الجهادات ونُفي خمس مرَّات واسترجع
ـن مرَّات . قضى ستّ سنين في راحة وامان . ثمَّ توفّاهُ الله *

الفصل الثامن والعشرون

في ثبات القديس باسيليوس اسقف قيصريَّة وشجاعتهِ (سنة ٣٧٠)

لمّا كان والِيس مهتمّاً انْ يبثّ سمّ البدعة الاريوسيَّة في كلّ
ـع من مملكتهِ . اخذ يطوف من بلد الى بلد ويطرد الاساقفة

مدّة ملكهِ لم تطُل كثيرًا» * فطابت هذه الكلمات ليوبنيان جدًّا *
وسار امامهم وصار لهم مقدامًا. وبحكمتهِ وحذاقتهِ بلغ بهم في قليل
من الايّام الى ارض مملكتهِ * ثمّ انّ هذا الملك المتديّن منذ اوّل
يوم من حكمهِ اقبل على ازالة واحدة واحدة من المضرّات والشرور
التي كان يليانس قد سبّبها في الكنيسة * وقبل كلّ شيء استدعى
القدّيس اثناسيوس من المنفى ليردّهُ على رعيّتهِ. وكتب بذلك
اليهِ مكتوبًا منهُ يسوغ لنا ان نطّلع على جزيل احترامهِ وخضوعهِ
للقدّيس المذكور * فلمّا وقف اثناسيوس على الكتاب. خرج ثانية
من باديهِ. وعاد الى الاسكندريّة * ولمّا كانت قضيّة هذا القدّيس
قضيّة الكنيسة عينها. لم يألُ تبعة اريوس تعبًا وافرغوا كلّ وسعهم
في تسويد حالهِ في عيني الملك يوبنيان * وفي ذلك كلّهِ لم يصيبوا
شيئًا * وكان الملك على الدوام يخصّهُ بالثقة والصداقة الخالصة
دون غيرهِ * ثمّ انّهُ طلب من اثناسيوس ان يتحفهُ بشرح مكمّل
مفصّل في ابواب المعتقد القاثليقيّ. ليصون ايمانهُ ويمكّنهُ بهِ. فلا
يزيغ شيئًا عن مركز اعتقاد الكنيسة * فلبّى طلبتهُ بسرور وقضى
اربهُ. وشرح لهُ امانة المجمع النيقاويّ. وفهّمهُ انّهُ لا سبيل الى ازالة
الشرّ الموجود في الكنيسة. الاّ باجراء مناشير نيقيّة في البلاد وترغيب
الناس فيها وحملهم على العمل بها * وفي تلك الايّام استراحت البيعة
من الضيقة والكظم * ولمّا كان المؤمنون يأملون ان يزداد الخير

لاقبال على يدهِ ويتهنأوا فيهِ طويلاً . وُجد ذات يوم ميتاً في
شهِ . ولهُ من العمر اثنتان وثلاثون سنة فقط * وبُظَنّ انَّهُ اختنق
دخان الفحم الذي كان يتقد في حجرتهِ * ولمّا كان موت هذا الملك
غيور قبل أَجلهِ . وقعت الكنيسة ثانيةً في شدائدها . ورجعت
ى عذابها وضيقها *

الفصل السابع والعشرون

في تجديد واليس الملك اضطهادات الاريوسيّين (سنة ٣٦٧)

بعد موت يوبنيان بُويع بالمُلك والنتنيان . فشارك اخاهُ واليس
لملك * وكان والنتنيان ذا حبّ خالص وشهامة على الديانة
كاثليكيَّة . ولذلك حصلت الكنائس التي في البلاد الموجودة
ت حكمهِ على راحة وامان * ولكنَّ واليس حذا حذو قسطنطيوس .
ثار في بلاد الشرق التي وقعت في حصّتهِ اضطهاداً شديداً *
لى الخصوص تتبع القدّيس اثناسيوس . وجعلهُ عرضة لقساوتهِ .
ليهِ وجّه سَوْرة غضبهِ . كما هو المعهود من حال الاريوسيّين
جمعهم * فقبل كلّ شيءٍ امر بنفيهِ * فلمّا بلغ الخبر الى اثناسيوس .
ين منهُ انَّ الكاثليك اجمعهم في ضيقة واضطهاد * وعامل
ليس المومنين شرّ المعاملة . واساء اليهم كلّ الاساءة . فانهُ جعلهم

الكهنوت متواتر في كنيستنا . والرسل اقاموا على الكنائس روساء وقسوساً وشمامسةً ومعلّمين وقارئين وشمّاسات * واما الهراطقة فاخذوا الكهنوت منّا . وسرقوا من البيعة الترتيب الواجب لقضاء الخدمات المختلفة بان يكهّنوا ويعمّذوا ويكسروا الخبز ويعلّموا ويكرزوا » * انّ مار افرام بهذه الاقوال وامثالها واقوى منها كان يفحم الهراطقة المبدعين الذين في زمانهِ كانوا ينجّسون بيعة الله ويؤذونها * ويا ليت جماعات الضالّين الذي في زماننا خلعوا الطاعة لكنيسة المسيح الحقّ ينصتون لتعاليم هذا ملفان اجدادهم ويتّعظون بها وينتبهون على ضلالهم] *

الفصل السادس والعشرون

في نصر يوبنيان الملك للديانة الكاثليكيّة (سنة ٣٦٣)

اوّل ما هلك يُليانس المنافق . تشاور ارباب الامر في الجيش وأجمعوا على ان يبايعوا يوبنْيان بالمُلك * هذا كان مقدّم حرّاس الملك . وكان ذا صفات جليلة ممدوحة . استحقّ من اجلها اعتباراً جزيلاً . وكان على الخصوص مشهوراً في الشجاعة * وممّا اتّصف بهِ خاصّةً هو انّهُ كان ذا حزمٍ وبراعة واصابة فريدة في فتق التدابير الامور الصعبة المتعسّرة * وهذا ممّا كان يهمّ الجيش الرومانيّ جدّاً .

انهم لمّا كانوا اذ ذاك في بلاد الفرس. كانوا محتاجين الى مقدام
تنص بهذه الخواص * ولكنَّ ما يخلّد ذكر هذا الملك هو انّهُ كان
اضلاً الى الكنيسة. وذلك انَّ ايمانهُ كان خالصاً محضاً لا تشوبهُ
ائبة * ولنا على ذلك دلائل قويّة وبيّنات جليلة إظهرها في ايّام
لملك يُليانس سالفهِ * وبيّن خاصّةً اعتصامهُ بالديانة المسيحيّة
شدّة انصبابهِ اليها. إذ ازمع الملك المذكور على محاربة الفرس * فانَّ
ليانس المنافق استدعاهُ عند ذلك. وقال لهُ بعنف وعبوسة
قرّب للآلهة. والاّ فهاتِ سيفك » * فلم يبطأْ البتّة في تسليم سيفهِ
لملك * فعند ما راى الملك الامر كذلك. ما احبّ ان يحرم جيشهُ
ن منافع هذا القائد الماهر البارع. وهو كان محتاجاً اليهِ يومئذٍ
ندّ احتياج. فاضطرَّ الى ان يردّ اليهِ سيفهُ في الحال * وناهيك
نَّ يوبنيان قبل ان يتردّى بالرداءِ الملكيّ. استحضر جيشهُ.
قال لهم واضحاً مصرّحاً « اعلموا انني لكثرة تمسّكي بالديانة المسيحيّة.
ستُ اريد ان اتولّى امر جند يكونون وثنيّين. انَّ الله لن يمدّني
ونهِ في اموري » * فصاح الجيش قاطبةً بصوت واحد « لا
اخلنّك خوف او شكّ. يا مولانا. انّما الذين انت متولٍّ عليهم
مسيحيّون * فانَّ اكبرنا عمراً قد ثقّفهم وهذّبهم قسطنطين الكبير
سهُ. امّا الباقون. فاولادهُ * هيهات ان يكون يليانس قد توصّل
ى تثبيت نفاقهِ وتمكينهِ في نفس احد حتّى في الذين اغراهم. لانَّ

الى لغة اجنبيّة انهُ يضطرّ ان يعبّر بكلمات كثيرة ما قالهُ هو بكلمات قليلة يسيرة * ووصف القدّيس يوحنّا فم الذهب ملفاننا افرام فقال «هو منبه الغافلين. ومعزّي الحزانى. ومهذّب الشبّان. وسلاح قويّ لردع الهراطقة. ومحوى الفضائل. ومأوى روح القدس ومسكن الله» * والكنيسة تسمّيهِ بكلّ صوابٍ كنّارة روح القدس *

انّ المعنى الذي اجاد فيهِ مار افرام وفاق اكثر من كلّ شيءٍ هو بيان حقيقة كنيسة المسيح ودحض الهراطقة المعاندين لها * وقد كان لافرام وسائل عجيبة وتفنّنات بديعة لتفنيد هولآء الملحدين واخزائهم. فمن ذلك قولهُ «انّ الملافنة الكاذبين تظاهروا امام عروسة المسيح بحسن مغشوش وهو لطافة اقوالهم * ولا غرو. فانّ الذي يروم ان يخدع امراة مولاهُ. شانهُ ان يتزخرف ويتزيّن * وامّا اولئك فقباحتهم ثابتة مع كلّ ما تزيّنوا. فانّ تواضع يسوع اجمل من كلّ شيءٍ حتّى من حسن الخلائق * هلمّ نبصر عند من هو تعليم الرسل. انّ الرسل ما سمّوا عروسة المسيح باسمآئهم. فالمعلّم الذي يضع اسمهُ على قطيع المسيح. يظهر انّ تعليمهُ بعيد من تعليم الرسل. وامّا الذي يسمّي تلاميذهُ باسم مولاهُ. فيبيّن انّ الحقّ هو عندهُ * انّ اليونانيّين والفارسيّين والمصريّين ابصروا جلال ابن الله. وجحدوا اضاليلهم وآلهتهم واوثانهم * وها ترى انّ المتهتّكين. ارعووا وكفروا باسمآء مقدّميهم. واعترفوا بمعلّم الحقّ. وامّا التلاميذ

ذين صاروا زوانًا في كنيسة المسيح فيسمّون نفسهم باسم اناس
سالّين * انّ الرسل لم يفعلوا هكذا . بل اذ كانوا قد خطبوا
كنيسة عروسةً للمسيح . لم يخونوا الختن اذ سمعوا الغنم تقول انا
ن كيفا او انا من بولس او انا من أفلّو . بل خافوا كالعبيد
لامينين ومنعوا الرعيّة ان تسمّى باسمائهم * انّ الدينار لا يُضرَب
لاّ بصورة الملك . ولا يقدر قائد عسكرهِ ان يرسم صورة نفسهِ ولو
ي فلسٍ واحد . فاذا تجاسر المتوكّل على ضرب دراهم الملك ان
طبع صورة نفسهِ استحقّ ان يعاقَب بالحريق او التقطيع * وهكذا
و من يتجاسر ان يرسم صورتهُ على سكّة المسيح بدل صورة المسيح *
نّ الماردين على بيعة الله يشهدون على انفسهم انّ عليهم جميعًا
رًا واحدًا وانّ فيهم روحًا واحدة تلهيهم كلّهم بطغيان واحد *
لنا ان نسألهم من هو القديم فيهم . فان ادّعى ماني بالبكوريّة .
ازعهُ برديصان . وان احتجّ برديصان بالقدم . فهو احدث من
لذين سبقوهُ . كان مرقيون اوّل شوكةٍ وبكر وعر الخطيّة * ولنا
ن نسألهم من هو الذي اعطاهم رسم الكهنوت . فان كانوا قد
خذوهُ منّا . فهذا بيّنة على تعدّيهم . وان كانوا قد تجاسروا وانتحلوا
ن نفسهم الكهنوت لنفسهم . فهذا بيّنة جليّة على ملاءتهم وخزيهم .
كون اذًا كلّ انسان كاهنًا بوضع يديهِ على راس نفسهِ * يا للبلبلة
يا للشناعة * انّ المسيح اعطى الكهنوت لرسلهِ . وتسلسل هذا

اثبتوا يا تلاميذي على تعليمي . ولا تنتقلوا من معتقدي * من يشكّ في البيعة . يبرص جسمهُ مثل جيجزي ٠ ومن يترك معتقدي . يمسكهُ حبل يهوذا * اودعتكِ يا ارض في سلام . ويا بني الارض في فرح * ليملك الصلح في البيعة . وليبطل اذى الاشرار . وليكن اهل الشرور ابرارًا والخطاة تائبين » * وبينما الجمّ الغفير من الناس الذين حول افرام كانوا يبكون ويتنهّدون ويسمعون وصيّتهُ هذه العجيبة . سلّم روحهُ بيد خالقهِ . وانتقل الى الافراح السماويّة] *

الفصل الخامس والعشرون

في مصنّفات مار افرام

[بكلّ حقٍ قد افتخرت الكنيسة السريانيّة في كلّ الاجيال بهذا ولدها افرام الذي كالنيّر الساطع المركوز في وسطها لا يزال يزيّنها ويضيء عليها بالانوار السماويّة المنبعثة من مؤلّفاتهِ العجيبة الباهرة * فانّهُ ان كان قد ذُكر عن كثير من الافاضل الاقدمين انّهم كتبوا كتبًا يندهش العقل من كثرتها . يسوغ ان نقول انّ القدّيس افرام السريانيّ ليس هو آخر كلّهم رتبةً ٠ فانّ مؤلّفاتهِ لا يقدر عادٌ ان يعدّها او يستقصيها ٠ وبعد كلّ ما بذلهُ اولوا الهمّة من التعب والجدّ في اقتفاء جميع ما خرج من نطق هذا الرجل

عظيم وفي نشرهِ بين ايدي العلماء والعامة. يوجد الى الآن كثيرٌ من
صنفاتهِ لم يمكن اظهارهُ وكشفهُ * واما ما يزيد مؤلفات مار افرام
رفاً وفخراً فريداً هو انَّ الكنيسة السريانية مع كلّ اتساعها لم
زل منذ زمان هذا القديس الى يومنا هذا تلهج كلَّ يوم بقصائدهِ
اناشيدهِ الحلوة في صلواتها وتسابيحها. لا بل انَّ هذا الملفان هو
ول واحد من الآباء المعروفين الذين استعملت مؤلفاتهم في كنيسة
لله قاطبةً بعد الكتب المقدَّسة. حتى انَّ اناشيد مار افرام دخلت
ي طقس العبادة منذ كان هو حياً بعد * وناهيك انّ الكتب
لتي يستعملها الكلدان والسريان والموارنة في كنائسهم من اقصى
لاد المشرق الى اقصاها حاصلةٌ اكثرها من ميامر القديس مار
فرام السرياني * واما المعاني التي ضمَّنها افرام في مؤلفاتهِ فلا يمكن
حصرها بالكلام. ويسوغ ان نقول بالاجمال انهُ لم يترك باباً من
بواب الدين سواءٌ خصَّ المعتقد او تهذيب السيرة او الكتب
لمقدسة او حقيقة الكنيسة وما اشبه. الاَّ وانشأَ فيهِ مقالات عجيبة
باسهاب واطناب * فان كان سائر ملافنة الكنيسة قد فاق كلٌّ
منهم في احدى مسائل علم الدين. فلا نخشى ان نقول انَّ افرام
قد فاق في كلّ مسأَلةٍ * ومما انفرد بهِ افرام هو انهُ كان يحصر
معاني كثيرة في كلمات قليلة. كما شهد عنهُ الاولون وكما يظهر لمن
يطالع ميامرهُ في السريانية. حتى انهُ ربما اتفق للذي يستخرج كتبهُ

يستحقّها * لو ظهرت لكم عيوبي . لبصقتم كلّكم في وجهي ٠ انّي
خاطئ . فلا يغبطني احد . ولا يضع احد في جنازتي خزًا و
ثوبًا فاخرًا . بل اقبروني بقميصي وبقبّاعتي . فانّ الخطايا كلّ
موجودة فيَّ * حيهل يا ايُّها الرهاويّون يا سادتي واولادي وآبائي
هاتوا ما نذرتم ان تضعوهُ في جنازة اخيكم . هاتوهُ فنبيعهُ فيوزّ
ثمنهُ على الفقرآء والمساكين . فيكون لكم ولي من ذلك فائدة
انّي اشكر فضلكم يا اخوتي على انّكم نذرتم لي هذه الاكرامات
وانّني لا استحقّ ذلك وقد قضيتُ عمري بالخطايا * بركة ا
تحلّ على المدينة التي انتم ساكنوها ٠ يا مدينة الرها امّ الحكما
عليكِ تلك البركة التي اتتكِ من المسيح بيد تلميذهِ . ولتلازمك
الى يوم ظهورهِ * لا يحمل احدٌ شمعةً قدّامي . وايّ نفع من النا
لِمن نارهُ فيهِ * لا تضعوا في جنازتي اطايب . فانّ ذلك لا ينفعني
بل عطّروا الروائح الذكيّة في المقدس . وامّا انا فشيّعوني بالصلوة
لله العطور . ولي المزامير * لا تدفنوني في قبوركم . فانّي قد عاهدت
الاهي ان أُدفَن في مقبرة الغربآء . فانّي انا غريب مثلهم *

تعالوا يا اخوتي مدّدوني . فانَّ الساعة قد دنت . زوّدو
بالصلوات والمزامير والقرابين ٠ واذا انقضت الثلاثون يومًا
فاذكروني يا اخوتي . لانَّ الاموات ينتفعون من القرابين التي تصنع
الاحيآء * فانّهُ ان كان جيوش المقابيّين الذين سقطوا في الحرب

غُفرت زلّاتهم بالقرابين. فبكم احرى كهنة المسيح ان يكفّروا
ذنوب الموتى بقرابينهم وصلواتهم *

تعالوا يا تلاميذي وخذوا منّي البركة بسلطان الراعي
ارك . فان كنتُ انا لستُ مثل نوح وملكيصاداق . فكونوا انتم
ركين مثل سام ويافث ومثل ابرهيم * يا ايّها الانبا [١] (اي رئيس
هبان) ليعظّم المسيح ذكرك * يا ابرهيم. لبّاك الله الاه ابرهيم * يا
عون . ليسمعك الله كلّما دعونهُ في الصلوة * يا ماري الاجاليّ .
ك تبعتني بالضيق. فليجزل لك الربّ اجرك * يا زينوب الجزريّ .
ن كلمتك كالنار وتاكل قشّ الاديان الكاذبة * يا فَوْلونا [٢] .
يل للامّ التي ولدتك. لانّك اتّبعت جميع الاديان وتجسّست
ل المسائل . إنّك اتّكلت على قصبةٍ مرضوضة. وتركت عصا
ليب * يا ارواط. ليُمحَ ذكرك من بين الاحياء . لانّك تركت
المسيح وشربت عكر الخطيّة * يا ايّها الاريوسيّون. والمانويّون .
اثريون. والحاويّون. والمرقيانيون. والاوناميون. والبرديصانيّون .
وقيّون . وسائر اصناف المذاهب السمجة. ليكن مباركًا ذلك
ي اختار الكنيسة المقدّسة وجعلها نعجةً لم يقدر الذئاب ان
سوها . وحمامةً لم يقدر الصقر ان يدنو منها *

---

(١) هذا والاربعة الذين بعدهُ كانوا من اخصّ تلاميذ مار افرام *
(٢) هذا نداء لاحد زعماء المراطقة *

فتتقاطر افواج الناس من كلّ ناحية لاستماعهنّ وتنطبع تلك المعاني القدسيَّة في عقولهم *

ولمّا رأى افرام انَّ المدينة قد تطهّرت من الضلالات وصارت في امان. رجع الى منسكهِ الاوّل. وشرع يعذّب نفسهُ بسيرة قشفيَّة اكثر من الاوّل * ولمّا بلغهُ انَّ المدينة قد صار فيها غلآء وجوع شديد. نزل الى المدينة. واخذ يعظ الاغنياء ويحرّضهم ويفهّمهم انهُ فرضٌ قويّ عليهم ان يطعموا الجياع * فاقتنعوا بكلامهِ. وطلبوا منهُ ان يتوكّل هو على توزيع الصدقات التي يعطونها. فقبل منهم ذلك وصار ديدبانًا على الفقرآء والمساكين والمرضى والمتضايقين. واقام اشخاصاً يداورن المرضى والمعوزين ويخدمونهم. وزادت محبّتهُ في قلوب العامّة والخاصّة *

الفصل الرابع والعشرون

في موت القدّيس مار افرام (سنة ٣٧٩)

[لمّا رأى افرام منيّتهُ قريبة. جمع اليهِ تلاميذهُ وسائر من كان في القرب من رهبان ونسّاك والاقليرس وجمًّا غفيرًا من الجماعة. وقرّر بين ايديهم وصيّتهُ الاخيرة الشهيرة. وقال فيها[1] «انا افرام مائت. وكاتبٌ هذه الوصيّة لتبقى ذكرًا لكلّ احد ممّا

(١) انّنا قد لخّصنا هذه وصيَّة افرام لانّها طويلة جدًّا *

كهُ * الويل لي ان حياتي قد دنت الى الزوال . قد دنا
سيج الى القطع . ونفد الزيت من السراج * قد قضى الاجير
تهُ . احتاطتني الجنود . وجاءني من هنا ومن هنا الذين
خذوني * الويل لك يا افرام من يوم الدين اذا وقفت قدّام
ر ابن الله . ويكون معارفك حولك من عن يمينك ومن عن
الك . فالويل لك من الخزي الذي سيحصل لك * يا يسوع
ن انت ديّانًا لافرام . ولا تسلّم دينونتهُ لغيرك . لانّي سمعتُ
ن الحكماء انّ الذي يرى وجه الملك لا يخزى ولو كان مذنبًا *
صيكم يا اخوتي ان تذكروني في الصلوات والطلبات . فانّي
ت لا محالة . والسرير الذي انا مطروح عليهِ لن اقوم منهُ *
ما شتمتُ احدًا في النهار ولا في الليل . وفي حياتي كلّها ما
اصمتُ احدًا . ولكنّي ما برحتُ اجادل الكفّار . فانّ الكلب
ا راى الذئب مقبلاً على الغنم . ولم يخرج وينبح عليهِ . يجلدهُ
احب الغنم * اقسم بالذي قال ايلي فارتجّت البرايا كلّها . اني
شكّيتُ قطّ في البيعة . ولا في قوّة الله * بحياتكم يا تلاميذي
حياة افرام . انّ افرام لم يملك شيئًا * فتعالوا وتوادعوا معي
طلق بالسلام . واذكروني في الصلوة والطلبة * لا تقبروني تحت
ذبح . لانهُ من السمج ان يوضع في مكان مقدَّس مَن هو مكروه
رائحة . ولا تدفنوني في الهيكل . لانّ الكرامة لا تنفع من لا

وبعد ما توفّي مار يعقوب ووقعت نصيبين بيد الفرس • هرب افرام من مدينتهِ . وتوجّه الى مدينة الرها التي كانت بيد الروم • ولمّا رآها من بُعدٍ وابصر الاديرة العامرة التي حولها . ارتقش قلبهُ تهللاً . وعزم ان يسكنها طول عمرهِ * واذ كان كثير من اهل الرها وثنيّين بعد . اقبل عليهم يعظهم ويحرّضهم انْ يتركوا ضلالهم في الاوقات التي فيها يفضى من شغلهِ الذي بهِ كان يتعيّش * وحضر اليهِ شيخٌ من النسّاك . احبهُ ونصحهُ ان يزهد في الدنيا وينقطع للسيرة الرهبانيّة * فاجاب افرام الى ذلك . وخرج من المدينة مع ذلك الشيخ . وتبوّأ مغارةً في احد الجبال . ثمَّ اخذ اسكيم الرهبنة *

امّا الفضائل التي اظهرها القدّيس افرام في تلك سيرتهِ الجديدة فامرٌ يعجز اللسان عن وصفهِ فضلاً عن استقصائهِ . وناهيك مؤلّفات القدّيس التي لا يستطيع احد انْ يقرأها الاّ ويشعر بجاذب قويّ يجذبهُ الى حبّ الكمال المسيحيّ * وكان افرام مع كثرة نسكهِ وصومهِ وصلواتهِ وتقشّفاتهِ وسهرهِ يقرن مطالعة الكتب ودرس العلوم الدينيّة * ولمّا بلغ اهل المدينة خبر فضائلهِ وعلمهِ . شرعوا يتقاطرون اليهِ في مغارتهِ ليروهُ . فترك افرام تلك المغارة واختلى في وادي الجبل * ثمَّ بعد ذلك الهمهُ الله ان ينطلق الى المدينة ليحارب الهرطقات والضلالات التي ظهرت في ذلك البلد . ثمَّ رجع الى قلاّيتهِ . واخذ يصنف تلك الكتب العجيبة في دحض الهرطقات

ضلالات وفي تقويم حقائق الدين المسيحيّ وغير ذلك * وتتلمذ
ر افرام رهبان شتّى. منهم زينوب الذي كان شمّاس كنيسة الرها.
سحاق الذي صار احد ملافنة الكنيسة. وشمعون. وغيرهم *

وتشوّق القدّيس افرام الى روية الملفان العظيم مار باسيليوس
سقف قيصريّة. فاخذ معهُ تلميذًا عالمًا باللغة اليونانيّة ليترجم لهُ.
زل اوّلاً الى بلاد مصر. وافتقد الرهبان الذين هناك المعروفين
لاسقيطيّين ولاسيّما الانبا بيشاي المشهور. ثمّ توجّه الى مدينة
يصريّة * ولمّا راهُ باسيليوس. قبلهُ باعزاز واكرام. واراد ان يسيمهُ
سيسًا. فأبى وتمنّع. وبالكدّ نال ان يرسمهُ شمّاسًا. وبقي في درجة
شموسيّة الى حين موتهِ. ولم يرِد ان يرتقي الى درجة اعلى لشدّة
اضعهِ *

ولمّا رجع الى الرها. راى المدينة قد عثا بها اضاليل كثيرة
لاسيّما بدعة بَرْدَيْصان القائلة بعدم قيامة الاجساد وبالقَدَر وغير
لك. فاحترّ افرام بروح القدس. وشرع يدحض هذه الاضاليل
قوالهِ ومصنّفاتهِ البديعة الباهرة * واذ راى انّ الهراطقة كانوا
شّون ضلالاتهم بقصائد واغانيّ كانوا يعلّمونها للاحداث فيترنّمون
ها ويسري سمّها في قلبهم. استعمل هو ايضًا هذه الطريقة. وصنّف
قالاتهِ كلّها بقصائد او مداريش على اوزان مختلفة. وعلّمها للنساء
العذارى. فكنّ يجتمعن في الكنيسة ويغنّين تلك القصائد الروحانيّة.

عظيمة. تغطّى بها كلّ ما كانوا قد حفروا. وتبلبلت المواد التي كانوا قد جمعوها للعمارة. وسقطت بيوت كثيرة من الجار. وقُتل كثير من الفعلة وجُرح كثير منهم * ولكنّ اليهود مع انهم راوا شغلهم قد خرب وردم. لم يكفّوا. وبعد ان هدأ هلعهم عادوا الى العمل. واذا بلهبات نار خرجت من جوف الارض. ورشقت في الفعلة الحجارة التي كانوا يبنون بها. واذابت آلات الحديد * وحدث ذلك دفعات كثيرة. وما اظهر برهان ارادة ربّانيّة في هذه الداهية هو انّهُ كلّما باشروا العمل. اعترضت عليهم النار المشروحة ومنعتهم* فاندهش من ذلك الناظرون وخفقت قلوبهم. وكثير من اليهود لا بل من الوثنيّين آمنوا بدين المسيح وطلبوا العماذ * وامّا يليانس الملك الغبيّ فبدل ان يستضيء بهذا التنبيه الالهيّ ويرى الحقّ ازداد عَمًى *

انّ هذا الخبر لا شكّ في صحّتهِ. فقد شهد بهِ غير واحدٍ من المؤرّخين الوثنيّين. منهم اَمِيانُس مَرْقَلِين[1]. عدا المؤلّفين المسيحيّين. فانّ غريغوريوس النازينزيّ ويوحنا فم الذهب قد ذكراهُ ووصفاهُ في خطباتهما الجماعة المومنين الذين منهم من كان قد شاهد الحادث بعينيهِ ولم يكذّبهما احد * وقد ذكر هذا الحادث ايضاً احد الربّيين

---

(١) اميانس مرقلين كان مورّخاً رومياً وُلد في مدينة انطاكية وكتب في اللاتينيّة تواريخ ملوك الروم *

ي علمآء اليهود بعد ذلك بماية سنة . ونقلهُ عن اخبار بني ملتهِ * بليانس الملك نفسهُ اعترف انَّهُ قد أُغري إِغرآءً بمباشرة بنيان هيكل . وسكوتهُ عن السبب الذي جعلهُ يكفّ عن الشغل واقرارهُ بلسان الحال بما رواهُ المؤَرّخون عن ذلك *

واذ خاب يليانس في مقصدهِ هذا . قصد الحرب مع لفرس . وفيها قضى نحبهُ . وجعل كلّ احد موتهُ ضربةً من الله جزآءً لارتداده النفاقيّ وحمايةً لكنيستهِ المقدّسة التي اكثرهو من اضطهادها *

الفصل الثالث والعشرون

في فضائل مار افرام السريانيّ الملفان

[انَّ من اعظم المواهب التي جاد بها الله على كنيستهِ في ذلك العصر هو تزيينهُ ايّاها بهذا الرجل الفاضل العظيم مار فرام السريانيّ * وُلد افرام في مدينة نصيبين . وكان ابوهُ كاهناً عبّاد الاصنام ۰ ولمّا نشا وراَهُ ابوهُ يميل الى دين النصارى . طردهُ من بيتهِ * فانقطع الى مار يعقوب اسقف المدينة . فاحبّهُ واهتمَّ بهِ وجعل يرشدهُ ويعلّمهُ ۰ واذ كان عمرهُ ثماني وعشرين سنة . اخذ سرّ العماذ ۰ واختلط مع زمرة الشبّان الخادمين في الكنيسة * ولمّا انطلق مار يعقوب الى المجمع النيقاويّ . اخذ معهُ افرام ورجع معهُ الى نصيبين *

عنهُ واعطى الحقّ لخصمهِ. ولم يكن يترك للنصارى ان يحاموا عن نفسهم امام القضاة. وكان يقول لهم «انَّ دينكم ينهاكم عن الخصومات والمنازعات» * وكان يعظّم المدن التي كانت عبادة الاصنام فيها متقدّمة * وبالعكس يدمّر المدن النصرانيّة. فاذا ارسلتْ اليهِ رسلاً. لم يسمعهم ولا يجِب الى سؤالهم * وحرّج على النصارى ان يعلّموا المنطق والحكمة لعلمهِ انَّ هذه العلوم آلةٌ قويّة لاخزاء الضلال ونصر الحقّ. وكان في ذلك يحتجّ بانَّ المسيحيّين يجب عليهم ان يلبثوا في الجهل وان يومنوا بغير تعقّل * ولعمري انّهُ لو لم يجلّل الله عزَّ وجلَّ كنيستهُ بظلّهِ وسترهِ لكان هذا النوع من الاضطهاد يقرض الكنيسة اكثر من اضطهاد نيرون وديوقلطيانس. فانّهُ تعالى قطع سلك حياة هذا الملك الظالم يليانس قبل ان ينجز آرابهُ الخبيثة *

الفصل الثاني والعشرون

في خيبوبة يليانس المنافق وموتهِ (سنة ٣٦٣)

انَّ يليانس اذ بذل جهدهُ ليعادي الديانة المسيحيّة ويقرضها. صار هو بنفسهِ برهانًا على صحّة نبوّاتها وعلى الوهيّة صاحبها * فانّهُ لمّا كان عالمًا بالنبوّات المخبرة بانَّ هيكل اورشليم يُخرَب ولا يُبنى مرّةً اخرى. وانَّ المسيح كان قد سبق وقال بانّهُ لا يبقى فيهِ حجر

ي حجر. اراد ان يكذّب هذه النبوّات. فازمع أن يقيم من جديد
بان هيكل اليهود الذي كان طيطس ملك الروم قد اخربهُ.
ع انّهُ لم يكن يحبّ اليهود دعاهم ان يشتغلوا هم بانفسهم بالبنيان *
دفع النفقات اللازمة لذلك. وارسل احد حشمهِ اسمهُ اليبيوس
نظر في العمارة ويحثّهم عليها * فتراكض اليهود للعمل من كلّ
حية. واحتشد خلق كثير منهم لا يُحصى الى موضع الهيكل *
اخذوا يهيّئون الارض ويحفرونها. واقبلوا على الاساسات القديمة
نقضوها * وكان المشتغلون من كلّ صنف من الناس حتَّى من
شيوخ والصبيان والنسآء * وكان حينئذٍ القدّيس قورلّس[1] اسقفًا
و بطريركًا على اورشليم. فكان يستهزئ بهم ويضحك على تعبهم.
كان يقول انّهُ قد جاءَ الزمان الذي فيهِ تقع نبوّة مخلّصنا بحرفيتّها
انّهُ لا يبقى حجر على حجر من هذا البنيان الواسع * وكما قال
حدث. فانّهُ لمّا ردموا اساسات الهيكل القديم. حدثت زلزلة

(١) اعلم انّ القدّيس قورلّس الاورشليمي هو من افضل آباء الكنيسة
الشرقيّة. وُلد في اورشليم سنة ٣١٥ وصار عليها اسقفًا سنة ٣٥٠ * وفي سنة ٣٥٧
نزل عن كرسيهِ بمكايد اقاق اسقف قيصريّة. ثمَّ رُدَّ اليهِ في مبادئ مملكة
ليانس * وبعد ذلك نفاهُ واليس الملك. ثمَّ رجع بعد موت هذا الملك
سنة ٣٧٨ * وتوفّي سنة ٣٨٦ * من مؤلّفات هذا الملفان الكتاخزيس اي
الارشادات في الدين المسيحي. الّفها في اليونانيّة. لانَّ اهل اورشليم كانوا غالبًا
يتكلّمون بهذه اللغة في ذلك العصر *

الدين. ورجا بذلك ان يرغّب الناس في حبهِ واكثر من ذلك
ان يجعل حكم قسطنطيوس مكروهاً مذموماً * ومن جملة الذين
انتفعوا من هذا الامر كان اثناسوس. فانهُ رجع من المنفى الى
الاسكندريّة. ودخلها برهج وتهليل وانتصار. فانَّ افواج الناس
خرجوا للقائهِ الى بُعد يومٍ صحيح وكان عددهم لا يُحصى كثرةً وزحمة.
حتّى بان كأَنَّ اهل مصر كلهم تقاطروا اليهِ. وكان كثيرون يتسلّقون
السطوح او يرتقون على الشجر ليروهُ. ومَن مرَّ عليهِ خيالهُ جعل نفسهُ
سعيدًا * ولكنَّ هذا الفرح الحاصل من رجوع هذا البطريرك
القدسيّ لم يدُم كثيرًا. فانَّ يليانس الملك لخفّة عقلهِ وتقلّب رايهِ
مع ما كان فيهِ من الاوصاف الممدوحة نوى ان يعدم الديانة المسيحيّة
وانْ يحيي عبادة الاصنام * وللحصول على ذلك طرد القدّيس
اثناسيوس من الاسكندريَّة. فاضطُرَّ اثناسيوس ان يستخفي ثانيةً
خوفًا انْ يصيبهُ شرٌّ اعظم * الاّ انَّ يليانس لم يكن يستعمل الاجبار
بل كان شانهُ ان يخدع. فزرع الفتنة بين الهراطقة والكاثليكيّين
ليضعّفهم بعضًا ببعض ويمكنهُ هكذا ان يفنيهم قاطبةً * فكانت
حرّيّة الدين التي جاد بها على النصارى نوعًا من العبوديّة. فانّهُ
كان يقمعهم ويسحقهم ولو انّهُ لم يبرز امرًا في قتلهم * وكان يليانس
يعامل الوثنيّين بالرفق واللطف. والنصارى بالاحتقار والتعدّي
والاذى * وبذل جهدهُ على الخصوص في اذلال الروساء والكهنة

صناف الذين لهم نسبة مخصوصة الى الديانة * فرفع عن القسوس
نعامات التي كانوا قد حازوها من زمان قسطنطين الملك .
طل العلف المعين لمعاش خدّام الكنائس والعذارى المتزهّدات .
كان يقول متهكّماً انّي اصنع ذلك لادعوهم الى سيرة الكمال واقودهم
العيشة الفقريّة التي يامر بها الانجيل * ثمّ انّهُ نهب الكنائس .
سلبها زيّن هياكل الاصنام . ورمّ هذه الهياكل من كيس النصارى *
وعند ذلك اصاب روساء الكنائس اذيّات كثيرة . فانهم
بسوا وعُذّبوا ليقرّوا بآنية الكنائس ونفائسها . وكانوا يهينونهم
شتمونهم جهرًا وليس من يعينهم * وكانت البِيَع تُنهَب او تُهدَم او
تكب فيها القباحات . ومقابر القدّيسين نُبِشت . وهتكت عظامهم .
ذرّي رميمهم * واستعمل يُليانس المواعيد ايضاً ليجذب الضعفاء
الايمان من المسيحيّين . فكان يعاقب اشدّ عقاب من يعاند
رهُ منهم . واما الذين كانوا يطاوعونهُ ويخونون ذمّتهم من الخوف
الطمع فكان يكرمهم ويحبوهم وينعم عليهم * وكان لا يوظّف الاّ
ذين كفروا بدين المسيح . ولو كانوا خالين من الصفات المطلوبة
قيام بوظيفتهم كالواجب . بل كان الارتداد سبباً كافياً لغفران
ميع الذنوب المرتكبة ومبيحًا لارتكاب غيرها * واعطى يُليانس امرًا
ن لا يُولَّى احد من المسيحيّين على امارة او معاملة بحجّة انّ الانجيل
هاهم عن حمل السلاح . واذا نازع ظالمٌ حقّ نصرانيّ

فسعى في نشرها في البلاد التي تلي نصيبين * وفي سنة ٣٢٥ اقتحم مشقَّات السفر الطويل. وقصد مدينة نيقية مصحوبًا بتلميذهِ افرام ليحضر المجمع الاوَّل المسكوني المسمَّى النيقاوي لطعن تجديف اريوس اللعين *

وحدث في كنيسة المدائن شقاق. وذلك انَّ مطرانها الذي كان اسمهُ فافا بن اجَّى تجاسر ان يقيم في بعض المدن اسقفين اسقفين * فاجتمع مجمع في تلك المدينة. حضر فيهِ من الجملة القدّيس ميلس اسقف سوس. واظهروا غلط فافا ولاموهُ. وقترسوهُ اي انزلوهُ من كرسيِهِ * فلمَّا بلغ مسامع القدّيس يعقوب اخبار هذه الامور. كتب الى اساقفة تلك النواحي واقليرسها رسالةً فيها يحثّهم على الاتّفاق والتواضع * ولمَّا اجتمع مجمع في اورشليم في عهد قسطنطين الملك لتكريس هيكل القيامة. كان من جملة الاساقفة الكثيرين المجتمعين القدّيس يعقوب. فسمَّاهُ لذلك المؤرّخون الغربيّون فخر اساقفة الفرس وجهبذًا في علوم الكتب المقدّسة *

ثمَّ انَّ الله سبحانهُ وتعالى جاد على يعقوب بموهبة افتعال الاعاجيب والمعجزات ٠٠ من ذلك ما اجمع عليهِ الاوّلون قاطبةً. وهو انّهُ بصلواتهِ انزل الله العقاب على اريوس المنافق. واباده بافظع الردى * ومن ذلك ايضًا انّهُ لمّا حاصر الفرس مدينة نصيبين ليأخذوها من الروم. خلّصها الربّ بدعائهِ من يد شابور الملك *

حكى عنهُ ثاودورس القاري قائلاً «انَّ يعقوب كان ذا فضيلة
كبيرة • والدليل على ذلك اعجوبة صنعها مع فتيات وثنيات كنَّ
يغسلن في العين . فانهُ دعا عليهنَّ . فابيضَّ للوقت شعرهنَّ •
ويبست العين من ساعتها . ثمَّ حنَّ قلبهُ فشرع يصلّي . وبصلواتهِ
امتلأَت العين ثانيةً . امَّا الفتيات فبقي شعرهنَّ ابيض» * ثمَّ انَّ
يعقوب النصيبيني بعدما قضى ايامهُ بالطهارة والقداسة عاد الى
ربهِ سنة ٣٣٨ . وقُبر باكرام واحتفال في كنيستهِ * ويُشاهَد الى يومنا
هذا قبرهُ في مدينة نصيبين في كنيسة قديمة جدًّا كان احد ملوك
الروم قد بناها . وفي هذه السنين الاخيرة وقعت بيد العاقبة
بامر الحكّام] *

الفصل الحادي والعشرون

في اضطهاد يليانس المنافق للنصارى

بعد قسطنطيوس ملَكَ على الروم في قسطنطينية يليانس
الملك * فهذا ارتدّ عن الديانة النصرانيّة وكفر بها . وسُمّي لذلك المرتدّ
و المنافق * واوَّل ما جلس على كرسيّ المملكة ابرز امرًا بانَّ كلّ
احدٍ مخيَّر ان يتبع الدين المتمسّك هو بهِ من دون مانع . واستدعى
من المنفى جميع الذين كانوا في زمان قسطنطيوس قد نُفوا لسبب

ولو ملك عليهم مدّةً من الزمان ملوكٌ ارمن باسم ابجر. اشتهر احدهم على ما ورد في الآثار القديمة بارسال رسالة الى السيّد المسيح وارسال المسيح اليهِ صورتهُ وبركتهُ *

وهذه البلاد السريانية تُقسَم عند اصحابها الى غربيّة وشرقيّة. فالغربيّة كان حدّها من البحر الى نهر الفرات. والباقي هو القسمة الشرقيّة * وامّا اسم الكلدان فلم يسمِّ بهِ الشرقيّون نفسهم قطّ. بل كان في الاوّل اسم قبيلة شرقيّة جبليّة من قبائل السريان تسلّطت على البلاد. ثمَّ صار اسم قوم من المنجّمين يسمّون ايضاً المجوس. والآن هو اسم الاقوام الراجعين من ضلالة النسطرة الى الكنيسة الكاثليكيّة كما انّ اسم السريان خُصّص للراجعين من اليعقوبيّة * فاذا علمتَ هذا فاعلم انَّ الكنيسة السريانيَّة كانت واحدةً في الاجيال القديمة. يسوسها كلّها بطريركٌ واحد وهو بطريرك انطاكية. ولم يكن بطريركٌ غيرهُ في البلاد السريانيّة كلّها. وكان للبلاد الشرقيَّة على الخصوص اسقف كبير خاضع لذلك البطريرك يسمّى الجاثليق كرسيّهُ مدينة سلوق او المدائن * ثمَّ انّهُ لم يكن في ذلك الزمان اختلاف طوائف طقسيَّة كما يوجد الآن. ولا كان يُسمَع في العالم كلّهِ اسم كلدانيّ او سريانيّ او رومي او ماروني او قبطيّ او لاتيني بالمعنى الذي بهِ تُستعمَل هذه الاسماء في يومنا هذا. بل كان في كلّ مدينةٍ اسقفٌ واحدٌ مسلّط وحدهُ على جميع

ل تلك المدينة وقراها من ايّ جنسٍ او لغة كانوا. لا بل كان
رّماً اشدّ تحريم ان يقام على مدينةٍ واحدة أكثر من اسقف واحد *
وكان لكلّ هذه الكنائس طقسٌ واحد بهِ يقضون الخدمات
دينيّة باللغة السريانيّة العموميّـة شرقًا وغربًا. الاّ انّهُ كان باللغة
ونانيّة في المدن الغربيّة الكبرى المذكورة سابقًا * وهذا الطقس
كانت الكنيسة قد تسلّمت من الرسل ابوابهُ الاساسيّة. ثمَّ الآباء
تقدّمون اكملوهُ وضبطوهُ بحسب حاجة الازمان] *

الفصل العشرون

في سيرة القديس مار يعقوب النصيبينيّ (سنة ٣٣٨)

من جملة القدّيسين الذين تلألأُوا في بلادنا هذه المشرقيّة،
ر يعقوب العظيم اسقف مدينة نصيبين * هذا لم يزل مدّة حياتهِ
أشًا عيشة قاسية قشفيّة. ومنذ صغرهِ انعكف على اكتساب
لفضائل. فاشتهر باجلّها * وكفاهُ وصفًا بانّهُ كان معلّم ذاك الملفان
عظّم المنقطع النظير مار افرام السريانيّ الذي سياتيك الكلام
نهُ * ولمّا صار اسقفاً. بذل كلّ وسعهِ في تقويم النظام البيعيّ
في تهذيب الشباب وتثقيفهم. ففتح مدرسة جعل فيها تلميذهُ افرام
علّمًا * وكان لهُ همّة بليغة وغيرة رسليّة على الديانة المسيحيّة ٠

الفصل الثامن عشر

في استشهاد مار نرسي الاسقف ويوسف تلميذهِ (سنة ٣٢٤)

[هذان قُبض عليهما في السنة الرابعة من الاضطهاد • فلمَّا أُحضرا امام الوالي. قال لنرسي « يا ما ابهى شيخوختك واهيبها. ويا ما الطف شبوبيَّة تلميذك وابهجها: انّي لاشفق على حسنكما. واخاف عليهِ أَنْ يتلوّث بالدم. فيجعل القتل ماواهُ الجحيم * فاسمعا منّي وامتثلا امري. بان تسجدا للشمس فاكرمكما » * قال لهُ نرسي « يا ما امرّ كلماتك التي تتظاهر بالحلاوة. ويا ما اكيد اقوالك واخبثها واكذبها • فانّك تهتمّ بحطّنا من الدرجة السامية التي نحن فيها الى ذلّ هذا العالم الزائل الواهي الذي انت تفتخر بهِ • وكيف لا يخطر ببالك انَّ هذا العالم يغيب عنك كحلم. ويزول مثل الظلّ * امّا انا فقد شختُ ولي من العمر ثمانون سنة. وفي حياتي كلّها لم اتمسّك الاّ بخدمة الله الواحد • فحاشاي الآن من ان اهجرهُ واكفر بهِ واسجد للشمس خليقتهِ » * فقال لهما الملك « لعمري انكما قد طلعتما عليَّ في ليلة نحسة. ولا مفرّ من الموت ان لم تفعلا مرادي » * قال نرسي « ولو كان في مكنتك ان تقتلنا ثمَّ تحيينا سبع مرَّات. لما جحدنا ربّنا وامتثلنا امرك » * فامر الملك بقتلهما • ولمّا بلغا الى محلّ القتل. رفع نرسي بصرهُ لينظر الخلق المحيط بهِ. فقال لهُ تلميذهُ

سف «أيُّها الشيخ القدّيس البهيّ ما بالك تحدق بالناس . فانّ
اس يحدقون بك ويودّون لو كانوا هم في مقامك ورجعتَ انت
لمًا الى البيت » * فقال لهُ نرسَيْ « طوبى لك يا يوسف لانَّ
ك لم يتعلّق بالدنيا البتّة . وكانَّك منذ الآن قد دخلت ملكوت
سموات » * وقُتل يوسف اوّلاً . ثمَّ بعدهُ نرسي] *

الفصل التاسع عشر

في حال الكنيسة السريانيّة في القرن الرابع

[مرادنا بالكنيسة السريانيّة الكنيسة التي كان اهلها يتكلّمون
لغة السريانيّة . وهي كانت تشمل سوريّة الحقيقيّة مع اختلاف
سامها . والجزيرة او بين النهرين . وآثور التي تسمّى ايضًا بلاد
وصل . ومادي واذربيجان وهي المسمّاة الآن كردستان . والعراق
ي كان القدماء يسمّونها بلاد بابل * فاهل هذه البلاد كانوا يومًا
كلّمون باللغة السريانيّة قاطبةً . الاّ انَّ اهل المدن الكبيرة كانطاكية
لوقية واللاذقيّة واطرابلس وغيرها كانوا يتكلّمون باللغة اليونانيّة .
نّها كانت مدنًا بناها الماقدونيّون خلفاء اسكندر ذي القرنين
ـين تملّكوا على تلك البلاد زمانًا * وكانت مدينة الرها مركز
لوم السريانيّة الدينيّة والدنيويّة . وكان اهلها يتكلّمون بالسريانيّة

واستعان لذلك بالسهر والصوم والقنوت * ثمّ ذهب الى مدينة عيلام . وارشد هناك كثيرًا من الاشرار ذوي الرذائل . وبذل في ذلك كلّ وسعهِ . وقاسى ما لا يوصف من الجهد والتعب * ثمّ سِيمَ اسقفًا . ولم يكسبهُ ذلك الاّ اهانات وتجاريب وعذابات بسبب اهل البلد . فاحبّ الابتعاد من هناك . وحجّ الى القدس الشريف * ثمّ رحل الى مصر ليشاهد تلامذة مار انطون واديرة الرهبان . ثمّ عاد الى ارضهِ وتلمذ لاحد النسّاك * ورحل الى مدينة نصيبين ليزور مار يعقوب اسقفها . ومن ثمّ نزل الى المدائن . وافتعل المعجزات الكثيرة الباهرة فيها وفي غيرها من المدن والقرى المشرقيّة . وتلمذ كثيرين * فسمع صاحب بلاد زريق بذلك . وكان متكبّرًا مختالاً . فامر باحضارهِ وباحضار تلميذيهِ امبروسيم وسينا * فحكم بتقييدهم بالسلاسل . وضربهم بالسياط . وآذاهم بعذابات متنوّعة ليحملهم على السجود للشمس * امّا هم فكانوا يضحكون من غباوتهِ . وكانوا يمجّلون الله سبحانهُ وتعالى قدّامهُ * ثمّ في احد الايّام الوسية استدعى ثلاثتهم لديهِ * فسأل الطوباوي ميلس قائلاً « قل لنا من انت . أَإِلاه ام انسان . وما هو ايمانك . وما تعليمك . اكشف لنا عن الحقّ . والاّ قطعنا راسك كما يُقْطَع راس البهيمة » * فلمّا احسّ القدّيس على مكرهِ وكذبهِ . قال « انّي انسان ولستُ بالاه . وايماني ايمان حقّ . غير أنّهُ لا يحقّ لي انْ ابيح باسرارهِ لواحد مثلك .

ستُ افزع البتّة من ان اقول قدّامك: الويل لك ايّها المنافق
شرّير. والويل لكلّ من مثلك ينكر الله عزَّ وجلَّ. فانَّهُ تعالى
يعاملكم بصرامة في العالم الآتي بالجحيم في دار الظلمات. ويجازي
كبرياءك بالبكاء وصرير الاسنان الغير المنقطع. على انّكم تنكرون
ذي اعطاكم كلّ الخيرات التي انتم متنعّمون بها» * وفي تلك
لاثناء كان هذا الشرّير جالساً على الكرسيّ. وحولهُ جماعة كبيرة
ن الناس. فقام ووجههُ يقدح نار الغضب. فاستلَّ سيفهُ. وضرب
كنف ميلس فخرقهُ. وعقبهُ اخوهُ ايضاً اذ شمط خنجرهُ وضربهُ
جنبهِ * فاشرف القدّيس على الموت. واخذ يقول لهما «من حيث
كما افتعلتما الشرّ باخيكما. وتعاونتما على سفك دم قريبكما بلا حجّة.
غداً في مثل هذا الوقت يُهراق دم احدكما بيد صاحبهِ. فتلحسهُ
لكلاب. وتنقضّ الطيور لتاكل لحمكما. وهكذا في يوم واحد تثكلكما
مّكما. وتترمّل امراتاكما» * فلمّا فرغ من قولهِ. سلّم روحهُ بيد خالقهِ *
ثمَّ زُجِرَ رفيقاهُ بامر الملك * وفي الغد حدث الامر مثلما تنبّأ
ميلس] *

فثبتوا قاطبةً على الايمان القويم . واستشهدوا باجمعهم بالسيف * واعلم انَّ هذا مار شمعون هو من اقدم الذين تُستعمَل مؤلَّفاتهم في الصلوات البيعيَّة] *

الفصل السادس عشر

في استشهاد شهدست الاسقف (سنة ٣٣١)

[انَّ من اشرف الشهدآء الذين تكلّلوا على يد شابور. شهدست الاسقف خليفة مار شمعون برصبّاعي * هذا راى في الحلم رؤيا بها توصّل الى الاطّلاع على قرب استشهادهِ * فلمّا كانت السنة الثانية من هذا الاضطهاد الاربعيني . قُبض على شهدست وعلى مائة وثمانية وعشرين ما بين قسّان وشمامسة وعذارى . والقوهم في السجن . وطالت اقامتهم فيهِ مدَّة خمسة اشهر * وفي تلك المدَّة اخرجوهم ثلاث مرّات لغاية أَنْ يمتحنوا ايمانهم ويحملوهم على السجود للشمس . فضربوهم بالسياط وعذّبوهم عذابات قاسية بدون أَنْ يصيبوا شيئًا * ثمَّ انَّ شهدست قال للشُرَط عن لسان الجميع «هاكم جوابًا تجاوبون بهِ من ارسلكم . انّنا لنا قلبٌ واحد وفكر واحد وارادة واحدة . ونحن اجمعون نقرّ بايمان واحد بالله واحد . وبيدهِ وحدهُ نسلّم ذواتنا . وحاشانا من ان نخرّ ساجدين للشمس او للنار

ليقة الهنا . او أنْ نخرج من ديننا اكرامًا لك او خوفًا منك او
ن تهديداتك * لا تبطأ يومًا واحدًا . ولا ساعة واحدة في
لنا * عليك بالسيف . وعلينا بعنقنا . عليك بالقتل . وعلينا
دمائنا » * فقال لهم الملك « لعمري قد دنت ساعة موتكم ان لم
تثلوا في الحال امري وتصنعوا مرادي » * فقالوا بفم واحد « انّنا
نموت ولا نبيد . فان الهنا وربنا يسوع سيحوّلنا حيوة ثانية . ويجدّدنا
ي الملكوت * فهاتِ ما عندك . لانّنا متأهّبون الى القتل لوجه
لله » * فانطلقوا بهم الى محلّ القتل . فلمّا بلغوهُ . صرخوا مزمّرين
« مبارك هو الربّ الذي جاد علينا بالاكليل الذي تقنا اليهِ .
لم يحرمنا منهُ » * وما زالوا يسبّحون الله بالاناشيد الى ان قُتلوا
لى آخرهم *

امّا شهدست فذهبوا بهِ الى مدينة لفط وهو مقيَّد
السلاسل . وهناك تكلّل بالسيف] *

الفصل السابع عشر

في سيرة مار ميلس

[نشأ ميلس الطوباويّ في ارض زريق من بلاد الفرس . ثمّ
انتخبهُ الربّ لخدمتهِ . فاعتمد وعزم على أنْ يصون ذاته طاهرًا عفيفًا .

بهِ . شرع ملوك الفرس يضطهدون النصارى الذين تحت حكمهم * واوّل من نشم بذلك كان سابور او شابور ملك الفرس اذ اخرج امرًا على النصارى بان يسجدوا للاوثان . والاّ فيعاقبون بالقتل * فكتب شمعون برصبّاعي اسقف المدائن وهي كرسيّ مملكة الفرس الى الملك من لسانهِ ولسان شعبهِ منكرًا عليهِ ذلك ومستهزئًا بآلهتهِ * فامتلأَ الملك غضبًا . وبعث اليهِ الجواب قائلاً لهُ « ما بالك تخاطر بحياتك وبحياة الآخرين . ويحك كانّك ترغب ان تنزل انت وايّاهم الى الجحيم . أَوَبلغتْ بك غباوتك وكبرياؤك الى ان تريد ان تهيّج الخلق عليّ * لانفينّك من على وجه الارض . ولابيدنّك من بين الاحياء » * فلم يحفل القدّيس . بل جاوبهُ بشجاعة مسيحيّة قائلاً « انّ يسوع اعطى نفسهُ فدية عن العالم باجمعهِ . افلا يجب عليّ انا ان اقدّم نفسي فداءً عن امّتي هذه الصغيرة التي تحرّيتُ سياستها * وكيف يمكنّي ان اتمنّع من اعطاء حياتي من اجل الذين افتدى الله حياتهم بدمهِ • ام كيف يسوغ لي ان اطلب الراحة لنفسي وابقي البوار للانفس التي جاد المسيح عليها برحمتهِ . او ان الذّ جسدي مع هلاك الاجساد التي اشتُريت بقتل يسوع • حاشا وكلّا * هاك دمي فداء عن امّتي . خذ عنقي بدلاً عن رعيّتي » * فاشتدّ الملك غضبًا على غضب . وابرز الامر في القبض على الكهنة وفي هدم البيع

إخراب القدس * واستقبل اليهود هذه الفرصة بكلّ شوق. وعملوا كلّ حيلة في الحثّ على قتل النصارى *

ثمّ قُيِّد شمعون بالاغلال. وجُرّ الى بلاد الاهواز مصحوبًا بقسّيسين آخرين. اسم الواحد عبد هيكل واسم الآخر حنانيا * ولمّا وصل. احضروهُ امام الملك. فعرض عليهِ السجود لآلهتهِ ولشخصهِ أيضًا. واخذ يرغّبهُ في ذلك تارةً بالتهدّد وتارةً بالتمليق * امّا القدّيس فما برح ينكر عليهِ ذلك. وهو يقرّ بدين المسيح بصوت جهريّ ويحامي عنهُ. ويعرض نفسهُ للموت من اجلهِ. الى أَنْ عجز الملك فالقاهُ في السجن رجاءَ ان يخوّفهُ فيرتدَّ عن رايهِ * ولكن القدّيس كان بعكس ذلك يشتدّ عزمهُ ثباتًا وتمكّنًا. وتتكاثر اشواقهُ للاستشهاد. وطفق يناشد الربّ بخشوع وتحرّق ليعجّل ساعة تكليلهِ * وكان قد دنا اسبوع الحاش الذي فيهِ تذكر الكنيسة آلام ربنا وموتهُ. فاقبل القدّيس يصلّي وهو لا يكلّ من طول السهر ولا يشغلهُ فكر. وطلب من الربّ ان يمدّهُ بنعمة الاستشهاد في يوم تذكار موت ابنهِ * فلمّا صارت الساعة الثالثة من الجمعة العظيمة. ذهبوا بهِ امام الوالي. فعجز الوالي عن امالتهِ. ولم ينَل منيتهُ منهُ مع كلّ ملاطفاتهِ وتهدّدهِ * فحكم الوالي بالقتل عليهِ. واخرجوا من السجن رفاقهُ المطارين والقسوس والشمامسة ليُقتَلوا * فلمّا بلغوا محلّ القتل. شرع شمعون يشجّعهم ويؤيّد عزمهم. ويذكّرهم مواعيد المسيح *

بقانون المجمع النيقاويّ. من دون أَنْ يُزاد عليهِ او يُنقَص منهُ شيء.
وحرم اريوس وتبعتهُ * ومن اساقفة المجمع ثلاثمائة وعشرون اسقفًا
قبلوا هذا المرسوم وامضوهُ * وامَّا الاريوسيّون الذين امتنعوا من
قبولهِ. فاُوجب الحكم عليهم واُنزلوا عن كراسيهم * غير أَنَّ الاريوسيّين
حملوا قسطنطيوس الملك على أَنْ يرسل الى والي مدينة ريمني
تقرير ايمان مغلط قد أُسقطت منهُ لفظة متساوٍ في الجوهر وامرًا الى
الوالي بأَنْ لا يدع المجمع ينفضّ قبل أَنْ يمضوا ذلك التقرير.
ويبعث الى المنفى مَن ابى من الاساقفة أَنْ يقبلهُ * وحدث حينئذٍ
أَنَّ اغلب الاساقفة الذين كانوا مجتمعين في مدينة ريمني. وقد
ضجروا من مفارقة ابرشيّاتهم زمانًا طويلاً. وخامرهم الخوف من
غضب الوالي وجورهِ. سلّموا نفوسهم لمكر الاريوسيّين. وظنّوا أَنَّ معنى
المتساوي في الجوهر متضمّن في عبارة اخرى من ذلك التقرير. فقبلوا
ذلك التقرير وامضوهُ وهم لا يحسّون بالسمّ الذي فيهِ * وانتهز
الفرصة الاريوسيّون بلا مهلة. ونادوا بالظفر * ولمّا احسّ آباء
مجمع ريمني بالمكيدة التي وقعوا فيها. استقبحوها وضجّوا غضبًا. ورفضوا
المعنى الغير المستقيم الذي عناهُ الاريوسيّون بعبارات التقرير الذي
امضوهُ. واعلنوا أَنَّ ايمانهم هو على ايمان المجمع النيقاوي * وعند
ذلك قال المعلّم هيرونمس الملفان قولهُ المشهور. وهو «إِنَّ العالم
تعجّب اذ راى نفسهُ قد صار اريوسيًّا» * وحاصل ذلك أَنَّ العالم

يكن اريوسيًا بالحقيقة. لانَّ الانسان لا يتعجَّب ممّا هو فيهِ حقيقةً *
يكون آباء مجمع ريمني غلطهم متوقّفًا على أنّهم اعطوا الاريوسيّين
سبيلاً أنْ يتظفّروا بخديعة وقعوا فيها ومن دون افتكارهم في حقيقة
الامر * وعلى كلّ حال فقد كان في العالم عدا اساقفة مجمع ريمني
عددٌ كبير من الاساقفة لم يقعوا في تلك الخديعة. بل تحرّكوا
وإمامهم ليباريوس الحبر الروماني) وقاوموا تلك الفظيعة. واستخطأوا
عمال مجمع ريمني * فكان تبعة الضلالة قليلين جدًّا بالنسبة الى
كثرة الذين كرهوها . وإيمان الكنيسة القاثليقيّة ما تزعزع بالمجمع
الريمنيّ ولا بشدَّة عدوان قسطنطيوس الملك واضطهاداتهِ للمومنين
المحقّين ولا بتكريمهِ لتبعة اريوس واحسانهِ اليهم *

الفصل الخامس عشر

في الاضطهادات التي ثارت على النصارى في بلاد الفرس واوّلاً في
استشهاد القدّيس شمعون بَرْصبّاعي (سنة ٣٣٠)

[راينا في الباب السابق انّ البلاد الواقعة تحت حكم
ملوك الفرس كان اهلها المسيحيّون مستريحين من الاضطهادات
التي اصابت اخوتهم في سائر البلاد من ملوك الروم الوثنيّين *
ولكن في نحو هذا الزمان انقلبت القضيّة . وحيث صار ملوك
الروم يسجدون للصليب ويحترمون دين المسيح ويحمون المتمسّكين

هولاء الرعاة الكاذبون بإفساد الايمان في بلاد مصر. حيث كان المعتقد القاثليقيّ يعلّم سابقاً بكلّ سعة بدون ادنى مانع ◦ واذ كان المومنون المحقّون يهربون منهم. اقبلوا عليهم يهينونهم ويحبسونهم وينهبون أموالهم * وقد سلك اهل الشقاق هذا المسلك في كلّ الأجيال. وحذوا هذا الحذو في ازعاجهم الكنيسة *

الفصل الرابع عشر

في ازعاج قسطنطيوس الملك للكنيسة (سنة ٣٢٥)

كان اخَوا قسطنطيوس قد ماتا. فاستولى هو وحدهُ على المملكة * ومن جملة أعمالِهِ اعطى امراً لجميع الاساقفة بأَنْ يمضوا الحكم الذي صدر على اثناسيوس. والاَّ يستوجبون النفي * وظنَّ أنَّهُ يعدم ايمان المجمع النيقاوي بابادة ذلك الذي كان اشدّ عمدهِ * ولبلوغهِ ذلك الارب جمع مجمعاً في مدينة أَرْل وهي من أعمال غالية اي فرنسا. ثمَّ في مدينة مديولان من أعمال ايطالية. وحضر المجمع هو بنفسهِ. واخذ يشتكي على اثناسيوس * وامَّا اساقفة المجمع فاجابوا الملك أنَّهم لا يقدرون أَنْ يشجبوا اثناسيوس من غير مخالفة قوانين الكنيسة * قال الملك «لتكن ارادتي عندكم بدلاً عن القوانين: اطيعوا. والاَّ لانفينكم» * فقالوا لهُ «إِنَّ المُلك ليس

الك . بل لله . وهو قد سلّمك اياهُ . فيجب عليك أَنْ تتّقي أَحكامهُ .
تجعل ما هو خاصّ بتدبير الكنيسة من قبيل حكم المملكة » *
سمع قسطنطيوس هذا الكلام . نبض فيهِ عرق الغضب .
ستلّ سيفهُ . وامر بقتل بعض الاساقفة . ثمَّ ندم وامر بنفيهم *
كلّ الاساقفة الذين ابوا أَنْ يوجبوا الحكم على اثناسيوس . انزلهم
ن كراسيهم . وامر بوضع غيرهم مكانهم من حزب الاريوسيّين *

وكان من جملة المنفيّين ليباريوس بابا رومية . فانَّهُ قاوم
ضيّة الاثم بكلّ ثبات . وكان منفاهُ في مدينة بيرية من أَعمال
راقية . ويقال لها الآن اسكي زغره * وحصل في منفاهُ على اذى
عظيم . وكابد مشقّات عظيمة . انتهت بهِ الى أَنَّهُ ارتخى عزمهُ . وامضى
لحكم على اثناسيوس . ولكنّهُ لم يتاخّر في النهوض من زلّتهِ هذه
إصلاح سيّئتهِ *

واذ كان الملك مهومًا باذى الكنيسة اكثر ممَّا بتدبير
المملكة . جمع بعد قليلٍ مجمعًا في مدينة رِيمِني من أَعمال ايطاليا .
وكان في ذلك الزمان نفسهِ مجموعًا مجمع آخر في بلاد المشرق في
مدينة سلوقية من بلاد الشام * اما مجمع سلوقية فلقلّة اساقفتهِ لم
ينتهِ الى فائدة . وانحلّ بعد قليل * وأَمَّا مجمع ريمني فلانَّهُ كان في
الاوّل حاصلاً على الحرّيّة غير مغصوب . اثبت صدق الايمان
القاثليقي . وامتنع من تصنيف قانون ايمانٍ جديدًا . وامر بالتمسّك

الفصل الثالث عشر

في تعدّيات الهراطقة

لمّا راى أعدآء اثناسيوس أنّهم خابوا في عزلهِ وإدخال بسطوس في مكانهِ. لم يفشلوا. بل تهيّأُوا وتشدّدوا لينتخبوا بطريركًا ثانيًا ويجعلوهُ مقبولاً * فانتخبوا رجلاً من بلاد قفادوقيّة اسمهُ غريغوريوس. واجلسوهُ على كرسيّ الاسكندريّة بامر الملك بيدٍ مسلّحة۰ فهرب اثناسيوس ۰ وطفقوا هم ياتون بكلّ شناعة وكلّ نفاق ممّا يعجز اللسان عن وصفهِ * وناهيك أنّهُ قد ظهر حينئذٍ كما ظهر ايضًا بعد ذلك كثيرًا ايّ شيءٍ هو داب المشاقّين الذين يخالفون قوانين الكنيسة مستعينين بحكّام الدنيا. والى ايّ شناعة يبلغون برداوتهم * فلمّا حدث انتخاب غريغوريوس مكان اثناسيوس. ضجّ اهل المدينة من ذلك * واذ كان الناس المومنون مجتمعين في الكنائس. أَقبل رسول الملك الى المدينة. واعتصم برعاع العامّة واليهود والعاهرين. وحشد اسافل القوم والمهتوكين. وحرّكهم الى الفتنة. وبعثهم أفواجًا الى البِيَع حيث كان القاثليقيّون مجتمعين * فدخلوا. وشرعوا يدوسونهم تحت ارجلهم. ويضربونهم بالعصيّ. ومنهم من قتلوهُ سيفًا * وجرّوا القسّان الى قدّام الوالي. وضربوهم بحضور غريغوريوس. لانّهم انكروا الاشتراك مع المنافقين * وشلّحوا

ذارى الناذرات لله وجلدوهنّ * ومنعوا الخبز عن خدّام الكنيسة وتوا جوعاً • وكلّ ذلك في الايّام السابقة عيد الفصح * ويوم جمعة لآلام دخل غريغوريوس مصحوباً بجندٍ وثنيّين الى احدى الكنائس ضبطها . وقبضوا على اربعة وثلاثين شخصاً اكثرهم بتولات ونسوان ترّات . وجلدوهم والقوهم في السجن * وهكذا استولى على كلّ كنائس . حتّى أنّ الاقليرس والشعب المستقيمي الايمان ما امكنهم لّا أنْ يهجروا الهياكل او يشتركوا مع الدخيل المزاور *

ثمّ انّ البابا الرومانيّ اعطى الحقّ لاثناسيوس وسندهُ . وجمع معاً من ماية وسبعين اسقفاً . وابطل رسامة الدخيل الذي ضبط كان اثناسيوس * ومع هذا فلمّا مات غريغوريوس . اُنتخب اهل صبتهِ واحداً آخر بعدهُ . واثنوا الشناعات التي كانوا قد فعلوها تد انتخاب المطران الاوّل • فانّهم هجموا على المومنين اذ كانوا صلّون في الكنائس . واخرجوا بعضاً من العذارى من بيوتهنّ • تعرّضوا لغيرهنّ في الازقّة • وكانت نساؤهم يطُفن الشوارع وهنّ ائجات . ويهِنَّ النسآء القاثليقيّات *

وهذه الفظاعات لم تحدث في مدينة الاسكندريّة فقط . بل تصلت الى بلاد مصر كلّها • وامر الملك بطرد الاساقفة القاثليقيّين ن الكنائس . وكانوا يضعون في اماكنهم اساقفة صغار العمر متهتّكين . فكانوا يقضون امور الكنيسة بحسب هوى الدنيا * وبدأ

بيسير * غير أَنَّ قسطنطيوس لم يصفُ قلبهُ على اثناسيوس . لانهُ كان مائلاً الى مذهب الاريوسيين . وكان يسمع كلَّ ما يقولون لهُ عن اثناسيوس . ولا يلتفت الى ما بهِ تظهر براءَتهُ * وبلغ سعي الاريوسيين الى أَنَّهم نالوا من الملك اجازة أَنْ ينتخبوا بطريركاً آخر مكان اثناسيوس في كرسيّ الاسكندريَّة . وكان ذلك اجلّ مرادهم . ولم يالوا جهداً ليبلغوا اربهم * فلمّا نالوا الاجازة . اجتمعوا لساعتهم وانزلوا اثناسيوس من الكرسيّ . وانتخبوا في مكانهِ قسّيساً مشهوراً بسوء تصرّفهِ اسمهُ بِسْطوس . وكان هذا القسّيس هو والاسقف الذي سامهُ قد حُرما في المجمع النيقاويّ *

ولمّا بلغ البابا الرومانيّ خبر هذه الامور . انكر الاشتراك مع هذا البطريرك المتخلّل ظلماً . وكلّ الكنائس القاثليقيَّة تعوّذت منهُ * ولذلك ما امكنهُ ابداً أَنْ يحوز المرتبة التي كان يريد أَنْ يسلبها * وذلك أَنَّ الكنيسة القاثليقيَّة ابغضت الشقاق في كلّ وقت . وتعوّذت دائماً من المغتصبين الذين يجلسون في كراسيّ الرعاة المقامين شرعاً والمعروفين عندها بذلك . وقرَّرت على الدوام أَنَّ من يرتقي هكذا الى مرتبة الراعي الشرعيّ لا قوَّة لهُ ولا سلطان . وأَنَّهُ ليس هو اسقفاً ولا راعياً . بل هو سارق وذئب يدخل بين الغنم ليبدّدها ويبيدها *

ثمَّ إِنَّ اثناسيوس لمّا راى أَنَّ اعداءَهُ قوي عدوانهم عليهِ

استغاث بالبابا الرومانيّ. وكتب اليهِ طالبًا منهُ الحقّ على ظالميهِ * وتوجّه ايضًا الى رومية راسًا. وابان حال امرهِ شفاهًا. واطلع البابا على كلّ ما جرى * وكان الجالس حينئذٍ على الكرسيّ الرسليّ يوليوس . وهذا قبل اثناسيوس بحسن النظر. وجمع مجمعًا لينظروا في دعواهُ . وصدر من المجمع الحكم ببرآءة اثناسيوس وتاييدهِ في كرسيّهِ * وكتب القدّيس يوليوس في ذلك رسالةً. وهي الآن موجودة . وفيها الحبر الطاهر بيّن الحقّ وحامى عنهُ بما يليق لراس الاساقفة من القوّة والسطوة * واعتبر من هذه الحادثة أنّهُ منذ الأجيال الاولى كان يحقّ للبابا الرومانيّ الذي هو خليفة بطرس الرسول الذي اقامهُ المسيح على رعاية كلّ الغنم أنْ يحكم في الدعاوي الكبرى التي تهمّ الايمان او القوانين * واعظم الاساقفة في الأزمان السالفة التجأُوا الى الكرسي الرسليّ الرومانيّ طالبين من الجالس عليهِ أنْ ينظر في القضايا التي تكون قد صدرت عليهم بغير حقّ ويبطلّها * ويتّضح من ذلك أنّ البابا الرومانيّ لم يكن يُعتبر فقط حاصلاً على حقّ تقدّم الشرف على سائر الاساقفة . بل ايضًا على رياسة الحكم والسلطنة في الكنيسة كلّها . وهذه الرياسة حُسبت دائمًا من ابواب الايمان *

فاخذتهم القشعريرة قاطبةً حتّى اصحابهُ *

ووقعت على الناس الرعبة من ذلك المكان الذي فيهِ مات اريوس. ولم يكن احد يجسر أَنْ يدنو منهُ. وكانوا يشيرون اليهِ باصابعهم ويقولون «هذا برهان الانتقام الالهيّ» *

وانتشر خبر هذه الحادثة لساعتها. وفي الغد اجتمع الاسقف مع كلّ الجماعة. وشكروا الله شكرًا زائدًا على أَنّهُ ترحّم على بيعتهِ ودفع عنها قوّة الهرطقة التي كانت تجتهد أَنْ تدخل المقدس نفسهُ. لا على حتف اريوس. لا بل انّ الاسقف حزن على هلاكهِ *

واعتبر الملك من هذه عاقبة اريوس غاية الاعتبار. وفهم أَنَّ في ذلك يد الله. واخذ يمقت تلك البدعة الملعونة * وبعد ذلك احسّ ايضًا على الجريمة التي ارتكبها بنفي اثناسيوس. وازمع أَنْ يدعوهُ من المنفى. ولكنَّ المنيّة منعتهُ من ذلك. الاَّ أَنّهُ قبل أَنْ يقضي اجلهُ امر بترجيعهِ من المنفى *

الفصل الثاني عشر

في رجوع اثناسيوس من المنفى وتبرئتهِ (سنة ٣٣٧)

وخلّف قسطنطين الملك ثلاثة اولاد. وهم قسطنطين وقسطنطيوس وقسطنط. وهولآء تقاسموا المملكة بينهم * امّا

سطنطين فلانَّهُ كان مالكًا البلاد التي كان اثناسيوس منفيًّا
يها . ردَّهُ الى بيعتهِ . وبعثهُ الى مدينة الاسكندريَّة مصحوبًا برسالة فيها
صف اثناسيوس واثنى على طهارة سيرتهِ . وذمّ اعدآءَهُ وطعن
يهم طعنًا قويًّا * وذكر أنَّهُ في ترجيع اثناسيوس الى محلّهِ انَّما اجرى
ا كان ابوهُ قد امر بهِ . وأنَّهُ لو لم تدركهُ المنيَّة لارجعهُ هو بنفسهِ *
قال « واذا بلغ اثناسيوس اليكم . تعلمون كم اكرمناهُ . ولا تعجبوا من
لك . لاننا قد زدنا إِكرامهُ لحزننا على فرقتهِ ولكثرة اعتبارنا
لحسن سيرتهِ » *

ثمَّ إِنَّ اثناسيوس مرَّ على بلاد الشام . ومن هناك انطلق الى
لاسكندريَّة . وقبلهُ اهل المدينة بفرح وابتهاج وحبور . وكان الاقليرس
ل الجماعة يتقاطرون لرؤيتهِ . وارتفعت في كلّ الكنائس أَصوات التهاليل
ل التسابيح لله على سلامتهِ * وامَّا اعدآؤُهُ فاغتاظوا غيظًا شديدًا
ن سبب رجوعهِ . وقالوا انَّهُ ما كان يجوز في القوانين ترجيعهُ
لاَّ بامر المجمع * واستنبطوا عليهِ أَقوال زور جديدة . وعملوا كلّ
حيلة لابادتهِ . ونالوا حظًّا عند قسطنطيوس الملك الذي كانت
ي حوزتهِ بلاد الشرق * فنقلوا اليهِ عن اثناسيوس أَنَّهُ مقلق
ستجس . وأَنَّهُ من يوم رجوعهِ لم يزل يزرع الفتن . وافتروا عليهِ
أَنَّهُ ضبط القمح المعيَّن لقوت الارامل واهل الاقليرس الساكنين
البلاد العديمة القمح * ولكنَّ اثناسيوس ابان كذبهم . ودحضهم

الى أَنْ ذكروا في القضيَّة التي ابرزوها عليهِ تلك الاكاذيب عينها التي كان هو قد فنّدها * ثمَّ لحقوهُ الى مدينة قسطنطينيّة . وهناك اخترعوا عليهِ تهمةً جديدة راوا أَنّها لا تخلو من أَنْ تهيّج غضب الملك . وقالوا عليهِ انهُ تهيّأَ أَنْ يمنع جلب القمح من اسكندريَّة الى قسطنطينيَّة كما كان عادة كلّ سنة * فانكر اثناسيوس هذه التهمة بكلّ قوّتهِ . ولكنّ قسطنطين اشتعل فيهِ الغضب الى الغاية . فحكم بانَّهُ مذنب . ونفاهُ الى مدينة من أَعمال غالية اي فرنسا القديمة * فتوجَّه اثناسيوس الى منفاهُ . ووصل اليهِ في مبادئ سنة ٣٣٦ *

الفصل الحادي عشر

في موت اريوس (سنة ٣٣٦)

لمّا رأى الاريوسيّون أَنَّ مصلحتهم فازت بإِسقاط اثناسيوس ونفيهِ . شرعوا يبذلون الهمَّة ويعملون الحيلة ليرجّعوا اريوس الى الاسكندريّة * فقدم اريوس من المنفى في غياب اثناسيوس الى مدينة الاسكندريّة . واتى ليدخل الكنيسة . فمنعتهُ الناس القاثليقيّون . وحدث من ذلك شجس عظيم . حتَّى انَّ الملك بعث امرًا الى اريوس ليخرج من الاسكندريّة ويذهب الى قسطنطينيّة * وعزم الاريوسيّون ان يجتزوا عن منعهِ من دخول كنيسة الاسكندريَّة بإِدخالهِ في

كنيسة قسطنطينية باحتفال وكبكبة * وكان اسقف هذه المدينة رجلاً كبير السنّ كريم الشيبة. وكان متمسكاً بايمان المجمع النيقاوي اشدّ التمسّك * فشرع الاريوسيّون يسعون لديهِ في أَنْ يقبل اريوس في الكنيسة . فلم يجِب الاسقف الطاهر الى طلبتهم * فهاج عليهِ الاريوسيّون غضباً . وتهدّدوا لهُ ان يقنّعوا الملك في عزلهِ وفي الامر بادخال اريوس في كنيستهِ جبراً * ولم يستقرّوا حتّى صدر الامر المذكور بقبول اريوس . وكانوا مزمعين أَنْ يدخلوهُ الكنيسة يوم الاحد ليزداد الرهج في فرحهم * فلمّا راى الاسقف أَنْ لا رجاء في الارض . علّق املهُ في السمآء . فدخل الكنيسة . وتمرَّغ على الارض قدَّام المذبح متخشّعاً وباكيًا. وصلّى قائلاً « اللّهمَّ إِنْ كان لابدَّ من دخول اريوس في الكنيسة . اسأَلك أَنْ تاخذني من الدنيا قبلاً . وإِنْ كنت ترحم كنيستك . ولا شكّ أَنَّك ترحمها . فلا تترك أَنْ يصيبها الهوان » * وكان الغد اليوم المعيّن لإِدخال اريوس الى الكنيسة . فاجتمع في ذلك اليوم الاريوسيّون . وباشروا بعملهم . فطافوا باريوس في ازقّة المدينة برهج وتهليل . وكانوا يشنّعون على الاسقف باشنع الكلمات * ولمّا دنوا من الساحة . ولاحت لهم الكنيسة . ونظر اريوس الى الناس المتجمّعين عليهِ . اصفرّ وجههُ واحسَّ بوجع البطن . فترك الجماعة واستخلى * فلمّا استبطأُوهُ . دخلوا عليهِ . فاذا هو مائت . مطروح على الارض متمرّغاً في دمهِ . وقد خرجت أَمعاؤُهُ *

بمقالته * وهذا الحكم البيعي لم تتداخل في صدوره السلطنة الدنيوية. الاّ انها بعد خروجه قبلته وسندتهُ . وبناءً على ذلك امر قسطنطين الملك بنفي اريوس *

وهكذا انقضى هذا المجمع النيقاوي المعظَّم الذي قد نال في كلّ الازمان اعتبارًا وكرامةً عظيمة في الكنيسة *

الفصل العاشر

في نفي القديس اثناسيوس

إنَّ تبعة اريوس لم يرتدعوا بقوَّة المجمع النيقاوي. ولم يزالوا يقلقون ويسعون. وابتدعوا فتنًا جديدة * وكتبوا الى قسطنطين الملك متظاهرين بقبول المجمع وتحديده. حتَّى علق بيدهم أَنْ يرجعوا من المنفى * وشرعوا يغرون الملك على الاساقفة الكاثليكيين ويحرّضونهُ على بغضتهم ولاسيَّما القديس اثناسيوس . فانهُ كان قد تخلَّف في كرسيّ الاسكندريَّة بعد وفاة الكسندروس. وكان شديدًا في دحض الهرطقة الاريوسيَّة * ثمّ جعلوا يفهّمون الملك انَّ اريوس لم يكن مذنبًا . وأَنَّ معتقدهُ مستقيم. وانَّ اعداءَهُ اتَّخذوا قولهُ بمعنى غير مستقيم . وقالوا للملك « لمَّا كان اريوس رجلاً صحيح المذهب . ينبغي أَنْ تامر اثناسيوس بان يتصالح معهُ

يقبلهُ في الكنيسة » * وقصدوا بذلك أَنْ يعملوا نكايةً باثناسيوس. علمهم انهُ لم يكن ليستمع لامر الملك فيلحقهُ بذلك منهُ العدوان * لم يخيبوا في بغيتهم . لانّ الملك امر اثناسيوس أَنْ يقبل اريوس. والاَّ ينزل من كرسيهِ *

ولم يكتفِ بذلك أَصحاب اريوس . بل اشاعوا على اثناسيوس اكاذيب كثيرة وشناعات . وهيّجوا الناس . حتى انخدع الملك وراى من الواجب اقامة الفحص على الأَبواب التي كان اثناسيوس يُشتكى بها * فعقِد مُجمع اساقفة في مدينة صور للنظر في تصرّف اثناسيوس. وامرَهُ بالحضور فيهِ * وكان الاريوسيّون قد سعوا في أَنْ يعيّن المجمع المذكور اساقفة من حزبهم. فلمّا اتوا الى محاكمة اثناسيوس. عاملوهُ شرّ المعاملة . ولم ياذنوا لهُ أَنْ يجلس معهم . بل اوقفوهُ قدّامهم كالمذنب المنتظر أَن تصدر قضيّة الحكم عليهِ * واما اثناسيوس فاصغى الى أَبواب الشكوى التي قدّموها عليهِ . وردَّ عليها باباً باباً وابطلها . واخزى اعداءَهُ * فلمّا راى الاريوسيّون أَنْ لا سبيل الى تبطيل بيّناتهِ . غضبوا عليهِ غضباً شديداً . ولولا وكيل الملك لمزّقوهُ ايّ ممزّق *

واذ راى اثناسيوس أَنّهُ لا يامن على حياتهِ . ذهب الى مدينة قسطنطينيَّة ليبرّر نفسهُ عند الملك * وفي مدّة غيابهِ حكم الاريوسيّون بقثرستهِ اي بسقوطهِ من كرسيّ الاسقفيّة . وبلغت شناعتهم

نيابةً عن سلبستر بابا رومية . لانّ سلبستر لكبر سنّهِ كان معذورًا من حضور المجمع بنفسهِ . فارسل ايضًا قسّيسَيْن ليقوما مقامهُ مع اوسيوس في المجمع * وكان مع الكسندروس بابا الاسكندريّة شمّاس صغير السنّ اسمهُ اثناسيوس . وكان الكسندروس يعزّهُ الى الغاية . وقد اصابهُ منهُ عون كثير *

وكان منظر المجمع يلقي الهيبة . لانّ كثيرًا من الاساقفة الذين فيهِ كانوا من اعظم اولياء الله والقدّيسين . وكانوا حاملين في أَجسامهم آثار الجروح التي اصيبوا بها لاجل الايمان في الاضطهاد السابق * ومن جملتهم القدّيس بفنودي اسقف الصعيد كانت عينهُ اليمنى مفقوءة . وكان الملك كثيرًا ما يستدعيهِ الى قصرهِ ويتفاوض معهُ في الحديث . ويقبّل اثر الجرح الذي في وجههِ *

ولمّا حان يوم الجلسة العظيمة . اجتمع جميع الذين كان لهم حقّ الجلوس الى قاعة فسيحة . ثمّ دخل قسطنطين الملك آخر كلّهم حرمةً لهم . وادّى لهم غاية الإكرام والاحترام * وترك الاساقفة أَنْ يتباحثوا في مسائل الايمان بكلّ سعة من دون ادنى عائق * فاخذوا اوّلاً يفحصون عن اريوس ومذهبهِ . واوقفوهُ في الوسط واستنطقوهُ . فلم يمتنع من أَنْ ينطق بمقالتهِ الكفريّة جهرًا في مسامع المحفل كلّهِ * فلمّا سمع الآباء تجديفهُ . اغتاظوا غيظًا شديدًا . وسدّوا آذانهم . ثمّ ردّوا عليهِ وابطلوا هرطقتهُ بشهادات

الكتب المقدسة رما كتبتهُ الآباء الاولون . واثبتوا ايمان الكنيسة القويم * وذلك أَنّ المجمع النيقاوي حكم أَنّ يسوع المسيح هو ابن الله حقًّا . وهو مساوٍ لابيهِ . وهو قوّتهُ وصورتهُ . وهو موجود دائمًا فيهِ . وهو الاه حقّ * ولمّا راى المجمع أَنّ تبعة اريوس كانوا يلعبون بهذه الكلمات ويتخلّصون من قوّة معانيها من دون أَنْ يتركوا ضلالتهم . استعملوا لفظةً تعبّر عن وحدة الطبيعة لله الآب وللكلمة وتعلو على كلّ حِيَل الهراطقة . وهي لفظة هومواوسيون التي معناها مساوٍ في الجوهر • وهذه اللفظة التي ارعبت الاريوسيّين في كلّ حين تدلّ على أَنّ الابن مساوٍ لابيهِ في كلّ شيءٍ . وانّهُ هو والآب الاه واحد *

وعند ذلك خرج الاريوسيّون من المجمع • الاّ أَنّ الآباء لم يحيدوا عمّا حدّدوهُ . وجعلوا تلك المقالة التي قرّروها علامةً لتمييز الكاثليكيّين من الهراطقة * وعلى هذا ادرجوا صورة الايمان القويم التي يقال لها السُّمْبُلون اي العلامة وتُعرَف بقانون الايمان ومبدأُها اومن بالاه واحد *ثمّ إِنّ المجمع رسم قوانين وضوابط في شان سياسة الكنيسة ونظامها . ومن جملتها حدّد اليوم الذي فيهِ يجب تعييد عيد الفصح *

ثمّ إِنّ الاساقفة باجمعهم ختموا وامضوا قانون الايمان الذي ادرجوهُ الاّ نفرًا يسيرًا من تبعة اريوس . وحرموهُ هو والقائلين

اوسابيوس الاسقف • ففهمهُ أَنّ الشرّ حادث من بغض الكسندروس اسقف الاسكندريَّة لاريوس القسّيس. وقال لهُ «يُطلَب من لطفك أَنْ تطفئ هذا الشرّ. وتامرهما كليهما بالسكوت» * فوقع قسطنطين في الخديعة. وكتب بهذا المعنى الى الكسندروس واريوس. وطلب اليهما أَنْ يكفّا عن المقاولة وياتيا الى راي واحد * وبعث الى الكسندروس اوسيوس اسقف قرطبة وهي مدينة عامرة من اعمال اسبانيا • وكان قسطنطين يعتبر اوسيوس ويثق بهِ. لانّهُ كان شيخًا طاعنًا في السنين وقورًا. وقد تقلّد الاسقفيَّة مدَّة ثلاثين سنة واصابهُ عذاب الاضطهاد في عهد مكسميانس. وكان شهيرًا في الكنيسة كلّها * فلمّا بلغ اوسيوس الى الكسندروس برسالة الملك. جمع مجمعًا حافلاً. وبذل كلّ جهدهِ في إِطفآء الفتنة. فراح تعبهُ عبثًا. لانَّ حزب اريوس لم يكونوا ليذعنوا * فرجع اوسيوس الى مدينة نيقومديَّة. واطلع الملك على ما جرى * فكتب الملك الى اريوس وأَصحابهِ يامرهم بالسكوت. فلم يسمعوا * وامّا الكسندروس فلم يمكنهُ أَنْ يسكت. لانَّ الحقّ كان عندهُ • وبهذا المعنى ابان اوسيوس حقيقة الامر لقسطنطين الملك. واطلعهُ على عظم البلآء الذي المّ بالكنيسة *



الفصل التاسع

في المجمع النيقاوي (سنة ٣٢٥)

لمّا راى قسطنطين الملك أنَّ رسالتهُ لم يعقبها فائدة. عمد راي الاساقفة أنْ يجمع مجمعًا مسكونيًّا اي جامعًا كلّ اساقفة العالم تهر الضلالة وردع أصحابها * امَّا في عهد الملوك الوثنيّين فلم يكن عمل مجامع مسكونيّة لقلّة السعة وشدّة الاضطهاد * وامَّا سطنطين فلمّا استولى على كلّ المملكة. لاق لهُ أنْ يجري هذا الامر العظيم. ولاح في ذلك تدبير العناية الالهيَّة التي دبّرت أنْ تكون تحت يد ملك واحد اكثر بلاد العالم. وتيسّر هكذا عقد المجمع *

واختيرت للمجمع مدينة نيقيّة. وهي من أعمال بيثُنيّة واسمها الآن إسنِك. لانّها كانت قريبةً من مدينة نيقومديّة مسكن الملك * فبعث قسطنطين رسائل الى جميع اساقفة الدنيا يدعوهم لياتوا الى المجمع في مدينة نيقية. وامر أنْ يُنفَق عليهم من مالهِ كلّ لوازم السفر * فلم يمتنع الاساقفة من الاجابة الى هذه الدعوة لِما فيها من المصلحة العظيمة للكنيسة. وبلغ عدد الاساقفة الذين اجتمعوا هكذا الى نيقية ثلاثمائة وثمانية عشر. وكانوا من جميع بلاد الدنيا. وكان معهم كثير من القسوس والشمامسة *

وتولّى رياسة المجمع اوسيوس المذكور سابقًا اسقف قرطبة

قاطبةً. سوى الامور التي من سببها انشقّوا من حضن الكنيسة الكاثليكيّة] *

الفصل الثامن

في بدعة اريوس (سنة ٣١٩)

قال المعلّم قبريانس. انّ الجحيم لمّا رات الأصنام مدكوكة. ابتدعت طريقةً اخرى لتؤذيَ الكنيسة. وهي الهرطقة والشقاق * وبذلك كان مراد الشيطان أَنْ يفسد ايمان اهل الكنيسة ويثلم اتّحادهم. ولكنّهُ بما اثار عليها من الحرب الجديد. جعل لها سبباً لنصر جديد * اعلم أَنَّ الهرطقات وُجدت في الكنيسة منذ الاول. الاّ انّها ما دامت ولا قويت مثل هرطقة اريوس التي ظهرت في مبادئ القرن الرابع * كان اريوس قسّيساً في كنيسة الاسكندريّة. وكان يحبّ الفتن والدسّ. وكان يهوى الرفعة ويطمع أَنْ يكون اسقفاً على تلك المدينة العظيمة. فلمّا خاب املهُ اذ نُصِب الكسندروس اسقفاً. ارخى العنان لحسدهِ. وشرع يشكو المطران الطاهر في ايمانهِ. ويبتدع تعليماً جديداً * وكان يتظاهر بالتواضع والانكسار. ولكبر سنّهِ امكنهُ بذلك أَنْ يخدع كثيرين ويجذبهم الى رايهِ *

وامَّا بدعة اريوس فكانت مهينةً لالوهيّة ربّنا يسوع المسيح.
لانَّهُ كان يقول بانَّ ابن الله ليس متساويًا مع ابيهِ في كلّ شيءٍ *
فحدث من هذا التعليم الجديد الذي لم يُسمَع قبلاً قطّ دهشة
عظيمة في الكنيسة. وتعوَّذ منهُ كلّ احد. ونسبوهُ الى كفر وتجديف.
وذلك أَنَّ الايمان لا يقبل شيئًا جديدًا * واقبل الكسندروس
ونبّه اريوس على غلطهِ بلطف وشفقة. وعاملهُ باناءَة ورفق. فلم
يستفدِ اريوس من ذلك * فلمّا راى الكسندروس أَنَّ طغيانهُ لا
يزال ينمو وينتشر بين الناس. رفع صوتهُ وضرب المبدع العنيد
بالحرم في مجمع الاساقفة الذين تحت حوزتهِ * وكتب الى بابا
رومية والى جميع الاساقفة يخبرهم بما جرى. ليكونوا على حذر من
الشرّ الذي كان يُخاف على الكنيسة. ولكي ينال حكمهُ تاييدًا *
وامَّا اريوس فلم يفشل من ذلك ولا ارتدع. بل توجَّه الى
بلاد فلسطين. وجمع لهُ هناك حزبًا * ومن هناك ذهب الى
نيقومدية. وهي مدينة كان الملك معتادًا أَنْ يسكن فيها. وعمل
الحيلة. حتّى انهُ جذب الى رايهِ اوسابيوس اسقف المدينة وهو
اوسابيوس المؤرّخ المشهور. فصار لهُ مسندًا وعونًا * وعند ذلك
شرع يبثّ تعليمهُ بين رعاع الناس. وصنَّف تسابيح واغانيّ. وسرد
فيها غلطهُ الذميم. فكان الناس يشربون سمّهُ من غير أَنْ يشعروا *
ولمّا بلغت مسامع الملك قسطنطين هذه الأَخبار. استفهم

بلاد قردو وبازبدي (وهي المسمّاة جزيرة ابن عمر) ونصيبين * رشاخ. وتفرّق تلاميذهُ. وبنى عُمْرًا (اي ديرًا عامرًا). واستناح ودُفن في عُمرهِ» * وقال عن يوحنّا صاحب دير بازبدى «كان يدع كوخهُ. ويطوف القرى وينصّر الناس * وبنى عُمْرًا كان قديمًا بيت اصنام» * وقال عن احّا «احّا حصل ببازبدى. وبنى فيها ديرًا كبيرًا * وكان رهبان هذا الدير يستقون المآء بالزرنوق. وهو اصغر من الدالية. فكانوا يتأذون * وبحَيْل احّا القدّيس وبصلاة يشوعياب الراهب نبع لهم عين مآء من تحت المذبح. فاستغنوا عن التعب. وسُمّي عُمر الزرنوق» * وقال عن دير كمول «بُني عُمْر كمول بالجزيرة * وسببهُ انّ بعض خواصّ سابور (ملك الفرس) كان قد تقلّد نصيبين. فلمّا راى العجائب والنور الذي ظهر من السمآء عند قتل شهدست (الشهيد). صار يمنع سابور من قتل النصارى. واطلق منهم خلقًا. فوُشي بهِ الى سابور.. فترك مملكتهُ. ومضى الى مار اوجين. وتعمّذ وسُمّي يوحنّا * وطلبهُ سابور فلم يجدهُ. وحصل في مغارة بقرب قرية كمول... ومات ودُفن في مغارتهِ * ووافى من بعدهِ اوكاما تلميذ مار ابرهيم. وبنى في الموضع عُمْرًا» * وقال في يونان «مار يونان صاحب عُمْر الانبار... كان عارفًا بالطبّ والفلسفة. فاطّرح العالم وزهد فيهِ. ولزم الصوم والصلوة... وورد العراق. واقام بالانبار زمانًا. واجتمع اليهِ رهبانٌ» * ومن الاديرة

تي بناها تلاميذ اوجين في اثور دير مار متى الذي في جبل
لفاف الذي هو الآن بيد اليعاقبة. ودير مار يونان الذي وقع
د النساطرة *

ولم تزل الرهبنة تنتشر وتقوى في البلاد الشرقيّة. وكثرت
يها الاديرة وعظمت وثبتت. وبلغت مبلغًا عظيمًا من العدد
عسر استقصاؤه * ولا يخفينَّ طالب علم احوال كنيستنا الشرقيّة
قديمة المنافع العظيمة التي حصلت لهذه الكنيسة من الرهبان *
انّهم هم الذين على يدهم امتدَّ دين المسيح في البلاد والامصار
شاسعة. وهم الذين صاروا قدوة الفضائل المسيحيّة كلّها لاصناف
لمسيحيّين * وهم الذين حفظوا العلوم الدينيّة والدنيويّة في وسط
لاضطرابات الكثيرة التي قلقلت بلاد الشرق. ونشأ منهم افضل
علماء الذين زيّنوا الكنيسة والمنابر العلميّة وافخرهم واجلّهم. وخلّفوا
ا معارف الاوّلين وآثارهم ومناقبهم. واوصلوا الينا كتبهم وصحائفهم
رسومهم *

انّ الرهبان في البلاد الشرقيّة تبعوا الهرطقات والشقاقات
تي تلطّخ بها الاقوام الشرقيّون منذ القرن الخامس فصاعدًا. وقلّ
ا سلم من ذلك من الاديرة * الّا انّ هؤلاء الرهبان ولو انّهم
شقّوا من جسم الكنيسة كانوا محافظين على كلّ التقاليد الرسليّة
التعاليم الابويّة التي تعلّموها في الكنيسة الكاثليكيّة. وثابروا عليها

بايديهم. وكانوا في كلّ وقت يشتغلون *

وكانوا بالطاعة يقهرون الكبرياء التي يميل اليها الانسان طبعًا وهي لا تليق بهِ. ويخضعون لروسآئهم كالصبيان. وربّما تولّى رئيس واحد على جماعات كثيرة منهم. وكان الرئيس الكبير يسمّى الانبا اي الاب * وبعد زمان قليل كثر عدد الرهبان جدًّا. حتّى انَّ السيرة الرهبانيَّة اي سيرة التقشّف عمّت جمهور المسيحيّين. وكثرت النسّاك في البراري والقفار. وشاع فيهم حبّ التزهّد. حتّى انَّهم كانوا كثيرًا ما يعاقبون أجسامهم كما يعذَّب المجرمون * ولمّا زاد عدد الرهبان وملأُوا النواحي. انضوى قوم منهم الى اقصى الصحارى هربًا من قرب الناس ورغبةً في الانعكاف والنسك *

تامَّل يا هذا في هذه الأَثمار التي اعطاها انجيل يسوع المسيح. واعتبر كيف إنَّ الكنيسة اشرقت بتعاليمها ووصاياها واكثر من ذلك بأَعمالها. وظهرت قداسة دينها بكثرة القدّيسين الذين أُنتجوا منها *

الفصل السابع

في انتشار السيرة الرهبانيّة في البلاد الشرقيّة الواقعة تحت حكم الفرس

[إنَّ هذه البلاد التي كانت بيد ملوك الفرس جُلبت اليه

رهبنة من بلاد مصر على يد القدّيس اوجانيوس او اوجين
قال لهُ عند العامَّة آبون . وهو الذي مع ثمانية وعشرين رفيقاً قدم
طام الاعي من صعيد مصر الى البلاد الشرقيَّة . فسكنوا اوَّلاً في
بل ماردين ونصيبين المعروف بالإزل ثمَّ في جبل سنجار * ثمَّ
لذ لهُ كثيرون من اهل البلاد حتَّى بلغ عددهم ثنين وسبعين .
هولآء تفرّقوا الى النواحي والاقطار . وعمّروا الاديرة الكثيرة العجيبة
لى نظام معلّمهم مار فاخوم * وانتشروا في جميع بلاد مملكة الفرس
هم يبشّرون الامم ويؤيّدون المومنين * وكان من جملتهم مار شليطا
شهير . ومار ميخائيل الذي اسّس ديرهُ على الدجلة فوق الموصل .
مار يونان الذي نصب دير فيروز شابور وهي الانبار في العراق .
الأَخوان احّا ويوحنّا في الجزيرة *

ومن الذين اشتهروا بالرهبنة في جبل سنجار يعقوب الكبير
الذي صار بعد ذلك اسقفاً على نصيبين . ولعازر . وزينا . وغيرهم *
اشتهر في مدينة الرها بليانس سابا . وبرسا الذي صار اسقفاً على
لرها . وافرام الملفان . وغيرهم *

قال احد المؤرّخين الشرقيّين عن مار اوجين «كان بارض
لقبط . فوافى نصيبين وسكن في جبل الازل . وابرأ اولاد عامل
صيبين من امراض شديدة . فاعتمد هو واهل بيته * وتنبّأ على ما
يكون من اريوس في البيعة ومجمع الثلاثماية والثمانية عشر . وطاف

الفصل السادس

في سيرة الرهبان المنقطعين

كان داب الرهبان التوصّل الى الكمال المسيحيّ بالعمل بالمشاور الانجيليّة اي بالعفّة الكاملة والفقر * ولنوال ذلك كانوا يستعملون اربع وسائط . الانفراد وشغل الايدي والصوم والصلوة * فكانوا يبتعدون من مساكن الناس . ويتوغّلون في القفار الى مسافة مراحل كثيرة * وهذه القفار لم يكن فيها شجر ولا نبات . لانّها كانت اراضي يابسة جدباء لا خضار فيها . خالية لا يمكن عمارها * فكان الرهبان ياوون في الاماكن القريبة من المياه في تلك القفار . ويبنون فيها قلّايات صغيرة حقيرة من خشب او قصب . ويسكنونها بعيدين عن كلّ ما يدعو الى هوى الدنيا . وهم مجتهدون على نوال طهارة القلب تلك التي قال عنها ربّنا يسوع المسيح بانّ أصحابها يعاينون الله * وكانوا يفرغون كلّ وسعهم في ازالة الرذائل والعيوب من نفوسهم وفي تزيينها بالفضائل بلا عائق ولا خوف . ويقهرون محبّة المال بالفقر وبان لا يملك احد منهم شيئًا لنفسهِ * ويغلبون الكسل بمداومة الشغل ٠ وكان شغلهم لا يشوّش أفكارهم . ولا يمنعهم من ذكرهِ تعالى ٠ لأنّهم كانوا ينسجون حصرًا او زنابيل من البرديّ * وبذلك كانوا يعوذون من آفة البطالة . ويحصّلون

يتعيّشون بهِ من غير أَنْ يكلّفوا احدًا *

ولقلّة نفقاتهم كان يسهل عليهم أَنْ يتصدّقوا . فكانوا
كثرون من الصدقات . ولم يخالفوا عادتهم في أَنْ يقسّموا كلّ
م على الفقرآء ما يفضل لهم من مكسب شغلهم *

وكانوا يصومون طول السنة الاَّ يوم الاحد والايّام الفصحيّة.
كان معاشهم على الخبز والمآء * وكانوا يتناولون الخبز بقدر معيّن.
هو ماية درهم . ويتناولونهُ مرّتين في النهار. اي في الساعة التاسعة
العِشآء * وكانوا قد جرّبوا أَنَّ هذا المقدار اليسير من الطعام
كافٍ لحفظ قوّتهم واعانتهم على الشغل ومنعهم من كثرة النوم *
هذا التقشّف اطال أَعمارهم وشدَّد عافيتهم . فانَّ اكثرهم وصلوا
ى شيخوخة كبيرة ولم يمرضوا قطّ * وناهيك أَنّ انطونيوس القدّيس
قدامهم عاش ماية سنة *

وكانت صلاتهم ايضًا مرتّبة على ذلك الاسلوب من الفطنة :
كانوا يجتمعون مرّتين في اليوم للصلوة . وفي كلّ مرَّة كانوا يقولون
ثني عشر مزمورًا . وبين كلّ مزمور يصلّون صلوة . وبعد ذلك
قرأون فصلين من الكتاب المقدَّس * وكان واحد من الاخوة
رتّل المزمور واقفًا في وسط الجماعة . والباقون يسمعونهُ جالسين في
سكوت عظيم . من غير أَنْ يتعبوا صدورهم وأَبدانهم لسبب الصوم
الشغل * وامّا بقيّة النهار فكانوا يصلّون في خلواتهم وهم يعملون

ومنتهاها شطّ البحر * وكان في هذه البرّيّة لصوص كثير . دابهم انْ يقطعوا الطريق على المسافرين . وينهبوا الذين كانوا يتخلّصون من غريق البحر * فلمّا سكن هيلاريون في تلك البرّيّة زمانًا . طلع يومًا اللصوص عليهِ . ودخلوا قلاّيتهُ * فاستقبلهم بلا خوف ولا جزع * فقال لهُ احدهم «أَمَا تخاف منّا» . قال «ولِمَ اخاف منكم وانا لا املك شيئًا» * قالوا «اترى ما نقدر أَنْ نقتلك» . قال «مَن كان قلبهُ زاهدًا في كلّ ما في الدنيا . لم يصعب عليهِ انْ يموت» *

وناهيك أَنّ هيلاريون لم يكن يلبس الاّ مسحًا وقميصًا من جلد كان انطونيوس قد وهبهما لهُ . وفراشهُ كان حصيرًا من البرديّ مفروشًا على القاع . وقلاّيتهُ كانت صغيرة لا تكفي لتحوي جسمهُ كلّهُ الاّ بالصعوبة . فكانت تشبه القبر * وكان قوت يومهِ خمسين درهمًا من خبز الشعير وقليلاً من البقل مطبوخًا * ومع كلّ هذا التقشّف بلغ من العمر الى سنة الثمانين * وكان يشغل يديهِ بفلاحة الارض ونسج زنانيل من البرديّ . وفي وقت الشغل يتأَمّل بعقلهِ في معاني آيات الكتاب المقدّس التي كان حافظها *

وجزى الله هيلاريون بكرامة صنع العجائب والآيات . فصار الناس ينضوون الى تلمذتهِ لِما راوهُ منهُ من شفاء المرضى .

حتى امتلأَت بلاد فلسطين من الاديرة * وكان اذا زار الرهبان الذين كان هو مدبّرهم . يجتمعون كلّهم حولهُ . فربّما بلغ عددهم ثلاثة آلاف * وكثير من الوثنيّين لمّا راوا كراماتهِ . تركوا عبادة الأَصنام واقبلوا الى دين الحقّ * ولمّا راى أَنّ الزائرين كثروا عليهِ . وصاروا يؤذون تواضعهُ بكثرة اعتبارهم لهُ . جعل يندب ويقول « لقد رجعتُ الى قلق الدنيا . واخذتُ جزائي في حياتي » . واراد أَنْ يحوّل مقرّهُ الى موضع منقطع عن الناس . فلمّا بلغ ذلك اهل الارض . حزنوا حزنًا عظيمًا * وكان الناس حيثما راوهُ ينطلق . تبعوهُ . اذ يتّخذونهُ رجلًا الاهيًّا تجري الكرامات على يديهِ من ابرآء المسقومين وإِخراج الشياطين وجذب الخطاة الى التوبة * وكان معتادًا اذا شفى احدًا . أَنْ يعظهُ ايضًا . ويبيّن لهُ أَنّ أَمراض النفس اقبح من علل البدن وانّهُ يجب الاهتمام بمداواتها اعجل * ولمّا دنا رحيلهُ من الدنيا . استحوذ عليهِ الخوف من أَحكام الله تعالى مع كلّ ما كان قد اداّهُ من أَعمال التقوى والتقشّف . فكان يشجّع نفسهُ قائلًا « اخرجي يا نفس اخرجي . ما بالكِ في قلق وخوف . أَمَا عبدتِ المسيح سبعين سنة . فلماذا تخافين من الموت » *

الثيبائس وهي في الصعيد * واقام هناك زمانًا طويلاً متنسكًا مواظبًا على العبادة والقنوت. حتى ان الله اكرمهُ بصنع العجائب. فكان يشفي المرضى ويصحّح اهل العاهات * فلمّا بلغت الناس أَخبار انطونيوس. انضوى اليهِ كثير من العابدين. وطلبوا أَنْ يكونوا لهُ تلاميذ * وكثروا جدًّا. حتى دعت الحاجة أَنْ يُبنى لهم اديرة كثيرة * وكان انطونيوس يرشدهم ويعلّمهم تارةً في الخاصّة وتارةً في العامّة. ويقرّر لهم القواعد التي يجب عليهم السلوك بموجبها * وكان يقول لهم «لا يبرحنَّ من بالكم ذكر الآخرة ٠ افتكروا كلّ غدوة انهُ يمكن انكم لا تعيشون الى المساء. واعملوا كلّ عمل من أَعمالكم كانّهُ هو آخر عمل من حياتكم. وكونوا على حذرٍ من التجارب كلّ حين * وقاوموا هجمات الشيطان. فانكم اذا نزعتم منهُ اسلحتهُ. لا يبقى لهُ قوّة ٠ وذلك انهُ يخاف من الصوم والصلوة والتواضع والأعمال الحَسَنة. وباشارة الصليب تنكسر شوكتهُ ويهرب. فانهُ يرجف اذا ما راى هذه علامة صليب المخلّص الذي جرّدهُ من قوّتهِ» * واشتهر تلاميذ انطونيوس بالنسك والفضائل. حتى كان اثناسيوس الملفان العظيم يتعجّب منهم. وقال عنهم «إِنَّ اديرتهم تشبه الهياكل. فيها يقضون الحيوة بترتيل المزامير والقراءة والصوم والسهر. ولا رجاء لهم الاّ بالخيرات المزمعة. وهم يحبّون بعضهم بعضًا ولهم قلب واحد. ويشتغلون

إسعاف الفقرآء اكثر ممّا لمعاش نفسهم * فكأنّها بلدةٌ عظيمة
عيدة عن العالم كلّ البعد . لا دأب لاهلها الاّ أنْ يمارسوا
البرّ والتقوى *

الفصل الخامس

في سيرة هيلاريون العظيم (سنة ٣٢٩)

وكما فعل انطونيوس في بلاد مصر . كذلك فعل هيلاريون
في بلاد فلسطين وسورية . فانّهُ اوّل مَن نصب الرهبنة هنالك
وجمع الرهبان في الاديرة * كان هيلاريون ابواهُ من الوثنيّين .
ولكنّهُ منذ صغرهِ صار نصرانيًّا بنعمة الله * وقرأ العلوم في مدينة
الاسكندريّة . وتعلّم هناك علوم الدنيا وعلم الآخرة . واذ رغب
أنْ يتكمّل في هذا العلم الجليل . قصد الاب انطونيوس . ومكث
عندهُ زمانًا . وتعلّم منهُ نوع التصرّف والقيام بالصلوة واستعمال
التواضع والانصباب على الشغل والتقشّف *

ولمّا رجع هيلاريون الى بلدهِ . كان برفقتهِ نفرٌ من الرهبان .
وكان مرادهم أنْ ينعكفوا على السيرة الرهبانيّة في بلاد الشام كما
كانوا في بلاد مصر * وحين مات ابواهُ . اعطى الفقرآء كلّ
ما لهُ . وانقطع الى البرّيّة التي مبدأها من مدينة غزّة اسي عكا

للربّ * وكانت هيلانة قد تنصّرت على يد ابنها. واشتدّ تمسكها بدين المسيح. وتفهّمتهُ جيّدًا. واحسنت اداءَ فرائضهِ * وماتت هيلانة في يدي ابنها قسطنطين ولها من العمر ثمانون سنة وفضلٌ كبير عند الله وعند الناس *

الفصل الرابع

في انشاءِ الرهبنة وفي سيرة مار انطونيوس (سنة ٣٢٦)

لمّا استراحت الكنيسة من الاضطهادات. اظهرت للعالم عجيبة اخرى لم تكن اقلّ عظمة من عجيبة الشهداءِ الذين حكينا قصصهم وكراماتهم في الباب السابق * وذلك أنّهُ في ذلك الزمان امتلأَت القفار اناسًا متفرّدين يشبهون في سيرتهم الملائكة * امّا قبل ذلك العهد فقد كان بين المسيحيّين قوم يقال لهم اسقيطيّون او قانتون. كان دابهم الاشتغال عن هموم الدنيا بالتفرّغ للصلوة والصوم. ولكنّهم لم يجتمعوا في القفار ولا انضمّوا بعضهم الى بعض بعيشة واحدة كما فعل الرهبان. بل كانوا ينفردون في ظهر المدن والدساكر *

واوّل مَن بدأَ بالسيرة الرهبانيّة هو انطونيوس العظيم * كان هذا قد وُلد في بلاد مصر. وكان ابواهُ من اهل الحسب

النسب والنعمة والستر. وأحسنا تربيتهُ وأتقنا تهذيبهُ * ولكن في
بوبيتهِ تيتم منها * وسمع يوماً في الكنيسة قرآءة هذه الكلمات من
الانجيل. وهي «إِنْ كنت تريد أَنْ تكون كاملاً. فاذهب وبعِ كلّ
ما لك. واعطهِ للمساكين. فيكون لك كنزٌ في السمآء» * فلمّا سمع
انطونيوس هذه الكلمات. اخذها على نفسهِ: فرجع الى بيتهِ. وباع
كلّ ما كان لهُ. وقسّم ثمنهُ على الفقرآء * ثمّ اختلى في قفر. واقبل
على عمل خلاصهِ * وكان يعيش عيشة قشفية ليقمع جسدهُ. وكان
يشتغل بيديهِ ليتقوّت ويكون لهُ ما يعطي الفقرآء * واذا سمع
بواحد يُوصَف بحسن سيرتهِ وعجيب سلوكهِ. قصدهُ وجلس بين
يديهِ ليتناول منهُ العلم ويتعلّم منهُ العمل ، وبذلك تكمّل في جميع
الفضائل. وصار قدوةً فيها *

وامّا الشيطان فحسد انطونيوس. وجعل يجرّبهُ ويؤذيهِ
بأنواع شتّى ليسقطهُ * وكسر انطونيوس قوّتهُ بالصوم والصلوة ،
وكان منامهُ حصيراً. وربّما نام على الارض ، وياكل مرّةً في
اليوم بعد غروب الشمس. وطعامهُ كان الخبز بقليل من الملح .
ولم يشرب الاّ المآء ، ولباسهُ كان مسحاً فوقهُ جبّةٌ من فروة غنم
وقبّاعة في راسهِ * واذ كان روح القدس قد دعا انطونيوس
ليبطّل وحشة القفار. حرّكهُ أَنْ يتوغّل الى اقصى الصحرآء ،
فعبر انطونيوس نهر النيل . وانقطع في البيدآء التي يقال لها

بلاد فلسطين ولو أنّها كانت في نحو عمر الثمانين سنة * فلمّا بلغت الى اورشليم. اخذها شوق عظيم الى وجود عود الصليب الذي صُلب عليهِ مخلّص العالم • وكان وجودهُ صعبًا جدًّا. لانَّ الوثنيين رغبةً أَنْ يمحوا ذكر قيامة المسيح من العالم. كانوا قد كوّموا ترابًا كثيرًا على موضع قبرهِ. ثمَّ سطّحوهُ. وبنوا فوقهُ هيكلًا لواحدة من الاهاتهم ليحملوا النصارى على أَنْ يغفلوا عن زيارة ذلك الموضع * ولكنَّ هيلانة لم تفشل. بل شاورت في هذا الامر شيوخ اورشليم • فقالوا لها «إِنْ امكنكِ أَنْ تجدي قبر المسيح. فهناك صليبهُ وسائر الادوات التي عُذّب بها» * وقد كان عند اليهود عادةٌ أَنْ يدفنوا مع الميّت المقتول بامر الحاكم الاداة التي بها قُتل *

فامرت الملكة أَنْ يهدموا الهيكل الصنميّ المبنيّ على موضع قبر المخلّص. ثمّ نظّفوا الموضع. وشرعوا يحفرون. حتّى وجدوا المغارة التي كان فيها مدفن المسيح * ووجدوا عند المدفن ثلاثة صلبان والكتابة التي كانت قد وُضعت على صليب المسيح مفصولةً عنهُ. والمسامير التي سمّر بها جسدهُ * فبقي الامر أَنْ يعرفوا ايٌّ من الثلاثة هو صليب المسيح * فاشار مقاريوس اسقف اورشليم الى الملكة أَنْ يقرّبوا الصلبان الثلاثة الى رجل طريح بمرض عضال • فشرعوا يصلّون. ووضعوا على راس المريض الصلبان الثلاثة الواحد بعد الآخر. وكانت الملك حاضرة وهي خاشعة متحرّقة

واهل المدينة كلهم ينتظرون نهاية الامر * اما الصليب الاوّل والثاني فلم يظهر منهما شيءٌ . واما الصليب الثالث فلمّا ادنوهُ من المرض . شُفي المريض لساعتهِ وقام متعافيًا * وحكى سوزومنس المؤرّخ أنّ ذلك الصليب الثالث وضعوهُ ايضًا على ميت . فرجع الى الحيوة * وروى ايضًا ذلك بَوْلِنس * فلمّا اطّلعت هيلانة الملكة على صليب المسيح الحقيقيّ . ارتعشت فرحًا * واخذت جزءًا من ذلك العود المقدّس . لتذهب بهِ الى ابنها قسطنطينس . واما الباقي فوضعتهُ في صندوق من فضة . ودفعتهُ الى اسقف اورشليم . ليوضع في الكنيسة التي كان قسطنطينس امر أنْ تشيَّد على محلّ قبر المخلّص *

وبُني هذا الهيكل بامر الملك قسطنطينس بنيانًا عجيبًا يبهر الناظرين . وكان في حوطتهِ يحوي قبر المسيح . ويمتدّ الى جبل الجلجلة * وشيّدت ايضًا هيلانة كنيستين اخريين . الواحدة في الموضع الذي منهُ عرج المسيح الى السماء . والاخرى في بيت لحم في المكان الذي وُلد فيهِ * وكانت هيلانة حيثما انطلقت . تقسم الخيرات والصدقات على الفقراء والايتام والارامل . وكانت على الخصوص تحبّ العذارى البتولات لله وتعتني بهنَّ . وجمعت يومًا كلّ عذارى اورشليم عندها . وصنعت لهنَّ مادبة . وقامت هي نفسها بخدمتهنَّ *

وبعد رجوع هيلانة من اورشليم بقليل قضت نحبها وتوفيت

سلطانيةً تكنّت باسمهِ الكنيسة القسطنطينيّة. وهي مبنيّة على اسم القدّيس يوحنّا المعمدان. ويقال لها اللاترانيّة. وكان ذلك اوّل شيء ملكتهُ الباباوات الرومانيّون *

وحصل المسيحيّون عند ذلك في حال غير الحال التي كانوا فيها مدّةَ ثلاث ماية سنة * فانّهم كانوا يرون قوّة الآيات السماويّة. وجلوس الديانة المسيحيّة على عرش العظمة والحكم. وكرامة العبادة الحقيقيّة. ورجوع المنفيّين الى وطنهم. وتجديد الكنائس المهدومة وتزيينها وزخرفتها. فكانوا يحمدون الله ويسبّحونهُ على كلّ هذه الآلآء * وكان فرحهم بهذا النجاح عظيمًا. ورجاؤهم بدوام مجد الكنيسة وازديادهِ قويًّا * وكان الوثنيّون انفسهم يحترمون دين المسيح. اذ يشاهدون الملك بعينهِ يتديّن بهِ ويادّي فرائضهُ امام عيون الجميع * فانَّ الملك قسطنطينس كان لهُ في قصرهِ معبد لنفسهِ. فيهِ يقرأ كلّ يوم الكتاب المقدّس ويتحيّن لصلوة معيّنة * واقتدى بهِ كثير من عبَّاد الاصنام. فتنصّروا. ووُجد المسيحيّون في السنات نفسهِ. [والسنات هو نفر المشيخة القائمين بتدبير امور الحكم]. وكان اوّل من تنصّر منهم انيقيوس الشريف. وبعد ذلك قبل ديانة المسيح كلّ اشراف المملكة وأعيانها * وكان قسطنطينس ينسرّ بكلّ ذلك ويفرح جدًّا. حتّى انّهُ كان يهمّهُ دخول وثنيّ واحد في كنيسة المسيح اكثر من فتح المدن والممالك *

ولم يكتفِ بأنْ يهتمّ بنشر الديانة المسيحية في البلاد الخاضعة لحكم الروم. بل وجّه نظرهُ الى البلاد الاعجميّة * فانّهُ بعث الى الأقوام الشاسعة اناساً لينذروهم بدين الله الحقّ وبعبادة يسوع المسيح ابنهِ * وكان لمّا دخل رومية بعد غلبتهِ قد مجّد الصليب الذي بهِ اخذ النصر والغلبة : وفي الصورة الحجريّة التي اقيمت لهُ نصبةً في تلك المدينة صُوّر حاملاً الصليب بدل الحربة * وهكذا حدث أنَّ الصليب الذي كان الى ذلك الزمان علامة العار وذلّ العبيد. صار آية الخلاص والمجد عند كلّ احد حتّى عند القياصرة انفسهم. فانَّهم زيّنوا بهِ تاجهم. ونصبوهُ على راس الكَبِتول نفسهِ الذي كان محوى دين الآلهة ومركز الحكم في مدينة رومية. واشاعوا بذلك في كلّ العالم مجد الاله المصلوب *

الفصل الثالث

في وجود الصليب الحيّ (سنة ٣٢٦)

إنَّ اعظم ما صنعهُ قسطنطينس الملك ليبيّن اعتبارهُ لديانة المسيح ظهر في إكرامهِ للمواضع التي فيها عاش ابن الله بين البشر. وقصدهِ أنْ يشيّد في اورشليم هيكلاً عظيماً لدين الحقّ * وكانت امّهُ هيلانة الملكة تعادلهُ في توقير القدس الشريف. فانطلقت الى

وقع في نهر طيبر الذي يمرّ على مدينة رومية العظمى * ففتحت مدينة رومية ابوابها لقسطنطينس. فدخلها منصورًا مظفّرًا * ثمّ استدعى اليهِ بعضًا من الاساقفة. ليستفهم منهم عقيدة النصرانيّة. واعترف بها جهرًا *

إنّ الرويا التي رآها قسطنطينس الملك كما شرحنا سابقًا لا شكّ في حقيقتها. فانّهُ قد اجمع على روايتها كثير من المؤلّفين ولاسيّما اوسابيوس المؤرّخ الشهير. وثبتت بآثار تشهد بصحّتها للأحقاب المقبلة * قال اوسابيوس «لو حكانا هذه الحكاية آخر. لما صدّقناهُ بسهولة . ولكن قسطنطينس الملك نفسهُ قد حكانا هذه الآية نحن الذين نكتب هذه التواريخ. واثبتها بقسم . ومن يشكّ بعد ذلك في صحّتها. وعلى الخصوص اذ إنّ واقعة الحال قد صحّحت الوعد» * قال هذا اوسابيوس. وكان اذ ذاك بين الاحياء كثير من الذين ذكر عنهم أنّهم شهدوا الواقعة بعيونهم . فلو كان ما رواهُ كذبًا. لكذّبوهُ *

الفصل الثاني

في ظفر الديانة المسيحيّة

بعد ما انتصر قسطنطينس على عدوّهِ وكسرهُ . اعترف

سوع المسيح بهذه الغلبة. وشرع ينصر دينهُ في كل مملكتهِ باسرها *
إذ علم أنَّهُ من اصول الديانة النصرانيَّة أَنْ لا تُحمَل الناس على
بولها بالغصب والإِجبار بل بالتعليم والإِقناع. امسك عن إِصدار
وامر قويَّة عنفية في حقّها * ومع أَنَّهُ كان يبغض عبادة الاوثان.
رك الناس يسلكون كلّ واحد على مذهبهِ. ولو اراد أَنْ يذلّل
عبادة الاوثان ويمحوها. لهيّج عليهِ اهل المملكة من راس الى راس.
لذلك اكتفى أَنْ يظلّل ديانة المسيح بحمايتهِ. ويهتمّ لها في ما يجعلها
هلاً أَنْ تخزي اعداءَها بحكمة مذهبها وصفاوة وصاياها. ولم يستعمل
لجذب الوثنيّين الى ديانة المسيح وترغيبهم في قبولها الاَّ الوسائط
الطيّبة اللّينة. وبذلك اكتسب جمًّا غفيرًا منهم *

فاخذ قسطنطينس يبذل جهدهُ في محاماة الديانة النصرانيّة
ونفع اهلها. وبدأَ قبل كلّ شيء برفع الأَضرار التي كان اسلافهُ قد
جلبوها على المسيحيّين بالاضطهادات * فرجع الذين كانوا في المنفى.
وردّ الى النصارى جميع معابدهم التي كانت قد سُلبت منهم.
واهدى للبيع نذورًا وتحفًا سنيَّة في اماكن كثيرة * وكان يوقّر
خدّام الديانة اي الكهنة ويحسن اليهم. وخصّهم بكرامات كثيرة *
واذ كان الاحبار الرومانيّون قد أُذيقوا قبلاً نوائب كثيرة من
الملوك الذين قبلهُ. وجّه نظر الاهتمام الخاصّ اليهم. فخلع عليهم
قصر لاتران الموجود الى الآن في مدينة رومية. وبنى بجنبهِ كنيسة

الباب الثاني

يشمل اخبار الكنيسة من عهد الحريّة الى مجمع افسس

الفصل الاول

في تنصّر قسطنطينس الملك (سنة ٣١٢)

كان قسطنطينس بن قسطنطيوس خلورس رجلًا فاضلاً كاملاً. وكان ذا قامة معتدلة وصورة بهيَّة كريمة. ولهُ قلب ذو نباهة وشهامة. وكان ذا راي سديد وحكمة وحزم * وكان غالاريوس الملك يبغضهُ. واحتال عليهِ اكثر من مرّة ليغتالهُ. فنجّاهُ الله لانّهُ تعالى كانت عينهُ عليهِ لياتي بمناقب جليلة *

ولمّا مات قسطنطيوس خلورس. كان ابنهُ قسطنطينس عمرهُ احدى وثلاثون سنة. فبويع بالملك مكان ابيهِ * ولكن مكسنتيوس بن مكسميانس الملك نازعهُ المملكة. فوقعت بينهما قتالات خفيفة استفاد فيهـا اوّلاً مكسنتيوس • وفي الآخر عزم قسطنطينس أَنْ يقيم عليهِ قتالاً شديدًا * فاتى بعسكرهِ الى بلاد ايطالية. وتقرّب الى مدينة رومية * واذ راى أَنَّ عسكر مكسنتيوس

كثر عددًا . فهم أنَّهُ محتاج الى ايدٍ ربَّاني. وعمد الى الاه النصارى ليميلهُ الى نصرهِ * فاخذ يصلّي ويطلب الى الله أَنْ يكشف لهُ حقَّهُ . واذ كان ذا قلب مستقيم . استجاب الله لهُ * فلمَّا قصد بعسكرهِ نحو العدوّ . وكان النهار صاحيًا صافيًا . راى في السمآء صليبًا لامعًا . وحولهُ مرسومة بحروف من نورٍ هذه الكلمات وهي «بهذه العلامة تغلب» * وهذه الآية رآها الملك وكلّ الجيش * واخذ قسطنطينس يلتمس تعبير هذه الآية * فلمَّا كان الليل . ظهر لهُ في الحلم يسوع وهو حامل تلك العلامة نفسها . وقال لهُ «اصنع لك راية على هذا الشكل . واتّخذها في حروبك . فتنتصر بها على اعدآئك» * وفي الغد جمع قسطنطينس الصنَّاع . وامرهم أَنْ يصوغوا رايةً على شكلٍ علَّمهم ايَّاهُ . وهو شيءٌ شبيه بحربة ملبَّسة صفائح ذهب . تعترضها عارضة بهيئة صليب معلَّق بها لوآء موشّى بالذهب * وكان في راس الصليب تاج مرصَّعة فيهِ حجارة كريمة . وفي وسط التاج كُتب الحرفان الاوّلان من اسم المسيح باليونانيَّة متشابكين . وفوق اللوآء كانت صورة الملك وأَولادهِ * وسُمّيت هذه الراية اللابَرَ * واختار الملك قسطنطينس خمسين جنديًّا من اشجع حشمهِ واتقاهم ليحملوا تلك الراية بالتناوب *

ثمَّ إِنَّ قسطنطينس الملك اتّثق بهذهِ الرويا التي رآها . وابرز القتال على مكسنتيوس * فانكسر مكسنتيوس وانهزم . وفي هزيمتهِ

الفصل الرابع والاربعون

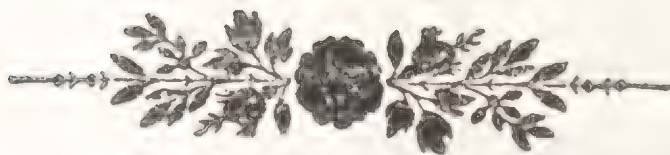
في الهرطقات والاضطهادات التي ظهرت في المملكة الفارسيّة في القرون الثلاثة الاولى

[ظهر في مدينة الرها في نحو سنة ١٧٠ رجل مبدع اسمهُ بَرْدَيْصان * هذا تمسّك بضلالات كثيرة . اعظمها انَّهُ زعم بوجود الاهين الاه الخير والاه الشرّ. وانَّ المسيح لم يكن لهُ جسم ارضيّ بل سماويّ. وانكر قيامة الموتى * وكان فصيحًا بارعًا متفنّنًا في الكلام. وصنّف قصائد كثيرة اودع فيها اضاليلهُ وبثَّها في افواه الناس. فكان الجهَّال منهم يتناشدونها ويتغانونها. فتنطبع معانيها الرديَّة في قلوبهم * ولكنّ الله لم يسمح ان ينتشر في الكنيسة الخراب الحاصل من هذا الملحد. فانّهُ انهض ابطال الدين فدفعوا تلك الضلالات بكلّ قواهم. واشهرهم القدّيس مار افرام كما سنرى *

وفي اواسط القرن الثالث ظهر في بلاد الفرس ماني الملحد الشهير * كان ماني في الاصل مجوسيًا من الذين يعبدون النار. وتربَّى في ديانة زَرْدُشْت الفارسيّ القائلة بالاهين الاه الخير والاه الشرّ * ثمَّ لمّا بلغ سنّ الرجال . دخل دين النصارى. ولكنّهُ لم يتمسَّك بحقيقتهِ كلّها . بل ضلّ بغوايات كثيرة حتّى انَّ الكنيسة طردتهُ من حظيرتها * وكانت ضلالة ماني الجوهريّة القول بالاهين

كلاهما ازليّان غير مخلوقين. الاه الخير والاه الشرّ * الاَّ أَنَّ تلاميذهُ
زادوا على ضلالتهِ غوايات شتَّى. وهم كثروا جدًّا في بلاد المشرق
وانتشروا الى بلاد فلسطين ومصر والهند وغير ذلك * ونهض
على ماني آباء الكنيسة ودحضوهُ بقوَّة وشجاعة وغيرة مقدَّسة.
واشهرهم ارخلاوس اسقف كشكر في الجزيرة دخل مع ماني في
مجادلة شهيرة في نحو سنة ٢٦٠ حتَّى افحمهُ واخزاهُ *

واعلم انَّ النصارى في بلاد الفرس لم يصبهم في الاوَّل ما
اصاب اخوتهم الذين في المملكة الروميّة من الاذيّات والعذابات
الفادحة كما مضى الشرح في الفصول السابقة * الاَّ انهم لم يخلصوا
من شيء من ذلك احيانًا احيانًا. فانهُ في سنة ٩٠ اثار خسرو
او كسرى ملك الفرس اضطهادًا على المسيحيّين * وكذلك لمَّا
غزا بلاد الفرس طرايانس ملك الروم وداقيوس الملك الآخر في
سنة ١١٢ وفي سنة ٢٥٠. قتلا كثيرين من تبَّاع المسيح * ولكن
امرّ ما أُذيق النصارى في بلاد المملكة الفارسيَّة كان في الازمان
الآتية. كما سترى في الباب القادم] *



الفصل الثالث والاربعون

في انتشار الديانة المسيحيّة في بلاد ارام الشرقيّة (١)

[مرادنا ببلاد ارام الشرقيّة البلاد التي كان اهلها يتكلّمون باللغة السريانيّة . وهم كانوا تحت حكم ملوك الفرس لا ملوك الروم . وكانت هذه البلاد تمتدّ من نصيبين الى العراق * وكانت مملكة الفرس تشمل الجزيرة اي بين النهرين واثور والعراق ومادي وفارس وبلاد العرب والنواحي الغربيّة من بلاد الهند * ولا شكّ أنّ اسم المسيح عُرف في هذه البلاد منذ رجوع الملوك المجوس من سجودهم للمسيح المولود في بيت لحم . حيث لابدّ انّهم اخبروا بما عاينوا وسمعوا وانذروا بالحقّ الالهيّ الذي اشرق عليهم نجمهُ * ومن بعد صعود المسيح كان اوّل من انذر هذه البلاد على ما روى المؤلّفون القدماء توما الرسول احد الاثني عشر في مروره بها وذهابهِ الى بلاد الهند * وروى المؤرّخون البلديّون انّ اذّى احد تلاميذ المسيح الاثنين والسبعين قصد مدينة الرها التي يسمّيها العامّة أُرفا. وتلمذ ملكها ابجر وقومهُ والبلاد المجاورة . ثمّ ارسل تلميذهُ ماري الى بلاد

(١) انّنا قد جمعنا اكثر ما في هذا الفصل والفصل التابع من التذييلة التي بها السيّد عبد يشوع خيّاط مطران عمادية الكلداني الجزيل الاحترام ذيّل كتابة الفصول الانسيّة في التواريخ القدسيّة *

الفرس فنادى بها بدين المسيح * فلا شكّ انَّ بذار ديانة المسيح
القي اوَّلاً في هذه البلاد بيد القدّيسين توما الرسول وادّى وماري
تلميذهِ . وهم الذين اسّسوا رياسة الكهنوت في كنيستها الكبرى وهي
مدينة سليق واقسطفون المسمّاة ايضاً المدائن . وكانت قاعدة مملكة
الفرس * واسقف هذه المدينة بعد مرور نحو مايتي سنة حصل
على مرتبة الجثلقة اي صار جاثليق كنائس تلك البلاد بحيث كان
لهُ رياسة على اساقفتها جميعاً . وكانوا منهُ ياخذون الرسامة الاسقفيّة
من دون الاحتياج الى قصد بطريرك انطاكية الذي كان سلطانهُ
يمتدّ الى تلك البلاد لياخذوا منهُ الرسامة الاسقفيّة . وسبب هذا
الاستقلال كان بُعد المسافة وصعوبة الاسفار في تلك الازمان *

واماَّ تكاثر النصارى في هذه مملكة الفرس فيدلّك عليهِ
كثرة الشهداء الذين قُتلوا فيها منذ سنة ١١٢ في عهد طريانس
وسنة ٢٥٠ في عهد داقيوس ملِكي الروم المارّ ذكرهما في غزوهما
لهذه البلاد *

ومن جملة الآباء الذين اشتهروا في هذه الكنيسة الشرقيّة
مار ابراهام الكشكري اسقف المدائن الذي بآياتهِ وقداسة سيرتهِ
ابطل الاضطهاد الثائر على النصارى في عهد خسرو او كسرى
الملك سنة ٩٠ . ومار يعقوب سنة ١٤٠ . واحّادابوي سنة ١٥٦ .
ومار شحلوفا الغيور الذين تخلّفوا في كرسيّ المدائن] *

الفصل الثاني والاربعون

في تلطف الملك قسطنطيوس خلورس بالنصارى (سنة ٣٠٥)

قبل أَنْ ينطفئ الاضطهاد الاخير الذي انشاهُ ملوك الروم على كنيسة المسيح لا بل عند بلوغهِ الى غايتهِ. حتم الله بنزول الملكين اللذين امرا بهِ. وهما ديوقلطيانس ومكسيميانس. فانهما سلّما المُلك الى قسطنطيوس خلورس والى غالاريوس القيصرين * أمّا غالاريوس فكان اعجميًّا واصلهُ من عشيرة لئيمة. فابقى الاضطهاد على النصارى في بلاد المشرق * وامّا قسطنطيوس خلورس فكان جوادًا حليمًا مهتمًّا بخير الرعيّة وإسعادها. ولذلك استحقّ المدح من النصارى ومن الوثنيّين. وكان دين المسيح عندهُ كريمًا. لانّهُ كان يحبّ الفضيلة * قيل أَنَّ قسطنطيوس خلورس اذ كان قيصرًا قبل أَنْ يصير ملكًا. لمّا خرج امر الملك ديوقلطيانس باضطهاد المسيحيّين. جمع الجند الذين كانوا تحت لوآئهِ من النصارى وكانوا كثيرين. واعلن لهم امر الملك. وقال لهم «اذبحوا الذبائح للاوثان. والاَّ عزلتكم من مناصبكم» * فاضطرب الجند من هذا الامر. واستغربوهُ جدًّا. لانّهم ما كانوا يظنّون أَنَّ قسطنطيوس ياتي بشيءٍ مثل هذا. وقال اكثرهم «نقبل أَنْ نخسر أَموالنا وكلّ ما لنا ولا نخسر ايماننا» * ولكنّ قليلاً منهم فشلوا. وقرّبوا قرابين

لأوثان * فلمّا راى قسطنطيوس ذلك . ابان ما في قلبهِ . ومدح اولئك الذين امتنعوا من الذبح للآلهة واثنى عليهم . وذمّ الذين خافوا وخانوا دينهم . قائلاً لهم « إنْ كنتم لستم امينين مع الاهكم . فكيف تكونون امينين مع ملككم » * وطردهم من قصرهِ . ونفاهم من خدمتهِ *

ولمّا ارتقى قسطنطيوس الى السلطنة . سلك بموجب افكارهِ هذه . فلم يعادِ النصارى . لا بل احسن اليهم * وابان حبّهُ لدين المسيح خصوصًا في بلاد غالية التي كانت تحت ولايتهِ . حتى انّ النصارى الذين فيها تنفّسوا من الاضرار الجسيمة التي كانت قد اصابتهم في عهد الملك مكسميانس * فتسهّلت الوسائل للمنذرين بالانجيل . وشرعوا يزرعون بشارة الخلاص في الاراضي التي كانت منذ قليل قد رُشّت بدماء الشهداء . وجمعوا غلّات وافرة * فقامت الكنيسة في كلّ مكان . ونُصِبت الرعاة في الكراسيّ التي كانت قد خلت بالاضطهاد *

ولكنّ هذا كلّهُ لم يكن الّا تمهيدًا للامان الحقيقي . لانّ قسطنطيوس خلورس ولو انّهُ احبّ المسيحيّين . لم يتجرأ أنْ يتمسّك بدينهم . وخلّى هذا الشرف لابنهِ قسطنطينس كما سياتي الشرح *



جلّاد في حال اجرائهِ اوامر مولاهُ على النصارى اشرق على قلبهِ نور الايمان وآمن. وتحوّل من كونهِ مضطهدًا الى كونهِ شهيدًا *

وقد راى الملوك اعداء النصارى احيانًا أَنْ يخمدوا الاضطهاد عنهم خوفًا على الخلق أَنْ يفنوا * وفي ذلك نرى اصبع الله تظهر واضحًا * وكان الوثنيون نفسهم عندما يشاهدون ثبات النصارى في العذابات. والآيات التي تجري على ايديهم. يعترفون بانّ هناك قوّةً الاهيّة. وربّما سُمع الوثنيّون في معرض اللعب الذي فيهِ كان النصارى يصيرون فريسة للوحوش يصيحون ويقولون «عظيم هو الاه النصارى. ما اعظم الاه النصارى» * وناهيك انّ من يعتبر دوام هذه الاضطهادات التي قامت على تبّاع المسيح في مبادئ الكنيسة وامتدادها وشدّة العذابات التي أُذيقوها وتجلّدهم وثباتهم. يعترف صريحًا انّ هذه الفضيلة لم تكن الّا من قوّة الاهيّة وشجاعة ملهمة من فوق. لا تقهرها كلّ قوّة ارضيّة * ولا غرو أَنْ قد وُجد في الدنيا نفر يسير سلّموا نفسهم للموت لاجل الضلالة. فانّ هؤلآء انّما ادّوا شهادةً لظنونهم الفاسدة. وامّا المسيحيّون فكانوا يأدّون شهادةً لما راوهُ ولمسوهُ وما توكّد عندهم بإسناد غير منقطع من الشهود * وإنْ كان الانسان قد يتعنّد ويتحمّس في رايهِ ومذهبهِ. فليس مَن يقتحم الاذى لاجل ما هو شكّ او كذب. وهل وُجد انسان يحتمل

الموت لكي يثبت انهُ قد راى ما لم يرهُ * ثمّ إنّ الشهدآء الذين قاموا في الكنيسة في الازمان المتاخرة شهدوا لصدق ديانةٍ رأوها مؤيّدة ببيّنات جليّة * وخلاصة كلّ ذلك هي أنّ ما اظهرهُ الروم الوثنيّون من تعنيفهم للنصارى وبذل جهدهم كلهِ في إفناء ديانة المسيح وما قابلهم بهِ الشهدآء من الثبات والتجلّد على العذابات والموت يبيّنان أنّ هذه الديانة هي من عمل الله وانّ ما لم يقدر الناس على إبطالهِ لم يكن اصلهُ من الناس * وبالإجمال إنّ الكنيسة الكاثليكيّة قد دامت وثبتت بلا مسند بشريّ. لا بل على رغم مصادمات القوّات الارضيّة كلّها * وهي قائمة كما وُضعت في اصلها على ترتيب كهنوتها وعلى حقوقها وسلطانها الروحانيّ. اي على الهيئة التي فيها وضعها المسيح * ولعمري لا يمكن أَنْ يقال عن ملّة دامت وثبتت كل هذه القرون والاحقاب من نفسها وبقوّتها الخاصّة لها مع كلّ المناصبات والمعاديات التي نهضت عليها. الاّ بانّها من الله وبانّ البشر لا حيلة لهم في قهرها ولا في تغييرها *

نرى أنَّ جميع ملوك الروم من نيرون وبعده حتى الصالحين اضطهدوا النصارى *

واما افتتاح الاضطهاد فربَّما كان يحدث بامر يخرج من الملك نفسهِ. وربَّما كان من بغضة العاملين والوكلاء. وربما كان بحكم مشيخة رومية. وربَّما كان من جرى قيام الوثنيّين على النصارى * وقد كان الاضطهاد يسكن ويهدأ وقتًا قليلاً لأسباب عارضة. ولكن بعد قليل يهيج اشدّ من الاوّل بحنق الوثنيّين. فتسيل دماء النصارى في كلّ ناحية * واقوى ما كان يشتدّ الاضطهاد كان اذا حدث بامر الملك. ولذلك جعل المؤرّخون الاضطهادات عشرة على عدد الملوك الذين امروا بها. اذ إنَّ كلّ واحد منهم جدَّد الاضطهاد على النصارى بظلم جديد * واما عدد الشهداء الذين استشهدوا قاطبةً في جملة هذه الاضطهادت فيبلغ آلاف الالوف *

وكان الملوك في هذا تعنّتهم على النصارى مقصدهم أنْ يقرضوا دين المسيح. غير أنَّهُ كان هذا الدين الشريف يزداد قوَّة وامتدادًا بالسيف والنار * واما انواع العذابات التي عذّبوا بها المسيحيّين فامرٌ يعجز عنهُ الواصف. وناهيك أظفار الحديد. والعجلات المركّزة فيها سنان حادَّة. والمشاوي المحميَّة. وكوانين النار المتّقدة. والوحوش الضارية. وكلّ هذه وأشباهها ما آلت الاَّ الى

كثير الذين كان يراد إعدامهم * فكأنّ دم المسيحيّين كان بذارًا ينبتون منهُ بأضعاف كثيرة *

وأمّا المسيحيّون ففي كلّ هذه الاذيّات التي كانوا بها يعذّبون لم يدافعوا شرّ اعدائهم الاّ بالصبر. وكان هذا الصبر بحسب وعد معلّمهم الالهيّ ينصرهم على كل قوّة تقوم عليهم * ومن عجيب العجائب انّ النصارى مع كلّ ما اصابهم من الظلم والقساوات لم يلوذوا بالعصيان. ولا همّوا في فتنةٍ ابدًا. ولا حاموا عن انفسهم بالقوّة والمكابرة. ولم ياتِ احد منهم بشيءٍ من ذلك في كلّ السنين الثلاث مائة التي فيها انتصبت عليهم الاضطهادات الفائقة في الظلم والقساوة. ولم يكن ذلك من ضعفهم وخوفهم. لانّهم كما لم يفتكروا في الخروج والمعاصاة في زمان نيرون اذ كانوا عمّا قليل قد نشئوا في العالم. كذلك لم يهيجوا في زمان ديوقلطيانس اذ كان العالم ممتلئًا منهم * ثمّ إنّ المسيحيّين فضلاً عن الصبر كانوا يحتملون العذابات بالسرور والفرح. وكانوا ينطلقون الى العذابات برغبة وشوق اشدّ ممّا كان اعداؤهم الوثنيّون يذهبون الى اعيادهم وملاهيهم * وكان من جملة المستشهدين لدين الحقّ شيوخ هرمون وعذارى نحيفات. وكان هولاء يقتحمون العذابات بصبر وسرور وفرح. وربّما شوهد اطفال ورضعان يعترفون باسم المسيح بلا خوف. ويقاسون الاذيّات الاليمة * وربّ

من العذاب. وشرع يسلسهُ بالمواعيد ويلاطفهُ * فلمّا رأى أنّهُ لا ينال منهُ شيئًا. اتّقد غضبًا. وامر أَنْ يكرّروا عليهِ الاذيّات ويزيدوها قساوةً. فاستعملوا معهُ كلّ انواع العذابات واقساها. واخترعوا آلات جديدة. حتى مات فيها اخيرًا بقلب طيّب سليم. وهكذا نصرهُ الله نصرًا عظيمًا عجيبًا *

الفصل الحادي والاربعون

فوائد في احوال الاضطهادات

إِنَّ الله تعالى لمّا اراد أَنْ يبيّن أَنّ الكنيسة عزيزة لديهِ. نصرها واكرمها واجلّها في جميع الاضطهادات التي اصابتها * واحبّ أَنْ تقضي ثلاثة قرون من السنين في هذه البلايا من غير أَنْ تجد راحةً * وكان عزَّ وجلّ قد انبأَ لتلاميذهِ كما ورد في الانجيل. بأَنّهم سيُطرَدون ويوقَفون امام الملوك والحكّام ويُضرَبون ويُقتلون من اجل اسمهِ * وكان ايضًا قد وعدهم بالانتصار. اذ قال «لا تخافوا ممّن يقتل الجسد. فانّهُ لا تسقط شعرة من رؤوسكم دون ارادة ابيكم السماويّ * وبصبركم تكسبون انفسكم * وانا اكون معكم وانصركم واعطيكم قوّةً وشجاعةً لتقهروا اعداءكم * كما غلبتُ انا العالم. كذلك ستغلبونهُ انتم ايضًا» *

وكما تنبأ المسيح جرى الامر. لانهُ منذ ظهر دينهُ في العالم. قامت عليهِ كل سلطنات الارض * وكانت اذ ذاك عبادة الاوثان متملكة على الارض كلها ورافعة راسها. وكانت توافق الحواس الجسدية واللذات والأهوآء كلها. وتتقوى بالملاهي والملاعب والمطارب المتنوعة التي كانت ترافق مواسمها وأعيادها حتى كان الحيآء في تلك اوقات العبادة يخلع اكثر ما يكون * وكانت ديانة المسيح بعكس ذلك. فانها تامر بقهر الجسد وقمع الشهوات وطلب الخيرات الغير المحسوسة. فلم تكن لتطيب لنفوس الوثنيين الراغبين في الشهوات الجسدية كما سبق القول * ولهذا السبب كان الوثنيون يبغضون النصارى. لانهم لم يختلطوا معهم في اعيادهم وافراحهم الدينية * وزاد على ذلك اعتبار سياسي من قبل الحكام. وذلك ان دولة ملوك الروم كانت في ظنهم تحت ظل الآلهة وحمايتهم * وناهيك أن اهل رومية كانوا يحسبون مدينتهم مقدسة للآلهة ومركز دينهم. وأنها منذ تاسيسها قد جعلت حرامًا لهم ومقرًّا لسكناهم وايدهم. وأن الملوك بجولهم فتحوا البلاد وقهروا الامم واستعبدوهم * فحيث كان المسيحيون يحتقرون هولآء الآلهة بامتناعهم من عبادتهم وبالاستهزآء بهم. حسبوا اعدآء للمملكة وخوارج. حتى كان بهم القياصرة أن يقرضوا ملة النصارى اكثر من أن يفتحوا الأمصار وينشروا رعبتهم الى البلاد القاصية * ولهذا

لنُذبَح . كما ذُبح رفقاؤنا المغبوطون * ولا تخفْ فتنةً . فانَّ النصارى يعرفون أَنْ يموتوا . لا أَنْ يفتتنوا • وعندنا اسلحة . ولكن لا نستعملها • ولأَنْ نموت ابرياء اهنأ لنا من أَنْ نعيش مجرمين » *

فلمّا سمع الملك هذا الكلام المقول بشجاعة وقوَّة . اشتدَّ غضبهُ . ويئس من أَنْ يغلبهم . فنوى أَنْ يذبحهم الى آخرهم * فاطلق عليهم العسكر . فاخترقوهم . ونزلوا بهم ضربًا بحدّ السيف . وكان الأَبطال يطرحون اسلحتهم . ويخلعون دروعهم . ويقدّمون أَعناقهم للسيف * ولم يُسْمَع منهم تذمّر ولا صياح . ولم يكونوا يتكلّمون الاَّ ليشجّعوا بعضهم بعضًا في الموت لحبّ المسيح * وفي قليل من الزمان انتقشت الارض بجثثهم . وطفت بدمائهم * وكانوا في العدد ستَّة آلاف على ما قيل *

يا للعجب من عسكر تامٍّ من الجنود يسلّمون نفسهم للموت من اجل دينهم * اوليس هذا الدين الذي يبلغ باهلهِ هذا المبلغ العظيم يقدّم لنا براهين ساطعة أَنهُ دين الاهيّ *

الفصل الاربعون

في استشهاد بقتور ولنقبس

ومن الذين ماتوا شهدآء على يد مكسيميانس الملك كان

بِقتور او وِكْتُور وبنِقيس او وِنكَنس * امّا بقتور فكان جنديًّا من اهل الشرف والنجابة. وكان قويًّا في الايمان * ولمّا وصل مع مكسميانس الى مدينة مرسيلية من اعمال فرنسا . شرع يفتقد المسيحيّين الذين فيها ويسلّيهم ويشجّعهم * فوُشي بهِ عند الملك . فاحضرهُ الملك وتهدّدهُ ووعدهُ . فلم يذعن لقولهِ * فغضب عليهِ الملك . وامر أنْ يشدّوا يديهِ ورجليهِ ويسحبوهُ في شوارع المدينة * ثمَّ ركّبوهُ على عجلة من حديد . وعذّبوهُ عذابًا مرًّا طويلاً * وكان رافعًا عينيهِ نحو السمآء يطلب العون من يسوع المسيح * وبعد ذلك ذهبوا بهِ الى الحبس وحبسوهُ * ثمَّ اوقفهُ الملك بين يديهِ . ولمّا راى أنّهُ لا يقدر أنْ يميلهُ ليذبح للاصنام . امر عليهِ فالقوا على بدنهِ حجر رحا . ثمَّ ضربوهُ بحدّ السيف *

واما بنقيس الشمّاس فكان من الذين استشهدوا على يد مكسميانس الملك في بلاد سراغوسة من اعمال اسبانيا * فهذا البطل امر الوالي بالقبض عليهِ وطرحهِ في السجن بغضةً لدين المسيح . وأذيق هناك جفآء شديدًا . ثمَّ أُحضر بين يدي الوالي . فاعترف بدين المسيح بلا خوف * فلمّا راى الوالي اصرارهُ . امر فعذّبوهُ عذابًا اليمًا . فمدّدوهُ على المزوار . ومطّوا أطرافهُ عليهِ حتّى تفكّكت عظامهُ . ومزّقوا اضلاعهُ حتّى انكشفت عن أحشائهِ * وكان الشهيد في كلّ ذلك صبورًا طلق الوجه مسرورًا * ثمَّ اراحهُ الوالي قليلاً

عنهُ ثيابهُ. وشدّوهُ في آلةٍ كانت ترفعهُ الى علوّ عظيم. ثمّ تسقط بهِ على الحضيض. فتمزّق جسمهُ كلّهُ. ثمّ اخذوا يضربونهُ سوطًا. حتّى تهرّت كلّ اعضائهِ. ولعمق جروحهِ بانت عظامهُ. فصبّوا عليها خلًّا وملحًا * وفي هذا الحال الشنيع لم يرتخِ في ايمانهِ. ولا ضعفت شجاعتهُ * فاتوا بنار ومشواة. وشرعوا يشوون واحدًا واحدًا من اعضائهِ. وكانوا يجرّون العضو عن النار ويريحونهُ قليلاً ثمّ يرجّعونهُ ليزيد المهُ * وكلّ ذلك لم يزعزعهُ عن حبّ المسيح. واستمرّ ثابتًا. حتّى مات على المشواة من دون أَنْ تنقص شجاعتهُ * فاعتبر قوّة العون الالهيّ. وافهم أَنّ هذه الحماسة لا يمكن أَنْ تجري بقوّة طبيعيّة *

الفصل التاسع والثلاثون

في استشهاد الكتيبة الثيبانيّة

وعرض لمكسميانس الملك أَنْ يرحل بجيشهِ الى بلاد غالية وهي بلاد فرنسا ليهدّئ شغبًا ثار هناك. ولمّا راى جيشهُ قليلاً. بعث جلب من مملكة المشرق التي كان ديوقلطيانس متسلّطًا عليها كَتِيبة من العسكر يقال لها الثيبانيَّة. وكانوا كلّهم نصارى. وكان اسم قائدهم موريق * فلمّا وصلوا الى مكسميانس الملك. امرهم أَنْ يقرّبوا ذبائح للآلهة * فقالوا «ما جئنا نحن لندنّس ايدينا

بذبائح الاوثان. بل لنقاتل اعدآء المملكة * فغضب الملك من هذا الجواب. وامر أَنْ يعشّروهم. اي يقتلوا كلّ عاشر منهم * فصار مَن تقع القرعة عليهِ منهم. يسلّم نفسهُ للذبح بلا ممانعة * واما الباقون فلم يجفلوا من ذلك. ولا فشلوا. بل تقوّوا اكثر في رغبة الاستشهاد. فصاحوا بصوت عظيم وقالوا «نحن نكره عبادة الاوثان» * فلمّا بلغ مكسيميانس ذلك. امر أَنْ يعشّروهم ثانيةً. فذبحوا كلّ عاشر منهم * وشرعوا يلحّون على الباقين ليذبحوا للأَصنام. فقالوا «نحن جندك ايّها الملك المولى. ولكن نحن عبيد الله ايضاً. فلك يجب أَنْ نؤدّي خدمة الحرب. ولله خدمة البرّ. امّا انت فتدفع لنا الرزق المعلوم. واماَّ هو سبحانهُ فيولينا الحيوة ويحفظنا * فلا يمكن أَنْ نطيعك في ما يبعدنا عن الله خالقنا ومولانا وخالقك ومولاك. ونحن واثقون في العمل بقولك ممَّا لا يوجب سخط الله. ولكن إِنْ خيّرتنا بين طاعة الله وطاعتك. فنحن نختار طاعة الله * فإِنْ اردت أَنْ تغزوا الأَعدآء. فنحن بين يديك. خذنا ولا نقصّر. فاننَّا لا نمتنع من أَنْ نقاتل الخوارج والكفّار. ولكنَّ ايدينا ما اعتادت ان تسفك دم بني جنسنا والابرياء * وقد عاهدْنا الله قبلما عاهدناك. فكيف ترجو أَنْ نصدق معك. إِنْ كنت تريد أَنْ نخلف مع الله * إِنْ كان مرادك أَنْ تموّت النصارى. فها نحن بين يديك. نحن نؤمن بالله خالق كلّ الاشيآء وبيسوع المسيح ابنهِ. وها نحن مستعدّون

اساقفة مدينة باريس * وهذا القدّيس بعد ما نصب في تلك المدينة كنيسةً جليلة . اعتنى بانتشار الايمان في البلاد المجاورة . وشدّ العزم في ذلك . حتّى سُمّي رسول الفرنساويّين * ومات شهيدًا *

الفصل الثامن والثلاثون

في الاضطهاد العاشر وهو الاخير الذي صار بامر ديُوقلطيانس الملك (٣٠٢)

كان ملوك الروم الوثنيّون حينًا بعد حين يفرغون كلّ جهدهم في طرد دين النصارى رجاءَ أنْ يعدموهُ . ولم يكن ذلك ليأول الّا الى توطيدهِ وتقويتهِ * وآخِر اضطهاد جرى على النصارى صار اذ كان ديوقلطيانس مالكًا في بلاد المشرق ومكسميانس في بلاد المغرب * واعطى ديوقلطيانس الملك في مدينة نيقومدية (وهي في اسيا الصغرى) سنة ٣٠٢ امرًا بأنْ تُهدَم بِيَع النصارى وتُحرَق كتبهم . وبعد ذلك اقام الاضطهاد على المسيحيّين نفسهم . واجرى دماءهم كالسيول في كلّ اعمال المملكة . وتبعهُ ايضًا في هذا الراي القاسي مكسميانس في المغرب *

فصار الوثنيّون يعذّبون المسيحيّين باشدّ العذابات . واخترعوا لذلك ادوات وآلات لم يُسمَع بها ولم تُعرَف قبلاً * فمنهم من

علقوهم براس منكّس واحرقوهم بالنار قليلاً قليلاً . وذلك في بلاد بين النهرين اي الجزيرة ٭ ومنهم من شووهم في المقلاة . وذلك في بلاد الشام ٭ ومنهم من شكّوا تحت اظافيرهم قصبات حادّة . ثمّ صبّوا عليها رصاصاً مذوّباً . وذلك في بلاد بنطوس في اسيا الصغرى ٭ ومنهم من قطّعوهم بالكلبات ٭ ومزّقوا أجسادهم بمحوف مسحّقة وذلك في بلاد مصر ٭ وفي بلاد فروجية كان مدينة اهلها كلّهم نصارى . فهجم عليها الجند من غفلة . واطلقوا فيها النار ٭ فاحترق الرجال والنسآء والصبيان . وهم يندبون اسم يسوع ٭ وحكى اوسابيوس المورّخ المشهور الذي شهد بالعيان شيئاً من ذلك ٭ أنّ ما أُذيقهُ المسيحيّون من الاذيّات والعذابات والشناعات في هذا الاضطهاد امرٌ لا يُحكى ولا يوصف ٭ وقال لَكْتَنتيوس «الارض باسرها غُمِرت بالدمآء من المشرق الى المغرب» ٭ واعان الله الكنيسة في هذه الشدَّة العظيمة . وامدّها بايدٍ قويّ مناسب لشدَّة البليّة التي اصابتها ٭ وأُوقع الاضطهاد قبل كلّ شيء على اهل قصر الملك نفسهِ . لانّ كثيرًا من الامرآء الذين فيهِ كانوا نصارى ٭ فامروهم أنْ يقرّبوا ذبائح للآلهة . ولكنّهم ابوا . واحبّوا أنْ يخسروا نعمة الملك والمناصب التي كانوا فيها . ويعذَّبوا باذيّات قاسية . بدلاً من ان يكفروا بدين الله ٭ وذُكر عن واحد منهم اسمهُ بطرس انّهُ اذيق من العذاب ما يقشعرّ الجسم لذكرهِ ٭ فانّهم نزعوا

ثوابًا عظيمًا. لانهُ ليس غيرهم من يهتمّ بالمطعونين * ولم يمسك احد من اخوتنا نفسهُ عن مساعدة المضروبين الاَّ القليلين. فكانوا يعودونهم ويسلّونهم ويسعفونهم. ولم يوقفهم الخوف ان يعدي المرض عليهم. فمات كثيرون بعدما شفوا غيرهم * وكثير من القسوس والشمامسة والعلمانيين الفاضلين لم يشفقوا على حياتهم. فكان الذين بعدهم ياخذون مكانهم ويلازمون مداراة المرضى * واما الوثنيّون فيهربون من المرضى. ويتركون احبابهم. ويطرحونهم في الازقّة. وربما تركوهم قبل ان يموتوا. ويدعون جثثهم بلا دفنة كالزبل لشدّة خوفهم ان يعدي المرض عليهم. وبهذا كلهِ لا ينجون منهُ » * وهذا الفرق بين معاملة المسيحيّين ومعاملة الوثنيّين القى في قلوب الوثنيّين العجب والاندهاش. واعترف كلّ احد انّ الرحمة الحقيقية لا توجد الاَّ عند النصارى * واعلم انّ الذين ماتوا بهذا الطاعون لمداراتهم المرضى تكرمهم الكنيسة كالشهداء *

الفصل السابع والثلاثون

في الاضطهاد التاسع الذي صار بامر اورليانس الملك (سنة ٢٧٤)

ولمّا ملك اورليانس قيصر. كان في مبادئهِ لا يعادي النصارى * ولكن بعد ذلك صار يبغضهم ويسقيهم اللوعة. اذ علم

أنّ ذلك يطيب لخواطر محفل المشيخة والعامّة الذين كانوا يبغضون النصارى * وكان قد اعدَّ امرًا قاطعًا باضطهادهم. فمنعتهُ عن ذلك صاعقة انقضّت بين رجليهِ. فارعبتهُ ونزعت من يديهِ ذلك الامر الشيطانيّ الى زمان *

قال لَكْتَنْتيوس المورّخ «إنّ أورليانس سوّلت لهُ نفسهُ أنْ يضطهد المسيحيّين. فاخرج امرًا فائرًا بالدم بمعاداتهم واذيتهم. ولكن هذا الامر خرج في اواخر ملكهِ. حيث لم يكن وقت ليبلغ الى اقاصي المملكة اذ مات» * غير أنّ بغضة هذا الملك للمسيحيّين لم تعدم عملها. لانّ كثيرين استشهدوا حينئذٍ * ومن جملة هولاءِ كان شهيد اسمهُ كومون في بلاد لقاونية * هذا اوقفوهُ امام القاضي. فاخذ القاضي يلومهُ على عيشهِ القشفيّ الفقريّ القهريّ. فقال لهُ كومون «إنّ نعيمي هو الصليب. فلا تظنّ أنّك تخوّفني بالاذيّات. لانّي عارف بقيمتها. واعلم أنّها تودّي الى السعادة الحقّ. وكلّما اشتدّت الاذيّات وطالت. زادت لي لذّةً» * فقال لهُ القاضي «هل عندك اولاد». قال «نعم عندي واحد. وانا اتمنّى أنْ يتبعني في الحظّ الذي نالني» * فبعث القاضي واحضر ولدهُ. وامر عليهما جميعًا بالموت * فقُطعت ايديهما بمنشار من خشب. ووضعوهما على فراش من جمر نار. ثمّ انزلوهما في مرجل مملوءٍ زيتًا مغليًا. وهناك اسلما الروح *

وقيل انّهُ في هذا الاضطهاد استشهد ديونوسيوس اوّل

هو الذي ياخذني عندهُ ويجزيني. فعجّلوا عليّ بالموت لانطلق عندهُ سريعًا» *

وكان الحاضرون يبكون ويولولون عليهِ اذ يتكلّم بهذا الكلام. فقال لهم «الاولى بكم انْ تفرحوا بي. لا ان تبكوا. اشانكم ان تفشلوني ببكاكم. بدل ما تقوّوني وتشجّعوني لاحتمل كلّ شيءٍ * كلّا انّكم لستم تعرفون النعيم الذي انتظرهُ. ولا ما هو رجائي. فاتركوني اقضي هذه الحيوة الفانية» * قال الراوي «فذهبوا بفورلّس الى مكان القتل. وقتلوهُ» * ولكنّهُ لم يذكر باية ميتةٍ كمّل جهادهُ *

تامّل في عظم قوّة الله. الذي اعطى الحماسة كما راينا سابقًا للنسآء ليزدرين بانواع الاذيّات ويقوين على قساوة الحكّام الظالمين. وسند الصبيان الصغار في جهاد الشهادة ليشتدّوا فوق طاقة عمرهم على مكابدة العذابات *

الفصل السادس والثلاثون

في قصاص اعداء الكنيسة وفي رحمة المسيحيّين

اذ كان والريانس الملك قد اضطهد النصارى. واذاقهم كلّ نوع من الجفاء. عاقبهُ الله وانتقم من كفرهِ * وذلك انهُ

حارب شابور ملك الفرس . فكسرهُ شابور واخذهُ اسيرًا . واهانهُ
اقبح ما يكون من الاهانات . حتى انهُ كان اذا اراد ان يركب
فرسهُ . يامر والريانس ان يحني راسهُ قدّامهُ . فيضع رجلهُ على رقبتهِ
ويركب * ثمّ سلخ جلدهُ وهو حيّ . وصبغهُ وعلّقهُ في احد هياكل
الفرس * امّا الوثنيّون فكانوا يتعجّبون من هذه الخطوب العظيمة
التي قاساها والريانس الملك . وامّا النصارى فعلموا انّ في ذلك
يد الله الذي اخذ ثار عبيدهِ من هذا الطاغي الغشوم *

وفي ذلك الزمان اصاب مملكة الروم نوائب عظيمة .
فانّ اممًا اعجميّة هجمت عليها من كلّ جانب مثل الجراد . وجعلت
خرابًا عظيمًا في كلّ مكان * وقام ايضًا اهل المملكة بعضهم على
بعض . وتنازع كثيرون المُلك . حتى قيل انّ عددهم بلغ ثلاثين *
وحدث في الارض زلازل . وخرج البحر من حدودهِ وغمر مدنًا
كثيرة * وجاءَ الطاعون في آخرِ كلّ هذه الضربات . واشتدّ
في مدينة رومية . حتى كان في اليوم الواحد يهلك الوفًا من
النفوس * وكذلك في مدينة الاسكندرية . حتى كتب ديونوسيوس
اسقف هذه المدينة « قد عمّ العزاءَ كلّ الناس . ولم يكن بيت
الاّ وفيهِ ميت او اكثر . فكانت المدينة ترنّ باصوات الولولة
والعويل » * قال « والطاعون عند الوثنيّين هو اشدّ ما يكون
من البلايا . وامّا النصارى فهو لهم سبب ليستعملوا الرحمة ويكسبوا

ابديّة * ووعظوا الذين حولهم . امّا المومنين فليثبتوا راسخين في الايمان . وامّا الغير المومنين فليعرفوا الاله الحقّ ويعبدوهُ * وكانوا يقولون لهم « ايّ انسان يقرّب قرابين للآلهة الكاذبة . يهلك . ومَن ترك الاله الحق وعبد الشياطين فهو كافر كفرًا شنيعًا » * وضُربت اعناقهم جميعًا *

الفصل الخامس والثلاثون

في جهاد صبيّ صغير

إنّ الاله الذي متى اراد يعطي الصبيان نفسهم نطقًا وفصاحة ليتمجَّد بهم . حرّك الصبيان ليكونوا آلةَ لانتصار الايمان باعترافهم بهِ * كان في مدينة قيصريّة صبيٌّ اسمهُ قورلّس . جرت منهُ حماسة ومناقب ادهشت وابهجت المومنين غاية ما يكون * كان معتادًا انْ يلفظ على الدوام اسم يسوع القدّوس . وكان ينتعش قلبهُ سرورًا ونعيمًا عند تلفّظهِ بهذا الاسم المسجود لهُ . حتى كان يقوى على كلّ التخويفات والتَرْجيات * وكان ابوهُ عابد اصنام . وعالج بهِ لكي يندب اسم الآلهة الكاذبة . فلم يقدر انْ يميلهُ . فآذاهُ كثيرًا وطردهُ من بيتهِ * فبلغ ذلك قاضي المدينة . فارسل جندًا . واحضر الصبيّ قورلّس * فلمّا مثل بين يديهِ .

ال لهُ «يا ابني قد اشفقتُ عليك وعفوتُ عنك لانك صغير•
الآن فعليك انْ تعطّف قلب ابيك عليك . ليعطيك حصّة
ن ثروتهِ . فاعقل واترك هذه الضلالة» * فقال الصبي «يطيب
ي ان أُلام على ما انا فاعلهُ • لي الله الذي ياخذني عندهُ .
وذلك خير لي من ان اكون عند ابي . فلا يغمّني ان اخرج من
يتهِ . لانّ لي بيتًا آخر اكبر واحسن • وقد جزتُ عن الأَموال
لارضيّة لاكون غنيًا في السماء • ولا اخاف الموت . لانّ بعدهُ
حيوةً افضل» * فغضب القاضي . وتهدّدهُ بالموت • وامر انْ
يقيّدوهُ كمن يُذهَب بهِ للقتل . ويهيّأُوا حطبًا ويطلقوا فيهِ النار*
ولكنّ الصبيّ لم يفزع من كلّ ذلك . ولا ارتعب قلبهُ . بل زاد
شجاعة وقوّة . وترك لهم ان يذهبوا بهِ من غير انْ ينزل دمعة
من عينيهِ • ثمّ دنوا بهِ من النار . واظهروا انّهم يريدون ان
يلقوهُ فيها . ولكنهُ لم يخَع من ذلك * فلمّا راوا انّ قلبهُ لا يفزع
من هذه التخويفات . رجعوا بهِ الى القاضي • فقال لهُ القاضي
« ارايت النار . ارايت السيف يا ولد . فكن الآن عاقلاً . واعمل
بما اريد انا وما يريد ابوك . ليرضى عنك ويردّك الى بيتهِ» *
فقال قورلّس «لقد اسأتم اذ رجعتموني . انا ما اخاف لا من
الموت ولا من السيف • بل إِنّي مستعجل لانطلق الى بيت اطيب
واشهى من بيت ابي . ومشتاق الى ثروة ابقى من امواله * والله

الارض. وصلّى صلوةً حارّة * ثمَّ شلح ثيابهُ. ودفعها الى شمامسته.
وتناول اللثام ليغطّي بهِ عينيهِ كما يُصنع بالمقتولين. وعالج أَنْ يعقدهُ
من وراءٍ فلم يقدره فتقدَّم قسّيس وشمّاس وعقداهُ * ثمَّ لاح
السيَّاف. فامر قبريانس أَنْ يعطوهُ خمسةً وعشرين دينارًا. ثمَّ
ركع على ركبتيهِ. وصلّب يديهِ على صدرهِ. واستقبل ضربة السيف *
وجمع المؤمنون دمهُ في مناديل كانوا قد فرشوها حولهُ قبل قطع
راسهِ. وحفظوهُ باحترام جزيل *

الفصل الرابع والثلاثون

في جهاد شهداء اخر استشهدوا في افريقية

واستشهد بعد قبريانس المجيد شهداء أُخر في اضطهاد
طال مدّة اشهر * ومن اشرف هؤلاء كان مُنْتَانس مع سبعة رفقاء *
وقد اتّصلت بنا قصّة جهادهم. وبدأوا هم بكتابتها في السجن.
وذيَّلها واحد من شهود الحال * قالوا « لمّا قُبض علينا. بلغنا أَنَّ
الوالي كان ناويًا أَنْ يامر علينا بأَنْ نُحرَق ونحن احياءٌ. وأَنَّ
ذلك يكون في الغد. ولكنّ الله الذي في يدهِ قلوب الحكّام لم
يسمح بأَنْ يصيبنا هذا النوع من المنيّة. فغيَّر الوالي نيّتهُ. ووُضعنا
في الحبس * ولم يرعبنا هذا المأوى. لانَّ ظلماتهِ طردها نور سماويّ.

وروح القدس بعث شعاعًا من اشعتهِ الى ذلك السجن الدامس فضاء النور في وسط الظلمة * وفي الغد عند المسآء اخذنا الجند بغتةً . وانطلقوا بنا الى بيت الحكم * ويا لفرحنا . إنّ السلاسل التي قيّدونا بها رايناها خفيفة * وسألَنا الوالي سؤالات كثيرة . وتخلّلها بتهديدات وبمواعيد * واجبنا بتواضع وثبات وشجاعة . ثمّ اخرجونا من المحكمة وقد اخزينا الشيطان * وردّونا الى السجن . فتهيأنا لجهاد آخر * واشدّ ما كان يؤلمنا كان الجوع والعطش . لانهم كان يشغّلونا من الصباح الى المسآء . وينكرون علينا كلّ شيءٍ حتّى المآء * وسلاّنا الله سبحانهُ وتعالى برؤيا اكرمنا بها . منها فهمنا أنّهُ لم يبقَ لنا الاّ ايَّام قليلة وانّهُ لم يكن ليخذلنا . ووفّق لنا بعنايتهِ الربَّانيّة شيئًا سندنا بهِ رمقنا . اتانا من شخصين مسيحيَّين جآءا ليعودانا . فشكرنا الله وحمدناهُ على هذه رحمتهِ لنا وعنايتهِ بنا * وما قوّانا وهدّأ همومنا انّما كان اتّفاقنا ومودّتنا بعضنا لبعض . فكان لكلّنا قلب واحد . وكنّا نصلّي بفم واحد ونتحادث ونتآنس» *

ثمّ إنّ الوالي امر انْ يحضروهم امامهُ ثانيةً . فاقرّوا كلّهم بانّهم واقفون ثابتون على قولهم الاوّل * فنطق الوالي بالقضيّة وامر انْ تُضرَب اعناقهم * فذهبوا بهم الى موضع القتل . واجتمع خلق كثير من مسيحيّين ووثنيّين * وكانت سيماء الفرح تلوح في وجوه الشهدآء . وكانوا مبتهجين بانّهم منطلقون لنوال سعادة

قال العامل «اريد أنْ اعرف مَن هم القسوس الخادمون في كنيستك» * قال «لا اقدر أنْ اقول اسمآءَهم. لانَّ شريعتكم عينها تنهى عن الوشاية» * وبعد مسآءلة طويلة حكم بَتِرْنُس بانْ ينفى قبريانس الى مدينة صغيرة قريبة من قرطاجنة اسمها قروبة *

واصاب الاضطهاد في ذلك الزمان ايضًا كثيرين من اساقفة افريقية وقسَّانها. فبدّدوهم في صحارى تلك النواحي وذوّقوهم كلّ نوع من العاهات * وكتب لهم قبريانس رسالة تسلية رقيقة العبارات. لا يتمكَّن الانسان من قراءَتها الاَّ ويحسّ بشرارة من نار حبٍّ تتّقد في قلبهِ. وتشوّقهُ الى الموت من اجل المسيح * ومكث قبريانس سنةً في المنفى. ثمَّ ارجعهُ العامل الجديد الى قرطاجنة ليحكم في امرهِ * وكان الاضطهاد شديدًا عنيفًا. لانَّ والريانس الملك كان قد امر على الاساقفة والقسوس والشمامسة أنْ يسلَّموا الى الموت في الحال * امَّا قبريانس فأُودع عند ضابط العسكر. وكان مسكنهُ في احد دساكر قرطاجنة. وأُبيح لأَصحاب قبريانس واهلهِ أنْ يعودوهُ. فصار المومنون يتناقلون اليهِ ليروهُ * واذ خافوا عليهِ أنْ يُقتَل تلك الليلة. باتوا على باب المنزل طول الليل * وفي الغد اخذوا قبريانس. وذهبوا بهِ الى العامل. وكان في احد منتزهاتهِ ظاهر المدينة. وكانت الدنيا حارّة تغلي. فلمَّا رآهُ عسكريٌّ يشخل عرقًا. قال لهُ «بدّل قميصك» * فقال

قبريانس «ما المنفعة في تخفيف جفاءٍ يزول سريعاً» *

ولمّا راى العامل قبريانس. سأل «أأنت هو الذي يُدعى قبريانس» . قال «انا هو» * قال العامل «قد امرك الملك أنْ تقرّب قرابين للآلهة» . قال قبريانس «حاشاي من ذلك» * قال العامل «احسن التفكّر» . قال «لا حاجة الى التفكّر في امر عادل كهذا» * ثمَّ إنَّ العامل قال لقبريانس «قد طالما تكفرون. وملوكنا ما نالت يدهم أنْ يصدّوكم عن كفركم . ولمّا كنت انت قائد هولآء القوم الماردين. اقتضى أنْ تكون عبرةً لهم. وسيرون ادب الشريعة يقوى بدمك» * وتناول اللوح المحرَّرة فيهِ قضية موتهِ . وقرأ بصوتٍ عالٍ وقال «قد أُمر أنْ يموت قبريانس بالسيف» * فقال قبريانس «الحمد لله والشكر» *

وكان هناك جمٌّ غفير من المومنين. فصاحوا قائلين «خذنا نحن ايضاً بالسيف» * وانطلقوا بقبريانس الى ساحة فسيحة في ظاهر المدينة محوّطة بشجر ودوح عظيم ليجروا عليهِ الحكم. ومع كبر الساحة لم تسع كثرة الناس الذين اجتمعوا * وإنَّ قبريانس لم يغفل عن النفوس المسلّمة لرعايتهِ وهمّتهِ الى آخر نفس. فانَّهُ اذ علم أنَّ بين المجتمعين بعضاً من العذارى. امر أنْ يُحتفَظ بهنَّ لدفع كلّ خطرٍ عنهنَّ *

ولمّا بلغ قبريانس الى موضع القتل. جثا وتمرَّغ بوجههِ على

الشقاقات تحدث من هذا. أَنَّ بعضاً من الخبثاء يجسرون ويحتقرون الاسقف الذي لا يمكن أَنْ يكون في كنيستهِ الاَّ واحدًا. ويرفضون ذلك الذي ارسلهُ الله * انَّ الله واحد. والمسيح واحد. والكرسيّ الاسقفيّ واحد. وهو الذي تاسَّس اوَّلاً على بطرس المغبوط بامر المسيح * ولا يجوز نصب مذبح ثانٍ. ولا إدخال كهنوت ثانٍ ۰ ومَن ادخل اسقفًا على اسقف الكنيسة. فقد نصب مذبحًا ثانيًا * وكلّ ما يصنعهُ الناس ايًّا كانوا خلافًا لما رسمهُ المسيح. فذلك باطل حرامٌ نفاق * إنَّ كنيسة يسوع المسيح واحدةٌ ذاتًا. ولا يمكن أَنْ تنقسم. وقد قال المسيح لنا انهُ لا يوجد الاَّ حظيرة واحدة * ولمّا اراد المسيح أَنْ يبيّن وحدة الكنيسـة احسن ما يكون. بناها على واحد. وهو بطرس. واعطاهُ سلطان المفاتيح * وقد نُصـب قرنيليوس على الكرسيّ الحبريّ بمقتضى القوانين المقدّسة ۰ فمَن جعل نفسهُ اسقفًا على رومية. يفسخ الوحدة. ورسامتهُ لا يمكن أَنْ تكون شرعيّة * ولمّا كان لا يجوز أَنْ يكون على كرسيّ واحد اسقفان. فمَن نُصِب اسقفًا بعد الاوّل ليس هو اسقفًا ثانيًا. بل ليس هو اسقفًا. ولا لهُ من الاسقفيَّة سلطانها ولا رتبتها ۰ وهو ليس راعيًا. بل هو رجل من العامّة وهو غريب ومرتدّ ۰ ولا يتخلّف بعد احد. بل يبتدئ من نفسهِ. ومقصدهُ أَنْ يقيم بيعة جديدة بشريَّة بالكمال في مكان بيعة الله * وهذا هو ما صنع نباطيانس. لانَّهُ قد نُصِب

خلافًا لكلّ قوانين الكنيسة براي قوم عصاة قد هجروا راعيهم الحقيقيّ * ألَا إنّهُ متى ما نُصب اسقف . لا يجوز على الإطلاق أنْ يُنصَب غيرهُ • ومَن حاول أنْ يجعل غيرهُ . فذلك ذنب عظيم • وهو عظيم جدًّا حتى انَّ موت الشهادة نفسهُ لا يمحوهُ • لانهُ لا يكون الاستشهاد حقًّا خارجًا عن الكنيسة . واما المشاقّون فيمكن أنْ يُقتَلوا . ولكن لا يمكن أنْ يكلَّلوا * وكلّ مَن يشقّ جسم المسيح (يعني الكنيسة) فهو نجس غريب عدوّ * ومَن لم تكن الكنيسة امّهُ . فليس الله اباهُ » *

الفصل الثالث والعشرون

في استشهاد قبريانس

وكان قبريانس مواظبًا على الاهتمام برعيّتهِ . اذ قدحت نار الاضطهاد بامر واليريانس الملك * فامر بتَرْنُس عامل افريقية بإحضار قبريانس في محكمتهِ • فلمّا مثل بين يديهِ . قال لهُ « قد امرني الملك أنْ اجعل رعيّتهُ كلّها تتمسَّك بالدين الذي هو ماسكهُ . فعلى ايّ مذهب انت » * قال قبريانس « انا نصرانيّ واسقف . ولا اعرف الاّ الاهًا واحدًا . وهو الذي خلق السماء والارض • فنحن نعبد هذا الاله . ونصلّي وندعو اليهِ للملوك » *

وتعجّب من هذه الشجاعة والحماسة التي لا يطيق عليها طبع بشريّ. وتيقّن أنّ في ذلك قوّة الله *

الفصل الثاني والثلاثون

في القبض على القديس قبريانس ونفيهِ

وفي هذا الاضطهاد ايضًا جاهد قبريانس الشهيد اسقف قرطاجنة[1] * وُلد قبريانس في افريقية. وكان من بيت كريم. وقبل أنْ يتنصّر علّم في حداثتهِ علم البيان والبديع في مدينة قرطاجنة. وشاع اسمهُ * ولمّا توغّل في العمر. اخذ يتعمّق في الفكر. وبعد تمنّع كثير من ارادتهِ صار نصرانيًّا * وكان قبل ذلك يستصعب كثيرًا ترك الديانة الوثنيّة التي وُلد فيها. وكان يحسب امرًا عسيرًا جدًّا أنْ يولد الانسان ثانيةً. ليقضي حيوةً جديدةً ويصير انسانًا آخر وهو حافظ ذلك الجسد عينهُ * فكان يقول « كيف يمكن أنْ تبطل عوائد عتيقة قد صارت بمنزلة طبيعة ثانية. وكيف يسوغ لمن كان معتادًا على الشراهة والتفنّق في اللذّات أنْ

---

(١) كانت هذه مدينة شهيرة في افريقية على الساحل الشرقي من البلاد المسمّاة الآن البربر في خليج تونس * وفتحها العرب ونهبوها سنة ٦٩٢. ولم يبقَ منها اليوم الاّ اطلال زهيدة على بعد نحو عشرين ميلاً عن تونس في شرقيّها الشماليّ *

يصير قنوعًا» * وقال «ولكن لمّا غسلتُ أدران حياتي الماضية بماء الميلاد الثاني. وتنقّى قلبي واتاهُ النور السماويّ. زالت مصاعبي كلّها. وصرتُ استسهل ما كنتُ اظنهُ غير ممكن» *

وقوي في عمل الفضائل. حتى انهُ اختير ليكون قسيسًا بعد عماذهِ بقليل * ولمّا مات اسقف قرطاجنة. طلبتهُ الجماعة بلجاجة ليكون اسقفًا عليهم * واذ سمع قبريانس ذلك. هرب لظنهِ أنّهُ غير مستحقّ لذلك. ولكن كُشف الموضع الذي فيهِ استخفى. والتزم أنْ يسلّم * واظهر في هذه المرتبة الاسقفيّة زيادةً ورونقًا جديدًا في فضائلهِ. وكان ذا رحمة لا حدّ لها للفقرآء. وتفرّغ بجدٍّ شديد لضبط قوانين الكنيسة بين رعيّتهِ وتهذيبهم وإرشادهم *

ولمّا ثار اضطهاد داقيوس. اختفى زمانًا. لانّ عبّاد الاصنام ايّاهُ كانوا يطلبون ليقتلوهُ اكثر من كلّ احد. وصاحوا اكثر من مرّة في الملعب «ادفعوا قبريانس الى السباع. قبريانس الى الأُسود» * وفي خلوتهِ لم يبطل من العمل. بل كان يهتمّ بصلاح جماعتهِ بما كان يكتبهُ لهم من الرسائل وبالوكلآء الذين وضعهم في مكانهِ ليدبّروهم * ولمّا رجع الى كنيستهِ. وجّه همّتهُ نحو بقيّة افريقية *

وحدث شقاق في مدينة رومية * وذلك أنّ نُباطيانس رُسم اسقفًا على كرسيّها اذ كان قرنيليوس الحبر الاعظم حيّا. فلمّا سمع ذلك قبريانس حميت غيرتهُ. فكتب الى نباطيانس يقول «انما

واشرف هولاءَ الشهدآءَ لورنتيوس اوّل شمامسة كنيسة رومية * ذكرت التواريخ انّهُ لمّا كان كسسطس بابا رومية يُساق الى القتل. لحقهُ لورنتيوس وهو يبكي. لانّهُ كان شمّاسهُ وكان هو قد سامهُ. ويقول لهُ «يا ايّها الاب اين انت ذاهب بلا ولدك ٠ يا ايّها الحبر. اين تذهب بلا شمّاسك» * فاجابهُ كسسطس وقال لهُ «يا ابني. قد حُفظ لك جهاد اعظم. وإنّك ستلحقني بعد ثلاثة ايام» * فانبسط قلب لورنتيوس بهذه الكلمات. واستعدّ للجهاد. وبادر في تقسيم كلّ الدراهم التي كانت في يدهِ على الفقرآء. لانّ اموال الكنيسة كان الشمامسة يهتمّون بها في ذلك الزمان * وبلغ رئيس الحكم في رومية أنّ كنيسة النصارى لها مال كثير. فهمّ أنْ يمتلكهُ. فارسل في طلب لورنتيوس الذي كان موكّلاً عليهِ * ولمّا حضر بين يديهِ. قال لهُ «قد تتشكّون يا أيّها النصارى من أنّنا نعاملكم بقلّة الرحمة. ولكن ليس مرادي الآن أنْ اعذّبك * انّما اطلب منك ما هو في مكنتك : قد علمتُ أنّ عندكم آنيةً من فضّة وذهب تستعملونها في قرابينكم ٠ هاتِ هذهِ الآنية. فانّ الملك محتاج اليها ليجهز عسكرهُ بثمنها» * قال لورنتيوس «نعم إنّ كنيستنا غنيّة. والملك نفسهُ ما عندهُ في كنوزهِ مثل الاشيآء الفاخرة التي عندنا ٠ وساريك جانبًا منها. إنْ امهلتني قليلاً لارتّبها» * ولم يفهم رئيس الحكم ما مراد لورنتيوس بالغنى الذي ذكرهُ. فأمهلهُ ثلاثة ايّام *

وفي غضون ذلك طاف لورنتيوس المدينة كلّها . وجمع كلّ الفقرآء الذين كانت الكنيسة تعولهم . ثمّ قصد رئيس الحكم . وقال لهُ «قد حضر كلّ شيء . فهلمّ وانظر» * فتبعهُ الرئيس . ولمّا راى جماعة العميان والعرج والصمّ بدل الآنية الثمينة التي كان يترجاها . نظر الى لورنتيوس شزرًا * فقال لهُ لورنتيوس «ما بالك تحرد . إنّ الذهب ليس هو الاّ معدنًا رذيلاً وهو سبب شرور كثيرة . ولكنّ الذهب الحقّ هو النور الالهيّ الذي ينوّر هولآء الفقرآء . وهذا هو المال الذي وعدتك بهِ» * قال الرئيس «اهكذا سخرتَ بي . قد علمتُ أنّ المسيحيّين يفتخرون بانّهم يزدرون بالمنيّة . فاعلم أنّك لن تموت قريبًا : لاطوّلنّ عليك الاذيّات . فلا تموت الاّ تدريجًا» * وكما قال . شرعوا يمزّقون لحمهُ بالسياط . ثمّ هيّأوا مشواةً من حديد . ووضعوها على جمر نار . وشدّوا لورنتيوس في المشواة بحيث لا تتّصل النار بجسمهِ الاّ قليلاً قليلاً * ولكنّ المحبّة التي كانت تشتعل في قلبهِ . هوّنت عليهِ هذا العذاب . ولم يكن يفتكر الاّ في شريعة الربّ . حتّى كان عذابهُ يتحوّل الى سلوى * وبعد ما تالّم كثيرًا . قال للقاضي بكلّ هدوّ «قد انشوى جسمي كفايةً من هذه الناحية . فاقلبهُ الى الناحية الاخرى» * وبعد برهة قليلة قال «قد انشوى الآن لحمي كلّهُ . فتعالوا كلوا منهُ» * ثمّ رفع طَرْفهُ الى السمآء . وصلّى وطلب من الربّ أنْ يحرس مدينة رومية . واسلم الروح * اسمع

اكلٍّ منها بلا خوف * وماطل القاضي بيون في المسأَلة والاستنطاق ريثما يقدم الوالي الى ازمير. لانّهُ كان غائبًا * ولمّا قدم. أُحضر بيون بين يديهِ. فقال لهُ «انت مصرٌّ على رايك. اما ترجع عمّا انت فيهِ» * قال «لا» * قال الوالي «امهلك زمانًا حتى تشاور نفسك» * قال بيون «لا حاجة الى المهلة. فانّي لا اتغيّرنّ» * فتلا القاضي حكم الوالي. وكان مكتوبًا على لوح. وصورتهُ «نامر على بيون المنافق الذي اعترف بانّهُ مسيحيٌّ بانْ يُحرَق وهو حيٌّ. ليُطَيِّب قلب الآلهة وتعتبر الناس» *

وتوجَّه بيون الى محلّ العذاب مسرورًا ثابتًا • ولمّا بلغ. خلع ثيابهُ بنفسهِ. وتمدَّد على الميل. فسمَّروهُ عليهِ * وقال لهُ الجلّاد «ارجع عن غيّك. ها في يدك زمان • إنْ وعدت ان تعمل ما يُراد منك. قلعنا المسامير عنك» * قال «لا. بل استعجل انْ اموت لأَنبعث حيًّا» * فلمّا لم يستفيدوا شيئًا من القول. رفعوهُ وهو معلّق بالميل. واداروا وجههُ نحو المشرق • وجمعوا حولهُ حطبًا كثيرًا. واطلقوا فيهِ النار * واذ راى الناس عينيهِ مطمومتين. ظنّوا أنّهُ مات • ولكنّهُ كان يصلّي بهدوّ * ولمّا فرغ من صلاتهِ. فتح عينيهِ. واذا لهبات النار ارتفعت في تلك الساعة • فلمّا رآها. قال «آمين. يا ربّ اقبل روحي» * وجرَّ نَفَسًا خفيفًا. ومات * ولمّا أُطفئَت النار. وجد المومنون جسدهُ

صحيحًا كأنّهُ في عافية تامّة. وشعر راسهِ لم يحترق. ولحيتهُ رائقة. ووجههُ صبيح * أَما المسيحيّون فهذا قوّى ايمانهم. واماّ الوثنيّون فرجعوا مرتعبين قلقين بنخسة ضميرهم *

وفي ذلك الزمان كثير من المسيحيّين انفردوا في البراري خوفًا من الاضطهاد. ومن جملتهم بولس الشهير المولود في تيبايس وهي الصعيد من أَعمال مصر. هذا انقطع الى البرّيّة في حداثتهِ. وقضى هناك حياتهُ بعيشة متشبّهة بالملائكة بعيدًا عن مخالطة الانس ورويتهم * وهو محسوب عند العارفين اوّل النسّاك *

الفصل الحادي والثلاثون

في الاضطهاد الثامن الصائر بامر وَارِليانس الملك
وفي استشهاد لورنتيوس الشماس (سنة ٢٥٧)

ثمّ إنّ الاضطهاد بعد أَنْ خمد قليلاً. أُشعل من جديد بامر وَارِلْيانس الملك. وكان هذا الملك مهومًا بحرب. فقال لهُ احد وزرائهِ. وكان يبغض النصارى بغضًا شديدًا «إِنْ اردت أَنْ تنجح في هذه الحرب. فارفع مذهب النصارى من الوسط» * فاعطى الملك اوامر قويّة باضطهاد المسيحيّين. ونال بذلك اكليل الشهادة كثيرٌ منهم *

كنائس يجتمعون فيها للعبادة * ودام اضطهاد مكسميانس ثلاث سنين. ثمَّ بطل بموت مكسميانس اذ خرج عليهِ جندهُ وقتلوهُ *

الفصل الثلاثون

في الاضطهاد السابع الذي امر بهِ داقيوس الملك (سنة ٢٤٩)
وفي استشهاد القديس بيون

الاضطهاد السابع ثار على النصارى بامر داقيوس الملك. واعطى هذا الملك امرًا شديدًا في جميع الولايات بتعذيب المسيحيّين * وامتثل الحكّام هذا الامر بكلّ الجهد والحرص. وكان دابهم أنْ يفتّشوا على النصارى ويخترعوا انواع الاذيّات. ولم يتركوا شيئًا من السجن والسوط والنار والوحوش الضارية والقار المغليّ والشمع المذوّب والسفافيد الحارّة والكلبات المحمّية. وأمَّا الكنيسة فكانت تنتصر بأولادها الذين كانوا يحتملون كل هذه انواع الاذيّات بتجلّد وصبر وشجاعة وسرور * من جملتهم فبيانس الشهيد الذي صار اوّل من ذاق شدّة الاضطهاد. ومنهم الكسندر الشهيد اسقف اورشليم. وكان شيخًا موقّرا * ومنهم بابولا اسقف انطاكية مع الثلاثة الصبيان الذين كان هو يعلّمهم *

ولكن من اشهر الأبطال الأقوياء الذين استشهدوا في اضطهاد داقيوس كان بيون الشهيد قسّيس مدينة ازمير * كان

ومَا هذا القديس يصلّي في بيعتهِ . ففهم بإلهام الاهي أنهُ في الغد يؤسَر • فقام ووضع سلسلةً في عنقهِ . ليفهم مضطهديهِ أنهُ مستعدٌّ للعذاب . وانّهُ اذا اخذوهُ الى احد هياكل الأصنام لم يكن ذلك من ارادتهِ واختيارهِ * وفي الغد جرى الامر كما علم . فانّ احد الشرط جاءَ وقبض عليهِ . وقال لهُ «أمَا تعرف امر الملك» * قال بيون «نحن نعرف انّهُ يوجد امر واحد . وهو أَنْ نعبد الآله الواحد» * قال الشرطيّ «هلمّ الى المحكمة . فترى امر الملك الذي يامر بتقريب الذبائح للآلهة» * ولمّا انطلق . تبعهُ خلقٌ كثير من الوثنيين واليهود * ووعظهم بيون بكلام طويل . وقال في آخر كلامهِ بانّهُ لا يسجد لآلهتهم ولا لتماثيلهم . فحاولوا أَنْ يردّوهُ عن هذا الراي . وقالوا لهُ «اذعن يا رجل . فانّك انسان ذو فضل وتستحقّ أَنْ تحيا • صدّقنا ان الحيوة شيء طيّب» * فقال لهم «امّا الحيوة فهي خير . والمسيحيّ لا يحتقرها . غير اننا نتمنّى حيوة اخرى احسن من هذه بكثير * ثمّ إنّي اشكركم على ما اظهرتم لي من المودّة . ولكن اخاف أَن يكون في ذلك دسيسة • إنّ العداوة المبينة اقلّ ضررًا من المودّة المغشوشة» * ثمّ التفت الى القاضي . وقال «إنْ كنتَ موكّلاً على أَنْ تقنعني او تعاقبني . فعجّل بالعقاب . فانّك لن تقنعني» * واخذ القاضي يسألهُ سوالات شتّى . فاعطى جوابًا

والثاني للموعوظين * ويوكّلون اشخاصاً ينظرون الى تصرّفهم. ليبعدوا الذين لا يسلكون سلوكًا حسنًا . ويهدوا الآخرين الى طريق التقوى * اعتبر كيف كانت سيرة المسيحيّين عجيبة بعد أزمان الرسل بكثير . حتّى أَنَّ العلماءَ الذين كانوا يحامون عن الديانة المسيحيّة كان يسوغ لهم أَنْ يتّخذوا منها برهانًا لتبيين الوهيّة هذه الديانة *

الفصل التاسع والعشرون

في الاضطهاد السادس وهو الذي امر بهِ مكسيمنس الملك (سنة ٢٣٥)

إِنَّ الكنيسة استراحت من عدوان عبّاد الأَصنام مدّة اربع وعشرين سنة . فانَّ الملوك الذين جلسوا بعد سَوِيرس لم يضطهدوا النصارى • ومن جملتهم الكسندر الملك كان مائلاً اليهم . وكان يكرم يسوع المسيح كاحد آلهتهِ . ووضع شخصهُ في معبد كان لهُ في قصرهِ . بل عمد ايضاً أَنْ يامر بنظمهِ رسماً في سلك آلهة الوثنيّين المقبولين عند مشيخة الدولة * وكان مّما يطيب لهذا الملك غاية ما يكون ترديد هذه الآية التي تعلّمها من المسيحيّين . وهي «لا تفعل بغيرك ما لا تريد أَنْ يفعل غيرك بك» • ونقش هذه الآية في قصرهِ • فاذا حكم على احد المجرمين بالقتل . امر

المنادي بأَنْ ينادي بتلك الآية في الشوارع *
واَمَّا مَكْسِمِينس الذي ملك بعد الكسندر. فسلك عكس مسلكهِ . فانَّهُ امر باضطهاد النصارى. اذ كان طبعــا شرس الاخلاق * قيل انَّ واحدًا من الجند صار سببًا لإِنشآء هذا الاضطهاد . وذلك أَنَّ مكسِمينس خلع على الجيش يوم بايعوهُ بالملك كما كانت العادة. وكان كلّ واحد من العسكر يتقدَّم اليهِ وبراسهِ اكليلٌ من آس * فقدم واحد منهم براس مكشوف. وهو حامل اكاليلهُ في يدهِ . فسُئل عن سبب ذلك. فقال «انا نصرانيّ. ولا يجوز لنصراني أَنْ يحمل اكاليلكم». لانَّ ذلك كان نوعًا من عبادة صنميَّة * فامر الملك أَنْ يُنزَع عنهُ لباس الجنديَّة. وطُرح في السجن * وعند ذلك نشّم الاضطهاد وعمَّ . غير أَنَّ الملك لم يامر بالموت الَّا على المقدّمين والروسآء في الكنيسة. لظنّهِ أَنَّ العامّيّين اذا عُدموا مدّبريهم. لا يبعدون أَنْ يتركوا دين المسيح . وكان ايضًا يخاف أَنْ يقلّ عدد الخلق في مملكتهِ اذا ما عمّ القتل جماعة النصارى كلّها. لانَّ المسيحيّين كانوا في المدن والضياع والعسكر والمحكمة وكلّ مكان * فاشتدَّ الاضطهاد على الاساقفة والقسوس. ومن جملتهم بنتيانس بابا رومية وانتاريوس الذي جلس بعدهُ في الكرسيّ الرسوليّ * وذُكر أَنَّ مكسميانس احرق ايضًا بِيَعًا من بيع النصارى. ومن ذلك نفهم أَنَّ المسيحيّين منذ ذلك الزمان كان لهم مواضع اي

الذي تورثهُ مَن يتمسّك بها * فقال «من اعظم ما فعلتهُ كرازة الانجيل تغيير العوائد وإصلاحها . لانّهُ لو كان واحد من الناس يشفي ماية شخص من رذيلة العهارة . لجُعل ذلك لا محالة شيئاً الاهيّاً . فماذا نقول عن هذه الجماهير الكثيرة التي تنصَّرت . وبتنصّرها تغيّرت أَحوالها وتمسّكت بالعفافة والطهارة . وذلك في جميع نواحي المملكة * إِنَّ تعاليم المسيحيّين ترفعهم على جميع الذين ما هم مسيحيّين . أَمَّا المسيحيّ فيقهر اهوآءهُ كلّها مهما كانت قويَّة بنيَّة أَنْ يرضي الله . وامَّا الوثنيّون فيتمرّغون في كلّ نوع من الفحشآء بلا حيآء . وفي وسط عهارتهم يدّعون لأَنفسهم بأَنّهم اناس مستورون كريمون * والحاصل أَنَّ النصرانيّ مهما كان قليل العلم والدراسة هو اعلم واحكم بفضيلة العفّة وشرفها من الفلاسفة والراهبات والكهنة الفائقين بين الوثنيّين * وليس بين المسيحيّين مَن يقبل أَنْ يتدنَّس بهذه القبائح . وإِنْ وُجد احد . فليس هو من عدد الذين يحضرون محافلنا . بل ليس هو نصرانيّاً» * وذلك كان من عادة المسيحيّين في ذلك الزمان أَنْ يحجزوا عن الكنيسة على كلّ مَن يرتكب خطأً ولاسيّما ما يشين فضيلة العفّة . وكان هولآء الخطاة يُحسَبون كالمائتين من الله . وكانوا اذا رجعوا تُوضَع عليهم قوانين للتوبة اكثر ممَّا كان يُوضَع على الطالبين أَنْ يعتمدوا . وكان يمنَعون من أَنْ يتقلّدوا في الكنيسة وظائف تخصّ الجمهور *

وقال اوريجنيس «واما طاعة النصارى لحكامهم فامر مشهور: إنهم بعيدون من أنْ يثيروا الشغب والفتنة. حتى أنهم كما امرهم صاحب شريعتهم لا يجوز لهم أنْ يدفعوا عن انفسهم شرّ اعدائهم الّا بالصبر * والمسيح اوصاهم أنْ يتركوا لأعدائهم أنْ يذبحوهم مثل الغنم[1] احرى من أنْ يقاوموهم بالقوّة * إنّ الله هو الذي يتقلّد اعانتهم ونصرهم. وبحلمهم هذا ينتفعون اكثر ممّا بالمقاومة. وناهيكم أنّ اعداءهم مهما عملوا لإفنائهم. لم ينتفعوا شيئًا. ودم الشهداء الذين قُتلوا منهم انمّا زادهم كثرةً * ونرى الآن بين الذين يومنون بايماننا كثيرًا من الاغنياء واهل المراتب والنساء الشريفات. فكأنّ الانذار بمذهبنا هو الآن من الافتخار. غير أنّ هذا الظنّ لم يكن له محلّ في البدء. واما الآن فإنْ كان البعض منّا في كرامة وزهو. فليس ذلك يكافئنا عن الهوان والعار الذي يصيبنا من الوثنيين» *

ثمّ اخذ يشرح أنّ النصارى ولو كانوا يحبّون بحرص جزيل أن يجذبوا الغير المومنين الى مذهبهم. لا يمتنعون على كلّ حال من أنْ يمتحنوا الذين يقصدونهم. بل يمرّنونهم بمواعظ وإرشادات قبل أنْ يقبلوهم في محفلهم. فاذا راوا فيهم سيماء الصدق والخلوص. فحينئذٍ يدخلونهم في الكنيسة. ويجعلونهم صنفين. الأوّل للمبتدئين

(١) اذ قال في متى: ها انا مرسلكم كالخراف بين الذئاب *

يمكن إنكار قدمها على ما بيّنهُ يوسيفوس اليهوديّ وطاطيانس
الفيلسوف اللذان شهادتهما لها اعتبار عظيم» * واورد اوريجنيس
بعد ذلك النبوّات التي تكلّمت جليًّا عن ميلاد المسيح وآلامهِ
وموتهِ وكلّ متعلّقات مجيئهِ ٠ وذكر أنّ اليهود منذ جاء المسيح ليس
عندهم انبياء ولا آيات ولا علامة من علامات العون الالهيّ. بخلاف
ما عند المسيحيّين * ومن حيث إنّ كلسوس لم يكن ينكر آيات
المسيح. بل كان ينسبها الى السحر. اخذ اوريجنيس يبيّن أنّهُ يوجد
طريقة امينة لتمييز أعمال الشيطان من الكرامات الحقيقيّة التي يصنعها
الله. وهذه الطريقة هي أنْ نعتبر سيرة الذين يعملون هذهِ الأعمال
ومذهبهم والعواقب الحاصلة من تلك الآيات * وامّا موسى
والانبياء ويسوع وتلاميذهُ فما علّموا شيئًا الاَّ وهو لائق بالله وموافق
للعقل السليم ونافع لتهذيب أخلاق الناس وإصلاح امورهم
الدنيويّة. وعملوا هم بما علّموا قبل الجميع. وحصل من ذلك عاقبة
حميدة عظيمة دائمة ٠ فانَّ موسى نصب امّةً كبيرة ومشاها على
شرائع طاهرة. ويسوع المسيح جمع كلّ الامم الى معرفة الاله الحقّ
والى العمل بجميع الفضائل * أمَّا المكّارون والمضلّون فليس مرادهم
أنْ يصلحوا أحوال الناس. وصنائعهم عاقبتها لا تدوم *

ولنا في قيامة المسيح برهانٌ جليلٌ ٠ فانَّ هذه القيامة اعجوبة
عظيمة. وهي اساس الديانة. ولا يمكن أنْ يُظَنّ فيها ادنى مكر ٠

لانَّ المسيح مات علانيةً على الصليب بمحضر كلّ اليهود * وبعد ما دُفن . ومكث ثلاثة ايَّام في قبر مختوم يحرسهُ جند . ظهر مدَّة اربعين يوماً لبطرس وللتلاميذ الاثني عشر وللخمسماية تلميذٍ جملةً * فلو لم يروهُ قد قام ولو لم يتحقّقوا الوهيتهُ . لما اسلموا نفسهم الى الموت لينذروا حسب امرهِ في كلّ مكان بالتعليم الذي تعلّموهُ منهُ • واذ راوهُ مات بذلك العار العظيم . لو لم يتاكّد عندهم أنّهُ الاه • لرفعوا من عقلهم ذلك الظنّ الذي ظنّوهُ فيهِ . اذ يرون أنّهم قد خُدعوا . ولحكموا بزورهِ قبل كلّ احد * فلو لم يروا فيهِ شيئاً عجيباً . لما قبلوا آرآءهُ ولا انذروا بها غيرهم بمشقّات كثيرة واسر وخطر الموت * وكيف امكن قوماً جاهلين اميّين أَنْ يتكلّفوا تغيير العالم كلّهِ . لو لم تأيّدهم قوّة الاهيَّة • وكيف امكن الأَقوام المختلفة والامم المتفرّقة أَنْ تقبل قولهم وتترك عوائدها القديمة وتتبع مذهباً جديداً مخالفاً لأَهوائها . لو لم تؤثّر فيها قوّة خارقة العادة وأَعمال باهرة » *

الفصل الثامن والعشرون

في تمامة احتجاج اوريجنيس

ثمّ اخذ اوريجنيس يبيّن الوهيّة الديانة المسيحيّة من التغيير

من الشباب والعلماء والحكماء من المسيحيّين والوثنيّين منجذبين من لطافة اخلاقهِ واتّساع علمهِ * وادخل كثيرين من تلاميذهِ في دين المسيح. ومنهم طلع قديسون جليلون وشهداء نبيلون * وكان يراقب كثيرًا تلاميذهُ الذين يُؤسَرون لاجل الايمان. ويكثر من زيارتهم في محابسهم. ويرافقهم الى المرافعة في بيت الحكم بل الى موضع القتل. وكان يحثّهم ويشجّعهم بالاشارات. بل ربّما بالكلام الملتهب بالشوق حتّى خاطر بحياتهِ اكثر من مرّة * وقُبض عليهِ يومًا وكُبِّل بالأَغلال. وطُرح في اردأ المحابس. وأُطيل عليهِ الامر طمعًا في قهر ارادتهِ وإِملالهِ وردّ المسيحيّين بمثالهِ عن دينهم. وعُذِّب بالجوع والعطش والعري. وفي كلّ ذلك لم يتزعزع صبرهُ * وكانت عيشتهُ القشفيَّة قد سهَّلت عليهِ احتمال العاهات. وكان يصوم اغلب الايَّام. ويسهر الليالي في الصلوة ودرس الكتب المقدَّسة. واذا دعتهُ الطبيعة الى النوم. رقد على الارض * وكان عقلهُ خارقًا يتعجَّب منهُ كلّ احد. ولم يكن علمٌ الاَّ وامتلكهُ. ومع كثرة هذه العلوم لم تلتبس عليهِ الامور. فكانت عبارتهُ سديدة واقعة بحيث تفهم اصعب الاشياء. وكان يتكلّم بسلاسة حتّى كان يشوّق القلوب ويرغّبها في الحقائق التي كان يعلّمها *

الفصل السابع والعشرون

في مصنّفات اوريجنيس

إنَّ اوريجنيس ألّف كتباً كثيرة. واشهرها كتاب ألّفهُ ردّاً على كلسوس الفيلسوف الذي كتب كتاباً في عهد طرايانس الملك ضدّ الديانة المسيحيَّة * وهذا كتاب اوريجنيس محسوب عند الجمهور اجلّ ما كُتب في الزمان القديم لمحاماة الديانة المسيحيَّة * قال اوريجنيس في هذا الكتاب «لقد كان الاولى بنا أَنْ نقتدي بيسوع المسيح. الذي كان يسكت امام القضاة ولا يردّ الاكاذيب التي بها كان اعداؤُهُ يفترون عليهِ الّاَ بقداسة سيرتهِ وغرَّة آياتهِ. فيمكن أَنْ يقال انَّهُ لا حاجة الى الردّ على البهتانات التي لا يزال الناس بخبثهم يشيعّونها عليهِ. لانَّهُ يبرّئُ نفسهُ بفضائل تلاميذهِ المحقّين ويبدّد كلّ الاكاذيب بمحاسنهم. فلستُ اكتب كتابي هذا للمومنين الحقيقيّين. لانّهم لا يحتاجون الى كتاب تبرئة. بل اكتب للغير المومنين الذين ربّما يستفيدون من هذا الشرح» * ثمَّ اخذ يفنّد اكاذيب كلسوس التي بها شنّع على صحّة الديانة المسيحيَّة. ويبيّن كذبها ببراهين لا يمكن ردّها. وهي النبوّات التي قيلت في المسيح وآياتهُ وفضائل تلاميذهِ * قال «أَمّا النبوّات فيجب تصديقها. لانَّ كُتب اليهودِ تستحقّ التصديق مثل كتب سائر الامم. ولا

وسقط مائتًا *

وعند نهاية اللعب. طلبت الجماعة أَنْ يُؤتَى ببقيّة الشهداء الى وسط الملعب لياخذوا ضربة الموت. فجاءوا من تلقاء نفسهم. واعطوا نفسهم ليُذبَحوا من دون ادنى حركة * وأمّا برباتوه فوقعت بيد سيّاف قليل المروءة. فضناها زمانًا. فتناولت السيف بيدها. ومشّتهُ على حلقها. وقالت للسيّاف «هنا اغمس سيفك» *

لعمري، إنَّ هذه الحماسة العجيبة التي ابدتها برباتوه لا يمكن أنْ تاتي من الطبيعة. ولا شكّ أنّها صارت بقوّة الاهيّة *

الفصل السادس والعشرون

في وصف اوريجنيس

في ذلك الزمان اشتهر اوريجنيس. وهو احد مشاهير آباء الكنيسة * وُلد اوريجنيس في مدينة اسكندرية سنة ١٨٥ للمسيح. ومات في مدينة صور سنة ٢٥٤ *

كان اوريجنيس ابن ليونِداس الشهيد الذي جاهد عن الايمان بالعذابات في مدينة اسكندريّة باضطهاد سَويرس الملك. وكان ابوهُ قد احسن تربيتهُ. وعلّمهُ الادب والعلوم وروّضهُ في درس الكتب المقدّسة. وكان كلّ يوم يلقّنهُ منها بعض آيات *

كان اوريجنيس يتفرَّغ لهذا الدرس بكلّ حرص . حتى كان ابوهُ يتعجَّب من ذكاوة عقلهِ واكثر من ذلك من البركة التي افاضها الله عليهِ * وربّما جاءَهُ وهو نائمٌ . وكشف صدرهُ . وقبلهُ باحترام من حيث هو هيكل روح القدس *

ولمّا ثار الاضطهاد . اشتاق اوريجنيس أنْ يموت شهيدًا . ولو لم تصدّهُ امّهُ بالدموع والتضرّعات . اسلم نفسهُ بيدهِ * ولمّا قُبض على ابيهِ من سبب الايمان . اشتدَّ فيهِ العزم . فاضطرَّ اهلهُ أنْ يخفوا عنهُ ثيابهُ . ليمنعوهُ من أنْ يلحق بابيهِ * فكتب الى ابيهِ يقول «يا ابتِ لا تهتمّ باولادك . فانَّ الله يعولنا» * وحُزَّ راس ليونِداس بالسيف . وأُخذ مالهُ . وحصل عيالهُ في الفاقة . ولكنَّ اوريجنيس وجد ملجأً في بيت امراة غنيّة *

وبعد زمان يسير فتح مدرسة . وصار يعلّم علم النحو . ليتعيَّش ويزاول عن نفسهِ بدون كلفة غيرهِ * وبعد ذلك نُصِب اوّل معلّم في مدرسة اسكندريَّة الشهيرة في الدنيا كلّها . وكان قبلهُ في ذلك المقام القدّيس اقليميس الاسكندريّ * وباع جميع كتبهِ الغير الدينية . لينقطع لدرس الكتاب المقدَّس فقط ويعتاش بثمنها . لانّهُ كان يدرّس مجّانًا . ولم يخصّص لنفسهِ من ذلك الاَّ نصف درهم في اليوم لمعاشهِ . لانَّ عيشتهُ كانت قشفيّة * ومع هذا فكان حليمًا لطيفًا جذَّابًا للقلوب . وكانت الناس تتقاطر اليهِ افواجًا افواجًا

«إِنْ كنتِ الآن تصيحين هكذا . فماذا يكون من امركِ اذا ما مزّقتكِ الوحوش» * فقالت لهُ سعدى «امَّا الآن فانا اتوجَّع . وامَّا في تلك الساعة فغيري يتوجَّع عوضي . وهو الذي انا اتعذَّب عوضهُ» * ووضعت سعدى جاريةً . ودفعتها الى امراة مسيحيَّة لتربّيها * ثمَّ إِنَّ حارس السجن لمّا راى العون الذي كان الله يمدّنا بهِ . صار يعتني بنا . ويترك لزائرينا أَنْ يدخلوا عندنا * وقبل أَنْ نُدفَع الى الوحوش بايَّام قليلة . دخل عليَّ ابي بنيَّة أَنْ يعالج معي آخِرِ علاج . وكان من جراي في سوء حال لا يُوصَف ولا يُعبَّر عنهُ بلسان . فكان ينتف لحيتهُ . ويتمرَّغ على الارض . ويلبث منضجعًا على وجههِ . ويصرخ ويعجّ ويلعن شيخوختهُ * وانا فكان قلبي ينفطر عليهِ . ولكنَّ الله قوَّاني لاصبر على هذه التجربة الى النهاية» *

هذا ما اقتصّتهُ برباتوه . وامَّا الباقي فرواهُ واحد كان شاهدًا للواقعة *

الفصل الخامس والعشرون

في العذابات التي بها عُذّبت الشهيدتان

ولمّا حان يوم الملاعب الوحشيّة أُخرجت الشهيدتان من السجن مع رفاقها ليذهبوا الى الملعب وهو الامفيثيترون المذكور

سابقًا . وكان الفرح والبهجة والبِشر والطلاقة تلمع وتضيء في وجوههم وعيونهم وحركاتهم وكلامهم * وكانت برباتوه تمشي في الآخِر. وهي هادئةٌ في قلبها وفي مشيتها وهيئتها . وكانت تطرق بعينيها الى الارض لتردَّ بهاءَها عن عيون الناظرين * وكذلك سعدى ايضًا كانت مسرورة لانّها قد قضت ايّام نفاسها بحيث تقدر أَنْ تموت مع رفاقها * أَمّا الرجال ومن جملتهم سَتُور اخو برباتوه فسلّموهم اوّلاً الى الوحوش. فغار عليهم فهد . ثمّ دبّ . ومزّقهم ايَّ ممزّق . ثمّ بطش بهم خنزير وحشيّ *

واما الشهيدتان برباتوه وسعدى . فطُرحتا الى بقرة هائجة . فبطشت البقرة ببرباتوه . ورشقتها واوقعتها على ظهرها . فنهضت برباتوه . ورتّبت شعرها وضفرتهُ . ولمّا رات سعدى مستلقيةً على الرمل وهي مهشَّمة ومجرّحة . لانَّ البقرة بطشت بها ايضًا . مدّت يدها اليها . واعانتها لتنهض * ثمَّ قالت برباتوه « ومتى تبطش بنا هذه البقرة » فقيل لها « أَمَا ترين من ثيابكِ وجروحكِ ما صنعت بكِ البقرة » *

ثمَّ إِنَّ سَتُور اخا برباتوه عُرض ثالثةً الى الوحوش . فغار عليهِ فهد ونشب فيهِ أنيابهُ . فسال منهُ دمٌ غزير حتّى غمرهُ * فصاح الناس « ها قد تعمّذ ثانيةً » * وطلب ستور من الحارس خاتمهُ . فاخذهُ وغمسهُ في دمهِ . وردّهُ اليهِ عربونًا لايمانهِ وصداقتهِ .

راعٍ . وحولهُ اشخاص كثير لابسون ثياباً بيضاً * وقال لي الشيخ ببشاشة « مرحباً بكِ يا بنتي » . ووضع في فمي طعاماً لذيذاً . فضممتُ يديَّ وتناولتهُ * وقالت الجماعة كلّها « آمين » * وعند ذلك استيقظتُ . واذا في فمي شيءٌ حلو لا يُوصَف * وفي الغد حكيتُ هذا الحلم لاخي . وعبّرناهُ بأننا كنّا قريبين انْ نموت للشهادة . واخذنا نزهد في كلّ ما في الدنيا . ونلتمس كلّ ما هو في الآخرة » *

الفصل الرابع والعشرون

في محاكمة الشهيدتين القدّيستين

قالت بربَاتوه « وبعد أيّام شاع الخبر باننا عن قريب يوقفوننا ويحاكموننا * فاتى ابي ثانيةً الى السجن وهو في غاية الحزن . وقال لي « يا بنتي ارحمي شيبتي . اشفقي على ابيكِ * الستُ انا الذي ربّاكِ بجزيل الهمّة . وقد فضّلتكِ على سائر اولادي كلّهم . فلا تسوّدي وجهي * اذكري امّكِ . اشفقي على طفلكِ الذي لا يقدر أنْ يعيش بدونكِ . دعي هذا العناد الذي يكون سبباً لهلاك جميعنا » * وكان في قولهِ ذلك يمسك يديَّ ويقبّلها ويبلّها بدموعهِ * واحترق قلبي عليهِ . لانهُ بين اهلي كلّهم

كان هو وحدهُ يحزن عليَّ * وقلت لهُ «اذا اوقفوني وحاكموني. فسيحدث ما يريدهُ الله. لاننا لسنا في قدرتنا بل في قدرتهِ» * وانصرف عنّي *

وفي الغد بينما نحن نتغدّى. جآءُوا لياخذونا ويوقفونا امام الحاكم * وسمع اهل المدينة كلهم. وخرج جمٌّ غفير الى ساحة المحكمة * وصعدوا بنا الى موضع الحكم. واخذوا يحاكمونني. واذا بأبي لاحَ وهو حامل طفلي. واخذني الى ناحية. وصار يلحّ بي ويتوسّل اليَّ لارتدّ عن رايي. وجعل القاضي ايضاً يقول لي «اشفقي على شيبة ابيكِ وعلى صغر ولدكِ. وتعالي قرّبي قرابين إكرامًا للملك» * فقلتُ لهُ «لا اقرّبنَّ» * قال «افانتِ مسيحيّة». قلتُ «نعم» * واذ كان ابي يجتهد ليخرجني من بيت الحكم. امر القاضي أنْ يخرجوهُ. واقبل واحد ولطمهُ على وجههِ. فتألّمتُ من ذلك جدًّا كأنّني انا لُطِمتُ. وتمزّق قلبي اذ رايتُ ابي يصيبهُ الهوان في شيخوختهِ * ثمَّ إنّ القاضي حكم علينا بأَنْ نُدفَع الى الوحوش. ورجعنا الى السجن فارحين مسرورين * ولكنّ فرحنا تنغّص لسبب سعدى. لانّها كانت في الشهر الثامن من حبلها. وكانت تخاف أَنْ يعوّق استشهادها. ولذلك اخذنا جميعاً نصلّي ونتضرّع الى الله. ليوفّق وضعها قبل يوم الجهاد * ولمّا فرغوا من الصلوة. اخذ سعدى الطلق. وصارت تتمخّض كثيرًا وتصيح * فقال لها احد النواطير

ومعهم فتاتان . اسم احداهما بَرْباتوة اي عائشة واسم الاخرى فَليقتاس اي سعدى * وكانت بَرْباتوة من بيوت الأشراف . وكان لها ولد رضيع . واماَّ سعدى فكانت حاملاً * وقصّة جهادهما كتبتها برباتوة نفسها : قالت « لمّا قبضوا علينا . امسكونا زماناً يسيرًا قبل أَنْ يلقونا في السجن * ولمّا سمع ابي . وكان وحدهُ دون اهل بيتي كلّهم غير نصرانيّ . اسرع ليصدّني عن رايي . وشرع يلحّ بي أَن لا اقرّ بانّي نصرانيَّة . فاريتهُ اناءً كان هناك . وقلتُ لهُ « يا ابتِ هل يمكن أَنْ يُسَمَّى هذا الاناءَ بغير الاسم الذي يليق لهُ — قال : لا — قلتُ : وكذلك انا لا يمكن أَنْ اسمَّى باسم آخر » * فوثب ابي . وصال عليَّ كانّهُ يريد أَنْ يقلع عينيَّ ، ثمَّ تركني . وانصرف كانَّهُ متندّم على ما صنع . وبقيتُ في راحةٍ مهلةً من الزمان * وفي اثناءَ ذلك تعمّدنا انا ورفيقتي . والهمني روح القدس أَنْ لا اطلب شيئاً سوى الثبات على العذابات * وبعد قليل من الزمان طرحونا في السجن . وسقط قلبي عند ما دخلنا . لانّي ما كنتُ قد رايتُ قطّ سجنًا قبل ذلك ، وكان عليّ يومًا ثقيلاً كسيفًا . لانَّ الحرّ كان شديدًا . وكنّا نكاد نختنق من الزحمة . والجند الذين ينطروننا كانوا بلا رحمة وبلا مروءة * ولكن ما كان يحزنني اكثر من كلّ شيءٍ هو أَنَّ ولدي لم يكن عندي . وبعد زمان اتوني بهِ * ثمَّ إنَّ شمَّاسين نالت يدهما بدراهم . فحوَّلونا الى موضع اقلّ رداوة من

ذلك مدّة ساعات * وكان كلّ واحد يفتكر في ما يهمّهُ. امّا انا فما كان يهمّني الاّ أن ارضع ولدي اذ كان يموت من جوعهِ. ولمّا جاءت امّي لتفتقدني. اوصيتها بهِ واسترحمتها عليهِ * وكنتُ مغمومة جدًّا اذ كنتُ ارى قومي حزانى عليَّ. وبقيتُ في هذا الغمّ اياماً. ثمَّ سلوتُ عنهُ. لا بل إنَّ السجن نفسهُ صار يطيب لي * وقال لي اخي يوماً «انتِ لكِ وجه كبير عند الله. فاطلبي اليهِ أَنْ يعلمكِ اسينتهي امركِ بالموت ام يطلقونكِ» * ومن حيث إنّي كنتُ قد اختبرتُ جودة الله. وعدتُ اخي بانْ اعلمهُ ذلك في الغد * فاخذتُ اصلّي. واذا سلّم من ذهب مرتفعة الى السماء. ضيّقةٌ حتى انهُ ما كان يقدر ان يرتقيها الاّ واحد بالنوبة. ومزينّة في جانبيها بسيوف وخناجر ورماح. حتى كان مَن لا يحتفظ في طلوعهِ ولا ينظر الى فوق فلا بدَّ من ان يجرَّح في كلّ جسمهِ * وكان في لحف السلَّم تنّين عظيم هائل. مستعدٌّ ليهجم على كلّ مَن يرتقي * وطلع اخي السلّم. وقال لي من اعلى السلَّم «انا انتظركِ يا برباتوه. ولكن احذري التنّين» * قلتُ لهُ «لن يضرّني. لانّي متكلّة على ربّنا القدير» * ولمّا دنوتُ. حوّل التنّين راسهُ على مهل كانّهُ خائف منّي. فوضعتُ رجلي على راسهِ. وجعلتهُ اوّل درجة للارتقاء * ولمّا بلغتُ راس السلَّم. رايتُ جنّةً واسعة فسيحة. وفي وسطها رجل ذو حرمة بهيئة

الفصل الثاني والعشرون

في الاضطهاد الخامس واستشهاد القديس ايرناوس (سنة ٢٠٢)

وبعدما مات الملك مرقس اوراليس. استراحت الكنيسة برهةً من الزمان * والذي تخلّف بعدهُ وهو سَوِيرُس قيصر عامل النصارى في الاوّل بالمروءة. حتّى قيل أَنهُ مال اليهم. ولكنّهُ اظهر بعد ذلك انهُ لم يتركهم يكثرون عدداً الاَّ ايزيد عدد الذين يقتلهم منهم * لانّهُ في السنة العاشرة من حكمهِ نشر امراً قويّاً باضطهاد النصارى. وأُجري هذا الامر في العمل اجراءً مخوفاً بلا رحمة. حتى انّ العامّة ظنّوا ان الدجّال قد قرب زمان مجيئهِ * وبدأَ الاضطهاد في بلاد مصر. وهلك بهِ خلق كثير. ثمّ امتدّ الى بلاد غاليا (التي هي فرنسا في ايّامنا هذه) وفيهِ بلا شكّ استشهد القدّيس ايرناوس اسقف مدينة لُغْدون او ليون *

كان ايرناوس تلميذ فلوقرفس اسقف ازمير. ومنهُ تعلّم الحكمة التي جعلتهُ احد معلّمي الكنيسة وملافنتها * وحكى ايرناوس عن نفسهِ. وقال « كنتُ اسمع تعاليمهُ وارشاداتهِ بكل إِصغاءٍ. وكنتُ ارسمها في اقصى صميم قلبي لا في الأَلواح * وانا حافظ ببالي ذكر هيبتهِ ورزانتهِ وبهاء وجههِ وطهارة سيرتهِ والمواعظ

القدسيّة التي بها كان يعظ الناس ۰ وكانّي اسمعهُ يحكي كيف جالَس يوحنا الرسول وغيرهُ من الذين كانوا قد شاهدوا يسوع. والكلمات التي سمعها منهم . والروايات التي رووهُ ايّاها عن اعاجيب المخلّص الالهي وتعليمهِ ۰ وكل ما رواهُ موافقٌ للكتب الالهيَة » *

وصار ايرناوس اسقفًا على مدينة ليون بعد بوثين . وكان مزينًا بكلّ الخلال المحبوبة الممدوحة . وبها زيّن كنيسة ليون * قيل انّ الملك سويرس اذ رأى أنَّ المسيحيّين يكثرون في تلك المدينة بهمّة راعيها . امر جندهُ ان يحتاطوا المدينة ويقتلوا كل مَن يقرّ بانّهُ نصراني * وأُخذ ايرناوس الى قدّام الملك الظالم . فامر بقتلهِ * وذكر المؤرّخون القدماء أنّ قتل النصارى في هذه المدينة امتدّ وعمّ وكثر . حتّى انّ دماءهم كانت تجري في الشوارع كمثل السيول *

الفصل الثالث والعشرون

في استشهاد برباتوة اي عائشة وفليقتاس اي سعدى

واشتدَّ ايضًا الاضطهاد في مدينة قرطاجنة التي في افريقية ۰ ومن جملة الذين قُبض عليهم في هذه المدينة اربعة شباب نصارى .

عدداً . نحن معشر الذين لا يخافون الموت . لو لم يكن مذهبنا يامرنا أَنْ نحتمل الموت لا أَنْ نذيقهُ احداً * ولو اردنا أَنْ ناخذ ثارنا . لكفانا أَنْ تهجركم ونخرج من مملكتكم. فيوحشكم إقفاركم» *

ثمّ اخذ يبيّن أَنَّ اجتماعات المسيحيّين لم يكن فيها غرض تحزّب او فتنة . وقال «إِنّما ننضمّ كلّنا الى محلّ واحد . لانّنا اهل دين واحد وسيرة واحدة ورجآء واحد • ونجتمع لنصلّي ونتضرّع الى الله معاً . كأَننا نلزمهُ بلجاجتنا أَنْ يستجيب طلباتنا • وهذه اللجاجة مستحبّة عندهُ * وأَمّا الذين يقومون براسنا في محافلنا فهم رجال قسوس اي مشايخ ذوو فضل مجرَّب . لم ينالوا هذه الكرامة بالفضَّة . بل بشهادة سيرتهم . لانهُ في بيعة الله لا يصير شيءٌ بالفضّة * وإِن كان عندنا نوع من المال . فلا يشين الديانة . لانّ كلّ واحدٍ منّا يؤدّي فيهِ ما يحبّ . ولا يُغصَب احد أَنْ يعطي • وما يُجمَع هكذا . يبقى وديعةً محرَّمة . لا ننفقها في الولائم والملاهي . بل نحفظها لعول الأَيتام وسدّ فاقة الفقرآء والمحتاجين * والعجب كلّ العجب أَنّ هذه الرحمة جُعلت عند قوم سبباً لملامتنا . اذ يقولون «واعجباه كيف هولآء الناس يحبّون بعضهم بعضاً . ولا يبعدون أَن يموتوا بعضهم عن بعض» * إِنّما يستغربون اتّفاقنا لانّهم يبغضون بعضهم بعضاً • وامّا نحن فمن حيث انّنا لنا قلبٌ واحد وفكر واحد كلّنا . فلا يصعب علينا

أن نتشارك بعضنا مع بعض في أموالنا. ولا عجب أنّ هذه مصاحبتنا الاخويّة تفضي بنا الى المجالسة والمؤاكلة. لانّ هذه الولائم التي فيها نؤاكل بعضنا بعضاً تُسمّى أغابة اي محبّة. وفيها يجلس الفقرآء والاغنياء سوآء. وينقضي كل شيء فيها بالادب والستر* وقبل أن نجلس على المائدة نصلّي. ونحضرها متفكّرين أنّ الله حاضرٌ معنا. وينتهي الطعام كما بدأ اي بالصلوة» * تأمّل كيف كانت سيرة المسيحيّين في ذلك الزمان. وكيف كانوا يجتمعون *

قال «وكيف يقول أعدآؤنا عنّا انّنا لا نصلح لمخالطة البشر وللعيشة الجمهوريّة: ألسنا نعيش معكم. ونأكل من أكلكم. ونلبس لباسكم. شاكرين مُوتي هذه الاشيآء. ونسافر في البحار معكم. ونفلح الارض. ونتقلّد الاسلحة. ونتاجر معكم * وفي ايّ شيء نستحقّ الموت * قولوا يا أيُّها القضاة الذين يسوقون دعاوي المجرمين. قولوا هل بين المجرمين الذين تحاكمونهم نصرانيٌّ واحد. ودفاتركم تشهد انهُ بين عاملي السوء الذين يُدفَعون كلّ يوم الى العقوبة. لا يوجد واحد من النصارى * فتجنُّب الشرّ هو فرض علينا وواجب. وقد تعلّمناهُ من الله الذي هو ربٌّ كامل. ونحافظ عليهِ بكلّ حرص. اذ قد نهانا عن الشرّ القاضي الذي لا يمكن أنْ ينغشّ» * اعتبر كيف كانت سيرة المسيحيّين في القرن الثالث *

لانَّهم اذا حصلوا في ضيق . يصيحون « يا الله العظيم . يا الله الكريم ». وهذه شهادة نفس مسيحيَّة طبعًا * وهذا المعبود المتعالي قد حرَّك في كلّ الازمان الانبياءَ الذين اقامهم وملأهم من روحهِ. ليشهدوا لهُ بأقوالهم وكتبهم * وهذه الكتب خالية من كلّ غشّ. لانَّها موجودة في ايدي أعدائنا . وهم اليهود الذين يقرأُونها عندما يجتمعون في كنائسهم * ولا يمكن معارضة قدميّة هذه الكتب . لانّهُ من الامور المؤكَّدة أَنَّ موسى اوَّل كتّابها عاش قبلما ذُكر اسم اليونان والروم بزمان كثير. حتَّى أَنَّ آخرِ الانبياءَ هو اقدم من اقدم المؤرّخين والشارعين الذين صاروا عندكم * وتمام هذه النبوّات بالفعل دليلٌ واضح على أَنَّها الاهيَّة. وتوكّد لنا تمام باقي النبوّات في الزمان المستقبل * فانَّ الكتب قد اخبرت بالنكبات الملمَّة براس اليهود . وهذه نراها الآن بعيوننا واقعةً بالتمام * كان الله قد احسن اليهم جزاءً لبرّ آبائهم . ولم يزل يشملهم برحمتهِ الى أَنْ استحقّوا أَنْ يهملهم * وعند ما يتامَّل الانسان في حال الشقاءَ الذي حصلوا عليهِ اذ طُردوا من مواطنهم وتاهوا في العالم كلّهِ بلا شريعة ولا حكَّام ولا مقرّ. لا يمكن أَنْ لا يرى هناك انتقام الله * وتلك النبوّات التي اخبرت عن هذه البلايا والشرور. اخبرت ايضًا أَنَّ الله يختار لهُ في جميع الامم وفي كلّ الاماكن عابدين امينين يمدّهم بنعمتهِ بجاه فضل مَن كان عبدًا أَنْ يكون قائدهم ومولاهم » *

وهاهنا اخذ ترتليانس يتكلّم عن المسيح وعن سرّ تجسّدهِ. وبيّن الوهيتهُ من الانبياء ومن عجائبهِ ومن قيامتهِ. وذكر أَنَّ قيامة المسيح حيرت الوثنيّين نفسهم وادهشتهم. حتى أَنَّ بيلاطس ارسل اخبر بها طيباريوس قيصر الملك. وأَنَّ صك هذا الخبر حُفظ في خزانة المملكة في رومية. وأَنَّ طيباريوس لو امكنهُ أَنْ يقرن الملكيَّة مع المسيحيَّة لصار مسيحيًّا *

وبعدما برهن ترتليانس هكذا على صحّة الديانة المسيحيّة. اخذ يردّ على الاكاذيب التي بها الوثنيّون كانوا يفترون على النصارى * قال «يشكوننا أَننا لا نكرم القياصرة بالذبائح والقرابين: نعم إِنّنا لا نقرّب قرابين للملوك. ولكنّا ندعو لهم ونصلّي في سلامتهم الى الاله الازلي الذي هو وحدهُ حقّ ٭ نكرمهم. ولكنّا لا نسمّيهم آلهة. لاننّا لا نعرف أَنْ نكذب * وفي كلّ حال فانّ صدقنا امر لا يمسّهُ شكّ. والدليل الواضح هو تجلّدنا على الاذيّات التي نلاقيها. اذ يرجموننا بالحجارة. ويحرقون بيوتنا. وفي مواسمهم العباديّة ينبشون على امواتنا ويقطّعونها * وفي كل ذلك العلّنا قد صنعنا شيئًا ٭ ولو اردنا انْ نقيم الحرب. أَمَا عندنا قوّة وعسكر * نشأنا امس . وها قد امتلأَت منّا مدنكم وقراكم وضياعكم وحقولكم وقصر الملك والمشيخة الملكيّة والمحكمة. وما ابقينا لكم سوى هياكلكم * أَوما نجدر للحرب ولو كنّا اقلّ

الفصل الحادي والعشرون

في احتجاج ترْتُليَانس عن الكنيسة (سنة ٢٠٠)

من مشاهير الآباءِ الذين عاشوا في القرن الثاني والثالث من الكنيسة كان ترتليانس القسّيس. وهو اشتهر في مدينة قرطاجنة في افريقيَّة. وكتب باللغة اللاتينيَّة * امَّا زمان مولدهِ فمجهول. وامَّا وفاتهُ فقيل انها جرت سنة ٢٢٠ * كان ترتليانس في الاصل وثنيًّا. ثمَّ تنصَّر. وكتب كتبًا شتّى لمحاماة الديانة النصرانيّة وتوضيح قواعدها. ولكنّهُ في آخر حياتهِ ذهب مذهب الهراطقة الذين يقال لهم المنتانيّون. وسياتيك الكلام عنهم *

كانت الكنيسة المسيحيّة تزهو وتتمجّد من جهة بدم الشهداءِ الذين كانوا يموتون على ايمانها. وتنتصر وتعتزّ من جهة اخرى بحكمة العلماءِ والفصحاءِ الذين كانوا يحامون عنها * ومن جملة هؤلاءِ كان ترتليانس القسّيس المذكور الآن. فانّهُ الّف كتابًا سمَّاهُ الاحتجاج. فيهِ طعن عبادة الاصنام طعنةً مميتة * وبدأ اوّلاً بمعاتبة الحكّام الوثنيّين على أنَّهم كانوا يوجبون الحكم على النصارى قبل أَنْ يترافعوا معهم * قال «لا يمنَع الاَّ النصارى من أَنْ يدافعوا عن انفسهم امام قضاتهم وأَنْ يطالعوهم على حقائق الامور لكي يقضوا بالعدل» * ثمَّ بيَّن أَنَّ الاوامر التي كانت توجب الشجب

على ديانة المسيح كانت غير عادلة. لانَّ الملوك الذين امروا بها كانوا اردياء خبثاء. حتى أَنَّ الوثنيين عينهم كانوا يكرهون ذكرهم ويلعنون اسمهم * ثمَّ ردَّ عن النصارى لوم الوثنيين على أَنَّهم لا يعبدون آلهة الملوك. اذ تتبع اصل آلهة الوثنيين. وبيَّن شناعة عباداتهم وقباحة أَعيادهم ومواسمهم وشعائرها. وانتهى الى أَنَّهُ لا يليق السجود لهذه الآلهة. وأَنَّها شياطين تغشّ الآدميين * قال «هاتوني بواحد من الذين يُظَنّون أَنْ قد اعتراهم الاه من الآلهة وينطقون بالغيب: ايّ نصرانيّ كان اذا امر هذا أَنْ يتكلّم. يلزمهُ أَنْ يقرّ بانَّهُ شيطانٌ حقًّا قد اختلس من الناس سجود الاله. فإِنْ لم يقرّ بذلك. فلمّا كان لا يتمكَّن أَنْ يكذب على انسان نصرانيّ. ارضى أَنْ يُدفَع هذا النصرانيّ الى الموت» * ويفهم من هذا كلام ترتليانس أَنَّ موهبة إِخراج الشياطين كانت شائعة في الكنيسة. حتَّى قدر ترتليانس أَنْ يشاطر الوثنيين هكذا *

ثمَّ شرع يردّ عن النصارى تهمة الكفر الذي كان الوثنيّون ينسبونهم اليهِ. وقال «إِنَّ الاه النصارى هو الله الذي خلق الكون كلّهُ من العدم بقدرتهِ. ورتَّب كلّ شيءٍ بحكمتهِ. ويدبّر كلّ شيءٍ بعنايتهِ * وعن هذا الاله العظيم تشهد الطبيعة كلّها بما فيها من المحاسن والدقائق المتنوّعة. حتَّى ان الوثنيّين نفسهم يشهدون لهُ طبعًا ولو أَنَّهم قد ضلّوا وراء ما تعلّموا عليهِ من التربية ووراء أَهوائهم.

في الكنيسة متسلسل بتواتر غير منقطع منذ الأجيال الاولى. وله اساس في اصول الديانة نفسها *

الفصل العشرون

في اعجوبة الكتيبة البرّاقة (سنة ١٧٤)

إنَّ الملك مرقس اوراليوس اراح المسيحيّين من الاضطهاد لسبب كرامةٍ صنعها الله لهُ بيد فئة من النصارى كانوا يخدمون في عسكرهِ. لانَّ النصارى كانوا قد دخلوا كلّ مكان حتّى العسكر * وكان العسكريّون الذين يُرسَلون ليخدموا الى اماكن شتّى • يحرّكهم الله ليجلبوا معهم كالمرسلين الروحانيّين ديانة الحقّ الى البلاد الشاسعة. ويجري كرامات على ايديهم • واشهر ذلك الكرامة التي اجراها بشفاعة الكتيبة البرّاقة *

وذلك أنَّ مرقس اوراليوس الملك كان مشغولاً بحرب مع السرماتيّين وأقوام اخر من الجرمانيّين. وكانت عساكرهُ قد توغّلت في جبال وعرة . وتخرّقها اهل الاراضي وكانوا فائقين في العدد • وكانت الدنيا صيفًا . والقيظ شديدًا . ولم يكن هناك ماءٌ للشرب . وكاد الروم يعطبون عطشًا * فاقبل النصارى الذين كانوا فيهم . وركعوا وسجدوا وشرعوا يصلّون متخشّعين . وكان

العدوّ يهزأ بهم * وعند ذلك ظهر غمام في الجوّ. وامطرت السماء مطرًا غزيرًا في ناحية الروم * فكانوا في اوّل الامر يرفعون راسهم ويفتحون فمهم ليشربوا من المطر. ثمّ ملأوا خوذاتهم. وشربوا هم وسقوا خيلهم * وظنّ الاقوام أنّ الساعة مناسبة للغارة عليهم. وتهيّأوا لمفاجأتهم بينما هم مشغولون بالشرب * ولكنّ الله نصر الروم. فانزل على راس الأعداء بَرَدًا مع صواعق. فانسحقت افواجهم * وطرحوا اسلحتهم. والتجأوا الى جهة الروم ليحتموا بهم من ضربات الصواعق التي اهلكتهم *

وهذهِ الواقعة اتخذها كلّ احد كرامةً من الله صنعها لحرمة النصارى الذين كانوا في عسكر الروم. وسُمّي هولاء النصارى الكتيبة البرّاقة. لانهم كانوا في كتيبة تسمّى بهذا الاسم * وكتب الملك الى مشيخة رومية رسالةً في ذلك. قال فيها إنّ عسكرهُ كاد يهلك فنجا بصلاة النصارى * ومن ذلك الزمان مال اليهم. وامر أنْ لا يعاملوهم كالاوّل. ونهى عن سعايتهم لسبب الدين فقط * وقد اقيم حينئذٍ في مدينة رومية العظمى عمود في احدى ساحاتها. نُقشت عليهِ أخبار هذه الواقعة لتبقى ذكرًا للأجيال الآتية. ويسمّى العمود الانطونينيّ *

الفصل التاسع عشر

في موت القدّيس فلوقرفس

ولمّا خرج هذا الحكم من فم الوالي على فلوقرفس . تراكض الناس الى كلّ ناحية لجمع الحطب واحضار النار * وامَّا فلوقرفس فخلع منطقتهُ . وشلح ثيابهُ . وارتقى الى اتون النار كما تُصعد الضحيّة الى المذبح * وارادوا أَنْ يشدّوهُ بسلاسل من حديد كالعادة . ولكنّهُ قال لهم «دعوني هكذا . إِنَّ الذي يقوّيني على الاذيَّات سيُثبّتني على النار. فلا حاجة الى سلاسلكم» * فشدّوا يديهِ فقط في ظهرهِ * ورفع فلوقرفس عينيهِ نحو السماء . وصلّى وقال «ايّها الاله القدير ابو يسوع المسيح. هذا هو ابنك الحبيب الذي بهِ نلنا نعمة معرفتك. اشكرك لانّك وصّلتني الى هذا اليوم السعيد الذي فيهِ ادخل في حظّ شهدائك وانال نصيباً من كاس ابنك لاحيا الحيوة الابديّة: اقبلني اليوم قدَّامك كضحيّة طيّبة * انا اسبّحك واباركك واُمجّدك بواسطة الحبر الازليّ يسوع المسيح ابنك . الذي معهُ يجب لك ولروح القدس المجد الآن وفي كلّ الدهور. آمين» *

ولمّا فرغ من صلاتهِ . اطلقوا النار في الحطب . فقامت منهُ لهبات عظيمة . ولكنَّها بآية الاهيَّة ما مسَّت جسم فلوقرفس . بل حوّطتهُ بهيئة قبَّة. فكان في وسط النار مثل الذهب في وسط

الكور. وفاحت منهُ روائح ذكيّة تزري باريج افخر العطور * ولمّا راى الوثنيون أنَّ جسمهُ لا يحترق. طعنوهُ بسيف. فانبثق دمٌ كثير اطفأَ النار *

اعلم أنَّ هذهِ قصّة استشهاد فلوقرفس كتبها اناس كانوا حاضرين واقعة الامر * وحكوا أنَّ الوثنيّين لم يأذنوا للنصارى أنْ يحملوا جثّة الشهيد. بل افنوها بالنار. خوفًا على النصارى أنْ يتركوا على زعمهم المصلوب ويعبدوا هذا * وقال الراوون في ذلك «أَمَا يعلم هولاَء أنّنا لا نقدر أنْ نترك ابدًا يسوع المسيح الذي تألّم في خلاص كلّ احد ونعبد غيرهُ. لاننا نعبدهُ من حيث هو ابن الله. وامّا شهدآؤهُ فلا نتّخذهم الّا تلاميذ وتبعة لهُ. ونحترمهم بكلّ صواب لسبب الصدق الذي بهِ خدموا ملكهم وسيّدهم» * وقالوا في نهاية الرواية «إنّنا اخرجنا من النار عظامهُ التي هي اثمن من الجواهر. ووضعناها في محلّ لائق. وهناك نرجو أنْ نجتمع كلّ سنة لنعيّد عيد الشهيد بحبور. لكي يقتدي بهِ الناس الذين بعدهُ ويتهيّأوا للقتال» * اعتبر من هذه الكلمات انّ الكنيسة القاثليقيّة منذ الأَجيال الاولى كانت تكرم الشهدآء من حيث هم عبيد الله وخلّانهُ. وتوقّر ميناثاتهم اي بقايا اجسادهم من حيث هي صارت ضحيّةً لله بموت الاستشهاد او بالتوبة. ومن حيث هي اعضآءٌ حيّة للمسيح وهياكل اروح القدس * فإكرام القدّيسين الجاري الآن

عليهِ . ترك ذلك البيت وانطلق الى بيت آخر. وعند خروجهِ من البيت دخل الذين كانوا يفتّشون عليهِ . ولمّا لم يجدوهُ . قبضوا على شابّين . وآذوهما حتّى انّ احدهما اقرَّ بمكان فلوقرفس * فاسرع القوَّاسون الى البيت الذي كان فيهِ الاسقف . ووصلوا هناك مسآءً في العتمة . وكان يوم الجمعة * وكان فلوقرفس راقدًا في عليّة . وقدر أَنْ ينجو . ولكنّهُ ما احبّ أَنْ يهرب . وقال « لتكن ارادة الله » * فنزل الى القوَّاسين ليكلّمهم . فلمّا راوا شيخوختهُ وثباتهُ . لم يتمالكوا أَنْ يقولوا « اكلّ هذا الاجتهاد لاخذ هذا الشيخ الصالح » * وكانوا مغمومين من الوكالة التي سُلّمت اليهم . غير انّهم ما احبّوا ان يخسروا الربح الذي كان ياتيهم من إجرائها * ثمَّ إنَّ فلوقرفس عشّاهم عندهُ . واستاذنهم ليصلّي . فصلّى في شان الكنيسة كلّها وهو رافع عينيهِ نحو السمآء . وتعجَّب الحاضرون حتّى اعدآؤهُ من الخشوع الذي بهِ صلّى * ولمّا حان وقت الخروج . ركّبوهُ حمارًا . وقصدوا المدينة *

ولمّا بلغوا المدينة . انطلقوا بهِ الى الامفيثياترون . وكانت معاشر الناس هناك مجتمعة * واوقفوهُ امام الوالي . فأمرهُ الوالي أَنْ يمتثل اوامر الملك . لكي يخلّص نفسهُ من الموت . وقال لهُ « اشفق على شيخوختك . افتظنّ أنّك تقدر أَنْ تحتمل الاذيَّات التي منظرها وحدهُ يرجّف الشباب نفسهم » * ولكنَّ فلوقرفس لم

يلتفت الى قولهِ . ولا فزع من تهدّدهِ * وكان الوالي يكرّر عليهِ القول «جدّف بالمسيح . وانا اطلقك» * قال فلوقرفس «قد خدمتهُ وعبدتهُ هذه تسعون سنة . ولم يسئ اليَّ ابدًا . وكيف اجدّف على ملكي الذي خلّصني» * فقال لهُ الوالي «احلف بحياة قيصر» * قال فلوقرفس «لا تتعب نفسك . أَمَا تعلم من انا . واقول لك بصوت جهوريّ . انا مسيحيّ * وإِنْ كنتَ تريد أَنْ تعرف مذهب المسيحيين . فانا حاضر لاعرّفك ايَّاهُ» * قال لهُ الوالي «لاطرحنَّك الى الوحوش» * قال فلوقرفس «يا طوبى لي إِنْ حصل بيدي أَنْ انال البرارة الكاملة بهذه العذابات» * قال الوالي «اذ إِنَّك لا تخاف الوحوش . لاحرقنَّك وانت حيّ» * قال فلوقرفس «نارك تنطفئ في ساعة من الزمان . ولكن ويحك من نار ابديَّة سيصلاها الكافرون . وما بالك تتباطأ . اعمل بي ما انت عاملهُ» * وظهرت علامات الفرح في وجههِ عندما قال هذه الأَقوال * ثمَّ صاح الجمهور «اطرحوهُ الى الوحوش . إِنَّهُ ابو النصارى وعدوّ الآلهة» * ولكنَّ الوالي امر أَنْ يُحرَق وهو حيّ . لانَّ زمان لعب الوحوش كان قد انقضى *



الاذيَّات ثابتين متجلّدين ٭ وبينما كان الحاضرون يبكون وينوحون ٭ كان هولآءِ أبطال المسيح لا يشكون ولا يتأسّفون ٭ وكانوا يرون دماءَهم تسيل من منافذ كثيرة وهم لا يقشعرّون. وينظرون الى أمعائهم مكشوفةً وقلوبهم لا تخفق. ويتقدّمون الى موضع العذاب ببشاشة وسرور. ويحتملون الاذيّات بالسكوت ٭ وكانت أفواههم مسدودةً عن التشكّي. ومفتوحةً للتسبيح ٭ ذلك لانَّهم كانوا قد خلعوا اجسادهم. او ما كانوا يسمعون الاّ صوت المسيح الذي كان في داخلهم وكان يتكلّم بقلوبهم ٭ فكانوا من فرحهم بهِ يحتقرون كلّ العذابات ٭ وكانوا مسرورين بكونهم باذيَّات يسيرة يفلتون من العذابات الابديَّة. فكانت النار التي تعذّبهم محسوبةً عندهم استراحةً بالنسبة الى النار الابديَّة التي لا تنطفئ ابدًا ٭ وذلك انَّ عيون قلوبهم كانت شاخصة الى الخيرات الفائقة الوصف التي اعدَّها الله للّذين يصبرون الى المنتهى. ممَّا لا رأتهُ عين. ولا سمعت بهِ اذن. ولا خطر على قلب بشر. ولكنَّ الله اعلمهم بهِ لانَّهم لم يكونوا حينئذٍ بشرًا بل ملائكة ٭ والذين حُكم عليهم أَنْ يكونوا فريسة الوحوش. قاسوا مشقّات الحبس الطويل. وهم منتظرون اليوم الذي فيهِ ياخذون الاكليل ٭ وكانوا يعرّونهم ويمدّونهم على سحيق الحجارة وعلى الحصا الحادّ. ويتفنّنون في تعذيبهم بابدع الاشكال طمعًا في فشلهم وكفرانهم بدين المسيح. ولم تترك الجحيم شيئًا الاَّ وقذفتهُ

عليهم . ولكن بنعمة الله ما قدرت أَنْ نقهرهم * وكان بينهم شابٌّ اسمهُ جرمانيقس . كان يتقدَّم امامهم بالثبات والتجلُّد. هذا رقَّ عليهِ الوالي . وقبل أَنْ يدفعهُ الى الوحوش وعظهُ أَنْ يشفق على نفسهِ . فاجابهُ وقال «لأَنْ اموت الف مرَّة احبُّ لي من أَنْ احيا آثماً» * واندفع بشجاعةٍ الى اسدٍ كان مقبلاً نحوهُ . فانشب الاسد فيهِ مخاليبهُ وأَنيابهُ ومزَّقهُ تمزيقاً . حتى بادر الشهيد السعيد بخلع الجسد وبالخروج من هذه الدنيا التي كانت دار الكفر والاثم * فلمَّا راى الكفَّار هذه الحماسة . اشتدُّوا حنقاً . وصاحوا في الامفيثيترون قائلين «عاقبوا الكفَّار . هاتوا فُلوقَرْفس الاسقف» . وكان هذا اسقف ازمير المشهور . وقد سبق ذكرهُ في قصَّة استشهاد القدّيس اغناطيوس النورانيّ *

الفصل الثامن عشر

في القبض على فلوقرفس اسقف ازمير وجذبهِ الى الحكم

ثمَّ إِنَّ الوثنيّين التمسوا فلوقرفس ليميتوهُ . وجدُّوا في طلبهِ في كلّ مكان * واراد هو أَنْ يمكث في المدينة . لانهُ لم يرهب العذابات . ولكنَّهُ طاوع المومنين الذين كانوا يخافون عليهِ . وانفرد في بيت غير بعيد * وبعد ايَّام اذ كان الوثنيُّون لا يزالون يفتّشون

ونعترف انك مولى العالم . ونصلّي من اجلك دائمًا الى الله لكي يكون لك مع القدرة العظمى قلبٌ مستقيم وتدبير صوابيّ » *

وبعد هذا الشرح اخذ القدّيس يبيّن صحّة ديانة المسيح بالنبوّات. اذ قد جُمعت وحُفظت بحسب رتبة الأَزمان التي كُتبت فيها * وردّد كثيرًا النبوّات التي قيلت عن مدينة اورشليم وتفرّق اليهود ودعوة الامم . وبيّن انّ هذه النبوّة الجليّة قد صحّت صحّة جليلةً قبل زمان قليل لشرف الديانة المسيحيّة ۰ ثمّ انتج من ذلك أَنَّ بقيّة النبوّات ولاسيّما التي قيلت في جيئة المسيح الثانية والقيامة والدينونة الاخيرة ستكمل هي ايضًا *

ثمَّ اخذ يدفع عن النصارى الاكاذيب التي كانت تقال عنهم من سبب اجتماعاتهم . فشرح ما كانوا يعملون في هذه الاجتماعات تفصيلاً ۰ واذ نقرأ هذا شرح يسطينس . يسرّنا جدًّا أَنْ نرى أَنَّ ما كان المسيحيّون يصنعونهُ حينئذٍ في اجتماعاتهم يطابق ما نصنعهُ الآن نحن في كنائسنا * وفي ختام كلامهِ قال « إِنْ رايت هذا مذهبنا عقليًّا . فنزّلهُ المنزلة التي يستحقّها ۰ والاَّ فلا تقبلهُ . ولكن لا تدفع الى الموت لهذا السبب وحدهُ القوم الذين لم يصنعوا شيئًا من السوء » *

وبعد ذلك الزمان استحقَّ يسطينس أَنْ يموت شهيدًا بدمهِ عن الديانة التي كان قد شهد لها بقلمهِ *

الفصل السابع عشر

في الاضطهاد الرابع الذي صار في عهد مرقس اورالبوس (سنة ١٦٦)

كانت الكنيسة مع حداثتها قد انتشرت في الارض كلّها . واستولت على بلاد المشرق التي وُلدت فيها اي على فلسطين والشام ومصر واسيا الصغرى واليونان . وامتدَّت الى بلاد شاسعة من بلاد المغرب اي ايطاليا وفرنسا واسبانيا والاندلس وافريقية وجرمانيا وبرتانية الكبيرة * وكانت ايضاً في البلاد الخارجة عن حكم ملوك الروم . اي في بلاد الكلدان والارمن والفرس . حتَّى بين الامم الغير المتمدّنين كالسرماتيّين والداقيّين والسقوثيّين والموريّين والجتوليّين والجزائر البعيدة * وفي ذلك الزمان امر مرقس اورالبوس ملك الروم باضطهاد النصارى لاستماعهِ الاكاذيب التي كانت تقال في حقّهم * وبدأ الاضطهاد في بلاد اسيا . وظهرت خباثتهُ اوّلاً في مدينة ازمير * وهناك أُوقف مسيحيّون شتَّى من تلك النواحي امام الوالي . فاعترفوا قدّامهُ بايمان المسيح . فامر بأنْ يعذَّبوا اشدّ العذابات . وتفصيل هذه العذابات يوجد في الرسالة التي كتبتها كنيسة ازمير الى بقيَّة الكنائس عند هذه الحادثة * وقيل في هذه الرسالة «إنَّ هولاء الشهداء القدّيسين مُزّقوا بالسياط . حتّى انكشفت عروقهم وشرايينهم وأحشاؤهم * وكانوا في وسط هذه

منح بهِ عبدهُ * ونحن نذكر يوم موتهِ . لكي نقدر أنْ نجتمع كل سنة . ونكرم استشهادهُ في الوقت الذي فيهِ عُذِّب رجاءَ أَنْ ننال نصيباً من الغلبة التي ظفر بها هذا الجنديُّ النجيب . الذي تجنّد ليسوع المسيح . وداس تحت رجليهِ الشيطان بعون المسيح . الذي بهِ ومعهُ يجب المجد والقدرة للآب مع روح القدس في جميع الدهور . آمين » *

الفصل السادس عشر

في احتجاج القديس يسطينس (سنة ١٥٠)

بينما كان الشهداء يعطون أَعناقهم ودمهم شهادةً لدين المسيح . كان علماء الكنيسة يحامون عنهُ بمؤلّفاتهم . ومن جملة هذه المؤلّفات كانت الاحتجاجات التي بها كان معلّموا البيعة يدفعون عنها اقاويل اعدائها ويكذّبونها * واول هذه الاحتجاجات التي وصلت الينا هو احتجاج كتبهُ القدّيس يسطينس . ولم يخَفْ أَنْ يضع اسمهُ في مطلعهِ . ووجّههُ الى انطونينس الملك والى ابنيهِ مرقس اوراليوس وكُمُدُس * وكان يسطينس في الاصل وثنيّاً . وفي سنة ثلاثين من عمرهِ تنصّر باقتناع تامّ بعد فحص مدقّق وافتكار محقّق * وكان يتعجّب كثيرًا من ثبات الشهداء على

العذابات . وهذا فتح قبل كلّ شيء عينيهِ ليرى الحقّ * ثمّ طالع الكتب المقدَّسة ولاسيّما النبوّات . وبذلك تأكّدت عندهُ صحّة الديانة المسيحيَّة . وتنصَّر *

وحينئذٍ كتب احتجاجهُ . وفيهِ اوّلاً طلب من الملك أنْ يحكم على المسيحيّين الذين يُشتكَى عليهم اليهِ على موجب أعمالهم لا على حسب اسمهم . وأنْ لا يامر عليهم بالقصاص لسبب انهم نصارى فقط * قال «نرغب اليك أنْ لا تنصت الى ميل الهوى ولا الى أقاويل كاذبة حتّى تحكم أحكاماً لا تليق بشانك . لاننا نحن لا يضرّنا احد ولو نزع حرّيتنا وحياتنا * فنحبّ اليك أنْ تامر بأنْ يُنظَر في الشكاوي التي نُشكَى بها نظرًا دقيقاً . فان طلعنا مذنبين . فعلينا الجزاء الذي نستحقّهُ . وإنْ لم يثبت علينا ذنب . فالعقل السليم ينهى عن اذى من كان بريّاً * إنْ تنازلت أيُّها الملك الى فحص مذاهبنا وسيرتنا . يتاكَّد عندك أنَّهُ ليس لك بين رعيّتك كلّها قومٌ اطوع واسلم واهدأ منّا * امّا شرائعك وعقوباتك فلا تردّ المجرمين عن جرائمهم . اذ يعلمون انَّهم يقدرون أنْ يخفوا عنك ذنوباً كثيرة . وامّا نحن فنعلم أنَّهُ لا يمكن أنْ يخفى شيءٌ عن الله . وانهُ تعالى سيديننا يوماً . وسيجازي كلّ واحد منّا بالثواب او العقاب كأعمالهِ * ولا نعبد الاّ الله . ولكنّا نطيعك في كلّ ما هو سوى ذلك . ونقبلك علينا ملكاً .

الفصل الخامس عشر

في استشهاد القدّيس اغناطيوس (سنة ١٠٧)

بعد ما اقام اغناطيوس في ازمير ايّاماً. رحل منها ليتتبّع سفرهُ. وكان السائرون بهِ مسرعين في السير مجتهدين على الوصول الى مدينة رومية. لانْ قد قرب هناك زمان الملاعب التي فيها كان يُعرَض الآدميّون الى الوحوش ليقاتلوها * ولمّا سمع المومنون الذين في رومية بوصولهِ الى هناك. خرجوا للقائهِ. وانسرّوا وفرحوا برويتهِ ومحادثتهِ. ولكن كان الحزن يخالط فرحهم لافتكارهم بانّهُ يُذهَب بهِ ليموت * وارتأى البعض بانْ يرشوا القوم ليخلّصوهُ من الموت. كما قد حدث أحياناً. ولكن اغناطيوس لجّ بهم وتوسّل اليهم مستحلفاً أنْ لا يحرموهُ من الحظوى بالله عاجلاً. حتّى أنّهم اذعنوا لطلبتهِ * وجثوا كلّهم امام رجليهِ. فرفع اغناطيوس صوتهُ بينهم. وطلب الى المسيح أنْ يبطّل الاضطهاد ويرجّع السلامة والامان الى كنيستهِ. ويلهم قلوب جميع المومنين بمحبّة اخويّة قويّة * ولمّا فرغ اغناطيوس من صلاتهِ. اقبل الجند عليهِ. وانطلقوا بهِ الى موضع الملاعب الذي يقولون لهُ في لغتهم الأَمفيثيَتْرون[1] .

(١) اعلم انّ الامفيثيترون كان عند الروم بنياناً عظيماً واسعاً كان فيهِ يلعب السيّافون والمتصارعون ونُقاتَل الوحوش . وربّما جرى فيهِ مراسات

وكان في تلك الأيّام موسم للوثنيين. فكان اهل المدينة كلّهم حاضرين * ودخل اغناطيوس الامفيثيترون. فرعدت الارض بأصوات الاسود التي صالت عليهِ. ولكنّهُ لم يتزعزع من شجاعتهِ وشوقهِ. ورُؤيت في وجههِ وهيئتهِ علامات الفرح والسرور سرورًا انيسًا هادئًا * ولم تمهلهُ المنيّة. لانَّ اثنين من الاسود هجما عليهِ وافترساهُ. ولم يبقَ من جسدهِ الّا العظام الكبيرة. فجمعها المومنون باحترام وذهبوا بها الى انطاكية بمنزلة كنزٍ ثمين * واهتشّ المومنون لهذه العظام المباركة في جميع الاماكن التي فيها جازت * ووُضعت هذه الذخيرة في صندوق نفيس. وأُودعت في المقبرة التي عند باب مدينة انطاكية *

قال كاتبوا هذه قصّة استشهاد اغناطيوس العظيم في آخرها « نحن كنّا شهودًا في موتة هذا الشهيد المجيد. وسكبنا سيول الدموع عليهِ. وقضينا الليل في السهر والصلوات. طالبين على ركبنا الى الربّ أَنْ يقوّي ضعفنا * وقد ظهر لنا الشهيد الطاهر مثل مقاتل خرج من قتال شديد ومجيد. وكان واقفًا امام الربّ. محوّطًا بمجد لا يوصف * ففرحنا بهذه الرؤيا غاية الفرح. وشكرنا على ذلك مُولي الخيرات. وباركناهُ على السعد الذي

بحريّة. كلّ ذلك لفرجة العامّة * وكان هذا البنيان بشكل دائرة مطوّلة او مستديرًا. وصحنهُ الذي في الوسط كان مكان اللعب والقتال *

احسن من هذا للوصول اليهِ . ولا لكم أَنْ تعملوا عملًا صالحًا .
وذلك بان تكونوا في هدوّ من قِبلي * إِنْ لم تخلّصوني من ايدي
المعذّبين . فانّي انطلق الى ربّي ۰ ولكن إِنْ تحرّكتم برحمةٍ كاذبة .
فانكم ترجّعوني الى التعب . وتلقوني من جديد في مسلكي الاوّل *
فارغب اليكم أَنْ تحتملوا أَنْ أُذبَح ما دام المذبح منصوبًا ۰ بل اطلبوا
لي بصلواتكم الشجاعة اللازمة . لاثبت على المقاومات التي من داخل .
وادفع المضاددات التي من خارج * هيهات . ليس اسم المسيحيّ
بشيءٍ . إِنْ لم يكن الانسان مسيحيًّا بالحقيقة ۰ ولا يصير الانسان مسيحيًا
بجميل الأَلفاظ وبحسن الهيئة . بل بكرامة النفس وقوّة الفضيلة *
إِنّي كاتب ومخبر الكنائس بأَنّي منطلق الى الموت مسرورًا . إِنْ لم
تمانعوا انتم * واستحلفكم من جديد أَنْ لا تكون محبتكم لي محبّةً مضرّة .
واتركوني أَنْ اكون فريسةً للاسود والدبب * انا حنطة الله .
فينبغي أَنْ أُطحَن لاصير خبزًا لائقًا أَنْ يُقرَّب للمسيح * اغفروا لي .
انّي عالمٌ بما ينفعني . والآن انا تلميذ المسيح حقًّا ۰ ولا يهمّني شيءٌ .
ولا ابالي بشيءٍ . الاَّ الامل ان احظى بالاهي * إِنْ افنتني النار
وجعلتني رمادًا . او متُّ على صليب موتًا طويلًا . او أُطلقت عليَّ
النمور والاسود الضارية . او سُحقت عظامي ورُضّت أَعضائي ودقّ
جسمي كلّهُ . او صالت عليَّ الشياطين كلّها وافرغت فيَّ غضبها .
فانّي احتمل كلّ ذلك مسرورًا اذا أُعطيتُ أَنْ احظى بيسوع

المسيح * انَّ قلبي متشوّق الى ذلك الذي مات عنّي. وقام من الموت لاجلي. وهذا هو الذي ارجو أَنْ اناله بدلاً عن حياتي * فاتركوني لاشابه الاهي في الآلام. ولا تمنعوني من الحيوة بمنعكم اياي من الموت * مَن كان فيكم يحمل الله في قلبهِ. يفهم بسهولة ما اقول. ويحزن على حزني. إنْ كان مشتعلاً بالنار التي تحرقني * كتبتُ اليكم لشوقي المحترق الى الموت. لانّ حبيبي الوحيد قد صُلب. وحبّي لهُ يجعلني أَنْ اكون مصلوباً انا ايضاً * انَّ النار التي تشتعل فيَّ وتحثّني. لا تحتمل ادنى اختلاط وادنى مزاج يضعفّها. والذي يحيا ويتكلّم فيَّ يقول لي على الدوام في عمق قلبي «بادر المجيء الى ابي» * لا يلذّ لي الآن شيءٌ ممَّا يلتمسهُ كلّ الناس. الخبز الذي اريدهُ هو جسد المسيح المسجود لهُ. والخمر الذي ابتغي هو دمهُ الكريم وهو الخمر السماوي الذي يشعل في القلب النار الحيّة الغير المائتة نار المحبَّة الغير الفاسدة * لم يبقَ لي شيء في الارض. ولستُ احسب الآن نفسي بين الأَحياء * اذكروا في صلواتكم كنيسة انطاكية. التي حُرمت راعيها. وحوّلت نظرها واملها نحو ذلك الذي هو الراعي العظيم لكلّ الكنائس. فليضعها المسيح بلطفهِ تحت تدبيرهِ مدّة غيابي. وقد سلّمتها لعنايتهِ ورافتهِ» * لا حاجة الى القول بانَّ روح الله هو المتكلّم في هذه الرسالة. لا الانسان *

قال هذا. وقيّد نفسهُ بالسلاسل من نفسهِ. وصلّى على الكنيسة.
وأودعها لرحمة الربّ باكيًا * وهجم عليهِ الجند الذين تولّوا حراستهُ
وجلبوهُ الى رومية. وذوّقوهُ مرارة جفاوتهم * وكان اغناطيوس
مشتاقًا متحرّقًا أَنْ يسفك دمهُ في حبّ المسيح. وبهذا الشوق خرج
من مدينة انطاكية حتَّى بلغ الى مدينة سلوقية وهي بقرب موقع
اسكندرونه. ومن هناك نزل في البحر * وبعد مسيرٍ طويل مكلِّف
في البحر. وصلوا بهِ الى مدينة ازمير * فلمّا نزل الى البرّ. انطلق
ليرى القدّيس بلوقرفُس اسقف تلك المدينة ورفيقهُ في تلمذة يوحنَّا
الرسول. وتفاوضا في امور روحيّة * وبيَّن اغناطيوس فرحهُ بالقيود
التي كان مقيّدًا بها في حبّ المسيح * وحضر في مدينة ازمير قصَّاد
من جميع الكنائس المجاورة. اتوا ليسلّموا على اغناطيوس. وكانوا
مشتاقين أَنْ ينالوا نصيبًا من النعمة التي كان حائزها * وطلب
اليهم القدّيس اغناطيوس أَنْ يعينوهُ بصلواتهم. لينعم عليهِ الربّ
أَنْ يموت في حبّ المسيح * وكتب من هناك رسائل الى كنائس
اسيا شبيهة برسائل الحواريّين * ثمَّ اقبل على القصَّاد الذين كانوا
قد اتوا ليزوروهُ. وطلب اليهم أَنْ لا يعيقوهُ من مسيرهِ. وأَنْ
يحتملوا أَنْ يروح عاجلاً الى المسيح جائزًا بأَنياب الوحوش الضارية
التي كانت تنتظرهُ لتفترسهُ * وخاف أَنَّ المسيحيّين الذين في
رومية يمنعونهُ من أَنْ يموت في حبّ الله كما كان يتمنّى. فاراد أَنْ

يصدهم عن ذلك . فبعث اليهم رسالةً عجيبة بيد قوم من اهل افسس كانوا قدامهُ ذاهبين الى رومية *

الفصل الرابع عشر

في رسالة اغناطيوس الى اهل رومية

في مفتتح هذه الرسالة ادّى اغناطيوس شهادةً جليلةً لرياسة كنيسة رومية على سائر الكنائس لسبب رياسة بطرس الرسول الذي نصب كرسيهُ فيها . اذ قال «الى الكنيسة الحبيبة المضيئة المرتفعة بعظمة العليّ ويسوع المسيح ابنهِ الوحيد التي لها المقام الاوَّل في بلاد الروم . المستحقّة لله والمستاهلة لبهائهِ والمستحقّة للغبطة والمجد والمستاهلة الطهارة . الجالسة في المنزلة الراسية منزلة الحبّ في شريعة المسيح» * وبدأ بذكر الفرح الذي شملهُ برجاء رويتهم عن قريب . ثمَّ طلب منهم واستحلفهم باقوى العبارات وافصحها أنْ لا يحرموهُ من نوال منيتهِ بمنعهم اياهُ بوجاهتهم من أنْ يُقتَل لاجل المسيح * قال «إنّي اخشى من حبكم . واخاف أنْ تودّوني مودّةً انسانيةً . لانكم يهون عليكم أنْ تمنعوني من الموت . ولكنَّكم اذا ردّيتم الموت عنّي منعتموني من السعادة * فان كنتم تحبّونني محبّةً خالصةً . فاتركوني انطلق لاتهنّأ بالاهي . ولا يمكن أنْ يحصل لي طريق

من النصارى · ومن جملتهم القديس سمعان نسيب يسوع المسيح · الذي كان اسقف اورشليم. وكان عمرهُ ماية وعشرين سنة · ووُشي بهِ لكونهِ نصرانيًّا ولكونهِ من ذرّيّة داود * وعُذّب عذابًا مرًّا · وتجلّد القدّيس بصبر عجيب. حتّى أنَّ الحاضرين كلّهم اخذهم العجب اذ راوا هذه الشجاعة وهذه القوّة من رجل هرم * وفي الآخر حُكم عليهِ أَنْ يموت مصلوبًا. واستاهل أَنْ يموت ميتة مولاهُ لاجل حبّهِ *



الفصل الثالث عشر

في محاكمة مار اغناطيوس الانطاكيّ

كان بطرس الرسول قد اقام كرسيّهُ اوّلاً في مدينة أنطاكية. ثمَّ تركها وحوَّل كرسيّهُ الى رومية العظمى * وتخلّف بعدهُ في كرسيّ انطاكية أَوْدِيوس. ثمَّ اغناطيوس الذي يقال لهُ النوراني اي ذو النار وثئوفرس اي حامل الالاه * ولمّا مرَّ طرايانس الملك بمدينة انطاكية. اذ كان قاصدًا محاربة الفرس. امر أَنْ يوقفوا امامهُ مار اغناطيوس اسقفها. فلمّا وقف بين يديهِ. قال لهُ «أأنت هو الذي تجسر أَنْ تكسر اوامري كجانّة رديّة. وتامر غيرك بأَن يورّطوا بانفسهم» * قال اغناطيوس «ليس احد سواك سمّى مَن هو حامل الالاه جانّةً رديّةً * كلّا إنَّ عبيد الله ما هم جانّات. بل إنَّ

الشياطين يفزعون من امامهم. ويهربون من صوتهم» * قال «ومن هو حامل الاله» * قال «انا وكلّ من يحمل يسوع المسيح في قلبه مثلي» * قال الملك «أتظنّ أننا نحن ليس لنا في قلوبنا آلهة تنصرنا» * قال اغناطيوس «كلّا. ليسوا آلهة. بل شياطين. لا الاه الّا الله الواحد الذي خلق السمآء والارض. ولا ربّ الّا يسوع ابن الله الوحيد الذي انا متشوّق الى مملكته» * قال طرايانس «هل تعني بقولك يسوع ذلك الذي صلبهُ بيلاطس» * قال «بل يسوع ذلك الذي علّق على صليبهِ الخطيّة وصاحبها. واعطى من ذلك الوقت الذين يحملونهُ في قلبهم قوّةً ليهدموا الجحيم وشوكتها» * قال الملك «افانت حامل المسيح في وسطك» * قال «نعم. لانهُ مكتوب: ساحلّ بينهم. وارافق جميع خطواتهم[1]» * ولمّا عجز الملك عن مناقشة اغناطيوس. نطق بالحكم عليهِ قائلاً «نامر على اغناطيوس الذي يفتخر بانّهُ يحمل المصلوب بأنْ يقيَّد بالأَغلال. ويُجلَب الى رومية بيد نواطير امينين. لكي يُعرَض للوحوش ويصير فرجةً للناس» * فلمّا سمع القدّيس هذه القضيّة. اهتشّ فرحاً وصاح «اشكرك يا ربّ لانّك منحتني حبّاً كاملاً لك. ولانك تشرّفني بالسلاسل التي شرّفت بها يوماً بولس العظيم رسولك» *

(١) اعلم انّ هذه الحكايات كلّها والاخر المذكورة في الفصل الآتي منقولة ممّا كتبهُ مسجّل المحكمة في حين الاستنطاق. فلا يمكن ان يكون شيء اصحّ منها *

الفصل الثاني عشر

في الاضطهاد الثالث الذي اثارهُ طرايانس الملك (سنة ١٠٦)

قام اضطهاد ثالث على النصارى في ايّام البابا أَوَرِستُس الحبر الروماني الذي تخلّف بعد اقليميس. وكان هذا الاضطهاد اقلّ شدّة من الاوَّلَين. غير أنهُ دام اكثر منهما. واستشهد فيهِ جمٌّ غفير من الشهدآء * وكان سبب هذا الاضطهاد طرايانس قيصر ملك الروم. الذي يُوصَف في التواريخ بحكمتهِ وحلمهِ * هذا الملك لم ينشر اوامر جديدة بمعاداة النصارى. الاَّ أنهُ اراد أنْ تُجرَى بالعمل في البلاد المختلفة الشرائع التي كان الملوك الذين قبلهُ قد نشروها على المسيحيّين * وقد ورد في التواريخ شهادة جليلة في هذا الشان. وهي رسالة كتبها بلينيوس العلاّمة المشهور المعروف بالمتأَخّر اذ كان واليًا على بلاد بِيثُنية من اعمال اسيا الصغرى الى طرايانس الملك * وكتب بلينيوس هذهِ الرسالة مستعلمًا من الملك كيف ينبغي لهُ أَنْ يتصرّف مع النصارى. وذكر أنّهم بريئون من كلّ ذنب * قال «إنَّ ضلالتهم مقصورة على شيءٍ واحد. وهو أنّهم في يوم محدود يجتمعون قبل طلوع الشمس. ويترنَّمون صفّين باناشيد لاكرام المسيح الذي يتّخذونهُ الاهًا. غير أنّهم يتحالفون ليس على شيءٍ من المنكرات. بل على أَنْ لا يسرقوا. ولا يفجروا.

لا يخلفوا في وعودهم. ولا يخونوا امانةً * وإني ما رايتُ في عبادتهم سوى زيادة تعبّد باطلٍ بالغ الى الإفراط. ولذلك اوقفتُ كلّ شيء حتّى استعلمك وآخذ منك الاوامر اللازمة * وعلى رايي إنّ القضية تستوجب فطانتك. لاجل كثرة الذين هم مشتبكون بهذه الشكوى. لانّهم كثيرون من كلّ عمرٍ ومنزلةٍ ذكورًا واناثًا. وهذا الداء قد عاث بالمدن. لا بل اعدى على القرى والدساكر * ولمّا صرتُ الى بيثنية. رايتُ هياكل آلهتنا مهجورة. والأعياد متروكة. حتّى أنّهُ قلّما وُجد مَن يشتري الذبائح» * فهذه الرسالة التي كتبها عامل وثنيّ تبيّن عظم انتشار الديانة النصرانيّة في اواخر القرن الاوّل وطهارة سيرة النصارى الاوّلين. وهذه الشهادة من فم عدوّ من المضطهدين هي افخر شهادة في حقّ ديانة المسيح *

وكان جواب طرايانس بانّهُ لا ينبغي تفتيش النصارى. بل أنْ يتركوا حتّى يُوقَفوا في الشرع. فإنْ اقرّوا واثبتوا على نفوسهم أنّهم نصارى. وجب قصاصهم بالموت * تامّل في غرابة هذا الجواب وسخافتهِ. وانظر كيف تكلّم مَلِكٌ يُوصَف بالخلال الحميدة * ولنا أنْ نقول: إنْ كان النصارى مذنبين. فلماذا النهي عن تفتيشهم. وإنْ كانوا ابرياء. فلماذا قصاصهم بالموت متى ما جُرّوا الى الشرع * نعم إنّ بصيرة الناس قاصرة إنْ لم تستنِر بنور الايمان. نعم إنّ عدلهم نفسهُ ناقص ومختلّ * اعلم انّهُ بامر هذا الملك باد كثيرٌ

الله القدير وسلامهُ بيسوع المسيح» * ثمَّ بعدما عاتبهم على الانقسام المؤلم الذي سجَّس كنيسة قورنتس . اخذ يصف خلال السيرة المسيحيَّة قائلاً «مَن كان لا يعتبر فضيلتكم وثبات ايمانكم . ومَن كان لا يمدح شدَّة تقواكم . كنتم تسلكون بحسب شريعة الله . وكنتم طائعين لرعاتكم . ومكرِّمين لمشايخكم . وكنتم قدوةً للشبَّان بسترکم وعفافتكم . وكنتم توصون النسوان أَنْ يسلكن في كلّ شيءٍ بضمير طاهر عفيف . وأَنْ يحببن ازواجهنَّ كالواجب . ويستقررن في قواعد الطاعة . ويتفرَّغن لتدبير بيوتهنَّ بكلّ لياقة * كنتم في كلّ شيءٍ متواضعين . محبين الطاعة اكثر من الامر . والاعطاءَ اكثر من الاخذ . راضين بما رزقكم الله لسفر هذه الحيوة الدنيا . مجتهدين بكلّ همَّة أَنْ تسمعوا كلام الله . وكنتم تحفظونهُ في قلوبكم . وكانت شريعة الله قدَّام عيونكم على الدوام . ولذلك كنتم حاصلين على اكمل الصلح والسلامة * كنتم مولعين في عمل الخير . ذوي ارادة صالحة وغيرة وثقة مقدَّسة . وكنتم تبسطون ايديكم نحو القدير . متوسّلين اليهِ ليغفر لكم خطايا الضعف * كنتم تصلّون اليهِ نهارًا وليلاً عن اخوتكم كلّهم . لكي يخلص عدد المختارين لله برحمتهِ وبطهارة ضمائرهم * كنتم خالصين من كلّ زغل خالين من كل خبث بلا شرّ ولا حقد * كنتم تبغضون الفتن وتكرهون الانقسامات . وتبكون على ذنوب القريب كأنَّها ذنوبكم . كنتم تصنعون كلّ

يسوع من الصلاح . وكنتم مستعدّين لكل عمل جميل . وكنتم مزيّنين بسيرة فضيلة كريمة» * ثمّ إنّ البابا الفاضل ذكر الشرور التي حصلت من الانقسام قائلاً «الحسد والخصومة والقلق تملّكت الآن فيما بينكم» * ثمّ اورد امثلة كثيرة من العهد العتيق ليبيّن الشرور المتولّدة من الحسد . ثمّ حرّض اهل قورنثس على التوبة والمحبّة والتواضع ذاكرًا فضائل القدّيسين واحسانات الله عزّ وجلّ ونسبة المسيحيّين بعضهم الى بعض * ثمّ قال «لماذا توجد فيما بينكم الخصومات والانقسامات . اليس لنا جميعًا الاه واحد ومسيح واحد وروح نعمة واحد قد فاض علينا . ودعوة واحدة بيسوع المسيح . فلماذا نمزّق اعضاءهُ . ولماذا نحارب جسمنا نفسهُ * هل بلغ بنا الجهل الى أنْ ننسى أنّنا اعضاء بعضنا لبعض * إنّ مخاصمتكم قد افسدت كثيرين . وارخت كثيرين . واحزنتنا كلّنا * فبادروا في رفع هذه العثرة . واطرحوا نفوسكم على رجلي الربّ . وتوسّلوا اليهِ بالدموع أنْ يعفو عنكم ويردّكم الى المحبّة الاخويّة» * وهذه الرسالة اصابت الغاية التي طلبها القدّيس المعظّم . فانّ اهل قورنثس اتّعظوا بها . وابطلوا الشقاق الذي كان يعثو بهم *

اخينا» . فاطرق الاسقف وقال «قد مات» * قال يوحنا «كيف مات وايّ ميتة» * قال «مات عن الله. لانهُ صار شرّيرًا ولصًّا. وقد استبدَّ بجبل وفيهِ جعل ماواهُ مع جماعة من اللصوص» * فصاح يوحنّا بصوت عظيم وقال «عليَّ بفرس ودليل» . وخرج من الكنيسة. وتوجّه الى الموضع الذي كان فيهِ اللصوص * فقبض عليهِ نواطيرهم وذهبوا بهِ عند قائدهم . وكان ينتظرهُ مسلَّحًا * فلمَّا راى الشابّ يوحنّا. عرفهُ. فاستحوذ عليهِ خجل عظيم وفرَّ هاربًا * فركض يوحنّا وراءَهُ مع شيخوختهِ . وصاح في اثرهِ قائلاً «يا ابني لماذا تهرب عنّي . لماذا تجفل من ابيك الذي هو شيخ بلا سلاح . يا ابني ارحمني . ولا تخَف لانهُ يوجد رجاءٌ لخلاصك بعد . وانا اجاوب عنك بسوع المسيح . واعطي حياتي مسرورًا فديةً عنك كما اعطى المسيح حياتهُ عنّا . فقف عندك . وصدّقني أنَّ يسوع المسيح هو الذي بعثني عليك» * فوقف اللصّ وبكى وتخشّع . فعانقهُ يوحنّا بتعطّف . وامّنهُ ووعدهُ من قبل الربّ بغفران خطاياهُ . وانطلق بهِ الى الكنيسة . وصلّى من اجلهِ . وصام معهُ . ووعظهُ بأقوال مفيدة . ولم يتركهُ حتّى صيّرهُ اهلاً لاخذ الأسرار *

وعاش يوحنّا ماية سنة . ولم يصِر في شيخوختهِ كسيفًا معبسًا . بل كان يبيح الانشراح والصفا الغير المحرَّم . ويستعملهُ هو امام غيرهِ * وحُكي أنهُ كان يومًا يلاعب حجلاً مطبعًا . فمرَّ بهِ صيّاد . فتعجّب

إذ رأى هذا الرجل العظيم يقبل على نفسهِ كلّ هذا التنازل • فقال لهُ يوحنّا «ما هاتيك في يدك يا صيّاد». قال «قوس» • قال «لِمَ لا توترها دائمًا» • قال «لئلاّ تعدم قوّتها». قال «وهكذا انا ايضًا اسرّح قليلاً خاطري لذلك السبب عينهِ» *

الفصل الحادي عشر

في انقسام حدث في كنيسة قورنتس

جلس في رومية على كرسيّ بطرس بعد موتهِ لِينُس ثمّ قليتس ثمّ اقليميس المذكور في رسالة بولس الرسول الى اهل فيلبيّ * وحدث في زمان القدّيس اقليميس شجس عظيم في كنيسة قورنتس(١). وذلك أنّ العلمانيّين تحشّدوا على القسوس لأغراض دنيّة. وعزلوا بعضًا منهم * فكتب لهم اقليميس البابا في هذا الشان رسالةً بديعة مفيدة. وهذه الرسالة ذات اعتبار عظيم في الكنيسة. وهي من اشهر ما وصل الينا من الآثار القديمة بعد الكتاب المقدّس * وقال في مطلعها «من كنيسة الله التي في رومية الى كنيسة قورنتس. الى الذين هم مدعوّون ومقدّسون بارادة الله بربّنا يسوع المسيح * لتفِض على كلّ واحدٍ منكم نعمة

(١) وهي مدينة شهيرة في بلاد اليونان *

اسيا كانت مسلّمة لرعايتهِ اكثر من غيرها * وفي هذا السفر بعدما اودع فيهِ الوصايا الخاصَّة بكل كنيسة من تلك الكنائس. اشرق عليهِ نور الروح الالهيّ فتنبأً بتشابيه عالية عن اندثار عبادة الاوثان وتظفّر الكنيسة *

ولمّا مات دومطيانس. نسخت المشيخة جميع ما كان قد سنّهُ. فرجع يوحنّا الى مدينة افسس. وقضى فيها بقيَّة حياتهِ وهو يسوس من هناك جميع بِيَع اسيا * وكان حينئذٍ عمرهُ تسعين سنة. ومع ذلك لم يمسك نفسهُ عن الذهاب الى البلاد المجاورة ليرسم فيها اساقفة او يقيم فيها كنائس جديدة * وكتب انجيلهُ اجابةً الى طلب اساقفة اسيا. الذين التمسوا منهُ أَنْ يدفع لهم بهِ شهادةً شرعيّة في الوهيَّة يسوع المسيح التي كان بعض الملحدين ينكرونها * وقبل أَنْ يكتب الانجيل امر المومنين بان يصوموا ويقيموا صلوات * وفي تلك الايّام تقريباً كتب رسائلهُ وهي ثلاث. وفيها يعظ بالمحبَّة بافصح العبارات وارقّها. ويظهر منها أَنَّ قلبهُ كان مشتعلاً بهذهِ النار الالهيَّة التي اقتبسها من حضن المسيح لمّا اتّكأ على صدرهِ في العشآء الاخير * واعلم أَنَّ يوحنّا لم يسمِّ نفسهُ في رسائلهِ رسولاً. بل شيخاً بحسب الكنية التي كان بها معروفاً *

الفصل العاشر

في اواخر حياة يوحنَّا الرسول

ورد في التواريخ عن يوحنَّا الرسول قصَّة نادرة لطيفة تحرّك القلب وتبيّن شدّة محبَّة هذا الرسول * ذُكر أَنَّ يوحنَّا اذ كان يوماً في احد اسفارهِ وقد فرغ من وعظة وعظ بها المومنين في احدى مدن اسيا. وقع بصرهُ على شابّ ظريف ذي نباهة ولبابة كان في الجماعة. فامسكهُ بتعطّفٍ. والتفت الى اسقف المدينة وقال لهُ بمحضر الجماعة «اوصيك على هذا الفتى امام الكنيسة وامام المسيح. اهتمّ بهِ» * ثمّ رجع الى افسس * فاقبل الاسقف. وارشد الفتى. وعلّمهُ وهذّبهُ لياخذ سرّ العماد. ثمّ عمّدهُ وثبّتهُ وناولهُ سرّ القربان. واذ حسب أَنّهُ صار مستغنياً عن عناية. تركهُ على شانهِ وخاطرهِ * فاغتنم الشابّ الفرصة. وتصاحب مع أَندادهِ من الشباب ذوي الخلاعة. فاغروهُ أَنْ يعمل معهم كلّ فاحشة. ومال الشابّ لأَهوائهم حتّى سبق رفاقهُ في الفحشآء وصار مقدام قطّاعي الطريق * وبعد سنين رجع يوحنَّا الى تلك المدينة. فطالب الاسقف بالوديعة التي كان قد اودعهُ ايّاهُ. فظنّ الاسقف أَنّ يوحنّا يطالبهُ بوديعة من دراهم واستغرب ذلك * فقال لهُ يوحنّا «انّما اطلب منك الشابّ الذي اسلمتك ايّاهُ. وادّعيك بنفس

مَّا فعلهُ اعدآؤهم بعينهم * فاورشليم في هذا الامر فريدةٌ لا مثيل لها ولن يكون لها نظير. وقد وجب وقوع ذلك لتصحيح نبوَّة المسيح ومساواة عقوبتها لمقدار اثمها اذ صلبت ابن الله. الاثم الذي هو ايضًا لا مثيل لهُ ولن يكون لهُ نظير *

الفصل التاسع

في الاضطهاد الثاني الذي اثارهُ دومطيانس (سنة ٩٢)

انَّ الملوك الذين جلسوا بعد نيرون في مملكة الروم اعطوا بعض الراحة للمسيحيّين لاشتغالهم بالحروب ولحبّ وسبسيانس وطيطس للصلح والهدوّ. الى أَنْ قام بعد طيطس دومطيانس. فامر باضطهاد النصارى. وهذا هو الاضطهاد الثاني * وكان هذا الملك رديًا فيهِ كلّ مساوئ نيرون. وساواهُ في بغض المسيحيّين. فاعطى امرًا منشورًا اراد بهِ ان يقلب لو امكنهُ الكنيسة التي كانت قد انتصبت في كثير من الاماكن وتثبّتت * وكان الله قد اخبر عبيدهُ بهذهِ النائبة قبل أَنْ تقع. ليستعدّوا لها بزيادة القنوت وأَعمال البرّ *

واشتدَّ ظلم دومطيانس الملك. حتى انّهُ لم يشفق على الأَعيان والأَشراف من اهل دولتهِ ولا على ذوي قرابتهِ * فانّهُ

قتل فلاويوس اقليميس احد وزراء المملكة الذي يقال له القنصل ·
وطرح دومتِلّة زوجتهُ في المنفى. لانّهما كانا قد تنصرا * وآذى
باشدّ العذابات اثنين من عبيدهما يقال لهما ناريوس واخيلاوس
لانّهما تبعا مولاهما · وضرب في الآخر عنقهما * وقتل كثيرين ·
واستولى على أموال كثيرين *

ولكنّ الذي بهِ اشتهر اكثر ما يكون اضطهاد دومطيانس
هو استشهاد يوحنا الانجيلي * وذلك أنَّ الوثنيين وشوا بيوحنّا
الى دومطيانس . فامر بجلبهِ الى رومية ۰ ثمّ غطسهُ في مرجل مملوّ
زيتًا مغليًا . وخرج منهُ بلا اذى * وكما احبّهُ المسيح في حياتهِ بين
جميع الرسل . انعم عليهِ بانْ يكون شهيدًا مثلهم . ولكن لم يسمح
للبشر أَنْ يقصّروا عمرهُ ۰ وبذلك صحّ ما قالهُ المسيح عن يوحنّا من
انّهُ سيشرب كاس آلامهِ * وهذه الاعجوبة حدثت في روميّة عند
بابها الذي يقال لهُ اللاتيني. كما ورد في خبر متواتر في رومية
غير منقطع. وهناك يُرى الى الآن بنيانٌ شاهد لذلك. وهو
كنيسة بناها المسيحيّون على اسم يوحنّا تذكارًا لهذه الآية الجليلة *
ثمَّ إنَّ يوحنّا بعدما نجا من الموت بكرامة الاهيَّة نفاهُ دومطيانس
الملك الى جزيرة بَطْمُس. وهي من احدى جزائر بحر اجيه ۰ وهناك
كتب سفر الرويا او الجليان. اذ كان منقطعًا عن الانس ·
وحصل على اكتشافات نبويّة بعثها الى سبع كنائس من كنائس

من كلّ موضع. لانَّ عيد الفصح كان قريبًا • فانفدوا كلّ ما كان في المدينة من الطعام في قليل من الزمان. وحدث جوع شديد * وكان العصاة يهجمون على البيوت وينبشونها لعلّهم يجدون طعامًا مخفى. ويوذون أَصحابها ويغصبونهم باشدّ العذابات ليكشفوها * وبلغ الجوع بالناس مبلغًا عظيمًا. حتّى صاروا يتنازعون كلّ ما وجدوا وياكلونهُ • وربّما خُطف الخبز من ايدي الأَطفال. وحُطموا على الارض ليخلّوا ما في ايديهم *

واما العصاة فلم يرعووا من كلّ ذلك. بل كانوا يزدادون اثمًا ولم يرخوا الايدي * ولكنّ طيطس اخذ القلعة التي كانت تسمّى الانطونيّـة. وتقدّم حتّى بلغ الهيكل. واستولى على الرواقين الخارجين * وعند ذلك قوي الجوع غاية القوّة. حتّى صار الناس ينبشون المزابل وياكلون الأَقذار * وحدث أَنّ امراة اثّر بها الضور تاثيرًا شديدًا. فتناولت ولدها وكان رضيعًا. ونظرت اليهِ بعينين بهلاوين وقالت لهُ «يا ويلاك. على مَ احافظ عليك وابقيك في الحيوة. أَتموت جوعًا او تقع في رقّ الروم» ثمَّ ذبحتهُ. وشوتهُ. وقعدت اكلت نصفهُ. واحرزت النصف الآخر * فاشتمّ الخوارج الرائحة. ودخلوا البيت. وقالوا لها «اريني ما هو مخفى عندكِ. او نقتلكِ» * فقدّمت لهم ما فضل من ولدها. فلمّا راوهُ اضطربوا واقشعرّوا * فقالت لهم «ما بالكم تشمأزّون. قد اكلتُ منهُ انا بعيني

وهو ولدي. وقد ذبحتهُ انا بيدي. العلّ طبعكم الطف من طبع امراة. وقلبكم ارقّ من قلب والدة» * وخرجوا من البيت وهم يشتعلون غضبًا *

ثمّ انّ طيطس صال على الحوطة الثانية من الهيكل * واطلق النار على الأَبواب. ولكن امر بصيانة لبّ الهيكل * ولكنّ واحدًا من العسكر تحرّك بإِلهام الاهيّ (كما قال يوسيفس المورّخ) اخذ بيدهِ جذوةً. وتعلّى على ايدي أَصحابهِ فرمى بها حُجرة متّصلة بالهيكل. فعلقت النار. ودخلت في باطن الهيكل وافنتهُ كلّهُ على رغم كلّ ما صنعهُ طيطس ليمنع الحريق * ثمَّ إِنَّ الروميّين قتلوا كلّ مَن وجدوا في المدينة. وجعلوا النار والدم في كلّ مكان * وهكذا صحّت نبوّة المسيح *

واقرّ طيطس نفسهُ أَنَّ هذا اليمن الذي اصابهُ لم يكن فعلهُ. وأَنَّهُ إِنَّما كان آلة نقمةٍ بيد الله * وهلك في هذا الحصار الف الف ومائة الف نفس من اهل المدينة. وباقي الامّة اليهوديّة تفرّقوا في كلّ المملكة الروميّة * مَن لا يرى في هذه الضربة العظيمة جزاءَ اثم اليهود وكفرهم اذ قاموا على مسيح الربّ. فانّهُ ان كان غير اورشليم من المدن قد اصابها الحصار او الجوع. فلم يُذكر عن مدينةٍ من المدن أَنّها حوصرت من خارج وتقسّم اهلها بالفتن من داخل. وجفا بعضهم بعضًا وعادَوا بعضهم بعضًا اشدّ

اكثره واذا سُئل مَن انت ومن اين اتيت وما مرادك بهذهِ
الصياحات . لا يجيب شيئًا . بل يقبل على صياحهِ ومقالهِ * وفي
الآخر طردوهُ كمعتوه . ولكنّهُ لم يرتدّ عن دابهِ * وكان الناس
يتعجّبون من أنَّ صوتهُ مع كثرة الصياحات الشديدة التي كان
يصيحها لم يكن ينبحّ * ولمّا حوصرت اورشليم آخِر حصار . حبس
نفسهُ في المدينة . وكان يدور حول المتاريس ويصيح بصوت عظيم
«الويل للهيكل . الويل لاورشليم . الويل للشعب» * وفي الآخِر زاد
على قولهِ «الويل لي» . وفي الحال اصابتهُ من منجنيق صفاةٌ وقتلتهُ *

تامّل أنَّ الله اظهر انتقامهُ منظورًا في هذا الانسان الذي
اقامهُ ليعلن أحكامهُ . وقوّاهُ لكي يكون صياحهُ على قدر البلآء
الذي كان عتيدًا أنْ يلمّ بالامّة . وجعلهُ نبيًّا وشاهدًا لا بل قتيلاً
ايضًا ليتّضح اكثر ما يكون تهديدهُ تعالى ويخوّفهم بهِ اشدّ تخويف *
وكان هذا المتنبئ ببلايا اورشليم يسمَّى يشوع . فكأنَّ اسم يسوع
الذي هو اسم خلاص وسلام . انقلب على اليهود الذين رذلوا
المسيح صاحب هذا الاسم الشريف . وصار لهم اسم ويل ووبال .
وكأنّ هولآء القوم الخائنين لمّا رفضوا ذلك يسوع الذي بشّرهم
بالنعمة والرحمة والحيوة . ارسل الله لهم يسوعًا آخر يوعدهم بنكبةٍ
عظيمة لا مفرّ منها وبدثار قريب *

الفصل الثامن

في خراب اورشليم (سنة ٧٠)

كان اليهود تحت حكم الروم. وكانوا يكرهون ولايتهم. فخرجوا واندروا بالعصيان. وصار هذا عصيانهم سبباً لبوارهم * امَّا العقّال من الامَّة فهربوا من اورشليم خوفاً من الشرور التي كانت قريبةً أَنْ تلمّ بها. واماَّ النصارى الذين كانوا فيها فانضووا الى احدى مدن الشام اسمها بيلا موقعها في وسط الجبال. كما كان ربّنا قد اوصى تلاميذهُ اذ تنبأَّ بخراب الهيكل *

وانكسر عسكر الروم في الاوّل. فاشتدَّ اليهود جسارة. ولكن بعد ذلك أُقيم وَسبَسْيانس رئيساً على الجيش. فهذا غار عليهم وكسرهم * وعند ذلك وقع انقسام بين اليهود. وتفرّقوا الى فِرَقٍ اتوا بكلّ نوعٍ من المنكر * فكانت المدينة الشقيَّة مضنوكة من داخل بفتن اهلها. وممنوّة من خارج بصولة الروم * ولمّا بلغ مسامع وسبسيانس حال اهل المدينة. تركهم على ذلك الحال ليفسخوا بعضهم بعضاً. فيهون عليهِ استيلاؤُهم *

ثمَّ بويع وسبسيانس بالقيصريَّة. فاقام ابنهُ طيطس مكانهُ على الحصار * فاتى طيطس وضرب خيامهُ قريباً جدًّا من اورشليم. وحجز عنها كلّ منفذ * وكان في المدينة خلق كثير قد قدموا

جديد)) * ففهم بطرس معنى ذلك . اي أَنَّ المسيح ازمع أَنْ يُصلَب بوكيلهِ ثانيةً • فرجع الى الحبس . فامسكوهُ وحكموا عليهِ بانْ يموت مصلوبًا • وطلب أَنْ يعلّقوهُ على الصليب منكّس الراس . لانَّهُ حسب نفسهُ غير مستاهل أَنْ يموت بالهيئة التي بها مات مولاهُ * واماَّ بولس الرسول فضربوهُ بالسيف . لانَّهُ كان روميًا • وقيل انّهُ عند ما ذهبوا بهِ الى القتل . دعا ثلاثةً من الجند الى الايمان . وهم استشهدوا بدمهم بعد قليل *

هذا هو اوّل الاضطهادات التي اثارها ملوك الروم القياصرة على الكنيسة • وهي تفتخر بانَّ الذي عاداها اوَّل مرَّة كان ملكًا معدومًا كلّ صلاح * وقد لاق في من كان اسوأ الناس على الارض أَنْ يكون اوَّل عدوّ حارب الديانة النصرانيَّة *

الفصل السابع

في النبوَّة بخراب اورشليم

وفي تلك الأَثناءَ قرب الوقت الذي كان المسيح قد تنبَّأ بانْ يكون فيهِ خراب مدينة اورشليم وهيكلها . وكما قال المسيح قبل انقضاءَ الجيل حدث ذلك * ذكر اليهود بحديث متواتر ووارد في كتابهم المسمَّى تلموذًا أَنَّهُ قبل خراب اورشليم باربعين

سنةً اي منذ الزمان الذي فيهِ تنبأَ المسيح كانت تُرى في الهيكل اشياء غريبة بلا انقطاع . وكان كلَّ يوم يظهر حادث عجيب جديد . حتى أَنَّ احد الربيّين صرخ يوماً « يا أيّها الهيكل يا ايّها الهيكل . ما الذي يزعجك . ولماذا انت متأَلّم من نفسك » * وسُمع في عيد الفنطقسطي صوت يقول في داخل قدس الأَقداس « هلمّ نخرج من هنا . هلمَّ نخرج من هنا » * كان ذلك صوت الملائكة حرَّاس الهيكل اذ ارادوا ان يتركوهُ . لانَّ الله الذي اقام فيهِ سكناهُ دهوراً كثيرة قد رفضهُ *

ثمَّ انَّ اليهود قبلما خربت اورشليم باربع سنين وقع بينهم حادثة انبأَتهم عن ذلك . كما نصَّ عليهِ يوسيفس المؤرّخ العبرانيّ نفسهُ * قال : كان رجل اسمهُ يشوع بن حنَّان آتياً من ظاهر المدينة الى الهيكل ليعيّد عيد المظالّ . وكانت المدينة في هدوّ عظيم . فشرع يصيح من بغتةٍ « الويل للمدينة . الويل للهيكل * صوت من المشرق . صوت من المغرب . صوت من الرياح الاربع . الويل للهيكل . الويل لاورشليم » * فاخذوهُ وذهبوا بهِ الى والي الروم . فامر بان يُضرَب بالعصيّ ضرباً مزّقهُ ايّ ممزَّق . ولكنّهُ مع شدَّة المهِ لم يستغث ولم يسترحم . ولا دمّع دمعة * وكان على كلّ ضربة يضربونهُ اياها يقول بصوت حزين « الويل الويل لاورشليم » * ثمَّ انهُ كان في ايَّام الاعياد يصيح بصوت اعلى ويردّد القول

اعمال * فعلّم هذا الرسول الشريف أَنَّ البرارة اذا كانت حقيقيةً فلا بدّ من ان ترافقها ارادة العمل بوصايا الله. وأَنَّ عبيد الله عزَّ وجلّ دابهم أَنْ يعملوا أَعمالاً صالحة كثيرة. وبيّن ذلك بمثال كثير من الاولياء الذين اشتهروا في كلّ زمان بأَعمال برّيّة *

الفصل السادس

في الاضطهاد الاوّل الذي امر بهِ نيرون (سنة ٦٤)

كانت الكنيسة قد اصابها اذيَّات كثيرة من قبل اليهود والامميّين. غير انَّ هذه لم تكن اضطهادات عامّة * واوَّل من قاوم النصارى بشوكة الحكم كان نيرون الملك قيصر رومية * وكان نيرون ملكًا قاسيًا جافيًا. وكان مغتاظًا من انَّ كثيرين ولاسيَّما من اهل قصرهِ تركوا عبادة الاوثان. فامر امرًا قويًّا بان يُمنع الناس من ان يتنصَّروا. وخرج ذلك الامر في الوقت الذي فيهِ احترق جانب عظيم من مدينة رومية. وقيل انَّ نيرون نفسهُ القى النار على المدينة. لكي يبنيها من جديد بناءً احسن من الاوّل * فاراد أَنْ يدفع عن نفسهِ هذا الظنّ. ويشغل السنة الناس ويصرف غضبهم عن نفسهِ. فاوقع التهمة على النصارى بذلك الحريق. وشرع يضطهدهم اقبح اضطهاد * فقُبض على كثيرين

من النصارى وقُتِلوا. كما ذكر المورّخون الوثنيّون نفسهم. لأَنَّ جنس البشر كان يبغضهم لسبب ديانتهم الجديدة. لا لأَنَّهم احرقوا المدينة * ولم يكتفِ نيرون أَنْ يعذّبهم بالعذابات المعهودة. بل امر فلُفّ بعضهم بجلود الوحوش. وطُرحوا للكلاب لتفترسهم. وبعضهم أُلبسوا قمصانًا مصبوغة في القير. وشُدّوا باوتاد. ثمّ أُطلقت فيهم النار. فصاروا مشاعل تضيء في الليل * وكان نيرون يتمشّى في جنانهِ بعرباتهِ مستصبحًا بهذهِ المشاعل البشريّة التي يقشعرّ الجسم من رويتها * غير أَنَّ اهل رومية مع كونهم يبغضون النصرانيّة اشفقوا على هولآء المعذّبين. ولم يحملوا أَنْ يروا ملكًا قاسيًا يروي بهم غلّتهُ *

وفي هذا الاضطهاد استشهد الرسولان العظيمان بطرس وبولس * قيل انَّ هذين الرسولين بقيا مدَّة تسعة اشهر في سجن قريب من تلّ شهير في رومية اسمهُ كابِتول كان عليهِ يومًا دار الحكومة. وانَّ اثنين من نواطيرهما لمّا رايا الآيات التي كان الرسولان يصنعانها تنصّرا. وأَنَّ بطرس عمّدهما هما وسبعة واربعين واحدًا كانوا حينئذٍ في السجن * وحاول المومنون الذين في رومية أَنْ يفكّوا بطرس من السجن خفيةً. ولجّوا بهِ لكي يهرب. وبعد اللجاجة الطويلة اجاب الى ارادتهم. وخرج. فلمّا بلغ الى باب المدينة. ظهر لهُ المسيح. وقال لهُ «انا منطلق الى رومية لأُصلَب وأموت من

الهيكل حيث لم يكن احد. فيجثو امام الله بالصلوة والقنوت طالبًا منهُ غفرانًا لخطايا الشعب * ولطول ركوعهِ في هذه الهيئة تصلّبت ركبتاهُ كجلد الجمل * ولسبب هذه الخلال لُقّب بالصدّيق *

وحدث أَنّهُ اذ مات فِسطُس والي اليهوديّة. انتهز هذهِ الفرصة أنانُس[1] قبل أَنْ ياتي والٍ آخر. لكي يمنع انتشار الانجيل. فجمع محفلاً. وامر فأُتي بيعقوب الرسول. فسأَلهُ بمكر عن المسيح. وقال لهُ: إِنَّ العامّةَ يتّخذون يسوع هو المسيح. فيجب عليك انْ ترفع هذهِ الضلالة من أَذهانهم. لانّهم يسمعونك * ثمَّ طلع بهِ الى سطح الهيكل. وامرهُ أَنْ يخطب الناس من هناك * وكان الكتبة والفرّيسيّون حاضرين. فرفعوا صوتهم وقالوا لهُ «أيّها الصدّيق المصدَّق. لمّا كان العامّةَ في ضلالة من قبل يسوع المصلوب. قل لنا انت ما هو الحقّ في امرهِ» * فصاح يعقوب بصوت عظيم وقال «انَّ يسوع ابن البشر الذي تكلّمتم عنهُ جالس الآن عن يمين ذي الجلالة الالهيَة اذ هو ابن الله. وسياتي على سحب السماءِ ليدين العالم» * وهذه الشهادة الجليلة التي ادّاها يعقوب الرسول ثبّتت النصارى في الايمان الذي كانوا آنفًا قد قبلوهُ. وقالوا كلّهم بصوت واحد «المجد لابن داود. الوقار والسبح ليسوع» *

---

(١) وهو ابن حنّان رئيس الكهنة. الذي قدّامهُ اوقفوا اوّلاً ربّنا يسوع المسيح لمّا امسكوهُ في بستان الزيتون *

وأمَّا الفرّيسيّون فلمَّا راوا انَّ املهم خاب . شرعوا يقولون بعضهم لبعض «ما هذا الذي صنعناهُ . لماذا جلبنا هذه الشهادة في حقّ يسوع . فلا بدّ من ان نهوّر هذا الرجل» * ثمَّ صرخوا قائلين «يا للعجب . الصدّيق ايضًا في ضلالة» * وارتقوا الى سطح الهيكل وهم يلتهبون غضبًا . وطرحوا يعقوب الى اسفل * ولكنَّهُ لم يُمت لساعتهِ . بل جثا على ركبتيهِ . وصلّى قائلاً «يا ربّ اغفر لهم . لانَّهم لا يدرون ما يصنعون» * وامَّا اعداؤهُ فصاحوا «هلمَّ نرجمهُ» . وفي الحال رجموهُ بالحجارة * وكان فيهم رجل رقّ قلبهُ على يعقوب . فقال لأصحابهِ «ماذا تصنعون . قفوا عندكم . اما ترون الصدّيق يصلّي عليكم . وانتم تقتلونهُ» * واقبل على القدّيس قصَّار كان هناك بمقصرهِ . فضربهُ على راسهِ ضربةً نزعت روحهُ *

وكان القدّيس شهيرًا بقداسةٍ عظيمة عند الامَّة . حتَّى أنَّهم حسبوا خراب اورشليم عاقبة موتهِ * وقبروهُ الى جانب الهيكل في الموضع الذي فيهِ استشهد . ونصبوا هناك عمودًا *

وكان يعقوب القدّيس قد كتب رسالةً موجودة في العهد الجديد . هي احدى الرسائل المسمَّاة القاثليقيَّة اي الجامعة للكنيسة كلّها اذ لم تُرسَل الى مدينة او قوم مخصوصين . وفي هذه الرسالة قصد الرسول ان يبيّن ضرورة الأعمال الصالحة للخلاص . لانَّهُ كان قد بلغهُ أنَّ قوماً زعموا انَّ الايمان يكفي وحدهُ للخلاص بلا

ومن الحيوانات المخنوقة ومن الدم ومن الزنا *

اعلم أنَّ الرسل بهذا المجمع اعطوا الكنيسة قاعدةً تبعتها في القرون الآتية في المجامع المسكونيَّة التي عقدتها لتحديد ابواب الايمان ورسم قوانين الشريعة . وذلك بسلطنة رياسيَّة مطلقة غير متعلّقة بسلطة الحكَّام الدنيويّين في الامور التي تتعلّق بخلاص النفس * وانظر كيف إنّهُ منذ وقع خلاف بين المومنين . بعثوا حالاً وشاوروا كنيسة اورشليم التي فيها بدأ الانذار بالانجيل وفيها كان حينئذٍ بطرس رئيس الكنيسة كلّها * فاجتمعت الرسل . وتفاوضوا وتقاولوا في حقيقة الامر . وقال كلّ منهم ما بدا لهُ . ثمَّ حكموا * وانظر كيف بطرس صار رئيس المحفل . وهو فتح الخطاب وعرض القضيَّة . واتى برايهِ اوَّل الجميع * ولكن لم يكن وحدهُ قاضياً . لانَّ يعقوب ايضاً قضى . وصرَّح بذلك * ثمَّ انظر كيف انَّ قضيَّة الحكم سندوها على الكتاب المقدَّس . وعُقدت باتّفاق الآراء . وحُرّرت خطاً . لا كانّها حكم بشريّ . بل كحكم الاهي علويّ . اذ قالوا بثقة : قد رأى روح القدس ورأينا نحن * ثمَّ ارسلوا القضيَّة الى الكنائس . لا ليفحصوها . بل ليقبلوها ويعملوا بها بكلّ ضبط * فترى أنَّ روح القدس يتكلّم بفم الكنيسة . ولذلك بولس وسيلا لمّا انطلقا الى التلاميذ بحكم الرسل . لم يسمحا لهم أنْ يقاولوا القضيَّة التي صدر الحكم بها . بل كانا في ايَّة مدينة انطلقا يامران

اهلها بحفظ مرسوم الرسل * وهكذا بنو الله يذعنون لحكم الكنيسة دائمًا . اذ يعلمون أَنَّهُ بلسانها يتكلّم روح القدس * ولذلك عند ما نقرّر قاعدة ايماننا . بعد ما نقول «نومن بروح القدس» . نقول «وبالكنيسة المقدّسة القاثليقيّة» . وبذلك نشهد أَنّنا نعتقد بوجود الحقّ المعصوم من الغلط في الكنيسة الجامعة دائمًا . لانَّ هذه الكنيسة التي نعتقد بها دائمًا متى ما لم تعلّم الحقّ الذي اوحى بهِ الله . لم تكن هي الكنيسة * وهذا الاعتقاد مسند على الوعد العظيم الذي بهِ قال المسيح «أُعطيتُ كلَّ سلطان ممّا في السمآء وعلى الارض . فاذهبوا اذًا وتلمذوا جميع الامم . وعلّموهم حفظ جميع ما اوصيتكم بهِ . وها انا معكم كلَّ الايَّام والى انقضآء الدهور» *

الفصل الخامس

في قتل يعقوب الصغير (سنة ٦٢)

راينا سابقًا أَنَّ يعقوب الصغير كان اسقف اورشليم * كان يعقوب محبوبًا عند المومنين وموقّرًا عند اليهود نفسهم لعظم قداستهِ * وكانت حياتهُ زهديَّة نسكيَّة . فلم يكن يقصّ شعر راسهِ . ولا يشرب خمرًا ولا مسكرًا * وقيل أَنَّهُ كان يمشي حافيًا . ولم يكن لهُ الاَّ ردآء واحد وقميص واحد * وكان معتادًا أَنْ ينطلق الى

الى شريعة موسى . ويحاولون أنْ يلزموا بها الاميّين الذين كانوا يتنصّرون * فجاءوا الى مدينة انطاكية . وكان في هذه المدينة حينئذٍ بولس الرسول وبرنابا [1] . وهيّجوا شغباً قائلين بانَّ الاميّين المتنصّرين لا يخلصون إنْ لم يقبلوا الختانة وسائر الرسوم الموسويَّة * فقام عليهم بولس وبرنابا . وفهّاهم أنَّ المسيح جاءَ ليعتق البشر من هذه العبوديَّة . وأنَّ نعمتهُ تكون غير نافعة للّذين يزعمون الختان فرضيّاً * وانتهى الراي بانْ ينطلقا الى اورشليم . ويشاوروا الرسل في هذا الشان * فلمّا بلغا . استقبلتهما الكنيسة كلّها * وكان بولس قد جاءَ بإلهام الاهيّ . فكلّم الرسل الذين كانوا اذ ذاك في اورشليم . وهم بطرس ويعقوب [2] ويوحنّا . وكان هولاءِ محسوبين دعائم الكنيسة . وقابل تعليمهُ للاميّين الذي نالهُ بدون معلّم بل بوحي الاهيّ مع تعليمهم . فراى تعليمهم موافقاً لتعليمهِ * فاجتمع الرسل الخمسة والقسوس في مجمع واحد . ليبحثوا عن القضيَّة ويحكموا فيها * وبعد كلام كثير قام بطرس وقال «انتم تعلمون يا اخوتي أنَّ الله اختارني من زمان

(١) كان برنابا في الاصل يهوديّاً من جزيرة قبرص . وكان من اوّل الذين تتلمذوا للرسل بعد صعود المسيح . واهتمّ كثيراً في نشر الايمان المسيحيّ *

(٢) هذا هو يعقوب الصغير احد الاثني عشر واخو سمعان ويهوذا ابني قليوفا ومريم اخت سيّدتنا العذراءِ . ويقال لهُ اخو الربّ لانّهُ ابن خالة المسيح * اقيم بعد صعود المسيح بقليل اسقفاً على اورشليم * وانمّا قيل لهُ الصغير . لتمييزهِ من يعقوب ابن زبدى اخي يوحنّا الانجيليّ الذي يسمّى يعقوب الكبير *

لابشّر بالانجيل الامم بفمي. والعارف بما في القلوب شهد لايمانهم اذ اعطاهم روح القدس كما اعطاهُ لنا (اراد بذلك دعوة قرنيليوس الامميّ قائد المائة المشروحة في الاصحاح العاشر من قصص الرسل). فلماذا تجرّبون الله اذ تضعون على التلاميذ نيرًا لم يقدر آباؤنا أَنْ يحملوهُ * إِنَّنا نرجو أَنْ نخلص نحن وهم بنعمة يسوع المسيح ربّنا» * فصمتت الجماعة كلّها. وكانوا يسمعون باصغاء ما كان يحكيهِ بولس وبرنابا عن العجائب التي صنعها الله من سببهما بين الامم * ثمَّ تكلّم يعقوب الرسول. وايّد كلام بطرس بشواهد الانبياء عن دعوة الامم. ثمَّ قال: ولذلك انا احكم انهُ لا ينبغي أَنْ نعارض الامميّين الذين يتوبون الى الله. ولكن نكتب لهم فقط ان يمتنعوا من نجاسة الاوثان ومن الزنا ومن اكل المخنوق والدم * وانَّما الرسل نهوا الامميّين عن الزنا. لانَّ الزنا لم يكن محسوبًا جريمةً عظيمةً عند الوثنيّين * واما تحريم المخنوق والدم فكان من باب المسايرة مع الامم الى زمان. لتسهيل اختلاط اليهود معهم بحفظ هذا الرسم الواحد من رسوم شريعة التوراة * وبعد ما انتهوا الى راي واحد. ارتاى الرسل والقسوس والكنيسة كلّها أَنْ ينتخبوا واحدًا منهم. ويرسلوهُ الى انطاكية مع بولس وبرنابا. وسلّموهُ رسالة الى المومنين فيها إِنهاء المجمع. وهذه صورتهُ: قد راى روح القدس ورأينا نحن معهُ أَنْ لا نضع عليكم ثقلاً سوى أَنْ تمتنعوا من اللحمان المقرّبة للاوثان

وهذا الكلام قالهُ لوقا عن كنيسة اورشليم خاصةً * اما بقية الكنائس التي كانت مركّبة من امميّين فانها ولو لم يكن فيها هذا الكمال الذي ذكرهُ الكتاب الالهيّ عن اورشليم . كانت مزهرة جدًّا في الفضائل والقداسة . وأحوالهم تزيد العجب اذا قوبلت مع ما كانوا فيهِ قبلاً عند ما كانوا وثنيّين * فكانوا اذا ما اعتمدوا . ينقلبون من حال الى حال . كأنّهم ليسوا الذين كانوا قبلاً . ويغيّرون سيرتهم . ويعيشون عيشةً روحانيةً قدسيّة . ويستهونون ما كانوا يحسبونهُ قبلاً غير ممكن * والذين كانوا سابقًا متعبّدين للعهارة . صاروا انقياء عفيفين قنوعين . واهل المراتب والمجد لم يجدوا فخرًا الاّ في الصليب * وكانت الأهوآء كلّها مضبوطة مقهورة . والفضائل باجمعها منظفّرة متملّكة * وكان المسيحيّون يزهدون في الصفا والرغد والعيش الهنيّ . ويحبّون الشغل والخلوة والصوم والسكوت * وكان دابهم الزائد في الصلوة . وقد امر بولس الرسول بهذه الخلّة اوّل كلّ شيءٍ . ووعظهم أنْ يدمنوا عليها . فكانوا يعملون كلّ وسيلة لكي لا يمنعهم شيءٌ عن ان يكونوا مع الله بوصال روحانيّ ومشتغلين بالامور السماويّة * وكان اكثر ما يصلّون في الجماعة . لعلمهم أنّهُ كلّما كثر الذين يجتمعون في الصلوة وطلب النعمة الواحدة من الله . تشتدّ صلاتهم قوّةً لنوال ما يطلبون بمقتضى قول مخلّصنا : « اذا اجتمع اثنان منكم في الصلوة على الارض .

يكون لهما ما يطلبان من قبل ابي الذي في السموات • وحيثما اجتمع اثنان او ثلاثة باسمي . فانا اكون في وسطهم » * وكان من عادتهم أنْ يبدأُوا اعمالهم كلّها بالصلوة ويختموها بالصلوة . لئلاّ يسهوا عن حضرتهِ تعالى • وكانوا يهذّون في شريعة الله . ويراجعون في بيوتهم ما كانوا قد سمعوهُ في مجتمعاتهم . ويحفظون في بالهم وصايا راعيهم ويتفاوضون فيها * والآباء على الخصوص كانوا يروّضون عيالهم كذلك * فكانت عيشة المسيحيّين سردًا غير منقطع من الصلوة والقراءة والشغل متتابعة بحسب الأوقات . لا يقطعها الاّ قضاء حوائج الحيوة * وممّا يوجب العجب لمن يتأمّل في هذا حال المسيحيّين هو انهم كانوا قبلاً متفرّغين لكلّ نوع من الفحشاء * ومن اين هذا التغيير . اليس ذلك من صنيع قدرة الله الذي خلق العالم من العدم . ويظهر عظمتهُ اذ يميل ارادة الانسان من دون ان يمنع التخيير * فيكون الله من جهةٍ يعمل ما يعمل بسلطة وقوّة لا يردّها شيء . ومن جهة اخرى يترك للانسان حرّيتهُ لانهُ يريد منهُ طاعةً اختياريّة *

الفصل الرابع

في مجمع اورشليم

وكان بعض اليهود الذين تمسّكوا بالديانة النصرانيّة يميلون

الكبرى. ومتّى في الفرس. وسمعان في بلاد بين النهرين اي الجزيرة. ويهوذا في بلاد العرب. وماثيا في بلاد الحبش * [امّا رومية وايطاليا ونواحيها فكرز فيها بطرس وبولس الرسولان العظيمان. وفي بلاد اليونان ومقدونية التي هي روملي كرز بولس. وديار مصر انذر فيها مرقس البشير صاحب الانجيل. وسورية انذر فيها بطرس وبولس وبرنابا وفيلبّس. وبلاد بين النهرين واثور والعراق كرز فيها توما الرسول وادّى احد السبعين وماري تلميذهُ] * ولا حاجة الى حجج لتبيين ذلك. لاننا نرى جميع هذهِ البلاد في اواخر القرن الاوّل مشحونةً من الكنائس المسيحيَّة. فمن اين قامت هذهِ الكنائس. اليس من الرسل. حتَّى صحَّ فيهم ما قالهُ بولس الرسول عن كتاب المزامير: خرج صوتهم الى كلّ الارض. واقوالهم الى اقاصي المسكونة *

الفصل الثالث

في فضائل المسيحيّين الاوَّلين

لقد كانت الكنيسة في منشأها ومبادئها جميلة تدهش عقل المتأمّل فيها * قال لوقا الالهيّ في كتاب قصص الرسل واصفاً حال المسيحيّين الاوّلين: كان لجمهور الذين آمنوا قلبٌ واحدٌ ونفسٌ

واحدة . ولم يكن احدٌ يقول في الأَموال التي كان يملك بانَّها لهُ .
بل كان عندهم كلّ شيءٍ مشتركًا .... ولم يكن فيهم احدٌ محتاجا :
وذلكَ أَنَّ كلَّ الذين كانوا يملكون حقولاً او منازل.كانوا يبيعونها .
وياتون بأَثمان الاشياءَ المبيعة . ويضعونها عند ارجل الرسل . وكان
يُقَسَّم على انسانٍ انسان حسبما كان محتاجًا * وكانوا مواظبين على
تعليم المخلّص والصلوة وكسر الخبز اي تناول سرّ الاوخرستيا *
انتهى * فكان هذا حال المسيحيّين الاوّلين . وداموا على هذا الحال
بقلب واحد ونفس واحدة . وكانت اموالهم مشتركة . فكانوا يبيعون
املاكهم ويقسّمونها على المحتاجين * وكانوا يلازمون هيكل الله بروح
واحدة . ويكسرون الخبز الالهيّ في البيوت . ويتناولون طعامهم
بسرور وسلامة قلب وهم شاكرون الله ومحبوبون عند الشعب *
وكانت تجري على ايدي الرسل آيات وكرامات كثيرة . وكانوا
كلّهم متَّفقين بقلب واحد * وامَّا بقيَّة الناس فلم يكن احد منهم
يتجاسر ان يقترن بهم في الهيكل . بل كان كلّ الشعب يعظّمهم *
وكان الذين يومنون بالرب يزدادون اكثر فاكثر من جماهير
الرجال والنساءَ * وكانت كلمة الله تنشو . وعدد التلاميذ يكثر
في اورشليم نفسها جدًّا . وجمٌّ غفير من الكهنة كان يطيع الايمان *
وكانت الكنيسة في كلّ اليهوديَّة والجليل والسامرة في صلح . وكانت
تُبنَى وتسير في مخافة الربّ . وتتكاثر بتعزية روح القدس * انتهى *

الامير واليها واكثر سكانها * ثمَّ جاز الى بسيديا وفمفولية وليقاونية وفروجية وغلاطية وموسية ومقدونية . وكان يجذب الأقوام الكثيرة بإنذارهِ * وفي مدينة فيلبي انشأ كنيسة جليلة لبثت ثابتة في ايمان الرسول وحبّهِ بلا زلل * ثمَّ توجَّه الى تسّلونيقي قاعدة بلاد مقدونية . وفي طريقهِ كسب جمًّا غفيرًا من الناس . ثمَّ اقام في تسّلونيقي وانشأ فيها كنيسةً اشتهرت وصارت قدوة لغيرها * ومن هناك انطلق الى اخائيّة . وكرز في اثيناس[1] . وخطب في وسط مجلس الاريوس فاغوس[2] . فامال الى الايمان ديونوسيوس الاريوفاغيّ وغيرهُ * ثمَّ انطلق الى مدينة رومية . واقام فيها سنتين صحيحتين . وهو يكرز بملكوت الله حتَّى في قصر الملك نيرون . وامال كثيرين من العظماء *

وامَّا باقي الرسل فانبثّوا في الأمصار والاصقاع الكثيرة من المملكة الروميّة[3] . وزرعوا بذار الحقّ والخلاص حيثما انطلقوا *

وكثر المسيحيّون ونموا وانتشروا بسرعة في هذهِ مبادئ الديانة النصرانيَّة . حتَّى انّهُ في اواخر القرن الاوّل لم يكن موضع من المملكة الروميَّة الاّ وفيهِ من النصارى * وهكذا الرسل حقَّقوا

---

(١) هذه مدينة شهيرة لليونان . كانت مركز العلوم والصنائع وكلّ المعارف اليونانيَّة * (٢) الاريوس فاغوس كان مجلس قضاة في اثيناس مشهورين بحكمهم وحكمتهم وعدلهم . حتّى كانوا يقضون في الظلمة لئلاَّ يميلوا عن الحقّ اذا نظروا الى اصحاب الدعاوي * (٣) اعلم انَّ جلّ البلاد المعروفة حينئذٍ كان بيد ملوك الروم وهم القياصرة . فكانت مملكتهم متّسعة جدًّا *

آيات المسيح ولاسيّما قيامته مما راوهُ بعيونهم. وسمعوهُ بآذانهم. وجسّوهُ بايديهم. وشهدوا عنها امام كلّ الامم من اليهود والوثنيين واليونان والاعجميين والعلماء والجهّال والعامّة من الناس والخاصّة من الامراء * وادّوا هذه الشهادة بلا غرض نفسانيّ مع مخالفة الفطنة البشريّة الى آخر نفس. حتّى ختموها بدمائهم * وهذه سرعة انتشار الديانة المسيحيّة في كلّ مكان هي من اقوى الدلائل على انّها ديانة الاهيّة ومن عمل الله. وهي آية لا يقدر الكفر أنْ يقف امامها. اذا لم يغمض عينيهِ عن الضوء * وكان يسوع المسيح قد تنبّأ بانّ انجيلهُ ينتشر في كلّ العالم. وحدث ذلك بعد موتهِ بزمان يسير. لانّهُ كان قد قال: اذا ما رفعوني عن الارض. اي علّقوني على الصليب. جذبتُ اليَّ كلّ شيء * وقبل أنْ يستقصي الرسل كلّ النواحي. كان بولس يقول لاهل روميّة انّ الايمان يُنذَر بهِ في كلّ العالم. ولاهل قولسايس انّ الانجيل تسمع بهِ كلّ خليقة وانّهُ يُنادَى بهِ ويثمر وينمو في كلّ العالم * حكت الأَخبار المتواترة انّ توما الرسول[1] انذر السريان الشرقيّين والفرس والهند. ويوحنّا اهل آسيا الصغرى وكان مقرهُ خصوصاً في افسس. واندراوس في بلاد السقوثيّين وهي الجهات الشماليّة عن البحر الاسود. وفيلبّس في البلاد العالية من اسيا. وبرثلماوس في ارمنية

---

(١) هو الذي شكّ في قيامة المسيح. ثمّ جسّ جنبهُ فآمن *

هذه الدعوة من الناس . فلا بدّ من أَنْ تزول من نفسها . وإن كانت من الله . فلا تقدرون انتم أَنْ تمنعوها * فاعجبهم هذا الراي . غير أَنّهم قبل أَنْ يطلقوا الرسل . جلدوهم . ثمَّ امروهم أَنْ لا يتكلّموا عن يسوع * ورجع الرسل فارحين لأنَّهم استحقّوا ان يهانوا من اجل معلّمهم . ولم ينكفّوا عن أَنْ يكرزوا بيسوع في الهيكل ويعلّموا المومنين في البيوت *

الفصل الثاني

في انتشار الانجيل

وكان عدد تلاميذ المسيح يزداد يومًا فيومًا . وكانت البيعة في اورشليم كثيرة الناس جليلة . وفيما كتب لوقا البشير[١] كتاب قصص الرسل * ويظهر أَنّها كانت حاوية جمًّا غفيرًا من الذكور والاناث ومن كلّ صنفٍ وفجٍّ وقدٍّ * ولم تنتشر الديانة في اورشليم فقط . بل اذ انفصل الرسل منها لسبب الاضطهاد الذي قام عليهم فيها . وتفرَّقوا في البلدان . نشروا تعليم الحقّ في كلّ مكان . ونصبوا في الاماكن التي انطلقوا اليها كنائس من العبرانيّين والاميّين[٢] *

---

(١) هو تلميذ بولس الرسول وصاحب الانجيل الثالث . قيل انّهُ كان سريانيًّا . وقيل بل كان عبرانيًّا . وهو كان طبيبًا * (٢) المراد بالعبرانيّين هنا المومنون من اليهود او بني اسرائيل . وبالاميّين المومنون من عبّاد

ومن جملتهم بطرس الرسول قصد اماكن كثيرة . واقام فيها كنائس • ونصب اوّلاً كرسيّهُ في مدينة انطاكية [وكانت هذه المدينة اذ ذاك قاعدة بلاد سوريّة او الشام . وكانت مدينة عظيمة عامرة . ولسبب قيام بطرس كرسيّهُ الاوّل فيها . اشتهر اساقفتها منذ الاول . ونالوا ثالث درجة في الرتبة والسموّ بين الكراسيّ] * ثمَّ انطلق بطرس الى مدينة رومية . وكانت مقرّ المملكة الروميّة القيصريَّة وقطب دائرة عبادة الأَصنام . فاراد أَنْ يقهر الشيطان في الموضع الذي فيهِ كان اشدُّ سلطةً * وكان قد انذر اليهود المتفرّقين في فنطوس وغلاطية وقفادوقيا واسيا وبيثنيَّة[1] . وهم الذين باسمهم كتب رسالتهُ الاولى * وبعث ببعض من تلاميذهِ الى بلاد المغرب . فنصبوا في كثير من تلك البلاد كنائس *

واَمَّا مار بولس فكان في الاوّل عدوّ الكنيسة ويضطهد المسيحيّين . حتَّى اذا كان يوماً في سفرٍ من اورشليم الى دمشق بقصد ان يذهب برسائل عدوان في حقّ النصارى . اشرق عليهِ نور من السمآء . ورأى يسوع المسيح . فخاطبهُ والهمهُ وحرّك قلبهُ . فمال الى الايمان وصار رسولاً عظيماً . وكان اكثر إنذارهِ اللاميّين * وذهب الى سلوقيه وسَلَمِينا وبافوس . ودعا الى الايمان سرجيوس بولوس

الأصنام الخارجين عن امَّة اليهود *

(١) هذه البلاد كانت من اقسام اسيا الصغرى وهي التي تسمّى الان اناضول *

فلمّا سمع الناس هذا النبأ. تراكضوا الى الهيكل ، فطفق بطرس يخطبهم ثانيةً . واقنع منهم خمسة آلاف بان يومنوا * فلمّا راى حارس الهيكل وكهنة اليهود العجائب التي كانت تجري على يد الرسل من انضواء القوم اليهم والتلبية لدعوتهم . اشتعلوا عليهم غضباً . وبعثوا فقبضوا عليهم . ورموهم في السجن * وفي الغد جمعوا السِنهدريم(١) اي محفل القضاء . فاوقفوا الرسل وقالوا لهم : بايّ قوّة تصنعون هذه الاشياء * فامتلأ بطرس من روح القدس . واجاب قائلاً : باسم يسوع المسيح الذي انتم صلبتموهُ * فلمّا راى اهل المحفل ثبات الرسل اخذتهم الحيرة . لانهم كانوا يعلمون أنّهم اميّون * فامروهم أنْ لا ينذروا باسم يسوع * فقال لهم الرسل : احكموا انتم . أَإِيّاكم يجب أنْ نطيع ام الله ، إنّنا لا نقدر أنْ لا نتكلّم بما راينا وسمعنا . وقد امرنا الله باجهارهِ * ثمَّ إنّهم اطلقوهم * فلمّا جاءَ الرسل الى المومنين . اخبروهم بما صار ، فشكروا الله . وسألوهُ قوّةً وحولاً للتبشير بحقّهِ بلا خوف من نهي البشر وتهدّداتهم *

وكان المومنون يجتمعون الى رواق سليمان . ويصلّون * وباقي الامّة كانوا يخافون ان ينضمّوا اليهم خوفاً من الحكّام . غير أنّهم

(١) اعلم انّ السنهدريم كان مولّفاً من سبعين رجلاً من وجوه ملّة اليهود . وفيهم واحد منهم مقدّم او رئيس على المجلس * وكان هذا المحفل يقضي الدعاوي العظيمة بلا مردّ . ويدبّر كلّ ما يخصّ الدين . ويفسّر الشريعة *

لم يقدروا ان يمتنعوا عن اكرامهم ومدحهم لنظرهم ما كانوا يصنعون من الكرامات كلّ حين * وكانوا يضعون المرضى في الازقّة حيث يمرّ بطرس. فاذا اصابهم ظلّهُ شفاهم *

فاحتدّ من ذلك عظيم الكهنة غضباً. والقى الرسل في السجن ثانيةً. ولكن خلّصهم ملاك. وامرهم أَنْ ينطلقوا الى الهيكل. ويكرزوا بكلمة الله بلا خوف * ثمّ بعث اهل المحفل وامروا أَنْ يُوتَى بهم من السجن. فالتمسوهم ولم يجدوهم هناك مع أَنَّ الأَبواب كانت مغلقة بإِحكام. ثمّ أُخبر الروساء بانَّ هولآءِ المعلّمين هم في الهيكل وهم يعظون الناس * فانطلق قائد جيش الى الهيكل. واتى بالرسل بلا عنف لخوفهِ من الجماعة * فلمّا مثلوا بين يدي اهل المجلس. قالوا لهم: أَلم ننهكم أَنْ تكرزوا باسم يسوع. فلِمَ ملأْتم اورشليم من تعليمكم. وتريدون ان تحمّلونا دم هذا الرجل * قال بطرس والرسل: من الواجب أَنْ يطاع الله اكثر من الناس. واذا اختلفت شريعة الناس وشريعة الله. يجب التمسُّك بشريعة الله وترك شريعة الناس * يا لجواب العجيب الكريميّ. وبمثل هذا الجواب اجاب ايضاً الشهدآء عند ما كان الحكّام يامرونهم أَنْ يفعلوا ما نهى الله عنهُ او ينهونهم عمَّا امر الله بهِ * فلمّا سمع اهل المحفل جواب الرسل. استشاطوا غضباً. وفكروا أَنْ يبيدوهم. فقام رجل منهم ذو رأيٍ سديد. اسمهُ غملايل. وقال لهم: انْ كانت

الباب الاوّل

يحوي اخبار الكنيسة الى انقضآء الاضطهادات

الفصل الاول

في انذار الرسل

بعد ما عرج المسيح الى السمآء . رجع الرسل الى اورشليم ، واجتمعوا في عليّة صهيون حسبما كان معلّمهم قد امرهم. ولبثوا هناك مختلين منفردين. ليستعدّوا بالصلوة والصوم لحلول روح القدس عليهم كما قد وُعدوا * فلمّا كان اليوم العاشر. وكان ذلك اليوم عيد الفنطقسطي اي اليوم الخمسينيّ من الفصح . جآء روح القدس وحلَّ حلولاً منظورًا على واحد واحد منهم . وصيّرهم اناسًا جددًا * فنال الرسل بذلك قوّةً الاهيّة وحرارة نار سماويّة . وجعلوا يتكلّمون بلغات كثيرة مختلفة ويعظّمون الله ويسبّحونهُ * وكان الخلق قد تجمّعوا من كلّ النواحي الى مدينة القدس ليعيّدوا عيد الفنطقسطي . وكانوا في تلك السنة كثيرين . قدموا من جميع نواحي الارض اكثر من كلّ سنة . لاعتقادهم العامّ في بلاد المشرق كلّها حينئذ أنَّ

المسيح قريب المجيء الى العالم * فهؤلاء الأقوام الغفيرون المتقاطرون من كلّ الامم لمّا راوا الرسل يتكلّمون باصناف اللغات. تعجبوا واخذتهم الحيرة والدهشة * فقال لهم بطرس الرسول: إنّ ما ترونهُ وتعجبون منهُ انمّا هو إتمام ما تنبّأهُ يوال النبيّ[1] اذ قال: ويكون بعد هذه أنّي افيض روحي على كلّ بشرٍ. فيتنبّأ بنوكم وبناتكم * ثمّ انذرهم بطرس بدعوة يسوع الذي كانوا قد صلبوهُ. وبيّن لهم أنّهُ هو المسيح الذين انتظرهُ آباؤهم منذ القديم * ثمّ دعاهم الى ان يعتمدوا باسمهِ. لينالوا غفران خطاياهم وموهبة روح القدس * وفي ذلك اليوم آمن منهم ثلاثة آلاف نفس. وهكذا زاد عدد التلاميذ * وكانوا مواظبين على سماع تعليم الرسل. ومتمسّكين بوصاياهم * وصنع الله كرامات وآيات كثيرة لتأييد انذار الرسل. حتّى كانت الجماعة تبهت وتخشع * ومن ذلك أنّ بطرس ويوحنّا صعدا الى الهيكل في وقت القربان. فوجدوا على باب الهيكل رجلاً اعرج من بطن امّهِ. عمرهُ اربعون سنة * فهذا لمّا راى الرسولين. سالهما صدقة كعادتهِ * فقال لهُ بطرس: ليس لي ذهبٌ ولا فضّة. اعطيك ما عندي. قم باسم يسوع المسيح وامشِ * فبرئ الاعرج لساعتهِ. واخذ يمشي. ودخل الهيكل طائرًا من فرحهِ ومسبّحًا لله *

---

(١) يوال هو ثاني الانبياء الصغار وهم اثنا عشر. قيل انهُ تنبّأ في ايّام يوشيا الملك نحو سنة ٦٢٦ قبل المسيح. وعاصر ارمياء النبيّ *

من بُعد في الامور المزمعة نظرًا جليًّا * وممَّا يقوّي ايماننا امران .
الاعاجيب التي اقترحها المسيح بحضور الرسل وخلق كثير . وصحّة
نبوّاتهِ ووعودهِ * امَّا الرسل فلم يروا من هذين الشيئين الَّا الاوّل .
ونحن لا نرى الَّا الثاني . غير أنَّهُ كما لم يمكنهم تكذيب نبوَّات
من كانوا يرونهُ يعمل تلك الآيات الباهرة . كذلك نحن لا
يمكننا أَنْ ننكر على من صحَّت هكذا نبوَّاتهُ ووعودهُ أنَّهُ كان قادرًا
ان يصنع اعظم العجائب * قال مار اوغسطينس : وهكذا يتأيَّد
ايماننا من جهتين . ولا يسوغ الارتياب للرسل ولا لنا . امَّا هم فراوا
الينبوع . وفهموا منهُ باقي المجرى كلَّهُ . وامَّا نحن فنرى المجرى . ونفهم
منهُ حقيقة ما راوهُ وتعجَّبوا منهُ في الينبوع . انتهى * قال بصّوه :
وهكذا ترى أَنْ ليس لكنيسة المسيح فضلٌ واحدٌ فقط . وهي أنَّها
وحدها نشأَت ببديع العجائب والالهيَّات التي كُتبت كتابةً
علويَّة من غير خوف التكذيب في الزمان الذي فيهِ جرت . بل
فيها للّذين لم يروا تلك العجائب اعجوبةٌ جليلةٌ دائمةٌ توكّد
صحّة تلك العجائب الاخر . وهذا هو دوام تغلّب الديانة على كلّ
الحِيَل التي أُعملت في افنائها . انتهى ما نُقل من كلام بصّوه * يا ما
احلى لابناء الله أَنْ ينظروا أنَّهُ يُرتقى بلا انقطاع من بيوس التاسع
الذي هو جالس اليوم في اوّل كرسيّ من كراسيّ الكنيسة الى
بطرس الرسول الذي اقامهُ المسيح رئيسًا على رسلهِ . ومن هناك

بالأَخذ من الأَحبار الذين خدموا في عهد الناموس يُنتَهى الى هارون وموسى. ومن هناك الى الآبآء. ثمَّ الى منشأ العالم * يا للتتابع. ويا للتواتر. ويا للسلسلة العجيبة * فانْ كان عقلنا الذي من طبعهِ يرتاب ويقع في التيه والحيرة يحتاج الى مَن يهديهِ ويضبطهُ في امر الخلاص. فهل يوجد بذلك احرى من الكنيسة القاثليقيَّة التي تحوي كلّ سلطنة الاجيال الماضية والمعارف القديمة التي تواترها الجنس البشريّ منذ اصزلهِ. وتبرهن على حقيقتها بوجودها وبقائها. وتظهر بدوامها الابديّ رسم اليد الالهيَّة *



حراسة الربّ لها ۰ لانّ سلطنة رعاتها لم يقع فيها خلل ابدًا . وتعليمها بقي دائمًا طاهرًا موجبًا لحسن الآداب وقدس السيرة . وشريعتها لبثت حقّانيةّ . وكرازتها لم يَشُبها اعوجاج * ولم تزل تناقض الاثم وفساد السيرة بقواعد الانجيل القدسيةَّ . وتزيّن المسيحيّين بحلى الكمال . فكانوا بطهارتهم وقداستهم يردعون السيّئات . ويقهرون الرذائل كلّها . ويلمعون في العالم بانوار الفضائل اجمع * فهذه الغلبة التي بها الكنيسة انتصرت دائمًا بلا انقطاع على سلاطين الدنيا وعلى الملحدين وعلى الرذائل هي من اعجب آيات القدرة الربّانيةّ ۰ وترى اندفعت الانهار . وهبّت الرياح . وصدمت هذهِ القلعة المنيعة ۰ فلم تسقط . لانهّا مبنيةّ على الصخرة التي هي يسوع المسيح وعلى وعدهِ الصادق * فيا ما اجمل ويا ما اجلّ ويا ما اوقر هذهِ البيعة . التي في منشأها وفي بقاها تظهر علامات الحول الالهيّ * وايّ شيء اعجب من جماعة بشرٍ لم تتقلّب في مدى الدهور مع تقلّب كلّ ما في الدنيا ۰ وحيث كلّ شيء حولها يزول . وكلّ شيء يفنى . فهي تبقى ثابتة غير متزعزعة كصخرة في وسط الأمواج . لا تزال واحدةَ مقدَّسةَ جامعةَ رسليّةَ . اي تحفظ على الدوام كلّ علاماتها وكلّ حججها بين كثرة الزوابع والهجمات القويّة * وفي هذا كلّهِ قد صحّ قول بانيها الالهيّ : قد أُعطيتُ كلّ سلطان . . . فاذهبوا وعلّموا جميع الامم . . . وها انا معكم كلّ الايّام والى انقضاء الدهور *

وناهيك أنّهُ لم يكفِ لسند الكنيسة وتوقيفها وصيانتها من الانقلاب الذي هو شان كلّ ما على الارض الاَّ قدرة سماويّة . ولم يكفِ لاقامة بناءٍ لا ينهدم ولا يتخلخل ولا يتزعزع مهما ضربتهُ الصوادم الاَّ يدٌ الاهيَّة . حتى انَّهُ كلّما قويت عليهِ الهجمات اشتدَّ قوَّةً وثباتًا * قال بَصْوَه العلّامة الشهير : قد بانت الوهيَّة المسيح خصوصًا في النبوَّة التي تنبّأها عن الكنيسة بانَّها لاتزال تُجفَى بعدوان حكّام الدنيا واضاليل الملحدين وخروج المشاقّين الذين يظهرون فيها كلّ حين وقلّة المحبَّة الموجبة رخاوة السيرة . وفي الوعد الذي وعدهُ مع هذا بانَّها مهما اشتدَّت عليها هذه النكبات لا تقوى ان تمنعها من ان تحيا دائمًا ويكون لها رعاةٌ دائمًا يتداولون الواحد بعد الآخر من يدٍ الى يدٍ سلطنة المسيح ومع هذهِ السلطنة التعليم الطاهر والأسرار القدسيّة * وترى اهل الشيع البشريَّة لم يقدر احد منهم أنْ يقول ماذا يجري من امرهِ ولا ماذا يجرى من امر شيعتهِ التي انشأها . ولكن يسوع المسيح وحدهُ صرَّح عن حوادث آلامهِ وموتهِ وعن حروب كنيستهِ وغلباتها * وقد قال لرسلهِ : انما انا اقمتكم لتذهبوا وتحملوا ثمرةً . وتدوم ثمرتكم * وكم تدوم : قد بيّن ذلك جليًا . واخبر واضحًا أنَّها تدوم دوام العالم بلا انقطاع ولا نهاية * وقد سلّم هذا العمل العظيم بايدي اثني عشر صيَّادًا . وفي هذا يوجد ختم صدق قولهِ . وهو ايضًا يوطّد ايماننا بالامور السابقة اذ نرى أنّهُ قد نظر هكذا

مقدّمة المولّف

انّ الكنيسة او البيعة جماعة الّفها يسوع المسيح على الارض. لتلد ابناءَ الله ميلاداً روحانيًّا. وتربّي في الفضائل والقداسة المدعوّين الى نعيم الملكوت السماويّ * ولمّا كان قضاءَ هذا الغرض يعمّ جميع الدهور. وجب ان تكون الكنيسة موجودة على الدوام ولا تزول الى انقضاءَ العالمين. وان تكون معروفةً للجميع منظورةً ظاهرةً في ايمانها وتعليمها. وان لا تخلو ابدًا من اناس فاضلين قدّيسين وتلازمها خلّة الحبّ الالهيّ * قال مار برنردس: انّ جيل المسيحيّين لا يمكن ان ينقطع نسلهُ ساعةً من الزمان ولا الايمان من الارض ولا الحبّ الالهيّ من الكنيسة. لانّ المسيح قد قدّس جميع الدهور. انتهى * غير انّهُ قد سبقت على الكنيسة نبوّات شتّى بانّ عظماءَ الارض يضطهدونها. والملحدين والمبدعين يوذونها. وتُرتكب في داخلها الشرور العظيمة. والزوان ينبت فيها مع القمح *

وهذه الاسباب كلّها التي تجمّعت على الكنيسة لولا يدٌ سماويّةٌ علويّة تسندها. لكان من شانها انْ تعدمها وتمحو ذكرها * ولذلك قد وعدها منشئها الالهيّ بان يمكث معها كلّ الايّام. اي ان

يهديها ويحميها وينصرها بلا انقطاع الى انقضاء الدهور * فالكنيسة كما نشأت بالآيات. قامت بالمعجزات. ودامت بالقدرة الالهيَّة. لانَّ الله نصرها على كلّ الموانع التي بها تعرَّض اهل الارض لسلامتها في كلّ زمان * فلولا الحماية الالهيَّة. لهلكت بسيف المضطهدين الذين عملوا كلّ جهدهم ليخنقوها في مبادئها مدَّة ثلاثة قرون. ولكنَّ هذه الاضطهادات لم يمكنها ان تنكيها. لا بل زادتها كثرةً واتّساعًا * لانَّ الله عزَّ وجلّ كان يلهم كثيرين من المسيحيّين ان يقتحموا العذابات بما يفوق الطاقة البشريَّة من البسالة والشجاعة والصبر والحماسة. حتى انَّ معذّبيهم كانوا من تعجّبهم يستحسنون الديانة المسيحيَّة ويومنون بها * ثمَّ قامت ايضًا على الكنيسة الهراطقة والمبتدعون. الذين خالفوا واحدًا واحدًا من عقود الايمان. ولكنَّ صنائعهم مع مساعدة الحكّام والملوك لهم لم تضعف قوَّة الايمان. بل نفعت لتوضيحهِ وتثبيتهِ وتوطيدهِ * لانَّ الله اقام كثيرين من المعلّمين. فاخزوا كلّ واحدة من الهرطقات اوَّل ما ظهرت. ويسّر سبحانهُ الظروف للمجامع ومهَّد لها الطرق السهلة. فحرَّمت البدع تحريمًا احتفاليًّا. وقوَّمت أبواب المعتقد بقضايا شرعيَّة وعبارات مصرّحة ترفع كلّ ريب وتدفع كلّ تحايل * ثمَّ إنَّ الكنيسة ربَّما اصيبت بخالل وزيغان وقع بين اولادها احيانًا. واحدث في وسطها عيوبًا وفسادًا كثيرًا. وكان يذهب بها الى العطب. لولا

فاتحة

الحمد لله الذي بعث ابنهُ الحبيب الى الارض ليقيم جماعةً خاصّةً له اودعها مقاليد الحقّ والفرض اما بعد فيقول مستخرج هذا المختصر: هذا ملخّص من اشهر ما كُتب في تواريخ الكنيسة احببتُ نقلهُ الى اللغة العربيّة لينتفع بهِ المتكلمون بهذه اللغة من عامّة وخاصّة . ولاسيّما صبيان المدارس الذين من اجلهم صنّف المؤلّف المذكور هذا مختصر تواريخ الكنيسة ومختصرات اخرى في التواريخ وغير ذلك من العلوم الابتدائيّة * وقد تمسّكتُ بنصّ المؤلّف بكلّ جهدي. ولم ازغ عنهُ الّا حيث رايتهُ قد ذهب الى مواضع تهمّ فقط القوم الذين لهم كتب في الاصل كتابهُ دون اهل بلاد المشرق . واستعضتُ عن ذلك بزوائد وفوائد جمعتها من تواريخ بلادنا المشرقيّة ينبغي معرفتها لاهلها * وهذه الزوائد قد علّمتها بهذه العلامة [ ] لتتميّز من متن المؤلّف الفرنساوي * وبالله عوني اوّلاً وآخرًا *

IMPRIMATUR

† Fr. Nicolaus CASTELLS

Ordinis Minorum S. Francisci Capuccinorum

Archiepiscopus Marcianopolitanus

et Delegatus Apostolicus

كتاب

مختصر تواريخ الكنيسة

تاليف المعلّم لومون الفرنساويّ

استخرجهُ

حديثًا من اللغة الفرنساويّة الى العربيّة

الخوري يوسف داود

وذيّلهُ بفوائد شتّى



في الموصل

بمطبعة الآباءِ الدومنكيّين

سنة ١٨٧٣

K_1322

HISTOIRE

ABRÉGÉE

DE L'EGLISE CATHOLIQUE

PAR

LHOMOND

TRADUITE DU FRANÇAIS ET AUGMENTÉE

PAR

JOSEPH DAVID

CHORÊVÊQUE SYRIEN A MOSSOUL

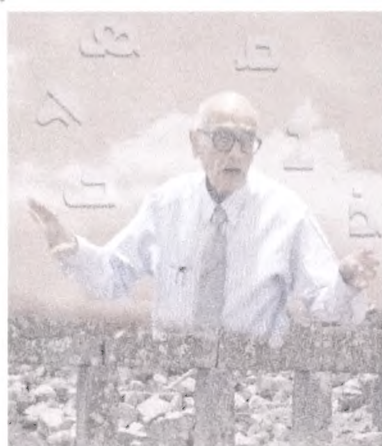
Edition Stéréotypée



MOSSOUL

IMPRIMERIE DES PÈRES DOMINICAINS

1873



Beth Mardutho Library

Malphono Abrohom Nuro Collection